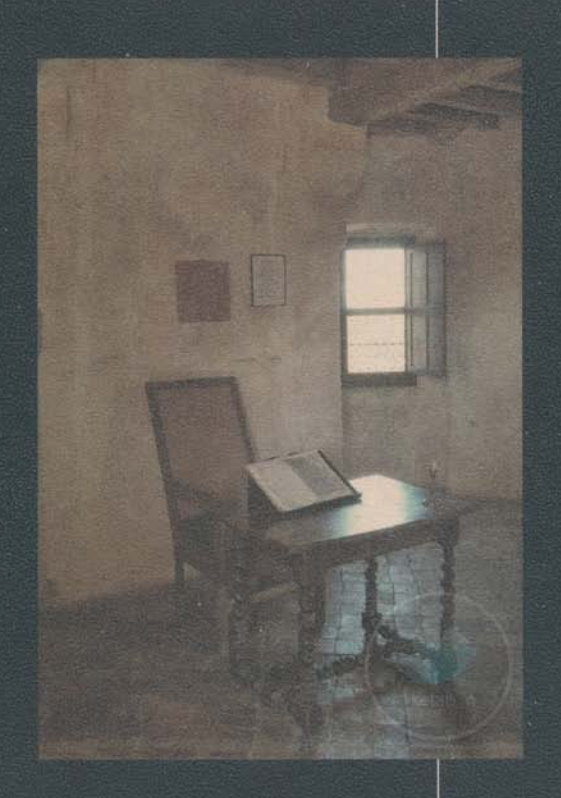
المقالات

الكتاب الثالث

12.2.2022



مشيل دو مونتيني

ترجمة: فريد الزاهي



المقالات

الكتاب الثالث


MANA.NET

المقالات

الكتاب الثالث

تأليف: مشيل دو مونتيني

ترجمة: فريد الزاهي

الطبعة الأولى: 2021

ISBN: 978-603-91637-1-8

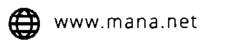
رقم الإيداع: 1443/952

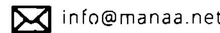
هذا الكتاب ترجمة لـ:

Michel de Montaigne,
Essais
Traduction en français moderne
de texte de l'édition de 1595 par Guy Pernon Michel de Montaigne,



الناشـر:
دار معنى للنشر و التوزيع







المحتويات

الفصل الأول

في ما هو مُجدٍ وما هو نزيهٌ

1. لا أحد مُعفًى من التفوُّه بالترَّهات، فالأمر الجسيم هو أن يتفوه بها المرء بشكلٍ جدِّيّ.

«ها هو امرؤٌ سيقوم بمجهودٍ كبيرٍ
كي يقول لي تُرَّهاتٍ هائلةً»[1].

وذلك أمرٌ ليس من شأني، إذ إني أترك تُرَّهاتي تنفلت مني بما لها وما عليها، وهو أمر يلائمها. قد أتخلى عنها فورًا من غير أن أخسر شيئًا، وقد لا أبيعها وأشتريها لِما لها من وزنٍ. فأنا أتحدث على الورق كما أتحدث لأول من يصادفني، وأن يكون ذلك صحيحًا، فالدليل أمام أعينكم.

2. أليس الغدر أمرًا مكروهًا جدًا بحيث إن تيبيريوس*[2] رفضه قائمًا بذلك بتضحيةٍ كبرى، فلقد أُعلم من الأراضي الألمانية أن بالإمكان تخليصه من أرمينيوس*[3] بتسميمه إذا هو رغب في ذلك-كان هذا الأخير أقوى خَصْمٍ للرومان، وحين كانوا تحت إمْرة فاروس*[4] تعامل معهم بإهانةٍ كبرى، هو وحده كان يقف عائقًا في وجه توسُّع الهيمنة الرومانية في تلك البُلْدَان -أجاب تيبيريوس أن الشعب الرومانيَّ معتادٌ على الثأر من أعدائه جهارًا، وسلاحه في يده، لا خُفية وفي ولا السرِّ، وهكذا طرح جانبًا ما هو مفيدٌ من أجل النزاهة.

3. ستقولون لي إنه كان شخصًا مُدَّعيًا ودجَّالًا، وأنا أصدِّق هذا: فذلك أمرٌ ليس غريبًا على الناس الذين يمتهنون مهنته، بيْد أن الاعتراف بالفضيلة يكون له فحوًى في كلام من يمقتها، فالحقيقة تنتزعها منه انتزاعًا، وإذا لم يرغب في أن يقبلها طواعيةً فهو على الأقل يتلفَّع بها كما بغطاءٍ.

---

(1) Térence, **Heautontimorumenos**, III, 5.

(2) * هو الإمبراطور الروماني تيبيريوس (42 ق.م - 37 م) ثاني أباطرة الرومان، والذي شن حملات على القبائل الجرمانية، لضم أراضي جرمانيا للإمبراطورية الرومانية.

(3) * أرمينيوس أو هيرمان (17/18 ق.م - 21 م) ضابط روماني وزعيم قبيلة الشيروسكيين الجرمانية وكان من أبرز خصوم روما.

(4) * هو القائد العسكري الروماني بوبليوس كوينكتيليوس فاروس (توفي 9 م).

لا شيْء غير مجْدٍ

4. إن تنظيمنا العموميَّ والخاصَّ مليءٌ بالشوائب، لكن ليس ثمة في الطبيعة شيءٌ لا يكون مُجديًاحتى اللاجدْوى نفسها، لا شيء استقر في هذا الكون من غير أن يحتل فيه مكانًا ملائمًا؛ فجُماع وجودنا ملحومٌ باستعداداتٍ مَرضيةٍ فينا، والطموح، والحسد، والغبطة، والانتقام، والتطيُّر، واليأس خصالٌ قائمةٌ فينا بشكلٍ فطريٍّ بحيث إننا نجد نظيرًا لها لدى الحيوان. أما القساوة فهي ليست فطريةً، لكننا في قلب الشفقة نَحِسُ في بواطننا بنزوةٍ مرَّةٍ ولطيفةٍ في الآن نفسه من المتعة الشريرة في أن نرى الغير يتعذَّب، والأطفال أنفسهم يكون لديهم ذلك الإحساس.

«خلال العاصفة، حين تتلاعب الرياح بالأمواج
كم هو لطيفٌ أن يشاهد المرء من الشطِّ مِحَنَ الآخرين»[1].

5. إذا اقتلعنا من الإنسان بذور أنواع السلوك هذه، سنحطِّم في الآن نفسه الشروط الأساسيَّة لحياتنا، وذلك ينسحب على كافة المجتمعات، فثمة وظائفُ ضروريةٌ ليست فقط دنيئةً؛ وإنما لها طابع الرذيلة،والرذائل تجد لها مكانًا فيه وتلعب دورها كي تلحم بين المجموع، كما أن السموم تُستعمل للحفاظ على صحتنا، فإذا ما هي صارت مغفورةً لأننا بحاجةٍ لها؛ ولأن المصلحة العامة تخفِّفُ من طبيعتها الحقَّة، علينا أن نترك المسؤولية فيها للمواطنين الأكثر صلابةً والأقل خوْفًا، الذين يضحُّون من أجلها بشرفهم وضميرهم، كما ضحى آخرون في الماضي بحياتهم من أجل خلاص بلدهم. أما نحن، الأضعف فلنلعبْ أدوارًا أسْهل وأقلَّ خطرًا؛ إذ المصلحة العامة تنتظر من الناس الخيانة والكذب والتنكيل؛لذا لنتركْ تلك المهام لأناسٍ أكثر طاعةً وأشدَّ مرونةً.

6. صحيحٌ أني أحسست بالغضب مرارًا وأنا أرى قضاةً يستعملون الحيلة والوعود الكاذبة بتخفيف العقوبة أو العفْو للمجرم كي يستدرجوه إلى الاعتراف بصَنيعه، ويستعملون لغاية ذلك الخداع والوقاحة. سيكون

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, 1.

على العدالة-كما على أفلاطون الذي يتفق مع هذا الموقف- أن تقدم لي وسائل أخرى أكثر ملاءمةً لما أنا عليه. إنها عدالةٌ سيئةٌ، وأنا أعتبر أنها لا يجرحها الآخرون بقدْر ما تجرح نفسها بنفسها. ولقد أجبتُ من وقتٍ غير بعيدٍ أني لن أكون قادرًا على خيانة الأمير لصالح شخصٍ ما، أنا الذي سيحزن حزنًا شديدًا لو خنتُ شخصًا ما من أجل الأمير. وإني لا أكره فقط خداع شخصٍ ما، بل أكره أيضًا أن يخطئ المرء في حقي؛ إذ إني لا أريد بالأخص أن أمنح لأي أحدٍ الفرصة والذريعةَ لذلك.

7. في الأشياء القليلة التي كان لي أن أفاوض بشأنها أمراءنا، في خضمِّ هذه الانشقاقات والانقسامات الفرعية التي تُمزّقنا اليوم، كنت أتفادى بعنايةٍ أن يُساء فهمي ويُنخدعَ بمظهري، فأناس المهنة يحمون أنفسهم ما أمكنهم ذلك، ويسعون لأن يبْدوا أقسطَ وأفهمَ من الآخرين ما أمكنهم ذلك. أما أنا فأكشف عن نفسي بآرائي الأشدّ حسمًا وطريقة حياتي الأكثر شخصيةً، ولما دمت مفاوضًا غضًّا وجديدًا، فإنني أفضِّلُ أن أفشل في مهمتي على أن أفشل في الحفاظ على نفسي، ولقد حالفني الحظ بالنجاح مع ذلك بشكلٍ باهرٍ في هذا المضمار -بالرغم من أن الحظ كان له في ذلك حصة الأسد- بحيث إن القليلين فقط هم الذين انتقلوا من حزبٍ إلى آخر بالقليل من الشك وبالكثير من الفضْل والألفة.

8. وإنَّ لي تصرُّفًا منفتحًا يمكُّنني بسهولةٍ من أتخلَّل مجموعةً من الأشخاص، وأن أحظى منهم بالثقة من الوهلة الأولى؛ فالصراحة والأصالة في أيِّ عصرٍ تظل مرغوبًا فيها وتجد بسهولةٍ مكانها. وحرية الذين يعملون من غير غرضٍ للربح لا تثير الشبهات ويتمُّ قَبولها بحفاوةٍ؛ فهؤلاء يمكنهم أن يتبنُّوا جواب هيبيريديس*[1] للأثينيين الذين كانوا يشتكون من صعوبة لغته: «أيها السادة، لا تسألوا إن كنتُ حرًّا، وإنما إن كنتُ حرًّا من غير أن أنتظر من وراء ذلك جزاءً، ولا أن أنتفع منه في شؤوني الخاصة». لقد حررتْني حريتي بقوتها أيضًا من همِّ الرِّياء -فأنا لم أخْفِ شيئًا أبدًا عن الآخرين مهما كان سيئًا ومُضنيًا، وفي غيابهم لم أكن لِأُفصح عن أسوأ من ذلك- لكنها أيضًا لأنها حريةٌ تفصح عن الكثير من العفوية وعدم

(1) * هيبيريديس (390 ق.م تقريبًا – 322 ق.م) خطيب إغريقي، وكاتب مرافعات (عرضحالجي).

الاهتمام بالمصلحة الشخصية، فأنا حين أقوم بالفعل لا أتوق لشيءٍ غير الفعل، ولا أربط بذلك مشاريع آجلةً، وكل عملٍ يلعب دوره الخاص، وله أن يبلغ المَرام إذا هو استطاع ذلك.

9. زدْ على ذلك أني لا أحس بأي حماسة لا مقْتًا ولا عطْفًا- إزاء الناس العظام في هذا العالم، وإرادتي لا تنفلُّ بالإهانات التي قد يكونوا مارسوها عليَّ، بقدْر ما ليس لي من واجباتٍ خاصةٍ تجاههم. فأنا أكنُّ التقدير لملوكنا وأحس نحوهم بعاطفة وفاءٍ واحترامٍ، وليس وراء ذلك أي مصلحةٍ شخصيةٍ، وهو ما أُثني على نفسي فيه، وإنّي لا أهتم بقضيةٍ عامةٍ وعادلةٍ إلا باعتدالٍ ومن غير حماسة زائدة، ولا أخضع لأي التزامٍ عميقٍ قد أرهَن به وجودي الحميم. الغضب والحقد يُجاوزان واجب العدل؛إذ هما من قَبيل الأهواء التي تكون مفيدةً فقط لأولئك الذين لا يكون العقل لديهم كافيًا لكي يربطهم بالواجب. «**فليلجأْ لصخب النفس من لا يستطيع استعمال العقل**»[1]. كل النوايا المشروعة معتدلةٌ بذاتها، وإلا فإنها تفسُدُ وتغدو دعوةً للانشقاق واللاشرعية؛ ذلك هو ما يجعلني أمشي في كل مكانٍ، مرفوع الهامة والوجهُ والقلبُ مُشْرعان.

10. والحقيقة -وهو ما لا أخشى من الاعتراف به- يمكنني أن أحمل المشعل مع القديس ميشيل وآخر مع ثعبانه، حسب حيلة العجوز[2]، سأتَّبع الحزب الحَسن حتى النار، فقط لو أني استطعت ذلك[3]. ولو كان الأمر ضروريًا، فلْيُبَدْ بيت مونتيني وليجْرفْه الخرابُ العام؛ لكن إذا لم يكن ذلك ضروريًّا، سأشكر الصدفة على أن يَسْلم من ذلك. وطالما ترك لي واجبي بعضًا من الحرية، سأستخدمها في الحفاظ عليه. فأتّيكوس*[4]، حين اختار الطرف العادل، مع أنه كان الطرف المهزوم، ألم يخلِّص

---

(1) Cicéron, **Tusculanes**, IV, 25.

(2) الإشارة هنا إلى حكايةٍ شعبيةٍ تنذر فيها امرأةٌ عجوزٌ شمعةً للقديس ميشيل وأخرى للتنين الذي أردى قتيلًا، وهي طريقةٌ مصورةٌ لأنها لم تكن تريد أن تنحاز لا للقديس ولا للتنين.

(3) علينا التذكير أن عبارة «حتى النار» لم تكن مجرّد صورةٍ بلاغيةٍ، فعلى سبيل المثال لا الحصر، قُتل جيوردانو برونو حرقًا بروما عام 1600.

(4) * هو تيتوس بومبونيوس أتيكوس (109 ق.م – 32 ق.م) هو كاتب وثري روماني جمعته صداقة وطيدة بالسياسي والأديب الروماني شيشرون.

نفسه باعتداله من ذلك الخراب الكونيّ، وسط تلك الفتن والانقسامات الكثيرة؟ وهو أمرٌ يكون أسهل على الأشخاص الذي يمارسون عملهم بشكلٍ شخصيّ، كما كان حاله. وأنا أعتبر أن الأمر حين يتعلق بالشؤون الشخصية، يكون مشروعًا لنا ألا نتدخَّل وألا ننخرط في ذلك. لكن، أن يظل المرء متردِّدًا وحائرًا بين الطرفين، وأن يظل غير مبالٍ لا يميل إلى أي طرفٍ منهما وسط الاضطرابات الهائلة التي تمزق البلاد، فذلك مالا أعتبر هشيئًا حسنًا ولا مشرِّفًا. «ليس الأمر اختيار الطريق الأوسط، بل عدم أخْذ أي طريقٍ؛ إنه انتظار الحدث للميل للطرف الأمثل»[1].

الالتزام الشخصي

11. ذلك أمرٌ مسموحٌ به في الشؤون بين الجيران، فجيلونوس طاغية سيراقوسة لم يحسم في ميوله في حرب البرابرة ضد اليونانيين، فلقد حافظ في ديلْفوي على سفارةٍ مجهزةٍ بالعطايا؛ حتى تكون له حارسًا، فيرى بها لأي طرفٍ ستميل كفة الحرب، ويستغل الفرصة ويقيم معاهدةً مع المنتصرين فيها، لكن ذلك القرار سيكون ضربًا من الخيانة في شؤوننا الداخلية، التي يلزمنا بالضرورة أن نكون متحيِّزين فيها لهذا الطرف أو ذاك، وأنا أعتبر عدم التزام شخصٍ ليس له لا مهمةٌ ولا قيادةٌ تفرض عليه ذلك أمراً قابلًا للغفران أكثر خلال الحروب ضد الأجانب مع أني لا أستعمل هذا العذْر لنفسي)، بالرغم من أن قوانيننا تنصُّ على ألا يشارك في ذلك إلا من يريد المشاركة. لكن، حتى من ينخرطون في الحرب، بإمكانهم القيام بذلك بطريقةٍ منظَّمةٍ ومعتدلةٍ بحيث إن العاصفة ستمر فوق رؤوسهم من غير أن يُعانوا منها. ألم نكنْ على حقٍّ في تمنِّي ذلك في حال الراحل السيد دو مورفيلي*[2]أسقف مدينة أورليون؟ وأنا أعرف من بين أولئك الذين هم اليوم منخرطون بحماسة في الحرب أشخاصًا ذوي سلوكٍ متزِّنٍ ولطيفٍ، بحيث إن لهم كل الحظوظ في البقاء على قيد الحياة، مهما كانت قوة الخراب الذي

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXII, 21.

(2) * هو جون دو مورفيلييه (1506 م – 1577م) أسقف وسفير فرنسي في البندقية، وحامل أختام الملك شارل التاسع، وزير العدل في فرنسا عام 1568م، ثم سفير في مدينة البندقية. وقد كان معتدلًا إزاء البرتستانتيين.

يهيئه لنا القدَر. أعتقد أن على الملوك أن يقفوا ضد الملوك، وأنا لا أبالي بتلك العقول التي تنطلق بفرحٍ في نزاعاتٍ غير متكافئةٍ. ليس علينا أن ننازع أميرًا إلى درجة الهجوم عليه علنًا وببسالةٍ؛ دفاعًا عن الشرف وللقيام بواجبنا؛ فالأمير إن لم يحبّ هذا الشخص أو ذاك، فهو يقوم بأفْضل من ذلك، إنه يكنُّ له التقدير، وهو أمرٌ في صالح قضية القوانين والدفاع عن الحالة القديمة للدولة، بحيث إن أولئك الذين يهاجمونها يجدون المعاذير لمن يدافعون عنها، هذا إذا لم يقابلوها بالتشريف.

12. لكن علينا ألا نسمي «واجبًا» -كما يحلو لنا القيام بذلك في كل لحظةٍ- النزق والفظاظة الباطنة الناجميْن عن المصلحة الفردية والهوى الشخصيّ؛ بالشكل نفسه الذي لا يلزمنا فيه أن نسمي «شجاعةً»السلوك الخائن والشرّير. فما يسمونه «حماسةً ليس سوى نزوعهم للغدر والعنف؛ إذ ليس السبب هو الذي يثيرهم وإنما مصلحتهم. إنهملا يشعلون فتيل الحرب ويؤجِّجون نارها؛ لأنها حربٌ عادلةٌ، وإنما لأنها حربٌ.

13. لا شيء يمنع رجالًا مُتعادين أن يتصرفوا بشكلٍ عاديّ وبوفاءٍ، فلتبرهنوا على عاطفةٍ إن لم تكن ثابتةً؛ لأنها يمكن أن تكون كذلك بدرجاتٍ، فعلى الأقل معتدلةً لا تورِّطكم بحيث يمكن أن ننتظر منكم كل الشرور، بل اكْتفوا منها بتقديرٍ متوسِّطٍ لفضلها، أي اغطسوا في الماء العكر من غير أن ترغبوا في الصيْد فيه.

14. والطريقة الأخرى التي تتمثل في تكريس الناس لأنفسهم ولبعضهم البعض بكل قوةٍ، تعود للضمير أكثر من الحذر. فحين تخون أحدًا تكون معه في علاقة وئامٍ لصالح شخصٍ آخرَ، ألا يعرف هذا الآخر أنك ستفعل الشيء نفسه معه بعد ذلك؟ إنه يعتبرك رجلًا شريرًا، ومع ذلك فهو ينصت لك ويستخدمك لصالحه ويستغل خيانتك؛ فالناس بالوجهين يكونون مفيدين بما يوفرون للآخرين، لكن من اللازم الحرص على أن يأخذوا القليل الأقل.

الكذب

15. لا أقول شيئًا لأحدٍ لا أستطيع قوله للآخرين حين يحين الوقت لذلك، مُغيِّرًا من نبرتي قليلًا، ولا أخبرهم إلا بالأشياء النافلةالمعروفة سلفًا أو المفيدة لهما معًا. لكن ليس ثمة من شيءٍ مفيدٍ أسمح لنفسي فيه بالكذب عليهم، فما ركنْتُه في صمتي، أكتمه بحرصٍ شديدٍ، غير أني لا أتكلف بحفظ بالأسرار إلا في النادر؛ فالحفاظ على أسرار الأمراء مهمةٌ مزعجةٌ لمن يتحملها، وأنا أقترح لذلك هذه الصّفْقة: «فليُسِرُّوا لي بالقليل، لكن لِيثِقوا في ما أكشف لهم: فأنا أحمل في جَعْبَتي أكثر مما رغبت في معرفته».

16. الحديث بصراحةٍ يدفع الآخر إلى أن يتحدث بالصراحة نفسها، بحيث تسيل كلماته كما يسيل الخمر والحب.

17. حين سأل الملك ليسيماخوس[1] فيليبّيديس[2]: «ما الذي تبتغي أن أمنحك إياه من خيراتي؟»، أجابه بحكمةٍ حسب رأيي: «ما تريد يا سيدي، على ألا يكون ذلك من ضمن أسرارك». لقد لاحظت أن كل واحدٍ يتمرَّد إذا ما أخفي عنه عمق الشؤون التي استُخدم فيها، وإذا ما تم إخفاء النوايا. أما في ما يتعلق بي، فأنا سعيدٌ ألا يُفْصَح لي أكثر مما يُرغب في أن أطبقه، ولا أرغب في أن أعلم ما يُجاوز ما أرغب في قوله، وإذا ما قُدِّر لي أن أكون أداةً للخداع، فليكنْ ذلك على الأقل من غير أن أشعر به؛ فأنا لا أريد أن يجعَل مني رجلًا خادمًا عطوفًا ووفيًّا بحيث أكون صالحًا لخيانة وغد رأيٍ كان؛ فمن يكون غير وفيٍّ لنفسه يكون معذورًا بعدم الوفاء لسيِّده.

القانون والحرية

18. لكن ثمَّة أمراءٌ لا يقبلون بالناس نصْفيًّا، ويكرهون الخِدماتِ المحدودة

(1) ملك تراقيا، وأحد القادة العسكريين الذين خلفوا الإسكندر الأكبر.

(2) ربما تعلق الأمر بممثل إحدى الكوميديات.

المصحوبة بشروطٍ. ليس هناك من حلٍّ آخرَ، فأنا أقول لهم بصراحة الحدود التي أضعها لنفسي؛ ذلك أني لا يمكنني أن أكون عبدًا للعقل، ولا أستطيع ذلك حتى لو رغبْت فيه حقًّا، بل إنهم على خطأٍ في أن يطلبوا من إنسانٍ حرٍ الخنوعَ نفسَه لهم، والواجب ذاته إزاءهم الذي يبديه ذلك الذي يكون قد صنعوه أو اشتروه، أو يكون مصيره مرهونًا بمصيرهم. لقد خلصتني القوانين من همٍّ كبيرٍ إذ إنها اختارت لي حزبًا ومنحتني سيدًا، وكل شيءٍ سامٍ وكل وجوبٍ آخر يكون بالعلاقة مع ذلك ومحدودًا بالضرورة به؛ لهذا ليس من الأكيد -إذا ما أحسستُ بالميل لطرفٍ أو حزبٍ آخرَ- أن أمدَّ له يدي؛ فالإرادة والرغبات تكون سيِّدة نفسها، بيْد أن الأعمال يلزم أن تتلقى القانون من السلطة العمومية.

19. هذه الطرق في التصرف التي هي طُرقي تتلاءم كثيرًا مع عوائدنا؛ إنها ليست منذورةً لكي تترك مفعولًا كبيرًا أو لتدوم طويلًا. فالبراءة نفسها لا تستطيع اليوم أن تتفاوض من غير أسرارٍ، ولا أن تتفاوض من غير كذبٍ؛ لهذا فإن الوظائف العمومية لا تشكِّل هدفًا لي، فما يتطلَّبه منها وضعي الاجتماعي أتحمل مسؤوليته بالطريقة الشخصية الأكثر إمكانًا. حين كنت شابًا كانوا يغمسونني فيها، وهو أمرٌ كان ناجحًا لهم، غير أني أنفلت من ذلك باكرًا[1]، ومن يومها وأنا أتلافى غالبًا الوظيفة العمومية. ونادرًا ما أقبلها، وأبدًا لم أطلبْها، مديرًا الظهر للطموح. فأنا لم أفعل مثل الجدَّافين الذين يتقدمون للوراء، لكني أدين بذلك للحظ أكثر منه لعزيمتي، فثمة مسالك أقل تعارضًا مع ذوقي، وأكثر تلاءمًا مع ممكناتي، من خلالها أعرف إذا ما كان الطموح قد تطلَّبني في ما مضى للخدمة العمومية لتحسين سمعتي في العالم، إنني حينها جاوزتُ تفكيري العقلي الخاص كي أتَّبعَها.

20. أقول لأولئك الذين يعارضون آرائي التي أدافع عنها بصراحةٍ وببساطةٍ وعفويَّةٍ، إن ذلك هو لديَّ بالأحرى اصطناعٌ ولباقةٌ، وحذرٌ أكثر منه طِيبة قلبٍ، ومهارةٌ أكثر منه عفويةً، وحسٌّ حكيمٌ أكثر منه نجاحًا، وأولئك يشرفونني أكثر ما يسيئون إليَّ، لكنهم يجعلون من لباقتي أكثر

(1) في عام 1571 م حين اختلى بنفسه في قصره، بعد أن باع مسؤوليته كمستشارٍ في برلمان بوردو.

دقةً، ومن تبعني وراقبني عن كثَبٍ لا يمكنه أن يغلبني إلا إذا رفِض الاعتراف بشيئين: أن في مدرستهم ليس ثمة قاعدةٌ يمكنها أن تستنسخ هذه الحركة الفطرية التي أملك، وأن تحافظ على الحرية والانطلاق الثابت الذي لا ينفصم في مسالك بالغة التنوُّع والالتواء، ثُمَّ إن كامل اهتمامهم وذكائهم لا يمكنه أن يبلغ بهم تلك المسالك.

الحقيقة هي...

21. طريق الحقيقة واحدٌ وبسيطٌ، هو طريق الفائدة الشخصية والنجاح في الشؤون التي نتحمل مسؤوليتها المزدوجة والسديمية والخطيرة، ولقد رأيت مرارًا هذه الحريات عليلةً ومصطنَعةً، وغالبًا من غير نجاحٍ، وهي تجعلني أفكر في شيءٍ ما في «حمار أيسوبوس»[1]، الذي حين أراد أن يضاهي الكلب ارتمى بقائميْه بفرحٍ على كتف صاحبه، غير أن الكلب بقدر ما كان يتلقى المداعبات لهذه الطريقة في الاحتفاء به، بقدر ما كان الحمار المسكين يتلقى الضربات بالعصا، بل مرتيْن أكثر من ذي قبل. «إن ما يلائمنا أكثر يكون ما هو أكثر فطريةً فينا»[2]. أنا لا أرغب في أن أنتزع الخداع من المكانة التي تعود له، فأنا أعلم أنه قد استعُمل كثيرًا للمصلحة، وأنه يحافظ على الأنشطة البشرية ويغذِّيها. ثمة رذائلُ مشروعةٌ، كما ثمة الكثير من الأعمال الخيِّرة أو المعذورة التي تكون غير مشروعةٍ.

22. العدْل في ذاته -من حيث هو طبيعيٌّ وكونيٌّ- يخضع لنظامٍ آخرَ غير نظام تلك العدالة الأخرى الخاصة والوطنية الخاضعة لضرورات دولتنا. «ليس لنا أنموذجٌ صارمٌ ودقيقٌ لقانونٍ وعدالةٍ حقيقيةٍ؛ إننا نستخدم صورةً وظلًا لهما»[3]؛ لهذا فإن الحكيم الهنديَّ ديْدمون الذي كانت تُحكى له سيرة سقراط وفيثاغوراس وديوجينيس، رأى أنهم لو كانوا شخصياتٍ عظيمةً في كل شيءٍ، فإنهم مع ذلك كانوا خاضعين للقوانين؛

(1) هي قصة استعادها لافونتين في حكاية بعنوان: «الصبي والكلب الصغير».

(2)Cicéron, **De Officiis**, I, 31.

(3) Cicéron,**De Officiis**, III, 17.

فلكي نمنح لهذه الأخيرة السيادة والنفوذ ونعززها، على الفضيلة الحقة أن تتخلى عن الكثير من قوتها الأصل، والعديد من الأعمال الرذيلة لا تتم فقط بإذْنٍ من القوانين، وإنما أيضًا بتحريضٍ منها. «يقترف الناس الجرائم بفضل مستشاري الشعب والاستفتاءات»[1]. وأنا أتَّبع اللغة الجارية التي تقيم اختلافًا بين الأشياء المفيدة والأشياء النزيهة، والتي تعتبر بعض الأعمال الطبيعية وضيعةً، التي ليست فقط مفيدةً، وإنما أيضًا ضروريَّةً.

23. لكن لنتابعْ أمثلتنا في الغدر والخيانة. بلغ المبلغ بطامعيْن في عرش تراقيا إلى الصراع على حقوقهما فيه[2]، فمنعهما الإمبراطور من استعمال السلاح، لكن أحدهما-وبذريعة التفاوض على اتفاقٍ وديٍّ خلال مقابلةٍ بينهما- دعا خصمه إلى حفلة سمَرٍ لديه، وأسَره وأقْدم على اغتياله. كان القانون يفرض أن يتم إنصافهما في هذا المصاب الجَلل، بيد أن صعوبة الأمر منعت من استعمال الأساليب العادية، فما لم يستطيعا أن يتوصلا إليه بشكلٍ قانونيٍّ ومن غير مخاطرَ، قاما به بالغدر والخيانة، وما لم يقدرا على فعله بشكلٍ شريفٍ، قاما به بشكلٍ مفيدٍ. وكان ثمة رجلٌ يسمى بومبونيوس فلاكّوس*[3] يصلح تمامًا للأمر، فقد استطاع بكلامه المرصَّع وطمأنته الخادعة أن يستدرج القاتل إلى أُتونه، وعوضًا عن الشرف والحظوة التي وعده بها، بعثه إلى روما مكبَّل اليدين والرجْلين. وهكذا فإن خائنًا غدر بخائنٍ آخرَ خلافًا للعادة؛ ذلك أن أولئك الناس يكونون عادةً كاملي الحذر، ومن الصعب جدًّا الإمساك بهم في حبالهم نفسها، كما تشهد على ذلك التجربة الحارقة التي عشناها مؤخرًا[4].

24. فليأخذْ صفة بومبونيوس فلاكّوس من شاء ذلك، فثمَّة الكثيرون سيرغبون في ذلك، أما أنا فإن كلمتي ووفائي هما -كما الباقي- جزءٌ لا يتجزَّأ من هذا الجسم المشترك الذي هو الدولة، وأفضل طريقةٍ للفعل

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XCV.

(2) تيبيريوس هو -حسب ما يروي تاسيتوس- الذي منع هذين الطامعين في العرش (ريسكوبوريس وكوتيس) من اللجوء إلى الصراع بالسلاح.

(3) * هو قنصل وعضو بمجلس الشيوخ الروماني (توفي 33 م).

(4) لا ندري هنا إلى أي حدَث يشير مونتيني، فقد تحدّث الشراح عن اغتيال دوق غيز (1588 م)، كما الحكم بالإعدام على ماري ستيوارت (1587 م).غير أن آخرين يرفضون ذلك.

هي أن يكون المرء في الشؤون العمومية، وأنا أعتبر ذلك مكسبًا. وإذا طُلب مني أن أكون مكلَّفًا بالقصر وبالمحاكمات، سيكون ردِّي: «أنا لا أفقه في ذلك شيئًا». ولو تعلق الأمر أن أقود الكشَّافة سأجيب: «أستطيع التوق إلى منصبٍ أشْرف». كذلك، لو أُرِيدَ استخدامي في الكذب والخيانة وفي القَسَم الكاذب لأقدم خدمةً نبيلةً ما (حتى ولو لم يتعلق الأمر بالاغتيال أو بتسميم أحدهم)، سأجيب: «إذا كنت قد سرقت أو اختلست شيئًا لأحدٍ، فلتحكموا عليَّ بالأعمال الشاقة».

25. إن رجلًا شريفًا يمكنه أن يتحدث مثل ما تحدَّثَ به الإسبرطيون الذين تعرضوا للهزيمة على يد أنتيباتروس[1]، بخصوص استسلامهم: «مكنكم أن تفرضوا علينا شروطًا ثقيلةً وكارثيةً ما حلا لكم ذلك؛ لكنْ أبدًا شروط العار والخديعة، فسوف تضيعون وقتكم بذلك». كل واحدٍ سيكون قد أقسم على نفسه بما جعل ملوك مصر قُضاتَهم يقسمون به، أي ألا يحيدوا عن واجبهم مهما كان الأمر الذي تلقوه منهم هم أنفسهم. إن مهمَّاتٍ مثل تلك التي تحدثت عنها آنفًا موسومةٌ بالعار والنقمة، ومن يمنحك إياها، يُعيبها عليك؛ فهو يمنحك إياها كعبءٍ وكجزاءٍ، وعليك أن تدرك ذلك، فكلما تحسنت أوضاع الشؤون العمومية كلما ساءت أوضاع شؤونك، بحيث كلما جهَدتَ في تحسين الأمور كلما صارت أسوأ. ولن يكون بالأمر الجديد (وربما ببعض مظاهر العدل) أنَّ من وضع الشأن ذاك بين يديك، يعاقبك على تحملك مسؤوليته. إذا كان الغدر أمرًا قابلًا للغفران في بعض الحالات، فليس ذلك إلا حين يبدأ في معاقبة الغدر والخيانة.

26. ثمة خياناتٌ لا تُرفض فقط، وإنما يعاقب عليها أولئك الذين تم القيام بها لصالحهم. من ذا الذي لا يعرف وشاية فابريكيوس*[2] بطبيب الملك بّيروس*[3]؟ بيْد أننا نعثر على حكاياتٍ يكون فيها مَن أمر بالغدر يقوم في

(1) أنتيباتروس قائد مقدوني تحمل مسؤولية تسيير مقدونيا حين قام الإسكندر الأكبر بحملاته العسكرية، وقد هزمه اليونانيون الذين حمّسهم لذلك ديموستينيس، غير أنه هزمهم بدوره فارضًا عليهم شروطًا قاسيةً جدًا.

(2) * في الأصل فابريتيوس Fabritius وهو تحريف والصواب فابريكيوس. هو جايوس فابريكيوس لوسكينوس، قائد وسياسي روماني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد.

(3) أرسل فابريكيوس على رأس جيش لإعلان الحرب على بيروس، فاقترح طبيب هذا الأخير على فابريكيوس أن يسمم ملكه مقابل مكافأة، بيد أن فابريكيوس على العكس من ذلك كشف لبيّروس ما اقترحه عليه طبيبه. يمكننا إذًا أن نعتبر أن الأمر يتعلق بوشاية. وبيروس (319 ق.م - 272 ق.م) * هو ملك إغريقي حكم دولة إبيروس غربي البلقان.

ما بعد بالانتقام بصرامةٍ بالغةٍ من فاعله الذي استخدمه له، رافضًا له تلك الحظوة والسلطة الجامحة، ومُنكرًا عبوديةً وطاعةً تامين وجبانيْن.

27. أغرى ياروبيلك، الدوق الروسي نبيلا هنغاريّا بخيانة بوليسلاف ملك بولونيا، وحرضه على اغتياله أو تمكين الروس من الفتك به[1]، لكن هذا النبيل تصرَّف بطريقةٍ ماكرةٍ، وكرَّس نفسه أكثر لخدمة ملكه بحيث أصبح عضوًا في بلاطه، وأحد حاملي أسراره الأكثر حميميةً، ثم إنه استغل هذه المرتبة، واختار فرصة غياب سيده، فمنح الروس الحاضرة الكبرى والغنية، التي أقدموا على نهبها وإحراقها بكاملها، منكِّلين تنكيلًا ليس فقط بسكان المدينة مهما كان عمرهم وجنسهم، وإنما بجزءٍ كبيرٍ من نبلاء أحواز المدينة، التي تمَّ استدراجهم إلى هناك لهذا الغرض. وبعد أن أشبع ياروبيلك رغبته في الانتقام وأطفأ غضبه -اللذين لم يكونا من غير سببٍ، لأن بوليسلاف تصرف إزاءه بالشكل نفسه- صار أشبه بالسكران من أثر تلك الخيانة. لكنه بعدها، حين تأمل ذلك العمل الرهيب عاريًا ومن غير مساحيق، ونظر إليه بشكلٍ هادئٍ لا بنظرة ملؤها الغضب، غمره الندم وثارت ثائرته بحيث إنه أمر بأن تُفقأ عينا من كان وراء تلك الخيانة، ويقطع لسانه وأعضاءه الحميمة.

28. أقنع أنتيغونوس الجنود الأرجيراسبيديين*[2] بخيانة قائدهم يومينيس عدوِّه اللدود، لكن ما إن انتهى من إعدامه بعد أن سلَّموه له، حتى أراد أن يكون بنفسه عونًا للعدل الإلهي؛ كي يعاقب الخونة أشدَّ عقابٍ، فقام بتسليمهم لمحافظ المنطقة، وأمره أمرًا قاطعًا بالتنكيل بهم بأي طريقةٍ يكون فيها موتهم موتًا رهيبًا. ومع كثرة عددهم، لم يستنشق أحدهم بعد ذلك هواء مقدونيا، فلقد اعتبرهم أشرارًا ويستحقون العقاب مقدار ما خدموه أفضل خدمةٍ.

29. أعتق العبد الذي كشف عن مخبأ سيده بوبليوس سولبيكيوستبعًا

(1) هذه القصة مقتبسة من كتاب هربرت فولستين «تاريخ ملوك بولونيا» 1537 م.

(2) * من الكلمة اليونانية أرجيراسبيديس وتعني «الدروع الفضيّة». والجنود الأرجيراسبيديون كانوا فرقة في الجيش المقدوني الذي قاده الإسكندر الأكبر.

للوعد الذي ينص عليه الحظر[1] الذي أصدره سولاّ، لكن -تبعًا لقواعد العدالة - ما إن تم تحريره، حتى رُمي به[2] من أعلى صخرة تاربيا[3]. وكذلك أمر ملكنا كلوفيس بشنق الخدم الثلاثة الذين خانوا سيدهم بتحريضٍ منه عوضًا عن أن يمنحهم السلاح من الذهب الذي وعدهم به. كان الرومان يقومون بشنق الخونة معْقودًا في عنقهم الكيس الذي يحمل مكافأة خيانتهم، فبعد أن يُرضوا التزامهم إزاءهم، يقومون بإرضاء الاحترام العام الواجب للعدالة.

30. حين أراد السلطان العثماني محمد الثاني التخلُّصَ من أخيه -مدفوعًا إلى ذلك بحب السلطة التي تجري في دماء عِرْقهم- استعمل في ذلك أحد ضباطه الذي قام بخنقه بعد أن جعله يشرب غصْبًا كميةً هائلةً من الماء، وبعد أن تمَّ له ذلك سلَّم القاتل لأم المقتول ليأخذ جزاءه عن جرمه -لأنهما لم يكونا أخيْن شقيقيْن- فقامت هذه الأخيرة بحضوره بفتح صدر المتهم، وبيديها اقتلعت قلبه وهو لا يزال نابضًا ورمته للكلاب.

31. من الرائق حتى لأناسٍ لا قيمة لهم، بعد أن يقضوا غرضهم من عملٍ مُشينٍ، أن يتمكَّنوا من ربطه بطمأنينةٍ بملْمحٍ من ملامح العدل، كما لو كان ذلك ضرْبًا من التعويض وتأنيب الضمير،أضفْ إلى ذلك أنهم يعتبرون من يقومون لأجلهم بالجرائم الشنيعة أناسًا خطرين عليهم، ويسعون إلى قتلهم لمحْو أي علمٍ بالأمر وأي شهادةٍ ممكنةٍ عن صنيعهم.

32. وإذا ما كنتَ محظوظًا، وتم الاعتراف لك بحسن العمل؛ حتى لا تُحرم السلطة من هذا الدواء القاسي واليائس، فإن من يقوم بالتصريح بذلك الاعتراف لك، لا يمكن إلا أن يعتبرك شخصًا ملعونًا ومقيتًا، إذا لم يكن هو أيضًا كذلك، وسيعتبرك خائنًا أكثر من ذلك الذي قمت بفعلك ضده بدافعٍ من الخيانة والغدر؛ ذلك أنه قادرٌ على اعتبار رذالة قلبك بشكلٍ مباشرٍ، من غير أن تقدر على نفْي الأمر، ومن غير أي تكذيبٍ له. وهو

(1) كانت لوائح الحظر في الحقيقة لوائح للمحكومين بالإعدام.

(2) فعتق رقبته لا يمنعه من أن ينال عقاب خيانته حين كان عبدًا.

(3) كانت «صخرة تاربيا» مكان إعدام للمتهمين بالخيانة، واسمها هنا هو اسم عذراء خانت روما لصالح شعب الشابيين شمال إيطاليا.

يستخدمك في ذلك كما الناس الذي لا أمل يُرجى منهم في الإعدامات؛ إذ أنت عليه عبءٌ ضروريٌّ بقدر ما هو غير شريفٍ. فعدا الجانب الحقير الذي تحتويه تلك المنجزات، يتعلق الأمر بعهر الضمير. لم يكن من الممكن إلحاق العقاب إعداماً ببنت سيجانوس تبعًا لبعض أشكال الحكم بروما؛ لأنها كانت عذراء، فتم إذًا اغتصابها على يد الجلاد حتى يصحَّ تطبيق القانون قبل أن يخنقها بيديه، وهكذا لم تكن يدا هذا الرجل فقط خاضعتين للمصلحة العامة، وإنما أيضًا لنفسه.

33. ولكي يعزِّزُ السلطان العثماني مراد الأول لعقاب إزاء رعاياه الذين ساندوا تمرّد ابنه عليه، فرض على أقربائهم أن يعينوه على إعدامهم. وأنا أعتبر موقف بعضهم-الذين فضلوا أن يُعتبروا متَّهمين عن غير حقٍ بمحاولة قتل الأب الذي أراده شخصٌ آخر، على أن يخدموا عدالة من أراد أن يجعل منهم قتلة أقربائهم-أمرًا شريفًا.

34. حين رأيت يومًا بعض الأنذال يتركون أصدقاءهم وشركاءهم يروحون للمقصلة؛ كي ينجوا بحياتهم في قضية نهب بعض البيوت، اعتبرتهم أحقر من المشْنوقين.

35. يُقال إن فيتوتاس، أمير ليتوانيا، أدخل لهذا البلد عادةً تبعًا لها يتوجّب على المجرم المحكوم عليه بالإعدام أن يطبق الحكم على نفسه بيديه؛ لأنه اعتبر أن استخدام شخصٍ آخرَ، بريءٍ من الزلَّة، للقيام بالقتل أمرًا غريبًا.

36. حين يكون ثمة ظرفٌ عاجلٌ أو حدثٌ غير متوقَّعٍ يتعلق بشؤون الدولة، ويُضطر الأمير إلى عدم الوفاء بكلمته، أو بممارسة ذلك الوفاء، أو يجعله ذلك يحيد عن واجبه العاديِّ، فإنه يردُّ ذلك إلى ضربةٍ للقدَر، وليس ذلك بالخطيئة؛ فهو قد جعل أمره بين يديْ مشيئةٍ أقوى وأكثر كونيةً، لكنَّ ذلك طبعًا مأساةٌ؛ لهذا فحين سألني أحدهم: «فأي دواءٍ ناجعٍ لذلك؟»، أجبته: «ليس ثمة من دواءٍ، إذا كان الأمير قد وجد نفسه بين المطرقة والسندان - «**لكن ليحذرْ من أن يجد ذريعةً لحنثه**

بالقسم»[1]- ففي هذه الحال كان عليه أن يكون فعله كذلك. لكن إذا ما كان قد قام بذلك من غير ندمٍ، وكان الندم غاليًا على نفسه، فذلك أمارةٌ على أن حالته خطيرةٌ».

37. لكن، إذا كان ثمَّة رجلٌ ذو ضميرٍ رقيقٍ، بحيث إن شفاءه من ذلك لا يبدو أنه يستحق أي دواءٍ قويّ، فإني سوف أقدِّره التقدير نفسه. فهو لن يتسبَّب في ضياعه بطريقةٍ لائقةٍ، وتُغتفر له أكثر من تلك الطريقة. نحن لا نستطع فعل كل شيءٍ، ففي نهاية المطاف نكون ملزمين بأن نضع سفينتنا بين يديْ السماء، باعتبارها المرفأ الأخير المتاح لنا. فأي لزومٍ آخرَ كان ينتظر الأمير؟ وهل ثمة شيءٌ لا يمكنه القيام به سوى ما يُجبَر على فعله على حساب كلمته وشرفه، وهما أمران قد يكونان أعزَّ على قلبه من خلاصه الشخصي وخلاص الشعب؟ وحين يشبك يديه ويدعو الله لمعونته، ألا يمكنه أن يأمل في أن المشيئة الإلهية لن ترفض له نعمةً تقدمها بيدها الخارقة ليده الخالصة والعادلة؟

38. تشكل الأمثلة السابقة، عن عدم الوفاء بالكلمة أو الوعْد، استثناءاتٍ خطيرةً ونادرةً، بل ومرَضيةً بالنظر إلى قواعدنا الطبيعية. على المرء أن يستسلم لذلك لكن بالكثير من الاعتدال والحيطة والتبصُّر، فليس ثمة من مبتغًى شخصيٍّ يستحق أن نُعنِّفَ ضميرنا هكذا عليه. المصلحة العامة؟ فليكن، لكن حين تكون بديهيةً وبالغة الأهمية.

39. كان تيموليون[2] على حقٍّ حين حمى نفسه ضد جسامة فعله بذرف الدموع؛ لأنه كان يتذكَّرُ أنه قد أجْهز على الطاغية بيدٍ أخويةٍ، وما كان يؤنبه ضميره عليه بشدةٍ، هو أنه دفع ثمن المصلحة العامة بفعلٍ ذي ثمنٍ غالٍ جدًا يتمثل في نزاهة سلوكه، ومجلس الشيوخ نفسه، وقد تخلص من العبودية بفعلته، لم يجرؤ على الحسم بسرعةٍ بصدد عملٍ جسيمٍ كهذا له جانبان مهمان ومتعارضان جدًا. بيْد أن السيراقوسيين حين طلبوا في وقتٍ معينٍ من الكورنثيين حمايتهم، بقائدٍ قابلٍ لأن يستعيد لمدينتهم كرامتها ويطهِّر صقلية من طواغيت صغارٍ

(1)Cicéron, **De Officiis**, III, 29.

(2) كان وفيًا للحرية إلى درجة أنه عمل على قتل أخيه كي يمنعه من أن يغدو طاغية كورنثوس (في 364 ق.م).

يضطهدونها، كلف مجلس الشيوخ تيموليون بالأمر، لكن هذه المرة بتوضيحاتٍ وتصريحاتٍ جديدةٍ، سواء كان تصرفه حسنًا أو سيئًا، فإن قرارهم سيُتَّخذ لصالح محرِّر بلده على حساب قاتل أخيه. كان هذا القرار المدهش يجد مبرَّره بعض الشيء في الخطر الذي يمكن أن يمثِّلَه هذا المثال، وفي خطر ذلك العمل الغامض، ولقد أحسنوا فعلًا بإعفاء أنفسهم من الحكم عليه، أو على الأقل في إعفاء أنفسهم من أن يقيموا حكمهم ذاك على اعتباراتٍ جانبيةٍ، بيْد أن سلوك تيموليون لم يتأخر عن جعل قضيته أوْضح وأكثر بداهةً؛ إذ أثبت كرامته وفضيلته في كافة الأحوال، والنجاح الذي ابتسم له في التغلُّب على المصاعب وهو يقوم بهذه المهمة النبيلة، بدا كما لو أن مشيئة الآلهة قد تآمرت بُغية تبرير صنيعه.

40. كانت الغاية التي اتبعها تيموليون ستكون قابلةً للتبرير، لو أنَّ أيَّ غايةٍ من الغايات كان يمكنها أن تكون مبرَّرةً، بيد أن الامتياز الذي شكله تزايد مداخيل الدولة، الذي أخذه مجلس الشيوخ الروماني ذريعةً للقرار الظالم الذي سأقصه عليكم، لا يكفي لتبرير ظلمٍ من قبيل هذا. فلقد تحررت بعض المدن بدفع الأموال واستعادت حريتها من بين أيدي سولّا، بأمرٍ من مجلس الشيوخ وبإذنٍ منه، لكن عندما طُرح الأمر على أنظار المحكمة من جديدٍ، حكم مجلس الشيوخ عليها أن تدفع الضريبة من جديدٍ مثلما كان الأمر من قبل، بحيث إن الأموال التي دفعت تلك المدن سابقًا مقابل حريتها، ستغدو أموالًا ضائعةً. تقدم لنا الحروب الأهلية غالبًا أمثلةً من قبيل هذه، فنحن نعاقب الناس لأنهم وثقوا فينا حين كنا في جانبٍ آخر، وهيئة المحكمة نفسها تجعل من لا حول له ولا قوَّة يتحمل نتائج انقلابها من هذا الطرف لذاك. يضرب المعلم تابعه لجعله طائعًا، والأعمى المرشد الذي يقود، فيا لها من صورةٍ رائعةٍ للعدالة!

41. ثمة في الفلسفة قواعدُ تكون خطأً أو ضعيفةً، والمثال الذي يُقترح علينا منح القيمة للمصلحة الشخصية على العهد الذي يُعطى، لا وزن له بالنظر إلى الظروف المحيطة به. أمسك بك سارقون، ثم أطلقوا سراحك بعد أن أخذوا منك وعدًا بأداء مبلغٍ ماليٍّ معيّنٍ. مخطئٌ من يقول إن رجلًا

نزيهًا سيتحرر من عهده من غير أداء شيءٍ بعدما أفلت من بين أيديهم، الأمر ليس كذلك، فما جعلني الخوف أبتغيه، ألتزم أكثر بالرغبة فيه من غير خوفٍ، وإذا هي لم تستطع أن تلزم غير لساني لا إرادتي، فإني أظل مطالبًا بالوفاء بعهدي. وفيما يخصُّني، حين يسبق لساني أحيانًا تفكيري، فضميري يخزني أن أكذبه، وإلا فإننا تدريجيًّا نصل إلى تدمير كل الحقوق التي يبنيها إنسانٌ آخر على وعودنا: «**كما لو أننا نستطيع ممارسة الجبْر والإكراه على رجلٍ شجاعٍ**»[1]. المرة الوحيدة التي يمكن للمصلحة الشخصية أن تمنح لنا العذر في عدم الوفاء بعهدنا، هي حين يكون وعدنا متعلقًا بشيءٍ سيّئٍ وظالمٍ في ذاته، ذلك أن قانون الفضيلة يلزم أن يتفوَّقَ على القانون الذي يحكم التزاماتنا.

42. قمت آنفًا بوضع إبامينونداس في مرتبة الناس الأجلاء، وأنا لا أتراجع عن قولي ذاك. ألم يكن يرفع عاليًا همَّ واجبه الشخصيّ؟ هو مَن لم يقتل أبدًا رجلًا انتصر عليه، ومَن أنَّبه ضميره على أن يقتل طاغيةً أو شركاءه من غير أن يكون في ذلك احترام تدابير العدالة، في عملٍ ذي قيمةٍ لا تقدَّرُ بثمنٍ كاستعادة الحرية لبلاده، ثم ألَمْ يكن يَعتبر شريرًا أي مواطنٍ عاديٍّ كيفما كان لا يحافظ على حياة صديقه وضيفه وسْط ساحة الوغى؟ تِلْكُمْ نفسٌ غنيةٌ بما فيها، فهو كان يوازي الأعمال الإنسانية الأكثر فظاظةً وعنفًا بالطيبة والإنسانية التي يمكن استقاؤها من الفلسفة، وفي شكلهما الأرق. فهذا القلب الكبير المليء والعنيد ضد الألم والموت والفقر، هل الفطرة أم التربية هي التي لطَّفته حتى منحته مزاجًا بهذه الوداعة وتلك الطيبة؟ فهو حين كان تحت خدر السيوف والدم، صارع بجموحٍ شعبًا لا يُقهر ضد كل شيءٍ إلا نفسه، وفي عزِّ المعركة تركها وراح ليسلم على ضيفه وصديقه. هاكُم إذًا رجلًا كان يعرف كيف يسيِّرُ حربًا، ويجعلها تقبل كوابح اللطافة والعناية، حتى حين تكون في أوْجها وتزيد رهبة جنونها القاتل. فمن باب المعجزة أن يستطيع المرء أن يزرع في أعمالٍ كتلك بعض ملامح العدل، لكن حزم إبامينونداس وحده تعود له القدرة على أن يمزج بها اللطافة وليونة الشخصية الأكثر روعةً، والإنسانية الأكثر طهارةً.

(1) Cicéron, **De Officiis**, III, 30.

43. وإذْ قال أحدهم للمامّيرتيين[1] أنْ ليس ثمة من قاعدةٍ تصمد أمام الجيوش، وأجاب آخر[2] محامي الشعب إن وقت العدالة شيءٌ وإن وقت الحرب شيءُ آخر، وقال ثالث[3] إنه يمنعه صليل السيوف من سماع صوت القانون، كان إباميتونداس لا يمكنه إلا أن يتبع قواعد المدنية واللياقة البسيطة. ألم يستقِ من أعدائه أنفسهم تلك العادة في منح القربان لآلهة الشعر حين كانوا يروحون للحرب؛ كي تخفف بلطفها ومرحها تلك الشدة والهياج الحربيْن؟

الواجب والقانون

44. علينا ألا نخاف بعد أن كان لنا أستاذٌ عظيمٌ، أن نعتبر أن من الحرام أن يكون لنا أعداءٌ. فالمصلحة العامة ليس عليها أن تتطلب كل شيءٍ من كل الناس ضدًا على المصلحة الخاصة. «**القانون الخاص يلزم أن يظل حاضرًا في الأذهان وسط الانشقاقات العمومية**»[4].

«وليس ثمة من قوةٍ تستطيع
أن تبيح خرق قوانين الصداقة»[5].

ليس كل شيءٍ مسموحًا به لرجلٍ شريفٍ في خدمة ملكه، ولا في خدمة المصلحة العامة والقوانين. «ذلك أن الواجب إزاء الوطن لا يفوق كل الواجبات الأخرى، وسيكون من الأجدى له أن يكون ثمة مواطنون أوفياء لآبائهم»[6].

45. إنه درسٌ ملائمٌ لزمننا، فنحن لا حاجة لنا بتصليب قلوبنا بتلك النِّصال الحديدية؛ إذ يكفي أن تكون أكتافنا قويةً، ويكفينا أن نغمس أقلامنا في الحبر من غير أن نغمسها في الدم. إذا كان من باب نبل القلب والفضيلة النادرة

---

(1) * للاميرتيون من اللفظة اللاتينية ماميرتيني (أبناء مارس) هم طائفة من المرتزقة من أصل إيطالي. وبومبيوس هو الذي أجاب بذلك سكان مسينة الذين يسمون «للاميرتيين» الذين كانوا يحتجون على قوانينهم القديمة.

(2) للجيب هنا هو يوليوس قيصر حسب بلوتارخوس.

(3) هو ماريوس حسب بلوتارخوس.

(4) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine,** XXV, 18.

(5) Ovide, **Pontiques,** I, 7.

(6) Cicéron, **De Officiis**, III, 23.

الفريدة ازدراء الصداقة، والواجبات الشخصية، والعهود الفردية، والآباء من أجل المصلحة العامة، حينها يكفي لكي نعتذر عن عدم التصرف على هذه الشاكلة، أن نعتبر أن ذلك عظمةً لم تجد مجالًا لها في قلب إبامينونداس.

46. أكرهَ ما أكرهَ نصائح هذا المزاج الآخر المُغالي[1]

«طالما ستبرق السهام، ولا من فرجةٍ وروْعةٍ
ستثير عاطفتكم، ولا حتى فرجة آبائكم
فلْتشوهوا بسيوفكم الوجوه[2] أمامكم»[3].

لننزِعْ عن الأشرار الدمويين بالفطرة وعن الخونة ذريعتهم، ولنترك جانبًا هذه العدالة المغالية والمضادة للطبيعة، ولنتمسكْ فقط بصيغةٍ أكثر إنسانيةً منها. يا له من تأثيرٍ للزمن والمثال! خلال معركةٍ دارت في الحرب الأهلية ضد لوكيوس كينّا، قتل جنديٌّ أخاه المنتمي للطرف الخصم من غير أن يتعرَّف عليه، فأقدم على قتل نفسه توًّا من فرْط العار والندم. لكن، بعد ذلك بسنواتٍ في حربٍ أهليةٍ أخرى قام بها الشعب نفسه، طلب جنديٌّ مكافأةً من قادته لقاء قتْله لأخيه.

47. أن يضع امرؤٌ الجدوى في مقدمة اهتماماته ليس من باب تأكيد الشرف أو حُسن عملٍ ما. ونحن نستخلص نتيجةً سيئةً حين نعتبر أن كل شخصٍ مُكرهٌ على التصرف تبعًا لذلك، وأن كل عملٍ شريفٌ إذا ماكان مفيدًا لنا.

«كل الأشياء لا تلائم أيضًا كل الناس»[4].

لنأخذِ الشيء الأكثر ضرورةً والأكبر جدوًى للمجتمع البشري، أي الزواج. ومع ذلك فإن مَجْمَع القديسين اعتبر أن العزوبة أكثر شرفًا، وحرَّم الزواج لأكثر المهن ورعًا وتقوًى[5]، تمامًا كما نحبس في الإسطبلات الجياد الأقل حظوةً[6].

---

(1) يوليوس قيصر حسب لوكانوس الذي سوف ينسب له ذلك الكلام.

(2) يعني وجوه جنود بومباي من النبلاء الرومان.

(3) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, VII, 130-132.

(4) Properce, **Elégies amoureuses -Cynthia,** III, 9, v. 7.

(5) الرهبان.

(6) لم تكن الإسطبلات في تلك الفترة مخصصةً لتحسين نسل الخيول.

الفصل الثاني

في التوْبة

الظهور بالمظهر الذي نحن عليه

1. إذا كان الكتاب الآخرون يكوِّنون الإنسان، فأنا أحكيه وأظهر منه واحدًا حسنًا وذا تكوينٍ حسنٍ. ولو كان لي أن أصوره من جديدٍ، لكنت جعلته مختلفًا عما هو عليه، لكن الأمر هو أنه صُوِّر كذلك. والملامح التي أمنحها له ليست مزيفةً بالرغم من تغيُّرها وتنوُّعها، فالعالم ليس سوى أرجوحةٍ دائمةٍ، وكل الأشياء تتأرجح فيه باستمرارٍ-الأرض وصخور القوقاز وأهرام مصر- وذلك بحركةٍ شاملةٍ كما بحركتها الذاتية، والثبات نفسه ليس في الواقع سوى حركةٍ فاترةٍ. لست متأكدًا من موضوع دراستي، فهو يتقدم متمايلًا ومترنِّحًا كما لو كان ذلك بفعل سكْرٍ طبيعيٍّ، وأنا آخذه كما هو في اللحظة التي أهتم به. أنا لا أرسم الكائن، وإنما أثر مروره، لا انتقاله من عمرٍ لعمرٍ، أو كما يقول الشعب: «من سبع سنين إلى سبع سنين»[1]، وإنما من يومٍ لآخرَ، ومن دقيقةٍ لأخرى. وعليَّ دومًا أن أحيِّن قصتي. قد يحدث أن أتغير قريبًا، لا بسبب عوارض القدَر ولكن بشكلٍ قصديٍّ، فكتابي هو سجلُّ الأحداث المتنوعة والمتغيِّرة والأفكار العالقة، بل أحيانًا المتنافرة. حسبي أن أكون أنا نفسي أو أكون آخر، وحسبي أني أعالج موضوعاتي في ظروفٍ أخرى أو من زاوية نظرٍ أخرى. كل هذا إلى حدِّ أن أسقط في التناقض، لكن كما يقول ديماديس[2]: «الحقيقة، أنا لا أكذِّبها. ولو كان بمقدور عقلي الثبات، كنت لن أراجع نفسي باستمرارٍ، وكنت سآخذ قراراتي بشكلٍ نهائيٍّ، غير أنه عقلٌ ما يزال في مرحلة التعلُّم والبرهنة على تقدُّمه في ذلك».

2. وإني أقدم هنا حياةً متواضعةً ومن غير أضواء، وهو أمرٌ لا أهمية له؛ إذ يمكننا أن نربط الفلسفة الأخلاقية بكاملها بحياةٍ بسيطةٍ وخفيةٍ، كما يمكن أن نربطها بحياةٍ أكثر غنًى وأشدَّ وفرةً، فكل واحدٍ يحمل في ذاته الشكل الكامل للطبيعة البشرية.

(1) حسب المعتقد الشعبي، يتم التغير في الإنسان كل سبعة أعوام (فالرقم 7 كان يعتبر دومًا ذا قيمةٍ سحريةٍ).

(2) خطيبٌ أثينيٌ معاصرٌ لديموستينيس، عدوه اللدود الذي كان وراء الحكم عليه بالإعدام.

3. يُعرِّف المؤلفون بأنفسهم للجمهور بملْمحٍ خاصٍ وأصيلٍ منهم، لكني الأول الذي يقوم بذلك بكونية وجودي، أي باعتباري ميشيل دو مونتيني، لا باعتباري نحويًا أو شاعرًا أو حقوقيًا. فإذا ما اشتكى الناس من أني أتحدث بإفراطٍ عن نفسي، فأنا أشتكي من أنهم لا يفكرون حتى في أنفسهم.

4. لكن، هل من المشروع أن أسعى -بارتباطي البالغ بحياتي الشخصية- إلى أن يعرفني الآخرون؟ وهل من المشروع أيضًا أن أقدم للعالم-حيث الشكل والفن لهما أهميةٌ وسطوةٌ بالغان- إنتاجاتٍ عفويّةً ونيّئةً وبسيطةً تعود لطبعٍ لا يزال ضعيفًا؟ أليس ذلك محاولةً لبناء سورٍ من غير حجرٍ، أو شيءٍ من قبيل هذا، كما تأليف كتبٍ من غير أن يكون صاحبها عالمًا؟ تخضع الابتكارات الموسيقية لقواعد الفن، أما مؤلفاتي فللصدفة، وأنا أحترم المبادئ باعتبار أن لا أحد عالج موضوعًا وفهمه أفضل مما فهمت الموضوع الذي أكرِّس له نفسي، وأني هنا الرجل الأعْلم به الذي لا يزال على قيد الحياة. من ناحيةٍ أخرى لا أحد من قبل تعمق أكثر في مادته، ولا تفحَّص بدقةٍ عناصرها ومُستتبعاتها، وتوصَّلَ بدقةٍ أكبر وبتمامٍ أكمل للمُبتغى الذي حدَّده لعمله أكثر مني؛ ولكي أستكمل ذلك العمل ليس عليَّ سوى أن أحترم الوفاء للأنموذج؛ فيصير عملًا ناجزًا، الأكثر صدْقًا والأكثر صفاءً قدْر المستطاع. وأنا صادقٌ في ما أقول، لا بقدر ما أبتغي ذلك، وإنما بقدر ما أجرؤ على قوله، وأنا أجرؤ على هذا أكثر مع تقدمي في العمر؛ ذلك أن العوائد تمنح للشيخوخة في ما يبدو حريةً أكبر للهذَر ولكي يتحدث المرء عن ذاته، ولا مجال هنا لأن يحدُث الشيء نفسه الذي لاحظته مرارًا، بمعنى أن الصانع وعمله لا يتشابهان. فهل يكتب الرجل الذي تُستحسن صحبته أشياء من قبيل الهراء؟ أو هل تصدر كتاباتٌ عالمةٌ عن رجلٍ نستاء من صحبته؟ والكائن الذي تكون محادثته عاديةً جدًّا وكتاباته ذات قيمةٍ بالغةٍ، هو كائنٌ يمنح قيمته من شيءٍ خارج عن ذاته، والعالِم ليس عالمًا بكل شيءٍ، لكنَّ مَن يملك الموهبة يكون له علمٌ بكل شيءٍ حتى بما يجهل.

مونتيني وكتابه

5. نحن هنا نسير بالخطْو نفسه، وأنا وكتابي توءمان مُتوائمان. قد يتمّ -في مكانٍ آخرَ- امتداحُ الكتاب أو نقدُه، أما هنا فبالعكس، من يمسّ الواحد يمسّ الآخر، ومن سيحكم عليه من غير أن يطّلِعَ عليه سوف يخطئُ في حقه أكثر مما سيخطئ في حقي، ومن سوف يطّلِعُ عليه سوف أكون سعيدًا إذا ما حصلت فقط على هذا القدر من القَبول العموميّ، بأن أجعل الناس النبهاء يحسون بأني كنت سوف أستفيد من العلم لو كنت أملكه، وأني كنت بحاجةٍ كبرى لعوْن ذاكرتي.

6. لنقدِّمْ هنا المعاذير عما أقوله مرارًا من أنني نادرًا ما ينتابني الندم، وأن ضميري فرحٌ بذاته، لا كما هو ضمير ملاكٍ أو جوادٍ، وإنما باعتباره ضمير ابن آدم، وأنا أضيف دومًا هذه اللازمة، لا باعتبارها لازمةً متواضَعًا عليها، وإنما باعتبارها جوهريةً وفطريةً في انصياعها. فأنا أتحدث، وأنا أسأل كما لو كنت جاهلًا، مُحيلًا في النهاية بشكلٍ بسيطٍ إلى الآراء المتداولة والمشروعة. إني لست مصدر علمٍ وتدريسٍ أبدًا، أنا أحكي.

7. ليس ثمة رذيلةٌ حقّةٌ لا تكون صادمةً ولا يُدينها حكمٌ عقليٌّ نزيهٌ؛ فبشاعتها ومساوئها تكون باديةً للعِيان، بحيث إن من يرون فيها نتاجًا خالصًا للغباء والجهل قد يكونون على حقٍّ في ذلك، وبحيث من الصعب التصور بأن المرء يمكن أن يعرفها من غير أن يمقتها، والخبْث يمتص الحصة الكبرى من سمِّها، ويسمِّم ذاته بها. الرذيلة تترك ما يشبه الحرْقة في البدن والندامة في النفس، وهذه الأخيرة تتآكل باستمرارٍ وتنزُّ دمًا. فإذا كان العقل يمحو الأحزان الأخرى، فهو يخلق أحزان التوبة التي تكون من الخطورة بحيث إنها تنبع من الباطن، مثلما أن الحرارة والبرودة اللتين نحسهما في الحمَّى، يكونان أسوأ من الحرارة والبرودة الآتيتيْن من الخارج. وأنا أعتبر الرذيلة -تبعًا لأهمية كل واحدةٍ منها- ليس فقط تلك التي يُدينها العقل والطبيعة، وإنما أيضًا تلك التي تتصل برأي الناس، حتى لو كان خطأً، باعتبار أن القوانين والعوائد قد منحت له السلطة.

8. بالشكل نفسه، ليس ثمة سلوكٌ جديرٌ بالثناء لا يثلج صدر شخصٍ شريف المولد. ثمة بالتأكيد رضًا نحسُّه عند سلوكنا السلوك الحسن؛ لأنه يفرح نفسنا، وفخرٌ نبيلٌ يصاحب الضمير الهانئ. إن نفسًا تمارس الرذيلة وتتَّسم بالشجاعة يمكنها أن تتدرَّع لضمان أمانها، غير أن هذا الرضا عن النفس لا يمكنها أبدًا أن تبلغه. ليس متعةً صغيرةً إحساسُ المرء بأنه محميٌّ من عدوى عصرٍ فاسدٍ كهذا، بحيث يقول: «إذا ما هم أطلُّوا في أغوار نفسي، فلن يجدوا أني مذنبٌ بالتسبُّبِ في مصيبةٍ لأحدٍ ولا بتدميره، ولا بالانتقام ولا بالحسد، وبالمس العلنيِّ بالقوانين، ولا باتباع البدع[1]، أو بالمس بالنظام الأمني ولا بعدم الوفاء بعهودي، ولما كان فساد هذا العصر يبيح ذلك ويعلِّمه للناس، فإني مع ذلك لم أستحوذ علي خيرات ولا أموال أيِّ أحدٍ بفرنسا، فأنا لم أعش إلا بمالي وخيراتي، في زمن الحرب كما في زمن السلم، وأنا لم أستغل أبدًا عمل شخصٍ من غير أن أؤديَ له أجرته». إن شهادة الضمير تثلج الصدر، وهذه المتعة الفطرية هي خير نعمةٍ لنا، فهي الجزاء الوحيد الذي يخلف ميعاده معنا.

9. أن ينتظر المرء الجزاء على أعماله الفاضلة من قَبولها من الآخرين أمرٌ يعني إقامتها على شيءٍ غير موثوقٍ وغامضٍ، خاصةً في وقتٍ يعمُّه الفساد والجهل كوقتنا، فالتقدير الذي يحمله لك الشعب عبارة عن شتيمةٍ، فيمن نثق لمعرفة ما هو جديرٌ بالثناء؟لَيحْمني الرب لأني إنسانٌ خيِّرٌ، حسب الوصف المادح الذي أرى من خلاله كل شخصٍ يقوم به لنفسه يوميًّا. «رذائل الماضي صارت عوائد أيامنا هذه»[2]. قام بعض أصدقائي أحيانًا بنقدي وتصحيح أخطائي بقلبٍ رحبٍ، إما طواعية منهم هم أو لأني طلبت منهم ذلك، وهم بذلك يعتقدون أنهم يقومون بواجبٍ يكون لدى النفس القويمة أفضل من كافة الخِدماتِ التي نقدمها بحسِّ الصداقة، ليس فقط للفائدة المرجوة منها، وإنما أيضًا للطفها، لكني إذا كنت أتحدث عن ذلك اليوم بوعْيٍ، فإني أستطيع القول إني أحسست دومًا بأن إطراءهم ونقدهم غير موفقٍ، بحيث أفضِّلُ أن أكون فعلت أسوأ ما فعلت بطريقتي، على أن أكون فعلت الخير كما يفهمونه، ونحن

(1) يعني مونتيني هنا بدعة البروتستانتية التي تفشت في عصره.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, 39.

الذين نملك حياةً باطنةً نكون الوحيدين الذين يعرفونها. علينا أن نشيِّد أنموذجًا داخليًّا يكون حجر الزاوية لأعمالنا، وبالعلاقة معه أن نُثني على أنفسنا أو نُقَرِّعَها. لي قوانيني الخاصة ومحكمتي كي أحكم على نفسي وأحيل نفسي إليها أكثر من أشياء أخرى، لا أحد غيرك يمكن أن يعرف إنْ كنتَ جبانًا وفظًّا أو وفيًّا ومليئًا بالورع والتقوى. فالآخرون لا يرونك، بل هم يخمنونك حسب تكهناتٍ غير موثوقٍ بها؛ ذلك أنهم لا يرون طبيعتك الحقة بقدر ما يرون يظهر منها؛ لهذا عليك ألاّ ترْتكن لحكمهم وإنما لحكمك أنت. «عليك أن تستخدم حكمك؛ فالوعي بالفضيلة وبالرذيلة له وزنٌ كبيرٌ، وإذا ما أنت تخليت عنه فإن كل شيءٍ يصبح طريحًا على الأرض»[1].

10. يُقال إن التوبة تتبع خُطى الخطيئة، لكن ذلك يبدو أنه لا يتعلق بالخطيئة حين تكون في ذُروتها، تلك التي تسكن فينا كما فيها. يمكننا تكذيب وإنكار الرذائل التي تأخذنا على حين غفلةٍ منا والتي تنصاع لها أهواؤنا.أما الرذائل الغائرة فينا بفعل العادة الطويلة، والمنغرسة في إرادةٍ قويةٍ، فإنها تقاوم حربنا عليها. التوبة ليست لنا إلا طريقةٌ من طرقِ تكذيب أنفسنا، ومعارضةٌ تبدو علائمها في فكرنا، وتجعلنا نتيه في جميع الاتجاهات. وإليكم مثالًا يتساءل عن فضيلته الماضية وعن عفَّته:

«لماذا لم تعد أفكاري اليوم هي أفكار شبابي؟
ولماذا-وأنا أفكر هكذا اليوم- لا تحمرُّ وجنتاي خجلًا
كما في الماضي؟»[2].

11. إنها لحياةٌ ذات مزيَّةٍ نادرةٍ تلك التي تكون منتظمةً حتى البواطن. كل واحدٍ يمكنه أن يلعب دوره ويظهر على أنه رجلٌ شريفٌ فوق المنصة، لكن أن يكون المرء بالغ الانتظام في باطنه، في أعمق أعماق قلبه حيث كل شيءٍ مباحٌ ومستورٌ، ذلك هو الأمر الأهمُّ. والدرجة الموالية هي أن يكون كذلك في البيت، في أعماله العادية التي لا يمكن لأحدٍ أن يحاسبنا عليها، هناك حيثما كلُّ شيءٍ طبيعيٌّ ولا شيء مصطنعٌ؛ لهذا وصف

(1) Cicéron, **De natura deorum**, III, xxxv.
(2) Horace, **Odes**, IV, 10.

بياس[1] تنظيم البيت الأمثل: «هو البيت حيث يكون سيده في ذاته كما هو في الخارج؛ خشية القانون وأقوال الناس».وحين اقترح العمال على يوليوس دروسوس ثلاثة آلاف ريالٍ لتغيير بيته، بحيث لا يراه فيه الجيران كما هم يروْنه فيه، أجابهم بهذه العبارة الرائعة: «سأعطيكم منها ستة آلافٍ؛ كي تجعلوه مرئيًّا للجيران من جميع جوانبه». يمكننا أيضًا أن نسجل عادة أجيسيلاوس المتمثلة في الإقامة في المعابد حين يكون على سفرٍ، حتى يراه الشعب والآلهة في تصرفاته الخاصة، فهذا الرجل كان رائعًا للجمهور، وهو لم ترَ منه زوجته ولا خادمه أبدًا ما هو أرْوع مما رأوه منه، فالقليل من الناس كانوا موضع إعجابٍ لدى أهلهم وذويهم.

لا كرامة لنبيٍّ في وطنه

12. لا كرامة لنبي بين أهله وعشيرته، فقط، بل ولا في وطنه كذلك. ذلك ما يعلمنا إياه التاريخ، والأمر نفسه يسري على الأشياء النافلة، ومثالي المتواضع يشبه ما يقع للعظام، ففي بلدي غاسكونيا يجد الناس في طبع كتبي أمرًا مسلِّيًا، فكلما كنا بعيدين عن بيتنا ويكتشفني الناس، كلما كانت سمعتي أكبر. في مدينة غويينا تجدني أؤدي أجرة الطابعين، أما في مكانٍ آخر، فهم مَن يؤدون لي المال. وعلى هذه الظاهرة يرتكز أولئك الذين يخفون أنفسهم حين يكونون أحياءً وفي عين المكان؛ حتى يتم الإعجاب بهم كما لو كانوا موتى، فحين أرحل عن هذه الدنيا لن أكون دائنًا لها بأيِّ شيءٍ.

13. من يقوده الشعب بإعجابٍ حتى باب بيته بعد مراسيم حفلٍ عموميٍّ، يتخلى عن دوره حين ينزع عنه سترته، بحيث ينزل عميقًا إلى الأسفل مقدار ما كان مرفوعًا إلى الأعلى، ففي بواطنه كل شيءٍ في فوضًى عارمةٍ ووضاعةٍ كبرى، وإذا ما كان ثمة قاعدةٌ تنظم تلك البواطن، فعلى المرء -لكي يميزها في خضمِّ تلك الأعمال الوضيعة والخاصة- أن يكون له حكمٌ

(1) هو بياس البرْيني، أحد حكماء اليونان السبعة.

بالغُ الحيوية، زِدْ على ذلك أن النظام فضيلةٌ بائسةٌ وبهيميةٌ، فمهامٌّ من قبيل فتح ممرٍّ للجيوش وإدارة سفارةٍ وقيادة شعبٍ مهامٌّ ساطعٌ نجمُها، أما التوبيخ، والضحك، وتأدية الأجر ،والحب، والكراهية، والمحادثة مع الأقرباء ومع النفس بهدوءٍ ودَعةٍ، والتحكم في النفس، وعدم التناقض في الكلام، فتلك أمورٌ أصعب وأقل إثارةً للانتباه.

14. في حياة تحكمها الخلْوة، علينا أن نواجه مهما قيل واجباتٍ صعبةً ومتنوعةً، وربما أكثر من حياةٍ من نوعٍ آخرَ. يقول أرسطو: إن المنعزلين أقرب للفضيلة من غيرهم، ويقومون في ذلك بجهدٍ أكبر من أولئك الذين يحتلون مناصب عامة مهمة. فنحن نستعد للأحداث المهمة حبًّا في المجد أكثر منه ارتباطًا بالواجب، وأقْصر الطرق لبلوغ المجد هي أن نقوم بدافع الواجب بما نقوم به من أجل المجد. هكذا يبدو لي أن فضيلة الإسكندر الأكبر -مهما كان طابعها المسرحي- تظهر من القوةِ أقل مما تبديه فضيلة سقراط الذي يجهد فيها بطريقةٍ أكثر تواضعًا، وأنا يحلو لي أن أتصور سقراط مكان الإسكندر الأكبر، لكن لن يمكنني وضع الإسكندر الأكبر في مكان سقراط. فإذا سألنا الإسكندر عمّا يعرف فعله، سيجيب: «إخضاع العالم». أما الثاني فسيقول: «أن أعيش حياتي حسب الفطرة»، وهو الأمر الذي يتطلَّبُ علمًا غزيرًا وعويصًا وراسخًا.

15. لا تتمثل قيمة النفس في السمو عاليًا، وإنما في أن يكون ذلك بشكلٍ منظمٍ، وسموُّها لا يتبدَّى في العظمة وإنما في الأمور العادية. وأولئك الذين يحكمون علينا ويقوِّموننا في العمق، لا يهتمون بسطوع أعمالنا العمومية، فهم لا يرون فيها إلا سيول الماء والمويْجات التي تنبثق من عمقٍ ثقيلٍ ومليءٍ بالطمْي، كما أن أولئك الذين يحكمون علينا بمنظرنا الخارجي الحسن، يستقرئون هم أيضًا النتائج الخاصة بتكويننا الباطن، ولا يستطيعون ربط ملكاتٍ عاديةٍ شبيهةٍ بملكاتهم، بتلك التي تثير فيهم الدهشة الكبرى لدينا؛ لأنها بعيدةٌ عن متناولهم؛ لهذا نحن نمنح للشياطين صورًا عجيبةً. مَن ذا الذي لا يمنح لتيمورلنك حاجبيْن كبيرين، ومنخرين ضخمْيْن مُشرعيْن، ووجهًا بشعًا، وقامةً عظيمةً تشبه الصورة التي صنعها لنفسه بشهرته؟ لو أن أحدهم

قدَّم لي إيراسموس*[1] سابقًا سيكون من الصعب عليَّ ألا أعتبر أمثالَ ومأثوراتِ كل ما قاله لخادمه ولضيفته. ونحن قادرون على تصوُّر صانعٍ على كرسيٍّ عالٍ أو فوق زوجته، على تصوُّر رئيسٍ عظيمٍ محترمٍ في جلسته وفي مستواه. يبدو لي أن من يجلسون على العروش العالية لا ينزلون إلى مستوى العيش ببساطة.

16. وكما أن النفوس الرذيلة تكون مدفوعةً لفعل الخير بوازعٍ خارجيٍّ، كذلك النفوس الفاضلة تعمل الشر بالشكل نفسه. علينا إذًا الحكم عليهما في حالهما العاديِّ، حين تكون تلك النفوس فيبيتها، إذا ما هي وجدت الوقت لتستقرَّ فيه، أو على الأقل حين تكون في حالٍ قريبةٍ من الراحة، وفي حالها الفطرية. النوازع الفطرية تقوِّيها التربية وتعززها، غير أننا لا يمكننا البتَّة تغييرها ولا مُجاوزتها. وقد عرفت مئاتِ الناس في وقْتي انزلقوا نحو الفضيلة أو الرذيلة بالرغم من التعاليم المنافية لذلك. وهكذا الحيوانات المتوحشة بعد أن نسيت الغابة.

> **«تلطفت في القفص وفقدت نظرتها المهدِّدة**
> **وتعلمت تحمّل الإنسان. لكن قليلًا من الدم**
> **لو لمس فمها، تستيقظ شراستها وغضبها**
> **وينتفخ فمها بمذاق الدم، بحيث تكاد تجهز**
> **في غضبها على سيدها المرعوب»[2].**

اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية

17. إننا لا نقتلع تلك الأشكال الأصلية للحياة، بل نغلِّفها ونخبِّئها. اللغة اللاتينية كانت لديَّ كما لو أنها فطريةٌ، وأنا أفهمها أفضل من الفرنسية، غير أني لم أستعملها منذ أربعين سنةً، ولم أكتب بها قط. لكني -تحت وطأة انفعالاتٍ جامحةٍ ومفاجئةٍ- حدث لي ذلك مرتيْن أو ثلاث مراتٍ في حياتي، مثلًا حين رأيت أبي الذي كان يتمتع بصحةٍ جيدةٍ يسقط على ظهره عليَّ مُغمًى عليه، كانت الكلمات الأولى التي صَعِدَتْ من عمق

(1) * إيراسموس (1466 م – 1536 م) فيلسوف هولندي من رواد الحركة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية.

(2) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, v. 237 sq.

أحشائي لاتينيةً، بحيث إن الطبيعة انبثقت وعبَّرت عن نفسها عَنْوَةً بالرغم من ممارسةٍ طويلةٍ للغةٍ أخرى، ونحن نُلاقي هذا الأمر لدى أناسٍ آخرين كُثُر.

18. كلُّ من حاولوا في عصرنا إصلاح عوائد الناس تبعًا للطرائق الجديدة للتفكير، قاموا بإصلاح الرذائل الظاهرة فقط، أما رذائل الطبع العميق لديهم فتركوها على حالها، هذا إذا لم يكونوا قد زادوا منها. والزيادة في الواقع أمرٌ يلزم الاحتراس منه، ذلك أنهم يُعفون أنفسهم طواعيةً من القيام بأي جَهدٍ لكي يقوموا بالمطلوب باسم هذه التغييرات السطحية، التي تتطلب الكثير والتي يُعزى لها الاستحقاق الأكبر. بهذه الطريقة تُرضى بثمنٍ بخسٍ الرذائل الأخرى التي هي طبيعيةٌ فينا وجوهريةٌ وباطنةٌ انظروا كيف يؤثِّرُ ذلك في تجربتنا، ولو أنصت بعضنا لبعضٍ فليس ثمة أحدٌ لا يكتشف في نفسه شكلًا خاصًّا وشكلًا مهيمنًا منها يناضل ضد التربية وضد الانطباعات المناقضة لها، أما أنا فإني لا آبه بالتقلُّبات، إذْ لا أبرح مكاني مثلما تفعل الأجسام الثقيلة والوازنة، وإذا لم أكن دومًا في حالي الطبيعية،أكون قريبًا منها دومًا؛ فتصرفاتي غير المعتادة لا تقودني بعيدًا أبدًا، وأنا لا أجد فيها شيئًا غريبًا ولا متطرِّفًا، لكني أستدْرك نفسي دومًا بطريقةٍ سليمةٍ وقويةٍ.

19. الإدانة الحقَّة المتعلقة بطريقة العيش العادية لمعاصرينا، هي أن حياتهم تظل مليئةً بالفساد وبالقاذورات حتى حين يعتزلون العالم، فليس لديهم عن إصلاح أحوالهم سوى فكرةٍ غامضةٍ، وكفَّاراتُهم عاطلةٌ وتستحق التوبيخ تقريبًا مثل خطاياهم. بعضهم من كثرة ارتباطهم بالرذيلة برابطٍ فطريّ، أو بسبب تعوُّدهم الطويل عليها، لا يروْن حتى بشاعتها. وثمّة آخرون -وأنا من بينهم- تثقل على قلوبهم الرذيلة، لكنهم يعوّضونها بالمتعة أو بشيءٍ آخرَ ويتحملونها، بل ينصاعون لها بشروطٍ معينةٍ، لكن بطريقةٍ جبانةٍ وشريرةٍ رغم ذلك. يمكننا تصوُّر وضعيةٍ تكون من الإفراط بحيث إن المتعة تغفر للخطيئة بكل عدلٍ وإنصافٍ، كما نقبل بذلك في مجال المنفعة،ليس فقط إذا كانت تلك الخطيئة مؤقتةً[1]، ومن

(1) أجمع الشراح على عدم وضوح هذا المقطع.

غير نيَّةٍ في اقترافها -كما هو حال المنتحِل- وإنما حتى حين تكون موجودةً في الفعل نفسه، كما هو الحال في علاقة الجماع مع النساء، حيث تكون الإثارة عنيفةً، بل أحيانًا -وكما يُقال- لا يمكن التغلب عليها.

حكاية السارق

20. في أحد الأيام التي كنت فيها في أراضي أجدادي بمنطقة الأرمانياك، لاقيت فلاحًا يسميه الكل «اللص»، وهكذا حكى لي ما كانت عليه حياته،فلقد وُلد الرجل متسولًا، وبما أنه أدرك أنه بعرق جبينه لم يُفلت من الفقر، قرَّر أن يتعاطى للسرقة. وهكذا قضى شبابه كاملًا في ممارسة اللصوصية في أمانٍ تامٍّ بفضل قوته الجسمانية؛ ذلك أنه إذا حصد أو جمع فواكه وخضر الآخرين، كان يقوم بذلك بعيدًا، ويسرق ذلك بكمياتٍ هائلةٍ، بحيث لم يكن أحدٌ يتصوَّرُ أن رجلًا واحدًا يمكنه نقلُ تلك الكميات كلها في ليلةٍ واحدةٍ على كتفيه، وكان علاوةً على ذلك يحرص على توزيع الضَّرر الذي يتسبَّبُ فيه على أرضٍ شاسعةٍ بشكلٍ عادلٍ، بحيث إنها كانت أضرارٌ قابلةً للتحمُّل لدى كل متضرّرٍ على حدة. وهو يعتبر نفسه اليوم غنيًّا بالنظر إلى وضعيته، بفضل هذه التجارة التي يعترف بها علنًا؛ ولكي يتوافق مع ربِّه بخصوص ما كسبه بهذه الطريقة، يقول إنه يكرِّس نفسه يوميًّا لكي يُرضيَ بإحسانه ورثَة من سرقهم، وبما أنه لا يتوصل إلى ذلك تمامًا بنفسه -لأنه لا يمكنه إرضاؤهم كلهم في الآن نفسه- فقد كلَّف ورثته بالأمر تبعًا لتقديرٍ يعرفه وحده للضرر الذي تسبَّب فيه لكل واحدٍ منهم،وحسب الوصف الذي قام به الرجل لصنيعه، نرى بأنه يعتبر السرقة عملًا شريرًا ويمقته، لكن أقلَّ من الفقر المدْقع. وهو يتوب عنه بشكلٍ عفويٍّ، غير أنه من جهة أخرى- والما كانت خطيئته قد صارت متوازنةً وتمَّ التعويض عن الضرر- فإنه لا يتوب عنها. هذا السلوك ليس شبيهًا بذلك الذي يكون مصدره الاعتياد على الرذيلة، والذي يؤدي بنا إلى أن نعتبره أمرًا عاديًّا، وهو ليس أيضًا ذلك النَّفَسُ المتهوِّرُ، الذي يُعمي أنفسنا برجَّاته ويجعلنا ننقلب في لحظةٍ تحت سيطرة الرذيلة، ومعنا حكمنا والباقي كله.

21. عادةً ما أقوم بكافة الأشياء بعمقٍ، فأنا كلٌّ واحدٌ متكاملٌ، ولا أقوم أبدًا بأشياء تكون خفيةً وتنفلت من عقلي، ولا تكون تقريبًا خاضعةً لقبول نفسي في كليتها، من غير انقسامٍ أو صراعٍ داخليٍّ، فعلى حكمي العقلي يعود كليًا الخطأ أو الثناء، والخطأ الذي قد يُحِسُّ به مرةً، يحسه دومًا، وهو الحكم نفسه تقريبًا منذ أن رأيت النور، بحيث تكون له الميول نفسها، ويتّبع السبيل نفسها وبالقوة ذاتها. وفي الواقع، فإن الأفكار العامة التي تبنَّيتُها منذ الصبا هي تلك التي حافظت عليها في ما بعد.

22. لنتركْ جانبًا الخطايا السريعة والمفاجئة،أما الخطايا الأخرى التي تتكرر مرارًا، والتي يتم تفحُّصها وتقريرها، أي تلك التي يمكن أن نعتبرها «خطايا المزاج»، المتصلة بالمهنة أو بالاهتمامات، فلا أستطيع أن أتصوَّر أنها مغروسةٌ لمدةٍ طويلةٍ في القلب نفسه، من غير أن يكون العقل والضمير لدى صاحبِ تلك الخطايا قد ابتغاها باستمرارٍ، وقبِلها من حيث هي كذلك. والتوبة التي يتباهى هذا الشخص بأنه يمارسها في أحيانٍ محدَّدةٍ، يصعب عليَّ تصوُّرها أو تخيُّلها.

23. أنا لا أتَّبع مدرسة فيثاغوراس، التي تزعم أن الناس يتخذون لهم نفْسًا جديدةً حين يقتربون من تماثيل الآلهة لكي يتلقوا منها نبوءاتها؛ إلا إذا كان ذلك يعني أن تلك النفس مختلفةٌ وجديدةٌ وأشبه بالنفس المؤقَّتة، لأن نفْسنا ليس لها أبدًا سماتُ التطهير والطهارة التي تلائم مراسيم ذلك الحفل.

24. أولئك الذين يتباهوْن بمعرفة التوبة يتعارضون تمامًا مع المبادئ الرواقية؛ لأن هؤلاء يأمروننا بالتصحيح الجيِّد لعيوبنا والرذائل التي نعترف بها فينا، لكنهم يمنعوننا من إفساد راحة أنفسنا. أولئك الناس يجعلوننا نعتقد أنهم يحسون بندمٍ كبيرٍ في بواطنهم، لكنهم إذا ما غيروا أنفسهم وصححوها أو توقفوا عن صنيعهم، فهم لا يُبينون لنا عن شيءٍ من ذلك. لكن ليس ثمة من شفاءٍ ممكنٍ إذا لم يتخلص المرء من دائه، فلو وُضعت التوبة في كفةٍ من كفَّتيْ الميزان فإنها سوف تغلب الخطيئة، وأنا لا أرى أن ثمة موقفًا أسهل تدليسًا من الإخلاص والورع، إذا ما لم يجعلهما المرء ناظميْن لحياته وسلوكه، فجوهره المكين غير مفهومٍ وخفيّ، أما المظاهر فسهلةٌ وخادعةٌ.

أكون ما أكونه

25. وفي ما يخصُّني، يمكنني الرغبة في أن أكون مختلفًا عمّا أنا عليه، قد أجد طريقتي في أن أكون عاديًا، والابتهال للربِّ أن يمنحني صلاحًا تامًا لأحوالي، وأن يعذر ضعفي الفطري، بيْد أني لا يلزمني أن أسميَّ ذلك«توبةً»، مقدار خيبتي في ألا أكون ملَكًا ولا كاتو الأوتيكي. أعمالي متوائمةٌ مع ما أنا عليه ومع قدَري الوجودي، فهي منتظمةٌ معه. وأنا لا أستطيع أن أقوم بما هو أحسن، والتوبة لا علاقة لها بالأشياء التي لا نستطيع لها سبيلًا، وإنما بالندم. وأنا أتصور مجموعةً من الطبائع أكثر رفعةً مني وأكثر انتظامًا، غير أني لا أحسِّنُ من ملكاتي الخاصة بمقدار ما أن عقلي وساعدي لا يصبحان أشدَّ قوةً فقط لأني تصورت أن آخرين كانوا أقوى. فلو كان تصور طريقةٍ في الفعل أكثر نبلًا والرغبة فيها يدفعنا إلى التوبة عن طريقتنا، فسيكون علينا أن نتوب عن أعمالنا الأكثر براءةً؛ لأننا متأكدون من أنها مع طبْعٍ أفضل وأمْثل كانت ستسمو بشكلٍ أكثر كمالًا وكرامةً، ومن ثمَّ كنا سوف نتمنى أن يكون الأمر كذلك. حين أفكر في سلوك شبابي وأقارنه بسلوك شيخوختي، أجد أني عمومًا قد تصرفت فيه بالطريقة التي آمنت بها، وأن ذلك هو ما كنت قادرًا عليه. فأنا لا أتملَّق لنفسي، إذْ في الحالات المشابهة، كنت سأظلُّ أنا هو أنا. لا يمكنني أن تظهر عليَّ لطخاتٌ ناشزةٌ لأني مغلَّفٌ بكاملي بلونها، وأنا لا أمارس التوبة السطحية، ولا التوبة المعتدلة، ولا التوبة الاحتفالية. فعلى التوبة أن تغمرني بكاملي حتى أسميها كذلك، وأن تبلغ مني الأحشاء وتغشاها كليةً وبعمقٍ وبشكلٍ كاملٍ كما يراني الربُّ.

26. أما في مجال شؤوني، فقد تركت الكثير من الفرص الثمينة تُفلت مني؛ لأني لم أعرف كيف أمسك بها. كانت اختياراتي مع ذلك صائبةً تبعًا لما كان يصادفني، فمبدأ تلك الاختيارات هي الانحياز للجانب الأسهل والأكثر وثوقًا، وأنا أعتبر أني في قراراتي الماضية، تصرفت دومًا بحِلْمٍ تبعًا للقواعد المتحكِّمة فيَّ، آخذًا بعين الاعتبار حال ما يُعرَض عليَّ، وسأقوم بالشيء نفسه طيلة حياتي وفي الشروط نفسها، وأنا لا أتحدث هنا عما آلت إليه تلك الصفقة الآن، وإنما ما كانت عليه حينها لمَّا كنت أتفحَّصها.

27. تكمن قيمة أي مشروعٍ في الزمن، فالشروط والفرص لا تكفُّ عن السير والتغير. لقد تحمَّلتُ النتائج الوخيمة لبعض الأخطاء في حياتي، لا لأني تعاملت مع الأمور بسوء تقديرٍ، وإنما لسوء حظي. ثمة في الشؤون التي نقوم بها عناصر سريةٌ وغير متوقَّعةٍ، خاصةً في ما يتعلق بطبيعة الناس، وهي تظهر وتعلن عن نفسها تحت تأثير الأحداث الحاصلة، وإذا لم تستطع حكمتي أن تكشف عنها وتتوقعها، فأنا لا ألومها على ذلك، فقد التزمتْ بحدود دورها، وإذا ما كذَّبت الوقائع تقديري ومالت للاختيار الذي رفضتُ القيام به، فذلك يكون أمرًا لا رادَّ له، فأنا لا ألوم نفسي ولا ما قمت به، وإنما أبكي حظي العاثر، وهذا أمرٌ لا يسمى توبةً.

28. قدَّمَ فوكيون* نصيحةً للأثينيين لم يعملوا بها، ولما كان الأمر قد سار بنجاحٍ على عكس ما كان يتصوَّرُ، فإن أحدهم قال له: «يا فوكيون ، هل أنت فرحٌ لأن الأمور تسير بشكلٍ حسنٍ؟»، فأجابه هذا الأخير: «أي نعم، أنا فرحان أن ذلك حصل، لكني لست نادمًا على نصحكم بذلك». حين يأتي إليَّ أصدقائي لكي أقول لهم رأيي في مسألةٍ، أقوم بذلك بكل حريةٍ من غير أن أقول (كما أغلب الناس) أن الأمر خطيرٌ، وأنه يمكن أن يسير عكس ما توقعت، وأنهم قد يعاتبوني على ما خمنت. فأنا لا أهتم بذلك مطلقًا، وسيكونون على خطإٍ لأني لن أرفض لهم تلك النصيحة.

أنا لا أستمع إلا لنفسي

29. وإني لا ألوم أبدًا شخصًا آخر على أخطائي أو حظي العاثر؛ ذلك أني قلّما أتبع آراء الآخرين من باب اللياقة والأدب، أو حين أكون بحاجةٍ لمعلومةٍ دقيقةٍ ولتفاصيل تخص الوقائع. أما في الشؤون التي لا حاجة لي فيها إلا لحكمي الشخصي، فإن عقول الآخرين -إذا كانت صالحةً لكي أعزز بها وجهة نظري- نادرًا ما تكون سببًا في تغيير رأيي. فأنا أنصت إليها كلها بأدبٍ، لكني لا أتذكَّرُ أني وثقت إلى اليوم في آراءٍغير آرائي، فهي في نظري ليست سوى ذباباتٍ وذراتٍ تشوش على إرادتي. أنا لا أمنح قيمةً كبرى لآرائي، غير أني لا أمنح أهميةً كبرى لآراء الآخرين. الحظ يعاملني

بالأحرى بشكلٍ حسنٍ، وإذا لم أتلقَّ نصائح من شخصٍ لا أمنحه إياها أبدًا، والآخرون نادرًا ما يطلبون مني النصح، غير أنهم يثقون أكثر في تلك التي أقدمها لهم، ولا أعرف أي شأنٍ عموميٍّ أو شخصيٍّ كان لرأيي دورٌ في إنقاذه أو تطويره. وأولئك الذين قادتهم الصدفة إلى الاستماع لنصحي انصاعوا أكثر لتأثير عقلٍ آخرَ غير عقلي، بيد أني أفضّل هذا؛ ذلك أني شخصٌ حريصٌ على حقوق راحته أكثر من حقوق تأثيره في الناس. إنهم حين يتركونني جانبًا يتبعون في الحقيقة ما أبتغي، أي أن أستقر في ذاتي وأقيم فيها كليةً؛ فمتعتي تكمن في ألا أهتم بشؤون الآخرين، وألا يكون عليَّ أن أدافع عنها.

30. كل الشؤون حين تُقضى، تترك لديَّ القليلَ من الأسف؛ ذلك أن ضرورة قضائها يفرج عني كل همٍّ وغمٍّ، إذْ ها هي الآن في المسير الأعظم للكون، وفي تسلسل العِلل الرواقية. إن فكرك لا يمكنه لا بإرادته ولا بخياله أن يغيِّر منها عنصرًا من غير أن يخلْخل ذلك نظام الأشياء برمَّتها، ومعه الماضي والمستقبل.

عقلي يظل دوْمًا على حالِهِ

31. زدْ على ذلك أني أكره التوْبة التي لا تأتي إلا مع التقدم في العمر. ومن قال قديمًا إنه مَدينٌ للسنين أنها عزلته عن الشهوات، كان يفكر بشكلٍ مخالفٍ لي؛ فأنا لا يمكن أن أكون ممتنًّا للعجز بالخير الذي يمكنه أن يمنحني، **«والقدَر لن يكون أكثر عداءً لعمله لو أن العجز رُقِّيَ لمرتبة الأشياء الخيِّرة»**[1]. تصبح رغباتنا نادرةً في الشيخوخة بحيث إن إشباعًا كبيرًا يملؤنا بعد ممارسة الحب، وفي هذا لا أرى شيئًا يعود للضمير. الأسى والوهَن يفرضان علينا فضيلةً غير مكتملة، علينا ألا ننجرف تمامًا مع التقلبات الطبيعية بحيث يفسد بذلك حكمنا. لم يمنعني الشباب ولا اللذة في الماضي من أن أتعرف على وجه الرذيلة وسط الشهوة، والتقزز الذي تحمله مع السنين لا يمنعني أيضًا اليوم

(1) Quintilien, **Institution Oratoire**, V, 2.

من التعرف على وجه اللذة في الرذيلة. والآن وأنا لم أعدْ شابًا أحكم على ذلك كما لو كنت في شبابي، وأنا الذي يقلب عقله على كافة أوجهه بانتباهٍ وبحيويةٍ، أعتبر أن عقلي لا يزال على حالهكما كنت أكثر إباحيةً، مع فارقٍ فقط هو أنه أصابه الوهن والتدهور شيئًا ما مع السنين، وأعتبر أني وأنا أرفض اليوم الانطلاق بحثًا عن تلك الملذات اعتبارًا لصحة بدني، فهذه الأخيرة تتصرف كما في الماضي إزاء صحتي العقلية، وأنا لا أعتبرها أقوى لأني أراها خارج المعركة، فنزواتي صارت كسيرة الجناح وجامدةً بحيث لا تستحق أن تعارضها، وأنا أبتهل لها مادًّا يدي لها، ولو وُضعتْ أمامها شهوانيتي السابقة فأنا أخشى ألا يكون لها القوة الكافية لكبحها، وإني أرى أنها ليس لها ما تحكم عليه من ذاتها مما لم تحكم عليه سابقًا، بحيث لا أجد لها أي وضوحٍ؛ لهذا إذا ما أمكننا أن نتحدث عن صحةٍ عقليةٍ، فإنها في الحقيقة صحةٌ مُهدَّدةٌ شيئًا ما.

لو كان لي أن أعيش مرةً أخرى، لكان ذلك كما عشت سابقًا

32. إنه لأمرٌ مُزرٍ أن نَدين بالصحة للمرض، ليس على تعاستنا أن تخدم هذا الطقس، وإنما حكمنا العقلي. فالأثر الوحيد الذي يكون للمآسي والمصائب عليَّ هي أني ألعنها، فهي لا تصيب إلا الناس الذين يلزم إيقاظهم بضربات السوط. يكون عقلي مشتغلًا بحريةٍ في حالات الرخاء؛ فهو أكثر حريةً في تدبير الملذات منه في تدبير الآلام والمآسي؛ ذلك أن رؤيتي تكون أوضح حين يكون الجو صحوًا، وصحتي تكون لي إنذارًا أكثر مرحًا وفائدةً من المرض. لقد سرت بعيدًا في طريق التحسُّن وفي حياةٍ منتظمةٍ حين كنت قادرًا على التمتُّع بها، وسأكون شخصًا مُخزيًا وغير مُشبَعٍ، لو أنني فضلت مصائب الشيخوخة وبؤسها على السنوات الطيبة التي كنت طَوالها سليمًا وقويًا ومرحًا، بحيث يحكم عليَّ الناس لا بما أنا عليه وإنما تبعًا لما لم أعده. ففي رأيي-وعلى عكس أنتيستينيس- الحياة السعيدة لا الموت السعيد هو ما يشكِّل السعادة البشرية[1]، فأنا لم أسع إلى ربط

(1) سنلاحظ هنا تطور فكر مونتيني بهذا الصدد. فنحن هنا بعيدون عن كون «التفلسف هو تعلم الموت» كما قال في الكتاب الأول، الفصل 19.

حياة فيلسوفٍ بموته، ولم أرغب أيضًا في أن يكون هذا الاستطراد تكذيبًا لأجمل وأكمل وأطول جزءٍ من حياتي، فأنا أحرص على أن أقدِّمَ نفسي وأن أظهر من كافة الجوانب وأن أسلِّطَ الضوء نفسه عليها. ولو كان عليَّ أن أعيش من جديدٍ، فأنا سأعيش كما حييت من قبل، وأنا لا أخشى المستقبل مقدار ما لا أخشى الماضي، وإذا لم أبالغ في الأمر، فذلك أمرٌ كان لديَّ في الظاهر كما في دخيلتي. وبخصوص حال جسدي، فكل فترةٍ في حياتي أتت في وقتها، وهو شيءٌ أدين به لقدَري، فلقد رأيت في عمري العشب والزهور والفاكهة، وأنا اليوم أرى فيه الجفاف، وهو أمر مرِحٌ لأنه طبيعيٌّ، وإني أتحمل أفضل المصائب التي تلمُّ بي في حينها، بحيث تجعلني أتذكر بشكلٍ رائقٍ السعادة المديدة لحياتي الماضية.

33. ذلك أيضًا هو حال حكمتي، فحجمها يمكنه أن يكون فعلًا هو نفسُه في هذه الفترة من حياتي أو تلك.

34. يلزم أن تمسَّ يد الله قلبنا، وعلى ضميرنا أن يتحسَّنَ بنفسه بتعزيز عقلنا لا بإضعاف رغباتنا. اللذة في ذاتها ليست شاحبةً ولا باهتةً لأننا ننظر إليها بعيونٍ دامعةٍ وضبابيةٍ، والاعتدال يلزم أن يكون محبوبًا لذاته مثله مثل العفَّة؛ احترامًا للربِّ الذي أمرنا به، أما الاعتدال والعفة اللذان نَدين بهما للمصائب الصغرى للشيخوخة، وأدين بهما لمحاسن مغَصي الكلوي، فهما ليسا اعتدالًا ولا عفةً. لا يمكن للمرء أن يتباهى بازدراء الشهوة والصراع ضدها، إذا هو جهلها ولم يرَها، ولم يقف على نِعمها وقواها وجمالها الأخاذ.

35. أستطيع الحديث عن الشباب والشيخوخة؛ إذ إني أعرفهما معًا، لكن يبدو لي أن نفوسنا في الشيخوخة تتعرض لأمراضٍ ونواقصَ أكثر إزعاجًا منها في الشباب. كنت أقول وأنا شابٌّ إننا نسمي«حكمة» صعوبة أمزجتنا والتقزز من الأشياء الحاضرة؛ وكان الآخرون حينها يسخرون مني لأني كنت شابًا أمْردَ وها أنا أكررها الآن وشعري الشائب يسمح لي بذلك، والحقيقة أننا لا نتخلى عن رذائلنا بقدر ما نغيرها إلى ما هو أسوأ حسب رأيي، فعلاوةً على الكبرياء العقيمة والغبية والثرثرة المملة -وهي أمزجةٌ شرسةٌ ومنطويةٌ على نفسها- والتطيُّر والنزوع السخيف

للثروات في وقتٍ لا تصلح فيه لشيءٍ، أرى في الشيخوخة حسدًا وظلمًا وشراسةً أكبر، إنها تطبع على عقلنا تجاعيد أكبر مما تطبعها على وجهنا؛ فنحن لا نرى نفوسًا تشيخ، ولا نحس فيها رائحة الحموضة والعفونة إلا فيما ندَر.إنه الإنسان بكامله ينمو ثم يضْمُر.

36. بما أني أعرف حكمة سقراط ومجمل ظروف الحكم عليه، أتساءل إنْ لم يكن قد انساق بنفسه لذلك عَنوةً وبتواطؤٍ منه؛ ذلك أنه كان قد قارب السبعين عامًا، وبدأ يحس بالتصلُّب يستبدُّ بموارد عقله الخصبة، والوهج يأخذ مكان وضوحه المعتاد.

37. يا للتحولات التي أراها لدى العديدين من معارفي بفعل الشيخوخة! إنها مرضٌ خطيرٌ يتفشى فينا بشكلٍ طبيعيٍّ وبشكلٍ تدريجيٍّ، علينا أن نتخذ الاحتياطات الكبرى ونبذل أقصى مجهودنا كي نحمي أنفسنا من النواقص التي تسلِّطها علينا، أو على الأقل أن نخفِّفَ من استشرائها، وأنا أحس أنها تتغلغل فيَّ شيئًا فشيئًا بالرغم مما أنتقصه منها، وإني أقاومها بما لي من جهدٍ، غير أني لا أدري إلى أين ستسير بي في النهاية، فعلى الأقل سأكون سعيدًا أن يعرف الناس من أي جُرْفٍ سقطت في الهاوية.

الفصل الثالث

عن ثلاثة أنواعٍ من العلاقات

1. علينا ألا نرتهن كثيرًا بأذواقنا ومزاجنا الخاص. إن ميزتنا الأساسية تكمن في أن نعرف كيف نتكيَّف مع الظروف المتنوعة، فأن يكون المرء خاضعًا بالضرورة إلى طريقةٍ واحدةٍ في الوجود، أمر يعني أنه يوجد، لكنه لا يعني أنه يحيا. والنفوس الرائعة هي تلك التي تمنحنا أكبر قدْرٍ من التنوع ومن المرونة، ونحن نعثر على مثالٍ جيدٍ لذلك لدى كاتو الكبير: «لقد كان له عقلٌ منبسطٌ بما يكفي لكي يتلاءم بالطريقة نفسها مع كافة أنواع الأنشطة، ومهما كان النشاط الذي يقوم به، نَخالُ أنه النشاط الوحيد الذي وُلد ليقوم به»[1].

الحياة عبارةٌ عن حركةٍ

2. لو كان لي أن أكوِّن نفسي على هواي، فليس ثمة من طريقةٍ -مهما كانت جيدةً- أرغب في اتباعها من غير أن أحيد عنها، فالحياة حركةٌ متقلبةٌ ونزقةٌ وذات أشكالٍ متعددةٍ. لن يكون المرء صديقًا ولا سيدًا لنفسه، وإنما عبدًا لها إن هو اتبع باستمرارٍ ما هو عليه، وظل سجين ميوله الخاصة إلى درجةٍ لا يمكنه أن يحيد عنها أو يقدر على تغييرها، وإذا ما قلت هذا؛ فذلك لأني في هذا الوقت بالذات، لا أستطيع أن أتخلص من الإزعاج الذي يسببه لي عقلي؛ لأنه لا يهتم عادةً إلا بالموضوعات التي تستحوذ عليه تمامًا؛ ولأنه لا يعرف كيف يعمل سوى بشكلٍ متوتِّرٍ وكاملٍ. فمهما كان الموضوع نافلًا وصغيرًا نراه يضخِّمُهُ ويبلورُهُ، بحيث يصير بحاجةٍ لكل قواه لكي يعالجه؛ لهذا فإن عُطلته وفتوره أضْحيا همًّا مُضْنِيًا لي مضرًّا أيّما ضررٍ بصحتي. أغلب العقول بحاجةٍ إلى مادةٍ خارجيةٍ كي تنطلق وتمارس فعلها، أما عقلي فذلك بالأحرى لكي يرتاح ويهدأ، إذ أن«**عيوب الفتور يلزم تصحيحها بالعمل**»[2]. وذلك يعود إلى أن دراسته الأساسية -تلك التي يكرِّسُ لها نفسه أكثر- هي دراسة نفسه، والكتب تشكل له إحدى الاهتمامات التي تحيد به عن ذلك -ومتى ما طرقتْه فكرةٌ، ينتفض ويحس بقوته- تسير في كافة

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XIX, 40.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LVI.

الاتجاهات، وهو يستخدمها تارةً بقوةٍ وتارةً بانتظامٍ ورشاقةٍ، بحيث يهدأ ويعتدل ويتقوّى. إنه قادرٌ بذاته على إيقاظ ملكاته؛ فالطبيعة منحته-كما منحت الناس كافة- مادةً كافيةً ينشغل بها، وما يكفي من الموضوعات التي يمكنه أن يفكر فيها ويُسائلها.

3. التفكُّر هو دراسةٌ مهمةٌ وغنيةٌ لمن يعرف كيف يتفحَّصُ نفسه، وينذر نفسه بقوةٍ لهذه المهمَّة، فأنا أفضِّل أن أشكِّل عقلي بنفسي على أن أملأه. ليس ثمة من شاغلٍ أسهل ولا أقوى من ذلك المتمثل في تواصل المرء مع أفكاره، تبعًا للعقل الذي يملك؛ فالناس العظام يجعلون منه شاغلهم الدائم «**لأن الحياة لديهم تعني التفكير**»[1]، بل إن الطبيعة تمنح الحظوة لهذه الملكة، بحيث ليس ثمة شيءٌ يمكننا أن نقوم به أطول من ذلك، ولا عملٌ يمكن أن نتعاطى له بشكلٍ أكثر استمرارًا وأشد يُسرًا منه. يقول أرسطو: «**التفكُّر شاغل الآلهة ومنه تستمدُّ النعيم، كما نعيمنا نحن**»[2]. أما القراءة فإنها تكون بالأخص مثارًا لتفكيري؛ إذ أقدم له بها موضوعاتٍ متنوعةً، وهي تشغل حُكمي العقلي لا ذاكرتي.

4. ثمة القليل من المحادثات التي تشدُّ انتباهي، إذا ما كانت خاليةً من القوة. صحيحٌ أن المتعة والجمال يملآن كياني ويأخذان باهتمامي أكثر من الجدِّ والعمق، وبما أنني في كل محادثةٍ يصيبني الإغفاء غير مُعيرٍ لها إلا قشرة اهتمامي، يحدث غالبًا أني -وسط حديثٍ سطحيٍّ ومشتَّتٍ مليءٍ بالتفاهات- أتفوَّه بالهراء وأجيب عن أشياءَ جوفاءَ سخيفةٍ لا تليق حتى بصبيٍّ، أو أن أنطويَ على نفسي في صمتٍ عنيدٍ يكون أكثر بلادةً وتوحشًا، وإن لديَّ ميلًا لحلم اليقظة يدفعني إلى الغوص في نفسي، وهاتان الخاصيَّتان جعلتا الناس يستطيعون حقًّا أن يحكوا عني بضع حكاياتٍ أبدو فيها مغفَّلًا وأخرقَ كما أي شخصٍ آخرَ.

---

(1) Cicéron, **Tusculanes**, V, 38.

(2) Aristote, **Morale à Nicomaque**, X, 8.

الغباء حين يكون عامًّا

5. وعوْدًا إلى حديثي، أعتبر أن هذا الطبْع الصارم يجعل مني شخصًا صعب المراس في علاقتي مع الناس؛ إذْ أن عليّ أن أختارهم بالصدفة، ويجعلني أرعن في الحياة العادية. لدينا علاقاتٌ مع أناس الشعب، ونحن نعيش معهم، وإذا كان التعامل معهم يزعجنا، وإذا ما نحن كرهنا أن نضع أنفسنا في مستوى العقول البسيطة والعادية -مع أن تلك العقول منظمةٌ بشكلٍ جيدٍ مقْدار العقول الأكثر حصافةً، وكل معرفةٍ لا قيمة كبرى لها إذا لم تتلاءم مع الغباء العامّ- فإننا لا يمكننا أبدًا أن نهتم لا بشؤوننا الخاصة ولا بشؤون الآخرين. فالمواقف الأقل توترًا والأكثر فطريةً لأنفسنا هي الأجمل، وأفضل الانشغالات هي تلك التي تكون أقل إكراهًا. يا إلهي، يا لها من خدمةٍ رائعة تقدمها الحكمة لأولئك الذين تتحكم في رغباتهم وفي قدراتهم! فليس هناك من معرفةٍ أكثر فائدةً من ذلك. «افعل ما أنت عليه قادرٌ»، كانت تلك هي العبارة المفضلة لدى سقراط، وتلك العبارة ذات قيمةٍ كبرى؛ إذ علينا أن نعرف كيف نوجّه رغباتنا ونجعلها تكتفي بالأشياء الأيسر والأسهل في بلوغها. أليس غباءً مني ألا أستطيع التفاهم مع مئات الأشخاص الذين ألاقيهم والذين لا أستطيع الاستغناء عنهم؛ لأكتفي من بينهم بواحدٍ أو اثنين يكونان بعيديْن عن متناولي، ويشكلان بالأحرى رغبةً عارضةً؟ إن شخصيتي السهلة المعادية لكل مرارةٍ وقساوةٍ، قد تكون حمتْني من الأحقاد والخصومات، ولا أحد أكثر مني ظلَّ قادرًا على عدم التعرُّض للمقْت وعلى أن يكون محبوبًا، بيْد أن برودة سلوكي في المجتمع قد حرمتني حقًّا من رعاية العديد من الناس، فهم معذورون لأنهم أوَّلوا تلك البرودة بشكلٍ آخرَ، وبأسوأ المعاني.

6. أنا قادرٌ كل القدرة على أن أكوّنَ الصداقات الرفيعة المستوى وأحافظ عليها؛ لأنني أتشبَّثُ بشهيةٍ باللقاءات الملائمة لذوقي، وأنا أتقدم فيها وأرمي فيها بنفسي بنهَمٍ بحيث أرتبط بها، وأترك انطباعًا حسنًا حيثما مررت، وهو أمرٌ عشْت تجربته مرارًا وتكرارًا، لكني في الصداقات العادية عقيمٌ وباردٌ شيئًا ما؛ لأن سلوكي الطبيعي هو أن أطلق العنان لنفسي، إضافةً

إلى ذلك، منحني القدَر في شبابي أن أعيش صداقةً وحيدةً مكتملةً كنت أقدرها حقَّ قدرها، وهو أمرٌ جعلني حقًّا أشمئز من الصداقات الأخرى، بحيث انطبعتْ في ذهني فكرة أن الصداقة حيوانٌ أليفٌ لا دابة قطيع- كما قال أحد المؤلفين القدامى[1]- بل علاوةً على ذلك، عليَّ القول إنه يصعب عليَّ أن أتحدث باقتضابٍ ومن غير أن أكشف عن نفسي كليةً، كما يعسر عليَّ التعبير بتلك الحيطة الوضيعة والمرتابة التي نُنصح بها في تلك العلاقات الكثيرة وغير المكتملة، خاصةً في أيامنا هذه التي لا يمكن الحديث فيها عن الناس إلا بخطورةٍ أو بزيْفٍ.

عقلٌ بطبقاتٍ متعددةٍ

7. ومع ذلك، فإني أعتقد أن مَن كان هدفه الأساسيُّ-مثلي- هو نِعَم الحياة -وأنا أتحدث هنا عن النِّعَم الواقعية- عليه أن يهرب من تعرُّجِ السلوك هذا ودقائقه كما من الطاعون، وأنا أمتدح هنا العقل ذا الطبقات المتعددة، القادر على التمدُّد والانكماش، والذي يوجد حيثما سار به قَدَرُهُ. العقل الذي يمكنه أن يتحدث مع جاره عن مشاريعه وبناياته، وعن خرْجة الصيد وعن قضاياه التي تبتُّ فيها المحكمة، والذي يمكن أن يدرْدشَ بمتعةٍ مع بنَّاءٍكما مع بستانيٍّ، وأنا أغبط أولئك الذين يستطيعون أن يتعرفوا عن قربٍ على أبسط خادمٍ لهم، والتحادث مع أناس بيتهم.

8. لا أحب ما يقوله أفلاطون[2]، حين ينصح المرء بالتحدث دومًا بطريقةٍ استبداديةٍ مع خدمه من غير مزاحٍ أو ألفةٍ، مع الرجال منهم كما مع النساء، وعدا السبب الذي ذُكر آنفًا، فمن اللاإنسانية والظلم أن نمنح هذه الأهمية العظمى لامتيازات الثروة، فالمجتمعات التي يُسمح فيها بفوارق أقلَّ بين الخدم وأسيادهم تبدو لي أكثر عدلًا.

9. يسعى الناس الآخرون إلى إبراز عقولهم والعمل على رفْعتها بحزمٍ، أما

(1) Plutarque (Amyot), **De la pluralité d'amis**, t. II.

(2) يتعلق الأمر طبعًا بالعبيد لدى أفلاطون في كتاب «الشرائع».

أنا فأسعى إلى لجم عقلي وتركه مرتاحًا، فهو لا يكون عقلًا سيئًا إلا حين يسْتعرض نفسه.

«أنت تحكي لي عن أبناء أياكوس*[1]
والمعارك التي وقعت تحت الأسوار المقدسة لطروادة
لكن أيُّ ثمنٍ سندفع في خمر خيوس؟
وأيُّ خادمٍ سيسخّن لي حمَّامي؟
ولدى أيِّ مُضَيِّفٍ وفي أيِّ ساعةٍ
سألجأ احتماءً من صقيعٍ خليقٍ بأناس الجبل؟
فعنْ كل هذا أنت لا تنبسُ ببنتِ شفةٍ»[2].

10. كانت الشهامة الإسبّرطية بحاجةٍ إلى التلطيف من نفسها بأصوات النايات العذبة والشجية خلال المعارك، خوفًا من أن تتحول تلك الشهامة إلى تهورٍ وغضبٍ عارمٍ، في الوقت الذي تستعمل فيه الشعوب الأخرى عادةً أصواتًا عنيفةً وحادَّةً لاستثارة همَّة جنودها بشدة. بالشكل نفسه يبدو لي أننا- بخلاف العادة، وفي طريقة استعمالنا لعقلنا- بحاجةٍ بالأحرى للرصانة لا للأجنحة، وللبرود والهدوء لا للهياج والحدَّة؛ ونحن -في نظري- بحاجةٍ بالأخص إلى التظاهر بالغباء على التظاهر بالمعرفة بين من لا معرفة لديهم، والحديث دومًا بطريقةٍ حاسمةٍ وقاطعةٍ كحدِّ السيف البتَّار. عليك أن تجعل نفسك في مستوى من همْ معك، وأحيانًا التظاهر بالجهل. واتركْ جانبا القوة واللياقة، ففي التعامل العاديِّ عليك الاكتفاء باستعمال الوسائل العادية. وانبطحْ أرضًا إذا ما هم طلبوا منك ذلك.

النساء العالمات

11. والعلماء يتعثَّرون دومًا في ذلك، فهم يستعرضون أستاذيتهم باستمرارٍ، ويذيعون في كل مكانٍ ما تعلموه في الكتب، وفي وقتنا هذا نراهم قد ملأوا الصالونات وشغلوا آذان السيدات؛ إذْ إنهنَّ إنْ لم يدركنَ كُنْه

(1) * ملك إغريقي أسطوري.

(2) Horace, **Odes**, III, XIX, 3.

خطاباتهنَّ، فقد احتفظنَ في ذاكرتهنَّ بمظهرها، بحيث إنهنَّ يستعملنَ في كافة الموضوعات-مهما كانت غير رفيعةٍ وعاديةٍ- طريقةً في الحديث جديدةً وعالمةً.

«إنهنَّ يعبرنَ بهذه اللغة عن مخاوفهنَّ
وعن غضبهنَّ وأفراحهنَّ وهمومهنَّ وكافة أسرار أنفسهنَّ
ما القول فوق كل هذا؟ حتى في السرير يتحدثنَ بتصنُّعٍ متعالمٍ»[1].

إنهنَّ يستشهدنَ بأفلاطون والقديس توما الأكويني عن أشياء يمكن لأي واحدٍ أن يقول فيها رأيه، فالعلم -الذي لم يبلغ منهن العقل- ظلَّ فقط على اللسان.

12. وإذا ما أرادت الموهوبات بالطبع من بينهنَّ تصديقي، فليكتفينَ بإبراز غناهنَّ الشخصيِّ والطبيعيِّ. إنهن يخفينَ ويسترنَ جمالهنَّ بجمالٍ غريبٍ، ومن الغباء أن تواري المرأة نُضوحها كي تلمع بنضوحٍ مستعارٍ. إنهن يبدينَ كما لو كنَّ مدْفوناتٍ تحت الاصطناع، وكما لو خرجنَ من صندوق أدوات التجميل[2]. ويعود ذلك إلى أنهنَّ لا يعرفنَ أنفسهنَّ بما يكفي، فالدنيا ليس فيها ما هو أجمل منهنَّ، وعليهنَّ بالعكس أن يزيّنَّ الفنون ويجمّلنَ ما هو جميلٌ. ما الذي يحتجْنَه أكثر من أن يعشنَ محبوباتٍ مشرَّفاتٍ مكرَّماتٍ؟ فهن يملكنَ لذلك الكثير ويعرفْنَ له الأكثر، وهن لا يحتجنَ سوى إلى إيقاظ ملكاتهنَّ الكامنة فيهن وتسخينها. حين أراهن مشدوداتٍ للبلاغة والقانون والمنطق وغيرها من العقاقير الأخرى النافلة وغير المجدية، والتي هنَّ لسْنَ بحاجةٍ إليها البتة، أخشى جدًا أن يكون الرجال الذين يرشدونهنَّ في ذلك لا يقومون بهذا إلا لكي يتمكنوا من التحكُّم فيهنَّ بهذه الذريعة، وإلا فأيُّ عذرٍ لهنَّ في ذلك؟ إنهنَّ يستطعنَ أن يسلمنَ بهاء عيونهنَّ للمرح كما للصرامة أو اللطافة، وتمليح الرفض بالقساوة والشك أو التكرُّم، فليس عليهن أن يتأوَّلنَ

(1) Juvénal, **Satires**, VI, vv. 189 sq.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, CXV.

الخطاب الموجه إليهنَّ على وجه اللياقة بشكلٍ عالِمٍ. إنهن بالعلم الذي يملكن يتحكمن بالإصبع في المدرسة كما في معلميهن أنفسهم، وإذا ما استأْنن من الاستسلام لنا في أي شيءٍ من الأشياء، ورغبْن من باب الفضول في الاطلاع على الكتب، فإن الشعر هو ما يلائمهن أيما ملاءمةٍ، فهو فنٌّ خفيفٌ ولطيفٌ ومقنَّعٌ، وكله كلامٌ ومتعةٌ، وكله مظهرٌ كما هنَّ عليه، كما أنهن سيستفدنَ أيّما استفادةٍ من دراسة التاريخ. وفي الفلسفة-في المجال الذي يخصُّ منها الحياة- سيمتحنَّ منها الاستدلالات العقلية التي ستعلمهنَّ الحكم على سلوكنا وأمزجتنا، وحماية أنفسهنَّ من خياناتنا، ولجْم حماسة رغباتهنَّ الخاصة، والتحكُّم في حريتهنَّ كما في قساوة أزواجهنَّ وفي التجاعيد والتقدم في العمر، وما شابه ذلك. ذلك إجمالًا ما أُسْندُ لهنَّ في العلم.

مديح الوحدة

13. ثمة أناسٌ منطوون على أنفسهم، قليلو الميل لمعاشرة الآخرين. أما موقفي العميق فهو على العكس من ذلك يقبل التواصل والظهور في الخارج، فأنا أخرج وأؤكد ذاتي وأسعى بشكلٍ طبيعيٍّ للرفقة والصداقة. والوحدة التي أحب وأدعو إليها تتمثَّل أساسًا في أن أستبطن أحاسيسي وأفكاري، وفي أن أقلِّص وأشدَّ لا خطواتي وإنما رغباتي وانشغالاتي، رافضًا لكل همٍّ يأتيني من الخارج، وهاربًا بأي ثمنٍ من الخنوع والإكراه، ليس فقط اللذيْن تفرضهما الحشود، وإنما أيضًا الشؤون والمصالح. والحقيقة أن عزلة بيتي هي امتدادٌ لي، فهي تدفعني إلى الخارج حين أكون وحيدًا،بحيث أنغمس طواعيةً في شؤون الدولة وفي العالم الفسيح من حولي. أما في اللوفر ووسط الحشود، فأنطوي وأنكمش في جلْدتي: فالحشود تجعلني أدخل إلى طويَّتي، بحيث لا أتفوّه بحماقاتٍ وبأشياءَ إباحيةٍ وشخصيةٍ، إلا في أماكن حيث الاحترام وضبط النفس أمورٌ ساريةٌ. ليست تُرَّهاتنا هي ما يضحكني وإنما حكمتنا، وطبعي لا يجعل مني عدوًّا لصخب الدروس، فقد قضيت فيها قسطًا من حياتي، وأنا هكذا طبعي، بحيث أسير بمرحٍ نحو التجمعات الحاشدة، فقط أن يكون ذلك

من وقتٍ لآخر حين أرغب في ذلك، بيْد أن حذَق الحكم -التي تحدثت عنها آنفًا-يُكرهني حتمًا على الوحدة حتى في بيتي وسط عائلةٍ كثيرة الأفراد، وبيتٍ يرتاده الكثير من الناس، حيث أرى دومًا أناسًا، لكنهم أناسٌ نادرًا ما أستمتع بالحديث معهم، وأنا فيه أحتفظ لنفسي وللآخرين بحريةٍ غير معتادةٍ، بحيث أترك فيها مراسيم الاحتفاء وضرورة المرافقة، وإيصال الضيوف لباب البيت وغيرها من القواعد المضنية التي تتطلبها اللياقة لدينا، ويا لها من مواضعاتٍ سخيفةٍ ووضيعةٍ! وكل واحدٍ فيه يتصرَّف على هواه، ويغرق في أفكاره إذا ما أراد ذلك، وأنا أمكث فيه صامتًا وحالمًا ومنطويًا على نفسي، من غير أن أثير استياء ضيوفي.

14. الناس الذين أسعى للاجتماع بهم والألفة معهم هم من أسميهم «أشخاصًا ذوي مزايا». والفكرة التي أكوِّنها عنهم تجعلني أدير الظهر للآخرين، وإذا ما تفحَّصنا الأمر فتلك هي الأنْدر من بين طرائق الوجود، وتلكم أساسًا مسألةُ طِباعٍ، والهدف من هذا النوع من العلائق، هو ببساطة الألفة والارتياد والمحادثة، أي استعمال العقل من غير نتيجةٍ. وفي أحاديثنا تكون كل الموضوعات متساويةً في نظري، لا يهمني إن كانت سطحيةً أو خفيفةً، ما دمت الرهافة والدقة تكون حليفةً لها دومًا، ويكون كل شيءٍ فيها مطبوعًا بحكمٍ ناضجٍ وثابتٍ ممزوجٍ بالطيبة والصراحة والمرح والصداقة. فليس فقط في النقاش في «الصلاحيات الحقوقية للسلالة» يمكن لعقلنا أن يفصح عن جماله وقوته، أو في القضايا التي تهم الملوك، فهو يُبديهما أيضًا في النقاشات الشخصية. وأنا أتعرَّف على أناس ببصمتهم أيضًا وبطريقتهم في الابتسام، وربما أكتشفهم أفضل حول الطاولة في اجتماعٍ. قال هيبّوماخوس[1] عن حقٍّإنه كان يتعرَّفُ على المصارعين الجيدين فقط من طريقة مشيتهم في الشارع، وإذا ما كان العِلْم يريد التدخل في أحاديثنا، فليس لدينا مانعٌ، لكن عليه ألا يكون مُزعجًا ولا متهورًا ولا متشدّدًا كما هو في الغالب، بل عليه أن يكون وديعًا وخَدومًا. نحن في أحاديثنا لا نسعى إلا إلى تزْجية الوقت، وحين يأتي الوقت لكي نكون متعلمين نعرف كيف نبحث عن العلم حيثما كان. لكن هذه المرة عليه أن يتركنا لحالنا؛ لأنه مهما كان مأمولًا

(1) كان هيبوماخوس أستاذًا في المسايفة والمصارعة، والحكاية جاءت لدى بلوتارخوس، حياة ديونيسيوس، الجزء الأول.

ونافعًا-وهو ما أفترض- يمكننا ألا نكون بحاجةٍ له كليةً، ونبلغ مآربنا من دونه، والعقل المكتمل المحنَّك في العلاقات البشرية يصبح رائقًا بذاته، فالفن يتمثل ببساطةٍ في فحص ما أنتجته هذه العقول وتجميعه.

15. وإني أحبِّذ أيضًا أن تكون لي علاقاتٌ مع نساءٍ جميلاتٍ ونبيلاتٍ، فنحن أيضًا لنا عيون العارفين[1]، وإذا كان العقل لا يجد فائدةً معادِلةً لهذا النمط من العلائق كما السابق، فإن الحواس الجسمانية تأخذ فيها بالمقابل حصَّةً كبرى وترفعها إلى مستوًى قريبٍ منها، بالرغم من أنها -حسب رأيي- لا تصل إلى مضاهاتها، بيد أنه نوعٌ من العلاقات يجب فيه لزوم الحيطة والحذر، وهو أمرٌ صحيحٌ لدى أناسٍ يلعب لديهم الجسد دورًا بالغ الأهمية. وقد ألمت بي منها خيباتٌ كثيرةٌ في شبابي، وخضعتُ لكافة أنواع الحماس لها، وهي التي -كما يقول الشعراء- تصيب من ينصاع لها من غير قواعد ومن غير حكْمٍ عقليّ، بيْد أن تلك الصفعات قد كانت عبارةً عن درسٍ تعلمته.

«كل من في أسطول آرغوس نجا من رأس كافيريوس[2]
لا زال يطلق الشراع للخروج من وابية»[3].

16. وإنه لمن باب الجنون أن يربط المرء أفكاره كلها بتلك العلاقات، ويندرج فيها من غير تبصُّرٍ وبهوًى جارفٍ، لكن من ناحيةٍ أخرى، أنْ يدخلها المرء من غير حبٍّ، ومن غير أن تكون إرادته خاضعةً له، مثل ممثلٍ مسرحيٍّ يلعب فيها ذلك الدور التقليديَّ والمعتاد في وقتنا، بحيث لا يندمج فيها إلا بالكلام المنطوق، هو أمرٌ يعني أن يضمن أمانه وسلامته، لكن بطريقةٍ بالغة الجبن، مثل ذلك الذي يتخلى عن شرفه وامتيازه أو لذته بسبب الخطر، فالأكيد أن أولئك الذين يتصرفون هكذا مع النساء، لا يمكنهم أن ينتظروا استخلاص أي نتيجةٍ منهن يمكنها أن تؤثر في عقلٍ عظيمٍ أو ترضيه. وأنا أقول إن الأمر كذلك حتى حينما يسعف الحظ هذا الضرْب من اللعب، وهو ما يحدث غالبًا؛ لأنه لا توجد امرأةٌ -مهما كان حظها

(1) Cicéron, **Paradoxes,** V ,2.

(2) كافيريوس صخوز شاطئيةٌ في جزيرة وابية باليونان، حيث تقول الخرافة إن الأسطول اليوناني تحطم عليها عند عودته من طروادة.

(3) Ovide, **Tristes,** I, 1, vv. 83-84.

يسيرًا من الجمال والحسن- لا تعتقد أنها خليقةٌ بأن تكون محبوبةً، ولا تثير الانتباه بعمرها ولا بشعرها وحركاتها؛ فالنساء البشعات لسن بأكثر عددًا من الحسناوات. تسير النساء الهنديات للساحة العامة أمام الشعب المحتشد هناك لهذا الغرض، وحين لا يكون لهنَّ شيءٌ ذو قيمةٍ يُظهرنه من جسدهنَّ، يكشفنَ عن أعضائهنَّ الحميمة؛ لكي يرينَ إن كنَّ بذلك على الأقل يستحققْنَ العثور على زوجٍ.

17. ليس ثمة من بين النساء إذًا امرأةٌ واحدةٌ لا تنصاع بسهولةٍ للاقتناع بأول قَسَمٍ يقسم به لها امرؤٌ بأن يكون خادمًا لها، والحال أن هذه الخيانة المعتادة والمشتركة للرجال اليوم تقود إلى ما يمكننا ملاحظته، أعني أن النساء ينكفئنَ على أنفسهنَّ أو يتحالفنَ في ما بينهنَّ كي يُبعدْنَنا عنهنَّ، أو أيضًا أنهن يستخدمْنَ لصالحهنَّ الأنموذج الذي نقدمه لهن، ويلعبنَ مسرحيتهنَّ الماكرة، بحيث ينصعنَ لتلك العلاقات من غير شغفٍ، ومن غير اهتمامٍ حقّ ومن غير حبٍ. «إنهنَّ لا يعرنَ اهتمامًا لأي هوًى صادرٍ عنهنَّ أم عن الآخرين»[1]. فهن يعتبرنَ أنهنَّ يستطعنَ أن ينصعنَ لنا بشكلٍ نافعٍ وسهلٍ مقدار ما نحن نحبهنَّ أقل. تبعًا لنصيحة ليسياس كما جاءت لدى أفلاطون[2]، سيكون الأمر إذًا أشبه بالكوميديات، بحيث إن الجمهور سيتمتع بها مثل الممثلين، وربما أكثر منهم.

فينوس وكيوبيد[3]

18. أعتبر أن ليس ثمة فينوس من غير كيوبيد مقدار ما لا وجود لأمومةٍ من غير أولادٍ، فهي أمورٌ تتبادل جوْهرها ويتعلَّق بعضها ببعضٍ؛ لهذا ينقلب الخداع على صاحبه، وهي لا تتطلَّب منه ثمنًا غير أنه لا يربح منها شيئًا ذا قيمةٍ، ومن جعلوا من فينوس إلهةً اعتبروا أن جمالها الجوهريَّ من طبيعةٍ غير جسمانيةٍ وروحانيةٍ، بيد أن تلك التي يبحث عنها الناس

(1) Tacite, **Annales**, XIII, 45.

(2) في بداية محاورة فايدروس.

(3) في الميثولوجيا الرومانية فينوس هي إلهة الحب والغواية والحسن الأنثوي، وكيوبيد، وهو ابن فينوس ومارس، إله الحب، وهو الخادم المطاوع لأمه كما نلاحظ ذلك في أسطورة «بسوخي».[المترجم]

الذين أتحدث عنهم، ليست فقط بشريةً ولا حتى حيوانيةً؛ فالحيوانات لا تريدها وقحةً ولا مبتذلةً. ونحن نلاحظ أن الخيال والرغبة يلهبانها ويثيرانها عادةً قبل الجسد حتى،كما نلاحظ لدى هذا النوع أو ذاك من الحيوان أنه يقوم بالاختيار والفرْز ضمن الجُموع كي يمنح عاطفته، وأنه يقيم -بين بعضه البعض- علاقاتٍ مليئةً بالعناية والرعاية وذات أمدٍ طويلٍ، والحيوانات التي ترفض لها الشيخوخة القوة البدنية، تظل ترتجف أبدانها وتصهل وتقشعر من الجماع، ونحن نراها قبل المباضعة نفسها مليئةً بالتشوُّق والحرارة، ومتشبعةً بحلاوة تلك الذكرى حين يكون الجسم قد لعب دوره، بل إننا نرى منها حيواناتٍ تنتفخ فخرًا بسبب ذلك وتطلق أناشيد الفرح والنصر، ومَن لا يحس سوى بالحاجة لتفريغ جسمه من ضرورةٍ طبيعيةٍ ما، ولا يهتم باستجذاب الآخر باستعداداتٍ مشهيةٍ، فذلك ليس طعامًا صالحًا لرغبة عاتية.

19. وبما أنني شخصٌ لا يسعى إلى أن يظهر بمظهرٍ أفضل مما هو عليه، فإني سأحكي ما يلي عن أخطاء شبابي. لم أترك نفسي أبدًا أنساق لإقامة علاقاتٍ مع بائعات هوى، ليس فقط نظرًا للمخاطر التي يتضمنها ذلك على الصحة -فأنا لم أكن حاذقًا في تلافي إصابتيْن بالمرض كانتا مع ذلك خفيفتيْن ومحدودتيْ الأثر- وإنما اشمئزازًا من ذلك. لقد سعيتُ إلى شحذ اللذة العاشقة بالصعوبة وبالرغبة وبمجْدٍ معيَّنٍ، ولقد أحببت الطريقة التي كان بها الإمبراطور تيبيريوس يتعلق بمحبوباته، بسبب تواضعهنَّ كما لِنبلهنَّ الأخلاقيّ أكثر من أي مزيَّةٍ أخرى، وأحب أيضًا موقف المحظية فلورا، التي كانت لا تمنح نفسها إلا لمن كان على الأقل قاضيًا ممتازًا أو قنصلًا أو رقيبًا، وتمتح لذتها من مزايا عشاقها[1]. صحيحٌ أن الجواهر والألبسة الموشَّاة تمنح شيئًا زائدًا للعاشق، ومعها الألقاب والخدم والحشم، علاوةً على ذلك فإني وإن كنت أمنح للعقل والروح أهمية كبرى، فقد كنت أيضًا أحرص على أن يكون للجسد دوره؛ وحتى أكون نزيهًا، فإذا كان مقدَّرا لي أن أفقد جمالًا واحدًا منهما، كنت سأختار التخلي عن جمال الروح، فهو يجد في أمكنةٍ أخرى وظيفته الأمثل، وفي مجال الحب الذي يتعلق أساسًا بالبصر واللمس، يمكننا أن نستغْني عن

(1) هذه القصة ابتدعها جزئيًا المؤرخ الإسباني أنطونيو دي جيبارا، واستعادها اقتباسًا منه الكاتب الفرنسي برانتوم.

نِعم الروح والعقل لا نعم الجسد وفضائله. تتمثل الميزة الحقة للنساء في الجمال، فهو ينتمي لهن أفضل مما ينتمي لنا جمالنا، الذي يتطلب ملامح مختلفةً شيئًا ما، ولا يمكنه مهما كان كماله أن يضاهي جمالهن، إلا لدى الصبي والمراهق. يُقال إن من يخدمون الأتراك لجمالهم -وهم لا يُحصوْن- يتم الاستغناء عنهم قبل الثانية والعشرين من عمرهم.

20. إن براهين الصداقة وحكمتها وواجباتها توجد بالأخص لدى الرجال؛ ولهذا فهم الذين يتحكمون في شؤون العالم.

21. يعود نوعا العلاقات التي تحدثتُ عنها -العلاقة مع الرجال المرموقين والعلاقة مع النساء الجميلات والنبيلات- إلى المصادفة، وهي ترتهن بالناس الآخرين. ومساوئ النوع الأول تتمثل في أنها علاقاتٌ نادرةٌ، أما مساوئ الثاني فتتمثل في كونها تذبل مع التقدُّم في العمر؛ لهذا فهي لم تكن كافيةً لملء حياتي. أما النوع الثالث منها -أي العلاقة بالكتب- فهي أكثر وثوقًا وذات طابعٍ شخصيٍّ أكبر. إنها لا تمنح لنا فضائل العلاقات الأخرى، غير أنها أكثر ثباتًا واستمرارًا وسهولةً في الاستعمال، فهي تصاحبني على طول حياتي وتكون عوْنًا لي في كل مكانٍ؛ وهي تواسيني في شيخوختي ووحدتي، وتخلِّصني من عبء العطلة المملة، وتمكِّنني من أن أنفلت في كل وقتٍ من الناس المضْجرين، وهي تخفف من هجمات الألم التي تلمُّ بي إذا لم تكن في حدَّتها القصوى ولم تستبد بي كليةً؛ ولكي أجد مهرْبًا من فكرةٍ مزعجةٍ، يكفيني أن ألجأ للكتب، فهي تحتويني بسهولةٍ وتلهيني عنها. إضافةً إلى ذلك فهي لا تتضايق من أنني لا أبحث عنها إلا عند غياب المُتع الأخرى التي تكون أكثر واقعيةً وأكثر طبيعيةً، بحيث إنها تكون دومًا في استقبالي ببشاشةٍ.

22. يُقال إننا نكون مرتاحين حين نتمشَّى على الأرجل سائسين الجواد من لجامه، أما جاك دو بوربون، ملك نابولي وصقلية، الشاب الجميل والسليم الصحة، الذي كان يوضع على محملٍ خلال رحلاته، ممدَّدًا على مخدةٍ من الريش ومرتديًا سترةً من الخزِّ وطربوش من النوع نفسه، مع سُررٍ وجيادٍ من كل صنفٍ ونوعٍ تقاد باليد، والنبلاء والخدم والحشم من حواليه، فإنه كان في الحقيقة يقدِّمُ لنا صورةً ضعيفةً وضبابيةً

عن التقشف؛ فالمريض الذي يكون شفاؤه في متناول يده لا يستحق الأسى والعطف، ففي تجربة تطبيق هذه الحكمة المليئة بالحقيقة، تكمن الثمار التي أجنيها من الكتب، وأنا أتمتع بها كما يتمتع البخيل بما يكنز من مالٍ، بمعرفة أنني سأتمتع بها متى طاب لي ذلك، فعقلي يكتفي ويتشبَّعُ بهذا الحق الذي يمنحه لي امتلاكي لها. وإنّي لا أسافر أبدًا من غير كتبي، لا في وقت السلم ولا في وقت الحرب، لكنقد تمر أيامٌ أو شهورٌ عديدةٌ من غير أن أطَّلع عليها، وأقول لنفسي: «قريبًا، أو غدًا، أو حين يطيب لي ذلك». ويمر الزمن خلال ذلك من غير أن أقلق للأمر. فأنا أعجز عن التعبير عن الراحة التي أحس بها والتفكير مليًّا في أنها جنبي لتمنحني المتعة في الوقت المناسب، وإلى أي حدٍّ تكون عوْنًا لي في حياتي، فهي المؤونة الأمثل لي في هذه الرحلة الدنيوية، وأنا أشفق كثيرًا على الناس الأذكياء الذين لا يتسلحون بها،كما أقبل طواعيةً أي تسليةٍأخرى -مهما كانت غير مفيدةٍ- على ألا تنقصني تسلية الكتب.

مكتبة مونتيني [1]

23. حين أكون ببيتي، ألجأ في الغالب إلى مكتبتي ومنها أستطيع تسيير شؤون البيت، فأنا أكون فوق المدخل، ويمكنني أن أرى في الأسفل الحديقة والإسطبلات والفِناء والجزء الأكبر من البيت. وهناك، أتصفح تارةً كتابًا وتارةً كتابًا آخرَ، من غير نظامٍ أو هدفٍ محدَّدٍ، وبشكلٍ فوضويٍّ. أحيانًا أنساق للحلم، وأخرى أسجل ملاحظاتٍ وأملي أحلام اليقظة التي بين أيديكم.

24. توجد مكتبتي في الطابق الثالث لبرجٍ يحوي الطابق الأول منه كنيستي الصغيرة، والثاني غرفتي وملحقاتها، وهناك أنام غالبًا كي أبقى وحيدًا، وفوقها توجد غرفةٌ واسعةٌ كانت في ما مضى المكان الأقل نفْعًا في البيت، وهي اليوم مكتبتي، وفيها أقضي أغلب أوقاتي وسحابة يومي، أما في الليل فلا أرتادها أبدًا، وهي تُفضي إلى غرفةٍ ضيقةٍ يمكن إشعال المدفأة فيها

(1) انظر ملحق الصور ص. 445 وما يليها.

شتاءً ويصلها كفايةً النور من نافذةٍ، ولوْ لم أكن أخشى الهموم أكثر من المصاريف، لكنت أضفت إليها من كل جانبٍ رواقًا بطول مئة قدمٍ وبعرض اثني عشر قدمًا في المستوى نفسه، لأني اكتشفت أن ثمة حيطانًا قابلةً لذلك كانت معدةً لاستعمالٍ آخر ولها العلوُّ المطلوب. كل مكانٍ يكون معزولًا يكون منتزهًا، فأفكاري تغفو إذا ما ظللتُ جالسًا، وعقلي لا يكون نشيطًا إذا لم تحرِّكه رجلاي. ومن يدرسون من غير كتبٍ يعرفون ذلك.

25. مكتبتي دائرية الشكل، والجانب الوحيد المستوي كبيرٌ بما يكفي فقط لطاولتي وكرسيَّ[1]، وهو ما يجعلني بنظرةٍ واحدةٍ أرى كافة كتبي المصفوفة على رفوفٍ ذات خمسة طوابقَ من حولي. وقُطرها ستة عشر قدمًا، وبها ثلاثُ نوافذ تمكنني من رؤيةٍ واضحةٍ للخارج. أرتادها أقل في الشتاء؛ لأن مسكني مبنيٌّ على ربوةٍ وليس فيه من حجرةٍ تتعرض للرياح أكثر من هذه. غير أنها تعجبني لأنها منعزلةً شيئًا ما ويتطلب الوصول لها وقتًا؛ ليس فقط للجهد الذي تتطلبه مني، وإنما لأن موقعها يترك الآخرين بعيدين عني، وهناك أمكث عادةً، وأحرص على أن أكون فيها السيد المطلق، بحيث أنتزع هذا المكان الصغير من فضول الزوجة والأبناء ومجموع المعارف. أما في ما عدا ذلك من الأمكنة فليس لي إلا سلطةٌ مبدئيةٌ وغير أكيدةٍ في الواقع. ما أتعسَه في نظري! ذلك الشخص الذي ليس له مكانٌ يكون فيه ملك ذاته، ويمكنه فيه أن يتكلم مع نفسه، وحيث يمكنه التواري. إن ثمن الطموح للذين يكونون خادمين له، هو أن يكونوا دومًا مُستعرضين لأنفسهم كتمثالٍ في ساحةٍ مدينة. «إنها لَعبوديةٌ أن يكون المرء بالغ الشهرة»[2]. وإنهم لا يستطيعون حتى الاختفاء في أماكن راحتهم. لم أجد شيئًا أضنى في حياة التقشُّفِ والزهد التي يعيشها رجال الدين وأشقَّه عليهم، ممَّا وجدته في بعض الطوائف الدينية، التي تفرض القاعدة فيها حياةً جماعيةً دائمةً مع عددٍ كبيرٍ من رفقائهم، مهما كانت الظروف. وأنا أعتبر إجمالًا أن المرء البالغ الوحدة يكون أكثر احتمالًا لِئلا ينعم بالوحدة أبدًا.

(1) ما زالت مكتبة مونتيني موجودة في قصره، ويمكن زيارتها في ضواحي بوردو، غير أنها خالية من كتبه. انظر الملحق. [الناشر]

(2) Sénèque, **Consolation à Polybe**, VI, 4.

26. لو قال لي أحدهم إن من باب الاحتقار لربات الفن أن يستخدمها المرء لعبةً أو تزْجيةً للوقت؛ فلأنه لا يعرف مثلي قيمة المتعة واللعب وتزجية الوقت. وأنا أكاد أقول إن كل هدفٍ آخر في الحياة يكون سخيفًا. فأنا أعيش ليومي، ومع احترامي لكمْ أنا لا أعيش إلا لنفسي، ومبتغايَ يقف عند ذلك الحدِّ. فحين كنت يافعًا، كنت أدرس قصد التباهي بذلك؛ وبعد ذلك لكي أصبح حكيمًا، والآن أدرس للمتعة، لا لكي أنال نفعًا من ذلك. أما الميل النافل والمسرف الذي كان لدى للكتب، التي كنت أعتبرها مثل أثاثٍ، ليس فقط لكي أستجيب بها لحاجياتي، وإنما لما يجاوِز ذلك؛ لكي أؤثث وأزين بها حيطاني، وهو أمرٌ تخليت عنه منذ زمنٍ.

27. للكتب العديد من المزايا، تكون رائقةً لمن يعرفون كيف يختارون من بينها الأفضل لهم. غير أنْ لا أحد يحصل على شيءٍ من غير جهدٍ، فتلك متعةٌ ليست خالصةً ولا سهلة البلوغ من المتَع الأخرى، وهي متعةٌ لها مساوئها الثقيلة؛ إذ أن العقل يمارسها، بيد أن الجسد الذي لم أنسَ العناية به يظل معها من غير نشاطٍ، بحيث يرتخي ويضعف. وأنا لا أعرف إفراطًا أكثر ضررًا لي من ذلك؛ إذْ ينبغي تفاديه أكثرفي وقت الانحطاط الذي هو وقتي.

28. تلكم هي إذًا انشغالاتي الثلاثة المفضَّلة والشخصية، وأنا لا أتحدث عن تلك المتعلقة بالأشخاص الذين أرتبط بهم بعلاقاتٍ مدَنيةٍ.

الفصل الرابع

في المناورة

1. وجدت نفسي في الماضي مكلفًا بسلوان امرأة تعاني من الأسى معاناة بالغة- وأغلب الوقت يكون ضنى النساء مصطنعًا.

«المرأة تكون دموعها المدرارة في مآقيها
لا تنتظر إلا إشارةً منها كي تنهمر»[1].

2. حين يواجه المرء آلامه يتعامل معها بشكلٍ غير وجيهٍ؛ إذ أن ذلك لن يجعلها تكون إلا أكثر حدةً ويدفع بها أكثر نحو الضنى. فنحن نهيّج الألم بإثارة عناده. ليقمِ الآخرون -في المحادثة العادية- بالاحتجاج على أشياء قلتُها من غير أن أنتبه لذلك، فأنا سوف أجعل الكل يقوم لها وَيقعد، وأتشبَّث بها بحماسة كثر مما هي تهمُّني، وحين أنت تقوم بذلك على هذا النحو، تقدم تدخُّلَك كاملًا بشكلٍ مفاجئٍ، ثَمَّ حيثما يلزم أن تكون طريقة تعامل الطبيب مع المريض مرحةً ورائقةً ومحببةً؛ فالطبيب الخبيث والشرس لا يمكن أن يقوم بشيءٍ حسنٍ، وإذًا -على العكس من ذلك- على المرء أن يكون من البداية منجدًا لها، والانصات لشكواها والإبانة على مقدار فهمها وتوكيدها، وبهذا الاتفاق الذي يتم مع تلك العذابات والآلام، يمكنك أن تتقدم في علاقتك معها، ومن خلال حركةٍ غير محسوسةٍ وسهلةٍ، تتوصل إلى تفكيرٍ أكثر حزمًا يسمح بالتعجيل بالشفاء منها.

3. وبما أنني كنت بالأخص أرغب في إيهام الحاضرين المحدقين فيَّ، عَنَّ لي أن أضع الضمادة على الجُرح، وقد يحدث أحيانًا ألا أنجح في ذلك وأفشل في الإقناع به، فإما أني أقدم عللًا وأسبابًا دقيقةً جدًا وجافةً، أو أنني أقوم بذلك بفظاظةٍ أو بلامبالاةٍ تامةٍ. وبعد أن اهتممت وقتًا بهموم تلك السيدة، أقلعت عن شفائها بالحجاج القوي والحاد؛ إما لأنني لم أكن أملكها، وإما لأني كنت أعتقد أن بإمكاني بلوغ مرامي بشكلٍ آخرَ، كما أني لم ألجأ للطرائق المختلفة التي تقدمها الفلسفة في المواساة، فكما يقول كليانثس: «ما نأسف له ليس شرًا، إنه شرٌ لا أهمية له» كما يقول المشَّاؤون، أو كما يقول خريسيبّوس: «الشكوى فعلٌ ليس بصحيحٍ ولا بقابلٍ للثناء». كما أني لم أتبَنَّ طريقة النظر للأمور حسب إبيقوروس-

(1) Juvénal, Satires, VI, vv. 272-274.

مع أنها أقرب إلى أسلوبي- والتي تتمثل في نقل فكر الأشياء المضنية نحو أشياء أكثر مرحًا، ولم أوازن الألم بهذا الكم الهائل من المبادئ الفلسفية، ولم أستخدمه حسب الحالات، كما يدعو لذلك شيشرون، لكني قمت بتحويل كلامي تدريجيًا، محرفًا إياه شيئًا فشيئًا نحو موضوعاتٍ قريبةٍ، ثم أكثر بعدًا حين بدأت تستسلم لي أكثر، فنزعت منها بشكلٍ لاشعوريٍّ ذلك التفكير الأليم، وجعلتها تتحكم في نفسها وتبدو وقد هدأ روعها وخفَّ ألمها ما دمت قربها، لقد استخدمت في ذلك المناورة، ومن توالوْا بعدي على هذه المهمة، لم يلاحظوا لديها تحسنًا في حالها؛ ذلك أني لم أوجه ساطوري لمصدر الألم.

4. لعلي ذكرت آنفًا بعض الحالات من المناورات[1]، ونحن نعثر في كتب التاريخ وصفًا لتقنيات المناورة العسكرية، كتلك التي استخدمها بيريكليس خلال الحرب البيلوبونيسية وغيره في أماكن أخرى؛ قصد تخليص بُلدَانِهم من القوى التي تشكل خطرًا عليها.

5. استطاع السيد دو أمبركور بخدعةٍ باهرةٍ من النجاة بنفسه مع آخرين من مدينة لييج البلجيكية، فدوق بورغونيا الذي كان يحاصره، أدخله إليها تطبيقًا لبنود الاتفاق الذي أُبرم لاستسلامهم[2]،تجمع سكان المدينة لهذا الغرض في الليل، وبدأوا في التمرد ضد الاتفاق ذاك، والعديد منهم قرروا القبض على المفاوضين الذين كانوا بحوزتهم، وحين أحس السيد دو أمبركور بالموجة الأولى من هؤلاء الناس المتجهين صوب بيته، قدم لهم فجأةً رجليْن من سكان المدينة -إذ كان بصحبته الكثيرون منهم- كلفهما بتقديم عروضٍ أخَفَّلت جمُّعهم، كان قد تصورها للتوّ تحت ضغط الضرورة والاستعجال، استطاع الرجلان تهدئة الموجة الأولى من الناس، بحيث تمكّنا من جرّهِم للدخول إلى قصر البلدية لسماع مقترحاتهما والتداول في شأنها. كانت المداولات قصيرةً، ثم إن عاصفةً أخرى انفجرت بقدْر حدّة العاصفة الأولى، فما كان من السّير هامبركور إلا أن رمى لهم هذه المرة بأربعة سكانٍ آخرين وُسطاء صرَّحوا لهم بمقترحاتٍ أهمَّ وأكثر إرضاءً لهم... وهكذا، ومن خلال الخداع وإطفاء

(1) انظر مثلاً الكتاب الثاني من «المقالات»، الفصل 22، الفقرة 3.

(2) Philippe De Commynes, **Mémoires**,II,3.

غضبهم وتبديده بالمشاورات المصطنعة، انتهى إلى تنويم السكان حتى طلوع النهار، وهو ما كان يهمُّه من وراء كل ذلك.

6. وإليكم قصة من النوع نفسه، أعلمت أطلنطا - وهي فتاةٌ ذات حسنٍ أخّاذٍ وحيويةٍ باهرةٍ - جمهرة طالبي يدها أنها ستقبل زوْجًا بمَن يتفوَّق عليها في مسابقة في العدو، شريطة أن من لم يستطيعوا ذلك سيكون مصيرهم القتل، فرأى بعضهم أن الأمر يستحق المغامرة القاسية بالحياة من أجلها، قام هيبّومينيس - قبل أن يقوم بمحاولته بدوره - بالتوجه بالدعاء للإلهة الساهرة على الحب طالبًا منها النجدة والعوْن، استجابت الإلهة لدعائه وجهزته بثلاث تفاحاتٍ من ذهبٍ وأعلمته بكيفية استخدامها، وبعد أن أُعطي الانطلاق للمسابقة، وأحس هيبّومينيس بالفتاة على أعقابه، ترك إحدى التفاحات تسقط منه كما لو كان الأمر على غير وعيٍ منه، وحين رأتها أطلنطا انبهرت بجمالها، فلم تستطع مقاومة ذلك وتوقفت لأخذها.

«استبدت الدهشة بالفتاة، وملكت قلبها الفاكهة اللامعة
فتوقفت عن العدْو وجمعت هذا الذهب الجاري»[1].

7. ثم إنه قام بالشيء نفسه مع التفاحة الثانية والثالثة، حتى استطاع بفضل هذه المناورة أن يكسب المسابقة.

8. حين يعجز الأطباء عن المداواة من التهاب القناة التنفسية، يقومون بالمناورة ويقودون الالتهاب نحو جزءٍ من الجسد يكون أقل خطورةً، وقد أدركت أن تلك الوصفة هي الأكثر ملاءمةً لأمراض النفس. «أحيانًا من اللازم توجيه العقل نحو أشياء أخرى وانشغالاتٍ مغايرةٍ، ونحو علاجاتٍ وأشغالٍ أخرى؛ فغالبًا ما يلزم علاجه بفضل تغيير المكان، مثل المرضى الذين يعسر شفاؤهم»[2]. علينا ألا نقدم له الآلام وجهًا لوجه، وألا نجعله يتحملها أو يصدّ هجماتها، علينا أن نجعله يداورها ويناورها ويتلافاها.

(1) Ovide, **Les Métamorphoses**, X, vv. 666-667.
(2) Cicéron, **Tusculanes**. IV, xxxv.

أمام الموت؟

9. إليكم -على العكس من ذلك- طريقةً عاليةً جدًا وبالغة الصعوبة، لا يليق بالناس ذوي المرتبة الرفيعة إلا التوقف عند الأمر وتفحصه والحكم عليه، فليس غير سقراط يمكنه مواجهة الموت بملامحه المعتادة وترويضه والسخرية منه، إنه لا يبحث عن المواساة خارج ذاته؛ إذ إن الموت يبدو له حادثًا طبيعيًّا وغير هامٍّ، فهو يحدق فيه بعينيه، وينصاع له من غير أن يدير عنه نظره. كان أتباع هيجيسياس[1] يتركون أنفسهم يموتون جوعًا وبعددٍ غفيرٍ تحت تأثير دروسه، حتى إن الملك بطليموس منعه من أن يتفوَّه في مدرسته بتلك الخطابات القاتلة. هؤلاء الناس لا ينظرون للموت في ذاته، وهم لا يحكمون عليه؛ ففكرهم لا يتوقف عند ذلك، إنهم يسيرون قُدُمًا إلى الأمام، ويهرعون نحو حياةٍ جديدةٍ. هؤلاء الناس الذين نراهم على المنصة مشبَعين بورَعٍ بالغٍ، واهبين له كامل حواسهم، صاغين للتعليمات التي تُمنح لهم، وأيديهم وعيونهم مرفوعة نحو السماء، مردِّدين الصلوات بصوتٍ عالٍ وبصخبٍ حادٍّ مستمرٍّ، هم يقومون بالتأكيد بشيءٍ جديرٍ بالثناء يكون ملائمًا لوضعيةٍ كتلك. وعلينا أن نُثْني عليهم لتديُّنهم لا لشجاعتهم، فهم يدارون الصراع ويتلافون تصور الموت، بالشكل نفسه الذي نداري به الأطفال حين نرغب في تأديبهم بعلقةٍ. ولقد رأيت أحيانًا بعضًا من هؤلاء الناس، حين تقع أعينهم على الاستعدادات الرهيبة للموت المحيطة بهم، يتجمدون من الرعب ويرمون بعنفٍ تفكيرهم في مناحي أخرى، فأولئك الذين يمرُّون فوق هاويةٍ مرعبةٍ، يُؤمرون بإغلاق أعينهم أو بإبعادهما عن المنظر الرهيب.

10. كان سوبريوس فلافيوس[2] قد حكم عليه نيرون بالإعدام، وكلَّف بقتله نيجِر أحد قادة الحرب مثله، وحين اقتيد الرجل إلى مكان تطبيق الحكم، وحين رأى الحفرة التي أعدَّها نيجِر لرميه فيها، وبما أنه وجدها غير متقنة الحفر توجَّه للجنود الموجودين قائلًا: «حتى الحفرة لم يتمَّ

(1) هو فيلسوف قوريني (نسبة إلى مدينة قورينه الإفريقية)، عاش في القرن الثالث ق.م.

(2) Tacite, **Annales**, XV, 67.

القيام بها تبعًا للقاعدة العسكرية»، ثم قال لنيجِر الذي كان ينصحه بأن يحافظ على رأسه ثابتًا: «أتمنى أن تضربني بالسيف بالثبات نفسه»، وكان قد خمَّنَ الأمر جيدًا، فقد كانت يد نيجِر ترتعش، وكان عليه معاودة الضربة مراتٍ كثيرةٍ، ذلكم رجلٌ كان فكره موجَّهًا نحو موضوعه بثباتٍ.

11. إن من يموت في ساحة الوغى وسيفه في يده لا يأبه بالموت ولا يمنح له اعتبارًا، فهو منغمرٌ في حماس المعركة. أحد معارفي المرموقين سقط أرضًا في نزالٍ ثنائيٍّ، وحين أحس بضربة سيف خصمه تتوالى لمراتٍ عديدةٍ، فيما كان الحاضرون يصرخون فيه أن يقوم بتطهير ضميره، حكى لي في ما بعد أن تلك الأصوات -ولو أنها كانت تتناهى إلى أذنه- فهي لم تؤثر فيه، وأنه لم يكن يفكر إلا في شيءٍ واحدٍ: ردْع خصمه والانتقام منه، وهو ما قام به إذ قتله في ذلك النِّزال.

12. كان الرجل الذي أبلغ لوكيوس سيلانوس[1] الحكم عليه بالإعدام قد قدَّم له خدمةً جليلةً. فحين سمعه يجيبه إنه مستعدٌ للموت لكن ليس بأيدٍ مجرمةٍ، اندفع نحوه بجنوده كي يهينه، ولما كان سيلانوس أعزل يدافع عن نفسه بقبضة يديه وبرجليه، حدث أن قتله في تلك المعركة، مبدِّدًا في غضبٍ جامحٍ ومفاجئٍ أهوال موتٍ بطيءٍ كان ينتظر سيلانوس.

13. نحن نفكِّرُ دومًا في شيءٍ آخرَ، فالأمل في حياةٍ أفضل يمسك بنا ويقوِّينا، ومعه الأمل في قيمة أبنائنا والمجد المقبل لاسمنا، والهروب بعيدًا عن شرور هذه الحياة، والثأر الذي سيُحيق بمن يكون سببًا في موتنا.

«أما أنا فإني آمل أنك ستلقى كافة أنواع العذاب
وسط العوائق
إذا كانت الآلهة العادلة لها القدرة على ذلك
مردِّدًا اسم ديدو
وسوف أسمعه حتى في أعماق موتي»[2].

---

(1) Tacite, **Annales**, XVI, 7 et 9.

(2) Virgile, **Énéide**, IV, 382-387.

14. كان كسينوفون يقدم قربانًا للآلهة وعلى رأسه إكليلٌ حين جاءه قوم ينبئونه بموت ابنه غريلّوس في معركة مانتينيا[1]، وحين سمع الخبر، نزع الإكليل من على رأسه، لكنه حين سمع أنه مات بشهامةٍ جمع الإكليل وأعاده إلى رأسه.

15. إبيقوروس نفسه لحظة موته، كان يواسي نفسه بفائدة كتاباته وخلودها. «كافة الهموم المتصلة بالمجد وبالشهرة، تصبح سهلة التحمل»[2]. فالجرح نفسه والمعاناة نفسها لا يصعب تحمُّلها على قائد الجيش كما على الجندي، فقد تحمَّل إبامينونداس بفرحٍ موته حين أخبروه بأن النصر ظل في جانبه. «ذلكم تعزيةٌ وسلوان عن كبار المصائب والآلام»[3]. وثمة ظروفٌ كثيرةٌ أخرى تفرحنا وتسلينا وتحيد بنا عن النظر للأشياء في ذاتها.

16. البراهين الفلسفية نفسها تكون باستمرارٍ حائدةً عن الموضوع وتداوره، إذ بالكاد تمسُّ قشرته. وإليكم ما قاله زينون العظيم-أول رجلٍ في أول مدرسةٍ فلسفيةٍ، تلك التي تهيمن على كافة المدارس الأخرى- عن الموت: «ليس هناك من شرٍ مشرِّفٍ، والموت مشرِفٌ، فهو إذًا ليس شرًا». وقال ضد العربدة: «لا أحد يُكِنّ بشَرّه لعربيدٍ، كل واحدٍ يسرُّ به للحكيم». هل نصيب بذلك مركز الهدف؟ أنا أسعد كثيرًا برؤية هذه الأرواح السامية تتحرر من مصيرنا المشترك، فمهما كان كمالهم فهم يظلون مثقلين ببشريتهم.

17. الانتقام هوىً من الأهواء اللطيفة، فهو يترك فينا انطباعًا عميقًا وطبيعيًّا، وهو أمرٌ أُدركه من غير أن تكون لي فيه تجربةٌ؛ ولكي أُبعد أميرًا شابًا في الفترة الأخيرة عن الانتقام، لم أنصحه بأن يمد خده الآخر لمن صفعه، كما يُلزمنا بذلك واجب الإحسان، ولم أستعرض عليه المآسي التي تنسبها الأشعار لهذا النُّزوع، تركت كل ذلك جانبًا، وبدأت أجعله يذوق جمال صورةٍ مضادةٍ. الشرف والفضل والشهامة

(1) Diogène Laërce, **Vies et doctrines des philosophes illustres**, II, 54.

(2) Cïcéron,**Tusculanes**, II, 26.

(3) Cicéron, **Tusculanes**, II, 26.

التي سوف يتوصل إليها بالرحمة وبالطيبة. لقد حِدْتُ به عن الانتقام باستعمال الطموح، وهذا ما يلزم فعله.

18. إذا كان عذاب حبك بالغ القوة فقم بتشتيته كما يقال، وهو أمر صائبٌ، وقد استخدمته بنجاح، اكسرْ ذاك العذاب إلى رغباتٍ متنوعةٍ ستكون من بينها رغبةٌ واحدةٌ هي السيدة والآمرة. لكن خشية أن تسيطر عليك تلك الرغبة وتصبح جشعةً، أضعِفْها واكْبح جماحها بتقسيمها وتحريفها عن هدفها.

«حين يكون جسدك مهتاجًا بالرغبة[1]
ارْمِ كلَّ ما تكوَّم في دخيلتك
في أول جسدٍ تلاقيه»[2].

وقمْ بتهدئتها مبكرًا، حتى لا تضْنيك وتجْهد في ذلك، حين تستبدّ بك.

«إذا لم تعالج جروحك الأولى بجروحٍ جديدةٍ
وإذا لم تسرّ بها إلى إلهة حبٍ قريبةٍ»[3].

المناورة في العشق

19. ألمَّ بي في الماضي مُصابٌ جَللٌ يعود إلى طبعي، وأسىً مشروعٌ أكثر منه قويًّا، وكان سيصْرعني لو أني لم أعتمد على قواي الخاصة، وبما أني كنت بحاجةٍ إلى تسليةٍ للنفس كي أقتلعه من بين جوارحي، بدأت أسعى بوعيٍ إلى أن أكون عاشقًا، فقد كان عمري مساعدًا لي على ذلك، الحب يخفف عني الألم الناجم عن الصداقة، ويحدث لي الشيء نفسه في أي مجالٍ آخر، فحين تستبد بي فكرةٌ مزعجةٌ، عوضًا عن أحاربها أجد أن من الأسهل عليَّ أن أغيّرَها، وإذا لم أجد فكرةً أخرى تكون مضادَّةً لها، أقوم على الأقل بتعويضها بفكرةٍ مختلفةٍ، فالتغيير يحمل معه دومًا

(1) Perse, **Satires**, VI, v. 73.

(2) Lucrèce, **De la Nature**, IV, v. 1065.

(3) Lucrèce, **De la Nature**, IV, v. 1070-1071.

ترويحًا عن النفس ويبدِّد الهموم، وإذا لم أستطع أن أحاربها، فأنا على الأقل أتخلَّص منها، وبالهرب منها أداورها وأحتال عليها بتغيير المكان والانشغال والرُّفْقة، وأهرب بنفسي في لُجَّة تسلياتٍ أخرى وأفكارٍ مغايرةٍ، حيث تفقد أثري وتفقدني مرةً إلى الأبد.

20. هكذا تشتغل الطبيعة بمحاسن تغيُّرها، ذلك أن الزمن الذي منحته لنا باعتباره الطبيب الوحيد لهمومنا، يستمد أهميته بالأساس من أنه-وهو يمنح مخيِّلتنا أشياء كثيرةً وموضوعاتٍ أخرى- يفكِّك ويحطم الفكرة الأولى لدينا مهما كانت قوتها؛ فالحكيم لا يرى أبدًا صديقه المحتضر أقلَّ مما رآه بعد ربع قرنٍ، وحسب إبيقوروس،الأمر أقل من ذلك؛ لأن الخلافات التي تنشب بينهم لا يلطِّفُ منها حسْبه لا الحماية منها ولا تقادمها مع السنين، بيد أن الكثير من الأفكار تأتي لتخترق الفكرة الأولى بحيث تنتهي مع ذلك إلى الفتور والتعب.

21. لكي يبعد ألكيبياديس عنه الإشاعات، أقْدم على قطع أذنيْ وذيل أجمل كلبٍ لديه وطرده من بيته[1]، وهكذا فإن الشعب وقد وجد هذا الموضوع للثرثرة سيتركه لحاله في أعماله الأخرى، كما أني لاحظت نساءً كنَّ يصرِّحن بأسرارٍ زائفةٍ عن حياتهن لمن يُذيعها، مغلفاتٍ علاقات حبٍّ حقيقيةٍ بعلاقة حبٍّ زائفةٍ، وذلك قصْد إبعاد تفكير الناس فيها وتكهناتهم بصددها، لكني عرفت واحدةً من بينهن سقطت في حبال خبرها الزائف، بحيث إنها تخلَّت عن غرامها الأول لمن كانت توهم بحبه، وأسرَّت لي شخصيًّا بأن من كانت لهم قسمةٌ ونصيبٌ كبيرٌ في الحب سيكونون أغبياء، إن هم حملوا قناعًا، وما دامت اللقاءات والمحادثات مع الناس تكون مخصصةً لهذا العشيق المزعوم، فإنك سوف تدرك بأن ليس من الحذق ألا يضعوا أنفسهم في مكانك ويجعلوك في مكانهم، وكأن الأمر يتعلق بخياطة لباسٍ وارتداء لباسٍ آخر.

22. يلزمنا القليل من الأشياء للتسْلية والترفيه، فما يشغلنا هي أشياء قليلةٌ. نحن لا نتفحص الأشياء في كليتها، بل واحدةً واحدةً، فما يصيبنا هي

(1) Plutarque, **Vies Parallèles Vie d'Alcibiade**, XIV.

ظروفٌ خاصةٌ أو جوانبُ صغيرةٌ منها، وما يتبقَّى لنا منها غير قشورٍ نافلةٍ.

«مثل ذلك الغلاف الثخين الذي
تتخلص منه اللقالق في الصيف»[1].

.23 وإن بلوتارخوس نفسه كان يأسف على ابنته بسبب السخافات التي كانت تقوم بها في صباها[2]، فما يحزننا هو ذكرى وداعٍ أو لطفٍ معيَّنٍ أو طلبٍ أخيرٍ، لقد زرعت سترة يوليوس قيصر البلبلة في روما أكثر مما زرعها موته، بل حتى رنة كلماته نفسها التي تتردَّدُ في آذاننا: «سيدي المسكين»، «صديقي العظيم»، «وا أسفاه عليك أبي العزيز!»، أو «ابنتي العزيزة»، حين أتذكر هذه الكلمات وأتفحَّصها مليًّا، أجد أن هذه الشكاوى لا تقوم إلا على الصوت والكلمات، وهي بالضبط ما يؤثّر فيَّ. الأمر نفسه ينطبق على نبرة الواعظين الذين يهيّجون سامعيهم أكثر مما يفعله حِجاجهم، أو كما تؤثر فينا بعمق الأنين المثير للشفقة لدابةٍ نذبحها لحاجاتنا الغذائية، بحيث لا أستطيع أن أدرك ولا أن أزن كليةً جوْهر ما يحدث.

«الألم يثير نفسه بنفسه بوخزاته ذاتها»[3].
تلكم هنا هي أسس ألمنا.

.24 الطريقة التي تتركَّز بها الحُصي[4] في مثانتي وخاصةً في عضوي، جعلني أحيانًا أعيش فتراتٍ طويلةً من انحباس البول خلال ثلاثة أو أربعة أيامٍ، فأقارب الموت بحيث سيكون من الجنون تلافيه في قلب الألم العارم الذي يتسبب لي فيه ذلك. يا لَذلك الإمبراطور الطيب![5] الذي كان يعقد أعضاء المجرمين ببلده؛ كي يموتوا بسبب منعهم من التبول، لقد صار بارعًا في علم الجلادين! وبما أني وجدت نفسي في هذه الحال، فقد تأملت كيف يستخدم الخيال أشياء نافلةً وتافهةً كي تغذِّيَ فيَّ الأسف على الحياة، على أي ذرَّاتٍ تقوم في نفسي صعوبة ذلك الرحيل، وكيف

(1) Lucrèce, **De la Nature**, V, v. 803.

(2) بلوتارخوس، رسالةٌ بعثها لزوجته مواساةً لها في وفاة ابنتهما.

(3) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, II, v. 42.

(4) هو مرض حُصَي الكلي الذي عانى منه مونتيني خلال سنوات، وتحدث عنه كثيرا في المقالات.

(5) Suétone, **Vies des Douze Césars**, Tibère.

أننا في لحظةٍ بالغة الأهمية كلحظة الموت، نمنح المكان في مخيلتنا لأفكارٍ تافهةٍ جدًا. كلبٌ وجوادٌ وكتابٌ وكأسٌ- فنحن نفكر في كل شيء- كل هذا كان ذا أهميةٍ في ما سأفقد. ربما لدى آخرين كان سيكون التفكير في طموحاتهم وثروتهم وعلمهم، وهو ما يبدو لي ليس بأقل غباء. أنا أتصور الموت بشكلٍ هادئٍ حين أعتبره في كونيَّته باعتباره نهاية الحياة، وأنا أسيطر عليه في مجمله، أما في تفاصيله فإنه يقصمُني، ودموع خادمٍ من الخدم، وتوزيع أشيائي، ولمسة يدٍ معروفةٌ، وكلمةٌ عاديةٌ للمواساة، كل هذا يؤثر فيَّ ويؤجِّجُ عواطفي.

25. لهذا فإن شكاوى الأعمال الأدبية تؤثر في نفسنا، كندم ديدو أو آريانا لدى فرجيليوس وكاتولّوس،التي تؤثر عميقًا حتى في مَن لا يصدقها، ومن لا يحس بأي أثرٍ عاطفيٍّ يفصح عن نفسٍ غير حساسةٍ، ويُقال إن نفْس بوليمون كانت بالغة البرودة، بحيث إنه لم يكن يصيبه الشحوب حتى من أثر كلبٍ مسعورٍ نهش منه لحم الفخذ. ليس ثمةحكمةٌ يمكنها أن تتصوَّر علَّة ضَنًى ما- مهما كان حادًا وكبيرًا- بالحكم العقلي فقط، ومن غير أن تتأثر بواقعه الذي يكون للأذن والعين حصةٌ فيه، فهاتان الحاستان لا تُستثاران مع ذلك إلا بالأشياء النافلة في ذاتها.

المظهر والصدق

26. أمِن المعقول أن الفنون نفسها تستخدم غباءنا الفطري وتستفيد منه؟ تقول البلاغة إن الخطيب في هذه المهزلة التي تشكل مرافعته، ينساق بنفسه للتأثر بنبرة صوته وبحركاته الاستعراضية، فهو ينصاع لخداع نفسه بالشغف الذي يتظاهر به، وبالتشخيص الذي يقدمه سوف يحس بألمٍ حقيقيٍّ وعميقٍ سوف يوصله للقضاة الذين لا يزالون بعيدين عن تلك الحال، ذلك ما يقوم به أيضًا أولئك الناس الذين نبتاع خِدماتهم في الجنازات لتعزيز مراسيم الحداد، والذين يبيعون دموعهم وحزنهم عند الطلب، فحتى لو كان سلوكهم متأثرًا من كثرة اعتماد التحكم في النفس، فهم ينصاعون في الأخير للأجواء ويحسون في العمق بكآبةٍ حقَّةٍ.

27. كنت مع زمرة من أصدقاء السيد دو غرامون من بين الذين أخذوا إلى سواسّون جثمانه من مقر بلدية لافْير حيث لقي حتفه، وقد لاحظت أننا حيثما مررنا كان ذلك يثير في الناس الذين نلاقيهم في طريقنا البكاء والنواح، فقط بسبب موكبنا الرهيب، مع أن أغلبهم لم يكونوا يعلمون من هو الفقيد.

28. قال كينتيليانوس إنه رأى ممثلين غارقين في تأدية دور حِدادٍ بحيث ظلوا يبكون حتى بعد العودة لبيوتهم، وعن نفسه يحكي أنه كان سببًا في معاناة شخصٍ ما، فأخذ تلك المعاناة على عاتقه واستبطنها بحيث إنه اندهش لنفسه وهو يبكي، ووجهه شاحبٌ بمظهر رجلٍ ألمَّت به جميع أنواع المصائب والآلام.

29. في مِنْطَقَةٍ قريبةٍ من جبال البرانس تقوم النساء بدورالراهب مارتان[1]، بحيث إنهن إذا تماديْن في الأسف على الزوج الراحل باستذكار محاسنه، فهن في الآن نفسه يعدِّدْن مساوئه ويعرِّفن بها؛ كما ليجدْن بعض العزاء ويحوّلن شفقتهن إلى كراهيةٍ، وهن يقمن بذلك بشكلٍ عفويّ أكثر مما نقوم نحن بالتسرُّع في نسج تيجانٍ مصْطنعةٍ لأي شخصٍ نعرفه يرحل عن هذا العالم، ونجعل منه -بعد أن غاب عن أنظارنا- شخصًا مختلفًا بالغ الاختلاف عما كان عليه حين كنا نعرفه، كما لو أن الأسف يجعلنا ننسى ما نعرف عنه بحيث يطهّر ذكاءنا ويجعله أكثر نصاعةً، وأنا منذ اليوم أعلن تخلّيَّ التامَّ عن كافة الشهادات التي يمكن أن تُقال في حقي؛ لا لأني سأكون خليقًا بها، وإنما لأني سأكون ميتًا.

30. إذا ما نحن سألنا هذا الرجل: «ما المبتغى من أن تجلس على هذا الكرسيِّ؟»، فسيجيب: «فائدة أن أعطي المثال وأن أطيع فقط الأمير، فأنا لا أنتظر من ذلك أي ربحٍ، أما المجد فأنا أعرف كم هي صغيرةٌ الحصَّة التي يمكن أن ينالها منه رجلٌ عاديٌّ مثلي، أنا ليس لديَّ في ذلك لا مصلحةٌ ولا صراعٌ». ومع ذلك انظروا في الغد كيف أنه يتغيَّر، متحمِّسًا ومحمرًّا من الغضب، حين يكون في مكانه مستعدًا للهجوم، إنه صليل

(1) هو تعبير شعبيٌ يعني القيام بالأسئلة والأجوبة، كما كان يقوم بها في إحدى الحكايات الراهب مارتان الذي لم تكن له كنيسة.

السيوف والنار والهَرْج والمَرْج، الذي تثيره مدافعنا وقرْع طبولنا التي تضخُّ في شرايينه تلك الصلابة الجديدة. ستقولون إنها قضيةٌ تافهةٌ، ولماذا نقول إنها قضيةٌ؟ لا حاجة لزرعِ الاضطراب في أنفسنا، فثمة فكرةٌ بلا جسمٍ ومن غير موضوعٍ تتحكَّم فيها وتحركها، وأنْ أشرع في بناء قصورٍ حصينةٍ في إسبانيا، وتبدأ مخيلتي في ابتداع محاسن وملذاتٍ لها تستحسنها نفسي وتتدغْدغ بها، كمْ من مرةٍ نملأ روحنا بالحزن أو الغضب بأوهامٍ من قبيل هذه، ونعيش عذاباتٍ متخيَّلةً تفسد جسدنا وروحنا، وكم من الحركات الغريبة والمرحة والغامضة يطبع ذلك على محيانا؟ وكم من سطوعٍ للصوت ونزقٍ في الحركات والإيماءات؟ ألا يبدو أن هذا الرجل الوحيد المنعزل يتوهَّمُ أن أمامه جمْهرةً من الناس يتفاوض معها؟ أو أن ثمة شيطانًا باطنًا يضطهده ويقضُّ مضْجعه؟ اسألْ نفسك بنفسك: ما موضوع هذا التغيُّر؟ أليس في الطبيعة كائنٌ آخر غيرنا يغذِّيه العدم ويستبد به؟

31. قام قمبيز بالأمر بقتل أخيه؛ لأنه حلم بأن هذا الأخير سيصير ملكًا لبلاد فارس، وقد كان أخٌ يحبه ويضع ثقته فيه، وانتحر أرسطوديموس ملك منطقة ميسّينيا؛ لأنه وجد أن نباح كلابه يومًا ذو فألٍ سيئٍ[1]، وقام الملك ميداسْ بالشيء نفسه لأن حلمًا من أحلامه كدَّره وأزعجه، وهذا يعني أن من الأفضل اعتبار المرء لحياته على أن يتخلى عنها من أجل حلمٍ.

32. افهمْ وعِ مع ذلك كيف أن نفسنا تنتصر على بؤس الجسم وضعفه، وعلى الطريقة التي يواجه بها جميع الهجمات والتغيرات، فالحقيقة أن عليك أن تتحدَّثَ عن ذلك لها، أنت أيها الطين الأول الذي شكَّله بسوء بروميثيوس.

«إنه لم يمنح لهذا الصَّنيع ما يكفي من الحكمة
ففي إبداعه لم يرَ غير الجسد وتجاهل الروح
مع أن صنيعه لكي يكون حسنًا كان عليه أن يبدأ منها»[2].

---

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées,** XXI, De la superstition, f° 119 v°.

(2) Properce, **Elégies amoureuses – Cynthia,** III,5, vv. 7-10.

الفصل الخامس

عن بعض أشعار فرجيليوس

1. بمقدار ما تكون الأفكار نافعةً وغنية وصارمةً، بمقْدار ما تكون مُضْنيةً وثقيلةً على النفس، فالرذيلة والموت والفقْر والأمراض موضوعاتٌ جديَّةٌ وخطيرةٌ تثقل علينا، وعلى النفس أن تكون عارفةً بوسائل محاربة الآلام والشُّرور ومعارضتها، وعالمةً بقواعد العيْش الحسَن والإيمان الطاهر؛ وعلينا دومًا العمل على أن تكون يقِظةً لهذه الدراسة الرائعة وتُمرَّن عليها، لكن هذه الدراسة لدى النفس العادية يلزم أن تكون باعتدالٍ وبفترات راحةٍ؛ لأنها تتعب إذا تمَّ تشغيلها باستمرارٍ.

2. كنت في شبابي بحاجةٍ إلى توبيخ نفسي، والقيام بجهودٍ كبرى لأبقى في السبيل القويم، فكما يقال لا تتلاءم الصحة والمرح مع الأفكار الجدية والحكيمة، لكني اليوم في حالٍ أخرى؛ فظروف الشيخوخة لا تعمل سوى على تأنيبي، بحيث تجعلني أكثر حكمةً وتعطيني الدَّرس تلو الآخر، لقد سقطت من المرح المفرط في الصرامة المفرطة وهو أمرٌ مؤسفٌ جدًا. لهذا صرت الآن ميالًا بشكلٍ إراديٍّ للنزق والخفَّة؛ فنفسي تكون أحيانًا منشغلةً بأفكار الشباب اللعوب وتجد متعتها في ذلك، وإني صرت صافي الذهن وثقيلًا وناضجًا بإفراطٍ، فالسنون تعلمني كل يومٍ البرودة والاعتدال، وجسدي يتهرَّب من الاختلالات ويخشاها. فلقد جاء دوره كي يرشد عقلي بشكلٍ أكثر صرامةً وبأسًا نحو تعديل أوضاعي؛ فهو الذي بدوره يتحكَّم فيَّ بشكلٍ أكثر فظاظةً وخطورةً، بحيث إنه لا يتركني ساعةً يقظًا أو نائمًا، من غير أن يذكِّرني بالموت والصبر والكفَّارة، وأنا الآن أمتنع عن الاعتدال كما كنت في السابق أمتنع عن الشهوة، فهي تجذبني للوراء كثيرًا حتى الخدَر. وإنّي الآن أرغب في أن أكون سيِّد نفسي في كل شيءٍ، فالحكمة لها مبالغاتها وتحتاج من الاعتدال مقدار حاجة الجنون له؛ لهذا، وخشية أن أجفَّ وأنضب وأثْقُل من الحكمة في فواصل الراحة التي تتركها لي آلامي=

«وخشْية أن تكون نفسي غارقةً بآلامها»[1].

=أتلافى ذلك ببطءٍ، وأخفي عن عينيَّ هذه السماء المكفهرة العاصفة التي أمامي، وإذا كنت -والحمد لله- أنظر إليها من غير رعبٍ؛ فذلك يتطلب

(1) Ovide, **Tristes**, IV, 1, v. 4.

مني جهدًا كبيرًا ومثابرةً، وحينها أتسلى بشبابي الماضي، «فنفسي راغبةٌ في ما ضاع منها، وتلتجئ بتمامها إلى الماضي الذي ضاع منها»[1].

3. أن تنظر الطفولة إلى الأمام والشيخوخة إلى الوراء، أليس ذلك ما كان يعنيه الوجه المزدوج ليانوس*[2]؟ لتجرفْني الأيام إذا هي ابتغت ذلك، لكن وهي تعود القهقرى؛ حتى تستطيع عيناي رؤية ذلك الفصل الجميل المنْقضي، وأوجِّه نظري إليه مرةً مرةً، وإذا ما انفلت ذلك الفصل من دمي ومن شراييني، فإني أريد فقط ألا أقتلع منه صورته في ذاكرتي.

«إنه عيش حياتنا السابقة والاستمتاع بها مرتيْن»[3].

4. ينصح أفلاطون العجائز بممارسة التمارين والرقصات ولعب الشباب؛ كي يستفيدوا بفضل الآخرين من مرونة الجسد وجماله الذي فقدوا، ويتذكَّروا الرشاقة والامتيازات التي كانت لذلك العمر الرطيب، وهو يريد أيضًا أن يتم في تلك الأعياد منح النصر للشاب الذي يكون قد استطاع أن يسلي أكبر عددٍ منهم ويُمتعهم.

5. كنت في الماضي أسجِّل الأيام المضنية والسوداء باعتبارها أيامًا رائعةً، وها هي اليوم تغدو أيامًا عاديةً، والأيام الجميلة والرائقة صارت استثنائيةً، وها أنا الآن أكاد أرقص من الفرح، كما لو أني حين لا يحدث لي شيءٌ سيئٌ يكون الأمر أشبه بنعمةٍ حين أدغْدغ أطرافي، لم أعد أستطيع أن أنتزع من جسمي البائس ضحكةً فاترةً، وأنا لم أعد أستمتع وأسعد إلا في الخيال والأحلام كي أطْرد عني ضَنى الشيخوخة بالحيلة، لكن يلزمني بالتأكيد دواء آخر غير الحلم، إنه لَصراعٌ جميلٌ ذلك الذي يمكن للمصطنَع أن يعارض به الطبيعة، فمن بالغ الغباء أن يقوم المرء باستباق البؤس الحقير للإنسان، ويمدِّد بذلك هذا الواقع كما كل الناس؛ ذلك أني أفضل أن أعيش شيخوخةً قصيرةً على أن أكون عجوزًا قبل الأوان. وأنا أمسك بأقلِّ الفرص من المتعة التي تتاح لي؛ فقد سمعت عن أنواعٍ عديدةٍ من المُتع القوية والشريفة، لكن ما أعرفه

(1) Pétrone, Satyricon, 128.

(2) * إله روماني له وجهان في رأس واحدة.

(3) Martial, Épigrammes,X,23.

عنها لا يؤثر كثيرًا في شهيتي فيها، وأنا لا أريدها ملذاتٍ عظيمةً ورائعةً وباذخةً، بقدْر ما أريدها لذيذةً وسهلةً ووفيرةً. «نحن نحيد عن الطبيعة باتباعنا للشعب، الذي ليس مرشدًا جيدًا لنا في أي شيءٍ»[1].

6. تتمثل فلسفتي في العمل والممارسة الطبيعية المباشرة، والقليل الأقل في التأمل والتفكُّر. آهٍ لو استطعت أن أجد لذتي في لعب الخُذْرُوف أو البلْي!

«إنه لم يكن يضع الإشاعة العامة قبل خلاصه»[2].

7. اللذة مزيَّةٌ ليس لها طموحٌ كبيرُ، فهي تعتبر نفسها غنيةً بذاتها من غير أن تنضاف لها قيمة الشهرة، وتفضِّل البقاء في الظل. علينا أن نقوم بجَلْد الشاب الذي يستمتع بالتمييز بين مذاقات الخمور وأنواع المرق، فأنا لم أجهل شيئًا في شبابي أكثر من ذلك، لكني اليوم أتعلمه، وأنا أخجل من نفسي في هذا، لكن ليس باليد حيلة. وأحس بالخجل والأسى أكثر من الأسباب التي تدفعني لذلك، فعلينا نحن الحلم والعبث، وعلى الشباب أن يسهر على سمعته وأن يتقدم في حياته؛ فهم يسيرون نحو العالم ويسعون للاعتراف بهم، أما نحن فمنه نعود. «لهم السلاح والخيل والرماح والصولجان والدَّبابيس، ولهم الكرة والعوم والعدو، أما نحن العجائز فليتركوا لنا لعبة النرْد والشطرنج»[3]. حتى القوانين تحيلنا إلى البيت، وأنا لا أستطيع أن أوفر لهذه الوضعية البائسة التي يدفعنا لها التقدُّم في العمر إلا لُعب الطفولة ومتعها، فنحن نعود نكوصًا للصبا. والحكمة والجنون سيجهَدان في مدِّ العون لي ونجدتي في مصيبة الشيخوخة هذه، ويقومكل واحدٍ منهما بدوره:

«امزجْ بأفكارك الجدية جنونًا عابرًا»[4].

8. أحاول تفادي حتى الوخْز الطفيف، وذلك الذي كان في الماضي لا يتْرك فيَّ خدْشًا أراه اليوم يخترقني، وها أنا اليوم معرَّضٌ دومًا للألم:

«فالإصابة الطفيفة تكون شديدة الإيلام لجسدٍ سقيمٍ»[5].

---

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XCIX.

(2)Hérodote, III, 30 ; Plutarque, **Vies...**, XII: De l'amitié fraternelle, f° 81 v°.

(3) Cicéron, **De Senectute**, XVI.

(4) Horace, **Odes**, IV, 12.

(5) Cicéron, **De Senectute**, XVIII.

«والنفس المريضة لا تتحمل أدنى شيءٍ مؤلمٍ»[1].

كنت دومًا حساسًا جدًا للألم، وأنا اليوم أكثر حساسيةً له ومعرّضٌ له من جميع الجوانب.

«أدنى قدْرٍ من القوة يمكنه أن يكسر ما كان أصلًا مشقوقًا»[2].

9. إذا كان حكْمي العقلي يمنعني من التمرُّد والزمجرة ضد المساوئ التي تفرض عليَّ الطبيعة تحمُّلها، فهو لا يمنعني من الإحساس بها، وأنا الذي لم يكُمُن همّي سوى في أن أحيا وأستمتع، كنت أجري من هذا الطرف لذاك في المعمور بحثًا عن سنةٍ سعيدةٍ مليئةٍ بالهناء والمرح والبهجة، وإنّي لا تنقصني الطمأنينة الكالحة والجامدة، غير أنها تجعلني أسأم وأغفو؛ إذْ لا يمكنني الاكتفاء بها، وإذا كان ثمة شخصٌ أو أناسٌ تحْلو رفقتهم في الحقول والمدينة، في فرنسا وفي غيرها، سواءٌ كانوا ملازمين لبيوتهم أو ميَّالين للتِّرحال، ويلائمهم مزاجي كما يلائمني طبعهم، فليس عليهم سوى رفع الإصبع كي أمنحهم هذه المقالات من لحمٍ ودمٍ.

الجسد والروح

10. لما كانت فضيلة الروح هي التخلص من الشيخوخة، فأنا أنصحها بفعل ذلك كي تخضرَّ وتونع خلال الشيخوخة إذا استطاعت ذلك، كما يفعل الدِّبقُ الطفيْليُّ على شجرةٍ ميّتةٍ. وإني أخشى أن تكون الروح كيانًا جبانًا، فهي لصيقةٌ بالجسد بحيث إنها تتخلى عني باستمرارٍ كي تتبعه في حالات بؤسه، وأنا أتملَّق لها وحدها وأسعى لإقناعها بلا جدوًى، وكم حاولت أن أُثنيها عن هذا التواطؤ مع الجسد، وأن أقدِّمَ لها سينيكا وكاتولّوس والنساء الراقيات والرقصات الملكية، غير أنها إذا ما أصيب رفيقُها بأزمة مغَصٍ كلويٍّ، يبدو أنها تُصاب بها أيضًا، والمقدرات التي تملك لا

(1) Ovide, **Pontiques**, I, v, 18.

(2) Ovide, **Tristes**, III, 11.

تستطيع حينها أن تعلن عن نفسها، بحيث إنها تصاب هي أيضًا بالالتهاب. ليس ثمة مرحٌ وبهجةٌ في منتجات الروح إذا لم تكن في الآن نفسه في الجسد.

11. إن معلِّمينا على خطإٍ، فحين بحثوا عن عِلل الفوْرات الرائعة لروحنا -عدا ما ينسبون منها للعشق الإلهي وللحب وللحماسة الحربية والشعر والخمر، إلخ. لم يمنحوا للصحة مكانها، وأنا أعني صحةً فائضةً وقويةً وممتلئةً لكن رائقةً، مثلما كانت رطوبة السنين تمنحني إياها في الماضي مرةً مرةً. إن نار المرح هذه التي تثير في الروح بريقًا ساطعًا ولامعًا تتعدَّى صفاءنا الطبيعيَّ، تُعتبر من بين عناصر حماسنا الأكثر قوةً والأشدّ فوْرةً. وليس غريبًا أن الحال المعاكس يحطم روحي ويجمِّدها ويؤثر فيَّ تأثيرًا كارثيًا.

«إنه لا يقوم لقضاء أي حاجةٍ، ويظل خامل الجسد»[1].

12. وهذه الروح تريد مع ذلك أن أكون لها عارفًا بالجميل لأنها حسب زعمها، تمنح لهذا التفاهم مع الجسد أهميةً أقلَّ مما تفرضه العادة لدى الناس. لكن، لنطردِ الشرور والمصاعب من علاقاتنا مع الآخرين على الأقل خلال حالات الهدْنة.

«طالما تستطيع ذلك الشيخوخة، وتنزع التجاعيد عن جبهتها»[2].

«الأفضل لنا تبديد الحزن بالمُزَح»[3].

وإني أحب أن تكون الحكمة مرحةً وودودةً،كما أني أتهرب من القساوة وشظف العوائد، وأعتبر كل محيًّا عابسًا قاسيَ الملامح مشبوهًا.

«والتكبُّرُ الحزين لوجهٍ مقطَّب الملامح
وهذا الحشد ذو الملامح العابسة له أيضًا غُلاته»[4].

---

(1) Pseudo-Gallus, I,125.
يتعلق الأمر بماكسيميانوس، وهو شاعرٌ لاتينيٌ من منطقة إتروريا عاش حتى عام 550 م، وصاحب خمسة أمداحٍ عاشقةٍ. وقد نُشرت عام 1501 م، غير أن بومبونيوس غوريكوس نسبها لجالوس المنتحل.

(2) Horace, **Épodes**, XIII, 7.

(3) Sidoine Apollinaire, **Épîtres** I, 19.

(4) Martial, **Épigrammes** VI, 57.

13. كان أفلاطون على حقٍ حين قال: إن الأمزجة السهلة والصعبة لها تأثيرٌ كبيرٌ على ميزة النفس. فلقد كان سقراط دومًا ذا وجه وقور وبشوش في كل وقت وحين، خلافًا للعجوز كراسّوس الذي كان دومًا عابسًا ولم يره أحدٌ يومًا يضحك.

14. الفضيلة طريقةٌ ليكون المرء ودودًا ومرحًا.

15. أعرف جيدًا أن من بين الناس الذين يتجهّمون أمام الحرية والانطلاق الذي يطبع كتاباتي، ثمة القليلون من بينهم من يكشّرون أمام إباحية أفكارهم، فأنا أتفق مع ما هم عليه غير أني أسيء لعيوبهم.

16. وإنه لأمرٌ مُستحسنٌ أن يمتح المرء من كتابات أفلاطون، ويعرج على علاقاته المزعومة مع فايدروس*[1] وديون*[2] وستيلّا*[3] وأرخيناسّا*[4]... «**لا تخجلوا من الإفصاح عمّا لا تخجلون من التفكير فيه**»[5].

17. أكره العقول العدوانية والحزينة التي لا تعير اهتمامًا لمباهج الحياة وتركَن نفسها في الألم وتقتات منه، إنها مثل الذباب الذي لا يمكنه أن يقف على شيءٍ أملس صقيلٍ، غير أنه يلتصق بالأمكنة الخشنة والناتئة، وكما المِحْجمة التي لا تمتص إلا الدم الفاسد.

---

(1) * في النص الأصل فيدون Phédon وهو تحريف لم يقف عليه المحقق. وفيدون أحد مريدي سقراط، وكان من طبقة الأرستقراطيين في أثينا، وثمة محاورة باسمه ضمن محاورات أفلاطون.

(2) * هو ديون طاغية سيراقوسة.

(3) * فتاة يُقال إن أفلاطون عشقها في شبابه.

(4) * جميع هذه الأسماء نقلها مونتيني من إبيجرامات منسوبة لأفلاطون يتغزل فيها بمعشوقيه.

(5) Cicéron, **De finibus**, XXIV, 77.

أعلينا قول كل شيءٍ؟

18. بل إني فرضت على نفسي الجسارة على قول كل ما أجرؤ على فعله، ولا أستسيغ أن تكون بعض أفكاري غير قابلةٍ للعقاب لأنها لم تُطبّق. أسوأ أفكاري تبدو لي أقلَّ بشاعةً وجبنًا من ألا أجرؤ على البوح بها. كل واحدٍ منا يكون كتومًا في الاعتراف، لكن يلزم أن يكون ذلك في الفعل؛ فالجرأة الضرورية في اقتراف خطإٍ يمكن تعويضها والحدُّ منها بشكلٍ ما في الجرأة على الاعتراف به. ومن يفرض على نفسه قول كل شيءٍ سيفرض على نفسه ألا يفعل شيئًا بالأمور التي يسكت عنها قسرًا، فلتكنْ مشيئة الله أن يقود هذا الإفراط -الذي فيَّ والمتمثل في قول كل شيءٍ- معاصريَّ حتى الحرية، في ما وراء هذه الفضائل المذعورة والمصطنعة التي تعود لنواقصنا، والتي أعود بها للعقل على حساب عدم اعتدالي. على المرء أن يقبل رؤية رذائله ودراستها للحديث عنها، وأولئك الذين يخفونها عن الآخرين، يخفونها عمومًا عن أنفسهم، ولا يعتبرونها خفيَّةً تمامًا إذا هم رأوها، فهم ينتزعونها ويوارونها عن نظر ضميرهم نفسه. «**لماذا لا يعترف أي شخصٍ برذائله؟ ذلك لأنه لا يزال عبدًا لها. على المرء أن يكون يقظًا كي يحكي أحلامه**»[1]. تصير آلام الجسد أكثر وثوقًا وهي تتزايد، فما كنا نسميه «زكامًا» أو «رضّة»، يتبدى أنه «مرض النِقْرَس». أمراض النفس تغدو أكثر إبهامًا وهي تصير أقوى؛ لهذا من اللازم تسليط الضوء عليها بحزمٍ وقوةٍ، وفتحها واقتلاعها من عمق صدرنا. فبخصوص الأعمال السيئة- وكما هو الأمر في الأعمال المستحسنة- يكفي الاعتراف أحيانًا بها كي يتم إصلاحها، فهل هناك في الخطأ المقترف شيءٌ من البشاعة يمنعنا من الاعتراف به؟

19. أجد صعوبةً كبرى في أن أتظاهر؛ لهذا أرفض أن أكون حافظًا لأسرار الآخرين؛ لأني لا ميل لي لإخفاء ما أعرف، وإني أستطيع كتمانها، غير أني لا أستطيع إنكارها من غير جهدٍ وانزعاجٍ؛ ولكي يكون المرء فعلًا كتومًا، عليه أن يكون ذلك بطبعه لا لِزامًا عليه. وفي خدمة الأمراء، لا يكون المرء كتومًا إن لم يكن أيضًا كذابًا. وذلك الذي سأل طاليس الميلي

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LIII.

إن كان عليه أن ينكر علنًا أنه انساق للفجور، لو كنت أنا من توجَّه له بالسؤال لكنت أجبته أنْ ليس عليه أن يكذب؛ لأن الكذب أسوأ من الفجور، وقد نصحه طاليس من جانبه بأن يحلف بالقسم كي يخْفي رذيلةً تحت رذيلةٍ أهْون؛ ومع ذلك فإن هذه النصيحة لم تكن تتمثل في الاختيار بين رذيلتيْن بل في مضاعفتهما!

20. ويمكننا أن نلاحظ -في معرض حديثنا- أننا نقترح صفقةً مناسبةً على شخصٍ ذي ضميرٍ، حين نقترح عليه صعوبةً ما مُقابلًا للرذيلة، لكننا حين نحبسه بين رذيلتين، فإننا نجعله في محنةٍ من أمره، كما كان حال أوريجينيس[1]، فإما أن يكون وثنيًّا أو يتعرض للاغتصاب على يد رجلٍ إثيوبيٍّ عظيم الخلقة وشرسٍ تمَّ تقديمه له، فقبل الاقتراح الأول عن خطأٍ كما يقال، لكن تبعًا لذلك، فإن اللواتي يزعمْن اليوم-بالنظر إلى إيمانهن الخطأ- أنهن يفضلن أن يرْزح ضميرهن تحت وِزْر عشرة رجالٍ على أن يرزح تحت صلاةٍ، فلن يكنَّ إلا مُصيباتٍ في ذلك.

21. إذا كان من باب الفضيحة أن يصرِّح المرء مثلي بأخطائه، فإننا بعيدون عن أن نراها تغدو مثالًا وتصبح عادةً. كان أرسطون هو من قال: إن الرياح التي يخشاها الناس أكثر هي التي تنزع عنهم ملابسهم أكثر. علينا أن نشمِّرَ عن هذه الأسمال الحقيرة التي تغلف عوائدنا. يبعث المرء بضميره لبيت الدعارة فيما يحافظ على مظهرٍ لائقٍ، وهو أمرٌ ينسحب حتى على الخونة والقتلة؛ إذْهم يقبَلون بالقوانين والمراسيم الاحتفالية، ويعتبرون من الواجب احترامها، لكن ليس على الظلم أن يشكوَ من الفظاظة وانعدام الأدب، ولا على الخبث أن يشكوَ من إفشاء الأسرار، ومن المأسوف له ألاَّ يكون الرجل الشرير غبيًّا أيضًا، بحيث إن حياء سلوكه قد يلطِّف من رذيلته، فهذه الزخارف لا تصلح إلا لجدارٍ سليمٍ يستحق الترميم والطلاء.

22. وإني أتَّفق مع البروتستانتيين الفرنسيين الذين يأخذون علينا الاعتراف

(1) أورجينيس عالم لاهوتٍ مسيحيٍّ ولد في الإسكندرية عام 185 م، وتوفي بطور عام 235 م. كان شيخ المدرسة الكنسية بالإسكندرية، ووقع له خلاف مع أسقفه مما جعله يطرد من الديانة المسيحية، وقد تم القبض عليه وتوفي تحت التعذيب الذي ساموه إياه.

السريّ والخاصّ، فأنا أقوم بالاعتراف علنًا وبدقّةٍ وبالتمام. لقد قام القديس أوغسطينوس وأوريجينيس وأبقراط بالإعلان عن أخطائهم أمام الملأ، وأنا أيضًا أقوم بذلك بخصوص تصرفاتي، لديَّ رغبةٌ كبرى في أن يعرفني أناسٌ كثيرون أو قليلون، لا يهم فقط أن يعرفوني بشكلٍ حقٍّ، أو بعبارةٍ أفضل: «أنا لا أرغب في شيءٍ، لكني أخشى كثيرًا أن أؤخذ بما لست عليه من الناس الذين قد يعرفون اسمي».

23. مَنْ لا يعمل إلا من أجل الشرَف والمجد، ما الذي يعتقد أنه سيربح بالظهور للعالم من تحت قناعٍ، مُواريًا كيانه الحق عن الناس؟ إذا ما امتدحتَ أحْدبًا على قامته الرفيعة سيعتبر ذلك سُبَّة، وإذا ما كنت خوّافًا وتمَّ الاحتفاء بك كرجلٍ شجاعٍ، فهل الحديث يتمُّ عنك أنت؟ إنهم يتحدثون عن شخصٍ آخرَ، الأفضل لنا أن نحترم في هذه الحالة الشخص الذي يحتفي بتحيّات الاحترام التي يقوم بها الناس له؛ لأنهم يعتقدون أنه رئيس الفرقة، فيما أنه ليس إلا أدنى الخدم. حين كان أركسيلاوس، ملك مقدونيا، يمرُّ في الشارع دلق عليه أحدهم الماء، ومن كانوا من حاشيته قالوا بضرورة عقابه، فردَّ عليهم: «نعم، لكنه لم يدلق الماء عليَّ، وإنما فقط على ذلك المار الذي كنته»[1]. كان سقراط يردُّ على الذين يُخطرونه بما يُقال عنه غيْبةً ونميمةً بقوله: «لا أبدًا، ليس ثمة شيءٌ مني في ما يقولون»[2]. وفي ما يخصُّني، ليس لديَّ من امتنانٍ كبيرٍ أشكر به من يمتدحني باعتباري قائدًا جيدًا، أو بأني متواضعٌ كثيرًا وعفيفٌ؛ لكني لن أحس بالتبخيس أبدًا إذا ما عيَّرني أحدٌ بأني سارقٌ أو خائنٌ أو سكّير. من لا يعرفون أنفسهم جيدًا يمكنهم التغذي من المدح الزائف، لا أنا الذي يرى نفسه ويستكشفها حتى الأعماق ويعرف جيدًا ما يملك، وأنا راضٍ لعدم تلقي المدح الكثير، فأنا أكتفي بأن أكون فقط معروفًا أفضل. قد يعتبرني الناس حكيمًا، لكن بمنحي حكمةً أعتبرها غباءً.

(1) Plutarque, (Amyot), **Les dicts notables des anciens roys...**, XXXIII, p. 188.

(2) Diogène, Laërce, **Vies...**, Vie de Socrate, II, 36.

المقالات

24. آسف أن تكون «المقالات» لدى النساء الراقيات ضربًا من العنصر الزخرفي فقط موجَّهٌ لأحاديث الصالونات، وهذا الفصل سوف يجعلني ألج غرفتهنَّ الخاصة، فأنا أحب أن تكون لي علاقةٌ حميمةٌ شيئًا ما معهن؛ إذ تلك التي تكون بين الملأ لا فضل فيها ولا مذاق لها، نحن في لحظة الفراق نرفع عاليًا درجة العاطفة التي نكنُّها للأشياء التي نترك، وأنا هنا أوجه وداعًا أخيرًا للألعاب المجتمعية، وها هي عناقاتنا الأخيرة، لكن لنعدْ لموضوعنا.

25. ما الذي فعله للناس النكاح وهو الفعل الطبيعيُّ والضروريُّ والمشروع؛ كي لا نجرؤ على الحديث عنه من غير احتشامٍ؛ وكي نطرده من الأحاديث الجدِّية واللائقة؟ إننا نقول من غير وجلٍ القتل والسرقة والخيانة، أما ذلك الفعل فلمَ لا نجرؤ على الحديث عنه إلا إيحاءً وتضْمينًا؟ هل هذا يعني أننا كلما تحدثنا عنه أقلَّ كلما أكبرناه عن حقٍ في فكرنا؟ من المسلِّي أن نرى أن الكلمات التي نستعمل ونكتب أقلَّ والتي نسكت عنها أكثر، هي تلك التي نعرف أكثر ونتداول بشكلٍ أوسع، ليس ثمة من عمرٍ ولا أيِّ نوعٍ من الأمْزجة يجهل هذا الفعل قدْر عدم جهله للخبز، والكلمات التي تعينه تُحفر في ذاكرة كل واحدٍ منا من غير الإفصاح عنها ومن غير صوتٍ ومن غير صورةٍ، والنوع الذي يمارسه أكثر هو ما يتحدث عنه أقلَّ، إنه فعلٌ وضعناه تحت حراسة الصمت، ومن باب الجُرْم اقتلاعه منه ولا حتى إدانته أو الحكم عليه، فنحن لا نجرؤ على عقابه إلا بالتوْريات وبالصورة، وإنه لحظٌّ كبيرٌ لمجرمٍ أن يكون مقيتًا إلى حدٍ أن ترى العدالة أنه لا يمكن أن يُلمس أو يُرى، وها هو حرٌّ وناجٍ بفضل قساوة الحكم الذي حُكم به عليه، أليس الأمر يشبه حال الكُتب التي لا تباع بشكلٍ أفضل ولا تحظى بالنجاح الأكبر إلا حين تكون ممنوعةً؟ أما أنا فسوف آخذ حرفيًّا وجهة نظر أرسطو، الذي يقول: إن الخجل من ذلك يكون ضربًا من الدَّلال في الشباب، وسببًا للعتاب في الشيخوخة.

26. كانت الأبيات الشعرية التالية معروفة في العصو القديمة، وهي الفترة

التي أحس بالارتباط بها أكثر من الفترة الراهنة: لأن فضائلها كانت كثيرةً ورذائلها كانت أقلّ.

«أولئك الذي لا يألون جهدًا للإفلات من فينوس مخطئون مقدار خطأ أولئك الذين يتبعونها عن قربٍ»[1].

«ما دمت -يا فينوس- كافيةً لتسيير الطبيعة
وأن من دونك لا شيء يرتفع للتخوم الإلهية للنهار
ومن غيرك لا شيء يكون مرحًا أو بهيجًا»[2].

27. لا أدري ما الذي دفع ببالاس*[3] وربات الشعر إلى التعارض مع فينوس وجعلها تحتاط من الحب، لكني لا أرى من بين الآلهة غيرها في التلاؤم أو الترابط الأشدّ. فإذا نزعنا عن ربات الفن خيالها العاشق، فإننا نحرمها من موضوعها الأجمل ومن المادة النبيلة لصنيعها، وإذا ما حرمنا الحب من الخدمة التي يسديها له الشعر والمعرفة التي له به، فإننا نضعفه بحرمانه من سلاحه الأنجع، وبفعلنا ذاك سنجعل من الإله الخيّر الذي يجمع بين الكائنات –كما الإلهات الحاميات للبشرية وللعدل- جاحدًا ونسّاءً.

28. وإني لم أمْحُ نفسي من لائحة خدَّام هذا الإله إلا من مدّةٍ قصيرةٍ، وأنا لا زلت أحتفظ بذاكرة قوته وقيمته.

«فأنا أتعرّف على آثار حماستي القديمة»[4].

ولا تزال بعض الحرارة والعاطفة ماثلةً فيَّ بعد الحمى.

«وهذه الحرارة لا تفارقني في سنيني الشَّتَويَّة»[5].

29. ومهما بلغ بي الجفاف والوهَن، فإني لا زلت أحس ببعض الفضلات

(1)Euripide, in Plutarque, **Qu'il faut qu'un philosophe converse avec les princes,** XXIII, f° 134 C.

(2) Lucrèce, **De la Nature**, I, 21-23.

(3) * بالاس هي الربة منيرفا لدى الرومان أو أثينا لدى الإغريق، وهي ربة الحكمة.

(4) Virgile, **Énéide**, IV, 23.

(5) Jean Second, **Elégies**, I, III, 29.

الدافئة لهذه الحرارة التي عشت.

«هكذا بحر إيجة حين تكف رياح الشمال والجنوب
عن رجرجته وإهاجته، لا يهدأ للتوِّ
بل يظل متلاطمًا
وأمواجه تظل هائلةً وهائجةً»[1].

لكنَّ قوة هذا الإله وقيمته- في نظري- تظهران أكثر حدَّةً وأشدَّ حيويةً في ذكرهما في الأشعار أكثر مما في ذاتهما.

«والبيت الشعري له أنامل يدغدغ بها»[2].

الشعر يقدم لنا جوًّا يكون أكثر عشقًا من العشق نفسه، وفينوس ليست إلهةً أكثر جمالًا وهي عاريةٌ وحيَّةٌ ولاهثةٌ منه في هذه الأبيات الشعرية لفرجيليوس:

«إنها تصمت، وحينها بيديْن ببياض المرمر
تعانقه وتدفئه بعناقها الودود؛ فيحس أن
تلك الشعلة المعروفة تغشاه، وبتلك النار تخترقه
فانتشرت حتى النخاع
وهكذا أحيانًا في فرقعة الرعد
الشقُّ الملتهب للبرق يفتح
السماء وينتشر في الغمام المستنير
... وبعد القول، ينصاع لقبلاتها
وعلى صدر زوجته ها هو النوم
بدوره يعانقه، ويسري دبيبه في أطرافه»[3].

(1) Le Tasse, **Jérusalem délivré**, XII, 63.

(2) Juvénal, **Satires**, VI, 196.

(3) Virgile, **Énéide**, VIII, vv. 387 sq.

الزواج

30. وما يحثُّنا هنا على التأمل هو أن الشاعر يصوِّر لنا فينوس ببهجةٍ لا تعرفها النساء المتزوجات، ففي ذلك الشوق المعقول الذي هو الزواج، لا تكون الشهوات الحسية شهوانيةً، وإنما كامدةً وحافيةً. الحب يكره أن يكون العاشق مربوطًا بروابط غير روابطه، ويشارك على مضَضٍ في التسْويات وفي الحفاظ عليها في مجالٍ غير مجاله، كالزواج. فالتحالفات والثروة لها حصتها في ذلك، مقدار الفضائل والجمال أو أكثر منها، فمهما قيل لا يتزوج المرء لنفسه، بل إنه يتزوج أيضًا وبالمقدار نفسه أو أكثر للخلف ومن أجل عائلته. إن عادة الزواج وعلَّة وجوده تتعلق بالسلالة وتُجاوزنا بكثيرٍ؛ ولهذا السَّبب أفضِّلُ أن يكون زواجًا مُدبَّرًا من قِبل آخرين لا من قِبل المعنييْن بالأمر، وبالحكم العقلي للآخرين لا بحكمهما، وما أقوله هنا مناقضًا لمواضعات العشْق. إنه لمن باب زنا المحارم أن يستعمل المرء لهذه القرابة المحترمة والمقدَّسة مجهودات الحب وفوراته-كما قلت ذلك سابقًا[1]. يقول أرسطو: إن على المرء أن يداعب زوجته بحشمةٍ وحذرٍ؛ خوفًا من أن تجعلها المداعبة الشهوانية تخرج عن طوْرها فتفقد عقلها، وما يقول عن الضمير يقوله الأطباء عن الصحة: اللذة الفوّارة والشهوانية والمتكررة تفسد النطفة وتمنع من الحمل، وهم يضيفون أن المرء لكي يجعل علاقةً جسديةً لا تحيد عن طبيعتها، بحرارةٍ مشروعةٍ وخصبةٍ، عليه ألا يباضع الزوجة إلا نادرًا وبفتراتٍ متباعدةٍ.

«حتى تتشرَّب الزوجة من عطايا فينوس بعمقٍ»[2]

31. لمْ أرَ زواجًا أكثر هشاشةً وسريع الفشل من ذلك الذي يكون في أصله الجمال والرغبة العاشقة.الزواج يلزمه أسُسٌ أكثر صلابةً وأشدّ وثوقًا، وينبغي التقدم فيه بحيطةٍ؛ إذ إن الفرح والبهجة الفائريْن لا يلائمانه.

---

(1) في الكتاب الأول، الفصل 29، في الاعتدال.

(2) Virgile, **Géorgiques**, III ,137.

النَبالة

32. أولئك الذين يعتقدون أنهم يشرِّفون الزواج بإضافة الحب له، يقترفون -حسب ما يبدو لي- الخطأ نفسه الذي يقترفه من يزعم -تشريفًا منه للفضيلة- أن النبالة ليست شيئًا آخر غير كونها فضيلةً. إنها أشياء ذات قرابةٍ معينةٍ، لكنَّما بينها من الاختلافات كثيرٌ، فمن غير المفيد الخلط بين أسمائها وألقابها، بحيث إننا نضرُّ بهذه وتلك إذا خلطنا بينها، النبالة ميزةٌ رائعةٌ، وقد تمَّ إرساؤها عن حقٍّ، لكن بما أنها ميزةٌ ترتهن بالآخرين، ويمكنها أن تقع على شخصٍ منذورٍ للرذائل وغير صالحٍ لأي شيءٍ، يمكننا أن نعتبر أنها تقع في مرتبةٍ أدنى من الفضيلة. فإذا كانت فضيلة، فإنها ستكون فضيلةً مصطنعةً وعَيانيةً، وهي ترتهن بالوقت والمصادفة، وتختلف حسب البُلْدَان، وتحيا وتموت، ولا معين لها كما نهر النيل. وهي تُتوارث من جيلٍ لآخرَ، ومشتركةٌ بين العديد من الناس، وتقوم على الوراثة والمشابهة، ومن ثمَّ فهي نتيجةٌ فقط وعلَّتها ضعيفةٌ جدًا. العلم والقوة والطيبة والجمال والغنى وكل المزايا الأخرى تتواصل في ما بينها ويمكن أن تتشارك، أما النبالة فهي مكتفيةٌ بذاتها، وهي ليست مُجديةً لأي شخصٍ آخرَ. حين اقتُرح على أحد ملوكنا أن يختار -للمسؤولية نفسها- بين مترشحيْن كان أحدهما نبيلًا والآخر ليس نبيلًا، أمر بأن يتم اختيار الأكثر استحقاقًا من غير اعتبار لتلك المزيَّة، لكن في حال إذا ما كانت قيمة الاثنين متساويةً، أمر أن يتمَّ اعتبار النبالة، وهو ما كان يعني منحها مرتبتها الحقَّة. ردَّ أنتيغونوس[1] على شابٍ غير معروفٍ منه، كان يطالبه بالمسؤولية التي كانت لأبيه، وهو رجلٌ ذو رفعةٍ كان قد تُوفي لتوِّه: «يا صديقي، أنا في هذا النوع من العطف، آخذٌ بعين الاعتبار شجاعة جنودي أكثر من أصولهم النبيلة».

33. والحقيقة أن الأمر لا يلزم أن يكون كما في الماضي، مع الناس الذين كانوا في خدمة ملك إسبرطة مكلفين بالأبواق والعازفين والطباخين، والذين كانت مناصبهم تمنح لأبنائهم بعدهم مهما كانوا أوْغادًا وجهلةً، بحيث يُقَدَّمون على الأكثر تجربةً في هذه المناصب. كان أناس كلكوتا

(1) أحد القادة العسكريين التابعين للإسكندر الأكبر، كان ملكًا لمقدونيا قبل أن يطرده منها بيروس.

بالهنديعتبرون النبلاء نوعًا أسمى من بني البشر، فقد كان الزواج ممنوعًا عليهم، وكذا أي نشاطٍ آخرَ غير الحرب، ولهم الحق في معاشرة كل الجواري اللواتي يرغبون فيهن، وللنساء ما طاب لهم من العشاق من غير أن يكون ثمة أي غيرةٍ بينهم، لكنهم يعتبرون من باب الجرم القاتل وغير القابل للمغفرة أن ينكحوا شخصًا من غير طبقتهم، ويعتبرون أنهم قد تدنسوا إذا ما لامسهم فقط شخصٌ من ذلك النوع عند مرورهم، فنبالتهم قد تفسُد كليةً بذلك، بحيث إنهم يعمدون إلى قتل كل شخصٍ يقترب منهم أكثر من اللازم؛ لهذا فإن من لا يكونون نبلاء عليهم أن يمشوا في زوايا الشارع وهم يصرخون؛ حتى لا يصطدموا بأحدهم، كما يفعل سائقو المراكب في مدينة البندقية، بعضهم يتفادون بذلك العار الذي يعتبرونه أبديًا، ويعتبره الآخرون موتًا محقَّقًا. لا الزمن، ولا عطف أميرٍ، ولا المهمة، ولا الفضيلة، ولا الثروة يمكنها أن تجعل من أحد العامة شخصًا نبيلًا، وهذا أمرٌ يتم تعزيزه بكون الزواج محرمًا بين الهيئات الحرفية؛ فالمرأة المنحدرة من عائلة إسكافيٍّ لا يمكن أن تتزوج بنَّاءً، بحيث إن الآباء يكونون مضطرين لتعليم أبنائهم حرفتهم ولا أخرى غيرها، محافظين بذلك على الاختلاف ودوام قدَرهم.

الزواج الحسن

34. الزواج الحسن-إذا ما كان ثمة زواجٌ حسنٌ- يرفض وجود الحب والشروط التي يفرضها، فهو يسعى إلى تقديم شروط الصداقة. إنه إطارٌ رائقٌ للحياة يقوم على الثبات والثقة وعلى عددٍ لا يُحصى من الأفعال النافعة والمتينة والواجبات المتبادلة. وأي امرأةٍ تذوق نكهته تلك التي ربطتها شُعلة الزواج بمن ترغب فيه[1]، لا يمكنها أن تعتبر نفسها عشيقةً لزوجها، فإذا كانت لها مكانةٌ في عاطفته كزوجةٍ، فهي تقيم فيها بشكلٍ مشرِّفٍ وفي أمانٍ تامٍّ، وحين سيلعب العاشق والراغب لعبة الحبِّ خارج بيت الزوجية، وسُئل مَن يرغب في أن يراها ملطَّخةً بالعار؟ هل هي عشيقته أم زوجته؟ ومن منهما سيُصاب بالضَّنى من

(1) Catulle, **Épithalame de Thétis et de Pélée**, LXIV 79.

أجل حظِّها العاثر؟ ومن منهما يتمنى لها الأكثر من الرفعة؟ فإن الأجوبة ستكون معروفةً بيقينٍ في زواجٍ فاضلٍ. والواقع أن الزواج الحسن نادرٌ جدًا، فإذا ما تمَّ تشكيله بصورةٍ جيِّدةٍ والتعامل معه كذلك، فليس ثمة مؤسسةٌ أجمل منه في مجتمعنا، وإننا لا يمكن أن نكون في غنًى عنها ونحن مع ذلك نحتقرها شيئًا فشيئًا. الأمر يشبه الأقفاص للطيور، من هي منها في الخارج تجتهدُ للدخول إليها، ومن هي منها فيها لا تحلم بغير الخروج منها. حين سُئل من سقراط ما هو الأفضل، الزواج بامرأةٍ أو عدم الزواج، أجاب: «مهما عملنا فسوف ننْدم عليه». الزواج مواضعةٌ يمكن أن نطبِّقَ عليها تمامًا العبارة التالية: «الإنسان للإنسان إما إلهٌ أو ذئبٌ»؛ ولبنائه يلزم اجتماع العديد من المزايا، وفي أيامنا هذه هو الْيَق للنفوس العادية-أي أناس الشعب- لأن الشهوات والفضول والخمول لا تُدخل الاضطرابات أبدًا لنفوسهم، أما مزاج كمزاجي، يتقزَّزُ من كل علاقةٍ أو التزامٍ، فهو يصعب عليه التكيُّف معه.

«فمن الأليق لي العيش بدون قيْدٍ في عنقي»[1].

35. وكما كان من الأفضل لي أن أتزوج حتى بالحكمة نفسها لو أنها رغبت فيَّ، لكن مهما قلنا فإن التقاليد وعوائد الحياة في المجتمع تجْرفنا، فأغلب أفعالي قد صدرت عن نماذجَ مُحتذاةٍ لا عن اختياراتٍ، وإني لم أختر شخصيًّا الزواج، بل اقتُدت إليه اقتيادًا وانتهيتُ إليه بعللٍ خارجيةٍ، فليس هناك فقط الأشياء المملَّة التي تغدو مقبولةً في بعض الظروف وبفعل المصادفة، بل الأمر يسري أيضًا على الأشياء الأكثر مقْتًا؛ لأن السلوك البشري ليس موثوقًا ولا أكيدًا، وحين انتهيت إلى الزواج، كنت بالتأكيد غير مُهيَّئٍ له جيدًا في تلك اللحظة، وكنت أكثر احتراسًا منه من احتراسي منه اليوم بعد أن جربته، ومع أني متحررٌ من العوائد فيما يظهر، فقد اتَّبعت بدقةٍ قوانين الزواج أكثر مما يمكن أن أتمناه أو أعِد به. ليس الوقت ملائمًا الآن للتمرد حين يكون المرء قد انصاع لذلك، بل عليه أن يحافظ بحكمةٍ على حريته، لكن بما أنه استسلم لذلك الالتزام، فعليه أن ينصاع لقوانين الواجب المشترك، أو على الأقل أن يسعى لذلك، فمن يعقد تلك الصفقة بروح المقت والكراهية يتصرف

(1) Pseudo-Gallus, (Maximilianus) **Élégies**, 1, 61.

بشكلٍ سيئٍ وغير عادلٍ. وهذه القاعدة الحسنة هي ما أرى الزوجات يتبادلنه من يدٍ إلى يدٍ كما لو كانت نبوءةً مقدسةً.

«اخدمي زوجك كما لو كان سيّدك
واحترسي منه كما من رجلٍ خائنٍ»[1].

وهو ما يعني: «تصرفي معه باحترامٍ وإجلالٍ مفروضين عليك، وبعدوانٍ وتحدٍّ له طبيعيين فيك»، كما لو كان الأمر صرخة حربٍ وتحدٍّ، وهو ما أعتبره أيضًا سلوكًا غير عادلٍ وضارًّا. أنا بالغ الوداعة بحيث يصعب عليَّ أن أغذي أهدافًا شائكةً كهذه، والحقيقة أنني لم أبلغ بعد مستوى الكمال في الحذق واللياقة الروحية كي أخلط بين العقل والظلم؛ وكي أسخر من أي قاعدةٍ وأي نظامٍ لا يتلاءم مع نوازعي؛ إذ ليس لأني أكره التطيُّر أنخرط للتوّ في نفي الدين. فإذا لم يكن المرء قادرًا على الدَّوام على القيام بواجبه، فعليه على الأقل أن يعرف كيف يتعرف عليه ويعزُّه؛ إذ من الخيانة أن يتزوج المرء من غير أن يتزاوج. لكن لنتابعْ.

36. يتحدث لنا شاعرنا فرجيليوس عن زواجٍ مليءٍ بالانسجام والتناسق ليس فيه مع ذلك الكثير من الوفاء. هل أراد القول أنْ ليس من المستحيل عيش الحب مع الحفاظ -مع ذلك- على بعض الاحترام نحو الزواج، وأن نخرقه بعض الشيء من غير أن نمزّقه تمامًا؟ قد يغش الخادم سيده غير أن ذلك لا يعني أنه يكرهه. فالجمال والفرصة السانحة والقدَر -لأن القدر يساهم هو أيضًا هنا=

«هناك قدَرٌ مرتبطٌ بتلك الأعضاء الحميمة
فإذا لم تكن الكواكب مواتيةً لك-
فإن الحجم العظيم لهيئتك لن يكون له حولٌ ولا قوةٌ»[2].

=هذه الأشياء كلها ربطت الزوجة بشخصٍ مجهولٍ، لكن ربما ليس إلى حدّ ألا يبقى لديها أي رابطٍ يشدُّها إلى زوجها. إننا هنا أمام مغامرتيْن لهما

---

(1) مثلٌ فرنسيٌ مجهولُ الأصل.

(2) Juvénal, **Satires**, IX, 33-34.

سبيلان مختلفان، المرأة يمكنها أن تمنح نفسها لشخصٍ لا ترغب في أن يكون بعْلًا لها؛ لا بسبب موقعه الاجتماعي، وإنما لما هو عليه في ذاته. والقليل من الرجال تزوَّجوا عشيقتهم ولم يندموا على ذلك، وحتى في المجال السماوي، ألم يعش يوبيتر زواجًا سعيدًا مع زوجته، التي كان قبل الزواج بها قد تمتع بها خلال لحظات عشقٍ عابرةٍ؟ ثمة كما يُقال: «أن تبْصق في الأكل وتتناوله».

الحب والزواج

37. رأيت في ما مضى في عائلةٍ نبيلةٍ كيف أنهم يداوون الحب بالزواج بشكلٍ مُخزٍ وخادعٍ، فهذان الأمران مختلفان بالغ الاختلاف. نحن مع ذلك يمكننا أن نحب من غير أن يزعجنا ذلك في شيءٍ، فهما أمران مختلفان بل متضادان. كان إيسوقراطيس يقول: إن مدينة أثينا تعجب الناس كما ملما يعجب الرجل معاشرة المرأة، فكل واحدٍ يحب التجول بها وقضاء وقتٍ ممتعٍ معها غير أن لا أحد يتزوجها، أي يحبها بحيث يتآلف معها ويستقر بها. ولقد رأيت باشمئزازٍ رجالًا يمقتون زوجاتهم لسببٍ وحيدٍ هو أنهن يخنَّهم. علينا ألا نحبهنَّ أقلَّ لأننا نقترف خطأً في حقِّهنَّ، بل عليهنَّ بالمقابل أن يصرنَ عزيزاتٍ علينا أكثر بالندم والرأفة.

38. الحب والزواج لهما غاياتٌ مختلفةٌ، غير أنهما متوافقان بشكلٍ ما كما يقول شاعرنا[1]. فالزواج لديه يكون من باب المنفعة والعدل والشرف والاستقرار؛ إذ هو متعةٌ باردةٌ لكنها عامّة. أما الحب فيقوم فقط على المتعة. والحق أن هذه المتعة فيه أكثر محسوسيةً وحيويةً وحدَّةً. إنها متعةٌ تحتد بالمصاعب، بحيث تكون بحاجةٍ للوخْز والحروق؛ فهو لا يكون حبًا من غير سهامٍ ومن غير نارٍ. تكون خيرات النساء وافرةً في الزواج، وهو ما يُثلم نصْل العاطفة والرغبة، ولدرْء هذا الأمر انظروا إلى العناء الذي عاشه ليكورغوس وأفلاطون في شرائعهما.

(1) قد يتعلق الأمر هنا بإيسوقراطيس أو فرجيليوس.

39. ليست النساء مخطئاتٍ تمامًا حين يرفضْن القواعد الجارية في الحياة، ما دام الرجال هم الذين سنُّوها دونهنَّ. ثمة بالطبع شِقاقٌ ومنافسةٌ بينهن وبيننا، والتوافق الأكثر متانةً الذي يمكن أن يكون لنا معهنَّ لا يزال مضطربًا وعاصِفًا.

40. نحن نتعامل معهنَّ حسب فرجيليوس بطريقةٍ متناقضةٍ، وإليكم لماذا ذلك: لقد اعترفنا أنهنَّ ومن بعيدٍ أكثر حماسةً وحساسيةً منا لآثار الحب، كما شهد على ذلك الكاهن في العصور القديمة، الذي كان تارةً رجلًا وتارةً امرأةً.

«وفينوس كان يعرفه في جانبيْه الاثنين»[1].

وقد علمنا أيضًا من أفواههم في سالف الأزمان، أن إمبراطور وإمبراطورة حاذقيْن في ذلك ومشهوريْن به، قد منحانا الدليل على ذلك: هو بافتضاض عشر فتياتٍ أبكارٍ أسيراتٍ، وهي بتحمل مضاجعة خمسٍ وعشرين رجلًا في ليلةٍ واحدةٍ، مستبدلةً صاحبها على هواها.

«انسحبت وجسدها لا يزال ينبض حرارةً
منهكًا من الرجال لكن غير شبعان»[2].

سُلطة الزوجية

41. في إحدى المنازعات بكاتالونيا، اشتكت امرأةٌ زوجها بدعوى أنه كان يقضي منها وطره باستمرارٍ وبمثابرةٍ -وفي رأيي ليس لأن ذلك الأمر كان يزعجها؛ إذ إني لا أؤمن إلا بمعجزات الدين، وإنما بغرض أن تقوم بهذه الذريعة بتحجيم، بل لجْم سلطة الأزواج على زوجاتهنَّ، وهي بالضبط المظهر الأساس للزواج، وربما كان الأمر كذلك لكي تبيّنَّ أن كيْدهُنَّ يسخر من فراش الزوجية، ويدوس على عذوبة فينوس نفسها- وقد كان ردُّ زوجها -وهو رجلٌ جِلْفٌ غليظُ الطباع- أنه حتى في أيام الصيام، كان عليه أن يقوم بالمعاشرة على الأقل عشر مراتٍ، ثم إن ملكة أراغون،

(1) Ovide, **Les Métamorphoses,** III, v. 323.
(2) Juvénal, **Satires,** VI, 128.

وبعد مداولاتٍ عميقةٍ للمجلس؛ ولكي تسنَّ قاعدةً ثابتةً وتقدم مثالًا صالحًا لكل زمانٍ عن الاعتدال والتقدير اللذين يلزمان كل زواجٍ، أصدرت مرسومًا شهيرًا يحدِّدُ العدد الضروريَّ لهذا النشاط الجنسيِّ في ست مراتٍ في اليوم. وفي ذلك تخلَّت عن قسطٍ من حاجة ورغبة جنسها، ولطَّفت منه كي تُرسي-حسب قولها- استعمالًا سهلًا ومن ثمَّ دائمًا لا يتغير. أما رجال الدين فصاحوا: «ما ستكون عليه فعلًا رغبة النساء وشهواتهنَّ، حتى يفضي بهنَّ عقلهنَّ وحسُّهنَّ الأخلاقيّ وفضيلتهنَّ إلى هذا العدد». فقد لاحظوا إلى أي حدٍّ يخضع تقْويم شهواتنا الجنسية وتقْديرها للتغيُّر، ما دام سولون، رئيس المدرسة القانونية، يحدِّدُ عدد مرات مباشرةِ المرأة بثلاثٍ في الشهر؛ حتى لا يُخلَّ المرء بالواجبات الزوجية؛ لأن ذلك الإخلال هو ما يخافه الناس أكثر في الزواج، وبعد أن وثقْتُ في هذه الأمثلة وسردتُها، فنحن قد فرضنا -مع ذلك- على النساء بالأخص العفَّة، تحت طائلة العقوبات القصوى.

42. ليس هناك من هوًى يفرض نفسه بصرامةٍ كهذا، ونحن نريدهنَّ وحدهنَّ أن يقاومنَّ ضراوته، لا كأي رذيلةٍ أخرى وإنما كشيءٍ بشعٍ ومقيتٍ يكون أكثر من الإلحاد أو قتل المحارم، أما نحن فإننا في تلكم الأثناء نتعاطى له من غير إحساسٍ بالإثم، ومن غير أن نعاتب أنفسنا على ذلك. وأولئك الذين من بيننا أرادوا التغلب على هذا الأمر، اعترفوا بما يكفي كمْأن الأمر صعبٌ بل مستحيلٌ، حتى باستعمال الأدوية المادية وقمع الجسد وإضعافه وتبريده، وهنَّ على العكس من ذلك، نريدهن سليماتٍ وقوياتٍ وفي صحةٍ جيدةٍ ممتلئاتٍ وعفيفاتٍ، كل ذلك مرةً واحدةً، أي ساخناتٍ وبارداتٍ في الآن نفسه. فالزواج الذي نقول عنه إن وظيفته لديهن أن يمنعهنَّ من الاحتراق، لا يوفِّر لهن رطوبةً كبرى بالطريقة التي نتصرَّف بها معهن، وإذا ما هن اخترن شابًا يمنح له عمره قوةً فائرةً، فسوف يفتخر بإشاعة ذلك على الغير.

«وإذًا، إما أن نلتزم الحشمة، أو لنرخْ أمام المحكمة: لقد دفعتَ الثمن غاليًا من أجل رغباتك يا باسّوس هو ليس لك، فلقد بْعته»[1].

(1) Martial, **Épigrammes**, XII, 99, vv. 10, 7 et 11.

43. كان الفيلسوف بوليمون قد قاضته امرأته عن حقٍّ؛ لأنه سار يبذِّر النطفة المخصوصة للحقل الخصب في الحقل البَوار[1]. فحين تتخذ النساء أزواجًا شائخين أضناهم العمر، ها هن في عزِّ الزواج في وضعيةٍ أسوء من الأبكار أو الأرامل، ونحن نعتبرهنَّ محظوظاتٍ لأن لهنَّ رجلًا إلى جانبهنَّ، تمامًا كما اعتبر الرومان أن الجارية كلوديا لايتا (التي قاربها كاليغولا[2] قد تعرَّضت للاغتصاب، مع أنه قد تمَّ التأكد أنه لامسها فقط. بيْد أننا من ناحيةٍ أخرى نعزز بذلك حاجتهنَّ؛ لأن التواصل مع أي رجلٍ ورفقته توقظ حرارتهنَّ التي تظل خامدةً في العزلة؛ ولهذا الغرض في ما يبدو، فإن عاهل بولونيا بوليسلاف*[3] وزوجته كينجا؛ ولكي يجعلا من عفتهما فاضلةً أكثر، كرّساها معًا بنذرٍ في يوم عرسهما وهما نائمان معًا، واحترماه غير عابئيْن بالمواضعات الزوجية.

44. نحن نعلِّم النساء منذ نعومة أظفارهنَّ مكائد الحب، فجمالهنَّ وحلْيتهنَّ ومعارفهنَّ وتعليمهنَّ لا يكون إلا لهذا الغرض، ومربياتهنَّ لا يحشينَ رؤوسهنَّ إلا بمعالم الحب؛ حتى لو صوَّرنَه لهنَّ دومًا كي يقززْنهنَّ فيه، وابنتي -وأنا ليس لي غيرها من أبناء[4]- في سنٍ تبيح فيه الشرائع للفتيات الناضجات الزواج، غير أنها ليست ناضجةً بما يكفي مقارنةً مع عمرها، فهي رشيقةٌ ووديعةٌ، وقد ربَّتها أمها على هذا المزاج في معزلٍ عن الناس، بحيث إنها بالكاد بدأت تتخلص من سذاجة الطفولة. كانت تقرأ أمامي كتابًا بالفرنسية؛ وكانت به كلمة «الزان»[5]، وهو اسم شجرةٍ معروفةٍ، فأوقفتها مربيتها للتوِّ وبشكلٍ فظٍّ، وجعلتها تتجاوز ذلك المقطع، لم أتدخل في الأمر حتى لا أخلخل ما تعوّدا عليه؛ إذ أنا لا أتكفل بتلك التربية، فمجتمع النساء به جوانب غريبةٌ علينا احترامها، لكن ولا أظن نفسي مخطئًا في ذلك، فإن التواصل مع عشرين خادمًا لمدة ستة أشهرٍ، لم يكن له أن يطبع في مخيلتها أصوات وفكرة هذه الكلمة المارقة واستعمالها وكافة آثارها أفضل من تلك العجوز الطيبة، بتوبيخها

(1) يقول ديوجينيس اللائرتي في «حياة بوليمون» إن هذا الفيلسوف كان يعاشر الغلمان.
(2) يتعلق الأمر في الواقع بكاراكالا.
(3) * هو بوليسلاف الخامس الشهير بالعفيف (1226 م – 1279 م).
(4) كان لمونتيني في الواقع أبناءٌ آخرون، غير أنه في سنة 1586 م (تاريخ كتابة هذا النص) هي من تبقى له منهم، وكان عمرها يناهز حينها الخامسة عشرة.
(5) جناس يقرب بين شجرة الزان والزاني [المترجم].

وتحريمها لها النطق بها.

«الفتاة البكر تحب الرقصات الإيونية
تتلوى بأطرافها
ومنذ نعومة أظفارها تحلم
بعلاقات عشقٍ ماجنةٍ»[1].

45. النساء يتحرزنَ شيئًا ما من قواعد الحشمة، ويشرعْنَ في الحديث في تلك الأمور بحريةٍ ونحن ما زلنا صبيانًا قربهنَّ. أنصتوا لهن يصفنَ طرائقنا في غوايتهنَّ وأحاديثنا، فهن يثبتْنَ لكم جيدًا أننا لا نقدم لهن شيئًا لا يكنَّ قد عرفْنَه وتمثّلْنَه من دوننا، فهل يرجع ذلك كما يزعم أفلاطون إلى أنهنَ كنَّ في سالف الأزمان غلمانًا فاجرين؟ قادتني الصدفة يومًا إلى مكانٍ أستطيع منه أن ألتقط كل ما يقلنَ فيما بينهنَّ من غير إثارة الانتباه لوجودي، وأنا لا أستطيع إثبات ذلك هنا. قلت في نفسي: «بحق السيدة العذراء، لأرخْ من هنا توًّا لدراسة عبارات «أماديس[2]» وكتب بوكاتشيو؛ كي أتظاهر بالذكاء، فنحن نضيع وقتنا معهنَّ». ليس ثمة كلمةٌ ولا مثالٌ ولا طريقةٌ في التصرف لا يعرفْنَها أفضل من كتبنا، إنه علمٌ ينبع من شرايينهنَّ=

«هنَّ ينهلنَ من فينوس نفسها»[3].

=علمًا يغرسه في أنفسهنَّ باستمرارٍ أولئك المعلمون الجيدون، الذين هم الطبيعة والشباب والصحة، فهو علمٌ لا حاجة لهم في تعلمه، إذ إنه ينبع منهنَّ.

«الحمامة البيضاء أو أي طائرٍ آخر
وهو من الفجور بحيث نعجز عن تسميته
أبدًا،لم يسع بمنقاره إلى البحث الجامح عن القبلات
أكثر من المرأة التي تنساق للشهوة»[4].

(1) Horace, **Odes**, III, 6, vv. 21-24.

(2) «أماديس دي جاولا» هي رواية إسبانية [المترجم].

(3) Virgile, **Géorgiques**, III, v. 267.

(4) Catulle, **Poésies**, LXVIII, 125.

46. ولو أننا-من الخوف والإحساس بالشرف الذي علمناهنَّ إياه- لم نلجمْ الجموح الفطري لرغبتهنَّ، لكنَّا الآن في ضلالٍ مُبينٍ. إن حركة العالم بكاملها تؤدي إلى هذا النكاح وتُختصر فيه، وهو شيءٌ شائعٌ في كل شيءٍ، ومركزٌ إليه يتَّجه كل شيءٍ، ويمكننا أن نرى إلى اليوم الوصفات التي أصدرتها مصلحة الحب في المدينة العتيقة والحكيمة لروما، ومبادئ سقراط في تعليم المحْظيات.

«الكتب الرواقية الصغيرة لا تكره الانتشار على مخداتهنَّ الحريرية»[1].

47. يقوم زينون الإيلي في شرائعه أيضًا بسنِّ قواعد لمزالق فضِّ البكارة وارتجاجاتها. ما كان معنى كتاب ستراتون عن الاقتران الجسدي[2]؟ وماذا تناول ثيوفراستوس في كتابيه، أحدهما عن العاشق، والثاني عن الحب؟ وما قال أريستيبّوس في كتابه «عن الملذات العتيقة»؟ ما الذي تبتغيه أوصاف أفلاطون الفضفاضة والحيّة عن علاقات الحب في زمنه؟ والكتاب بعنوان «عن العاشق» لديميتريوس الفاليري؟ وكتاب «كلينساس أو العاشق المغصوب» **لهيراقليدس البُنطي**؟ وكتاب «عن طرائق إنجاب الأطفال» أو كتاب«عن الأعراس»، وذلك الكتاب الآخر بعنوان«عن السيد أو عن العاشق» لأنتيستينيس؟ ولقد تناول أرسطون بالشرح تمارين الحب، وكتب كليانثس عن الحب وفن الحب، وما القول في المحاورات عن الحب لسفايروس؟ أما حكاية «يوبيتر ويونو» لخريسيبّوس، فهي ماجنةٌ أكثر مما يُتصوَّر، من غير أن نتحدث عن رسائله الخمسين ذات المجون الداعر، وأترك جانبًا الكتابات الفلسفية للمدرسة الإبيقورية التي تدعو للشهوة. في سالف الأزمان كان ثمة خمسون إلهًا مكلفون بخدمة الحب، وكان ثمَّة شعبٌ -ولكي يخفف من وطأة الشهوة لدى من يأتي للتعبُّد في المعابد- يضع رهن إشارة الزائرين الغلمان والفتيات كي يستمتعوا بهم، والاستمتاع بهم قبل التعبُّد كان جزءًا من طقوس العبادة. **«عليكم ألا تندهشوا لذلك، فالفجور ضروريٌّ للعفَّة، ولا يمكن إطفاء النار إلا بالنار»[3].**

(1) Horace, **Épîtres**, VIII, v. 15.

(2) أغلب المؤلفات التي يُثبتها مونتيني هنا عن الحب استقاها من ديوجينيس اللايرسي.

(3) Tertullien, **De la Pudicité**.

طقوس الذّكورة

48. لقد كان هذا الجزء من جسدنا موضوعًا للتأليه في كل مناطق المعمور، ففي البلاد نفسها المذكورة آنفًا، كان البعض يسلخ ذكَره كي يهدي جزءًا منه للآلهة، فيما يكرِّس لها البعض الآخر نطفتهم ويقدمونها قربانًا لها، وفي بلادٍ أخرى يقوم الشبان بحزِّه أمام الملأ في مواطن مختلفةٍ بين البشرة واللحم؛ كي يُدخلوا فيه أعوادًا من الخشب-الأغلظ والأطول منها التي يستطيعون تحمُّلَها- ثم إنهم يشعلون النار بتلك الأعواد كي يمنحوها قربانًا للآلهة، ومن لا يستطيع تحمل وطأة هذا الألم يُعتبر قليل البأس وقليل العفَّة. وفي أمكنةٍ أخرى كانوا يتعرفون على من سيكون القاضي الأكثر قداسةً بتفحُّص عضوه، ويحملون تمثاله في احتفالاتٍ بهيجةٍ تتم إقامتها تقديسًا للآلهة.

49. كانت السيدات المصريات خلال الطقوس الاحتفالية بعيد «باخوس»، يحملنَ عضوًا ذكريًا منحوتًا من خشبٍ بشكلٍ جميلٍ وملائمٍ لشهوة كل واحدةٍ منهنَّ، وتمثال إلههنَّ كان يكشف عن قضيبٍ يُجاوز طوله قامة الشخص.

50. وبعيدًا أكثر عن عالمنا[1]، تمنح النساء شكله لقبعتهنَّ التي يضعنها على الجبين؛ كي يستمجدْنَ باللذة التي يستمتعنَ بها منه؛ وحين يصرنَ أرامل يرمينه على ظهرهن مخْفيًّا في شُعورهنَّ.

51. وفي روما، كانت ربات البيوت الأكثر حكمةً يعتبرنَ إهداء الزهور والتيجان لتمثال الإله بريابوس[2]شرفًا، وكنّ يُجلسنَ العذارى عشية عرسهنَّ على قضيبه، وحتى في أيامنا هذه، يبدو لي أني رأيت شيئًا يشبه هذا الضرب من العبادة[3]. ما الذي كانت تعنيه تلك القطعة الغريبة[4]

(1) يتعلق الأمر ببلاد الباسكيين جنوب فرنسا.

(2) هو إله الخصوبة في الأساطير الإغريقية والرومانية [للمترجم].

(3) كانت عادة حكّ المرأة لبطنها على جذوع بعض الأشجار أو الصخور الضخمة (تبركًا بها للحمل بطفل) أمرًا شائعًا في أوروبا حتى القرن العشرين في البوادي والقرى.

(4) كانت فتحة السروال ظاهرة للعيان حتى نهاية العصور الوسطى.

على سراويل أسلافنا، والتي لا نزال نجدها لدى السّويسريين؟ وما الغرض اليوم من التباهي بأعضائنا الحميمة تحت ملابسنا الداخلية - والأدهى من ذلك في الغالب- بتضخيمٍ مُغالٍ لحجمها الطبيعيّ، سوى أن ذلكمن باب الحيلة والدجل؟

52. وأنا أميل إلى التفكير بأن ذلك النوع من اللباس، قد تم ابتكاره في القرون الفُضلى والأكثر جديَّةً بغرض عدم خداع الناس، فكل واحدٍ كان بإمكانه أن يقدم للعموم نظرةً عما يملك فعلًا في فرْجه، والشعوب البسيطة لا تزال ترتديه، بحيث إن ثمة علاقةً معينةً مع الواقع، وأهلها يقدمون معلومات عن خالقه كما يتم ذلك بخصوص اليد أو الرجل.

53. قام رجلٌ نبيلٌ[1] في شبابي بخصيْ عددٍ كبيرٍ من التماثيل في مدينته الكبرى؛ كي لا يصدم عيون الناس، وهو في ذلك يتبع رأي رجلٍ من القدماء في قوله: «إن إبراز العري للعموم سببٌ في الفتنة»[2]. لكن كان عليه أن يرتاب -كما كان الحال في مسرحيات «الإلهة الطيبة»[3]، حيث كل مظهرٍ ذكوريٍّ كان ممنوعًا- أن ذلك الأمر لا يكفي؛ إذ كان من الضروريّ خصيْ الخيول والحمير والطبيعة بكاملها في آخر المطاف.

«ذلك أن كافة الكائنات التي تعيش على الأرض، من ناسٍ وحيواناتٍ
وساكنة المياه والقطائع والطيور المتعددة الألوان
تجري مدفوعةً بنيران الحب»[4].

54. يقول أفلاطون: إن الآلهة قد منحتنا عضوًا صعْب المراس واستبداديًّا، يقوم كحيوانٍ هائجٍ بإخضاع كل شيءٍ لهيمنته بسبب عنْف رغبته. والأمر نفسه ينسحب على النساء اللواتي يمتلكنَ ما يشبه الحيوان الجشع والشره الذي يصبح غاضبًا من قلة الصبر، إذا لم نمنح له أكلته في الوقت المرغوب فيه؛ إنه ينفث حنقه في أجسادهنَّ، ويحقن الشرايين

---

(1) قد يتعلق الأمر بالبابا بولس الثالث أو بولس الرابع أو أيضًا بكالفِن.

(2) Cicéron, **Tusculanes,** IV, XXXIII, citation d'Ennius.

(3) فاونا زوجة فاونوس، هي الإلهة الرومانية للعفة.

(4) Virgile, **Géorgiques,** III, vv. 242-244.

ويعيق التنفس، مثيرًا جميع أنواع الاضطراب؛ حتى يذوق الفاكهة التي تشتهيها النساء، ويروي الرحم ويخصِّبه.

55. وعلى المشرِّع -الذي تحدثت عنه قبل قليلٍ- أن يعلم أيضًا أن من الأجدى لهنَّ والأكثر عفةً أن يعرفنَ الواقع في وقتٍ مبكِّرٍ على أن نتركهنَّ يخمِّننَه حسب حرية خيالهنَّ وحيوته. فالرغبة والأمل يعوضان الأعضاء الحقيقية بأخرى غريبةٍ وعجيبةٍ وأعظم بثلاث مراتٍ. وأنا أعرف شخصًا فقد كل الحظوظ مع النساء؛ لأنه كشف عن أعضائه الحميمة في مكانٍ لم يكن بعد قادرًا على استعمالها فيه الاستعمال الحقّ.

56. يا لها من أضرارٍ تثيرها تلك الرسوم الهائلة التي ينثرها الشباب في معابر البيوت الملكية وسلالمها! فهي تثير لدى النساء مقتًا كبيرًا لقدراتنا الطبيعية. ربما كان أفلاطون قد فكّر في ذلك حين أمر-محاكاةً لدول أخرى منظمةٍ- أن يتقدم الرجال والنساء والشباب عراةً في الملاعب الرياضية على مرأى من الكل. فنساء الهند اللواتي كنَّ متعوداتٍ على رؤية الرجال عُراةً، لهن على الأقل نظرةٌ باردةٌ نحوهم. ونساء مملكة باغو ببورما لا يرتدينَ لباسًا غير قطعة قماشٍ مشقوقةٍ من القُبُل تحت الحزام، وهي ضيقةٌ-بحيث إنها رغم قداسة الطقوس الدينية- تُبْدي كل مفاتنهنَّ في كل خطوةٍ. وهن يزعمنَ أنها ابتكارٌ منهنَّ كي يستجذْبنَ الرجال نحوهنَّ، وكذا لتنفيرهم من الغلمان. معارضاتٍ بذلك عادةً مستشريةً في البلاد ومتأصلةً فيها. لكن يمكننا القول إنهنَّ يفقدْنَ بذلك أكثر مما يربحنَ؛ لأن الجوع التامَّ أكثر حرارةً من ذلك الذي أشبعناه على الأقل بالنظر.

57. كانت ليفيا، زوجة الإمبراطور أغسطس، تقول: «إن الرجل العاري هو مجرد صورةٍ في نظر المرأة الشريفة». والنساء الإسبرطيات-اللواتي كنَّ أبكارًا، وهنٌّ نساءٌ أكثر مما هنَّ فتياتنا- كنَّ يرينَ يوميًّا شباب المدينة مجرَّدين من ثيابهم ليمارسوا أشغالهم، وهنَّ أيضًا لم يكنَّ يهتممنَ بإبراز أفخاذهنَّ في المشي. فكما يقول أفلاطون: «لقد كن يعتبرنَ أنفسهنَّ محجَّباتٍ بفضيلتهنَّ من غير أن يحتجنَ إلى عباءةٍ». لكن أولئك الذين يتحدث عنهم القديس أوغسطينوس قد منحوا قوة فتنةٍ كبرى

للعري، بحيث بلغ بهم المبلغ أن يتساءلوا إذا ما كانت النساء سوف يُبعثنَ في الآخرة محافظاتٍ على حرّهنَّ، وإذا ما كنَّ سوف يأخذنً بالأحرى عضونا الذكري؛ حتى لا يفتنَّنا في هذه الوضعية المقدسة.

58. بالجملة، إننا نخدع النساء ونثيرهنَّ بكافة أنواع الوسائل، ونحن نثير خيالهنَّ ونسخنه، ثم نبدأ في الشكوى منهنَّ. لنقلِ الحقيقة: «الكثيرون من بيننا يخشون العار الذي يأتيهم من رذائل نسائهم أكثر من خشيتهم من عار رذائلهم، ويهتمون أكثر -وذلك إحساسٌ رائعٌ- بضمير نسائهم المحصَّنات أكثر من ضميرهم، ويفضلون أن يكونوا سارقين ومارقين أو أن تكون زوجاتهم قاتلاتٍ وزنديقاتٍ على أن يعرفوا أنهنَّ لسنَ بأكثر عفةً من أزواجهنَّ».

59. إنها لطريقةٌ غير عادلةٍ يتم بها تصور الرذيلة، فنحن -كما هنَّ- قادرون على فسادٍ لا تُحصى رذائله هو أخطر من المجون ومضادٌ للفطرة، بيْد أننا نتصور الرذائل ونقوِّمها لا بما هي عليه حقًّا، وإنما حسب مصلحتنا، فهي رذائل ليس لها الأهمية نفسها لدينا. إن قسوة أحكامنا تقود النساء إلى المجون بشكلٍ مريرٍ ورذيلٍ أكثر مما يحتمله الطبع، وهو ما يؤدي إلى نتائج أسوأ مما هي عليه الأسباب والعلل.

60. إنهن يحثُثْنَ أزواجهنَّ على ربح المال في قصر العدالة، وعلى ربح الشهرة في الحرب، على أن يحصِّنَّ أنفسهنَّ وسط الخمول والملذَّات. ألا يرينَ أنْ ليس ثمة تاجرٌ أو وكيل محكمةٍ ولا جنديٌّ يترك للتوِّ عمله كي يجري نحو تلك المرأة الأخرى، بل حتى الحمَّال والإسكافي، مهما كان جوعهما وفقرهما، ومهما كانا منهكين بالعمل؟

«هل تريد أن تستبدل شعرةً واحدةً
مِن ليكيمنْيا الفاتنة -حين تستدير
مانحةً قذالها للقُبل الحارقة-
بخيرات وثراء أخيمينيس
وكنوز ميغادون ملك فريجْيا الخصيبة
أو القصور الفخمة للعرب؟

وحين -بالقبول والممانعة معًا-
ترفض لك القُبل التي تطلب
وهي ترغب فيها أكثر منك وستأخذها منك بعد
حين؟»[1].

.61 لا أدري إن كانت منجزات يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر تفوق في الصعوبة العزم والتصميم، الذي يلزم أن تُبينه امرأةٌ جميلةٌ تربَّت على طريقتنا، على النور والعلاقة بالعالم، معرّضةً للكثير من النماذج الفاسدة؛ كي تظل سليمةً وسط مئات الملاحقات العاشقة المستمرة والملحاحة. ليس هناك عملٌ شائكٌ ولا أكثر حيويةً من ذلك الخمول، وأنا أعتبر أن من الأسهل حمل درعٍ على حمْل البَتولية، ونذر العذرية أشرف من كل نذرٍ؛ لأنه الأصعب والأشقُّ على النفس. «فقوة الشيطان توجد في الخاصرة»، كما يقول القديس إيرونيموس[2].

العفَّة الصعبة

.62 أكيدٌ أن أصعب واجبٍ من الواجبات البشرية -أي ذلك الذي يتطلب الكثير من القوة والحزم- تركناه للنساء ونحن نترك لهنَّ مجده، وعلى ذلك أن يمنحهنَّ سببًا وجيهًا للمعاندة فيه؛ لأنها فرصةٌ رائعةٌ لتهديدنا وسحق ذلك التفوق الغبي في مجال القيم والفضيلة الذي ندَّعي امتلاكه عنهنَّ، وهنَّ سوف يكتشفنَ-إذا ما انتبهْنَ لذلك- أنهن سيحظينَبه، ليس فقط بتقديرٍ أكبر وإنما بحبٍ أمثل. فالرجل النبيل لا يتخلى عن مسعاه لأن امرأةً ردعتْه عن ذلك، فقط أن تكون العفة وراء ذلك الرفض، لا اختيار شخصٍ آخر. كمْ أقسمنا وهدَّدنا، وكم أطلقنا من الشكاوى، فنحن نكذب لأننا لا زلنا نحبهنَّ في ذلك أكثر. ليس ثمة من طُعمٍ أفضل من الحكمة، من غير قسوةٍ ولا مرارةٍ. وإنَّه لمن الغباء ومن الضعف أن يعاند المرء الكراهية والحقد، لكن ضد قرارٍ فاضلٍ وثابتٍ مرتبطٍ بترتيباتٍ جيدةٍ، ثمَّ تتبدّى النفس النبيلة والكريمة الحقة. النساء قد

(1) Horace, **Odes**, II, 12, vv. 21-28.
(2) Saint-Jérôme, **Lettres à Chromatia**, t. II, p. 72.

يكنَّ ممتنّاتٍ لنا لخدماتنا إلى حدٍّ معينٍ، ويجعلننا نحس أنهن لا يكرهْننا.

63. إنه لَبالغ القسوة ذلك القانون-على الأقل لصعوبة اتباعه- الذي يفرض عليهنَّ أن يمقتْننا لأننا نحادثهنَّ، ويكرهننا لأننا نحبهنَّ. لماذا ليس لهنَّ أن يسمعنَ عروضنا وطلباتنا، فقط أن يحافظن على حدود الحشمة والواجب؟ لماذا افتراض أنهنَّ يحملنَ في ذواتهنَّ معنًى أكثر تحرّرًا؟ قالت ملكةٌ من زمننا بلباقةٍ إن رفض تلك الإغراءات يعني الكشف عن الضعف، وفي الآن نفسه التشديد على السهولة الخاصة للرافض؛ فالمرأة التي لم تعرف الإغراء لا يمكنها أن تتباهى بعفَّتها.

64. إن حدود الشرف ليست مخطوطةً بشكلٍ دقيقٍ وضيّقٍ، وهي حدودٌ يمكن أن تتمدَّدَ، ويمكنها أن تسمح للشرف ببعض الحرية من غير أن يستنكر لنفسه تلك الحرية مع ذلك، ففي حدوده ثمة منبسطٌ حرٌّ محايدٌ وغامضٌ، وكم هو بليدٌ ذلك الذي نجح في كبح المرأة، وجعلها تنزوي في زاويتها وقلعتها الحصينة، من غير أن يكون راضيًا عن مصيره.إن ثمن النصر يتعلق بصعوبته. هل تريدون أن تعرفوا الانطباع الذي تركته خدماتكم واستحقاقاتكم في قلبها؟ يمكنكم قياس ذلك بسلوكها. فإحداهنَّ تمنح مقدارًا لا تمنحه أخرى. واعترافها الرهين بعملٍ حسنٍ يتعلق بنية ومقاصد القائم به؛ فالظروف الأخرى غير ذات أهميةٍ، وهي ميتةٌ ونافلةٌ. إنه يدفع ثمنًا أكبر في القليل الذي يدفع للغير مقارنةً مع الكلِّ الذي يدفع لرفيقة حياته، وإذا كان ثمة ما تصلح النُّدرة في تقدير ثمنه، فهو هذا: لا تنظروا إذا كان ذلك قليلًا؛ فالقليلات هنَّ من يحصلنَ على ذلك، وقيمة المال تتغير تبعًا لوقت سكّها وسمة مصدرها.

65. بالرغم مما يمكن لخيبة أمل البعض وعدم التحكم في النفس أن تدفعهم لقوله، في فرض غضبهم وخيبتهم، فالحقيقة والفضيلة يستعيدان السيادة، ولقد رأيت كثيرًا نساءً سُوِّدت سمعتهنَّ بشكلٍ ظالمٍ يستعدنَ تقدير جميع الرجال بثباتهنَّ فقط، من غير أن يسعينَ لذلك أو يقصدنَه، بحيث إن كل واحدٍ يعبر عن ندمه وتكذيبه لما اعتقد سابقًا في صحته، وكم رأيت من فتياتٍ مشبوهاتٍ، وها هنَّ اليوم يجلسنَ في الصفوف الأولى بين النساء الشريفات. قال أحدهم لأفلاطون: «كل الناس يغتبْنَ فيك»،

فأجاب: «اتركوهنَّ لاغتيابهنَّ، فأنا سأعيش بشكلٍ سيغيِّرنَ معه لغتهنَّ».

.66 عدا الخوف من الله وقيمة هذا المجد النادر جدًا، الذي يدفع النساء إلى صيانة عفتهنَّ والحصانة، فإن الفساد الشائع في وقتنا يكرههنَّ على ذلك. ولو كنت في مكانهنَّ، كنت عملت أي شيءٍ غير أن أضع سمعتي بين أيادٍ خطيرةٍ. في شبابي كانت متعة حكْي العلاقات الغرامية -وهي متعةٌ ليست بأقل حلاوةً من لذة الفعل نفسه- غير مسموحٍ بها إلا لمن كان له صديقٌ وحيدٌ وفيٌّ. أما اليوم، فما نجده في المحادثات العادية ومحاورات المائدة، هو التبجُّح بالأفضال النِّسوية التي حصل عليها فلان، والإباحية السرية للنساء النبيلات. إنه لمِن فيْض الدناءة والحقارة أن يترك المرء هؤلاء الحسناوات اللطيفات بين أيدي أناسٍ جاحدين وثرثارين، ومتقلّبي الأحوال يمرغونهنَّ في الوحل ويعاملنهن بتلك الفظاظة.

.67 هذا السخط والحنق الذي لنا إزاء رذائل النساء يأتيني من المرض الأكثر تفاهةً وعاصفةً الذي يمكن أن يصيب النفس البشرية: إنها الغيرة.

«من يمنعنا من أخذ النور من الشعلة المجاورة؟
يمكنهنَّ أن يمنحنَنَا باستمرارٍ، فالقعر يظل مشتعلا»[1].

الغيرة

.68 الغيرة وأختها الغبطة تبدوان لي من أكثر النزوات انحطاطًا، وأنا لا يمكنني أن أتحدث عن الثانية، فهذه النزوة التي يُقال عنها إنها بالغة القوة، قد أعفتْني من أنها لم تستبدَّ بي أبدًا.أما الغيرة، فأنا أعرفها على الأقل معرفة العِيَان؛ إذ إن الحيوانات والدواب نفسها تحس بها. حين سقط الراعي كراستيس في حب عنزة، جاءه تيسها ليلًا وهو نائمٌ، ونطح رأسه بعنفٍ غيرةً منه عليها، بحيث كسره. ولقد زدْنا في فيْض هذه الحمَّى اتباعًا لبعض الأمم المتوحشة، وأفضل الناس تربيةً لم يسلَموا من الإصابة بها، وهو أمر عاديٌّ، غير أنها لم تجرفهم في فيْضها.

(1) Ovide, **l'Art d'aimer**, III, 93 – Priapea, f° 3 v°.

«لا زانية اخترقها سيف الزوج
صبغت بالأحمر مياه نهر ستيكس»[1].

69. لقد عاش لوكولّوس ويوليوس قيصر وبومبّيوس وأنطونيوس وكاتو وغيرهم من الرجال العظام الخيانة الزوجية، وعلموا بذلك من غير أن يحدثوا ضجَّةً تُذكر، وفي تلك الأزمان لم يكن ثمة غير ذلك الغبي ليبيدوس الذي مات من أثرها غمًا وكمدًا.

«آهٍ للشقي! يا ضحية المصير الكارثي
ستروح للآخرة مشدودًا من رجليك
وستروح لتغذية السمك أو النباتات البرية»[2].

وإله فرجيليوس[3]حين باغت زوجته مع أحد رفقائها الإله مارس، اكتفى بأن أخجلهما

«وأحد الآلهة، وليس أكثرها زهدًا
سيرغب في أن يعيش ذلك العار»[4].

من غير أن يمنعه ذلك من أن يشتعل من الرغبة بالمداعبات اللطيفة التي تمنحها له زوجته، التي تشتكي فقط من أنها ترتاب -منذ ذلك الوقت- من عاطفته نحوها=

«لماذا البحث بعيدًا عن الأسباب؟
هل فقدتُ ثقتك أيتها الإلهة؟»[5].

=بل إنها وجهت له التماسًا يخص ابنها اللقيط=

«أنا الأم، أطلب منك سلاحًا لابني»[6].

---

(1) Second, **Elégies** I, 7, vv. 71-72.
هو النهر الذي يفصل الأرض عن العالم السفلي حسب الأساطير الإغريقية [المترجم].

(2) Catulle, **Poésies**, XV, 17.

(3) هو فولكانوس الذي تحدث عنه مونتيني في بداية «المقالات».

(4) Ovide, **Les Métamorphoses**, IV, vv. 187-88.

(5) Virgile, **Énéide**, VIII, vv. 395-6.

(6) Virgile, **Énéide**, VIII, vv. 393.

=وهو التماسٌ تم قبوله بأريحيةٍ، وتحدث فولكانوس عن إينياس بفخرٍ[1]=

«يلزم السلاح لمحاربٍ شهمٍ»[2].

=كل هذا له طابعٌ إنسانيٌّ هو في الحقيقة أكثر من إنسانيٍّ، وهذه الطيبة المفرطة، أقبل أن نتركها للآلهة.

«ليس من العدل المقارنة بين الناس والآلهة»[3].

70. أما الجمع بين الأبناء -فعدا أن المشرّعين الأكثر جديةً يأمرون به ويأملونه في دولهم- فهو أمرٌ لا يمس النساء اللواتي تكون لديهن الغيرة - ولا أعرف سبب ذلك- أكثر تجذُّرًا منه لدى الرجال.

«غالبًا ما كانت يونو سيدة الآلهة
تشتعل غيرةً بفعل المغامرات الماجنة لزوجها»[4].

71. حين تستبد الغيرة بتلك النفوس المسكينة الضعيفة التي لا قدرة لها على المقاومة؛ فإننا نحس بالشفقة عليها حين نرى كيف تتنازعها وتضطهدها بوحشيةٍ، إنها تتسلل إليها بذريعة الصداقة، لكن ما إن تُحكم قبضتها عليها، حتى تصبح الأسباب نفسها -التي كانت أساسًا للعناية- مصدرًا لكراهيةٍ قاتلةٍ. إنه من بين كافة أمراض الروح، المرض الذي يجد مادةً خصبةً لغذائه والقليل من الأشياء لشفائه، وهكذا تغدو فضيلة الزوج وصحته وامتيازه وسمعته فتيلة إشعال لشرور المرأة وحنقها.

«أحقاد الحب هي الوحيدة التي لا تعرف الصفح»[5].

72. هذه الحمى تغيّرُ كل شيءٍ طيبٍ في تلك النفوس إلى بشاعةٍ، وحين تصدُر عن امرأةٍ غيورةٍ، مهما كانت عفيفةً وسيدة بيتٍ فاضلة، فليس ثمة فعلٌ لا تنبعث منه المرارة والانزعاج. إنها عبارةٌ عن قلقٍ جامحٍ يدفعهنَّ

(1) لدى فرجيليوس، إينياس هو ابن أنخيسيس، أمير طروادة، وفينوس.

(2) Virgile, **Énéide**, VIII, v. 441.

(3) Catulle, **Poésies**, LXVIII,v. 141.

(4) Catulle, **Poésies**, LXVIII,v. 139.

(5) Properce, **Elégies amoureuses - CynthiaII**, 8, v. 3.

إلى سلوكٍ متطرفٍ، مناقضٍ تمامًا لما كان سببًا في الأمر. وذلكم كان حال رجلٍ يسمى أوكتافيوس*[1] بروما، فبعد أن قام بونتيا بمضاجعة بوستوميا، زادت عاطفته نحوها بفعل اللذة التي عاشها معها، فقام بالإلحاح عليها بالزواج منه، وبما أنه لم يستطع أن يقنعها بذلك، رمى حبه لها به في الفعل الأكثر وحشيةً وقتلًا للحميمية؛ إذ عمد إلى التنكيل بها. والعلامات الأخرى لمرض الحب هذا هو الكراهية المخفيَّة والمؤامرات والتواطؤ=

«ونحن نعلم بما تقدر عليه امرأةٌ في حال غضبٍ شديدٍ»[2].

=وحنقٍ يتآكل، خاصةً وأنه مضطرٌ لتبرير نفسه بتعليل الأحاسيس النبيلة.

73. يمتد واجب العفَّة بعيدًا جدًا. هل هي إرادتهنَّ الغريزية التي نريد أن نراها مقموعةً؟ إنها -في الآن نفسه- إرادةٌ مرنةٌ وفعالةٌ وبالغةُ الفوْرية بحيث يصعب إيقافها، وما العمل ما دامت الأحلام تقودهنَّ بعيدًا أحيانًا، بحيث يصعب عليهنَّ التخلي عنها؟ ليس بمكْنتهنَّ، ولا بمكْنة العفة نفسها -بما أنها هي أيضًا شيءٌ مؤنثٌ-مقاومة الفتنة والرغبة، فإذا كان الأمر يتعلق بإرادتهنَّ الغريزية فقط، فهل لنا من حولٍ أو قوةٍ إزاء ذلك؟ تصوروا الحشد المتدافع حول ذلك الذي سيكون له حظ أن يُحمل حيًّا -وكما الصقر، لكن بلا عيونٍ ليرى، ولا لسانٍ ليقول ذلك- على يد كل واحدةٍ من النساء اللواتي يرغبْنَ فيه. كانت النساء السكوثيات يسملْن عيون كافة عبيدهنَّ وأسرى الحرب كي يضاجعنَهم بحريةٍ وفي السرِّ.

74. يا لحظِّ من يعرف كيف يستغل الفرصة الملائمة! وإذا ما سُئلت: ما هو أول شيءٌ في الحب؟، سأجيب: هو التريُّث، والثاني الشيء نفسه، والثالث أيضًا الشيء نفسه، إنه شرطٌ أساسيٌّ. غالبًا ما خانني الحظ، وأحيانًا الجرأة. فليحمِ الله من الشر مَن يمكنه اليوم أيضًا أن يسخر من

(1) * هو أوكتافيوس ساجيتا، المتحدث باسم الشعب في مجلس الشيوخ الروماني، وقد قتل بونتيا بوستوميا، فحكم عليه بالنفي.

(2) Virgile, **Énéide**, V, v. 6.

هذا! ففي هذا الوقت يلزم الكثير من التهوُّر في الحب، وشبابنا يجدون له الأعذار تحت ذريعة الحماسة، لكن السيدات لو نظرنَ إليه من كثبٍ، فسيدركنَ أن الأمر يتعلق بالمقت. كنت أخشى الإساءة وأحترس من ذلك كثيرًا؛ فأنا أحترم عادةً ما أحب؛ إذْ مَن ينسى الاحترام في هذا المضمار يمحو بريق الحب، وأحَبُّ الأمور إليَّ هي أن يكون فيه المرء شيئًا ما مثل الطفل والخواف والخادم، وإذا لم يكن الأمر تمامًا كذلك في الحب، فإن لي في مجالاتٍ أخرى بعضًا من مظاهر الخجل الذي يتحدث عنه بلوتارخوس، ومسير حياتي قد انطبع به بطرائقَ متعددةٍ، فهو جانبٌ مني لا يتواءم مع مزاجي العام، لكن هل نحن شيءٌ آخرَ غير التمرد والشقاق؟ أحس بالعجز حين يُرفض لي شيءٌ، كما حين يكون عليَّ رفض شيءٍ، وأنا أحس بوخز الضمير حين أكون مصدر ضنًى للآخرين، في الأوقات التي يدفعني الواجب إلى أن أصدم نوايا شخصٍ في قضيةٍ مشبوهةٍ يكون متورطًا فيها، بحيث إني أقوم بذلك عن غير رغبةٍ وعلى مَضَضٍ، لكن إذا ما تعلق الأمر بي شخصيًّا -ورغم أن هوميروس يقول: إن الخجل فضيلةٌ غبيةٌ لمن يكون في الحاجة- أكلِّف شخصًا آخر كي يخجل في مكاني، وأجد الصعوبة نفسها في رفض من يطلبون مساعدتي، إلى درجة أني قد حدث لي أن أرغب في رفض شيءٍ وألا أجد القوة لذلك.

75. إنه لمن الحمق لجْم رغبةٍ حارقةٍ وطبيعيةٍ جدًّالدى المرأة، وحين أسمعهنَّ يتبجّحْنَ بطبعهنَّ البارد والعذري، أسخر منهن، فهذا يعني نفْي طبعهنَّ الحق. حين يتعلق الأمر بعجوزٍ فقدتْ أسنانها وبلغتْ أرذل العمر، أو بشابةٍ مصابةٍ بالسُّل وسقيمةٍ، فهما لهما ذلك المظهر البارد حتى ولو لم نصدقْهنَّ تمامًا. لكن النساء النبيهات واللواتي يتنفسْنَ جيدًا لا يعملنَ سوى على تعميق سوْأتهنَّ، لأن المعاذير التي يمكننا تلقِّيها منهنَّ تشكِّل بالأحرى تهمةً لهنَّ. الأمر يشبه حال نبيلٍ من جيراني شكَّ أنه مريضٌ بالعِنَّة=

«قضيبه أكثر رخاوةً من ساق نبْتةٍ نمت في الظل
ولم يقم أبدًا حتى منتصف عباءته»[1].

=إذْ بعد ثلاثة أو أربعة أيامٍمن العرس، جرؤ لكي يبرر عِنَّته على القسم

(1) Catulle, Poésies, LXVII, vv. 21-22

بأنه في الليلة السابقة على العرس، كان قد قام بالجماع عشرين مرةً، وهو ما تمَّ تأويله للتدليل على أنه لا يعرف شيئًا عن المباضعة والأمر بإلغاء زواجه، وفي آخر المطاف أن تدعي المرأة أنها باردةٌ وعذريةٌ ليس من مُفيدِ القول ولا حَصيفه؛ إذ لا وجود لعفَّةٍ أو فضيلةٍ من غير أن تأتي فتنةٌ لكي تجر الأمور للجانب المضاد.

76. عليها القول بالعكس «إن هذه الفتنة موجودةٌ، غير أني لست مستعدةً للاستسلام». القديسون أنفسهم يتحدثون هكذا، وأنا أتكلم عن اللواتي يتبجّحْنَ عَنوةً ببرودتهنَّ وعدم حساسيتهنَّ، واللواتي يرغبن في تصديقهنَّ بالجدية المنطبعة على وجههن، فحين يتعلق الأمر بوجهٍ متواضَعٍ عليه، حيث العينان تكذِّبان الكلمات، وألفاظ الحالة تقول عكس ما تبغي قوله، فإني أجد ذلك أمرًا ممتعًا. أنا حريصٌ بعمقٍ على الصدق والصراحة، لكن ما باليد حيلةٌ، فإذا لم تكن الفضيلة غبيةً تمامًا أو صبيانيةً، فهي فارغةٌ ولا تلائم كثيرًا النساء في علاقاتهنَّ في الحب، وهي تميل للتوِّ نحو الوقاحة؛ فتصنُّعهنَّ وتكشيرهنَّ لا يخدع غير الأغبياء، والكذب يأخذ فيه مكان الشرف؛ إذ يتعلق الأمر بمواربةٍ تقود للحقيقة، لكن من الباب الخطأ.

77. إذا لم نستطع أن نكبح جماح خيالهنَّ، فما الذي ننتظره منهن؟ أفعالًا؟ ثمة الكثير منها تنفلت من أي تواصلٍ خارجيٍّ، ومن خلالها يمكن للعفة أن تتعرض للتقْويض.

«إنها تقوم دومًا بما تقوم به من غير شاهدٍ»[1].

والأفعال التي نخشاها قليلًا، ربما تكون الأكثر مثارًا للخشية؛ فخطيئاتهنَّ الصامتة هي الأسوأ.

«وأنا أكنُّ التقدير لجاريةٍ تمارس أفعالها من غير مداورةٍ صادمةٍ»[2].

(1) Martial, **Épigrammes**, VII, 61, v. 6.

(2) Martial, **Épigrammes**,VI, 7, v. 6.

78. ثمة أفعالٌ محتشمةٌ يمكنها أن تفقد طابعها المحتشم، وأكثر من ذلك من غير علم النساء أنفسهنَّ. «فلقد حدث أنّ قابلةً -وهي تتحقق من بكارة فتاةٍ- قامت بفضها، إما بنيةٍ شريرةٍ أو عن خطإٍ ورعونةٍ»[1]. فإحداهن فضَّت بكارتها لأنها سعت لذلك، والأخرى فقدتها وهي تتسلى بذلك.

79. يصعب علينا وضع الحدود للأعمال التي نحرمها عليهن، فعلينا صياغة شرائعنا بألفاظٍ عامةٍ وشاملةٍ. والفكرة التي نكوّنها عن عفتهن سخيفةً، إذ من بين الأمثلة المتطرفة التي استطعت التعرف عليها، يمكنني أن أذكر مثال فاونا زوجة فاونوس، التي لم تظهر بنفسها بعد زواجها لرجلٍ أبدًا مهما كان شأنه، وزوجة هيرون[2] التي لم تكن تنتبه إلى أن زوجها ذو رائحةٍ كريهةٍ؛ لأنها كانت تعتقد أن تلك صفةٌ لكافة الرجال. باختصارٍ، يلزمهنَّ أن يصبحنَ عديمات الحساسية ومحجوباتٍ كي يرقْنَ لنا!

80. وإذًا علينا أن نقبل بأن النقطة الحاسمة في الحكم الذي علينا أن نصْدره على ذلك الواجب يكمن أساسًا في الإرادة، فنحن نعرف أزواجًا قد تحملوا هذا الحادث الزوجي، ليس فقط من غير عتابٍ ولا مسٍّ بشرف زوجاتهنَّ، وإنما بتقديرٍ باهرٍ واعترافٍ كبيرٍ بفضيلتهنَّ، وذلك حال تلك المرأة التي كانت تفضِّلُ شرفها على حياتها، والتي ضحت به للرغبة الجامحة لعدوٍّ قاتلٍ؛ كي تنقذ زوجها، بحيث إنها قامت من أجله بفعل ما لم تقمْ به أبدًا حتى لنفسها. ليس هنا مجال تعداد الأمثلة هذه، فعددها كبيرٌ ووافرٌ جدًا كي نقدمها في هذا الفصل. فلنحتفظ بها لمكانٍ سيكون أكثر ملاءمةً لها.

81. لكن، لكي نأخذ أمثلةً ببريقٍ عاديٍّ، أليس ثمة في كل يومٍ نساءٌ يمنحنَ أنفسهنَّ لرجلٍ آخرَ؛ فقط لكي يكنَّ ذوات نفعٍ لأزواجهنَّ، وبإيعازٍ من هؤلاء الأخيرين؟ لدينا من بين القدماء فوليوس الأرْجي الذي منح زوجته للملك فيليبوس مدفوعًا لذلك بالطموح، وأيضًا الإمبراطور الرومانيّ غالْبا الذي قدّم الحساء لمايكسناس بعد أن رأى زوجته تبادله بعض الإشارات والنظرات، تمدَّد على نُمْرقته متظاهرًا بالنوم العميق

(1) SaintAugustin, **La Cité de Dieu**, I, XVIII.

(2) Plutarque (Amyot), **Comment on pourra recevoir utilité de ses ennemis**.

كي لا يزْعج عشقهما، بل إنه اعترف بذلك بلطافةٍ باديةٍ، ذلك أنه صرخ بحزمٍ في خادمٍ جرؤ على تناول المزهريات التي كانت على الطاولة قائلًا: «ألا ترى أيها النذل أنني لا أنام إلا لأجل مايكيناس؟».

82. هناك نساءٌ ذوات أخلاقٍ فاسدة، وبإرادةٍ قويةٍ أكثر من نساءٍ أخرياتٍ يبدو سلوكهنَّ أشدَّ خضوعًا لقواعد الأخلاق، ونحن نرى من بينهنَّ من يشكينَ من أنهنَّ نُذرنَ للعفَّة قبل أن يصبحنَ راشداتٍ، لكني رأيت من بينهنَّ أيضًا من يشكينَ من أنهنَّ نُذرنَ للفجور قبل ذلك العمر. قد تكون رذائل الآباء السبب في ذلك أو الحاجة، وهي تدفع بالمرء لارتكاب ما لا يُتصوَّرُ. ففي بلاد الهند الشرقية -حيث العفة أمرٌ محْمودٌ- جرت العادة أن يُباح لامرأةٍ متزوجةٍ أن تمنح نفسها لمن يهديها فيلًا، وتستمدُّ من ذلك مجْدًا عظيمًا لأنها قد قُدِّرت بذلك الثمن الباهظ.

83. اختار الفيلسوف فايدروس اللائرتي*[1]-وهو من عائلةٍ من النبلاء- أن يدفع ابنته للدعارة طيلة عيشها معه، مقابل المال لمن يدفعه له، بعد غزو بلده إيليّا*[2]. ويُقال إن سولون أصدر باليونان شرائع تقضي بالحرية للنساء في تدبير أمور معيشهنَّ على حساب عفتهنَّ، وهي عادةً يقول عنها هيرودوتس إنها قد كان معمولًا بها من قبل في العديد من الدول.

84. ثمَّ أخيرًا، ما الفائدة المرجوة من هذا الخوف الرهيب الذي تثيره الغَيْرَة؟ فحتى لو كان هناك شيءٌ مبرَّرٌ في هذا المزاج، كنت أتمنى أن يحملنا بشكلٍ مفيدٍ، وإذًا هل هناك شخصٌ يعتقد أنه كان حاذقًا بحبسه للمرأة بين أربعة جدرانٍ وبإحكامٍ؟

«ضعْ مزلاجًا واحرسها، لكن من سيحرس الحراس؟
زوجتك ماكرةٌ، فهي ستبدأ بهم أولا»[3].

وكيف لا يمكنها أن تجد فرصةً مواتيةً، في وقتٍ انتشر فيه العلم والثقافة كعصرنا؟

---

(1) نحن نعرف فايدروس بالخصوص من خلال محاورة أفلاطون التي تحمل الاسم نفسه. وفيها يكون فايدروس سندًا لسقراط في آخر أيام حياته. والحكاية التي يثبتها مونتيني هنا مستقاة من ديوجينيس اللائرتي.

(2) * مقاطعة بغرب اليونان.

(3) Juvénal, **Satires**, VI, vv. 347-348.

85. الفضول رذيلةٌ في كل مكانٍ، غير أنه أمرٌ ضارٌ لدينا، فمن المخجل أن يرغب المرء في معرفة شرٍّ ليس له دواءٌ لا يؤججه ويعززه، الذي يغدو عاره معروفًا لدى الناس ويصبح أخطر بالغَيْرَةِ، والذي يمس الانتقام منه أبناءنا أكثر مما يُداوينا نحن، وإنك لَتصبح جافًا وسقيمًا وأنت تبحث عن دليلٍ من الصعب التأكد منه، كم كانوا مثيرين للشفقة أولئك الذين استطاعوا في شبابي أن يتوصَّلوا إلى ذلك، وإذا لم يقترح المخبر بالخيانة الزوجية -في الآن نفسه- مُساعدته ودواءً للقضية، فإن ذلك لن يكون سوى خبرٍ قدحيٍّ يستحق ضربة خنجرٍ أكثر من تصريحٍ للتكذيب؛ فالناس تسخر ممَّن يعجز عن إيجاد حلٍّ للخيانة الزوجية مقدار سخريتها ممَّن يجهل عنها كل شيءٍ. فوصْمة خداع الزوجة للزوج لا تنمحي؛ إذ هي حين تسم شخصًا لا تزول عنه أبدًا، والعقاب يجعلها تبرز أكثر من الخيانة الزوجية نفسها. يا له من عملٍ جميلٍ أن تُقتلع آلامنا الحميمة من الظل والشك كي يتم سردها في بوقٍ على خشبة التراجيديا! إنها مآسٍ لا تجعل المرء يعاني إلا بسماع حكيها من الآخرين، فهم يقولون «زوجةٌ صالحةٌ، وزواجٌ مباركٌ» حين يرغبون في تفادي الحديث عن الخيانة. وعلى المرء أن يكون من الشطارة بمكانٍ كي يتفادى تلك المعرفة الأسيَّة. كان للرومان عادةٌ حين يعودون من السفر، أن يرسلوا خطابًا قبل وصولهم إلى بيوتهم لإخطار أهل البيت بمجيئهم حتى لا يباغتوهم بعودتهم، وهو السبب نفسه الذي تمَّ بموجبه في بلدٍ ما إرساء عادة إفساح الطريق[1] للمرأة العروس من قِبل كاهنٍ؛ كي يتفادى العريس أن تكون له شكوكٌ أو أن يسعى-خلال المحاولة الأولى- إلى معرفة إن كانت قد أتت بكرًا أم مجروحةً بحبِّ شخصٍ آخر[2].

86. أنت موضوعٌ للنميمة؟ أنا أعرف عشرات الأشخاص الشريفين عاشوا الخيانة الزوجية بشكلٍ شريفٍ ومن غير عارٍ. نحن نعيب على رجلٍ متأدبٍ ذلك، غير أنه ليس أقل مدْعاةً للتقدير من أجل ذلك أيضًا. اجعلْ فضيلتك تكتم حظك العاثر، ولْيلعن الناس الأخيار سبب الخيانة، ومن يتطاول عليك بالمسّ بك فليرتعشْ فقط من التفكير في ذلك. وأخيرًا، من ذا الذي لا يتعرَّض للاتهام بأن زوجته خانته، من الصغير الأصغر إلى الكبير الأكبر؟

---

(1) أي الدخول بها قبل العريس [المترجم].

(2) F. Gomara, **Histoire Générale des Indes**, III, XXIX, f° 252.

«حتى الجنرال الذي قاد العديد من الجيوش
والذي له قيمةٌ أكبر من قيمتك بكثيرٍ، أيها الحقير!»[1].

87. بما أنك ترى الاغتياب في العديد من الناس في حضرتك، عليك أن تدرك أن لا أحد لا يغتابك في مكانٍ آخرَ؛ لكن، هل النساء المتحضرات أنفسهنَّ سوف يسخرنَ من ذلك؟ وممَّ يسخرنَ في أيامنا هذه على راحتهنَّ إلا من الزواج الهادئ والمتناغم؟ كل واحدٍ منكم جعل من رجلٍ آخرَ شخصًا مخدوعًا من زوجته؛ ولذلك فإن الطبيعة بكاملها تتكون من أشياء من النوع نفسه، من ضروب التعويضات والتقلُّبات، فتواتر حادث الخيانة هذا لا يمكن إلا أن يخفف من مرارته، وها هو قد أصبح عادةً.

88. إنها لَمحنةٌ مؤلمةٌ تلك التي يكون من الضروري كتمانها:

«ذلك أن القدر يأبى حتى الإنصات إلى شكاوانا»[2].

إلى أي صديقٍ سوف تجرؤ على الإسرار بشكواك؟ فإذا هو لم يتسلَّ بها سوف يعتبرها تعاليم وإشاراتٍ تمكنه من المشاركة في الوَزيعة.

89. الناس الحكماء يحافظون على المرارة السرية للزواج كما على لطائفه، ومن بين الخصائص المزعجة لهذه الظرفية، تُعتبر الخيانة الزوجية الأهم لمن هو ثرثارٌ كما أنا عليه؛ ذلك أن العوائد تجعل تبليغ ما نعرف وما نحس إلى أي واحدٍ أمرًا وقحًا ومضرًا.

90. وإنها لَمضْيعةٌ للوقت أن يمنح المرء لهن نصيحةً بسيطةً تجعلهنَّ يتفادينَ الغيرة؛ فطبعهن العميق متشبّعٌ بالشك والغرور والفضول، بحيث لا أمل في علاجهنَّ منها بالسُّبل العادية. وهنّ يتداركْنَ غالبًا هذا العيب المزعج بشكلٍ من أشكال الصحة أشدّ خطرًا من مرض الغيرة نفسه، فكما أن ثمة أنواعًا من السحر لا تنزع الشر من شخصٍ إلا لرميه على شخصٍ آخر، تراهُنَّ يرمينَ حماهنَّ على الأزواج حين يتخلصنَ من الغيرة، لكنمع ذلك وحتى نقول الحق، لا أدري إن كان من الممكن أن

(1) Lucrèce, **De la Nature**, III, vv. 1039 et 1041.

(2) Catulle, **Poésies**, LXIV, v. 170.

نتحمل منهنَّ شيئًا أسوأ من الغيرة، إنها الأخطر من بين طرائق حياتهنَّ، كما هو الرأس بالعلاقة من الأطراف. قال بيتّاكوس*[1] إن لكل واحدٍ ضعفه، وأن ضعفه كان هو الرأس الشرير لزوجته، ومن دونه كان سيحس بنفسه في كامل السعادة؛ ولكي تنقلب حياة الرجل العادل والشجاع والحكيم رأسًا على عقب تمامًا، يلزم أن تكون المصيبة خطيرةً وكبيرةً جدًا، فما الذي نقدر على فعله إذًا نحن الناس الصغار المساكين؟

91. كان مجلس شيوخ مرسيليا على حقٍّ في أن يمنح المشروعية لطلب ذلك الشخص للانتحار هربًا من الغضب العارم لزوجته[2]؛ لأن ذلك مرضٌ لا نتخلص منه إلا بإزالة الجزء المصاب، ولا حل ممكنٌ له إلا الهرب أو العذاب، بالرغم من أن الاثنين أهونُهما أصعب وأشقُّ على صاحبه.

92. كان عارفًا بالأمور-في ما يبدو لي- ذلك الذي قال إن زواجًا ناجحًا لا يمكن أن يتم إلا بين عمياء وبين أصمٍّ.

93. لنحترسْ أيضًا من أن ينتج العنف الكبير الذي نفرضه عليهنَّ آثارًا معاكسةً لما نسعى إليه، أي أن يُكثر من عشاقهنَّ ويجعل من النساء أكثر قابليةً للاستسلام لذلك. فبخصوص النقطة الأولى، ونحن نرفع من ثمن المكان، نرفع أيضًا من ثمن الرغبة في امتلاك قلبهنَّ. ألم تكن فينوس نفسها هي التي رفعت بحذقٍ من قيمة بضاعتها باستغلال الشرائع لصالحها، وهي تعلم جيدًا أن الحب ليس سوى تسليةٍ غبيةٍ، لو أن نُدرته والخيال لم يمنحاه قدْرًا وقيمةً؟ المرق هو الذي يمنح قيمةً للحم ويجعل منه أطباقًا مختلفةً كما قال فلامينيوس[3]. وكيوبيد إلهٌ قاس، فهو يتسلى بالصراع ضد الإيمان والعدل، ويصنع مجده من قوةٍ تتصدى لكل قوةٍ أخرى، بحيث إن كل القواعد تستسلم أمام قواعده.

«إنه يبحث باستمرار عن كل فرصةٍ لاقتراف خطيئةٍ ما»[4].

---

(1) * بيتاكوس (650 ق.م تقريبًا – 570 ق.م تقريبًا) سياسي وحكيم إغريقي.

(2) **Le Courtisan de Castiglione**, III, XXIV.

(3) Plutarque (trad.Amyot), **Les dicts notables des anciens Roys**.
أبدى القنصل فلامينيوس عن عجبه من رؤية العديد من الأطباق الشهية من كافة الأصناف على المائدة، فأخبره مضيفه أن كل شيء لم يكن سوى لحم الخنزير بأنواع مرق متعددة.

(4) Ovide, **Tristes**, IV, I, v. 34.

94. أما بخصوص النقطة الثانية، ألن نكون أناسًا مخدوعين أقل من زوجاتنا لو كنا نخشى الخيانة الزوجية قليلًا؟ إن تكوين النساء هو هكذا، بحيث إن منعهنَّ من شيءٍ يشجعهنَّ أكثر على اقترافه.

«إذا رغبتم فهنَّ يتمنَّعنَ، وإذا تمنَّعتم فسيرغبنَ فيكم فاتباع السبيل العاديّ عارٌ في نظرهنَّ»[1].

ميسّالينا

95. ما هو التأويل الأمثل والأفضل الذي يمكن أن نجده لحكاية ميسّالينا؟ فلقد خانت المرأة في البداية زوجها سرًّا، كما هو الأمر عادة، لكنه كان من الغباء بحيث إنها كانت تقوم بمغامراتها بسهولةٍ بالغةٍ، غير أنها تخلَّت فجأةً عن هذه الطريقة المتخفية لتمارس الحب علانيةً، وتظهر مع عشاقها أمام الملأ وتهتم بهم وتنعم عليهم بأفضالها على مرأى ومسْمعٍ من الكل، كانت ترغب في أن يمسَّه ذلك، لكن بما أن ذلك الحيوان لم ينتبه لهذا مع ذلك، وأن تلك السهولة الكبرى جعلت من ملذاتها بالغة الرَّخاوة ولا طعم لها، بحيث كان يبدو أنه يبيحه لها بل ويمنحها مشروعيةً، ما الذي قامت به؟ كانت هي زوجة إمبراطور في صحةٍ جيدةٍ وعاشقٍ للحياة، ها هي تتزوج من سيليوس عشيقها منذ زمان، في يومٍ كان فيه الإمبراطور خارج المدينة، وعلى مسرح إمبراطورية العالم في عزِّ النهار، وبحفلٍ ومراسيم عموميةٍ. كان الناس يعتقدون أن جموحها سيفتر بسبب لامبالاة زوجها، فهل كانت تبحث عن زوجٍ آخرَ يؤجج حواسه بغيرته، والذي بمقاومته له سوف يحثه على خيانتها؟ كانت الصعوبة الأولى التي واجهتها هي الأخيرة، استفاق الوحش في انتفاضةٍ عارمةٍ، فالمرء يواجه مفاجآتٍ أمام الرجل الثقيل البليد الغافي، فلقد عاينتُ بالتجربة أن التسامح المفرط، حين يصل إلى حدِّه ينتج انتقامًا أكثر ضراوةً؛ إذ أن الغضب وفوْراته يتحول إلى شحنةٍ واحدةٍ تنفجر مرةً واحدةً.

«ويطلقون العنان تمامًا لسوْرة غضبهم»[2].

---

(1) Térence, **L'eunuque**, IV, 8, v. 43.

(2) Virgile, **Énéide**, XII, v.499.

وهكذا أمر بقتلها مع عددٍ ممَّن كانوا متواطئين معها، حتى ذلك الذي لم يكن له شأنٌ في الأمر، والذي جعلته يتبعها لسريرها بضربات السوط!

96. ما يقوله فرجيليوس عن فينوس وفولكانوس، قاله تيتوس لوكريتيوس كاوس أكثر عن حصة ملذاتٍ سريةٍ بينها وبين مارس.

«كان مارس إله السلاح غالبًا
ما يأتي ليلجأ إلى ذراعيها
وثُمّ مهزومًا بجرح حبٍ أزليّ
يتأملكِ ورأسه مودعٌ على صدرك
وروحه تظل معلّقةً إلى شفتيك
وإذًا أيتها الإلهة، حين تشرفين عليه
وتغلفينه بمداعباتك
ترمينَ في أذنه
بكلماتٍ حلوةٍ»[1].

97. حين أقرأ هذا الشعر باللاتينية[2] أحس بالمقت لهذه الوخْزات الدقيقة والتلاعب بالألفاظ التي قام بها الشعراء في ما بعد؛ فحسب هؤلاء الناس، ليس ثمّة حاجةٌ للتلاقي الرقيق للكلمات؛ إذ أن لغتهم كانت كثيفةً ومليئةً بقوةٍ طبيعيةٍ ثابتةٍ، وكل شيءٍ كان فيها تصويريًا، ليس فقط حسن التخلُّص في القصيدة وذُيلها، وإنما مطلعها أيضًا وصدرها. لا شيء فيها يخون النظْم ولا استطراد فيها؛ إذ كل شيءٍ يتنامى بإيقاعٍ متوازنٍ: «الكل فيها فحلٌ، بحيث لم يهتموا فيها بالجاذبية»[3]. لا يتعلق الأمر -كما هنا- بفصاحةٍ فارغةٍ وصادمةٍ، فهي فصاحةٌ حيوية ومتينة، وهي لا تعجب القراء فقط بل تشبعهم وتفتنهم، وخاصةً العقول النيّرة منهم. حين تقع عيناي على هذه الأشكال في التعبير البالغة الحيوية والعمق، لا أقول عنها إنها حسنة التعبير وإنما حسنة التفكير؛ فقوة الفكر هي ما يسمو بهذه الكلمات ويغنيها. «الفصاحة تصدر حقًّا عن القلب»[4]. ومعاصرونا يسمون «حُكمًا» ما ليس سوى لغةٍ، و«كلماتٍ حسنةً» ثراء العقل.

(1) Lucrèce, **De la Nature**, vv. 32 sq.
(2) «rejicit, pascit, inhians, molli, fovet, medullas, labefacta, pendet, percurrit«.
(3) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres àLucilius**, XXXIII.
(4) Quintilien, **Institution Oratoire**, X, VII, 15.

اللغة واستعمالها

98. ما يقدمه لنا المؤلفون الأفذاذ ليس نتاجًا لبراعة اليد بقدر ما هو نتاجٌ للبصمة الحية التي لهم عنها في العقل. يتحدث غالّوس بشكلٍ بسيطٍ لأنه يتصور الأمور بشكلٍ بسيطٍ. وهوراتيوس لا يكتفي بتعبيرٍ مصطنعٍ قد يخونه؛ فهو يرى أبعد وأوضح في دخيلة الأشياء، فعقله منتقبٌ ينبش من طرفِ خزّان الكلمات إلى طرفه الآخر عن كلماتٍ وصورٍ بلاغيةٍ كي يعبر عما يريد، إذ هو بحاجةٍ إلى كلماتٍ أخرى غير تلك التي يتم استعمالها عادةً؛ لأن ما يفكر به يخرج عن العادة. قال بلوتارخوس إنه تعلم اللغة اللاتينية بالأشياء نفسها، والأمر نفسه هنا؛ فالمعنى يضيء الكلمات التي لا تصير نافلةً وفارغةً، وإنما من لحمٍ ودمٍ، وتدل على أكثر مما تقول. والكُتَّاب الرديئون يحسُّون بذلك. فأنا في إيطاليا، كنت أقول ما أريد في المحادثات العادية، لكني في المحاورات الجدِّية لمْ أكن لأسْلم نفسي للغةٍ لم أكن أمتلكها بشكلٍ كافٍ خارج استعمالها العاديِّ، ففي ذلك السياق أريد أن أكون في أعمق حالاتي.

99. الحديث باللغة والاستعمال الذي تقوم به لها العقول النيِّرة يمنحها قيمةً كبرى، ليس فقط بتجديدها، وإنما باستخدامها استخدامًا أكثر قوةً وأشدّ تنوعًا، وبتطويرها وتلْيينها. فهم لا يمنحونها الكلمات، وإنما يُغنون كلماتهم ويؤكدون دلالتها واستعمالها ويعزّزونها. إنهم يعلمونها حركاتٍ غير معتادةٍ لكن بحذرٍ ومهارةٍ. كثيرون هم الكُتَّاب الفرنسيون اليوم الذين يبرهنون على أن الأمر ليس في متناول من هبَّ ودبَّ، وهم من الجرأة والمقت بحيث لا يتَّبعون السبيل المعتاد، بيْد أن نقص الإبداع والتبصر لديهم يجعلهم من الضالين. نحن لا نجد لديهم غير غرابةٍ بائسةٍ، وتحويلاتٍ باردةٍ وعبثيةٍ عوضًا عن أن تسمو بكتابتهم تحطُّ منها. إنهم ينساقون للجدّة غير مبالين بالأثر الذي ينتجه ذلك، بحيث إنهم لكي يستعملوا كلمةً جديدةً يتخلون عن القديمة، التي كانت مع ذلك أقوى دلالةً وأكثر حيويةً.

100. لغتنا ليس بها نقصٌ في الغنى وإنما في الطريقة. صحيحٌ أننا يمكن أن نفعل كل ما نبتغي بمعجم الصيد والحرب، إذ هو أرضٌ خصبةٌ ويمكننا

أن نقتبس منه الجمَّ الكثير من الأشياء، والتعابير كتلك الخاصة بالنباتات تتقوى وتتعزز وتتطور حين نستنبتها. وإني أعتبر أن مادة لغتنا الفرنسية وفيرةٌ غير أنها ليست بما يكفي من المرونة والقوة، فهي تخور عمومًا تحت ثِقَلِ فكرةٍ قويةٍ ما، فإذا ما فكرتَ بإيقاعٍ قويٍّ وسريعٍ، فإنك تحس مرارًا أنها تضعف تحت وطأتك وتخور، بحيث إن اللغة اللاتينية تأتي لنجدتك. إننا ندرك بصعوبةٍ قوة الكلمات التي نستعمل؛ لأن رشاقتها قد انحطت وصارت عاديةً بالاستعمال المتواتر، كما أننا نجد في اللغة الشعبية عباراتٍ ومجازاتٍ ممتازةً قد فقدت لمعانها بالاستعمال العام، بيد أن ذلك لا ينتقص من نكهتها وعطرها لمن كان ذا أنفٍ حساسٍ، ولا ينتقص شيئًا من عظمة الكُتَابِ القدامى، الذين -كما نعتقد- هم أول من منح القيمة لتلك الكلمات والعبارات.

101. تتناول العلوم الأشياء بدقةٍ بالغةٍ وبطريقةٍ مصطنعةٍ ومخالفةٍ للطريقة الطبيعية والمشتركة لدينا، فخادمي يمارس الحب ويفهم تلك الأمور، لكن إذا أنت قرأت له لياو العبريَّ[1] أو مارسيليو فيتشينو[2]، فإننا نتحدث عنه وعن أفكاره غير أنه لا يفقه فيه شيئًا. أنا لا أتعرَّف لدى أرسطو على أغلب أعمالي العادية، فلقد تغلَّفت فلسفته وارتدت لبوسًا جديدًا في الاستعمال المدرسي، وأتمنى أن يكونوا أحسنوا صنيعًا بذلك، لكني لو كنت من أبناء الحرفة، لجعلت من الفن طبيعيًّا مقدار ما جعلوا الطبيعة مصطنعةً، لكن لنتركْ بيمبو وإيكيكولا عند هذا الحد[3].

102. حين أكتب، أفضِّلُ الاستغناء عن صحبة الكتب وذكراها؛ خَشية أن تقطع حبل أفكاري، خاصةً وأن الكُتَابَ الجيدين -في الحقيقة- يثبطون عزيمتي ويجعلونني أخجل من نفسي، وأنا أفعل مثل ذلك الرسام الذي حين صور دُيوكًا بشكلٍ سيئٍ، منع على خدمه أن يتركوا أي ديكٍ حيٍّ يدخل لمرسمه، وأنا بحاجة -كي أمنح لنفسي بعض البريق- أن أفعل مثل

(1) حبْر يهوديٌّ برتغاليٌّ ألف محاوراتٍ عن الحب بالأسلوب الأفلاطوني، وقد كان مونتيني يملك نسخةً من كتابه هذا.

(2) مارسيليو فيتشينو، مفكر إنسانيٌّ إيطاليٌّ توفي عام 1499 م، وقام بالأخص بترجماتٍ لأفلاطون وأفلوطين، وقد ساهم كثيرًا في بلورة الصيغة المسيحية للأفلاطونية، واستقى منه مونتيني الكثير من أفكاره.

(3) بيير بيمبو عاش حياةً دنيويةً قبل أن يُنصَّب كاردينال عام 1539، ومونتيني يقصد هنا بالتأكيد محاوراته عن الحب التي تُرجمت للفرنسية عام 1545، وحازت على نجاحٍ باهرٍ جعلها تُطبع من جديدٍ مرارًا. أما إيكيكولا، فقد ألف رسالةً سماها «عن طبيعة الحب» تُرجمت للفرنسية عام 1584.

الموسيقيِّ أنتينونيديس، فهو حين كان عليه أن يقدِّمَ عرضًا موسيقيًّا، كان يتدبَّرُ أمره في أن يمرَّ قبله موسيقيون رديئون.

103.لكنني أجد صعوبةً كبرى في الانفصال عن بلوتارخوس، فهو من الكونية والكمال بحيث إنك في كل مناسبةٍ-ومهما كانت غرابة الموضوع الذي تعالجه- تجده يندمج في عملك، ويمدُّ لك يد العون التي لا ينْضب معينها بالغنى والمحاسن التي تمنحك إياها، فقد متحتُ منه كثيرًا، بحيث إن من يستشهدون به قد يبدون كما لو أنهم جعلوني أنا عرضةً للنهْب بدوري. فأنا لا أضعه في أكْلتي-مهما كان نزْرًا يسيرًا- من غير أن أستمد منه شيئًا، إما جناحًا أو فخْذًا.

أن يظل المرء هو ذاته

104.وإني - في ما أرغب في فعله- يروقني أن أكتب في بيتي، في منطقةٍ متوحِّشةٍ ليس فيها أحدٌ يمكنه أن يصحِّح كتابتي أو يمدَّ لي يد العوْن، وحيث لا أخالط أحدًا يفهم فيها اللاتينية التي يستظهر في صلواته، ولا الفرنسية حتى. كنت سأحقق عملًا أفضل في مكانٍ آخرَ، لكنه سيكون عملًا لن يكون من صُلبي كثيرًا، فيما غايته الأساس ونجاحه يكمنان في أن يكون تمامًا عملي أنا. قد أصحِّح خطأً عارضًا، وهو ما قمت به مرارًا لأني أُسْرِع كثيرًا في الكتابة من غير انتباهٍ، بيْد أن من باب الخيانة تصحيح العيوب الشائعة والثابتة لديَّ. حين يُقال لي، أو حين أقول لنفسي: «إنك تغالي في استعمال الصور، ها هي كلمةٌ ترشح باللغة الغاسكونية. وتلك عبارةٌ خطرةٌ -إذ أنا لا أرفض أي صورةٍ من تلك اللغة التي نسمعها في أزقة فرنسا؛ لأن من يعتقدون محاربة استعمال اللغة بالنحو هم مهرِّجون- وأيضًا ها هو خطابٌ لا معنى له، وها هو استدلالٌ مليءٌ بالمفارقات، واستدلالٌ آخرُ لا أساس له، أنت تتسلى كثيرًا، بحيث يمكن أن نعتقد أنك تقول بجدٍّ ما تقوله على سبيل المزاح»، فيكون ردِّي: «نعم، غير أني أصحِّح الأخطاء الناجمة عن عدم الانتباه، لا تلك التي صارت معتادةً لديَّ، أليس هكذا أتحدث في كل مكانٍ ومقامٍ؟ ألا أقدِّم نفسي -كما أنا- مباشرةً؟ هذا يكفيني، فلقد قمت بما رغبت في القيام به، وكل الناس

يتعرفون عليَّ في كتابي، وكتابي يتعرف على نفسه فيَّ».

105.وإنّ لديَّ ميلًا طبيعيًّا إلى المحاكاة والتقليد، فحين كنت أحاول أن أنظم شعرًا -وهو ما لم أقم به إلا باللاتينية- كان ذلك يخون بالتأكيد الشاعر الأخير الذي قرأت. وفي مقالاتي الأولى، يحس البعض بالكثير من الاقتباس، ففي باريس أستعمل لغةً أخرى غير اللغة التي أستعمل في منطقة مونتيني. فما أتأمل باهتمامٍ يؤثر فيَّ بسهولةٍ، وما ألاحظ عن كثبٍ أتملّكه، سواءٌ كان موقفًا بليدًا، أو تكشيرةً شريرةً، أو طريقةً سخيفةً في الكلام، أما العيوب فأتملّكُها أكثر لأنها تثير فضولي وتتعلّق بي، وعليَّ أن أتهزْهز كي ترخي قبضتها عني، وقد رآني الناس أحكم في الغالب بدافع المحاكاة أكثر من الطبع.

القرَدة

106.قد تكون المحاكاة قاتلةً، كتلك التي قامت بها القردة الهائلة بقامتها وقوتها التي لقيها الملك الإسكندر الأكبر في بعض مناطق الهند، فقد كان من الصعب التغلب عليها بطريقةٍ أخرى، لولا أنها منحته الفرصة لذلك بنزوعها إلى محاكاة كل ما تراه، وهكذا جاءت الصيادينَ فكرة الاستفادة من هذا السلوك بوضع أحذيتهم أمامهم، وبإدارة خيوطها حول رؤوسهم وعقدها بقوةٍ، وبالتظاهر بوضع الغراء في عيونهم، وهكذا قضت تلك الحيوانات المسكينة على نفسها بفعل ميلها الطبيعي إلى المحاكاة، فقد ملأت عيونها بالغراء، وعقلت أطرافها، وعصبت أفواهها. أما الملَكة الأخرى، المتمثلة في تصوير حركات وأقوال شخصٍ آخرَ بمكرٍ وعَنْوَةٍ، إذا كانت مصدر متعةٍ وإعجابٍ، فهي شيءٌ لا يوجد لدي، مقدار ما أنها لا توجد لدى شخصٍ غبيٍّ. وحين أقسم على طريقتي، فإني أقسم بالله: إذ أنه القسم الأكثر صراحةً من بين الأقسام، ويُحكى أن سقراط كان يقسم بالكلب، وزينون بصيغة التعجب التي يستخدمها الإيطاليون اليوم: «كابّاري»[1]، وفيثاغوراس بالماء والهواء.

(1) Cappari صيغة تعجب بإيطاليا تدل على الاندهاش، وهي صيغة ملطفة من الكلمة التي تدل على الرجل، ويمكن مقارنتها في العربية بعبارة : «يا رجل!» [المترجم].

107. أنا ميالٌ كثيرًا -ومن غير تفكيرٍ- لتلك الانطباعات السطحية، بحيث إذا نطقتُ ثلاثة أيامٍ متواليةٍ بـ «جلالتكم»أو «سموكم»، فإني أسبوعًا بعد ذلك أراها تنفلت من لساني بدلًا عن «سعادتكم» أو «سيادتكم». وما قلته اليوم على سبيل المزاح والضحك، أقوله في الغد بصيغةٍ جدِّيةٍ؛ وهذا ما يجعلني -في ما أكتب- أتبنى بصعوبةٍ براهين المواضيع المبتذلة، خَشيةَ أن أتناولها على حساب الآخرين. كل المواضيع صالحةٌ لي، بحيث إن ذبابةً تكفيني للكتابة، وشاء الله أن الموضوع الذي بين يديَّ الآن لم يتم اختياره بإرادةٍ نزقةٍ كتلك، وإذا ما بدأت بالموضوع الذي يعجبني، فالمواضيع كلها تترابط في ما بينها.

التأمل على متْن الجواد

108. لا يعجبني عقلي لأنه يسقط عادةً في أحلام اليقظة الأكثر جنونًا والأكثر مُتعةً، بالصدفة وحين لا تكون لي رغبةٌ في ذلك، وهي أحلامٌ تتبدَّدُ فجأةً لأني لا أملك لحظتها أي شيءٍ أسجلها بها؛ إذْ حينها أكون على متن جوادي أو على المائدة أو في سريري، وبالأخص ممتطيًا الجواد، عندما تستبد بي عادةً تلك الحوارات بيني وبين نفسي،وعندما أكون في خُطبةٍ على الناس، أكون عندئذٍحسَّاسًا بالصمت وبالانتباه الذي يُمنح لي، ومن يقاطعني يجعلني أتوقف بالمرة، وحين أكون على سفرٍ فإن صعوبات الطريق تقْطع الحديث، لكن عليَّ أن أضيف إلى ذلك أني أسافر في أغلب الأوقات من غير رِفقةٍ قادرةٍ على أن تتابع تلك المحادثات بشكلٍ مستمرٍ، وهو ما يجعلني أستغل الفرصة للتحاور مع نفسي، والأمر يكون حينها كما حين أحلم وأسرُّ بتلك الأحلام لذاكرتي -ذلك أنني عادةً ما أعرف أني أحلم في الحلم-وفي الغد، إذا ما أنا استعدت تلوينا‌تها المرحة أو الحزينة أو المدهشة كما كانت عليه بدقةٍ، وكلما جهدت في استعادة الحلم، كلما غصْتُ به في النسيان. وبالشكل نفسه لا يتبقّى لي في ذاكرتي إلا صورةٌ غامضةٌ عن الأفكار التي تطرق ذهني، وما يكفي بالضبط كي أتآكل وأقلق في البحث عنها بلا جدوًى.

الحب الجسدي

109. لكن لنتركِ الآن الكتب جانبًا، ولنتحدثْ بشكلٍ ملموسٍ وبسيطٍ أكثر. أنا أعتبر في نهاية المطاف أن الحب ليس شيئًا آخر غير اللذة، التي يمكن أن نستقيها من الموضوع المرغوب فيه، وأن فينوس ليست شيئًا آخر غير المتعة التي نملكها في تفريغ تلك الأعضاء من جسدنا، مثل تلك التي تمنحنا الطبيعة في التخفيف عن أعضاءٍ أخرى، وهي متعةٌ تصبح رذيلةً بالإفراط فيها أو باتّباع العفة. يعتبر سقراط أن الحب رغبةٌ في التوالد بوساطة الجمال، وأنا ألاحظ عادةً الدغْدغة السخيفة المرتبطة بتلك المتعة، والحركات الغريبة والمجنونة التي تثيرها في زينون وكراتيبّوس*[1]، وذلك الجموح العارم والوجه المنتفخ من الشراسة والعنف في اللحظة الأكثر وداعةً وحلاوةً لفعل الحب، ثم ذلك السلوك القاسي والصارم والمنْتشي الذي يُصاحَب فعلًا بهذا الجنون، وأرى أيضًا كيف أن مَلذاتِنا ونُفاياتِنا يتم الرمي بها معًا مختلطةً، وكيف أن الشهوة القصوى يصاحبها شيءٌ مضطربٌ وضرْبٌ من الأنين والألم، حينها أقول إن أفلاطون على حقٍّ في التصريح بأن الإنسان قد صنعته الآلهة ليكون لها لُعبةً=

«يا لها من طريقة شرسة للعب!»[2].

=وأن الطبيعة لكي تسخر منا تركت لنا أكثر الأعمال اضطرابًا وأكثرها شيوعًا؛ وذلك لكي تجعلنا مُتساوين فيتشابه في ذلك الحمقى والحكماء والحيوانات ونحن. والإنسان الأكثر عقلًا وحكمةً حين أتصوره في تلك الوضعية، أعتبره مخادعًا في التظاهر بالحكمة والعقل، فحين يرى الطاووس قائمتيْه تتبدَّد كبرياؤه.

«لا شيء يمنع من أن يقول المرء الحقيقة ضاحكًا»[3].

قال أحدهم: «أولئك الذين في قلب المسرَّات لا يتقبلون الآراء الجدية، فهم يفعلون مثل ذلك الذي يخشى تمثال قدِّيسٍ إذا لم يكن له لباسٌ».

---

(1) * المقصود هنا كراتيبتوس البيرغاموني، وهو فيلسوف إغريقي من المدرسة المشائية، عاش في القرن الأول قبل الميلاد.

(2) Claudien, **Œuvres**, Contre Eutrope, I, 24.

(3) Horace, **Satires**, I, 1, v. 24.

110. نحن نأكل ونشرب مثل الحيوان، غير أنها أعمالٌ لا تمنع عقلنا من القيام بدوره؛ فنحن في ذلك نحافظ على امتيازنا عنها، لكن الشهوة تستعبد بوطأتها كل فكرٍ؛ فهي تشدَه وتبلِّد بسلطتها الخطيرة اللاهوت والفلسفة التي نجدها لدى أفلاطون، الذي لا يشتكي أبدًا من ذلك. أنت في كل الأحوال يمكنك الحفاظ على بعض الحياء، فكل الأنشطة تأخذ بعين الاعتبار قواعد الأدب، أما الحب الجسدي فلا يمكن تصوره إلا رذيلةً أو سخافةً، حاولوا إذًا أن تجدوا له طريقةً يعمل بها بشكلٍ حكيمٍ ومعتدلٍ. قال الإسكندر الأكبر إنه كان يدرك أنه فانٍ بسبب الحب الجسدي والنوم؛ فالنوم يخنق قدرات العقل ويعوقها، وفعل الحب يمتصها ويبدِّدها، ومن الأكيد أن ذلك ليس فقط علامةً على فسادنا الأصلي، وإنما أيضًا على تفاهتنا وتشوُّهنا.

111. الطبيعة تدفعنا لذلك من جهةٍ، بما أنها ربطت بتلك الرغبة الوظيفة الأكثر متعةً والأكثر نفعًا من كافة وظائفها، لكنها من جهةٍ ثانيةٍ تتركنا نكيل لها التُّهم ونتهرَّب منها كما لو كانت شيئًا غير لائقٍ ومعاديًا للشرف، بحيث تجعلنا نحمر منها خجلًا وتطالب بالزهد فيها. ألسنا حيواناتٍ حقًّا حين نسمي العملية التي تخلقنا عمليةً حيوانيةً؟

112. لقد تبنت الشعوب في دياناتها العديد من المؤسسات المشابهة، كالقرابين البشرية والمشاعل والبخور والصيام والأعطيات وخاصةً إدانة فعل الحب، وكافة الآراء تتوافق في هذه النقطة، من غير أن نتحدث عن الختان المنتشر كثيرًا استعماله. لعلَّنا على حقٍّ في أن نؤاخذ أنفسنا بخلق شيءٍ أبلهٍ كالإنسان، وأن نعتبر هذا الفعل عارَ ومخجلةَ المناطق في الجسد التي تصلح للمباضعة، ومناطقي الجنسية في الوقت الحالي مخجلةٌ فعلًا، بل تدعو للشفقة. الأسينيون الذين يتحدث عنهم بلينيوس ظلوا لعدة قرونٍ من غير مرْضعاتٍ ومن غير تقْميطٍ للرُّضَّع، بفضل سيل الغرباء الذين كانوا يقصدونهم باستمرارٍ منجذبين بطابعهم المرح، وهكذا فإن شعبًا بكامله قد خاطر بنفسه بالاندثار على أن يتعرض لمعاشرة النساء[1]، وبوضع حدٍّ لسلالة البشر على أن يصنعوا منها واحدًا. يُقال:

(1) كانت طائفة الأسينيين تتكون من مجموعاتٍ تعيش قرب البحر الميت، وكان أغلبهم يمتنعون عن الزواج حسب هيرودوتس.

إن زينون لم يعرف امرأةً إلا مرةً واحدةً في حياته، وأن ذلك كان من باب اللياقة؛ حتى لا يعايره أحدٌ بأنه يكره الجنس كرهًا مطلقًا.

الولادة والموت

113.الناس يتفادون رؤية ولادة الإنسان ويهرعون لرؤيته يموت؛ ولكي يموت يتم اختيار حقلٍ شاسعٍ معرَّضٍ لنور النهار؛ ولكي يولَد يتم الاختباء في زاويةٍ مظلمةٍ تكون ضيقةً ما أمكن. إن من الواجب الاختباء للقيام بذلك، ومن باب المجد والفضيلة معرفة كيف يندثر، وذلك الأمر في حالٍ هو مستحسَنٌ وفي الآخر مُستهجَنٌ. يقول أرسطو، حسب مَثَلٍ من بلده: «إن أفضل معروف للإنسان إنما يكون بقتله».

114.والأثينيون -لكي يحطوا من قدْر هذين الفعلين معًا، وحين كان عليهم تطهير جزيرة ديلوس، وتبرير ذلك لدى الإله أبّولون- قاموا بمنع الدفن والزواج في تلك الجزيرة.

«نحن خجلون من أنفسنا»[1].

115.ثمة شعوبٌ يختبئ الناس لديها لكي يتناولوا طعامهم. أعرف سيدةً من بين النساء المعروفات، تعتقد أن من المزعج أن يُرى المرء وهو يلوك طعامه، وأن ذلك يسيء كثيرًا لجمال النساء وروعتهن، بحيث إنها لا تظهر للعموم حين يكون بها الجوع. كما أني أعرف رجلًا لا يستطيع تحمُّلَ رؤية الآخرين وهم يأكلون، ولا أن يرى هو نفسَه في تلك الحالة، وهو يتهرَّب من حضور الآخرين حين يشبع، كما حين يجوع.

116.في إمبراطورية الأتراك، هناك طائفةٌ من الناس الذين -لكي يُبينوا على أنهم أسمى من الآخرين- لا يتركون الآخرين يرونهم وهم يتناولون طعامهم، وهم لا يتناولونه إلا مرةً في الأسبوع، ويتضاربون بالخناجر ويحزُّون وجوه وأعضاء بعضهم البعض، ولا يتحدثون لأي شخصٍ

(1) Térence, **Phormion**, I, 3, v. 20.

آخر، إنها طائفةٌ متعصبةٌ من الناس، الذين يعتقدون أنهم يشرفون طبيعتهم بالتشوُّه، ويعتقدون أنهم يقدُّرون أنفسهم بمقتها وبالتحسُّن من خلال تدمير أنفسهم.

117. يا له من حيوانٍ عجيبٍ هو الإنسان! فهو يمارس الرعب على نفسه، وينْكر شهواته، ويعتبر نفسه تعيسًا. ثمة أناسٌ يخفون حياتهم=

«ويتركون بيتهم ومأواهم اللطيف من أجل المنفى»[1].

=ويتواروْن عن الآخرين، ويتهربون من الصحة والمرح كما لو كانا سبيلين إلى الحياة منافييْن للحياة وقابليْن للعقاب. لا يتعلق الأمر فقط بطوائفَ باطنيةٍ، وإنما أيضا بشعوبٍ تلْعن مولدها وتكرِّم موتها، وهناك من بينها شعوبٌ تكره الشمس وتقدس الظلمات[2].

118. نحن لا نكون حاذقين إلا في الغيْبة والنَّميمة، تلك هي الطريدة التي يلاحقها بكامل قواه عقلنا، هذه الأداة الخطيرة حين تكون فوضويةً.

«فما أشقاهم أولئك الذين يجعلون من فرحهم جُرمًا!»[3].

نعم أيها الإنسان المسكين، لديك الكثير من البؤس الذي لا مَردَّ له من غير أن تزيده من اختلاقك. أنت شقيٌّ جدًا بشرطك الطبيعيِّ من غير أن تكونه باصطناعك، فأنت لك ما يكفي من البشاعة الواقعية والطبيعية من غير أن تصطنع منها المتخيلة. هل تعتبر أنك بالغ السعادة، إذا ما كان نصف سعادتك فقط لا يزعجك؟ هل تعتقد أنك أنجزت كافة المهامِّ التي تقترحها عليك الطبيعة، وأنك ستكون في حال خمولٍ، إذا أنت لم تجد واجباتٍ جديدةٍ؟ أنت لا تخشى المسَّ بقوانينها الكونية والتي لا جدال فيها، وتتشبَّث بقوانينك المتحيِّزة والخيالية، وكلما كانت تلك القوانين شخصيةً وغير موثوقٍ بها وقابلةً للجدل، كلما كرَّست لها جهودك. قواعد مجالك المحدود ترتضيها لك، أما قواعد العالم فلا تهمك، انظرْ جيدًا الأمثلة التي توضح ذلك؛ فالحياة مليئة بها.

(1) Virgile, **Géorgiques**, II, v. 511.

(2) قد يكون مونتيني قد استقى هذه العوائد من هيرودوتس، إلا العادة الأخيرة التي لا ندري مصدرها.

(3) Pseudo-GallusouMaximianus, **Élégies**, v.108,

هل تُخْفى الأشياء من أجل إظهارها؟

119. الأبيات الشعرية للشاعرين -اللذين تحدثت عنهما قبلًا- فرجيليوس وتيتوس لوكريتيوس كاروس، وهما يتناولان المجون بشكلٍ خفيّ ومتحفظٍ، تبدو لي أنها بالعكس تكشف عنه وتبيّنه عن قربٍ. النساء يغطين صدورهن بشبكةٍ، والقُسس يخفون الكثير من الأشياء المقدسة، والرسامون يضعون الظل في اللوحات كي يمنحوها رؤنقًا أكبر، ويقال إن آثار الشمس والريح تكون أكثر ضررًا حين تكون غير مباشرةٍ. ردَّ المصريُّ بجوابٍ حكيمٍ على من سأله: «ما الذي تحمله هناك تحت عباءتك؟»، فكان جوابه: «إذا كنت أخفي ذلك تحت عباءتي؛ فذلك لكي لا تعرف ما هو». لكن ثمة بعض الأشياء يخفيها الناس كي يظهروها أكثر، وانظرْ في ما يقوله هذا عنها، وبشكلٍ واضحٍ:

«وعارية ضممتها إلى حضني»[1].

وهو يبدو لي حينئذٍ أنه يُخْصيني، فحين يتعقب مارتياليس على طريقته الإلهة فينوس، فهو لا يتوصل إلى أن يبديها لنا بشكلٍ كاملٍ. ومن يقول كل شيءٍ يخدِّرنا ويقزِّزنا، ومن يتردَّد في التعبير، يمنحنا من التفكير أكثر مما يوجد منه في الواقع. ثمة شيءٌ من الخداع في ذلك النمط من التواضع، وخاصةً حين يتم فتحُ الطريق الأوسع لخيالنا كما يفعل فرجيليوس وتيتوس لوكريتيوس كاروس؛ ففعل الحب وتصويره يلزم استراقُهما معًا.

120. الحب لدى الإسبان والإيطاليين أكثر احترامًا، وأكبر حذرًا، وأعمق تكلّفًا وتقنُّعًا، وهو أمرٌ يعجبني. لم أعد أذكر من قال في القديم إنه يريد أن يكون له جسدٌ طويلٌ مثل طائر الكُركي؛ كي يتلذذ أكثر بما يلتهم من طعامٍ. ذلك ما تُلام أكثر عليه الشهوة المتسرِّعة، وخاصةً أن عَيبها التسرُّع مثل طبْعي؛ ولإيقاف هروب اللذة وإطالة مقدماتها بين العاشقيْن، كل شيءٍ يكون فيَّ صالحًا لذلك، من الغمزة إلى الإشارة مرورًا بالانحناءة والكلمة، ألن يقتصد في المال من يكتفي بعشاءٍ باهظ الثمن؟ الحب هوًى

(1) Ovide, **Amours**, V, v. 24.

يمزج الكثير من الأحلام النافلة والساخنة بالقليل من الواقع الصلب، فهو هوًى علينا تأدية ثمنه وخدمته في الآن نفسه. لِنُعلِّم النساء أن يُبنَّ عن قيمتهن، وأن يكنَّ واثقاتٍ من أنفسهن، وأن يسلّنا ويخنَّنا. نحن نضع فحولتنا في المقدمة، وفي ذلك يكمن التهوُّرُ الفرنسيُّ. فهن إن غربلْن فضائلهنَّ وكشفْنَ عنها بالتفصيل، فإن كل واحدٍ منا سيعثر فيها على جزءٍ مما يبتغي، حتى شيخوخته البائسة وحسب استحقاقه وقيمته.

121.من لا يعرف المتعة إلا في المتعة، ومن لا يربح إلا إذا حاز على كل شيءٍ، ومن لا يحب في الصيد إلا الطريدة، هذا الشخص لا يستحق أن ينْتمي لمدْرستنا. كلما كانت لنا درجاتٌ في السُّلَّمِ علينا ارتقاؤها، كلما كان ثمة نبلٌ وشرفٌ لنا في أن نبلغ الطابق الأخير. علينا أن نستمتع بأن نكون مُسيَّرين هكذا كما في قصرٍ رائعٍ، عبر العديد من البوابات والممرات، وعبر أروقةٍ طويلةٍ ورائقةٍ، قائمين بالعديد من الدوْرات، فهذه الطريقة في العمل سوف تضاعف متعتنا لأنها ستمكِّننا من التوقف، كما ستمكِّننا من أن نحب لوقتٍ أطولَ، فمن غير الأمل ومن غير الرغبة لا تصبح الطريق التي علينا قطعها ذات أهميةٍ. أما النساء فعليهن أن يَهَبْنَ سلطتنا عليهنَّ وتملُّكنا لهنَّ، فحين يستسلمنَ لرحمة وفائنا وثباتنا، ها هنَّ يصبحنَ في خطرٍ، لأن تلك فضائل نادرةٌ. ومنذ أن يصبحنَ لنا، نكفُّ نحن عن أن نكون لهنَّ، وحين تُشبع رغباتهنَّ العنيفة، فلا الأيْمان

«ولا الوعود تصبح لاغيةً»[1].

122.أمّا الشاب اليونانيّ ثراسونيديس فقد كان على العكس من ذلك يعشق محبوبته عشقًا بالغًا، بحيث إنه حين ملك قلب عشيقةٍ، رفض أن يتمتع بها كي لا يخمد ولا يشبع أو يُبطل تلك الحرارة القلقة التي كان يفتخر بها ويتغذى منها[2].

123.الغلاء يمنح طعْمًا للطعام. انظروا كم أن مراسيم التحية التي يتميز بها مجتمعنا، تحط بسهولتها من رشاقة القبلات، التي يقول عنها سقراط إنها من القوة والخطورة بحيث تسلب قلوبنا، إنها عادةٌ مذمومةٌ ومقلقةٌ

(1) Catulle, **Poésies**, LXIV, 147.

(2) يحوّر مونتيني هنا مثالاً استقاه من زينون ومن ديوجينيس اللائرتي.

للنساء أن يمنحنَ شفاههنَّ لشخصٍ له ثلاث خدمٍ في حاشيته.

«ذلك الذي له لحيةٌ شعثاءُ، وأنف كلبٍ
وملامح قاسيةٌ
أفضِّل بالتأكيد مئة مرةٍ أن أقبل عجيزته»[1].

124.ونحن أيضًا لا نربح شيئًا في هذه المسألة، فالعالم مصنوعٌ هكذا: فلكي نقبل ثلاث نساءٍ حسناواتٍ علينا تقبيل خمسين منهنَّ بشعاتٍ. ومن له معدةٌ حساسةٌ مثلي - كما هي لدى الناس في عمري- فإن قبلةً مستهْجَنةً ستكون لها آثارٌ وخيمةٌ وثمنها أغلى من القبلة المستلذَّة.

125.في إيطاليا، يغوي الرجال بائعات الهوى، ويلعبون معهنَّ لعبة العاشق المرتعش بحضورهنَّ؛ وللدفاع عن أنفسهم يزعمون أن ثمة درجاتٍ في اللذة، وأنهم بخدمتهم العاشقة تلك، يرغبون في الحصول على نِعَم المرأة ذات المزاج الأصعب، أولئك النساء لا يبعنَ غير جسدهنَّ، أما الإرادة فلا تُباع ولا تُشترى؛ فهي حرةٌ ولا يملكها غيرهنَّ. أولئك الرجال يقولون إنهم يتصدُّون للإرادة، وهم على حقٍّ في ذلك، فما يلزم غوايته والتملُّق له هو الإرادة، وإني إنْ تصوَّرتُ جسدًا يُتعامل معه من غير عاطفةٍ، فذلك سيكون أمرًا مرعبًا لي، ويبدو لي أن هذا الغضب يشبه غضب الشاب الذي راح -بدافع الحب- لمضاجعة تمثال فينوس الذي نحته براكسيتيليس، أو ما قامبه ذلك المعتوه المصريُّ الذي ألهبته جثة امرأةٍ كان يحنِّطها ويلفها في كفن، وقد كان ذلك في أصل القانون الذي تم إصداره في مصر، والذي ينص على أن جثث النساء الشابات الجميلات والنبيلات، يُحتفظ بها لمدة ثلاثة أيامٍ قبل وضعها بين أيدي من يتكفَّلون بدفنها. أما بيرياندروس فقد قام بما هو أسوأ وأدهى؛ إذ ربط عاطفته الزوجية - وهي أكثر شرعيةً ومعقوليةً- برضا مليسّا زوجته المتوفاة.

126.عندما أخفقت لونا (ربّة القمر) في التمتع بفاتنها إنديميون، أدخلته في سُباتٍ عميق لشهورٍ عديدة، فحدث أنها وجدت متعتها في فتىً لا يحرك ساكنًا إلا في أحلامه. أكان عجبًا إذًا أنَّ «لونا» مؤلَّفة من حروف «الجنون»؟

(1) Martial, **Épigrammes**, VII, xcv, 10.

127.أقول إذًا: إن المرء يحب جسدًا بلا روحٍ، حين يحب جسدًا لا يقبله ولا يرغب فيه. المُتع كلها ليست متشابهةً؛ إذ إن هناك مُتعًا أخلاقيةً وفاترةً، وثمة العديد من الأسباب الأخرى غير العطف يمكنها أن تجعلنا نحصل عليها من النساء. إنها متعةٌ لا تشكل دليلًا على العاطفة، فهي قد تتضمن الخيانة؛ إذ إن النساء -كما في أمورٍ أخرى- ينظرنَ إليها بغير كبير اهتمامٍ.

«إنهنَّ بارداتٌ كما لو أنهنَّ يعددْنَ البخور أو الخمر

ويظهرنَ شارداتٍ كما المرمر»[1].

128.وأنا أعرف نساءً يفضلن إعارة أردافهنَّ على إعارة عربتهنَّ، ولا يمكن معرفتهنَّ إلا بذلك. عليك أن تعرف إذا كانت رِفقتك تعجبهن في شيءٍ آخرَ، أو لذلك الغرض فقط، وأن تعرف بأي مرتبةٍ وأي قيمةٍ هي تقدُّرك=

«وإذا ماكانت تمنح نفسها لك وحدك
وإذا ما هي وسمت ذلك اليوم بحجرٍ أكثر بياضًا»[2].

129.وماذا أيضًا؟ هل تأكل خبزك مغموسًا في مرق فكرةٍ رائقةٍ؟

«أنت الذي تحضنك بين ذراعيها
غير أنها ترغب بقوةٍ في شخصٍ آخرَ»[3].

=وماذا؟ ألمْ نر في أيامنا هذه أحدهم يشبع بهذا الفعل حسَّ انتقامٍ فظيع: فيسمّم امرأةً شريفةً ويقتلها؟

130.من يعرفون إيطاليا لن يندهشوا إذا لم أبحث في غيرها عن أمثلةٍ لهذا الموضوع؛ لأن هذه الأمة يمكنها أن تَعتبر نفسها الأولى في هذا المضمار. إننا نرى لدى الإيطاليين نساءً جميلاتٍ أكثر مما نرى لدينا، والقليل من القبيحات، أما بخصوص الجميلات النادرات فإننا متساويان في هذا الأمر، ولي الرأي نفسه بخصوص العقول؛ إذ نجد بالتأكيد لديهم عددًا

(1) Martial, **Épigrammes**, XI, 103, v. 12 XI, 59, v. 8.

(2) Catulle, **Poésies**, LXVIII, v. 147.

(3) Tibulle, **Elégies**, I, 6, v. 3.

أكبر من العقول متوسطة الذكاء، والغباء المفرط لديهم أكثر ندْرةً مما لدينا، ولا مجال أبدًا للمقارنة، لكننا نضاهيهم كليةً في مجال النفوس الفاضلة ذات المستوى الرفيع، ولو رغبت في تمديد هذه المقارنة فسأقول بخصوص الشهامة والشجاعة أنها لدينا بالمقابل أكثر انتشارًا، كما لو كانت من طبعنا مقارنةً مع ما نلاحظ لديهم، لكننا نراها بين أيديهم شجاعةً تامةً وبالغةً، بحيث تتجاوز النماذج الكبرى التي لدينا.

131.ثمة شيءٌ نشازٌ في زواجات هذا البلد، فالعوائد لديهم تمنح للنساء مصيرًا قاسيًا مثل مصير الأمة، والعلاقة الأبعد مع رجلٍ لا يُعتبر من العائلة تعتبر أمرًا جسيمًا مثلها مثل الجرم الحميم، وهو ما من شأنه أن يجعل من كل تقاربٍ غير متكلَّفٍ إطلاقًا، فبما أن كل شيءٍ يحتسب لهنَّ بالثمن نفسه، يظل لديهنَّ الخَيار! وحين يتمرَّدْنَ على الحدود، ثقوا بي إنهنَّ يكنَّ ملتهباتٍ نارًا. «إنها الشهوة، مثل حيوانٍ متوحشٍ، تزعجه قيوده فيتم إطلاق سراحه»[1]. يلزم إذًا إطلاق العنان لهنَّ شيئًا ما.

«رأيت جوادًا يتمرّد على لجامه
ويناوشه بفمه وينطلق مثل البرق»[2].

إن المرء يخفِّفُ من الحاجة للرُّفْقة بترك بعض الحرية لهنَّ، ونحن لنا الحظ نفسه. إنهنَّ متطرفاتٍ في الإكراه، ونحن في الإباحة.

تربية البنات

132.إنها لعادةٌ طيبةٌ لدينا أن يُستقبل الأطفال في البيوت الشريفة استقبالًا طيبًا ويربُّوا ويُعَلَّموا مثل الغلام في خدمة الأمير. إنها مدرسة النبالة، ويبدو أن من النذالة والعار ألا يتم فيها استقبال شخصٍ نبيلٍ، وقد لاحظت -لأن ثمة العديد من البيوت والطرائق والأساليب- أن النساء اللواتي رغبنَ في منح بناتهنَّ قواعد الزهد، لم ينجحنَ في ذلك أكثر من

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXIV, 4.
(2) Ovide, **Amours**, III, 4, vv. 13-14.

النساء الأخريات. فما يلزم هنا هو الاعتدال، بحيث ينبغي أن نترك لأولئك البنات الاهتمام الشخصيَّ بجزءٍ مهم من سلوكهنَّ؛ إذ لا وجود لأدبٍ قادرٍ على لجْمهنَّ من كافة النواحي. لكن من الصحيح أن منهنَّمَن خرجت سالمةً من تربيةٍ حرةٍ تستحق الثقة، أكثر من تلك التي تخرج سالمةً من مدرسةٍ صارمةٍ، حيث تربت كما لو كانت في سجنٍ.

133.كان أسلافنا يربُّون بناتهم في العار والخوف -فالأحاسيس والرغبات كانت كما هيَ- ونحن نمنح لهنَّ الثقة في النفس، لكننا لا نفهم من ذلك شيئًا. علينا بالأحرى أن نأخذ بنات السارماتيين مثالًا، فهنَّ لم يكن لهنَّ الحق في قضاء الوطر رجلٍ قبل أن يكون قد قتل رجلًا آخر في الحرب، أما أنا فليس لي في ذلك أي سلطةٍ إلا ما أسمع عن ذلك، ويكفيني فقط أن يطلبنَ رأيي (بالنظر إلى عمري) وأنا أنصحهنَّ بالزهد في الباه، لكن إذا كان عصرنا يعارض ذلك بشدةٍ، فعليهنَّ على الأقل بالاعتدال والاتزان في ممارسته. وكما قال أريستبّوس وهو يتحدث لشبابٍ احمرت وجناتهم خجلًا حين رأوه يلج بيت جاريةٍ مومسٍ: «الرذيلة لا تكمن في الدخول لبيتها، وإنما في عدم الخروج منه». إذا كان أحدٌ لا يرغب في إعفاء ضميره، فليعفُ على الأقل اسمه من الخطأ، أي أن الباطن إذا لم يكن خَيِّرًا، فليُبْقِ على الأقل على المظهر.

طبائع النساء

134.لا يمكنني إلا أن أُثْني على السرعة كما على البطء الذي تغدق به علينا النساء أفضالهنَّ ونِعمهُنَّ. يبيّن لنا أفلاطون أن السهولة والسرعة يلزم تحريمهما في كافة أشكال الحب، فمن علامات الشره أن يسْلم المرء نفسه تمامًا وبتهورٍ وجموحٍ كبيرٍ، والنساء عليهنَّ أن يغلِّفنَ ذلك بما مُنحنَ من براعةٍ، فحين يمنحْنَ أفضالهنَّ بطريقةٍ متزنةٍ ومنظمةٍ فهنَّ يثرنَ رغبتنا أفضل، وهنَّ يخفينَ رغبتهنَّ، ويهربنَ أمامنا دومًا، حتى اللواتي من بينهنَّ يعرفنَ أنهنَّ سوف ينصعْنَ لمن يدركُهنَّ، إنهنَّ لَيتحكمنَ فينا وهنَّ يتهربنَ، كما كانت النساء السكوثيات يفعلنَ، بل بالنظر للقوانين التي

تفرضها عليهنَّ الطبيعة، ليس عليهنَّ أن يرغبنَ فينا، فدورهنَّ يتمثَّلُ في التحمُّل والطاعة والإذعان؛ لهذا منحتهنَّ الطبيعة قابليةً دائمةً للحب، فيما أن قابليتنا نادرةٌ وغير موثوقةٍ، فلديهنَّ يكون الوقت دومًا سانحًا ليكنَّ مستعداتٍ، وحين يكون الوقت سانحًا لنا فهنَّ مستعداتٌ لتقبُّلنا. وإذا كانت الطبيعة قد شاءت أن تكون رغباتنا ظاهرةً ومرئيةً، فقد جعلتها لديهنَّ باطنةً ومستورةً، ومنحتهنَّ أعضاءً غير صالحةٍ للجهر ومنذورةً فقط للدفاع.

135.والأمثلة-كما هذا المثال التالي- يلزم أن تُعزى للأخلاق المتحررة للأمازونيات، حين كان الإسكندر الأكبر مارًا في جرجان[1]، جاءت ثالستريس ملكة الأمازونيات لملاقاته محفوفةً بثلاثمئةٍ من الجند من جنسها، بجيادٍ رائعةٍ وسلاحٍ أروع - وكانت قد تركت بقية جيوشها التي ترافقها خلف الجبال القريبة- وقد صرحت له عاليًا وأمام الملأ أن صدى انتصاراته وقيمته قد منحتها الرغبة في رؤيته، وأنها تضع كل ما تملك وسلطتها ونفوذها في خدمة فتوحه، وأنها وقد وجدته رجلًا جميلًا وشابًا وقويًا، فإنها تنصحه بقضاء وطره منها، هي التي تملك كافة المزايا لذلك؛ حتى يولد من الرجل الأكثر شجاعةً وبأسًا في المعمورة، والمرأة الأكثر شجاعةً وبأسًا على وجه البسيطة شيءٌ عظيمٌ ونادرٌ للمستقبل، شكرها الإسكندر الأكبر على المقترحات الأخرى، لكنه لكي يترك لنفسه بعض الوقت لتحقيق المقترح الأخير، عسكر هناك ثلاثة عشر يومًا محتفلًا - بأفضل ما يمكن- على شرف أميرةٍ بتلك الجرأة.

136.نحن في غالب الأوقات نحكم بشكلٍ سيئٍ على أعمال النساء، كما يفعلنَ هنَّ أيضًا بأفعالنا، وأنا أعترف بالحقيقة حين تزعجني كما حين تخدمني، وإنها لتقلباتٌ مكروهةٌ تلك التي تدفعهنَّ مرارًا إلى التغيُّر، والتي تمنعهنَّ من تثبيت عاطفتهنَّ على موضوعٍ ما، كما نرى ذلك لدى تلك الإلهة فينوس، التي يُنسب لها من التغير والتقلُّبِ الكثير، والأكثر من الرفقاء، لكن من الصحيح أن الحب إذا لم يكن عنيفًا، فذلك معاكسٌ لطبيعته، وإذا كان ثابتًا فذلك معاكسٌ لطبيعة العنف. وأولئك الذين يندهشون

(1) في الجنوب الشرقي لبحر قزوين.

لذلك وينكرونه، ويبحثون عن علل ذلك المرض الثاوي فيهنَّ، معتبرين إياه مشوَّهًا وغريبًا، ألا يرون كم يصيبهم ذلك أيضًا من غير أن يرعبهم ويطلبوا حدوث المعجزات؟ بل سيكون من المدهش أكثر أن نجدهنَّ ثابتاتٍ؛ لأن الأمر لا يتعلق فقط بهوًى جسديٍّ، فإذا كان الجشع لا نهاية له-كما الطموح- فالفجور أيضًا لا نهاية له، فهو يبقى موجودًا بعد الإشباع، ومن المحال أن يلتزم بإشباعٍ دائمٍ ولا بحدٍّ معيَّنٍ؛ إذْ إنه يسير دومًا في ما وراء ما يملك. وفي هذه الظروف فإنهنَّ يكنَّ معذوراتٍ بعدم الثبات أكثر منا نحن الرجال.

137.بإمكانهنَّ الزعم -مثلنا تمامًا- بوجود الجاذبية التي تمارسها علينا معًا الجدة والتنوع، لكن فوق ذلك فهنَّ -على خلافنا- يمكنهنَّ أن يتباهيْنَ بأنهنَّ يبتغْنَ الأشياء وعيونُهنَّ مغمضةً، من غير أن يريْنَ الشيء. أمرت جوفانّا، ملكة نابولي بإيطاليا، بخنق أندراش، دوق كالابريا وزوجها الأول وتعليقه في شباك نافذتها؛ لأنها في القيام بواجب الزوجية لم تجد فيه لا الأدوات ولا القوة القادرة على الاستجابة للآمال التي وضعتها فيه، وهي ترى قامته وجماله وشبابه ومؤهلاته، فقد اعتبرت أنها أُغويت وتعرَّضت للغشِّ والاستغلال[1]. تستطيع النساء -للدفاع عن أنفسهنَّ- الزعم بأن الفعل يتطلب مجهودًا أكبر من السكون وأنهنَّ من جانبهنَّ على الأقل يقمْنَ دومًا بالضروريِّ، أما نحن فالأمر يكون مختلفًا من جانبنا؛ ولهذا السبب فإن أفلاطون يقول عن حقٍّ في كتاب «الشرائع» إن القضاة -لتقرير مناسبة زواجٍ ما- عليهم أن يروا من قبل الشباب الراغبين فيه عراةً تمامًا، والفتيات حتى الخصر فقط.

138.وإنهنَّ حين يختبرْنَنَا، قد لا يجدْنَنَا مستحقين لاختيارهنَّ.

«بعد أن اختبرت إليته وبيدٍ لا تكلُّ
حاولت إنعاظ الشيء الشبيه بالجلد المبلَّل
لتتخلى عن أرضٍ لا تصلح لمعركة الحب»[2].

(1) حكايةٌ قد تكون مستقاةً من «تاريخ إسكندر بك» للافاردان. والزوج الذي يتحدث عنه مونتيني قد تمّ شنقه عام 1345، والملكة جان هذه هي التي باعت أفينيون للبابا، وتزوجت بعد ذلك بأميرين أو ثلاثة أمراء، وتم عزلها عن الحكم وخنقها على يد ابن عمها عام 1382 م.

(2) Martial, **Épigrammes**, VII, 57, vv. 3-5.

الإرادة لا تكفي لذلك، فالضعف والعجز الجنسيُّ يقطعان الزواج بشكلٍ مشروعٍ.

«كان من اللازم عليها أن تبحث عن زوجٍ أكثر فحولةً
في مكانٍ آخرَ
يكون قادرًا على فك حزام العذرية»[1].

ولمَ لا؟ بالفعل، إذا لم يبرهنْ لها كما تنتظر ذلك على سلوكٍ عاشقٍ أكثر إباحيةً ونشاطًا=

«وإذا لم يستطع القيام تمامًا بهذا الحرث اللطيف»[2].

=أليس ثمة وقاحةٌ مفرطةٌ علينا أن نمنحها لنواقصنا وضعفنا في مكانٍ نرغب فيه أن تُعجَب بنا النساء، وأن نترك لديهنَّ سمعةً طيبةً وتقديرًا لنا؟ وحسب القليل الذي أحتاجه من ذلك في الوقت الحالي=

«وأنا أكاد لا أملك ما يكفي من القوى
كي أمارس الحب مرةً واحدةً»[3].

=لا أريد أن أخاطر بإزعاج شخصٍ أحترمه وأهابه:

«لا تخش إنسانًا
بلغ في عذْوه الخمسين من العمر»[4].

139.كان على الطبيعة أن تكتفي بجعل عمر الشيخوخة بائسًا من غير أن تجعله سخيفًا. فأنا أكره أن أراه - مع القوة الضحلة التي تبقَّت له، والتي تسخِّنه ثلاث مراتٍ في الأسبوع- يسرع ويجاهد بالقوة نفسها، التي تجعله كما لو أنه قد جمع في أسفل البطن حمولةً مشروعةً وهامةً، والحال أن الأمر لا يتعلق سوى بنارٍ سريعة الخمود. فتلك الشهوة لا

(1) Catulle, **Poésies**, LXVII, vv. 27-28

(2) Virgile, **Géorgiques**, III, v. 27.

(3) Horace, **Épodes**, XII, v. 15.

(4) Horace, **Odes**, II, 4, vv. 22-24.

يمكنها أن تكون إلا وليدة زهرة الشباب الجميل؛ ولكي تتأكدوا من ذلك، ثقوا بها، وحاولوا تعزيز ذاك التوقُّد الذي لا يكلّ، وتلك الشهوة الكاملة والثابتة التي تحسون بها، فسوف تتخلى عنكم في عزّ المجامعة. توجهوا بالأحرى نحو شابةٍ في ربيع العمر مندهشةً وجاهلةً، لا تزال ترتعش عند التوبيخ؛ كي تحمر من ذلك خجلًا.

«كما العاج الهندي المصبوغ بالأحمر القاني
أو كما زهرة اللوتس البيضاء المخلوطة بورودٍ تعكس اللون الساخن»[1].
«من يقدر-من غير أن يموت خجلًا- أن ينتظر في الغد مقْت
تلك العيون الجميلة، الشاهدة على ضعفه وعجزه
صامتة ونظراتُها مليئة بالعتاب»[2].

هذا الرجل لا يمكنه أن يحسب الرضا والفخر وهو يُخمد تلك العيون، ويكْمدها بالممارسة القوية طيلة ليلةٍ هوجاء قضاها في عمل المجامعة هذا. حين رأيت إحداهنَّ تملُّ مني لم أتسرَّع في التنديد بطابعها الماجن، بل تساءلتُ في نفسي إن لم يكن عليَّ أن ألوم الطبيعة، صحيحٌ أنها اتهمتني بطريقةٍ وقحةٍ وغير مشروعةٍ=

«إن لم يكن لقضيبي ما يكفي من الطول والغلظ[3].
المومسات يعرفنَ ذلك جيدًا
هنَّ اللواتي ينظرنَ بازدراءٍ للقضيب الصغير»[4].

=وقد ألحقتْ بي غمًّا كبيرًا وهمًّا عظيمًا.

---

(1) Virgile, **Énéide**,XII, vv 67-69.

(2) Ovide, **Amours**, I, 17, v. 21.

(3)**Priapea ou Diversorum veterum poetarum lusus**, LXXX, 1.

(4)**Priapea, ou: Diversorum veterum poetarum lusus**, VIII, 4.

تقديم صورتي الشخصية الكاملة

140. كل عنصرٍ فيَّ هو أنا، مثله مثل العناصر الأخرى، لكن لا عنصر منها يجعل مني رجلًا مثل هذا العنصر، فعليَّ أن أقدم للجمهور صورتي الشخصية كاملةً. تنبع قيمة أقوالي من حقيقتها وحريتها وواقعيتها؛ فهي تترك جانبًا تلك القواعد المفبْركة المعتادة والخاصة، وهي أقوالٌ طبيعيةٌ وثابتةٌ وكونيةٌ، والطابع المدني والاحتفالي ليس غير بناتها اللقيطات. يمكننا القضاء على الرذائل الظاهرة، حين نكون قد قضينا على الرذائل الواقعية، وحين سننتهي من بعضها سنواجه الأخرى إذا ما ارتأينا ذلك ضروريًّا، فالخطر يكمن في أن نبتكر لأنفسنا واجباتٍ جديدةً؛ كي نعذر أنفسنا من إهمال الواجبات الطبيعية، ونزرع البلْبلة بذلك في ما بينها. ونحن نرى جيدًا أن الأمر كذلك حين نلاحظ في الأمكنة التي تكون فيها الأخطاء جُرمًا، أن الجرائم نفسها ليست سوى أخطاءٍ، وأن الأمم التي تكون فيها قواعد العيش الحسن قليلة العدد وأكثر مرونةً، يُعمل فيها بشكلٍ أفضل بالقواعد الأساسية المشتركة. فكثرة الواجبات التي يلزم القيام بها تخنق العناية التي نخصصها لها وتضعفها حتى إبادتها. والاهتمام الذي نخصُّ به الأشياء النافلة تبعدنا عن الأشياء التي تكون هامةً، وكمْ يتبَّع الناس السطحيون سبيلًا سهلًا وعلى مرأًى من الكلب المقارنة معنا. العوائد عبارةٌ عن ظلالٍ نتلفَّع بها بحيث نثني على بعضنا البعض؛ لكن لسنا بذلك سنؤدي بالمقابل الدَّيْن الذي علينا حِيال ذلك الحَكَم الأكبر، الذي يشمِّر ملابسنا وأسمالنا عن مناطقنا الحميمة، ويسهل عليه أن يرانا في كل مكانٍ، حتى في أكثر قاذوراتنا الحميمة والسرية، وستكون حشمتنا العذرية بالغة النفع لنا لو منعته من الكشف عنها.

141. وأخيرًا، فإن ما سيحرر الإنسان من التطيُّر اللغوي البالغ السفْسفة لن يضرَّ ضررًا كبيرًا بالعالم، فوجودنا يتكون جزئيًّا من الجنون، وجزئيًّا من الحكمة، ومن يفصح في كتاباته عن الاحترام للقواعد القائمة، يتجاهل إذًا منها أكثر من النصف. أنا لا أبحث لنفسي عن الأعذار، فإذا ما قمت بذلك، فسأعتذر بالأحرى عن أعذاري، لا عن خطأٍ قمت به

شخصيًّا. لكني أريد أن أبرّرَ نفسي لدى من يفكرون بشكلٍ آخرَ، والذين هم-في ما يبدو لي- أكثر عددًا من الذين يفكرون مثلي؛ وبما أني لا أريد أن يستاء مني أحدٌ -فمن الصعب على إنسانٍ واحدٍ أن يتطابق مع تنوعٍ هائلٍ من العوائد والخطابات والمشاعر- وأخذًا لآرائهم في الاعتبار، فإني أقول إذًا إن أولئك على خطإٍ في التهجُّم عليَّ في ما أقوله للسلطات الفكرية المقبولة منا منذ قرونٍ، وأنه ليس من الصحيح -لأني لا أكتب شعرًا- أن يرفضوا لي الحرية التي يتمتع بها في عصرنا حتى رجال الكنيسة. وإليكم اثنين على سبيل المثال من بين الأكثر شهرةً:

«فلأمتْ إذا لم يكن فرجك خطًا مستقيمًا»[1].

«قضيب صديقٍ يرضيها ويحسن معاملتها»[2].

142.وما القول في آخرين كثيرين؟ إني أدعو للتواضع، ولم أختر بشكلٍ متعمّدٍ هذه الطريقة الصادمة في الكلام، فالطبيعة هي التي اختارتها لي، وأنا لا أمتدح ذلك، كما لا أمتدح كل الأشكال المنافية للعوائد، لكني أعذرها وأخفِّفُ من إدانتها تبعًا للظروف العامة والخاصة.

143.لكن لنتابعْ. يمكننا أن نتساءل من أين تأتي تلك السلطة والسيادة -المغتصَبة- التي تمارسونها عَنوةً على النساء اللواتي يمنحْنَكم حظوةً على أنفسهنَ؟

«إذا هي في الظلمة وفي الخفاء، منحتك بعض الأفضال الصغيرة»[3].

فهل هذا يكفي كي تحسَّ للتوِّ بحقوق زوجٍ لها وببرودته وسلطته؟ الحب اتفاقٌ يتمُّ عقده بحريةٍ، فلماذا لا تتعلق به كما أنت ترغب فيه في إخضاع النساء؟ ليس ثمة قواعد مسكوكةٌ سلفًا بخصوص الأمور الإرادية.

(1) الشاهد مأخوذ من كتاب ثيودور دو بيز (1578)، الذي كان كاثوليكيا وصار راهبا بروتستانتيا.

(2) Mellin de Saint-Gelais, **Mélanges poétiques**, t. 1, 17, pp. 276-277.

(3) Catulle, **Poésies**, LXVIII, 145.

مونتيني والنساء

144. إنه لأمرٌ مخالفٌ للعوائد، لكن الحق أني -بالرغم من ذلك وفي زمني- قد عقدت هذا الاتفاق حسب استطاعتي وبوعيٍ مني وبقدْرٍ من العدل، وإني لم أعبِّرْ للنساء في مجال العاطفة إلا عما أحسسته حقًّا تجاههنَّ، وقد أبنتُ لهنَّ بصدقٍ عن الانحطاط والقوة والانبثاق والمغالاة والهدأة؛ ذلك أننا لا نسير في ذلك بالإيقاع نفسه. لقد كنت بخيلًا جدًا في الوعود، بحيث أعتقد أني وفيت بها أكثر مما وعدت بها، أو كنت دائنًا بها. وقد وجدْنَ في ذلك ضربًا من الوفاء يصل حتى خدمة عدم ثباتهنَّ، أعني عدم ثباتهنَّ المعترف به والذي يكون أحيانًا مضاعفًا، وأنا لم أقطع علاقتي أبدًا بهنَّ طالما ظللْتُ متعلقًا بهنَّ ولو بخيطٍ رفيعٍ، وفي أي فرصةٍ منحْنَها لي، لم أقطع معهنَّ إلى حد أن أحس حيالهنَّ بالكراهية، فبما أنني اكتسبت معهنَّ تلك الألفة، ولو بواسطة مواضعاتٍ مخجلةٍ، فقد فرض عليَّ ذلك بعض العناية بهنَّ، وقد أبنتُ لهنَّ أحيانًا خلال خصوماتنا بعض الغضب وانعدام الصبر المبالغ فيه بسبب حيلهنَّ ومراوغاتهنَّ، ذلك أنني بطبعي تنتابني العواطف الهائجة التي تضر كثيرًا بأعمالي، بالرغم من أنها خفيفةٌ وقصيرة الأمد.

145. وإذا هنَّ رغبن في امتحان حريَّتي في الحكم، فإني لم أتَوان في إعطائهنَّ آراءً متسلطةً ولاذعةً، وأن أضع الإصبع على الجرح، وإذا كنت تركت لهنَّ وازعًا للشكوى مني؛ فذلك لأني- تبعًا لعوائد اليوم- قد أحسست تجاههنَّ بحبٍ واعٍ بشكلٍ ساذجٍ، ولقد ظللْتُ عند كلمتي في القضايا التي كان من الممكن بسهولةٍ إعفائي منها. كنَّ يخضعنَ أحيانًا لعللي وأسبابي، بالحفاظ على سمعتهنَّ، متبَّعاتٍ مُواضعاتٍ كنَّ يرغبنَ في رؤية المنتصر يخرقها، ولقد جعلتُ الشهوة أكثر من مرةٍ تتخلَّى عن عزِّها أمام مصلحة شرفهنَّ، وحين كان العقل يُكْرهني على ذلك، كنت أسلِّحهنَّ ضدي بحيث يتصرَّفنَ حينها بطريقةٍ أكثر وثوقًا وصرامةً باتباع مبادئي منه باتباع مبادئهنَّ.

146. ولقد أخذت على عاتقي -ما استطعت ذلك- خطر مواعيدنا حتى أنزِعَ

عنهنَّ المسؤولية، ونظمت دومًا لقاءاتنا بالطرق الأكثر مباشرةً والأقل توقُّعًا؛ حتى لا أثير الشكوك وأجعلها بذلك لقاءاتٍ عاديةً. فنحن عمومًا نُكتشف من حيث نعتقد أننا الأكثر خفاءً، والأشياء التي نخشاها قليلًا، هي الأقل عُرضةً للمنع ومن ثمَّ للملاحظة. فالمرء يجرؤ بطريقةٍ أسهل على فعل ما لا يعتقد أحدٌ أنه سيقوم به، بحيث إنه يغدو سهلًا بصعوبته نفسها.

147.لا أحد له طريقةٌ جسديةٌ صريحةٌ في أمور مقارباته للنساء أكثر مني، وهذه الطريقة في تصور الحب أكثر ملاءمةً للقواعد الطبيعية، لكن منْ يعرف أكثر مني كم هي طريقةٌ سخيفةُ وقليلة النجاعة للناس اليوم. ومع ذلك ليس لي أبدًا أن أتوب عن ذلك، فليس لي ما أخسره في هذا المجال.

«هذه اللوحة النذْرية على حائط المعبد
توضح بما يكفي أني كرَّست
لإله البحر
ثيابي التي لا زالت بليلة»[1].

148.ولقد حان الوقت للحديث عن ذلك بصراحةٍ. لكني ربما سأقول: «أنت تحلم يا صديقي، الحب في هذا الزمن لا علاقة له بالوفاء والصدق».

«إذا رغبت في أن تسنَّ لها
قواعد واضحةً، فذلك سيذهب سُدًى
وتفكيرٌ بشكلٍ غير معقولٍ»[2].

لكن بالمقابل، إذا كان عليَّ أن أعاوِد الكرَّة، فسأعاوِدها بالطريقة نفسها وبالمنهج ذاته، مهما كان بلا نتيجةٍ لي؛ إذ عدم النجاعة والغباء جديران بالثناء في فعلٍ ليس مع ذلك بفعلٍ، وَأنا أبتعد عما يُفعل، أقترب مما أنا عليه.

149.زدْ على ذلك أني في هذه الأمور، لا أترك نفسي أنساق تمامًا؛ إذ يعجبني

(1) Horace, **ÉpîtresOdes**, I, 5.
(2) Térence, **L'eunuque**, I, 1, vv. 16-18.

الأمر من غير أن أنسى نفسي. كنت أحافظ على ذلك النزْر اليسير من التبصُّر الذي منحته إياي الطبيعة، سواء لخدمة النساء أو لنفسي، أعني القليل من العاطفة لكن من غير جنونٍ، وضميري يجد نفسه مندمجًا في ذلك هو أيضًا حدَّ الفجور أو الفوضى، لكن ليس أبدًا حدَّ نكران الجميل أو الخيانة أو الشر أو الوحشية؛ فأنا لم أكن أقتني ملذات هذه الآفة بأي ثمنٍ، بل كنت أكتفي فقط بما هو ثمنها. «**ليس ثمة من رذيلةٍ تنكفئ على ذاتها**»[1]. أمقت بشكلٍ ما الخمول الراكد والغافي بقدر ما أمقت العمل الصعب والمضْني. فهذا الأخير يستثيرني فيما ينوّمني الخمول، وأنا أحبُّ الجروح مقدار حبي للكدمات والضربات القاصمة كما الخدوش، وقد وجدت في هذه الوضعيات-حين كنت فيها على راحتي- توازنًا حقًّا بين الطرفين. الحب حركةٌ يقظةٌ وحيويةٌ ومرحةٌ، ولم يصبني من الحب الاضطراب والحزن، بل إنه أثارني وغيَّرني أكثر. علينا أن نقف عند هذا الحد، فالمرأة لا تكون ضارَّةً إلا للحمقى.

150.طلب شابٌ من الفيلسوف باناتيوس إذا كان لائقًا بحكيمٍ أن يكون عاشقًا، فأجابه: «لنترك الحكيم هنا، لكن أنا وأنت-اللذين ليسا حكيميْن- ليس علينا أن ندخل في شيءٍ كدِرٍ وعنيفٍ مثل هذا، يجعلنا مرتهنيْنِ بالغير وماقتيْنِ لأنفسنا»[2]. لقد كان على حقّ؛ إذْ ليس علينا أن نعهد بشيءٍ مندفعٍ بذاته إلى نفسٍ ليست قادرةً على تلقِّي هجماته، وعاجزةً عن التفنيد العملي لكلمات أجيسيلاوس القائلة إن الحكمة والحب لا يجتمعان. الحب انشغالٌ بلا جدوًى، والحق أنه غير لائقٍ ومخجلٍ وغير مشروعٍ، لكننا لو قمنا به بشكلٍ معتدلٍ، فأنا أعتبره صحيًّا وقادرًا على تنشيط عقلٍ وجسدٍ خامليْن، ولو كنت طبيبًا لكنت وصفته لشخصٍ مثلي، له مزاجي ووضعيتي، كما أيّ دواءٍ آخر؛ كي يوقظ همَّتَه ويحافظ على صحته إلى وقتٍ متأخرٍ من العمر؛ ولكي يؤخر آثار الشيخوخة عليه.

151.«**وبينما نحن لم نتجاوز بعد الضواحي، وأن القلب لا زال ينبض وشعري بدأ يتضمَّخ بالشيب، وشيخوختي في بدايتها**

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XLV.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, CXLI

لا زلت أقف مستقيمًا ولاخيسيس لا تزال تنسج حياتي رجلاي لا زالتا تحملاني جيدًا، ويداي لا حاجة لها بالعصا»[1].

نحن بحاجةٍ لأن تستبد بنا حركةٌ ما تلتهمنا كما الحب. انظروا كيف أعاد للحكيم أناكريون شبابه ومنحه القوة والمرح، وسقراط الذي كان أكثر شيخوخةً مني قال متحدثًا عن موضوعات الحب: «حين وضعت كتفي على كتفه، وقرَّبت وجهي من وجهه، ونحن نتملَّى معًا في كتابٍ، أحسست فجأةً وبصدقٍ بوخْزةٍ في الكتف كما لو أن حشرةً عضتني، وخلال خمسة أيامٍ كنت أحس بدبيبٍ هناك وفي القلب، وحكّةٍ مستمرةٍ». وهكذا فإن لمسة كتفٍ عابرةٍ كانت قادرةً على إثارة وتحريك نفسٍ باردةٍ أوْهنها الزمن، وهي الأولى من بين النفوس في الحكمة. لكن لم لا؟ فسقراط كان رجلًا ولم يكن يرغب في أن يكون غير ذلك.

152.الفلسفة لا تتعارض مع الملذات الطبيعية، عليها فقط أن تكون متَّزنةً، فهي تدعو إلى الاعتدال لا إلى الزهد فيها، ومجهودها يهدف إلى مواجهةٍ من الملذات غريبةٍ عن الطبيعة ومستوحشة. إنها تقول إن الرغبات الصادرة عن الجسد لا يلزم أن يعزِّزَها العقل، وتنصحنا بذكاءٍ ألا نسعى إلى إيقاظ جوعنا بالشبع، وألا نُتخَم عوضًا عن ملْء البطن فقط، وتفادي كل متعةٍ تجعلنا نحس بنقصانها، وكل طعامٍ وشرابٍ يمكن أن يجوّعنا ويفسدنا، وهي كذلك تأمرنا في الحب أن نأخذ لنا موضوعًا يُشبع ببساطةٍ حاجات الجسد، ولا يكدِّر النفس أبدًا، فهذه الأخيرة ليس عليها أن تأخذ بالاعتبار ذلك، وإنما فقط أن تتابع الجسد وتقدم له المعونة. لكن، أليس معي حقٌّ في التفكير بأن هذه المبادئ- التي تملك في رأيي بعض القوة والصرامة - تتعلق بجسدٍ قادرٍ على القيام بمهامه؟ وأن جسدًا واهنًا- مثله مثل معدةٍ مترهلة- معذورٌ صاحبُه أن يسخِّنه ويسنده بالأشياء المصطنعة، وأن يمنحه بواسطة الخيال الشهوةَ والمرحَ اللذين فقدهما؟

(1) Juvénal, **Satires**, 26.

153.ألا يمكن أن نقول - ونحن في هذا السجن الدنيوي- أن لا شيء فينا جسديٌّ خالصٌ ولا روحيٌّ خالصٌ، وأن الفصل بين الاثنين يعني تمزيق الإنسان؟ ثم أليس ثمّة علةٌ ما أن نهتم بالقدْر نفسه بالمتعة كما بالألم؟ ولْنأخذ على ذلك مثالًا: كان الألم عنيفًا في الدرجة القصوى في نفس القديسين الذين كانوا يمارسون الزُّهد، بيد أن الجسد كان يشارك في ذلك بشكلٍ طبيعيٍّ بفعل تحالفه مع النفس، بالرغم من أنه لم يكن موضوعًا لذلك إلا بشكلٍ جزئيٍّ، ولم يكتف القديسون بأن يروْا الجسد يتَّبع نفسهم المجاهدة ويساعدها، فقد تعرض هو أيضا للعذاب إذ هم ساموه أشدَّ أنواعه وأقساها حتى يقوم والنفس معًا بالغوص في الألم، الذي يكون مخلِّصًا لهم أكثر كلما زادت حدته.

154. بالشكل نفسه، وفي ما يخص الشهوات الجسمانية، أليس من العدل حماية النفس منها، وعدم جرِّها إليها إلا من باب الضرورة والحاجة التي يلزم عليها أن تخضع لها؟ بل عليها هي بالعكس أن تثير تلك الشهوات وتسخِّنها، إذ لها تعود مسؤولية توجيهها، فكما هو الأمر في نظري في المتع الخاصة بها، عليها هي أن تنفثها في الجسم، وأن تغشاه بكل ما يمكنه بلوغُه منها بالنظر لطبيعته، وأن تعمل على أن تكون له تلك الشهوات طيِّبةً ومخلصةً. فكما يقال، إذا كان من الأفضل ألا يتَّبع الجسد الشهوات التي تكون مَبْعث ضررٍ للروح؛ فلماذا لا يكون من الأمثل أن تتبع الروح شهواتها على حساب الجسد؟

155.ليس لي من هوًى يتركني فاقد البصيرة، فما يحتله الجشع والطموح والنزاعات والمحاكمات لدى الآخرين، يعوضه الحب بشكلٍ رائقٍ لدى شخصٍ مثلي ليس له من انشغالٍ خاصٍ. الحب يمنحني العناية والزهد والبشاشة والاهتمام بنفسي، وهو يشدُّ مظهري وتجاعيد الشيخوخة، وتلك التجاعيد الشائهة والباعثة على الأسى لن تستطيع أن تتْلفه، وهو سيعود بي للدراسات السليمة والحكيمة التي ستجعل الناس يقدِّرونني ويحبونني أكثر، نازعًا من عقلي اليأس والمقت الذي قد يمسَّه؛ ليعديه إلى ذاته، وهو يكون سلْوتي عن مئات الأفكار المملَّة، وعن حالات الأسى الكئيبة التي تلمُّ بنا في هذا العمر مع تدهور صحتنا، وهو يدفئ ولو في

الخيال ذلك الدم الذي هجرته الطبيعة، ويسْند مني الذقْن ويمدِّد العضلات شيئًا ما، ويمنح القوة والبهجة بالحياة لهذا الرجل المسكين الذي يسير بكامل السرعة نحو الخراب.

156.لكني أدرك أنه امتيازٌ صعبٌ تحقيقه، فذوقنا-بضعفه وبتجربته الطويلة- صار أكثر صعوبةً ودقةً؛ إذ نحن نطلب الأكثر فيما لا نمنح إلا الأقل، نحن نريد أن يكون لنا الاختيار فيما أننا لا نستحق أن نكون مقبولين، وبما أننا نعرف ما نحن عليه، فإننا نكون أقل جرأةً وأكثر حيطةً؛ إذ لا شيء يضمن لنا أن نكون محْبوبين بالنظر إلى وضعيتنا وإلى وضعيتهم. وأنا أخجل من أن أجد نفسي وسط ذلك الشباب الفائر.

«الذي يكون عضوه مغروسًا بقوةٍ
أكثر مما هي مغروسةٌ شجرةٌ صغيرةٌ على ربوةٍ[1].

لماذا إذًا سوف نروح لإبراز بؤسنا وسط تلك البهجة والمرح؟

«كي يرى ذلك الشباب الفائر
ومن غير أن يمسك نفسه عن الضحك بصخب
شعلتنا تتبدَّد رمادًا»[2].

لهم القوة والعقل، فلنترك المكان لهم، فنحن لم تعد لنا القوة والوسائل كي ننافسهم.

157. ثم إن هذا البرعم من الجمال لا ينصاع على كل حالٍ للمداعبة بأيادٍ متصلِّبةٍ، ولا يمنح نفسه لأسبابٍ ماديةٍ صرْفٍ. وكما يقول الفيلسوف القديم لمن كان يسخر منه لأنه لم يستطع أن ينال أفضال غلامٍ كان يتابعه بمثابرةٍ: «يا صديقي، شص الصنارة لا يتلاءم مع الجُبْن الرطب».

158.إنه ضربٌ من العلائق يتطلب الأحاسيس المتبادلة، فالملذات الأخرى التي نتلقّى يمكننا أن نجازيها بالهدايا من مختلف الأنواع، بيْد أن هذه

(1) Horace, **Épodes**, XII, vv 19-20.
(2) Horace, **Odes**, IV, 13, vv. 26-28.

العلاقة العاشقة لا يمكننا تأدية ثمنها بالشكل نفسه، والحقيقة أن المتعة التي أمنح في هذا النوع من المُتع تدغْدع بشكلٍ رائقٍ خيالي أكثر من المتعة التي تُمنح لي، ومن يتلقى المتعة من غير أن يمنحها ليس شخصًا كريمًا، إنه نفسٌ حقيرةٌ لشخصٍ يرغب في أن يكون مَدينًا للغير في كل شيءٍ، وهو يحس بالرضا في علاقته مع الناس الذين يتكفلون به. ليس ثمة جمالٌ أو نعمةٌ أو حميميةٌ رائعةٌ يمكن لشخصٍ نبيلٍ أن يرغب فيها بذلك الثمن، فإذا كانت النساء الراقيات لا يمكنهنَّ أن يمنحنَنَا ما نحب إلا بدافع الشفقة، فأنا أفضِّل ألا أحيا على أن أحيا بالصدقة، وأنا أرغب في أن أسأله على الطريقة التي وقفت عليها في إيطاليا: «عاملْني بالتي هي أحسن، من أجلكنَ أنتنَّ»، أو على الطريقة التي كان كورش يحثُّ بها جنوده: «من يحبني فليتبعْني».

159.قد يقول قائلٌ: «لتعدْ لامرأةٍ هي في وضعيتك نفسها، بحيث يجعلكما الوضع نفسه أسهل لبعضكما». يا للمزيج الغبي الذي لا طعم له!

«لا أرغب في مداعبة شعر أسدٍ ميِّتٍ»[1].

قام كسينوفون بمعاتبة مينون واتهمه بأنه عاش علاقات حبٍّ لم تكن له في عزِّ الشباب. فأنا أجد متعةً أكبر في رؤية الاختلاط العذب والمتوازن لجمالين شابين، أو أن أتخيل فقط في ذهني ذلك، على أن أكون بنفسي الثاني في زوجٍ حزينٍ ومشوَّهٍ. وأنا أترك تلك الرغبة للإمبراطور غالْبا، الذي كان لا يهتم إلا بالأجسام المتصلّبة والشائخة، ولهذا الآخر المسكين البائس:

«فلتبتَغِ الآلهة أن أراكِ هكذا
كي أتمكّن من تقبيل شعرك المبيضّ
وأعانق جسدك السقيم»[2].

160.وأنا أجعل من بين أسوأ ضروب البشاعة جمال النساء المصطنع والقسريِّ. كان إيمونيس (وهو غلامٌ من جزيرة خيّوس) يعتقد أنه

(1) Martial, **Épigrammes**, X, 90, v. 10.
(2) Ovide, **Pontiques**, I, 4, vv. 49-51.

بلباسه الأنيق يمكنه أن يكتسب الجمال الذي رفضته له الطبيعة، فتقدم إلى الفيلسوف أركسيلاوس وسأله إذا كان رجل حكيم يمكنه أن يكون مُحبًّا، فأجابه الفيلسوف: «نعم، بشرط ألا يحب جمالًا متأنِّقًا ومُتجمِّلًا مثلك». إن بشاعة شيخوخةٍ واضحةٍ أقلُّ قبحًا وأقلُّ شيخوخةً (في نظري) من بشاعةٍ مصبوغةٍ ومُجمَّلةٍ. هل أقول ذلك؟ عسى ألا أتعرض للخنق. الحب لا يبدو لي حقًّا وطبيعيًّا في وقته الملائم إلا في عمرٍ قريبٍ من الصبا=

«إذا ما وضعنا وسط جمعٍ من الفتيات
شابًا ذا شعرٍ منسدلٍ
وذا ملامح ضبابيةٍ، سوف نخدع
مئات الملاحظين»[1].

=والأمر نفسه يسري على الجمال.

161.وإذا كان هوميروس يمدِّد فترة الصبا حتى يسودَّ ذقن الغلام، فإن أفلاطون قد لاحظ أن ذلك الجمال نادرٌ. ونحن نعلم لماذا كان السفسطائيُّ ديون*[2] يسمي الشعَر المنفوش للصبية المراهقة*[3]«هرموديّا» و«أريستوجيتونيّا». أعتبر أن الحب لم يعد في مكانه في الفحولة؛ حتى لا نتحدث عن الشيخوخة.

«إنه يحلِّق فوق شجر البلوط العاري من غير أن يتوقَّف»[4].

ومارغريت ملكة نافارا، مع أنها امرأةٌ تمدِّد امتياز النساء أكثر، حين قرَّرت أن الوقت يحين للنساء في الثلاثينيات أن يتركن لقب «النساء الجميلات» ليتلقبْن بـ«السيدات».

(1) Horace, **Odes II**, 5, vv. 21-24.

(2) * هكذا ورد في الأصل الفرنسي، وهو تحريف لم يقف عليه المحقق، والصواب أنه الفيلسوف بيون.

(3) * من الأكيد أن القارئ لا يعرف اليوم أن ثمة تقليدًا قديمًا كان يجعل من الشباب الهرموديين والأرستوجيتيين شهداء ومحررين، ومن ثم ربط شعر اللحية المنفوش باسمهم. والفيلسوف بيون يقصد أن ظهور زغب ذقون الغلمان، يحررهم من الممارسات المثلية على غرار تحرير أثينا من طغيان هيبارخوس على يد هارموديوس وأريستوجايتون حيث يظل الغلام مطمعًا جنسيًا حتى ينبت عذاره كما كان الحال إبان الدولة العباسية.

(4) Horace, **Odes**, IV, 13, vv. 9-10.

162.كلما كانت مدة استبداد هذا الإحساس العاشق بحياتنا قصيرةً، كلما كانت قيمته أكبر. انظروا إلى مظهر هذا الكائن: ذقنه ذقن طفل، من يدري إن كان كل شيءٍ في مذهبه يتمُّ بالشكل المعاكس لما هو معتادٌ؟ فالدراسة والتمارين والممارسة تؤدي هنا إلى العجز، والحديثون فيه هم أسياده. «الحب لا يعرف القواعد»[1]، صحيحٌ أن سلوكه يكون أكثر لياقةً حين يكون مصحوبًا بانعدام القصْد وبالاضطراب؛ فالأخطاء والفشل يمنحانه مذاقًا ورونقًا، على أن يكون ذلك الرَّونق عنيفًا وسريعًا ولا همَّ في أن يكون خاليًا من الحكمة والحِلم. انظروا للحب كيف يسير متراقصًا ومترنِّحًا ومرحًا ونحن نقيِّد يديه ورجليه حين نقوده بمهارةٍ وحكمةٍ، ونقمع حريته الإلهية حين نضعه بين الأيدي المتشقِّقة لأولئك الناس الملتحين.

163.علاوةً على ذلك، أسمع النساء يتحدثْنَ كثيرًا عن تلك الوحدة البالغة الروحانية، ويكرهنَ اعتبار الفائدة التي تكون للحواس فيها. كل شيءٍ يشارك في الحب، غير أني أستطيع القول إني إذا كنت مرارًا أرى أن الناس يعذرون ضعف عقولهن بجمال أجسادهن، فأنا لم أرهنَّ بعد يعزِّزن بجمال روحهن-مهما كان ناضجًا ومميزًا- جسدهن مهما كان العمر قد أخذ منه مأخَذه. لماذا إذًا لا واحدة منهن ترغب في القيام بتلك المبادلة السقراطية بين الجسد والروح، فتقتني بقيمة فخذيها عقلًا وخصوبةً فلسفيةً، ستكون بذلك الجائزة القصوى التي يمكننا أن نمنحها لهنَّ؟ ينص أفلاطون في شرائعه على أن كل من أنجز عملًا نافعًا ورائعًا في وقت الحرب، لا يلزم أن يُرفض له -خلال مدّة المعارك، ومن غير اعتبار لبشاعته أو عمره- قبلةً أو فضلًا في الحب من أي امرأةٍ رغب في الحصول عليه منها، وما يعتبره جزاء عادلًا على الشجاعة الحربية ألا يمكن أن يكون جزاءً على شيءٍ آخرَ؟ ولماذا لا تأتي الرغبة لأحدٍ في أن يتباهى أمام صاحباته بمجْد الحب العذريِّ، أعني العفيف؟

«إذ أحيانًا نأتي إلى معركةٍ
تشبه نارًا عظيمةً، لكن من تبنٍ
وتنقصها القوة»[2].

(1) Saint-Jérôme, **Lettres à Chromatia**.
(2) Virgile, **Géorgiques**, III, 98.

فالرذائل التي تظل في الفكر ليست هي الأسوأ.

164. ولكي ننتهي من هذا لتعليق الوافر الذي انفلت مني في سيلٍ من اللغْو، وهو سيلٌ جارفٌ وأحيانًا ضارٌ:

«سقطت تفاحةٌ من صدر فتاة عذراء
كان قد أهداها إياها خلسةً عشيقها
نسيت المسكينة أنها أخفتها تحت ملابسها
وحين أتت أمها ونهضت نحوها
سقطت التفاحة وتدحرجت بين قدميها، حينها
أفصحت الحمرة على وجهها بشكلٍ كافٍ عن خطيئتها»[1].

المساواة بين الجنسين

أقول إذًا إن الذكور والإناث خرجوا من القالب نفسه، ولو لم يكن ثمة التربية والعوائد، فإن الاختلاف لن يكون كبيرًا. في كتاب «الجمهورية» يدعو أفلاطون هؤلاء وأولئك -من غير تمييزٍ- إلى المشاركة في كافة أنواع الدراسة والتمارين والمسؤوليات والمهن في زمن الحرب كما في زمن السلم، وكان الفيلسوف أنتيستينوس ينكر أي تمييزٍ بين شجاعة النساء وشجاعتنا.

165.من السهل اتهام جنسٍ من الجنسين على إيجاد الأعذار للآخر، وكما يقال: «الفحَّام يقول دومًا إن القدْر أسودُ».

(1) Catulle, **Poésies**, LXV, 19.

الفصل السادس

عن العربات

1. من السهل أن نتحقق من أن المؤلفين الكبار- حين يكتبون عن العلل الأولى- لا يستخدمون فقط تلك التي يعتبرونها حقيقيةً، وإنما أيضًا تلك التي لا يؤمنون بها، فقط أن يكون لها شيءٌ من الجدة والجمال، وإذا هم تكلموا بحذقٍ، فإنهم على كل حالٍ يقولون أشياءَ بالأحرى حقيقيةً ومفيدةً. وما دمنا غير متأكدين من امتلاك العلة النهائية، فإننا نراكم الكثير منها حتى نرى إذا كانت تلك العلة موجودةً من بين ذلك الحشد.

«لاتكفي الإشارة إلى علةٍ واحدةٍ
بل ينبغي تقديم الكثير منها، فواحدةٌ منها هي الصحيحة»[1].

هل تسألونني مثلًا من أين تأتي تلك العادة لتشْميت من يعطسون؟ نحن ننتج ثلاثة أنواعٍ من الهواء: ما يخرج من الأسفل وسخٌ، وما يخرج من الفم يُفصح عن النَّهم والشَّره، والثالث هو العطس، وحيث إنه يأتي من الرأس، ولا مأخَذ عليه، فإننا نستقبله بالحبور. فلا تسخروا من هذا الأمر الدقيق، إذ يُقال إن صاحبه هو أرسطو.

دُوار البحر

2. يبدو أني قرأت لدى بلوتارخوس-الذي يُعتبر من بين كافة المؤلفين الذين قرأت، ذلك الذي عرف كيف يجمع بين الفن والطبيعة، وبين الحكم العقليِّ والعلم- أنه حين يتناول السبب الذي يجعل المعدة تضطرب لدى من يسافرون بحرًا، هو أن ذلك يأتيهم من الخوف الذي يحسون به، فقد وجد استدلالًا يبرهن به على أن الخوف يمكنه أن يكون وراء ذلك الأثر، وأنا الذي أُصاب مرارًا بذلك الدوار، أعرف جيدًا أن تلك العلة لا تنطبق عليَّ، وأنا أعرف ذلك لا بدليلٍ، وإنما بتجربةٍ لا تقبل الجدل.

3. وإني لا أصدق ما يقال من أن الأمر نفسه يتمُّ لدى الحيوانات وخاصةً الخنزير، وإذًا خارج أي وعيٍ بالخطر. ولا أصدق أكثر ما حكاه لي أحد

(1) Lucrèce, **De la Nature**, VI, 704.

معارفي، من أن الرغبة في الغثيان قد أتته مرتين أو ثلاث مراتٍ؛ لأنه كان في حالٍ كبيرةٍ من الرعب، ولا هذا المؤلف القديم أيضًا الذي قال: «كنت مصابًا بدُوَّارٍ كبيرٍ بحيث لم أفكر في الهلاك»[1]. لم أصب أبدًا بالخوف وأنا في البحر، ولا في ظروفٍ أخرى أيضًا، فأنا لم أعرف الاضطراب أو الاندهاش من الخوف مع أني تعرضت لوضعياتٍ كان من الممكن فيها أن أحس به، إذا ما كان الموت إحداها. الخوف يتولَّدُ أحيانًا عن غياب الحكم العقلي أو عن نقصٍ في الشجاعة. كل المخاطر التي عرفتُ واجهتُها بعينين مفتوحتين وبرؤيةٍ واضحةٍ وكاملةٍ. يلزم أيضًا بعض الشجاعة لكي يخاف المرء، وهذه الشجاعة كانت مفيدةً لي في الماضي، كما لأناسٍ آخرين؛ كي أنظم هروبي منها بشكلٍ جيدٍ؛ حتى يكون ذلك من غير خوفٍ أو على الأقل من غير رهبةٍ ومن غير شللٍ خطيرٍ. فالأمر يتمُّ بتأثُّرٍ لكن من غير روعةٍ أو حيرةٍ.

4. النفوس العظيمة تفعل ما هو أفضل من ذلك؛ إذْ تقوم بعمليات تراجع ليست فقط هادئةً ومنظمةً، وإنما بها كبرياءُ. لنتذكرْ ما يحكيه ألكيبياديس عن سقراط رفيقه في السلاح: «وجدته بعد هزيمة جيشنا مع لاخيسمن بين آخر من فرّوا، تأملته على راحتي وبأمانٍ تامٍّ؛ لأني كنت ممتطيًا جوادًا متين البنية وكان راجلا؛ إذ هكذا كنا نحارب، لاحظت كم يفصح عن حضور البديهة والتصميم والعزم مقارنةً مع لاخيس، ثم الثقة الرائعة التي كان يمشي بها على عادته، ونظره الحازم وهو يحكم على ما يجري حوله، متأملًا الأصدقاء والخصوم -تارةً البعض وتارةً البعض الآخر- بطريقةٍ تشجع البعض وتعني للآخرين أنه عازمٌ عزمًا على أنه سيضحي بحياته غاليًا لمنْ يسعى إلى انتشالها منه، وهكذا فرًّا معًا لأنْ لا أحد يمكنه أن يهاجم أشخاصًا مثلهما، فهم يتَّبعون من يبدو عليهم الرعب»[2]. تلك هي شهادة هذا القائد الذي يعْلمنا بما نلاحظه يوميًّا؛ إذ لا شيء يرمي بنا في المخاطر سوى الحاجة غير المعقولة للانفلات منها. «عمومًا، كلما كان خوفنا أقل كلما تعرضنا أقل للمخاطر»[3]. وإننا نخطئ حين نصف شخصًا يهاب الموت بالقول: إنه يترقبّه؛ فالوقاية

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LIII, 3.

(2) Platon, **Le Banquet**, 221 a-c.

(3) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXII, 5.

تتعلق بما يمكن أن يحدث لنا سواءٌ كان خيرًا أو شرًا، وتفحص الخطر وتقديره هو بالأحرى عكْس الرعب منه.

5. لست من القوة بحيث أتحمل عنف وصدمة هذه العاطفة المتمثلة في الخوف، مثلها مثل أي انطباعٍ قويٍّ آخرَ، وإذا ما حدث أن غلبتني وطرحتني أرضًا، فإني لن أقف على قدميَّ أبدًا بشكلٍ كاملٍ؛ فما يمكن أن يُفقد نفسي موطئ قدمها لا يمكنه أبدًا أن يعيدها إلى وقفتها بعد ذلك، فهي تمتحن ذاتها وتتفحَّصُها بشكلٍ حادٍ وعميقٍ جدًا كي تترك الجرح الذي أصابها ينْدمل، وأنا محظوظٌ أني لم أصب بمرضٍ استطاع أن يطرحني أرضًا، ففي كل محنةٍ تلاقيني أقدم نفسي وأواجه الأمر بسلاحي كاملًا، وأول محنةٍ ستقضي عليَّ ستتركني من غير موارد، وأنا لا يمكنني أن أواجه محنتيْن في آنٍ واحدٍ، فمهْما كان المكان الذي سينفتح فيه شقٌّ في السدِّ الذي أقمت، سأكون معرَّضًا للسيل وسأغرق من غير أملٍ. يقول إبيقوروس: إن الشخص الحكيم لا يمكنه أبدًا أن ينتقل إلى حالٍ معاكسةٍ؛ لكني أعتقد أن العكس هو الأصح بالأحرى، من كان حقًّا أحمقَ لا يمكنه أبدًا أن يكون فعلًا حكيمًا.

6. يعطي الله البرد على قدر الغطاء، ويبتلينا بالآلام بقدر ما نطيق، والطبيعة كشفتني من جانبٍ وغطتني من الجانب الآخر، إذ سلبت مني سلاح القوة وسلحتني بعدم الإحساس وبخوفٍ من الخطر متحكَّمٍ فيه وغير حادٍّ، لكني لا أستطيع أن أتحمل طويلًا -وكان الأمر أسوأ في شبابي- لا عربةً ولا نقالةً ولا باخرةً، وأكره على كل حالٍ التنقل على غير الجواد، في المدينة كما في الحقول. وأنا أتحمل النقالة أقل من العربة، وللأسباب نفسها أتحمل أفضل المياه الهادرة التي قد تكون مخيفةً، على حركتها التي نحسها في وقتٍ هادئٍ؛ فالهزْهزات الخفيفة التي تثيرها المجاديف والتي تجعل السفينة تنساب تحت أقدامنا، تجعلني أحس برأسي ومعدتي يضطربان من غير أن أعرف مصدر ذلك، بالشكل نفسه الذي لا أتحمل فيه الجلوس على مَقعدٍ متحركٍ، حين يأخذنا الشراع أو التيار بشكلٍ منتظمٍ أو يتمُّجرُّنا، فإن هذه الحركة الموحَّدةَ لا تسبِّب لي أي ألمٍ، الحركة المتقطّعة هي التي تؤلمني خاصةً إذا كانت

ضعيفةً، وأنا لا أستطيع أن أصف ذلك بطريقةٍ مغايرةٍ. وكدواءٍ لهذا الأثر المؤسف، أشار عليَّ الأطباء بأن أحزم جيدًا أسفل البطن بفوطةٍ، غير أني لم أحاول ذلك؛ لأني تعودت على الصراع ضد نواقصي وأن أروِّضَها بنفسي.

7. لو كنت عالمًا بتلك الأشياء، لحكيت هنا عن الاستعمالات التي لا تحصى للعربات في الحرب، حسب البلدان والأزمان كما نرى ذلك في كتب المؤرخين، فلقد كانت ضرورية وفعالة؛ لهذا من الغريب أننا لا نتذكر ذلك الآن، سأقول عنها فقط ما يلي: «في زمنٍ قريبٍ، أيام آبائنا، بدأ الهنغاريون يصارعون بفعاليةٍ الأتراك، وفي كل عربةٍ من عرباتهم كان هناك جنديٌّ مجهزٌ بدرقةٍ وآخر ببندقيةٍ، والعديد من البنادق مجهزة وقابلة لإطلاق النار، والكل محميٌّ بحصنٍ من الدرَقات كما في السفن الحربية الصغيرة، كانوا يصُفُّون ثلاثة آلافٍ من هذه العربات في نظامٍ حربيٍّ في الجبهة، وحين تُطلَق قذائف المدافع، كانوا يطلقونها بسرعةٍ على الخطوط الأمامية للعدوِّ، ويصاحبونها بالطلقات النارية دفعةً واحدةً قبل أن يهاجموا بقية الجيش، وهو ما كان يمنحهم تفوقًا كبيرًا، كما أنهم كانوا يطلقونها على فيالق العدوِّ ليشتتوها ويفتحوا لأنفسهم بينها ممرًا لهم، كانت تلك العربات تشكل أيضًا عونًا يمكن وضعه في المناطق الحرجة، على أطراف فيالق المُشاة في البادية، أو لحماية معسكرٍ تمت إقامته بسرعةٍ وتحصينه. وفي زمني، في أحد الحدود، كان أحد النبلاء ثخينًا ولا يجد جوادًا يتحمل ثِقَلَه، وقد كان مهددًا بالخطر في كل نزاعٍ، فكان يعبر البلاد في عربةٍ من ذلك النوع ويحس براحةٍ كبرى فيها. لكن لنترُكِ العربات ذات الاستعمال الحربي، فالملوك الآخِرُون من العائلة الملكية الأولى في فرنسا،كانوا يركبون في عرباتٍ تجرها أربعة ثيران، حين كانوا يتنقلون في أرجاء البلاد، كما لو كان ذلك يجعلنا نجهل كسلهم وخمولهم.

8. كان ماركوس أنطونيوس أول من كان يجر عربته بليوثٍ في روما مصحوبًا بامرأةٍ موسيقيةٍ، وقد فعل الإمبراطور هيليو غابالاوس في ما بعد الشيء نفسه حاسبًا نفسه كيبيلي أمَّ كافة الآلهة، وكان يحاكي الإله باخوس بجر عربته بالنمور، كما أنه قام بجرها مرتيْن بوعولٍ ومرةً

أخرى بأربعة كلابٍ، وأخيرًا بأربع فتياتٍ عارياتٍ وهو راكبٌ عربته عاريًا أيضًا[1]. أما الإمبراطور فيرموس فقد جرَّ عربته بنعاماتٍ ذات حجمٍ هائلٍ بحيث كان يبدو كما لو أنه يطير.

9. تجعلني غرابة هذه الابتكارات أفكر في أن ذلك سمة حقارة العقل لدى الملوك، وشهادةٌ على أنهم لم يكونوا يكتفون بما هم عليه، بل يسعون إلى التظاهر والبحث عن تقديرٍ من خلال تبذيرٍ مفرطٍ للأموال، كان الأمر سيكون قابلًا للعذر في بلدٍ أجنبيّ؛ لكنه بين رعاياه حيث سلطته مطلقة، فإن موقعه نفسه يجعله في أعلى مراتب الشرف التي يمكن أن يحصل عليها. وقِسْ على ذلك أمر شخصٍ نبيلٍ، فهو يبدو لي أنه ليس بحاجةٍ لأن يلبس بشكلٍ بالغ التميز؛ لأن بيته وخدمه ومطبخه، كل هذا يشهد بما يكفي على نبله.

10. النصيحة التي قدمها إيسوقراطيس للملكه تبدو لي معقولةً: «أن يكون باذخًا بأثاثه وأدواته؛ لأن تلك مصاريف بُذِّرت في أمورٍ نافعة، لكن عليه أن يتفادى أنواع الفخامة التي تغيب للتوِّ في الاستعمال والذاكرة».

11. حين كنت شابًا كنت أحب الثياب الفاخرة، وذلك أمرٌ كان ملائمًا لي. ثمة بعض الناس تكون عليهم الثياب الفاخرة نشازًا، ونحن نعرف حكاياتٍ مدهشةً عن بساطة ملوكنافي علاقتهم بأنفسهم كما بمواهبهم، لقد كانوا ملوكًا كبارًا بهيبتهم وقيمتهم ومصائرهم. كان ديموستينيس يحارب بمغالاةٍ شرائع بلاده، التي كانت تبذِّرُ أموال الشعب في الألعاب والحفلات، كان يرغب في أن تظهر عظمة أثينا في عدد سفنها المجهزة وجيوشها المسلحة.

تكاليف القصر

12. كان الناس على حقٍّ في معاتبة ثيوفراستوس الذي كان يساند موقفًا

(1) Lamprius, **Historiae augustae scriptores Héliogabale,** XXVIII-XXIX.

مناقضًا لذلك في كتابه «عن الثروات»، بقوله: إن ما يُصرف على القصر يفصح عن رخاءٍ معينٍ. يقول أرسطو: إنها ملذاتٌ لا تهم غير العامة من الناس الذين ينسوْن ذلك حالما يحصل لديهم الشبع، فلا أحد من الناس الجديين يمكنه أن يمنحها التقدير، يبدو لي أن تلك الأموال يمكن استخدامها بطريقةٍ ملكيةٍ؛ لأنها ستستخدم بشكلٍ دائمٍ ونافعٍ في تهيئة المرافئ والمراسي والتحصينات والأسوار، وتشييد البنايات الفاخرة والكنائس والمستشفيات والثانويات، وتعبيد الطرقات والمسالك؛ ولهذا سوف نتذكر طويلًا البابا غريغوار الثالث عشر، وفي ذلك كانت ملكتنا كاترينا دي ميديشي سوف تفصح ولسنواتٍ طويلةٍ عن كرمها الطبيعيِّ وعن سخائها، لو كانت تتوفر على الوسائل الضرورية لإرضاء أذواقها، لقد خيَّبني القدَر بتوقيف البناء الرائع لـ«الجسر الجديد» بمدينتنا الكبرى باريس[1]، وبنزع الأمل مني في أن أراه شغالاً قبل وفاتي.

13. وفوق كل هذا، يبدو أنهم يقدمون ثرواتهم الخاصة للمتفرجين على تلك الانتصارات، ويتم تسليتهم على حسابهم، فالشعوب تتصور-مثلما نقوم به مع خدمنا- أن الملوك عليها أن تمنحنا بوفرةٍ كل ما يلزمنا، من غير أن يشاركونا في ذلك، وهكذا كان أمر الإمبراطور غالْبا الذي استمتع بعزف موسيقي خلال عشائه، وأمر بإحضار خزنة ماله، وأخذ منها حَفْنَةً من النقود وضعها في يده قائلًا: «ليس هذا مال الشعب، وإنما مالي الخاص». لكن يحدث مرارًا أن يكون الشعب على حقٍّ، وأن يُمنح غالبًا التفرج على ما كان سيصلح لملء بطنه، السخاء نفسه لا يوجد في مكانه الحق في أيدي ملِكٍ، إنه بالأحرى شأن الأشخاص المخصوصين، فإذا نظرنا للأمر عن كثبٍ، فإن الملك لا يملك شيئًا خاصًا به، فهو مَدينٌ بنفسه للآخرين.

14. سلطة العدالة لم توجد لأجل مَن يقول الحق، وإنما لمن ينتمي إليه. إننا لا نمنح مرتبةً ساميةً لشخصٍ كي يخدم فيها مصلحته، وإنما لمصلحة من هم أدْنى؛ فالطبيب يلزم أن يفيد المريض لا نفسه، وكل قضاءٍ كما كل فنٍ يجد غايته خارج ذاته: «فلا أحد ينغلق في ذاته»[2].

(1) لم يكتمل بناؤه بالفعل إلا عام 1608م، في عهد الملك هنري الرابع.
(2) Cicéron, **De finibus**, V, 6.

15. لهذا فإن معلمي الأمراء الشباب-الذين يتشرفون بتعليمهم فضيلة السخاء، وتعليمهم ألا يرفضوا شيئًا، وألا يقدُّروا شيئًا استُعمل بشكلٍ جيّدٍ إلا ما سيمنحون هم بأنفسهم، وهي تربيةٌ شائعةٌ في وقتنا- إمَّا أنهم يهتمون بمصلحتهم الخاصة أكثر من مصلحة سيِّدهم، أو أنهم لا يملكون فكرةً واضحةً عن الشخص الذي يتحدثون معه. من السهل جدًا تعليم السخاء لمن يملك إمكان ذلك على حساب الآخرين، وقيمته لا ترتهن بقيمة الهديَّةِ المقدَّمةِ، وإنما بالوسائل التي يملكها من يقدمها، بحيث إنها تصبح لاغيةً في أيادٍ قويةٍ كتلك. السخاء بذلك لا يستحق أن نوصي به، مقارنةًمع فضائل ملكيةٍ أخرى. فحسب الطاغية ديونيسيوس[1]، السخاء هو الفضيلة الوحيدة التي تلائم الطغيان نفسه، أما أنا فكنت سأعلم بالأحرى الأمير الشاب هذا البيت الشعري للمزارع القديم: «إذا أراد المرء الحصول على محصولٍ جيّدٍ، عليه أن يوزع بيده الحبوب، لا أن يصبها من الكيس». وسأقول له أيضًا إنه إذا كان عليه أن يمنح- أو بعبارةٍ أفضل- أن يؤدي أجرة أناسٍ كُثُر على خدماتهم له، عليه أن يتصرف كموزعٍ وفيٍّ ونبيهٍ لها. إذا كان سخاء أميرٍ من غير تبصُّرٍ ومن غير اتزانٍ، فالأفضل له أن يكون بخيلًا.

16. يبدو أن العدل هو الفضيلة الملكية الأساسية، ومن بين جوانب العدل، ذلك الذي يصاحب السخاء هو ما يمتاز به الملوك بالأساس، ففي الوقت الذي يفوضون لآخرين ممارسة الفضائل الأخرى، يجعلون من هذه الفضيلة شأنهم الخاص. السخاء المفرط وسيلةٌ رديئةٌ لاكتساب العناية؛ لأنه ينفِّرُ الناس أكثر مما يرضيهم.«كلما استخدمناه، كلما قلَّ إمكان استخدامه. أهناك شيءٌ أكثر غباءً من أن يعمل المرء بشكلٍ لا يمكنه معه أن يفعل لوقتٍ طويلٍ ما يحب فعله؟»[2]. وإذا كان هذا السخاء يتمُّ من غير اهتمامٍ بالاستحقاق، فإنه مهينٌ لمن يتلقاه، ويتم تلقِّيه من غير اعترافٍ بالجميل، لقد تمَّ الرَّمي بالعديد من الطواغيت -لكراهية الشعب- على أيدي أولئك الذين نالوا حظوتهم؛ فهذا النوع من الناس قد اعتقدوا فعلًا أنهم يضمنون امتلاك الخيرات التي استقوها بشكلٍ غير سليمٍ، بإظهار الكراهية نحو من منحهم إياها، وبالتواطؤ مع الحكم

(1) Denys l'Ancien, *in* Plutarque (Amyot), **Les dicts notables des anciens Roys**.

(2) Cicéron, **De Officiis**, II, 15.

العقليّ والرأي العام.

17. رعايا الأمير المغالي في عطاياه يصبحون مفرطين في طلباتهم، فهم يتبعون لا العقل وإنما الأمثلة التي تُمنح لهم، والأكيد أن ثمة من وقاحتنا ما يندى له الجبين مرارًا؛ ذلك أننا وبعدلٍ تامٍّ يكون جزاؤنا أكبر، حين تكون المكافأة معادلةً لخِدماتِنا، أفلا ندين منها بقسطٍ إلى أمرائنا بفعل واجباتنا الطبيعية تجاههم؟ فإذا أخذوا على حسابهم مصاريفنا، فهم مبالغون في ذلك؛ إذ يكفيهم فقط أن يساهموا فيها، والفائض يسمى حسنةً، وهو شيءٌ لا يمكن أن نفرضه؛ لأن كلمة «سخاء» نفسها فيها الكثير من حرية النفس، وكما نحس ذلك، فما تلقَّيناه أو نتلقَّاه لا نأخذه في الحسبان، فنحن لا نحب السخاء إلا في ما سيأتي؛ لهذا فكلما جهد الأمير في العطاء كلما صار أفقر من بين الأصدقاء، كيف يمكنه أن يتشبع بالرغبات المتزايدة مع تزايد إرضائها؟ فمن لا يفكر إلا في الأخذ لا يفكر إلا في ما أخذ، وعدم العرفان بالجميل يكون من صلب الطمع.

18. يأتي مثال كورش لكي يكون محكًّا لملوك هذا الزمن، ويمكِّنهم من معرفة إذا كانت أعطياتهم تستخدم بشكلٍ جيِّدٍ أو سيِّئٍ، ويبيِّن لهم أن هذا الإمبراطور كان يمنحها بالأكثر من السعادة التي يُبينون عنها، ذلك أنهم ينتهون إلى الاستدانة من أشخاصٍ لا يعرفونهم، وفي غالب الأحيان من أولئك الذين أساؤوا إليهم أكثر من أولئك الذين أحسنوا إليهم، والمعونة التي يحصلون عليها منهم لا مجانية فيها غير الاسم. كان كرويسوس يُعيب على كورش سخاءه ويحسب كم سيكون عليه كنزه لو لم يكن مثقوب اليد؛ ولكي يبرر لنفسه سخاء يده بعث برسائل لكافة أنحاء إمبراطوريته، لأعيانها الذين نالوا حظوته، يناشدهم فيها العون في حاجته بأكبر قدرٍ من المال، وإخطاره بذلك القدْر، وحين بلغه ما طلب، وأن كل أصحابه أدركوا أنه لا يكفي منحه قدر ما منحهم بكرمه، بل زادوا على ذلك. وجد أن المبلغ الشامل كان أكثر من الكنز الذي حسبه كرويسوس، حينها قال كورش لهذا الأخير: «لست أكثر عشقًا للثروات من الأمراء الآخرين، بل إني أكثر اقتصادًا منهم. هل رأيت كيف استطعت بثمنٍ قليلٍ أن أكسب كنزًا لا يُقدَّر لأصدقاء كثيرين، وكيف أنهم أمناءٌ

على مالي أوفياء أكثر مما يمكن أن يكونه المرتزقة الذين لا يربطهم بي لا واجبٌ ولا عاطفةٌ. إن خيراتي بهذا الشكل مأمونةٌ أكثر مما لو وضعتُها في صناديق ستجر عليَّ الكراهية والحسد والحقد من الأمراء الآخرين».

19. كان الأباطرة يبررون الطابع النافل للألعاب والاستعراضات الجماهيرية التي ينظمون، بالقول إن سلطتهم تَدين بشكلٍ ما -على الأقل في الظاهر- لإرادة الشعب الرومانيّ، الذي ظل متعوّدًا على أن يحس بالإطراء بهذا الضرب من الفرجة والإفراط فيها. لكن الذين خلقوا العادة في أن يمتعوا المواطنين والرفقاء بهذه الوفرة والفخامة كانوا أشخاصًا فرديين، وكانوا يقومون بذلك أساسًا من مالهم الخاص. بيْد أن تلك العادة صار لها معنًى آخر حين بدأ السادة يقلدونهم فيها.

20. «**أن يأخذ المرء المال من أصحابه الشرعيين ليوزعه على الغرباء أمرٌ لا يلزم اعتباره سخاءً**»[1]. عندما كان الإسكندر الأكبر يسعى إلى استمالة قلوب المقدونيين بأن أغدق عليهم الهدايا، لقّنه أبوه فيليبّوس درسًا في رسالةٍ جاء فيها: «ماذا؟ هل تريد أن يعتبرك رعاياك كأمين بيت مالهم لا ملكهم؟ تريد أن تستميل قلوبهم؟ افعل ذلك بمحاسنك وقيمتك لا بخزينة مالك».

البهاء الإمبراطوري

21. كان شيئًا جميلًا أن يتم استجلاب عددٍ كبيرٍ من الأشجار الضخمة الخضراء المليئة بالأوراق والأغصان، وغرسها في الحلبات لتمثيل غابةٍ كبيرةٍ ظليلةٍ منظمةٍ، وأن يتمَّ في اليوم الأول فيها إطلاق مئات النعامات ومئات الأيول ومئات الخنازير لتركها بين أيدي الشعب، وفي الغد إبادة مئة أسدٍ هائلٍ في حضرته ومئة فهدٍ وثلاثمئة دبٍّ، وفي اليوم الثالث الأمر بأن يتصارع فيها مئة زوجٍ من المصارعين الرومان. ذلك ما قام به الإمبراطور بروبوس، كانت المدرجات أيضًا جميلة المنظر وهي مكسوةٌ

(1) Cicéron, **De Officiis**, I, 14.

من الخارج بالمرمر المنقوش والمزين بالتماثيل، وفي الخارج بأشياء ثمينةٍ وجميلةٍ=

ها هي حواشيها من الأحجار الكريمة والبوابة مغلفةٌ بالذهب.

=كانت جوانب هذا الفضاء الكبير يشغلها -من فوق إلى تحت- ثمانون صفًا من المدرَّجاتِ، مغلفةً هي أيضًا بالمرمر وبالطنافس=

«قال: فليرحْ، وليتحلَّ بالقليل من الحشمة
وليترك الطنافس المخصوصة للفرسان
هو الذي لا يؤدي ضريبة الفرسان التي فرضها القانون»[1].

=وهي تستوعب مئة ألف شخصٍ فيها بكامل الراحة، أما منصة العمق حيث تتم الألعاب، فيمكن عبر آلياتٍ معينةٍ فتحها، فتظهر بها شقوقٌ تُبين عن مغاراتٍ تلفظ الوحوش المكرَّسة للفرجة، ثم يتم إغراقها بالماء فتصير مثل بحر عميق يجر معه حيتان البحر، وتعبرها السفن المدججة بالسلاح المستعدة لمعركةٍ بَحْريةٍ، ثم يتمُّ إفراغها من الماء وبسطها من جديدٍ للعبة المصارعة، ثم أخيرًا يتمُّ فيها تغطيتها بالرّاتنْج والزِّنجْفَر ليكون ذلك بمثابة رملٍ لتنظيم حفلٍ رائعٍ لذلك العدد الذي لا يُحصى من الناس، فيكون ذلك الفصل الأخير في يومٍ واحدٍ.

«كم من مرةٍ رأينا
الحلبة تنفتح وتنبسط
وتنبثق فيها وحوشٌ كاسرةٌ من الغوْر المنفتح
وتتعالى فيها غابةٌ ذهبيةٌ ذات جذوعٍ زعفرانيةٍ؟
لم نر فقط وحوش الغابة
وإنما فُقماتٌ وسط صراع الدِّببة
وأحصنة البحر

(1) Juvénal, **Satires**, III, vv. 159-161.

القطيع المقرف!»[1].

22. مراتٍ أيضًا بُني فيها جبل شاهق مليء بالأشجار المثمرة المخضرَّة، مع غديرٍ يجري من عليائه كما فم عينٍ لا ينضب معينها، وأحيانًا تمَّ التَّجوال فيها بسفينةٍ هائلةٍ، تنقسم بذاتها لشطرين، والتي بعد أن تلفظ من أحشائها أربعمئة أو خمسمئة وحش مصارعةٍ، تنغلق وتختفي من غير تدخُّلٍ بشريٍّ ظاهرٍ. وفي مرةٍ أخرى تمَّ إطلاق رشات ماءٍ من الأرض نحو السماء بعلوٍ هائلٍ، بحيث ترش الجماهير وتعطِّره؛ وللاحتماء من تقلبات الجو كانوا يبسطون على هذا الفضاء الشاسع غطاءً مطرزًا بالإبرة، يكون أحمرَ قانيًا تارةً وأحيانًا من الحرير بألوانٍ مختلفةٍ، يُبسط أو يُجرُّ في لحظةٍ ومراتٍ عديدةٍ=

«حتى لو كانت شمسٌ حارَّةٌ تسود على الحلبة
يُجر الغطاء حالما يظهر هرموجينيس»[2].

=والشِّباك التي كانت توضع أمام الجماهير لحمايتها من بطش الوحوش التي تنطلق نحوها، كانت منسوجةً من خيوط الذهب=

«الشِّباك نفسها لها بريق الذهب الذي منه نُسجت»[3].

=إذا كان ثمة شيءٌ يقبل العذر في إفراطٍ كهذا، فهو حين يستحق الخيال والابتكار الإعجاب، ليس تكلفة ذلك الإفراط.

23. هذه التفاهات نفسها تجعلنا نكتشف كم كانت تلك العهود تضج بالعقول المختلفة عن عقولنا، وما يسري على هذه الخصوبة يسْري على منتجات الطبيعة الأخرى، وعلينا ألا نعتقد أنها أبانت في ذلك كل ما في جَعْبَتِها، أما نحن فإننا لا نتقدم، إننا ندور حول أنفسنا هنا وهناك، فنحن لا نسير على غير آثار خطانا، وأخشى أن تكون معارفنا ضعيفةً في كل المناحي، فنحن لا نرى بها بعيدًا لا إلى الأمام ولا إلى الخلف؛ فهي

---

(1) Calpurnius, **Églogues,** VII, vv. 64 sq.

(2) مهندس معماريّ في بلاد اليونان القديمة (نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني ق.م).

(3) Calpurnius, **Églogues,** VII, v 53.

لا تحتوي إلا فضاءً صغيرًا، ولا تعيش إلا قليلًا، ولا تغطي إلا مساحةً صغيرةً من الزمن كما من المادة.

«كان هناك أبطالٌ عديدون قبل أغا ممْنون
غير أننا لا نبكيهم
فثمة ليلٌ طويلٌ
يخفيهم»[1].
«قبل حرب طروادة وموت تلك المدينة
كثيرون هم الشعراء الذين أنشدوا أعمالًا جليلةً
أخرى»[2].

معرفة الماضي

وما يحكيه سولون عمَّا علِم من الكهنة المصريين، في ما يتعلق بطول عمر دولتهم وطرائقهم في التعلم والمحافظة على قصصٍ آتيةٍ من بلدانٍ بعيدةٍ، لا يبدو لي شهادةً تُعارض وجهة النظر هذه. «لو كان ممكنًا أن نتأمل كافة أجزاء شساعة البُلْدَان والأزمنة، حيث يمتد العقل ويتعمق من كافة المناحي، ويتجول في كافة الأنحاء من غير أن يحدَّه شيء، فإننا سنكتشف في هذا الفضاء اللامتناهي عددًا لا يحصى من الأشكال»[3].

24. حين سيكون كل ما جاءنا من الماضي صحيحًا، ويكون معروفًا من شخصٍ ما فلن يكون شيئًا كثيرًا مقارنةً مع ما نجهل منه، وكمْ هي ضيقةٌ ومتقلصةٌ المعرفة التي للناس الأكثر فضولًا عن هذا العالم الذي يسير، فيما نحن نعيشه، ليس فقط حين يتعلق الأمر بالأحداث الخاصة، والتي تجعل منها الصدفة عادةً أحداثًا أنموذجيةً وهامةً، وإنما أيضًا حين يتعلق الأمر بحال المجتمعات الكبرى والأمم العظيمة، فما يصل معرفتنا أقل بكثيرٍ مما ينفلت منها. نحن نعتبر معجزة اختراع المدفعية

(1) Horace, **Odes,** IV, 9, vv. 25-27.
(2) Lucrèce, **De la Nature,** V, vv 326-327.
(3) Cicéron, **De Natura Deorum,** I, xx.

والمطبعة؛ بيد أن أناسًا آخرين في الطرف الآخر من العالم كانوا يعرفونهما منذ أكثر من ألف عامٍ من قبلُ. لو كان لنا أن نرى جزءًا كبيرًا من العالم غير ذلك الذي لا نرى، فإننا سندرك حتْمًا تعددًا كبيرًا في الأشكال وتغيرًا دائمًا فيها، ليس ثمة في الطبيعة من شيءٍ نادرٍ وفريدٍ، فذلك لا يوجد إلا في معرفتنا، التي هي القاعدة الفقيرة لقواعدنا، والتي لا تمنحنا عمومًا سوى صورةٍ زائفةٍ جدًا عن الأشياء، هكذا نخلُص اليوم إلى انحطاط العالم وشيخوخته، بفضل الأدلة التي نستنتجها من ضعفنا وانحطاطنا، ما دامت الحقيقة هي أن عمرنا قد فقد قواه وخصوبته[1]،وذلك الشاعر الآخر استنتج أن ولادة العالم وشبابه نافلةٌ أيضًا بالنظَّر إلى القوة التي وجدها في عقول زمنه، الخصبة بالابتكارات والمستجدات في مختلف الميادين.

«كل شيءٍ-في رأيي-جديدٍ وحادثٍ في هذا العالم
فهو لم يولد إلا قبل قليلٍ، لهذا اليوم
بعض الفنون لا تزال تتحسَّن وتتقدم
كما في أيامنا هذه، انضافت العديد من الأشياء للسفن»[2].

العالم الجديد

25. لقد اكتشف عالمنا عالمًا جديدًا، ومن يضمن لنا أنه العالم الأخير من بين إخوته لأن الشياطين والعرافات ونحن كنا نجهله إلى اليوم؟ إنه عالمٌ ليس بأقل كِبَرًا من عالمنا ولا أقل امتلاءً وكثافةً، غير أنه لا زال شابًا وصبيًّا بحيث نعلِّمُه أبجديته، فمن خمسين سنةً خلت، لم يكن ذلك العالم يعرف الآداب، ولا الأوزان، ولا القياسات، ولا الثياب، ولا القمح، ولا الكروم؛ كان عاريًا تمامًا في حضن أمه الطبيعة، ولم يكن يعيش إلا بفضلها، وإذا نحن قدَّرنا جيدًا نهايتنا الآجلة، كما فعل ذلك تيتوس لوكريتيوس كاروس بصدد شباب زمنه، فهذا العالم الآخر

(1) Lucrèce,**De la Nature**, II, v. 1136.

(2) Lucrèce, **De la Nature**, V, vv. 330 sq.

سيأتي للوجود حين يخرج منه عالمنا، وسوف يُصاب الكون بالشلل، بحيث إن أحد أطرافه سيكون مشلولًا فيما سيكون الآخر في كامل قواه.

26. أخشى أن نكون قد سرَّعنا بشكلٍ كبيرٍ من انهياره ودماره بعَدْوانا، وأننا قد جعلناه يؤدي الثمن بأفكارنا وتقنياتنا. لقد كان عالمًا غارقًا في طفولته، ومع ذلك لم نروّضه ولا أخضعناه لقواعدنا فقط بفضل قيمنا وقُوانا الطبيعية، نحن لم نغزه بعدلنا وخيرنا ولا أخضعناه بشهامتنا، فأغلب الأجوبة التي قدَّمها لنا أناس ذلك العالم، والمفاوضات التي قمنا بها معهم قد بيَّنت أنهم لا يَدينون لنا بشيءٍ في مجال وضوح الذهن الطبيعي ولا في الوجاهة، فالروعة الباهرة لمدنٍ مثل كوسكو ومكسيكو[1]، ومن بين العجائب الأخرى حدائق ذلك الملك حيث كافة الأشجار والثمار والعشب، بالنظام نفسه والطول ذاته، كانت من الذهب الخالص، وكذلك في قاعة عجائبه كل الحيوانات بأنواعها المختلفة التي توجد في بلده وفي بحاره، بجمال نحتها بالمجوهرات والريش والقطن أو بالرسم. كل هذا يبيّن جيدًا أنهم لم يكونوا أقل مهارةً وحذقًا منا، أما بشأن الورع واحترام الشرائع والطيبة والسخاء والصراحة، فقد كانت فائدتنا في أن نكون أقلَّ منهم في ذلك، وهذه الميزة هي التي أضلَّتهم، بحيث باعوا أنفسهم وخانوها بأنفسهم.

معركةٌ غير متكافئةٍ

27. أما الجرأة والشجاعة والحزم والثبات والتصميم إزاء الألم والجوع والموت، فلا أخشى من أن أعارض النماذج التي أجدها من بينهم مع نماذج القدماء، التي ترسَّخت في ذاكرتنا في عالمنا هذا. وفعلًا، إذا نحن أخذنا في الحُسبان الدهشة المفهومة لأناس تلك الشعوب وهي ترى فجأةً أناسًا ملتحين يأتون إليهم - ويتكلمون لغةً مغايرةً، ولهم دينٌ آخر، ومختلفون في هيئتهم وعوائدهم- من عالمٍ بعيدٍ لم يعرفوا أبدًا إن كان معمورًا، يمتطون وحوشًا هائلةً مجهولةً، وهم لم يروْا جوادًا ولا دابةً مروَّضةً

(1) المصدر الذي يستقي منه مونتيني هنا كما في مواضع أخرى من «المقالات» معارفه عن العالم الجديد هو كتاب «التاريخ العام لبلدان الهند الغربية» للوبيز دو غومارا، الذي كان سكرتيرًا لكورتيس.

يمتطيها بشرٌ أو تحمل أثقالًا، وإذا ما أخذنا في الحسبان أنهم وجدوا أنفسهم أمام أناسٍ لهم بشرةٌ ناصعةٌ وصُلبةٌ وسلاحٌ بتَّارٌ وبراقٌ، هم الذين من أجل بريق مرآةٍ أو سكينٍ كانوا مستعدين لتبادل ثرواتٍ كبرى من الذهب واللؤلؤ، وليس لهم أي وسيلةٍ ولا أي معرفةٍ كي يخترقوا حديدنا، وزدْ على ذلك الصاعقة والرعود التي تطلقها آلاتنا المدفعية وبنادقنا، التي كانت قادرةً على أن تدخل الرعب إلى قلب يوليوس قيصر نفسه، بالنظر إلى دهشتهم وعدم تجربتهم أمام أسلحةٍ من قبيل تلك، فإذا ما أخذنا في الحسبان بأن كل هذا قد تمَّ إزاء شعوبٍ عاريةٍ إلا في المناطق التي ابتكروا فيها بعض القُماش من القطن، والتي لم تكن تملك أسلحةً غير القوس والحجر والعصيِّ والدرَقات من الخشب، شعوبٌ تمت مباغتتها بذريعة الصداقة وحسن النية، بفضول رؤية أشياء غريبةٍ وغير معروفةٍ، وإذا ما أخذنا بالحسبان أخيرًا الحيل والمناورات التي استخدمها من أخضعوا تلك الشعوب لكي يخدعوها، ونترك جانبًا كل ما منح الغزاةَ امتيازًا كبيرًا، فإننا سنَنْزِع عنهم في الآن نفسه كل ما جعلهم يحوزون على كل تلك الانتصارات.

28. حين أتأمل الحماس الجامح الذي تعرَّض به الآلاف من الرجال والنساء والأطفال للمخاطر المحيقة بهم؛ دفاعًا عن آلهتهم وحريتهم، وعن ذلك العناد النبيل في تحمل كل المصاعب القصوى حتى الموت، على أن يستسلموا لسيطرة أولئك الذين خدعوهم بشكلٍ مخجلٍ، وحين أرى أن بعضهم قد فضَّلوا أن ينصاعوا للموت جوعًا في أَسْرِهم، على أن يقبلوا الطعام من يد أعدائهم المنتصرين بجبنهم، يمكنني القول مسبقًا إنهم لو هاجموهم بتساوٍ في السلاح والتجربة والعدد، فإن الخطر كان سيكون علينا أكبر من أي حربٍ عرفناها سابقًا.

29. يا للأسف الشديد! لأن هذا الغزو النبيل لم يكن على يد الإسكندر الأكبر أو أولئك الإغريق والرومان ، وأن هذا التحول الكبير في العديد من الإمبراطوريات والشعوب لم يكن على أيدٍ كانت ستصقل بلطفٍ وتغيِّرُ ما كان هناك من عناصر متوحشةٍ، مطوِّرةً ومعزِّزةً البذرور الطيبة التي أنتجتها فيها الطبيعة، مازجةً ليس فقط زراعة الأراضي وزخرفة المدن

بتقنيات عالمنا-مقدار ما كان ذلك ضروريًا- وإنما أيضًا مازجةً الفضائل اليونانية والرومانية بالفضائل الأصلية لتلك البلاد، كم كان ذلك سيكون أفضل، وكم كان ذلك سيكون تحسُّنًا للأرض بكاملها، لو كانت النماذج الأولى التي قدَّمنا لهم وسلوكنا الأول هناك،قد أثار الإعجاب لدى تلك الشعوب، وحثَّ فيهم تقليد الفضيلة، ولو أنهم نسجوا بيننا وبينهم علاقات التحالف الأخويّ، وكم كان سيغدو من السهل حينها الاستفادة من نفوسٍ جديدةٍ كل الجدة، ومتعطشةٍ للتعلم ما دام لها في أغلبها استعدادٌ فطريٌّ لذلك.

مساوئ الغزو

30. على العكس من ذلك، استغللنا جهلهم وانعدام تجربتهم؛ كي نجرهم بشكلٍ أسهل إلى الخيانة والفسق والجشع وإلى كافة أنواع اللاإنسانية والقسوة، تبعًا لأنموذج ومثال عوائدنا الخاصة. هل سبق أن كان للمصلحة التِجَارية الربح بهذا الثمن الباهظ؟ كم من مدينةٍ دُمرت ومن شعبٍ أُبيد بحدِّ السيف، بل وأغنى وأجمل منطقةٍ في العالم زُرع فيها الاضطراب لمصلحة تجارة اللؤلؤ والفلفل، يا لها من نتيجةٍ باهرةٍ! لمْ يدفع الطموح والعداوة أبدًا بني البشر -البعض منهم ضد البعض الآخر- لهذه الحروب والخراب المروع.

31. وجد الإسبان أنفسهم وهم يسيرون بمحاذاة الساحل بحثًا عن المناجم قرب بطحاء خصبةٍ ورائقةٍ ومأهولةٍ، فقاموا بالتصريحات المعتادة لهذا الشعب: «نحن أناسٌ مسالمون، وصلنا هنا بعد رحلةٍ طويلةٍ، مبعوثين من ملك قشتالة-أعظم أمير في المعمورة- الذي منحه البابا-ممثل الرب- النفوذ والسلطة على كافة أراضي الهند الغربية، إذا قبلتم أن تكونوا رعايا هذا الملك، فستعاملون أحسن معاملةٍ، وسنطلب منكم المؤونة لطعامنا والذهب الضروريَّ لدوائنا، وعليكم أيضًا أن تقبلوا الإيمان بإلهٍ واحدٍ وحقيقة ديانتنا، التي ننصحكم بالاعتقاد فيها». وأضافوا إلى ذلك بعض التهديدات.

32. وكان الجواب هو التالي: «أما أنكم أناسٌ مسالمون، فليس لكم هيئة ذلك، هذا إذا كنتم كذلك. أما ملكم، فإذا كان يطلب شيئًا فهذا يعني أنه فقيرٌ ومحتاجٌ، ومن قام بتقسيم الأرض هكذا لا يمكن إلا أن يكون إنسانًا يحب الشقاق؛ حتى يمنح لشخصٍ شيئًا ليس في ملكه، ويجعله بذلك في نزاعٍ مع مالكيه القدامى. أما المؤونة فسنمنحكم إياها، وأما الذهب فليس لنا منه الكثير؛ لأنه شيءٌ لا نوليه أهميةً كبرى؛ إذْ هو غير نافعٍ لحياتنا، وهمنا الوحيد أن نعيش في سعادةٍ وهناءٍ. أما فكرة الإله الواحد فهي قد أثارت اهتمامنا، غير أننا لا نريد ترك ديانةٍ كانت نافعةً لنا لوقتٍ طويلٍ، وعادتنا ألا نقبل النصح إلا من أصدقائنا ومعارفنا. وأما التهديدات فهي علامةٌ على خطإٍ في الحكم، وتهديد أناسٍ لا تعرفون طبعهم ومواردهم؛ ولذلك أسرعوا في الرحيل عن أرضنا؛ لأننا لم نعتد على العناية بغرباء مسلحين، وفي الحالة المعاكسة سنفعل معكم ما فعلنا مع الآخرين». ثم إنهم أروهم رؤوس المعذَّبين التي كانت تحيط بمدينتهم. هذا كان مثالًا عن تعتعة هؤلاء «الأطفال» المزعومين. لكن، مهما كان الحالفي هذا المكان كما في أمكنةٍ أخرى، حيث لم يعثر الإسبان على الكنوز التي يبحثون عنها، لم يتوقفوا بها ولم يقوموا بغاراتٍ حربيةٍ، مهما كانت الامتيازات التي استخلصوها منها. «وأكلة لحم البشر الذين تحدثت عنهم، يمكنهم أن يشهدوا على ذلك»[1].

كيفية معاملة ملوكهم

33. من بين الملكيْن الأكثر قوةً في ذلك العالم - وربما الأكثر قوةً في عالمنا هذا لأنه كان ملكًا لملوك عدة- والأخيريْن اللذين طردهما الإسبان، كان أحدهما ملك البيرو، وقد تمَّ أسره خلال إحدى المعارك، وإكراهه على دفع فدْيةٍ أكبر من أن يتقبَّلها العقل، ومع ذلك أداها بوفاءٍ، وقد أبان بسلوكه ذاك عن علامات قلبٍ صريحٍ وحرٍّ وحازمٍ، وعن عقلٍ واضحٍ ومكتملٍ. وكان الغالبون الإسبان قد ابتزوا منه مليونًا وثلاثمئةٍ وخمسةً وعشرين أوقيةً من الذهب، من غير حساب الفضة وغيرها الكثير

(1) انظر الكتاب الأول، الفصل الثلاثين.

من الأشياء التي لا تقلُّ قيمتها عن الذهب، بحيث إن خيولهم لم تكن مصفَّحةً إلا بالذهب الخالص، بيْد أن الرغبة جاءتهم-ولو كان ذلك من باب الخيانة- في أن يعرفوا ما تبقى من كنز هذا الملك، والسَّلب التام لما احتفظ به لنفسه. فقام الإسبان باتهامه بتحريض أقاليمه على التمرُّد لتحريره من الأسر بأدلةٍ مزيفةٍ، ومن خلال محاكمةٍ حاكها أصحاب المؤامرة، قُضِي عليه بالقتل شنقًا أمام الملأ، وتمَّ حرقه حيّاً بإجباره على التعميد كي يحظى بالخلاص خلال عذابه، إنها معاملةٌ بشعةٌ وغير مسبوقةٍ، تحمَّلها من غير أن ينهار بجلَدٍ وبعباراتٍ ذات فحوًى وصرامةٍ مَلكييْن؛ ولكي يخدِّروا الشعوب المندهشة والمصعوقة بمعاملةٍ استثنائيةٍ كتلك، قاموا بتنظيم حدادٍ كبيرٍ عليه، وأمروا له بجنازةٍ فخمةٍ.

34. أما الملك الثاني لمكسيكو، فقد دافع طويلًا عن مدينته المحاصرة، وأبدى خلال الحصار عن صبرٍ وجلَدٍ كبيريْن، كما لم يقمْ به ملكٌ وشعبٌ من قبله، لكنه سقط للأسف حيًّا بين أيدي الأعداء، واستسلم لهم بشرط أن يُعامل معاملة الملوك، بل إنه لم يُبن لهم في سجنه عن أي شيءٍ لا يليق بهذا اللقب، وما دام الإسبان لم يعثروا بعد هذا النصر على الذهب الذي منُّوْا النفس به، وبعد أن بحثوا عنه وفتشوا في كل مكانٍ، سعوا إلى الاستخبار عن ذلك بكيْل كافة أنواع العذاب للأسرى الذين كانوا تحت رحمتهم، لكن بما أنهم لم يصلوا إلى شيءٍ أمام أناسٍ أقوى من كافة معاملاتهم الوحشية، أصيبوا بحنقٍ كبيرٍ بحيث إنهم ضدًا على العهد الذي أعطوا، وخرقًا للقانون الإنساني الأكثر أوليةً، قاموا بالحكم بالتعذيب على الملك نفسه وأحد الشخصيات المهمة في بلاطه، أحدهما في حضرة الآخر، ومن شدة العذاب والألم هلك ذلك الشخص، محاطًا بالمِحْرقات الملتهبة، وهو يلقي على ملكه نظرةً مثيرةً للشفقة، كما ليطلب العذر منه لأنه لم يعد يتحمَّل، حينها غرس الملك نظره بفخرٍ وثقةٍ في عينيه معاتبًا إياه على جبنه، وقال له فقط هذه العبارة بصوتٍ قاسٍ وحازمٍ: «وأنا؟ هل تعتقد أني آخذٌ حمامًا؟ هل أنا في وضعٍ مريحٍ أكثر منك؟». ثم إن الآخر أسْلم الروح من فرْط الألم، وبعدها نقلوا الملك وقد أخذت منه الحروق مأخذها، ولم يكن ذلك من باب الشفقة؛ إذْ متى كانت الشفقة لتصيب قلوبًا بتلك الوحشية؟ فلكي يحصل الإسبان

على أي معلومةٍ عن إناءٍ من الذهب لنهبه، كانوا قادرين على قتل شخصٍ حرقًا، حتى لو كان ملكًا له من العظمة والقيمة ما حباه به القدَر، بيْد أن ثباته قد جعل في الحقيقة من وحشيتهم أكثر فأكثر خزْيًا، ثم إنهم قاموا بعد ذلك بشنقه حين حاول التخلص بالسلاح من أسره الطويل ومن إخضاعه بالإكراه، وهكذا وضع حدًا لحياته بشكلٍ يليق بملكٍ ذي مزايا عظيمةٍ.

وحشيةٌ لا فائدة من ورائها

35. وفي مرةٍ أخرى عمدوا إلى إحراق أربعمئةٍ وستين شخصًا جماعةً في محْرقةٍ واحدةٍ، أربعمئةٍ من الشعب، وستين شخصًا من أعيان مقاطعةٍ أخرى كانوا فقط أسرى حربٍ، ومنهم نستقي هذه القصص، فهم لا يكتفون بالاعتراف بها، بل يتباهوْن بها وينشرونها[1]. هل كان ذلك للشهادة على اهتمامهم بالعدالة، أم بحماسهم إزاء الدين؟ بالتأكيد لا.إنها أعمالٌ منافيةٌ تمامًا ومعارضةٌ كليةٌ لغايةٍ مقدسةٍ كتلك، لو كانت غايتهم نشر ديننا كانوا سيدركون أن ذلك لا يتمُّ بالاستحواذ على الأراضي، وإنما بامتلاك الناس، ولَكانوا اكتفوْا بالقتل الذي تتسببت فيه ضروريات الحرب من غير أن يضيفوا إليه تلك المجزرة، كما لو كان الأمر يتعلق بحيواناتٍ متوحشةٍ. إنها مجزرةٌ عامةٌ صنعوها بالحديد والنار، بحيث لم يحتفظوا إلا بالعدد الضروريِّ من أناس ذلك الشعب، ليحولوهم إلى عبيدٍ بائسين يشغِّلونهم في الكدح في مناجمهم؛ بل كان ذلك إلى حدِّ أن العديد من زعمائهم، الذين تعرَّضوا من جراء صنيعهم ذاك للتحقير والمقت، قد عوقبوا بالموت في أماكن غزوهم بأمرٍ من ملوك قشتالة، الذين استاؤوا كثيرًا من بشاعة تصرفهم مع الهنود، وقد سمح الله بعدله أن تتعرَّض حصائل عمليات النهب الكبيرة تلك للضياع، بعد أن ابتلعها البحر عندَ نقلها، أو خلال حروبٍ اندلعت بينهم وتقاتلوا فيها، وأغلب أولئك الناس دُفنوا في تلك الأمصار من غير أن يجنوا أي ثمرةٍ من انتصارهم.

---

(1) كان غومارا مؤلف الكتاب بالفعل إسبانيًا.

36. والغنيمة التي راكموها هكذا، وقدْ وضعت بين يدي ملكٍ مقتصدٍ وحكيمٍ[1] ، لم تكن في مستوى الأمل الذي أُعطي لسابقيه من الملوك، ولا في مستوى وفرة الخيرات التي تم اكتشافها في البداية. فمع أنهم استقوا منها الكثير، لم يكن ذلك بمقدار ما كان يُنتظر منها. فاستعمال النقود لم يكن معروفًا البتَّة في العالم الجديد، ومن ثم فإن الذهب الذي عثروا عليه كان متراكمًا هناك، ولا يُستعمل إلا في الاستعراضات والاحتفالات، مثل أثاثٍ يُتوارث أبًا عن جدٍّ، ويحافظ عليه ملوكٌ كانوا يستغلون جيدًا مناجمهم؛ كي يراكموا كومةً من الآنية والتماثيل المنذورة لزينة قصورهم ومعابدهم. أما لدينا، فعلى العكس من ذلك، يُستعمل الذهب في النقود والتجارة، ونصنع منه قطعًا صغيرةً، ونمنح له شتى الأشكال، وننشره ونتداوله. فهل يمكننا أن نتصور - ولو لحظةً - أن يكدس ملوكنا الذهب كله الذي حصلوا عليه خلال القرون السالفة ليحتفظوا به من غير استخدامه؟

37. كان سكان مملكة مكسيكو أكثر تمدُّنًا وتقدمًا في تقنياتهم مما كان عليه سكان الأمم الأخرى هناك؛ لهذا كانوا يعتقدون مثلنا أن الكون قريبٌ من نهايته، وقد كانت علامة ذلك لديهم الخراب الذي أحدثنا فيه، كانوا يعتقدون أن كينونة العالم تنقسم إلى خمسة عصورٍ موسومةٍ بخمسة شموسٍ مختلفةٍ، انقضى منها زمنُ أربعة شموسٍ، وأن الشمس التي تنيرهم هي الخامسة. العصر الأول باد مع كافة المخلوقات بفعل طوفانٍ عظيمٍ، والثاني بفعل سقوط السماء على الأرض، وهو ما خنق كافة الكائنات الحية، وهم يحددون هذا العصر بوجود العمالقة الذين أروا عظامهم للإسبان، والذين تصل قامتهم حسب تقديرهم إلى عشرين «راحةَ يدٍ» أما العصر الثالث فباد بالنار التي أتتْ على كل شيءٍ وأحرقته والتهمته. والرابع، حصل فيه هبوب ريحٍ صرْصرٍ عاتيةٍ دكت العديد من الجبال وأتتْ على كل شيءٍ، ولم يندثر فيه بنو البشر، وإنما تحولوا إلى قردةٍ. انظروا إلى أي حدٍ يمكن أن تسير السذاجة البشرية! وبعد موت الشمس الرابعة هذه، ظل العالم لخمسٍ وعشرين سنةً غارقًا في الظلام الدامس، وفي السنة الخامسة عشرة من هذه الفترة، خُلق الرجل

(1) فليب الثاني ملك إسبانيا، المتوفى عام 1598 م.

ومعه المرأة، فتناسلا وأعادا تكوين الجنس البشري، عشر سنواتٍ بعد ذلك، وفي يومٍ ما ظهرت لهم الشمس التي خُلقت حديثًا، وحسابُ أعوامهم يبدأ من ذلك اليوم، وفي اليوم الثالث من سطوع الشمس، ماتت الآلهة القديمة ووُلدت من حينها الآلهة الجديدة شيئًا فشيئًا. ولم أجد لدى المؤلف الذي استقيت منه كل هذا خبرًا عن كيفية تفكيرهم في موت هذه الشمس بدورها، لكنَّ عدد السنوات التي يحسبون منذ التغيير الرابع في الكون، يوافق التلاقي الكبير للكواكب الذي حدث منذ ثمانمئة سنةٍ، حسب تقديرات علماء الفلك، والذي كان وراء العديد من التغيرات الكبرى في العالم.

38. وبخصوص الأبهة والروعة والفخامة التي أدت بي إلى الحديث عن كل هذا، فلا بلاد اليونان ولا روما ولا مصر يمكنها أن تقارن - من باب المنفعة والصعوبة - أيًا من مآثرها الفنية مع الطريق الذي يمكننا رؤيته في البيرو، والذي شقَّه ملوك ذلك البلد منذ مدينة كيتو حتى مدينة كوسكو، ويبلغ طوله مئة فرسخٍ[1] بخطٍ مستقيمٍ، وعرضه خمسٌ وعشرون خطوةً، ومبلّطٌ ومحاطٌ من كل جانبٍ بسورٍ عالٍ، تسيل فيها غدرانٌ رقراقةٌ تحدّها أشجارٌ باسقةٌ تسمى «الموليس» وحين صادفوا جبالًا وصخورًا، دكوها ونحتوها وردموا المستنقعات والحفر بالحجر والجير، وفي كل محطةٍ من الطريق تجد قصورًا مليئةً بالمؤونة والملابس والأسلحة الخاصة بالمسافرين، كما بالجيوش التي تمر منها. وفي تقديري لهذه المأثرة، أخذت بالاعتبار الصعوبة التي كانت ذات أهميةٍ خاصةٍ في تلك المناطق، فقد كانوا يبنون بأحجارٍ مربعةٍ يفوق ضلعها عشر أقدامٍ، ولم يكن لهم من وسيلةٍ لنقلها -بجرّها -غير قوة سواعدهم. وهم لم يكونوا يعرفون فن الإسْقالات، ولم يكونوا يتوفرون على وسائل أكثر تقدمًا، غير تلك التي تتمثل في وضع التراب أمام الصرح لمتابعة البناء، ونزعه عند تمامه.

39. وعَوْداً لعرباتنا، فعوضا عنها وعوضًا عن أي وسيلة نقلٍ، كانوا يتنقلون محمولين على أكتاف الرجال. وآخر ملكٍ للبيرو، وفي اليوم الذي سقط

(1) بين المدينتين في خرائطنا اليوم أكثر من 1600 كلم بالطائرة.

فيه أسيرًا، كان محمولًا على مخْملٍ من الذهب، جالسًا على عرشٍ من الذهب وسط جيوشه المحاربة، وكلما أصاب الإسبان حمالًا كي يسقطوه عن محمله -لأنهم كانوا يرغبون في أسره حيًّا- كان رجلٌ آخرُ يأخذ مكان الميت، بحيث لم يستطيعوا أبدًا إسقاطه، مهما حاق القتْل بحماليه، حتى جاء فارسٌ وأمسكه من خصره وطرحه أرضًا.

الفصل السابع

عن مساوئ العظمة

1. ما دمنا لا يمكننا أن نمسَّ العظمة؛ لننتقمْ منها بقول السوء عنها، وفي كل الأحوال فليس الأمر اغتيابًا فيها بقدر ما هو بحثٌ عن عيوبها؛ فالعيب يوجد في كل شيءٍ مهما كانت جميلةً ومرغوبًا فيها. والعظمة تملك عمومًا هذا الامتياز في أن تتواضع حين يحلو لها ذلك، وأن يكون لها الاختيار بين هذا المظهر أو ذاك، فلا شيء يسقط من أي مستوًى من العلْياء. ثمة علياء يمكننا أن ننزل منها من غير أن نسقط، وهي الأكثر عددًا ووفرةً، أما هذه العظمة، فيبدو لي أننا نمنحها قيمةً أكبر مما تستحق، ونقدِّرُ أكثر تصميم من رأيناهم يسعون لها، أو من سمعنا أنهم يمقتونها، أو تخلوا عنها طواعيةً، وفي نهاية الأمر فهي عظمةٌ لا تمنح امتيازاتٍ مهمةً، بحيث إن رفضها يُعتبر أمرًا خارقًا. فإذا كنتُ أجد من الصعب تحمُّل آلامنا، فإن الاكتفاء بمصيرٍ منحطٍّ والتخلي عن العظمة أمرٌ لا يبدو لي أنه يتطلب جهدًا كبيرًا. إنها فضيلةٌ يمكنني-أنا الذي ليس سوى شخصٍ من بين عامة الناس- أن أبلغها من غير صعوبةٍ في ما يبدو لي. لكن، ما القول في أولئك الذين يرغبون في الاستفادة من المجد المصاحب لذلك الرفض؟ إنه مجدٌ يمكن أن يُخفي طموحًا أكبر من الرغبة في العظمة وملذاتها، خاصةً وأن الطموح لا يتوجه أبدًا بشكلٍ جيِّدٍ-في نظري- إلا من خلال سبيلٍ متعرِّجةٍ وغير مطروقةٍ.

2. وإني لأشحذ شجاعتي بالصبر، وأضعفها بالرغبة، فأنا لي أمانيٌّ بالقدر الذي لأيِّ شخصٍ آخرَ، وأترك لها الحرية والجموح اللازميْن. لكن مع ذلك،لم يحدث لي أن أتمنى إمبراطوريةً أو مملكةً، ولا أيضًا عظمةً لتلك المصائر السامية المنذورة للحكم والقيادة. أنا لا أستهدف شيئًا من ذلك الجانب، فأنا أحب نفسي بإفراطٍ، حين أفكر في السموّ، فذلك بنموٍّ محدودٍ ومتردّدٍ في الحزم والحكمة والصحة والجمال وكذا في الثروة، ولشخصي فقط، لكن هذا التأثير وتلك السلطة البالغة القوة تسحق مخيلتي، وعلى عكس يوليوس قيصر، أفضِّلُ أن أكون الثاني أو الثالث في مدينة بيريغو على أن أكون الأول بباريس، أوبالأحرى-وعلى الأقل، ومن غير كذبٍ- ثالثًا لا أولًا في المناصب العليا بباريس، لا أريد أيضًا أن أتناقض مع عوْنٍ قضائيٍّ مثل أي إنسانٍ مجهولٍ بائسٍ، مثل ما لا أريد أن تفتح لي الحشود الطريق علامةً على التقديس. أنا متعودٌ على مرتبةٍ

متوسطةٍ، بفعل الصدفة وأيضًا بالذوق، وقد أبنْتُ في مسير حياتي وأعمالي، أني بالأحرى تفاديت القفز على الظروف التي جعلني فيها الله أرى النور، فكل ما يأتي بشكلٍ طبيعيٍ هو في الآن نفسه عادلٌ وبسيطٌ.

3. لديَّ نفسٌ بالغة الورع والجزع، بحيث لا أرى مخرجًا ما لصالحي حسب أهميته، وإنما تبعًا لسهولته. لكن، إذا لم يكن لي قلبٌ كبيرٌ فهو بالأحرى مفتوحٌ، وهو يفرض عليَّ أن أصرّح بضعفه بجسارةٍ.

4. إذا كان عليَّ أن أقارن بين حياتين: حياة لوكيوس ثوريوس بالبوس- وهو رجلٌ من الحاشية، جميلٌ وعالمٌ وفي صحةٍ جيدةٍ وعارفٌ بأسرار الملذات، أمضى حياةً هادئةً وخاصةً به، ونفسه مستعدةٌ للموت والتطيُّرِ والآلام وغيرها من مساوئ الحياة، والذي تُوفيَ في الحرب وسلاحه في يده دفاعًا عن بلده- ومن جهةٍ أخرى حياة ماركوس ريغولوس - وهو رجلٌ شريفٌ أيضًا وذو كبرياءَ، وكل واحدٍ يعرف نهاية حياته الرائعة - إحداهما مجهولة الاسم ومن غير بريقٍ، والثانية مثاليةٌ ومجيدةٌ بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، فإنني سأقول بالتأكيد ما قاله عنهما شيشرون [1]، لو كنت قادرًا على قوله بما يساوي فصاحته. لكن، لو كان عليَّ أن أطبقهما على حياتي، فإني سأقول إن الحياة الأولى في متناولي وتساير طموحاتي -التي أنسخها من إمكانياتي- وإن الثانية بعيدةٌ عني، وإني لا أستطيع الوصول إلى حياة ريغولوس إلا بالإعجاب، غير أنني أستطيع مضاهاة الأولى بالممارسة. لكن لنعُد إلى العظمة الدهْرية التي انطلقنا منها.

5. أحس بنفورٍ كبيرٍ من السلطة، من ممارستها كما من الخضوع لها. كان أوتانيس[2]-وهو أحد السبعة الذين كان لهم الحق في ممارسة السلطة في مملكة فارس- قد قرَّر شيئًا كنت سأقرره أنا أيضًا، فقد تخلى لصالح رفقائه عن حقه في الوصول للسلطة بالانتخاب أو بالقرعة، بشرط أن يستطيع هو وأهله العيش في تلك الإمبراطورية من غير الخضوع لأي سلطةٍ سوى سلطة الشرائع القديمة، وأن يتمتَّع فيها بكافة الحريات التي لا تكون في تعارضٍ مع تلك الشرائع، فقد كان لا يتحملالقيادة ولا أن يكون مسوسًا.

(1) كان شيشرون ينحاز لريغولوس.

(2) Hérodote, **L'enquête**, III, 83-84.

مهنة الملك

6. وإنَّ أعوَص مهنةٍ في العالم وأصعبها -في نظري- هي أن يمارس المرء مهنة الملك، فأنا لي دماثةٌ أكثر إزاء أخطائهم مما تكون لنا عادةً؛ وذلك اعتبارًا للثقل الساحق لمسؤوليتهم التي أندهش لها. من الصعب الحفاظ على التوازن والاعتدال حين يتمتع المرء بقوةٍ مفرطةٍ، يبقى أن أولئك منهم الذين لا يكونون عفويًّا الأفضل، يكون ذلك فرصةً رائعةً تحثهم على احتلال ذلك المنصب، حيث لا شيء يمكن عمله لا يكون مسجلًا ومأخوذًا بعين الاعتبار، وحيث أبسط حسنةٍ تنطبق على العديد من الناس، وحيث البراعة كما هي لدى الوعَّاظِ، تتوجه بالأخص للشعب، وهو حكمٌ قليل الصرامة وسهلٌ خِداعه وإرضاؤه. ثمة القليل من الأشياء التي يمكننا أن نُصدر عليها حكمًا صادقًا، لأن ثمة القليل منها التي ليس لنا فيها بتاتًا مصلحةٌ شخصيةٌ، فالتفوق والدونية والسلطة والخضوع تكون بالطبع معرضةً للغيرة والاحتجاج، ولا يمكن تفادي تواجهما وتناهُبهما المتبادل، وما تقوله الواحدة منهما عن الأخرى لا أثق به مطلقًا. فلنترُك العقل يتحدث بهذا الصدد حين ننتهي من هذا، هو الذي لا يلين ولا يتأثر. كنت منذ شهرٍ أتصفَّحُ كتابيْن إيكوسيّيْن يتعارضان بهذا الصدد، فالكتاب الشعبيُّ ينسب للملك ظروفًا أسوأ من ظروف سائق عربةٍ، والملكيُّ يضعه بضع أمتارٍ فوق الله في القوة والسيادة.

7. وإذًا، إليكم فيمَ تتمثل مساوئ العظمة، وأنا أريد أن أشدِّدَ على ذلك هنا؛ لأني عشت تجربة ذلك مؤخّرًا. لعل أكثر الأشياء إمتاعًا في العلاقات بين بني البشر هي الهجمات التي نتعاطى لها بعضنا ضد بعضٍ؛ كي نتنافس في الشرف والقيمة، سواءٌ في تمارين الجسد أو تمارين العقل، والتي لا مكان فيها للعظمة التامة. وفي الحقيقة، أرى أننا عادةً في تلك الهجمات -ومن باب الاحترام- نتعامل مع الأمراء بشكلٍ احتقاريٍّ وبالشتيمة. فما كان يهينني كثيرًا في شبابي هوأن من كانوا يواجهونني يتفادون القيام بذلك تمامًا؛ لأنهم كانوا يجدونني غير مستحقٍ لذلك، هو مع ذلك ما يحدث لهم الآن يوميًّا، بحيث إن كل واحدٍ يعتبر أنه

لا يليق به الصراع معهم. فإذا ما أدرك المرء أنهم لا يهتمون بالنصر، فكل واحدٍ يجتهد في منحه إياهم، ويفضل خيانة سمعته على أن يمسَّ سمعتهم، ولا يتم الصراع معهم إلا بمجهوداتٍ تكون ضروريةً لخدمة شرفهم. أيُّ موقعٍ لهم في مبارزةٍ يكون كل الناس فيها بجانبهم؟ ويبدو لي أني أرى أولئك الفرسان من الزمن الماضي، يتقدمون للمبارزات وللمعارك بقوًى سحريةٍ وأسلحةٍ مسحورةٍ. حين كان بريسون يعدو ضد الإسكندر الأكبر، كان فقط يتظاهر بالعدو، وهو ما عابَه عليه هذا الأخير، غير أنه كان عليه أن يأمر بجلْده. وكان كارنياديس يقول إن أبناء الأمراء لا يتعلمون شيئًا بشكلٍ صحيحٍ غير ركوب الخيل؛ إذ إن كل واحدٍ في التمارين الأخرى ينبطح أمامهم ويسعى لكي يكونوا الرابحين، لكن الجواد ليس متملقًا ولا من حاشية الملك، وهو يطرح ابن الملك أرضًا كما يفعل ذلك بابن متشرِّدٍ. اضطرَّ هوميروس إلى القبول بأن فينوس جُرحت خلال حرب طروادة -هي الوديعة والمقدسة والرقيقة- كي يستطيع منحها بذلك الشجاعة والجرأة، وهي مزايا لا يمكن أن يدعيها لنفسه من هو في مأمنٍ من الخطر. هكذا يتم تقديم آلهةٍ غضوبةٍ وخوافةٍ وغيورةٍ وهرابةٍ، تجرفها الأهواء كي يتم تشريفها بالفضائل التي تتولَّدُ لدينا بفعل تلك العيوب.

8. من لا يتعرض للمخاطر وللمصاعب، لا يمكن أن يطمع في جنْي الشرف والرضا المتولديْن عن ذلك، فمن باب الشفقة أن تكون من القوة والجبروت، بحيث كل من يأتيك يستسلم لك، وقدَرك يرمي بك بعيدًا عن كل مجتمعٍ كما عن أصدقائك، ويضعك في معزلٍ تمامًا عن كل شيءٍ. فهذا اليسْر وتلك السهولة الملائمة لقدرة المرء على إخضاع كل شيءٍ أمامه، هي - في الحقيقة - عدوَّةُ كل أنواع المُتَع؛ إنها ليست مشيًا وإنما انزلاقًا، وهي نومٌ لا حياةٌ. أن نتصور رجلًا كامل القوى يعني أن نزجَّ به في هُوةٍ سحيقةٍ؛ إذ عليه أن يطلب منا كصدقةٍ بعضًا من العوائق والمقاومة؛ ففي النقصان وحده سيجد حياته ورضاه.

9. وإن مزايا الناس الأقوياء أشبه بالضائعة والميتة؛ لأننا لا نحس بها إلا بالمقارنة، ونضعها خارج كل مقارنةٍ ممكنةٍ، فهم يكادون لا يعرفون

المديح الحق، بما أنهم خاضعون لقَبولٍ مستمرٍ وموحَّد الشكل، وإذا هم تعاملوا مع الأغبى في رعاياهم، فليس لهم التفوق عليه، فمن يقول: «لأنه ملكيٌّ»، يعتبر أنه قال كل شيءٍ، وأنه بنفسه قد ساهم في هزيمته. إن مزية الملك تخنق المزايا الأخرى وتخمدها-أي تلك المزايا الحقيقية والجوهرية- إنها مخفيةٌ في الملكية. وهذه الأخيرة لا تترك لها لكي تبرز قيمتها إلا الأفعال التي تمسها مباشرةً والتي تخدمها-أي واجبات المسؤولية الملكية. أن يكون المرء ملكًا هو أمرٌ عظيمٌ جدًا، بحيث لا يوجد المرء إلا باعتباره ملكًا، فهذا البريق الرائع الذي يحيط به يخفيه ويجعله يتوارى، ونظرنا ينكسر عليه ويتشتت، بحيث يغرق ويتوقف بذلك النور الساطع. منح مجلس الشيوخ لتيبيريوس جائزة الفصاحة، فرفضها معتبرًا أنه لم يكن له أن يحس بمتعة حكمٍ قليل الحرية حتى ولو كان مبرَّرًا[1].

10. وما دمنا نمنح للملوك كافة المزايا التشريفية، فإننا نبرِّرُ في الآن نفسه عيوبهم ورذائلهم ونؤكدها، ليس فقط لأننا نقبل بها وإنما لأننا نحاكيها. كل واحدٍ من حاشية الإسكندر الأكبر كان يُميل الرأس مثله شيئًا ما إلى الجانب، والمتملّقون لديونيسيوس الكبير كانوا يتزاحمون ويتعثرون قالبين كل ما يوجد أمامهم ليُبينوا له أن لهم هم أيضًا رؤيةً ضعيفةً كرؤيته، حتى العاهات كانت أحيانًا وسيلةً للحصول على الأفضال والتدخلات، وقد رأيت حتى الصَّمم يستخدم لهذا الغرض. يحكي بلوتارخوس أنه رأى رجالًا من حاشية الملك يطلقون زوجاتٍ كانوا يحبونهن مع ذلك؛ لأن سيدهم كان يكره زوجته، بل الأسوأ من ذلك أننا رأينا الفجور والحياة المتحللة تصبح حظوةً، تمامًا كما الخيانة، والمروق، والقساوة، والهرطقة، والتطيُّر، والإلحاد، والرخاوة، وما هو أكثر انحطاطًا من ذلك إذاما هو وُجد. وكان المتزلفون لميثراداتس- لأن سيدهم يدّعي كونه طبيبًا جيدًا - يمنحونه أطرافهم كي يكويها ويحزَّها. لكن ثمة ما هو أخطر، أي أولئك الذين يقبلون كيَّ النفس، وهي جزءٌ أكثر شرفًا ولطفًا.

(1) Tacite, **Annales**, II,83.

ولكي أنتهي من حيث بدأت، كان الإمبراطور هادريانوس يتجادل مع الفيلسوف فافورينوس عن تأويل كلمةٍ ما، وتركه فافورينوس يتغلب عليه، ولما آخذه أصدقاؤه على ذلك، أجابهم: «هل تسخرون مني؟ كيف تريدون ألا يكون أكثر علمًا ومعرفةً مني، هو الذي يحكم في ثلاثين فيْلقًا؟». كتب أغسطس شعرًا يهجو فيه أسينيوس بولّيو[1]، فرد بولّيو: «أما أنا فسألزم الصمت؛ فليس من الحكمة أن أكتب ضد من يرغب في نفيي». لقد كان معهم الحق، فديونيسيوس الذي لم يستطع مضاهاة فيلوكسينوس في أشعاره ولا أفلاطون في كتابته حكم على أحدهما باستخراج الحجر من المقالع، وباع الثاني في سوق النخاسة بجزيرة إيجينا.

(1) هو خطيب وشاعر ومؤرخ، عمل أيضًا قنصلًا، توفي في 40 ق.م.

الفصل الثامن

في فن المحادثة

1. جرت العادة في عدالتنا أن يتم الحكم على البعض كي يكونوا بمثابة عبْرةً للآخرين، والحكم عليهم لأنهم اقترفوا خطأً سيكون من باب الغباء كما يقول أفلاطون، فما تم القيام به لا يمكن تفكيكه؛ لكن كيلا يقترفوا أخطاءً مماثلةً؛ أو لكي يتفادى الناس فعل ما فعلوا. إننا لا نقوِّم من نقوم بشنقه، نحن نقوِّم الآخرين به، وأنا أقوم بالشيء نفسه، فأخطائي تُعتبر كما لو كانت طبيعيةً غير قابلةٍ للإصلاح ولا للعلاج، لكن إذا كان الناس الشرفاء نافعين للعموم الذي يحاكيهم، فربما أكون نافعًا؛ لأنهم سيتفادون تقليدي.

«ألا ترى كيف يعيش ابن آلبيوس شظف العيش
وكيف أن بارّوس تعيس؛ إنه مثالٌ ممتازٌ
يحثنا على عدم تبذير موروثنا»[1].

2. إذا ما أعلنت على الملأ نواقصي وعيوبي وإذا ما أنا أدنتها، سيعرف الكل كيف يحتاط منها. فمن باب المَجْد لي أن أدين الجوانب فيَّ التي أعتبرها الأهم على أن أتباهى بها؛ لهذا أعود إليها وأتوقَّف عندها مرارًا. لكن، لا يتحدث المرء عن نفسه من غير ضررٍ بعد تفكيرٍ مليّ، فالاتهامات التي نوجهها لأنفسنا تتزايد غالبًا، والمديح يغدو موضع شكٍ.

فائدة الأمثلة المضادة

3. ربما كان ثمة أناسٌ مثلي، فأنا أستفيد من التضاد أكثر من التشابه، وبالهرب أكثر من الاتباع. وفي هذه الطريقة في التعلم كان يفكر كاتو، حين قال إن الحكماء لهم الكثير مما يتعلمونه من الحمقى أكثر مما يتعلمه الحمقى من الحكماء. يحكي باوسانيوس[2] أن عازف قيثارةٍ في القديم كان يُكْرِهُ تلاميذه على أن يروحوا لسماع عازفٍ رديءٍ كان يسكن قُبالته؛ كي يتعلموا النفور من نشازه ومن قياسه الأعوج. ترمي بي بشاعة الوحشية نحو الرحمة أكثر مما يمكن أن يجذبني لها أنموذجٌ ما في الرحمة. وحاجب الإسطبل الملكيِّ لا يقوِّم ركوبي الجواد أكثر من

(1) Horace, **Satires**, I, 4, vv. 109-111.
(2) Plutarque, **Vies Parallèles**, IV, Caton le Censeur.

وكيل محكمةٍ أو رجلٍ من مدينة البندقية على صهوة جواده، وطريقةٌ سيئةٌ في الكلام تُصلح طريقتي أفضل مما تفعله طريقةٌ فصيحةٌ. في كل يومٍ يصلُح التصرف الغبيُّ لشخصٍ ما لأن يكون لي إنذارًا ونُصحًا؛ فما يقلقنا يمسنا ويوقظنا أفضل مما يعجبنا. وعصرنا أكثر ملاءمةً للتعلُّم بشكلٍ عكسيٍّ، بالنفور منه أكثر من الاندماج فيه، بالاختلاف أكثر من الاتفاق، ولما كانت الأمثلة الجيدة تفيدني بعض الشيء، فإني أستعمل الأمثلة السيئة التي تكون دروسها معتادةً لديَّ. لقد جهدت في أن أكون رائقًا مقدار ما كان الآخرون الذين ألاقي مملّين، وصارمًا مقدار ما هم رخْوون، وطيبًا مقدار ما أرى من الشريرين، لكن ذلك كان يعني أن أقرر أهدافًا من المحال بلوغها.

4. التمرين الأكثر نفعًا وطبيعيةً لعقلنا هو لدي المحادثة. فأنا أرى هذا النشاط أكثر لطفًا من كافة أنشطة حياتنا، وذلك هو السبب في أني لو كنت الآن مضطرًا للاختيار، فإني سوف أقبل بفقدان البصر على فقدانيَ السمع أو الكلام، والأثينيون والرومان كانوا أيضًا يضعون هذا النشاط في مرتبةٍ ساميةٍ في أكاديمياتهم[1]، وفي عصرنا هذا نرى الإيطاليين قد حافظوا من ذلك على بعض الأطلال، وهو ما يعود عليهم بفائدةٍ كبرى، ونحن نرى ذلك حين نقارن عقلهم مع عقلنا. فدراسة الكتب نشاطٌ هادئٌ وغير مثيرٍ، أما المحادثة فهي تعلُّمٌ وممارسةٌ في ذات الآن. فإذا ما تحادثت مع عقلٍ ذي قيمةٍ ويكون مجادِلًا صعب المراس، فهو يهدُّ جوانبي ويخزني يمينًا وشمالًا؛ إذ إن أفكاره تثير أفكاري، أما أن يكون الناس من الرأي نفسه، فهو أمرٌ بالغ الملل في المحادثة.

5. لكن، إذا كان عقلنا يتقوّى بالتواصل مع عقولٍ قويةٍ ومتوازنةٍ، فلن نتصور كم يفقد وكم يتشرذم بالارتياد المستمر للعقول الضعيفة والمريضة. ليس ثمة من عدوًى تنتشر انتشار النار في الهشيم مثل هذه، وأنا لي ما يكفي من التجربة لكي أعرف ثمن ذلك. أحب الحجاج والنقاش، لكن مع قلّةٍ من الناس ولحاجتي الشخصية. أما أن أكون بمثابة فرجةٍ للكبار في هذا العالم، وأن أستعرض عقلي وثرثرته اضطرارًا، فذلك سلوكٌ لا أنصح به رجلًا شريفًا.

---

(1) يبدو أن الثقافة العربية الإسلامية تمنح أيضًا للسمع القيمة ذاتها مقارنة مع البصر.[المترجم]

6. الغباء بالتأكيد أمرٌ سيئٌ؛ لكن عدم تحملها والغضب منها حتى الحدّ الأقصى-كما يحدث لي- هو مرضٌ آخرُ يضاهي الغباء بالنظر إلى الأضرار التي يجر معه، وذلك ما أرغب في إدانته فيّ الآن.

7. أنا أربط علاقة المحادثة بسهولةٍ، وأنطلق في المناقشات بشكلٍ حرٍ، باعتبار أن الآراء لا تجد لدي أرضيةً يمكنها أن تخترقها وتتجذّر فيها بسهولةٍ. لا يثير إعجابي أي توكيدٍ ولا يجرحني أي معتقدٍ مهما كان منافيًا لمعتقدي، وليس ثمة فكرةٌ مهما كانت نزقةً وغريبةً لا تبدو لي نتاجًا للعقل البشري، ونحن الذين نرفض النطق بالأحكام، لا نُعير اعتبارًا كبيرًا لتنوع الآراء، وإذا ما لم نطلق الأحكام فإننا نصيخ السمع بسهولةٍ. ليس لي من رأيٍ قادرٍ عن شيءٍ ما، فأنا قادرٌ على أن آخذ بعين الاعتبار حتى تخاريف امرأةٍ عجوزٍ، وأعتقد أنني معذورٌ في تفضيل الأعداد الوِتْر، والخميس على الجمعة، وأن أكون الثاني عشر أو الرابع عشر على أن أكون الثالث عشر في مائدةٍ، وأن أفضل رؤية أرنبٍ يجري على طول طريقي عوضًا عن أن أراه يعبرها حين أكون في سفرٍ، وأخيرًا أن أقدم رجلي اليسرى لارتداء الحذاء على الرجل اليمنى. كل هذه التهويمات التي تُمنح لها الأهمية من حولنا، تستحق على الأقل أن ننصت لها، فهي لديّ لا وزْن كبيرٌ لها، غير أن لها وزنًا مع ذلك. إنها مثل الآراء الشعبية من غير أساسٍ ولا أهميةٍ، لكنها مع ذلك أكثر شيئًا ما من لا شيءٍ بالطبع، ومن لا ينصاع لها شيئًا ما قد يسقط في مطبِّ العناد، وهو يعتقد أنه يتفادى التطيُّرَ.

تقبُّل النقد

8. وهكذا فإن التناقضات في الأحكام التي تطلق لا تفاجئني ولا تزعجني، هي فقط تثير انتباهي وتجعلني أفكر. نحن لا نحب النقد بتاتًا، والحال أن من اللازم البحث عنه والخضوع له، حين يقدِّم نفسه في شكل نقاشٍ لا في شكل خُطْبةٍ. عندما يلاقي المرء معارضةً، لا يتساءل حتى إن كانت ذات أساسٍ، وإنما عن الكيفية التي يتخلَّص منها عن حقٍ أو عن خطإٍ. فعوض

أن نمدَّ لها اليد نُبْدي بالعكس عن مَخالبنا. أستطيع تحمل أن أكون موضوعًا للتعنيف من أصدقائي: «أنت غبيٌّ، أنت حالم...»؛ لأني أحب أن يتحدثوا معي بقلبٍ مفتوحٍ بين أناسٍ متمدِّنين، وأن تلتحق الكلمات بالأفكار، علينا تقوية سمعنا وجعله صارمًا أمام عذوبة الخطابات المتواضَع عليها. أحب الرفقة والألفة حين يكونان قويَّين، وصداقةً تجد متعتها في قوة وصلابة العلاقة التي تُقيمها، كما يجد الحب متعته في العضِّ والخدش الدامي الذي يثير.

9. المحادثة لا تكون حيويةً وغنيةً بما يكفي إذا لم تنته إلى النزاع، وإذا كانت متحضرةً ومتكلِّفةً وتخشى المواجهة، «فلا وجود لمحادثةٍ من غير تناقضٍ حادٍ»[1]، حين يعارضني أحدٌ، يتمُّ إيقاظ انتباهي لا غضبي، فأنا أسبق من يعارضني ويعلمني، علينا أن يكون لنا -معًا وبشكلٍ مشتركٍ- همُّ الحقيقة، لكن ما سيكون جوابه؟ إن حكمه العقليَّ تحت تأثير الغضب يكون ضبابيًّا، وتستبد به البلبلة قبل العقل، سيكون من المفيد المراهنة على مخرج مناقشاتنا، بحيث يظل ثمة أثرٌ لخسارتنا حتى نأخذه بعين الاعتبار؛ وحتى يقول لي خادمي: «في السنة الماضية خسرتَ مئة ريالٍ فرنسيٍّ عشرين مرةً؛ لأنك كنت جاهلًا وعنيدًا».

10. أنا أحتفي بالحقيقة وأستسلم بمرحٍ لها، وأمنحها أسلحتي كمهزومٍ، حتى لو أبصرت بها من بعيدٍ. وإنّي أتمتع بمن ينتقدني، فقط ألا يكون ذلك بالطريقة القاهرة لمعلم مدرسةٍ. وأنا أتفاهم مع أولئك الذين يتهمونني غالبًا بأدبٍ أكثر منه بإرادة تصحيحٍ، فأنا أحب تشجيع حرية أولئك الذين ينتقدونني بسهولة استسلامي لهم، لكن من الصعب إقناع الناس في زمني بالتصرف هكذا، فهم لا يملكون الشجاعة لنقد الآخرين؛ لأنهم لا يتحملون أن يُنتقدوا أنفسهم، فتراهم يتحدثون دومًا بطريقةٍ ملتويةٍ في حضرة بعضهم البعض.

11. أحس بمتعةٍ كبرى في أن يُحكم عليَّ وأن أكون معروفًا، بحيث لا يهمني إن كان هذا أو ذاك. فكري يتناقض مع ذاته ويُدين نفسه في الغالب،

(1) Cicéron, **De finibus**, I, VIII.

بحيث إنني أكون الشيء نفسه حين يقوم شخصٌ آخرُ بذلك، خاصةً وأن نقده لا أهمية له لديَّ غير ما أمنحه إياه من أهميةٍ، لكني أخاصم من يتصرف معي بغطرسةٍ، مثل أحدٍ من معارفي يندم على إبداء رأيه إن لم يتم اتباعه، ويعتبر أنه أهين إذا ما تأخرنا في اتِّباع رأيه. يمكننا القول إن سقراط إذا كان دومًا يتقبَّل بالضحك الاعتراضات على خطابه؛ فذلك لأن فيه قوةً كبرى بحيث لا يمكن إلا أن يفوز، وبحيث إنه كان يتلقاها باعتبارها عناصر فوزٍ جديدٍ. بالمقابل، نحن نرى أن ليس ثمة ما يجعلنا ضعيفين أمام التناقض غير الفكرة التي لنا عن تفوقنا على خصمنا والمقت الذي نكنُّه له، بحيث يبدو لنا أمرًا عاديًّا أن يكون على الضعيف بالأحرى أن يقبل طواعيةً الانتقادات التي ستصحِّح موقفه. وفي الحقيقة، فأنا أبحث عن الاجتماع بأولئك الذين يخلخلونني على من يخضُّونني؛ إذ ثمة متعةٌ باهتةٌ وضارةٌ في أن نكون على علاقةٍ مع أشخاصٍ معجبين بنا بحيث يتركون لنا المكان. أمر أنتيسثينيس*[1] أبناءه ألا يُبدوا أبدًا عن الشكر والامتنان لمن يقدم لهم المديح، وأنا حين أكون في عزِّ المعركة وأستسلم لبراهين خَصمي، أحس بالنصر هكذا على نفسي أكثر مما لو فزت عليه بسبب ضعفه.

12. عليَّ القول أيضًا إنني أقبل كافة الهجمات المباشرة وأوافق عليها مهما كانت وَضاعتها، غير أني أتأثَّرُ بتلك التي تُشنُّ عليَّ خارج قواعد السلوك الحسن. لا أهتم بمَ يتعلق الأمر، فكل الآراء متكافئةٌ في نظري، وفوز هذه الفكرة أو تلك غير ذي قيمةٍ لديَّ. يمكنني المجادلة يومًا كاملًا بشكلٍ هادئٍ، إذا كان النقاش يسير بشكلٍ منتظمٍ، فما أبتغي ليس القوة والدقة وإنما النظام، ذلك الذي نلاحظه يوميًّا في النزاع بين الرُّعاة وبين فتيان الحوانيت ولا نراه بيننا، وإذا رأيتهم يحيدون عن الطريق القويم فذلك لغياب التمدُّن، ونحن أيضًا نكون أحيانًا كذلك بشكلٍ ما، بيْد أن حركاتهم وعدم صبرهم لا يجعلهم ينزاحون عن الموضع؛ إذ أن حديثهم يتابع طريقه، وإذا ما تكلموا قبل أن يأتي دورهم، أو قاطع أحدٌ الآخر، فهم على الأقل يفهمون بعضهم بعضًا. ففي نظري يجيب المرء بشكلٍ جيدٍ إذا ما أجاب عما قلت، لكن حين تكون المناقشة مشوَّشةً وغير

(1) * في الأصل الفرنسي أنثيستين Anthistène وهو تحريف لم ينتبه له السيد المحقق والصواب أنتيسثينيس Antisthène

منتظمةٍ فأنا أترك الاهتمام بالمسألة، وأتعلق بالشكل بنوعٍ من الغضب والعصبية، وأرمي بنفسي في شكلٍ من النقاش عنيدٍ وخبيثٍ وسلطويٍّ، يحمر منه وجهي خجلًا في ما بعد.

13. من المستحيل النقاش مع غبيٍّ بحسن نيةٍ. فليس فقط حكم العقل هو الذي يَفْسُدُ بسبب معلمٍ متهورٍ، وإنما ضميري أيضًا.

14. من اللازم منع شجاراتنا والعقاب عليها كما غيرها من الجرائم اللفظية، فكم من رذيلةٍ نراها توقَظ وتُراكَم؛ لأنها تأتي نتيجةً للغضب وتتركه يتحكَّم بها، نحن نواجه أولًا الأفكار ثم الناس، ونحن لا نتعلم النقاش إلا لتفنيد أقوال الآخرين، بحيث كل واحدٍ يتناقض مع نفسه لتفنَّد أقواله بدورها، وكل هذا يجعل المناقشة لا نتيجة لها سوى تدمير الحقيقة وإعدامها؛ لهذا فإن أفلاطون قد منع في «الجمهورية» هذا التمرين للعقول المشتتة والبلهاء.

المبارزات الكلامية

15. أيُّ فائدةٍ من أن تسير في الطريق للبحث عن الحقيقة مع شخصٍ لا خطوٌ ثابتٌ له ولا سرعةٌ مقبولةٌ؟ إننا لا نسيء إلى موضوعٍ ما حين نتخلى عنه بحثًا عن سبيل تناوله، أنا لا أتحدث هنا عن السبيل السكولائي والمصطنع، وإنما عن سبيلٍ طبيعيٍّ يتعلق بذكاءٍ سليمٍ. وما ستكون نتيجة ذلك؟ أحدهما يسير شرقًا والآخر يتجه غربًا، فهما ينسيان الأساسيَّ الذي يضيع في لُجَّة الأفكار العارضة، وبعد ساعةٍ من العواصف، تجدهما لا يعرفان ما يبحثان عنه، الأول منهما بالغ الانخفاض، والآخر بالغ العلوِّ، والثالث خارج المرمى. يتعلق أحدهما بكلمةٍ وبتشبيهٍ، والآخر لا يهتم بما تتم معارضته به لأنه منهمكٌ في عدْوه، وما يهمُّه هو اتِّباع فكرته لا ما تقول أنت، وآخر يخشى كل شيءٍ، ويرفض كل شيءٍ، ويخلط بين كل شيءٍ منذ البداية، ويشوش على الموضوع لأنه لا يحس بنفسه من الصلابة بمكانٍ، إلا إذا تمرَّد في عزِّ النقاش ولزم الصمت مُبينًا عن

خيبته بإعلانه لمقتٍ متكبِّرٍ، أو أبان عن تواضعٍ زائفٍ كي يتهرب بشكلٍ أفضل من النقاش، وأتمنى من هذا أن يضرب ضربته، فلا يهمه إلى أي حدٍ يكشف عن أمره، أما الآخر فهو على العكس من ذلك يحسب كلماته ويزنها كما براهينه. صاحبنا هذا لا يستفيد إلا من صوته ومن رئتيه، أما الآخر فهو يناقض نفسه بنفسه، وهذا الأخير يثقل آذانكم بالمقدمات والاستطرادات النافلة، وغيره لا يتلفظ بغير الشتائم ويبحث عن نزاعٍ ألمانيٍّ -أي مفتعلٍ- كي ينفلت من الرفقة ومن مناقشة عقلٍ يطرح عقله أرضًا. وهذا الأخير لا يفقه شيئًا في المسألة، غير أنه يتركك حبيس الانغلاق الصوري لجمله ولصيغ مهاراته.

16. وإذًا، مَن ذا الذي لا يحترس من العلوم، ولا يتساءل إذا كان بإمكانها أن توفر له فائدةً واقعيةً لحاجيات حياته، بالنظر إلى الاستعمال الذي يقوم به له؟ «تلك الدراسات التي لا تداوي من شيءٍ»[1]. من منا استطاع تحسين ذكائه بالمنطق؟ أين هي تلك الوعود الجميلة؟ «لا للعيش الأفضل ولا للبرهنة الأمثل»[2]. أنَرى فوضى في ثرثرة بائعات السمك أكثر مما نلفيها في المشاجرات العمومية لأناسٍ يمارسون الفصاحة؟ وإني أفضِّل أن يكون ابني قد تلقى تعليمه في الكهوف على أن يتلقاه في مدارس الخطابة. خذوا أستاذًا في الآداب وتناقشوا معه، فلماذا لا يجعلنا نحس بامتيازه في المجال؟ لماذا لا يشحن النساء والجهلة من مثلنا بقوة استدلالاته وجمال عرضه؟ كيف لا يستطيع أن يتحكم فينا ولا يقنعنا على هواه؟ فرجلٌ مؤهلٌ مثله في أسُس المناقشة وسيرها، لماذا يمزج بمسايفته اللفظية الشتائم والتجاوزات والشراسة؟ فليترك بِزَّتَهُ ولاتينيتَهُ، وليكفّ عن ثقب آذاننا بأرسطو خالصًا ونيِّئًا، فستخالونه أحدنا أو أسوأ من ذلك، ويبدو لي أنهم - بهذه التعرجات والتشابكات اللغوية التي يحشروننا فيها - يشبهون لاعبي الخُدع، فبراعتهم تهزم قوتنا وحواسنا، غير أنها لا تكسر قناعاتنا، وعدا خُدع الشعوذة تلك فهم لا يفعلون شيئًا لا يكون عاديًّا وتافهًا؛ فلكي يرقوا إلى مرتبة العلماء تراهم يتبوؤون مرتبة عالية من البلادة.

(1)Sénèque, **Épîtres,ou Lettres à Lucilius**, LIX.

(2) Cicéron, **De finibus**, I, 14.

17. أنا أحب العلم والمعرفة وأقدِّرُ من يملكهما، فحين يُستخدمان استخدامًا حقًّا، فذلك يعبِّرُ عن الفتح البشريِّ الأقوى والأشرف، بيْد أن علم أولئك الذين يبنون عليه قيمتهم وقدراتهم -وهم لا يحصى عددهم- والذين يبنون حكمهم العقليَّ على ذاكرتهم، «الذين يتوارون في ظل الآخرين»[1]، ولا يمكنهم القيام بأي شيءٍ بغير الكتب، فإن ذلك العلم أكرهه وبجرأةٍ، وربما أكثر من الغباء. ففي بلدي وفي وقتنا هذا، العلم الذي يتم تدريسه يملأ جيوب أصحابه لا العقول، فهو حين يجد أمامه الضعفاء يسحقهم ويخنقهم، ويجعل منهم كتلةً نيئةً لا يسهل هضمها، وإذا كانت عقولًا لطيفةً، فهو يجعلها خالصةً وينوِّرها ويجعلها غير محسوسةٍ إلى درجة إعدامها، إنه شيءٌ لا قيمة له أبدًا، وإكسسوار مفيدٌ جدًا للنفوس الشريفة، غير أنه ضارٌ ووخيمٌ على العقول الأخرى، بل عليَّ القول بالأحرى إن العلم شيءٌ يكون استعماله ثمينًا جدًا، ولا نحصل عليه بثمنٍ بخسٍ، فهو في اليد اليمنى صولجان، وفي اليد اليسرى سوطٌ. لكن لنتابعْ.

18. أيُّ نصرٍ عظيمٍ يمكن أن تأْمل غير أن تعلِّمَ خَصمَكَ أنه لا يستطيع مصارعتك؟ فحين يكون لك الامتياز بما تقترح، فالحقيقة هي التي تكون رابحةً؛ وحين يكون لك الامتياز بالتنظيم وتسيير النقاش، فأنت الذي يربح. يبدو لي أن سقراط لدى أفلاطون وكسينوفون، يهتم بمحاوريه أكثر من اهتمامه بالقضية موضوع المناقشة، وبأن يعطي ليوثيديموس وبروتاغوراس فكرةً عن غباوتهما أكثر من غباء تخصصهما، فهو يمسك بالسؤال الأول الذي يُطرح عليه، كما شخص ليس له الوقت لكي يستوضحه-أي تنوير العقول التي يجتهد في استخدامها وتمرينها. والمجهودات التي نبذلها في الصيد هي في الحقيقة طرائدنا الحقَّة، فلا عذر لنا في عدم القيام بها على أحسن وجهٍ، أما ألاّ نصطاد أي شيءٍ فذلك أمرٌ آخر، فإذا كنا وُلدنا للبحث عن الحقيقة، فإن بلوغها أمرٌ آخر. إنها ليست-كما قال ديموقريطوس- مخفيةً في هُوَّةٍ سحيقةٍ، وإنما قائمةٌ في علوٍّ لامتناهٍ من المعرفة الإلهية. والعالم ليس سوى مدرسةٍ للبحث عن الحقيقة، والمسألة لا تتعلق بمن سيبلغ المرام، وإنما بمن سيتعامل مع

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, xxxiii.

الأمر أفضل. من يقول الحقيقة يمكنه أن يلعب دور الأبله مثله مثل من يقول الخطأ؛ إذ يتعلق الأمر هناك بطريقة الفعل لا بما يُقال، فأنا بطبعي ومزاجي أعطي اعتبارًا للشكل كما للجوهر- أي للدفاع كما للقضية - كما كان ينصح بذلك ألكيبياديس.

19. وأنا في كل يومٍ، أستمتع بقراءة المؤلفين من غير أن أهتم بما يعرفون وبما لا يعرفون، فأنا أستقصي طرائقهم في الكتابة من غير اهتمامٍ بالموضوع الذي يطرقون، تمامًا كما أبحث في المحادثة عن عقلٍ شهيرٍ؛ لا لكي يعلمني شيئًا ما وإنما لأعرفه، بحيث حين أعرفه أقلده إذا كان يستحق ذلك.

20. أيٌّ واحدٍ يمكنه أن يقول أشياء حقةً، لكن أن يكون ذلك بطريقةٍ منهجيةٍ وبحكمةٍ وكفاءةٍ، فالأقل من الناس هم القادرون على ذلك؛ لهذا فإن الزَّيْف الذي يعود للجهل لا يصدمني، فما يفعل ذلك هو السخافة، نعم لقد أوقفت العديد من الصفقات التي كانت مفيدةً لي بسبب بعض الاحتجاجات الغبية لأولئك الذين كنت أتعامل معهم. لا يصيبني التأثر أبدًا ولو مرةً واحدةً في السنة بسبب الأخطاء التي يقترفها من لي سلطةٌ عليهم، أما في ما يخص بلادة ادعاءاتهم وعنادها، كما دفاعهم وأعذارهم التي ليست سوى هراءٍ وغيرها من الحماقات، فإننا نتعارك بسببها يوميًّا. فهم لا يستوعبون، لا ما يُقال ولا لمَ يُقال ومع ذلك فهم يجيبون، بحيث يدفعونني إلى اليأس. أنا لا أنطح برأسي إلا رأسًا آخر، وأتآلف بسهولةٍ مع عيوب أناسٍ أكثر من جرأتهم وطرائقهم المزعجة وغباوتهم، فليُنقِصوا منها، عسى أن يكونوا قادرين على ذلك. هل تعتقدون أنكم ستستثيرون إرادتهم؟ نحن لا يمكننا أن نأمل من صخرةٍ صماءً شيئًا.

21. ولوْ أني نظرت للأمور بشكلٍ آخرَ، ربما ذلك سببٌل كي أؤاخذ نفسي على حنقي؛ إذ إني أعتقد أنه سيئٌ لدى المحِقّ كما لدى المخطئ، فمن لا يستطيع تحمُّل شيءٍ مختلفٍ عنه، لا يمكن إلا أن يُبين عن مزاجٍ تسلطيٍّ. ليس هناك في الحقيقة من حماقةٍ أكبر ولا أكثر عادةً من أن ينفعل المرء وأن تثير غضبه تفاهات العالم، بل ليس هناك أيضًا ما هو أغرب من ذلك، فهي تغيظنا أساسًا ضد أنفسنا، وذلك الفيلسوف القديم الذي

تحدثت عنه آنفًا، لم يكن ليعدِمِ الأسباب لبكائياته لو أنه فقط نظر إلى نفسه[1]. كان ميسونوس-أحد الحكماء السبعة الذي كان له مزاج طيموني[2] وديموقريطي- حين يُسأل لماذا كان يضحك وحده، يردّ: «أضحك على أني أضحك وحدي».

22. كم من الهُراء أنطق به كل يومٍ إذًا، أو هو يوجد في أجوبتي؟ وكم هو هراءٌ أكثر عددًا في نظر الآخرين؟ وإذا كنت أَعَضُّ شفتي ندمًا عليه فما عليهم همْ فعله؟ في نهاية الأمر، علينا حتمًا الحياة مع الأحياء وترك الأمور تسير على سجيّتها من غير أن نهتم بذلك، أو على الأقل من غير أن تقلقنا أكثر مما هي تفعل، ففي نهاية الأمر كيف يمكن أننلاقي شخصًا ذا جسدٍ معوجٍ وغير متناسقٍ من غير أن نتأثر لذلك، وألا نتحمَّل ملاقاة عقلٍ شائهٍ من غير أن يثير فينا ذلك الغضب؟ إن هذه الصرامة غير العادية تتعلق أكثر بالحكم أكثر من الخطأ. لنردِّدْ دومًا هذه العبارة لأفلاطون: «إذا وجدتُ أنَّ شيئًا ما فاسدٌ، أليس ذلك لأنني أنا بنفسي فاسدٌ؟ ألست مخطئًا أنا أيضًا؟ ألا يمكن للعتاب أن ينقلب عليَّ؟». إنه تذكيرٌ حكيمٌ يقوم بجَلْد أكثر الأخطاء البشرية كونيةً وعموميةً. ليس ما نقوم به بعضُنا إزاء البعض هو عتابٌ فقط، ولكن براهيننا وأدلتنا العقلية ومادة اختلافاتنا نفسها يمكنها أن ترتدَّ أيضًا ضدنا، فنحن نطعن أنفسنا بأسلحتنا نفسها، والعالم القديم قد منحني عن ذلك العديد من الأمثلة الوجيهة، وإليكم عبارةً قيلت بحذقٍ عن العديد من الحالات: «لا أحد يشمئز من نفسه إذا أحدث »[3].

23. عيوننا لا ترى شيئًا من الخلف. وعشرات المرات في اليوم نسخر من أنفسنا ونحن نتهكم على الجار، فنحن نكره لدى الآخرين العيوب التي يبدو أنها عيوبنا ونندهش لها بلامبالاةٍ. البارحة فقط سنحت لي الفرصة لأرى شخصًا ذكيًّا كان يسخر -عن حقٍّ وبشكلٍ رائعٍ- من الطريقة البليدة التي كان أحدهم يكسر بها رأس كل الناس بجنيالوجياته وتحالفاته، التي

(1) هيراقليتوس. وقد تحدث مونتيني عن ذلك في الكتاب الأول، الفصل 50، الفقرة 10، حين عارض بين الفيلسوف ديموقريطوس الضاحك وهيراقليتوس الحزين المكتئب.

(2) كان طيمون يعيش في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ويبدي مقتًا عميقًا لبني البشر.

(3)Érasme, **Adages** in **«Œuvres et correspondance»** 4, 2.

كان النصف منها زائفًا -ذلك أن الناس الذين تكون لديهم تلك المزايا مشبوهةً، هم الذين يطلقون كلامًا من قَبيل هذا- بيْد أن هذا الذي كان يسخر من ذلك، لو أنه استدار نحو نفسه ولو لبرهةٍ لكان رأى أنه لم يكن أقل إسهابًا ولا إرهاقًا حين كان يستطرد على امتيازات عائلة زوجته. يا لَلادعاء الذي تجد المرأة نفسها ملفوفةً فيه بأيدي زوجها نفسه! ولو كان يفقه اللاتينية لكان من اللازم أن نقول له:

«تشجَّعْ، فإذا هي لم تكن مغرمةً بما يكفي بنفسها، فألحَّ عليها»[1].

24. أنا لا أطالب مَن ينتقد بأن يكون دومًا من غير عيبٍ، إذ لا أحد يمكنه أن ينتقد شيئًا ما، ولا أن يكون خاليًا من العيوب التي يقدح فيها، لكني أقول إن الحكم الذي نطلقه على شخصٍ آخر لا يلزم أن يعفينا من الحكم القاسي على أنفسنا. إنه واجب الإحسان، الذي يفرض على ذلك الذي لا يمكنه أن يتخلص من عيبٍ ما، وأن يسعى مع ذلك إلى أن ينتزعه من الآخرين، حيث قد لا يكون بالغ التجذُّر، وفي نظري ليس أيضًا من اللائق القول لمن يشير لي إلى عيبي إنه موجودٌ فيه أيضًا. ما العمل إذًا؟ الإنذار يكون دائمًا مفيدًا ومقبولًا. لو كان لنا أنفٌ أفضل، فإن نُفَاياتنا كانت ستبدو لنا أكثر نتانةً من غيرها لأنها نُفاياتنا. كان سقراط يعتقد أن من كان متهمًا هو وابنه وشخصٌ غريبٌ بممارسة العنف والظلم، يلزمه أن يتقدم هو أولًا بين أيدي العدالة، والتضرع ليد الجلاد كي يتطهَّرَ، لكن عليه في ما بعد أن يقدِّم ابنه والغريب في المرتبة الأخيرة، وإذا كان هذا المبدأ يبدو مثاليًا شيئًا ما، لنقلْ إن المتهم المعنيَّ يلزم أن يتقدم في المقام الأول للعقاب بإرادته وبضميره.

المظاهر

25. الحواس هي أول حكَمٍ علينا وأخصُّه، وهي لا تدرك الأشياء إلا بفعل الأحداث الخارجية؛ لذا ليس من الغريب أن يكون ثمة مزيجٌ كونيٌّ ودائمٌ للاحتفاليات والمظاهر في ثنايا مجتمعنا، بحيث تتمثل الحصة الأفضل

(1) Térence, **Andrienne**, IV, 2, v. 9.

والأكثر واقعيةً لقواعد المجتمع. ومع ذلك، فالأمر يتعلق دومًا بالإنسان، وطبيعتُه الجسمانية فعلًا. وكل من أراد أن يستعيد في هذه السنين طقوسًا دينيةً -لها طابعٌ تأمليٌ بالغٌ - وبعيدةً عن الماديات، لا يندهش إذا كان هناك من يعتقدون تبعًا لذلك أن الدين قد ينفلت من بين أيديهم -إذا لم يحافظوا على طابعه كأثرٍ وعنوانٍ وأداةٍ للانقسام- إلى أحزابٍ أكثر مما حافظوا على طابعه بذاته. والأمر نفسه يسري على المحادثة، فالصرامة واللباس ووضعية ذلك الذي يتحدث تمنح عادةً مصداقيةً لكلامٍ لا أهمية له، بل بليدٍ. يمكننا الارتياب في أن شخصًا كهذا بتلك الحاشية المحيطة به والذي يُخشى جانبه، لا قدْرات له مخالفةٌ للمعتاد، وأن شخصًا تُمنح له العديد من المهام والوظائف الرسمية، وينضح بالكراهية وبرائحة الموتى، ليس أكثر حِذْقًا من ذلك الذي يحيِّيه من بعيدٍ، والذي لم يمنحه أي واحدٍ أي منصبٍ. ليست فقط كلمات أولئك هي ما يحظى بإعجاب الناس وتقديرهم، وإنما أيضًا ملامحهم، ما دام كل واحدٍ يجتهد في أن يجد لها تأويلًا جميلًا وقويًّا. وإذا ما هم تنازلوا وشاركوا في محادثةٍ عاديةٍ، وتم التعبير لهم عن شيءٍ آخر غير القبول والمحاباة، فإنهم يستطردون في ذكر سلطة تجاربهم، وأنهم سمعوا كذا، وفعلوا كذا وكذا، بحيث إنك ترزح تحت نيْر الأمثلة. وأنا سأقول لهم عن طيب خاطرٍ إن ثمرة تجربة طبيبٍ جرَّاحٍ ليست فقط القصة البسيطة لتدخلاته الجراحية، وأنْ يتذكر أنه شَفَى أربعة مرضى من الطاعون وثلاثة من داء النِّقْرِسِ، وألا يكون قادرًا على أن يستخلص من ذلك حكمه العقليَّ، أمرٌ لا يجعلنا نحسُّ أنه أصبح أكثر حكمةً بممارسة مهنته. بالشكل نفسه الذي يحدث في حفلٍ موسيقيٍّ، نحن لا نسمع العود ولا البيان ولا الناي، وإنما تناغمًا هارمونيًّا شاملًا، وجماع ونتاج كل هذا مُجتَمعُنا.

26. إذا كانت السفرات والوظائف الرسمية قد حسَّنَتْ من وضعية هذه الشخصيات، فذلك ينبغي أن يظهر في مُنتجاتهم الفكرية.لا يكفي أن يراكم المرء التجارب، عليه أن يزنها كي يستنبط منها الأفكار والنتائج التي تخفيها. لم نعرف في تاريخنا مؤرخين كما اليوم، ومن المفيد والحسن أن ننصت لهم؛ لأنهم يمنحوننا عددًا وافرًا من النصائح النبيهة المستقاة من خزَّان ذاكرتهم، والتي يمكن أن تُسدي المعونة في الحياة بالتأكيد. لكن ذلك ليس ما نسعى إليه في هذه اللحظة، نحن نبحث إن كان هؤلاء

الحُكاة للقصص والأخبار وجامعوها يمكن الثناء عليهم بذاتهم.

27. أكره كل أنواع الطغيان -في الكلام كما في الأفعال- وأنا أنتفض طواعيةً ضد العناصر الخارجية التافهة التي تفسد حكمنا العقلي من خلال حواسنا، وحين أراقب عن كثبٍ ما نزعم أنه خارقٌ، فإني أجد أنه صادرٌ في أحسن الأحوال عن أناسٍ عاديين كالآخرين.

«ذلك أن الحس المشترك أمرٌ نادرٌ
في تلك الدوائر السامية»[1].

لعلنا أيضًا نقدِّرهم أقل مما هم عليه، ونراهم أصغر مما هم عليه بفعل أنهم يعملون ويظهرون أكثر، وأنهم لا يتوافقون مع العبْء الذي فرضوه على أنفسهم. يلزم الأكثر من القوة والصلابة لدى الحمَّال أكثر من العبْء الذي يحمل، ومن لم يُبْدِ بعدُ عن كافة قُواه، يجعلك تتساءل إذا ما كان قد فضل له بعض القوة أم أنه قد استهلكها كلها، من يرزح تحت عبْء حمله يُبين عن حدوده وعن ضعف كتفيْه؛ لهذا فإننا نرى الكثير من غير الأكْفَاء من بين الناس العلماء، وأكثر من أي مكانٍ آخرَ، فهم كانوا سيصلحون ليكونوا إداريين جيدين وتجارًا كبارًا وصناعًا ماهرين؛ إذ أن قدراتهم الطبيعية قد قُدَّت على مقاس ذلك، بيد أن العلم شيءٌ بالغ الثقل، وهم يخرُّون ضعفًا تحت ثقله؛ فلكي يقوم ذكاؤهم وعقلهم باستعراض هذه المادة القوية وتقسيمها واستخدامها والانتفاع بها، لا يكون لهم ما يكفي من الصلابة ولا من الحذق؛ فالعلم لايمكنه أن يسكن إلا الطبائع القوية، وكم هي نادرةٌ. يقول سقراط إن العقول الضعيفة تفسد الفلسفة باستخدامها، فهي تبدو غير نافعةٍ ومؤذيةٍ حين يتم استعمالها استعمالًا سيئًا. بهذا الشكل تُفسد هذه العقول نفسها.

«مثل القرد الذي يقلد وجهه وجه الإنسان
فيقوم طفلٌ بتغطيته برداءٍ من الحرير
تاركًا ظهره ومؤخرته عاريين
وهو مما يمتع الضيوف»[2].

(1) Juvénal, **Satires**, VIII, v. 73.

(2)Claudien, **Oeuvres: contre Eutrope**, I, vv. 303 sq.

28. وقلِ الشيء نفسه عمَّن يحكموننا ويسيِّرون شؤوننا، والذين يمسكون بالعالم بين أيديهم، فليس كافيًا لهم أن يكون لهم ذكاءٌ عاديٌّ، وأن يقدروا على ما نقدر عليه، هم أدنى بكثيرٍ منا إذا لم يكونوا أعلى منا بكثيرٍ، فبما أنهم يعِدوننا بالكثير فهم مدينون لنا إذًا بالأكثر؛ لهذا فإن الصمت ليس فقط لديهم طريقةٌ للتظاهر بملامح صارمةٍ واستدعاء الاحترام، وإنما يكون عادةً مفيدًا لهم ومربحًا، وهذا أمر ميغابيسوس[1] حين راح لزيارة الرسام أبيليس[2]، مكث معه طويلاً لازمًا الصمت، ثم بدأ يتحدث عن أعماله، وهو ما جرَّ عليه هذا التوبيخ القاسي: «عندما كان الصمت حليفك، كنتَ تبدو شخصيةً عظيمةً بسبب أطواقك ولباسك الفاخر، لكن بعد أن سمعناك تتحدث، فإن كل شخصٍ حتى صبيان مزسمي صاروا يزدرونك». فتلك الزينة الرائعة، وتلك المناصب السامية لم تكن تسمح له بأن يكون جاهلًا مثل كل شخصٍ من العامة، والحديث عن الرسم على عكس الحسِّ السليم، كان عليه بصمته أن يحافظ على ذلك المظهر الخارجي الذي يوحي بأهليةٍ ممكنةٍ،كم من الأغبياء من زمننا كانت الملامح الصارمة والصامتة صالحةً لتكون لهم علامةً على الحكمة والمقدرة؟

29. المناصب العليا والمسؤوليات تُمنَح بالضرورة تبعًا للموقع الاجتماعي أكثر من الاستحقاق، ومن الخطأ لوم الملوك على ذلك، بالمقابل يكون من المدهش حقًّا أن يصيبوا في اختيارهم مع قلة وسائلهم الناجعة في ذلك.

«المزية الأولى لأميرٍ هي أن يعرف رعاياه»[3].

ذلك أن الطبيعة لم تحبُهم بنظرةٍ يمكنها أن تشمل الناس كلهم؛ كي يمكنهم أن يميزوا فيهم الأفاضل، وولوج صدورنا كي يعرفوا منها إرادتنا وقيمتنا الحقة؛ لهذا من اللازم عليهم أن يفرزونا بالتخمين ورويدًا رويدًا، أي من خلال السلالة والأفكار والسمعة، فتلك أدلةٌ فعليةٌ. ومن يستطيع أن يجد الوسيلة للقرار بشكلٍ عادلٍ ويختار الرجال تبعًا للعقل سيشكِّل حكومةً ذات صورةٍ مكتملةٍ.

(1) أحد كبار النبلاء في بلاط ملك الفرس حسب بلوتارخوس.

(2) رسام شهير في العصور القديمة، ولد ونشأ في إيونيا وعاش في القرن الرابع ق.م.

(3) Martial, **Épigrammes**, VIII, xv.

30. ويُقال: «نعم، غير أنه قد نجح في هذا المشروع الكبير». إنه أمرٌ فعليٌّ، غير أن الأمر لا يكفي، فنحن نقبل عن حقٍّ أن ليس علينا الحكم على الأهداف بالنتائج، كان القرطاجيون يعاقبون قوادهم على قراراتهم السيئة، حتى لو تمَّ تعديلها بنتائج حسنةٍ، والشعب الروماني غالبًا ما رفض النصر لقادته العسكريين عقب انتصاراتٍ مفيدةٍ وباهرةٍ؛ لأن تسييرهم لم يكن موافقًا لنجاحهم.

القوة القاهرة للقدَر

31. نحن نلاحظ عمومًا في شؤون العالم أن القدَر -ولكي يبيّن لنا كم هو قاهرٌ ويتمتع بتخييب افتراضاتنا- يمنح الحظ للناس بما أنه لم يستطع أن يجعلهم أكثر حكمةً، فهو يحب أن يمنح الحُظوة للأعمال التي تنسج نفسها بنفسها؛ لهذا نرى كل يومٍ أن الأكثر بساطةً من بيننا ينجحون في مشاريع كبرى عامة وشخصيةٍ. أجاب الفارسي سيرامنيس من اندهشوا من أن شؤونه تسير من سيّئٍ إلى أسوأ مع أن مشاريعه كانت جيدةً: «أنا السيد الوحيد لمشاريعي، أما نجاح شؤوني، فالقدَر هو من يقرّر ذلك». ومن كنت أتحدث عنهم يمكنهم أن يقولوا الشيء نفسه، ويمكنهم الإجابة بالكلام نفسه إذا ما نحن قلبنا الظروف، أغلب أشياء العالم تسير بنفسها.

«فالأقدار تعرف طريقها»[1].

32. النتيجة غالبًا ما تبرِّر سلوكًا بالغ السوء، فتدخلنا لا يكون أبدًا شيئًا آخر غير الرتابة، ونحن نأخذ بالاعتبار غالبًا العوائد المعروفة أكثر من العقل، أثار إعجابي في الماضي نجاح مشروعٍ معيَّنٍ، غير أن الفرصة سنحت لي أن أعرف من فاهِ من قاموا به ونجحوا فيه الأسباب والعمليات التي تبرِّرُ ذلك النجاح، لم أعثر في ذلك على غير أفكارٍ تافهةٍ، بيْد أن الأفكار التافهة والأكثر استعمالًا، قد تكون ربما الأكيدة أكثر والملائمة أفضل في الممارسة، على الأقل للحصول على القيمة، وإذا

(1) Virgile, **Énéide**, III, 395.

كانت الأفكار الأشدُّ سطحيةً هي المضمونة أكثر، أفليست الأفكار الأكثر حقارةً والأشد ضعفًا، والمكرورة أكثر هي الأبْلغ ملاءمةً للشؤون الاجتماعية والاقتصادية؟ لحماية سلطة مجلس العرش، ليس من الضروريِّ أن يشارك فيه من هبَّ ودبَّ، ولا حتى أن يرى منه العتبة، فعلى المرْء أن يكون محترمًا بسلطته وبشكلٍ تامٍ حتى يمكنه المحافظة على سمعته.

33. قبل أن أقوم بأي عملٍ، يرسم لي تفكيري -شيئًا ما- ما عليَّ فعله، فأقلّبه من كافة جوانبه حتى الأكثر سطحيةً منها، أما الجزء الأكبر من العمل- أي الأصعب - فقد اعتدت أن أتركه للقدر.

«اترك الباقي للآلهة»[1].

السعادة والتعاسة في نظري قوّتان قاهرتان. ليس من الحِلم في شيءٍ أن نعتقد أن الحكمة البشرية يمكنها أن تلعب دور القَدَر، وغير مُجْدٍ عملُ مَن يتصور أنه يمكنه التحكم في علله ونتائجه بحيث يسيِّر بيده تطور شؤونه، وإن ذلك لأمرٌ صحيحٌ خاصةً في الشؤون الحربية. لم يعرف الناس أبدًا الحذر والحيطة في الأمور الحربية كما لدينا، كما يمكن أن نلاحظ ذلك، أذلك بسبب الخشية من الضياع في الطريق، بحيث يجعلون التدخُّل حلاً أخيرًا لتلك اللعبة؟

34. بل أكثر من ذلك، تتبع حكمتنا نفسها -كما تفكيرنا في الأساس- الوجهةَ التي رسمها القدَر. إرادتي واستدلالاتي تسير طورًا في اتجاهٍ وطورًا في اتجاهٍ آخرَ، والعديد من هذه الحركات يكون من غير تدخلي، فعقلي له حوافز وحركات يومية عارِضة.

«حالات النفس تتغير، والقلوب تحس تارةً بعاطفةٍ، وتارةً بأخرى، كما الغيوم التي تحركها الرياح»[2].

(1) Horace, **Odes**, I, 9, v. 9.

(2) Virgile, **Géorgiques**, I, vv. 420-422.

35. ولنراقبْ أولئك الأكثر نفوذًا، الذين ينجزون مهمَّاتهم على أفضل شكلٍ، فسنرى أنهم عمومًا الأقل ذكاءً. ولقد حدث أن حكمت النساء والأطفال والحمْقى دولًا كبيرةً، كما حكمها الأمراء الأكثر مقدرةً، ويصرح ثوكيديديس[1] أن العقول الفظَّة تنجح في ذلك أكثر من العقول الحصيفة، ونحن نعزو آثارحظهم إلى حذقهم.

«لما كان الحظ يحالف شخصًا ويتعالى به
نعتبره شخصًا ذا قيمةٍ»[2].

لهذا أقول إن الأحداث هي في كل الأحوال أدلةً ضعيفةً على قيمتنا ومؤهلاتنا.

36. قلت آنفًا يكفينا أن نرى شخصًا يحتل مرتبةً رفيعةً من بين الأعيان، وحتى لو كنا رأيناه من ثلاثة أيامٍ فقط كشخصٍ عاديٍّ؛ كيْ تغشى صورة العظمة والمقدرة رأينا، ونتخيل أن جدارته قد تزايدت لما اكتسبه من صيتٍ وحظوةٍ، ونحن لا نحكم عليه من خلال قيمته الحقيقية، وإنما من خلال مرتبته، كما نفعل ذلك مع النقود، وإذا ما دارت دوائر الزمن، وسقطَ في وسط العامة، فإن كل واحدٍ سيبحث باندهاشٍ عما جعله يرتقي عاليًا، فيُقال عنه: «هل هو الشخص نفسه، ألم تكن له المؤهلات نفسها حين كان في المنصب؟ وهل يكتفي الملوك بهذا النزْر اليسير من الكفاءة؟ حقًّا لقد كنَّا في أيدٍ أمينةٍ». إنه أمرٌ لاحظته مرارًا في حياتي. حتى قناع العظمة -كما يقدمونه لنا في المسرح- يؤثر فينا بشكلٍ ما ويخدعنا. وما أحبُّه في الملوك هو الجماهير التي تقدسونهم، فإذا كان الناس يَدينون لهم بالإعجاب والخضوع، فذلك لا علاقة له بالذكاء، فعقلي لن يخور ويستسلم بل قدماي فقط.

37. حين سُئل ميلانثيوس عن رأيه في تراجيديا ديونيسيوس الكبير أجاب: «لم يحدث أن شاهدتها، ما دامت تصير تراجيديا غامضةً بلغته». أغلب من يحكم على خطابات العظام في هذا العالم عليهم أن يقولوا أيضًا: «لم

(1) Juste Lipse, **Politiques**, IV, 9.

(2) Plaute, **Œuvres complètes**, **Pseudolus II,** 3, v. 15.

أسمع ما قال، ما دام قوله قد تشوَّش بالصرامة والعظمة والجلالة».

38. كان أنتيستينيس يحاول يومًا أن يقنع الأثينيّين بأن يستخدموا حميرهم في حرث الأرض بقدر استعمالهم للخيل، وهو ما أجابوه عليه بأن هذه الدابة لم تُخلق لذلك، فردَّ عليهم: «لا يهم، فالأمر لا يرتهن إلا بالأوامر التي تصْدرون، أفلا يغدو حينها الأكثر جهلًا والأقل مقدرةً من بين أناسكم الذين تستخدمونهم لتسيير حروبكم، أكْفَاء لأنكم تستخدمونهم؟».

39. ويمكننا أن نقارن بذلك عوائد شعوبٍ كثيرةٍ تختار ملكها من بينها وتمجِّده، بحيث لا تكتفي بتشريفه، وإنما تقدِّسه. والمكسيكيون ما إن يتم وضع ملكهم على العرش حتى يكفوا عن الجرأة على النظر إليه مباشرةً، كما لو أنهم تحدُّوه بجعله ملكًا، ومن بين الأقسام التي يجعلونه يقسم بها هي أن يحافظ على دينهم وشرائعهم وحرياتهم وأن يكون شجاعًا وعادلًا، كما أنهم يجعلونه يقسم بأن يُسقط المطر عند الضرورة، وأن يحافظ على الأنهار في مجراها، وأن يخصب الأرض كي تثمر ما لذ وطاب لشعبه.

الحفاظ على حاسَّة النقد

40. وأنا أعارض هذا السلوك العام، وأحترس أكثر من المؤهلات حين تكون مصحوبةً بمرتبةٍ ساميةٍ وبالتقديس الشعبيِّ، انظروا كم هو مفيدٌ أن يستطيع المرء التحدث متى شاء، وأن يختار موضوعه، وأن يقطع المناقشة هناك أو يغيرها بسلطةٍ نافذةٍ، وأن يدافع عن نفسه ضد الاعتراضات - بهشَّةٍ من رأسه أو بسمةٍ أو لحظة صمتٍ- أمام حاضرين يرتعشون من الإجلال والاحترام.

41. قام رجلٌ يملك ثروةً عظيمةً - حين كان عليه أن يعطي رأيه في أمرٍ عاديٍّ تمت مناقشته بطريقةٍ رخوةٍ على مائدته- بالبدء بما يلي: «لا يمكن أن يكون سوى كذَّابٍ أو جاهلٍ من يقول شيئًا آخر غير...إلخ». عليكم إذًا باتِّباع هذه الحدَّة الفلسفية وبيدكم خنجرًا!

42. إليكم ملاحظةً أخرى أستعملها كثيرًا: ففي المناقشات والمحادثات، ليس علينا بالضرورة أن نتقبل كل الكلمات التي تبدو جيدةً، أغلب الناس أغنياء بمقدراتهم التي لا تنتمي لهم شخصيًّا، فقد يحدث لهذا الشخص أو ذاك أن يقول كلمةً حسنةً، أو يقدم جوابًا ملائمًا أو يتلفظ بحكمةٍ ويمنح القيمة لذلك، من غير أن يعرف مَداها، ويمكن التحقق من ذلك من مثالي نفسه بأن المرء لا يملك كل ما يقتبس من الكتاب الآخرين. لا ينبغي الاستسلام لكل ما نسمع، مهما كان جماله أو حقيقته، فتلك الخطابات التي نسمع، إما علينا مصارعتها عن إرادةٍ، وإما علينا البعد عنها قليلًا كما لو لم نكن نسمعها؛ كي نتفحَّصَ من كافة الجوانب كيف استقرت لدى مؤلفها، قد يحدث أن نتعثَّر أمام سيف الخصم، بحيث يخترق نصله بدننا أكثر مما لو ظللْنا وقوفًا.

43. في الماضي استعملت -أحيانًا في عجلة الصراع- ردودًا فتحت لي منافذ أكبر مما آملت فيها. كنت أطلقها لعددها، وكان الآخرون يتلقوها بوزنها، كما أني حين أتناقش مع شخصٍ قويِّ الشكيمة، أتلذذ باستباق خلاصاته، بحيث أعفيه من أن يفسر فحوى قوله، فأنا أحاول أن أتوقع فكرته الوليدة التي لم يبلورها بعد؛ ذلك أن تنظيم عقله ووجاهته ينذراني عن بعدٍ ويحذِّراني مسبقًا، أما مع الآخرين فإني أقوم بالعكس، بحيث ليس عليَّ أن أفهم أي شيءٍ غير ما يقولون، وليس عليَّ افتراض أي شيءٍ، وإذا ما هم قاموا بالحكم بألفاظٍ عامةٍ من قبيل: «هذا جيِّدٌ وهذا ليس جيداً»، بحيث يصيبون في الحكم، فلْنتساءلْ إن لم يكن الحظ هو الذي نجح في ذلك مكانهم.

44. وإذا ما حددوا حكمهم ولخَّصوه سيقولون: «لماذا هذا الأمر هكذا، وكيف يأتي هذا؟»، فهذه الأفكار الكونية التي أصادفها باستمرارٍ لا تقول شيئًا، إننا نخالهم أناسًا يوجهون التحية لشعبٍ بكامله أو لجمْهرةٍ من الناس، ومَن منهم لهم معرفةٌ حقَّةٌ، يحيُّون الناس كل واحدٍ باسمه وبشكلٍ فرديٍّ، غير أن ذلك أمرٌ فيه مخاطر؛ لهذا رأيت مرارًا عقولًا غير واثقةٍ من نفسها، تتظاهر بالذكاء بالتسطير في قراءة كتابٍ على مقطعٍ رائعٍ، وهم يخطئون الاختيار بحيث إنهم عوض أن يظهروا لنا

جوْدة المؤلف، لا يظهرون لنا غير جهْلهم الخاص. نحن لا نخسر شيئًا إن صحنا بعد أن سمعنا مقاطع لفرجيليوس: «يا له من جمالٍ!»، فهكذا ينجح المراوغون في إيجاد مخرجٍ لهم، أما أن يتابعوا المؤلف خطوةً خطوةً ويبحثوا بالأحكام الدقيقة والمختارة عن المَوَاطن التي يُبدي فيها عبقريته، وهو ينتقي ألفاظه وعباراته وابتداعاته وكل مزاياه الواحدة بعد الأخرى، فذلك أمرٌ مستحيلٌ. «**يلزم أن نأخذ بعين الاعتبار كل ما يقول شخصٌ ما، لكن أيضًا ما يفكر به ولماذا يفكر به**»[1].

45. أسمع يوميًّا أغبياء يتلفظون بكلماتٍ غير غبيةٍ، إنهم يقولون شيئًا حسنًا، لكن لِنحاولْ أن نعرف إلى أي حدٍّ استوعبوا قوْلهم، وبأي طريقةٍ فهموه، فنحن نساعدهم على استعمال هذه الكلمة الجميلة التي لا يملكونها فعلًا، والتي توجد لديهم فقط بالإيداع، لقد نطقوا بها وهم يتلمسون سبيل الكلام، ونحن الذين نمنح القيمة لذلك.

رِضا الأغبياء عن أنفسهم

46. وأنتم تساعدونهم أيما مساعدةٍ فلماذا ذلك؟ إنهم لا يُبدون لذلك أي امتنانٍ، ولا يغْدون به إلا أكثر غباءً. لا تعاونوهم بل اتركوهم يعمهون، فسترونهم يستخدمون الكلمات كما شخصٌ يخاف أن يحترق، ولا يجرؤون على نقلها من مكانها ولا تغيير منظورها ولا تعميقها، وإذا ما أنتم حركتموها ولوْ قليلًا فستنفلت منهم، بحيث يتركونها لكم مهما كانت رائعةً وقويةً. إنه سلاحٌ فعالٌ غير أنه لا يُمسَك به بشكلٍ جيّدٍ، وكمْ من مرةٍ جرَّبت الأمر، لكن لو أنك أتيت لنصحهم ومعاونتهم، فإنهم يمسكون للتوِّ بالامتياز الذي يمنحه لهم تأويلك ويسارعون إلى القول: «ذلك ما عنيت قوله، هذا ما أعتقد بالضبط، وإذا لم أعبِّر عن ذلك هكذا، فلأني لم أجد الكلمات لذلك». تبًّا لهم! علينا أن نكون قاسين كي نصحح هذه البلادة المتكبِّرة. إنَّ مذهب هيجيسياس -القائل إن ليس

(1) Cicéron, **De Officiis**, I, 41.

علينا أن نكرَه الآخرين أو ندينهم وإنما أن نعلِّمهم- صالحٌ في مواطن أخرى، أما هنا فإن من ينقذ ويُنهض من لا يهتم بذلك ولا يستحقه، يبرهن بالأحرى على الظلم واللاإنسانية. وأنا أحب أن أترك أولئك الناس يتعثرون ويرتبكون أكثر، آملًا أن يسيروا بعيدًا بحيث يرون أنفسهم في الأخير كما همْ على حقيقتهم.

47. الغباء أو تشوُّش العقل ليس شيئًا يمكن علاجه بإنذارٍ بسيطٍ، ويمكننا بهذا الصَّدد ترديد ما أجاب به كورش من كان يضغط عليه لكي يخطب في جنوده لحظة انطلاق المعركة: «الناس لا يصبحون مُحاربين وشجعانًا للتوِّ بفعل سماع خطبةٍ جميلةٍ، كما أننا لا نصبح موسيقيين بعد سماعنا لأغنيةٍ جميلةٍ»[1]. إنه تعلُّمٌ يلزم أن يتمَّ في وقتٍ سابقٍ من خلال تربيةٍ طويلةٍ وثابتةٍ.

48. نحن نَدين لبني البشر بهذه العناية والمثابرة في إصلاحهم وتعليمهم، لكن أن نروح لوعْظ المارة ونرغب في إصلاح جهل أو غباء من هبَّ ودبَّ، فذلك سلوكٌ أشجبه، وأنا أقوم بذلك نادرًا، حتى في الكلمات التي أتبادلها مع نفسي، فأتخلى عن كل شيءٍ على أن أضطر لكلامٍ قد يبدو في غير محلِّه مثل معلِّمِ مدرسةٍ، وذوقي لا يوجهني نحو المبتدئين، لا في الكلام ولا في الكتابة. لكني لا أرمي بنفسي أبدًا وسط الأشياء التي تقال أمام حشدٍ كبيرٍ أو أمام أشخاصٍ عديدين لا بالكلام ولا بالحركات، مهما كانت عبثيةً أو زائفةً. زدْ على ذلك أنْ لا شيء يُغيظني في الغباء أكثر من أن أراها تمنح -من نفسها- رضًا عن النفس أكبر مما يمنحه لنا العقل.

49. من المأسوف له أن تمنعك الحكمة من أن تكون راضيًا عن النفس، وأن تكون واثقًا في نفسك، وأن تجعلك دومًا تعيسًا وخائفًا، فيما أن العناد والتهوُّر يملآن ضيوفهما بالفرح والثقة في النفس. الناس الأقل كفاءةً هم من ينظرون للآخرين بازدراءٍ، بحيث يعودون دومًا من المعركة مشبَعين بالمجد والفرح، وفي الغالب تكفي هذه المباهاة في الخطاب والفرح البادي على الوجه لإقناع الحاضرين بنصرهم المجيد، وهم

(1) Xénophon, **Cyropédie**, II, 3.

عادةً قليلو الحصافة وعاجزون عن الحكم السديد والوقوف على المزايا الحقة. إن العناد في الرأي والحماس له هما الدليلان الأكيدان على الغباء. أثمّة من هو أكثر ثقةً في نفسه وأشدُّ حقدًا وشرودًا وأبلغ جديّةً وصرامةً من الحمار؟

50. ألا يمكن أن نصنف -تحت عنوان المحادثة والمناقشة- الردود الفظّة لكن المليئة بالروح التي تثيرها الألفة والمرح بين الأصدقاء، الذين يمزحون ويتهكمون ببهجة بعضهم من البعض؟ ذلك تمرينٌ يجعل طبعي المرح قادرًا عليه، وإذا لم يكن ذلك الطبع بجدِّية وصرامة الطباع التي تحدثت عنها من قبل، فهو ليس أقل براعةً وذكاءً ولا أقل إفادةً منها، كما كان يعتقد ذلك ليكورغوس[1]. وفي ما يخصني، فأنا أنفث في تلك المحادثة من الحرية أكثر من العقل، ولي فيها الحظ أكثر من الابتكار، غير أني أكون فيها كامل التسامح؛ لأني أتحمَّل من غير تردُّدٍ الأجوبة، لا القاسية منها فحسب وإنما حتى المبالِغة منها، وحين يرميني أحدهم بنقدٍ لاذعٍ أرخي أذناي بمرحٍ، عازمًا على الثأر لنفسي في الوقت المناسب، فمن يريد أن يكون دومًا الرابح ليس تاجرًا جيدًا. أغلب الناس يغيرون وجههم وصوتهم حين تخونهم قواهم تحت وطأة الغضب النافر، بحيث إنهم -عوضًا عن الثأر لأنفسهم- يكشفون في الآن نفسه عن ضعفهم وعدم قدرتهم على تحمُّل الصُّدمة. ففي هذه اللعب ننقُر على الوتر الحساس لنواقصنا، تلك التي عادةً-حين نكون هادئين- لا نستطيع مسَّها من غير أن يجرحنا ذلك، إننا نكتشف إذًا في النهاية عيوبنا كما عيوب الآخرين.

51. هناك لُعبٌ أخرى: وهي لُعبٌ بالأيدي، فظةٌ وغير متحكَّمٍ فيها -على الطريقة الفرنسية -أمقتها مقتًا. فأنا لي بَشَرَةٌ رقيقةٌ وحسَّاسةٌ. وفي مسير حياتي، رأيت ذلك يتسبَّب في موت أميرين من سلالة الملوك[2].

52. ثم إني حين أريد أن أطلق حكمًا على شخصٍ، أسأله إن كان راضيًا عن نفسه، وإلى أي حدٍّ يرضيه ما يقول وما ينشغل به، فأنا أريد تفادي

(1) Plutarque, **Vies Parallèles,** Vie de Lycurgue, XV.

(2) نحن نعرف حالة الملك هنري الثاني الذي قُتل في مباراةٍ للمبارزة عام 1559 م، غير أن مونتيني يشير هنا أيضًا إلى الملك فرانسوا دو بوربون، الذي قتل في مبارزةٍ بكرات الثلج، وهنري دو بوربون الذي مات في الخامسة عشرة من عمره بسبب سقطةٍ من على متن جواده في نزهة.

الأعذار من قبيل: «لقد قمت بذلك يومًا من باب التسلية».

«هذا السيف انتزع من السنديان وهو غير كاملٍ»[1].

أو: «لقد أخذ مني ذلك وقتًا طويلًا، ولم أُعد قراءته من حينها». أضيف إذًا: «لنتركْ جانبًا تلك المقاطع، أعطني منها واحدًا يمثلك تمثيلًا كاملًا، من خلاله يحلو لك أن يتم الحكم عليك»، أو أيضًا: «ما الذي تعتبره أجمل ما في هذا الكتاب؟ هذا الجزء أم هذا الآخَر؟ هل هي رشاقة الأسلوب، أم الأفكار، أم الخيال، أم الحكم العقلي، أم المعرفة؟». ففي الحقيقة عادةً ما أدرك أن المرء يخطئ في الحكم على كتاباته كما على كتابات الآخرين، لا لأن لنا ارتباطًا عاطفيًّا بها؛ وإنما لأننا لسنا قادرين على معرفتها وتقديرها حقَّ قدْرها. فالكتاب-كما أي عمل- يمكنه -بقوته الخاصة وبمصيره السعيد- أن ينفصل عن صاحبه بل ويجاوزه، وأن يسير إلى أبعد مما يتخيل ومما يعرف، وفي ما يخصّني، لا أحكم أبدًا على قيمة أي عملٍ بصعوبةٍ أكثر إلا حين يتعلق الأمر بأعمالي، وأنا أضع «المقالات» تارةً في الأسفل وأخرى في الأعلى، بشكلٍ غير ثابتٍ وكثير التردُّد والحيرة.

53. ثمة كتبٌ جيدةٌ مفيدةٌ بموضوعاتها ولا يستمد منها المؤلف أي سمعةٍ، وكتبٌ جيدةٌ كمثل الأعمال الجيدة، يخجل منها صانعها. لو كان لي أن أصف سلوك الناس على مائدة الطعام وطريقتنا في اللباس، فسأفعل ذلك على مضَضٍ، ويمكنني أيضًا أن أنشر المراسيم التي صدرت في زمني، ورسائل الأمراء التي سقطت بين أيدي العموم، أو تلخيص كتابٍ جيِّدٍ أيضًا -وكل تلخيصٍ لكتابٍ جيِّدٍ هو غباءٌ ملخَّصٌ- قد يضيع هذا الكتاب أو يعرف العديد من التقلُّبات الأخرى، واللاحقون علينا سوف يستفيدون أيما فائدةٍ من مثل هذه المؤلفات؛ لكن هل هناك من شرفٍ غير ذلك الذي سأدين به للحظ؟ فالقسط الأعظم من الكتب الشهيرة هي من هذا النوع.

54. حين قرأت فيليب دو كومّينيس- وهو بالتأكيد مؤلفٌ جيّدٌ - من بضع سنواتٍ خلت، عثرت فيه على هذه العبارة الخارجة عن المعتاد «على

(1) Ovide, **Tristes**, I, 7, v. 29.

المرء الاحتراس من أن يخدم جيدًا سيِّده، بحيث يمنعه من أن يعثر له على الجزاء المناسب». تلك هي الفكرة التي كان عليَّ امتداحها لا المؤلف، ذلك أنني صادفتها لدى تاسيتوس من وقتٍ قليلٍ فقط: «الحسنات رائقةٌ طالما أنجزْناها، غير أنها إن جاوزت الحدَّ، فهي لا تجرُّ عليك إلا الكراهية»[1]. ويقول سينيكا بإلحاحٍ: «ذلك أن الشخص الذي يعتبر مخجلًا أن يردَّ شيئًا، يريد ألا يكون هناك شخصٌ نردُّ له شيئًا»[2]. أما كوينتوس شيشرون، فيبدو أقل حسمًا: «من لا يحس بأنه لا يدين لنا بشيءٍ، لا يمكن أن يكون صديقًا لنا»[3].

55. يمكننا -تبعًا للموضوع المطروق- أن نجد أن مؤلفًا رجلٌ عالمٌ وذو ذاكرةٍ جيدةٍ، لكن للحكم على ما يملك حقًّا، وهو ما يمكن تقديره، أي القوة وجمال الروح. علينا أن نعرف أولًا ما له وما ليس له، وفي ما ليس له ما يعود له باختياره له، وبالتنظيم الذي نظمه به وبالمحسنات التي أدخلها عليه وبلغته، ولو أنه قد اقتبس المادة وأفسد الشكل، كما يحدث الأمر غالبًا؟ فنحن غير المتعودين كثيرًا على الكتب تصادفنا هذه الصعوبة، حين نعثر على كتابٍ ثمينٍ لدى شاعرٍ جديدٍ، وبرهانٍ قويٍّ لدى مبشِّرٍ، لا نجرؤ -مع ذلك- على استعارته منهم قبل أن نستخبر لدى عالمٍ عارفٍ؛ للاستخبار إذا كان ذلك كتابهم الخاص أم أنهم اقتبسوه، وحتى اليوم لا زلت آخذ حذري وحيطتي من الأمر.

كورنوليوس تاسيتوس

56. قرأت -دفعةً واحدةً- تاريخ تاسيتوس، وهو ما لا يحصل لي غالبًا، فمنذ عشرين سنةً كنت لا أجالس كتابًا أكثر من ساعةٍ، وقد قرأته بإشارةٍ من نبيلٍ تحترمه فرنسا أيما احترامٍ[4] لقيمته الشخصية كما لقدراته وطيبته، وهو ما نجده أيضًا لدى إخوانه، وقد كان له منهم الكثير. وأنا لا

(1) Tacite, **Annales**, IV, 18.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LXXXI.

(3) Quintus Cicéron, **De petitione consulatus**, X.

(4) هو الكونت دو غورسون، والمقطع 26 من الفصل الأول أهداه مونتيني للكونتيسة دو غورسون.

أعرف مؤلفًا يمزج بين التأملات ذات الطابع العمومي وهذا الكم الهائل من الملاحظات عن العوائد والمنازع الفردية، ويبدو لي أنه-على عكس ما يعتقد هو ذاته؛ وهو يرسم لنفسه مهمَّة الوصْف الدقيق لحيوات أباطرة زمنه الغريبة والاستثنائية في جوانب منها، وأعمالٍ معروفةٍ أفرزتها وحشيتهم على رعاياهم- قد كانت له أشياء أقوى وأهمُّ ليحْكيها لنا، أفضل من أن يسرد الوقائع والحروب وقلاقل العالم وفِتنه؛ ولهذا فإني غالبًا أجد أنه يكون مخيِّبًا للآمال حين يمرُّ مرور الكرام على تلك الميتات الشريفة، كما لو كان يخشى أن ينفث فينا الملل ويجنبنا طول الحكايات.

57. هذا الشكل من التأريخ هو الأكثر إفادةً، فالحركات العمومية ترتهن بالأخص بالوجهة التي يرسمها لها القدَر، أما الحركات الفردية فترتَهن بالأخص بنا. إننا هنا أمام حكمٍ لا أمام حكايةٍ تاريخيةٍ، ونحن نجد لديهم المبادئ أكثر من السرود، فهو ليس كتابًا للقراءة، وإنما كتابٌ للدراسة وللحفظ، إنه مليءٌ بالأحكام الملائمة وغير الملائمة؛ إذْ إنه مَشْتلٌ من الخطابات الأخلاقية والأصلية، صالحٌ لمن يشاركون في تسيير العالم، وهو يستعرض غالبًا أفكاره بأدلةٍ صُلبةٍ وقويةٍ، بشكلٍ حادٍّ ودقيقٍ تبعًا للأسلوب العاطفي لذلك الوقت، فقد كانوا حينها يحبون التفخيم، بحيث إذا لم يجد المؤلف ما يكفي من الحدَّة والدقة في الأشياء، يتم استقاء ذلك من الكلمات التي يتم استعمالها للحكي.

58. أسلوب تاسيتوس قريبٌ جدًا من أسلوب سينيكا، غير أنه يبدو لي أكثر كثافة، أما أسلوب سينيكا فأكثر حدةً، وعمله يلائم أحسن وضعيةً مضطربةً ومريضةً كما هي وضعيتنا في هذا الوقت، بحيث يبدو لنا غالبًا أننا- نحن- من يصف ومن ينتقد، ومن يزعمون الشك في صدقه، يخونون أنفسهم إذ إنهم في الحقيقة يعاتبونه على شيءٍ آخر. ومن جهتي آسف بعض الشيء على أنه قسى في حكمه على بومبّيوس أكثر من أناسٍ آخرين شريفين عاشوا وتعاملوا معه، وجعله على قدم المساواة مع ماريوس وسولّا، سوى أنه ظل أكثر خفاءً منهم، صحيحٌ أن طريقته في تسيير شؤونه لم تكن من غير طموحٍ ولا من غير روح الانتقام،

وأصدقاؤه أنفسهم كانوا يخشون أن يقوده النصر إلى ما يجاوز حدود المعقول، لكننا لم نكن لنخشى أن يأتي أعمالًا أكثر حماسة ما هي لدى الآخرين، فلا شيء في حياته كان ينبئ بخطر وحشيةٍ جذريةٍ وطاغوتيةٍ. علينا ألا نحول الشك إلى بداهةٍ؛ ولذلك لا أشاطر رأي تاسيتوس في ذلك. وأن تكون قصصه صادقةً وشريفةً، أمرٌ يمكننا التدليل عليه في كونها لا تتلاءم بالضبط مع استنتاجاته وأحكامه، ففي أحكامه نراه يتبع المنحدر الذي رسمه لمسيره، بعيدًا عن الواقع الذي يصفه لنا، والذي لم يسْعَ إلى التخفيف منه في أي شيءٍ، إنه ليس بحاجةٍ إلى أعذارٍ في أنه دافع عن ديانة زمنه -بالرغم من الشرائع التي كانت تدينها- وتجاهل الديانة الحقَّة.

59. لقد اهتممت دومًا بحكمه، وإلى اليوم أتبيَّن فيه الأمور بوضوحٍ، كما هو الشأن بخصوص الرسالة التي بعثها تيبيريوس لمجلس الشيوخ وهو عجوزٌ ومريضٌ: «ما الذي أقوله لكم أيها السادة؟ أو كيف أقول لكم ذلك؟ أم هل عليَّ ألا أكاتبكم الآن؟ فلتهلكني الآلهة بطريقةٍ أسوأ مما أحس به الهلاك كل يومٍ، إن كنت على علمٍ». فأنا لا أدري لمَ ينسب هذه الكلمات إلى ندمٍ شديدٍ استبد بضمير تيبيريوس، أو لِأقُلْ على الأقل إني حين قرأت هذا المقطع لم أرَ ذلك فيه.

60. كما أنه بدا لي نزقًا حين قال إنه قد مارس قضاءً شريفًا بروما، ثم اعتذر عن ذلك بأنه لا يقوله من باب المباهاة، فهذا أمرٌ يبدو خسيسًا بعض الشيء من جانب شخصٍ من عياره، وإنَّ عدم الجرأة على الحديث عن الذات يعني أن المرء تنقصه الشجاعة، فحين يكون المرء ذا حكمٍ ثابتٍ وصارمٍ -بحيث يحكم بصدقٍ وثبات- فإنه يستخدم في كل الظروف أمثلةً يستقيها من ذاته كما لو استقاها من الآخرين، ويشهد على نفسه كما يشهد على الآخرين، علينا تجاوز القواعد العادية للكياسة والأدب لصالح الحقيقة والحرية.

61. إنني لا أجرؤ على الحديث عن نفسي فحسب، بل إنني لا أتحدث إلا عنِّي. وعليه فإنني حين أعالج موضوعًا آخر، أكونُ قد حِدْتُ عن مَدار الحديث. وأنا لا أحبُّ نفسي، حبَّ المفتقر للتقدير، كما أنني لستُ منكبًا على ذاتي، إذ لا أستطيع مفارقتها بالأساس، ولا أنظر لها كما لو كانت

شيئًا مستقلًا عنّي، مثل: جارٍ أو شجرة. والمرء إذا أبخس تقدير نفسه، أو إذا جاوز به الحدَّ، فالأمر سيّان في الخطأ. وحقيقٌ بنا أن يكون ما نُكِنّه لله من محبة يفوق ما نضمِرُه لأنفسنا. فإنْ كُنَّا لا نعرفه حقَّ معرفته، فإننا نذكره حتى يغلبنا الوجد من ذكره.

62. إنْ كان في كتابات تاسيتوس ما يشي عن خصاله، فإن ما نجده يفصح عن شخصٍ عظيمٍ، قد جمع الاستقامة إلى الشجاعة؛ وهو، فضلًا عن هذا وذاك، رجلٌ فاضلٌ بيْد أن فضيلته ليست بنت خرافة، بل قوامها الفلسفة وعمادها المروءة. لكنك رغم ذلك لا تعدم أن تجد في أخباره بعض الشطط، ومثال ذلك: أنه قد زعم أن جنديًا كان يحملُ حطبًا، وكانت يداه مَقرورتين ومتصلبتين من البرد، حتى بلغ من شدته أنهما التصقتا بحِمْله من الخشب، وسقطتا عن ذراعيه، وقد فارقتهما الحياة. ولطالما رضختُ مصدقًا أمثال هذا الخبر من شهودٍ ثقاتٍ من طرازه.

الحديث عن الذات

63. وحين يحكي أيضًا أن الإمبراطور فسباسيانوس قد شفى في الإسكندرية -بفضل الإله سيرابّيس- امرأةً عمياء داهنًا عينيها بلُعابه أو أي كرامةٍ أخرى، فهو يقوم بذلك تبعًا لواجبه، ومقتديًا أنموذج كافة المؤرخين الذين يتابعون أخبار الأحداث الهامة، وفي هذه الأخيرة ليس ثمة فقط غير الأحداث العمومية، بل أيضًا الإشاعات والآراء الشعبية. فدورهم يتمثل في وصف المعتقدات المشتركة لا التحكم فيها؛ إذ إن ذلك من اختصاص علماء اللاهوت والفلاسفة، الذين يلعبون دور موجهي الضمائر.

64. لهذا فإن أحد رفاقه والشخصيات العظيمة مثله كتب بحكمةٍ بالغةٍ: «أنا في الواقع، أقول أكثر مما أعتقد؛ ذلك أني لا أستطيع توكيد ما أشكُّ فيه، ولا إبعاد ما قاله لي الآخرون»[1]، أو أيضًا ذلك الآخر: «من

(1) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**, IX, 1.

غير المجْدي توكيدُ تلك الأشياء أو نفيها لنتشبثْ بسمعة المؤلف»[1]. كان تاسيتوس يكتب في عصرٍ بدأ فيه الإيمان بالمعجزات يضمحلُ، ومع ذلك نراه يصرّحُ إنه لا يريد نسيان أن يُدرج في «حوليّاته» أشياء آتيةً من العديد من الأعيان، وبتقديرٍ كبيرٍ للفترة القديمة، حتى لو منحها صدقية بذلك.

65. إنه لقولٌ فصيحٌ. فليكتب لنا المؤرخون التاريخ حسب ما يُقال لهم أكثر مما يحكمون به عليه. لكني -وأنا سيد المجال الذي أتناول، وليس لي ما أَدين به للآخرين- لا أثق كليةً في نفسي، فأنا أغامر كثيرًا في أن أقدم نِكاتًا -تطرق ذهني وأحذر منها- وبعض الحذْلقات اللغوية التي أنتشي بها، غير أني أتركها تسلك سبيل المغامرة، وأنا أرى أن الناس يُعجَبون بأشياء من قبيل تلك، لكني لست الوحيد الذي عليه الحكم في ذلك. أنا أقدم نفسي واقفًا ومتمددًا، من الأمام ومن الخلف، من الجنب الأيمن والأيسر، أي في كل ثنايا طبيعتي. والعقول-بالرغم من أنها بالضرورة متشابهةٌ- ليست كذلك دومًا في طريقة اشتغالها وفي أذواقها، وذلك ما تذكُّرني به ذاكرتي -إجمالًا وبشكلٍ غير تامٍ- عن تاسيتوس، بيْد أن الأحكام كلها إجمالًا فضفاضةٌ وغير تامةٍ.

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, I, Préface et VIII, 6.

الفصل التاسع

في الغُرور

1. ليس ثمة من غرورٍ فاضحٍ أكثر من أن نكتب عنه بطريقةٍ غير مُجديةٍ، فما عبر عنه الَّربُّ بخصوصه[1] وبطريقةٍ إلهيةٍ يلزم أن يفكّر فيه بعناية وباستمرارٍ الناس الأذكياء.

2. من لا يرى أني اخترت سبيلًا سأتقدَّم فيه باستمرارٍ ومن غير جهدٍ، طالما كان هناك حبرٌ وورقٌ في العالم؟ لا أستطيع أن أسجل كافة حياتي بتسجيل أعمالها، فالقدَر يضعها في مرتبةٍ سفلى؛ لذلك أنا أفعل ذلك بأفكاري، وهكذا رأيت شخصًا نبيلًا لم يكن يتحدث عن حياته إلا بحركات أمعائه، بحيث كنا نرى لديه عددًا من الأحواض المعروضة تعود للأيام السبعة أو الثمانية الفائتة، كان ذلك موضوع دراسته وتفكيره، وهو يعتبر أن كل موضوعٍ آخر كان نتنًا. ما أقدُّمه هنا هي -بشكلٍ أكثر تحضُّرًا-إفرازات عقلٍ شائخٍ، فهي تارةً صلبةٌ وأخرى رخوةٌ، ودومًا غير قابلةٍ للهضم، ومتى سأنتهي من تصوير أفكاري، التي تكون في قلقٍ وتحوُّلٍ مستمريْن عن أي موضوعٍ مهما كان، ما دام ديوميديس[2] قد سوَّد ستة آلاف كتابٍ عن موضوع النحو وحده؟ ما الذي على الثرثرة أن تنتج؟ لما كانت التعْتعة وإطلاق اللسان -لا غيرهما - قد أدَّيَا إلى اختناق العالم تحت عبْءٍ رهيبٍ من المجلَّدات، والكثير من الكلمات فقط من أجل الكلمات. يا فيثاغوراس، لو أنك فقط جنبتنا هذه العاصفة[3].

3. في سالف الأزمان، أُتّهم شخصٌ يُسمى غالْبا[4] بأنه يعيش في عطالةٍ، فأجاب إن على كل واحدٍ أن يقدم تقريرًا عن أفعاله لا عن لحظات استجمامه، بيد أنه كان مخطئًا؛ فالعدالة تهتم أيضًا بمن لايفعلون شيئًا، وتسعى إلى إصلاحهم.

---

(1)**Ecclésiaste**, I, 2 «Vanitas vanitatum omnia vanitas».

(2) اسم عالم النّحو هنا هو ديديموس، وجان بودان هو الذي سماه ديوميدوس، ويخبرنا سينيكا أنه خلّف أربعة آلاف مجلّدٍ لا ستة آلاف.

(3) حسب ما قال ديوجينيس اللائرتي، فرض فيثاغوراس على تلامذته خمسة أعوام من الصمت.

(4) لعله الإمبراطور غالبا، حسب سويتونيوس.

هل هي كثرةٌ مفرطةٌ في الكتب؟

4. من اللازم أيضًا أن يكون ثمة إلزامٌ قانونيٌّ يخصُّ الكُتَّاب العاجزين وغير المفيدين، كما هو الأمر موجودٌ بخصوص المتشردين والعاطلين، بحيث يتمُّ إبعادي أنا وعشراتٍ آخرين من هنا، الأمر ليس مُزحةً، فالكتَبة وأشباه الكُتَّاب يبدون لي عرَضًا من أعراض عصرٍ فوضويٍّ، فهل كتبْنا بهذا القدر من قبلُ قدر ما كتبنا منذ أن صرنا ضحية الفتن؟ والرومان، هل كتبوا مقدار ما كتبوا خلال انحطاطهم؟ فضلًا عن ذلك، فإن تحضُّرَ العقول في مجتمعٍ ما لا يعني أنها تصبح أكثر حكمةً. ذلك أن هذا الانشغال الخامل يجد أصله في كون كل واحدٍ يكرِّس نفسه لمهنته ولا يعود يهتم بها. ففساد العصر هو نتيجةٌ لما يفعل كل واحدٍ منا، بعضهم يمارسون الخيانة، والآخرون يمارسون الظلم والإلحاد والطغيان والجشع والوحشية، تبعًا لما لهم من أهميةٍ، والضعفاء يمارسون الغباء والغرور والخمول-وأنا من بين هؤلاء- ويبدو أننا حين تحيق بنا الشرور نكرِّس أنفسنا للأشياء التافهة، وحين يكون من المعتاد الفعل الشرير، يصبح القيام بشيءٍ غير مُجْدٍ أمرًا يكاد يستحق الثناء. وأنا أطمئن نفسي بالقول إني سأكون من بين الأخيرين الذين سيتم إلقاء القبض عليهم، وفي الوقت الذي سيكونون منشغلين بالحالات الأكثر استعجالًا، سيكون لي الوقت لإصلاح نفسي؛ إذ يبدو أن من غير المعقول الاهتمام بالمساوئ الصغيرة فيما أننا مصابون بالكبيرة منها، هكذا صرح الطبيب فيلوتيموس لمن جاء يقدم له إصبعه كي يضع عليه ضِمادةً، والذي أدرك من خلال نفَسه وملامحه أن به قرحةً في الصدر: «يا صديقي، ليس لك أن تضيع وقتك بالاهتمام بأظافرك».

5. ولقد رأيت -من سنواتٍ- شخصًا لا زالت ذكراه حيةً في ذهني، ووسط كافة مآسينا التي لم يكن لنا خلالها لا قانونٌ، ولا عدالةٌ، ولا قضاءٌ، يقوم بمهامه -ليس أقل من اليوم على كل حالٍ-يعْمد إلى نشر المراسيم الغريبة لإصلاح طرائق اللباس والطبخ والتدابير القانونية. إنها تسلياتٌ يتم بها تغذية شعبٍ مُضطهَدٍ لتبيان أنهم لم ينسوه تمامًا، وألا يقوم بالشيء نفسه أولئك الذين في كل لحظةٍ يزعمون تنظيم طرائق الكلام

والرقص واللعب، لشعبٍ يتعاطى من جهته لكافة الرذائل المقيتة؟ ليس الوقت مناسبًا لمن هو مصابٌ بالحمى لكي يستحم وينزع عنه الوسخ، والأمر مستحبٌ لدى أهل إسبرطة أن يعْمدوا إلى مشط شعورهم واعتمار القلنسوات وقت المخاطرة بأنفسهم وتعريضها للهلاك.

6. أما أنا، فلي عادةٌ بئيسةٌ أكثر: فإذا لبست حذائي مقلوبًا، فإني أترك أيضًا قميصي ومعطفي مقلوبيْن؛ لأني لا أحب القيام بالأشياء نصفيًّا. فحين أكون في حالةٍ بائسةٍ أتعمَّد أن أغالي في ذلك، وإني أنصاع لليأس وأتجه نحو الهاوية فأرمي فيها بنفسي وحتى بما أملك، وأتمادى في تعميق الأمور وأعتبر أني لست خليقًا حتى بالاهتمام بنفسي، فإما أن أكون في حالٍ جيدةٍ أو في حالٍ سيئةٍ.

7. إنه لحظٌ حسنٌ لي ألا يأتي تفتُّتُ دولتنا إلا في لحظة انحطاطي، وأنا أحتمل بشكلٍ أسهل الآن تفاقم آلامي أكثر مما لو كانت سعادتي في الماضي قد تعرَّضت للتهديد، وما أعبر عنه أمام التعاسة هو خيبة الأمل، وأنا أنتفض عوض الانبطاح، وأحس-على عكس الآخرين- بالميل إلى التعبُّد في السعادة أكثر منها في التعاسة تبعًا لمبدأ كسينوفون[1]، أو تبعًا للسبب الذي يقدِّم[2]. وأنا أتوجه للسماء بعيونٍ حنونةٍ كي أشكرها لا لكي أطلب منها شيئًا، وأهتم بتحسين صحتي حين تكون جيدةً أكثر من السعي لاستعادتها حين أتركها تنفلت مني. الأشياء الحسنة تكون لي قاعدةً ودرسًا مثلما العداوة والصدمات لدى الآخرين، والناس لا يصبحون أخيارًا إلا حين تسوء أحوالهم، كما لو أن الحظ الحسن ليس ملائمًا للضمير الحي. السعادة في نظري حافزٌ أكبر على الاعتدال والتواضع، والصلاة تقنعني، والتهديد يثْبطني، والفضل يجعلني مرنًا، والخوف متصلِّبًا.

8. من بين العيوب البشرية الأكثر انتشارًا، ذلك الذي يتمثل في محبة الأشياء الأجنبية على أشيائنا، ومحبة التغيير والتنقل.

(1) Xénophon, **Cyropédie**, I, 6, 3.

(2) وهذا السبب هو أن الناس إذا كانت تكرّم الآلهة حين تكون الأمور على ما يرام، سيكرمونها أكثر حين تسوء الأمور، وهو المعنى الذي لا يأتي على لسان مونتيني.

«إذا سطع نور النهار لأجلنا بشكلٍ رائع
فذلك يعني أن الوقت يعود برسولٍ جديدٍ»[1].

وإني آخذ حصتي من ذلك العيب، فالذين يتَّبعون سبيلًا معاكسًا ويكتفون بذواتهم، يجدون أن ما لهمْ أفضل من الباقي، وأنْ لا شيء أجمل مما يرون، هؤلاء ربما كانوا أكثر نباهةً منا، غير أنهم بالتأكيد أكثر سعادةً، وأنا طبعًا لا أغبط حكمتهم وإنما بالأحرى مصيرهم.

هموم المُلْكية الكبيرة

9. هذا الحب الجشع للأشياء الجديدة المجهولة يساهم في اتِّقاد رغبتي في السفر، لكن ثمة ظروفٌ كثيرةٌ لها يدٌ في ذلك، فأنا أتنكَّف عن تسيير شؤون بيتي. ثمة جاذبيةٌ يحسها المرء في التحكم والتسيير ولو كان ذلك في إسطبلٍ، وأن يكون مُطاعًا من أهله وذويه، بيد أنها متعةٌ مملةٌ لا تنوع فيها، وهي تمتزج بالضرورة بأفكارٍ مثبِطةٍ، فتارةً يتعلق الأمر بفقر الناس الذين يعملون في أراضيك والهموم التي يتسببون فيها لك، وتارةً النزاع مع الجيران، وأخرى طريقتهم في التطاول على مِلكك الشاسع، وكل هذا يصيبك بالغمّ.

«إنها كرومك التي يخربها البرد
والأرض التي تخيب آمالك
والأشجار التي تشكو تارةً من ماء السماء
وتارةً من الكواكب التي تحرق الأراضي
أو من فصول الشتاء القاسية»[2].

فخلال ستة أشهرٍ يبعث لك الله بالكاد فترةً يكون فيها القيِّمُ على أراضيك فرحًا، لكن مع الخوف إن كانت مفيدةً للكروم، سوف تكون مضرَّةً بالمراعي.

(1) Pétrone Satyricon, **Fragments**, XLII, 5-6.
(2) Horace, **Odes**, III, 1,29.

«إنها شمسٌ حارقةٌ تتنزَّل على حصادك
أو أمطارٌ عاصفةٌ وصقيعٌ
ورياحٌ هوجاء تخربها»[1].

10. وزدْ على ذلك ما يجرحك في القدم من غير أن تراه، مثل الحذاء الجديد لذلك الرجل في الماضي[2]، والأجنبي لا يمكن أن يفهم ثمن ذلك، وأي تضحياتٍ عليك القيام بها للحفاظ على مظهر النظام الذي يراه الناس في بيتك، وربما كنت تدفع ثمن ذلك غاليًا جدًا.

11. بدأت أهتم ببيتي في سنٍ متأخرةٍ، فأولئك الذين جاءت بهم الطبيعة للحياة قبلي قد جنَّبوني عناء تلك العناية، ولقد سرت على عادةٍ أخرى تناسب مزاجي وشخصيتي، بيد أنها حسب ما أعلم، مهمَّةٌ تستنزف الوقت مني أكثر مما هي صعبةٌ؛ إذْ كل واحدٍ قادرٌ على عملٍ آخر يمكنه أن يقوم به بسهولةٍ. ولو كنت أسعى إلى الثراء لكان ذلك السبيل على ما يبدو لي طويلًا، فالأحرى بي أن أخدم الملوك؛ إذ هو انشغالٌ أكثر ربحًا وفائدةً من أي عملٍ آخر، وبما أني لا أسعى لأي سمعةٍ أخرى، ولم أكسب ولم أبذِّر شيئًا، وأنني تبعًا لباقي حياتي عاجزٌ عن عمل أي شيءٍ خيرًا كان أو شرًا، وأنني لا أحس نفسي إلا عابرًا لهذه الدنيا، فيمكنني القيام بذلك من غير أي جهدٍ كبيرٍ.

12. وعليك، في أسوأ الأحوال، أن تعرف تفادي الفقر بالاقتصاد في المصاريف، وذلك ما أقوم به بدقةٍ، وأصلح نفسي حتى لا تضطرني الحياة لعيْش ذلك، وعلى كل حالٍ فقد أنشأت في عقلي العديد من المراتب كي أستطيع الاكتفاء بأقلَّ مما لديَّ، لكن من غير قرفٍ. «يمكننا قياس ثروة شخصٍ لا بحساب مداخيله، وإنما من خلال طريقة عيشه وحاجاته»[3]. وحاجاتي الفعلية لا تستنزف ما أملك، وللقدَر أن يرميني بسهامه ما طاب له من غير أن يصيب مني مَقْتلًا.

---

(1)Lucrèce, **De la Nature**, V, 216.

(2) إحالة إلى بلوتارخوس، كتاب الحيوات، الجزء الثالث، حياة بولس إميليوس: «أنا الوحيد الذي يعرف أين يجرحني هذا الحذاء الرفيع».

(3) Cicéron, **Paradoxes**, VI, 3.

13. مهما كنتُ جاهلًا وغير مهتمٍ بما يجري في البيت فإن حضوري يكون مفيدًا جدًا لشؤونه ولخدمتها ولو على مضضٍ، يُضاف إلى ذلك أني حين أضيع وقتي في هذا فإني أربح أشياء أخرى في الجانب الآخر.

14. الرحلات لا تزعجني إلا بمصاريفها الباهظة التي تفوق إمكاناتي، فأنا معتادٌ على القيام بها بعتادٍ ورفقةٍ ليسا فقط ضروريّيْن وإنما مريحيْن؛ لذا ما يُلائمني هو القيام بها بمسافاتٍ قصيرةٍ وأقل تردُّدًا، وأنا لا أصرف فيها إلا فائض مالي ومدَّخراتي، مخفِّفًا منها ومؤجلًا بعضها تبعًا لمْكِناتي، فأنا لا أريد أن تقوم لذَّة تجوالي بتكدير متعة راحتي. بالمقابل، أريد لهما أن يتغذَّيا من بعضهما وينتعشا بشكلٍ متبادلٍ.

15. لقد لقيت الحظوة من القدَر في ما يلي: ما دامت وظيفتي في هذه الحياة هي العيش بهدوءٍ وسلامٍ، وفي الراحة أكثر من أن أكون منشغلًا، فلم أكن بحاجةٍ إلى الزيادة في ثروتي كي أُرضِيَ تعدُّدَ ورثتي[1]، وبما أني ليس لي سوى وريثةٍ واحدةٍ، فتبًّا إذا لم يكن لها ما يكفي مما وجدت أنا أنه كافٍ وأكثر! فإذا كانت مسرفةً فليس ذلك سببًا في أن أترك لها أكثر، وتبعًا لمثال فوكيون[2] فإن ما نورثه أبناءنا يكفيهم بمقدار ما يشبهوننا، وأنا لست على رأي كراتيس الذي ترك أمواله لدى مصرفيٍّ بشرط أن يمنح أبناءه ذلك المال إذا كانوا بلهاء، وإذا كانوا أذكياء فليوزعه على البلهاء من الشعب، كما لو أن البلهاء بما أنهم عاجزون عن العيش بدون مالٍ، هم أكثر قدرةً على استعمال الثروات.

الهموم المنزلية

16. ومع ذلك، فإن المساوئ التي تنجم عن غيابي لا تبرِّر الفرص التي تسنح لي كي أنفلت من ذلك الحضور المضْني، ما دمت قادرًا على تحمل تلك المساوئ؛ إذْ ثمة دومًا شيءٌ ما يسير بشكلٍ غير سويٍّ؛ فالشؤون المتعلقة تارةً ببيتٍ وتارةً ببيتٍ آخر تجعلك مشتَّتَ الذهن، أنت تتفحَّصُ الأمور

(1) لم يبق لمونتيني من الأبناء إلا فتاة، لأن الآخرين توفوا صغارًا.

(2) Plutarque, **Vies Parallèles**, Phocion.

عن كثبٍ، وحصافتك تضرُّ بك في هذا كما تضرُّ بك في أمورٍ أخرى في الغالب. أنا أتفادى حالات الاضطراب، وأشيح بوجهي حتى لا أرى ما لا يسير سيرًا حسنًا، لكني مهما فعلت فإني في كل لحظةٍ أصطدم في بيتي بأشياء لا تعجبني، وعمليات الاحتيال التي تُخفى عني هي في الغالب تلك التي أعرفها أفضل، وثمة منها ما يكون من الأفضل إخفاؤها كي أعاني أقلّ. إنها في الغالب همومٌ غير ذات أهميةٍ، لكنها تظلُّ مع ذلك همومًا. الهموم الأصغر والأتفه هي الأكثر إزعاجًا، وكما أن الرسائل الصغرى تتعب العيون أكثر فإن القلق الصغير يمسنا أكثر وأعمق، وجماع الهموم الصغرى تمس بنا أكثر من همٍّ واحدٍ مهما كان كبيرًا، وكلما كانت هذه الأشواك المنزلية متواليةً وحادَّةً، كلما كان وخزُها أكبر، بحيث إنها تأخذنا بسهولةٍ على حين غرَّةٍ، من غير إعلامنا.

17. لست فيلسوفًا، والهموم تطغى عليَّ تبعًا لخطورتها، وهذه الأخيرة لا ترتهن فقط بشكلها أو مضمونها، وإنما غالبًا بجوانب أخرى، وأنا أتعرف عليها أكثر من أي بشرٍ، وهو ما يجعلني أتحملها أكثر، لكنها في الأخير لا تجرحني بقدْر ما إنها تصدمني. الحياة شيءٌ هشٌّ ومن السهل أن يمسها الاضطراب، فما إن أكون ذا مزاجٍ كدِرٍ، و«حين أنصاع للاندفاع الأول، يغدو من المستحيل عليَّ المقاومة»[1]، ومهما كان السبب الذي أوصلني لذلك بليدًا، فإني أغوص فيه، فيتقوَّى ذلك المزاج بحركته الذاتية مراكمًا الشيء على الآخر، ومنها يتغذى.

«الماء الذي يسقط قطرةً قطرةً يثقب الصخر»[2].

18. وهذه المزاريب تنهشني وتلتهمني؛ فالهموم العادية لا تكون أبدًا نافلةً، إنها همومٌ مستمرةٌ ومستعصيةٌ حين تنبع من المشاحنات المنزلية الدائمة التي لا يمكن تفاديها.

19. حين أتأمل في شؤوني عن بُعدٍ وفي مُجملها، فإني أجد -ربما لأني لا أحتفظ عنها بذكرى دقيقةٍ- بأنها سارت إلى الآن في ازدهارٍ أكثر مما ابتغيت منها وأملت فيها، ويبدو لي أني أستقي منها فائدةً أكثر مما يمكنها منحي إياه،

---

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius,** XIII.

(2) Lucrèce, **De la Nature** I, v. 314.

فنجاحها يدخلني في الوهم، لكني حين أكون غائصًا فيها، كيف يمكن رؤية كافة عناصرها؟

«ذلك إذًا لأن نفسنا موزَّعةً بين مئات الهموم»[1].

حينها فإن الكثير من الأشياء تتركني غير راضٍ وتبدو لي مخيفةً، والتخلي عنها تمامًا أمرٌ سهلٌ عليَّ، والاهتمام بها من غير تشوُّشٍ في الذهن أمرٌ صعبٌ، وإنه لمن المحزن أن تكون في مكانٍ حيث كل ما ترى يكون مصدر همومٍ لك ويناوشك، ويبدو لي أني أستمد متعةً أكثر من منزلٍ ليس منزلي، وأني فيه أكون ذا حريةٍ أكبر في الذوق وذا عفويةٍ أكبر، ولقد أجاب ديوجينيس اللائرتي-كما كنت سأجيب- على من سأله أي نوعٍ من النبيذ يبدو له الأفضل؟ قال: «الأجنبي».

20. كان أبي يحب تنمية وتحسين منطقة مونتيني حيث وُلد وترعْرع، وأنا - في تسيير الشؤون المنزلية - أحب اتِّباع مثاله وقواعده، وسوف أعمل على أن يفعل ذلك خَلَفي، ولو استطعت أن أفعل أكثر من أجله لقمت بذلك، وأنا فخورٌ أن مشيئته لا زالت ساريةً من خلالي، وأتمنى من الله ألا تنفلت مني الحياة التي يمكن أن يتباهى بها أبي،حين قرَّرتُ أن أكمل بناء قطعة سورٍ مهترئةٍ وأن أصلح جزءًا من بنايةٍ متداعيةٍ، كان ذلك بالتأكيد من أجل ما نوى فعله أكثر من كونه متعةً لي، وأنا آخذ على نفسي كسلها لأني لم أتممْ ما بدأه، خاصةً وأني قد أكون آخر واحدٍ في العائلة سيملك هذا البيت ويترك فيه بصمته، فلو تعلق الأمر بذوقي الشخصي، فلا متعة البناء الذي يعتبر جذابًا، ولا الصيد، ولا الحدائق، ولا المتع الأخرى لحياة الخلوة، لا شيء من كل هذا يعجبني كثيرًا، إنه ذوأمرٍ من الأمور التي أعيبها على نفسي، مثلها مثل الأفكار الأخرى التي لديَّ والتي تضرّ بي، فأنا لا أهتم بأن تكون لي أفكارٌ قويةٌ وعالمةٌ، وإنما بسيطةٌ ورائقةٌ في الحياة، إنها أفكارٌ حقيقيةٌ وسليمةٌ حين تكون مفيدةً ورائقةً.

21. وإني أشفق على أولئك الذين يسمعونني أتحدث عن نواقصي في مجال تدبير أملاكي، ويأتون ليهمسوا في أذني بأن ذلك ضربٌ من الاحتقار،

(1)Virgile, **Énéide**, V , v.v 720.

وإني أتجاهل معرفة أدوات الحرث وفصوله وسيْره، وإني لا أعرف كيف تُصنع خموري وكيف تُلقَّح الأشجار، وإني أجهل أسماء الأعشاب والفواكه وأشكالها، وكيف يتم إعداد اللحم الذي أتغذى منه، وكذا أثمان الأثواب التي ألبس؛ وذلك فقط لأني ليس لي من اهتمامٍ إلا بالمعارف الأكثر نبلًا. وفي الوقت الذي أعرف فيه أن تلك العيوب فيَّ بلاهةٌ لا مجدٌ، أفضِّلُ أن أكون سائسًا جيدًا للخيول على أن أكون نحويًّا مرموقًا.

«لماذا لا يقوم المرء بشيءٍ يكون بالأحرى نافعًا فيضفر القفف بأعوادالأسَلِ والسُّوْحَر»[1].

22. نحن نشوِّش على أفكارنا بالقضايا العامة والعِلل الأولى وسيْر الكون، الذي يسير بشكلٍ جيدٍ من غيرنا، ونحن نترك جانبًا ما يهمنا، وميشيل نفسه. الذي يهمنا بشكلٍ أكثر قربًا من الإنسان عمومًا، وإذا كنتُ أقيم طواعيةً في بيتي عادةً، فإني أرغب في أن أكون مرتاحًا فيه أكثر من أي مكانٍ آخرَ.

«أن يكون ذلك مُقام شيخوختي ونهايتها بعد متاعب البحر والأسفار والخدمة العسكرية»[2].

23. لا أدري إن كنت سأتوصل إلى ذلك، بيْد أنني أرغب في أن يترك لي أبي - عوضًا عن جزءٍ من ميراثه - ذلك الحب الشغوف الذي كان له في أيام شيخوخته بشؤون بيته وأراضيه. كان سعيدًا جدًا بأن يوازن بين رغباته وإمكاناته ومعرفة الاكتفاء بما كان لديه، لتنتقدِ الفلسفةُ السياسيةُ ما طاب لها وضاعةُ اهتماماتي وعقمها، فلا يهمني ذلك إذا لم أجد فيها متعتي كما وجدها هو. أعتبر أن الوظيفة الأكثر شرفًا تتمثل في خدمة الجمهور، وأن يكون المرء نافعًا لكل الناس. «**فأفضل سبيلٍ للمرء للتمتع بذكائه وفضيلته وبتفوُّقه هي أن يشاطر ذلك مع من حوله**»[3]. وفي ما يخصُّني فأنا أمتنع عن الأمر جزئيًّا؛ لأني واعٍ بعبء تلك الوظيفة وأعرف الوسائل الشحيحة التي لدي كي أتحملها، فأفلاطون

(1) Virgile, **Églogues**, vv. 71-72.

(2) Horace, **Odes**, II, 6, v. 6.

(3) Cicéron, **De Amicitia**, XIX.

نفسه (وهو الصانع لكل أنواع الحكم) لم يتوان عن الامتناع عن ذلك، لكن ذلك الامتناع كان جزئيًا بسبب ضعفه،وإني أكتفي بالتمتُّع بالعالم من غير أن أهتم به، وأن أحيا حياةً تكون بالأحرى مريحةً، ولا تكون على الأقل مضرَّةً بي ولا بغيري.

24. لوْ كان لدي شخصٌ أكلفه بالعناية بكل تلك الشؤون وتدبيرها، لكنت انسقت لذلك كليةً وبهدوءٍ لم يفعله أحدٌ قبلي، وإحدى أمنياتي حاليًا هي أن أجد زوجًا لابنتي يعرف كيف يلاطفني في شيخوختي، ويمكِّنني من أن أضع بين يديه تسيير ممتلكاتي واستعمالها، فليفعلْ بها ما فعلتُ بكل سيادةٍ بحيث يربح مكاني ما أربح منها. أمنيتي فقط أن يفعل ذلك بقلبٍ عارفٍ بالجميل وصديقٍ، لكننا في أيامنا هذه نعيش في عالمٍ حيث وفاء فلذات أكبادنا أمرٌ مجهولٌ.

المال

25. من أكلفه بأموالي عند سفري يتصرف فيها كليةً ومن غير مراقبةٍ، فهو سيخدعني حتى لو تحاسبت معه، وإذا لم يكن هو الشيطان بلحمه ودمه، فإني أفرض عليه عمل الخير بأن أضع فيه ثقةً تامةً. **«الكثير من الناس علموا الآخرين الخيانة وهم يخشون أن يخدعوهم، وبرَّروا بشكوكهم أعمالًا مُشينةً»**[1]. ولكي أكون واثقًا من الناس العاملين معي، فإن الطريقة التي أتعامل بها غالبًا تتمثل في ألا أعرف شيئًا عن أخطائهم، فأنا لا أعتقد في الرذائل إلا بعد أن ألاحظها، وأثق في الأكثر شبابًا الذين أعتبرهم أقل فسادًا بالأمثلة السيئة، وأفضِّلُ أن أسمع بعد مرور أربعة أشهرٍ أني صرفت أربعمئة ريالٍ فرنسيٍّ على أن تتكرَّرَ على مسامعي كل مساءٍ أني صرفت منها ثلاثةً أو خمسةً أو سبعةً، وبعملي هذا فأنا لم يسرقوني أكثر من أي شخصٍ. صحيحٌ أني أتواطأ مع الجهل، فأنا أحافظ على معرفةٍ غامضةٍ ومشوَّشةٍ عن أموالي، وإلى حدِّ ما أنا فرحٌ أن أظل في حالِ شكٍ، يلزمنا أن نترك مكانًا ما لخيانة الأمانة

(1) Sénèque, **Épîtresou Lettres à Lucilius**, III.

أو الغباء لدى من يخدُمنا، فإذا بقي لنا عمومًا ما يمكننا أن نفعل به ما نرغب في فعله بفضل حريةٍ مفرطةٍ لسخاء القدَر، فلنتركْه يجري بعض الشيء، فتلك حِصَّة جامع الفُتات. يا لها من مهمةٍ بليدةٍ وماكرةٍ! أن يراقب المرء أمواله، وأن يتمتع بتلمُّسها وحسابها مرارًا، فثمَّ يبدأ البُخل.

26. خلال الثمانية عشر عامًا التي أدرت فيها ممتلكاتي، لم أرغم نفسي على النظر في عقود الملكية التي تخصني، ولا متابعة أعمالي التجارية المهمة التي كان الأحرى بي أن ألمّ بها وأعيرها اهتمامي. والأمر ليس ناجمًا منّي عن مقْتٍ فلسفيٍّ للأمور الزائلة للدنيا، فأنا ليس لي ذوقٌ طهرْانيٌّ؛ لذا آخذها على الأقل بما لَها من قيمةٍ، لكن الأمر يعود إلى كسلٍ وعدم اهتمامٍ صبيانييْن ولا عذر لهما. يمكنني فعل أي شيءٍ سوى أن أقرأ العقود، وأن أصير وأنا أتصفح تلك الأوراق المغبرة عبْدًا لشؤوني، بل الأدهى من ذلك أن أتصفح أوراق الآخرين، كما يفعل العديد من الناس من أجل المال، لا أعرف شيئًا أسوأ من الهموم والمتاعب، وأنا لا أسعى سوى إلى الحياة اللامبالية المتراخية.

27. يبدو أني كنت أكثر قابليةً لأعيش من ثروة الآخرين لو كان ذلك ممكنًا من غير إلزامٍ أو عبوديةٍ، وحين أتأمل الأمر عن كثبٍ، أتساءل إن كان ما قُضي لي أن أعانيه من شؤوني ومن خَدمي وأناس بيتي – بمزاجي وشخصيتي- هو أكثر مقتًا وإزعاجًا من أن أكون في خدمة رجلٍ مولودٍ في وضعيةٍ أفضل مني، سيرشدني شيئًا ما على هواه. «العبودية هي خضوع عقلٍ ضعيفٍ، لا يكون سيِّدًا لإرادته»[1]. لقد قام كراتيسبما هو أدهى من ذلك، هو الذي ارتمى في حضن حرية الفقر كي يتخلص من وضاعة البيت وهمومه، وذلك ما لن أفعله، فأنا أكره الفقر مقْدار كرهي للألم، بيْد أني يمكنني أن أغيِّرَ هذه النوعية من الحياة مقابل حياةٍ أقل نبلًا، لكنها أقل انهماكًا بالعمل.

28. حين لا أكون بالبيت، أنسى كافة تلك الهموم، وأحس بانهيار بُرْجٍ أقلّ

(1) Cicéron, **Paradoxes**, V, I.

مما أحس حين أكون هناك بسقوط سبورةٍ، حين أكون بعيدًا عنه يعمل عقلي بهدوء، لكنه هنا يعاني كما عقل صاحب مزرعة كرومٍ، يكفي عِنانٌ لجوادي في غير محله أو جلدة مهمازٍ تصْدم رجلي، وها هو مزاجي كدِرٌ طَوالَ اليوم، فأنا أضع شجاعتي فوق المساوئ البسيطة لكن عينيَّ أبدًا.

«الحواس، يا إلهي، الحواس»[1].

29. أنا في بيتي من يتحمل مسؤولية كل شيءٍ لا يسير على ما يُرام، ثمة القليلون من أسياد البيوت -وأنا أتحدث عمَّن هم من وضعيةٍ متوسطةٍ من قَبيل وضعيتي- يمكنهم الاعتماد على مُساعد، لكنه إذا وُجد فهم يكونون أسعد مني، إذ لا يبقى لهم إلا جزءٌ من عبْء المسؤولية، هذه الأعباء تغيِّر شيئًا ما الطريقة التي أتعامل بها مع زوَّاري، فإذا كنت استطعت أن أتخلَّص من بعضها، فذلك أكثر بطبخي واستقبالي للضيوف، كما لدى الناس المملِّين، كما أن ذلك يُنقص الكثير من المتعة التي أحسها ببيتي وأنا أستقبل أصدقائي به وأجمعهم فيه. إن أبْلد وضعيةٍ لنبيلٍ في بيته حين يكون منشغلًا بتنظيم الخدمات به، هي حين نراه يهمس في أذن خادمٍ أو يهدِّد آخر بالعينين، فكل شيءٍ يلزم أن يمرَّ بهدوءٍ وبشكلٍ عاديٍّ، وأنا أعتبر أن الاعتناء بالضيوف بالطريقة نفسها التي يتمُّ بها استقبالهم أمرٌ غير متحضِّرٍ، سواءٌ للاعتذار لهم أو للتباهي بذلك،وأنا أحب النظام والوضوح=

«فالأقداح والصحون تعكس لي صورتي الشخصية»[2].

=كما أحب الوفرة، وأحرص بالضبط على أن يكون ثمة الضروريُّ لكن ليس للبهرجة، وإذا تعارك خادمٌ لدى شخصٍ آخرَ، وإذا ما أسقط أحدهم صحنا، يمكنك أن تكتفي بالضحك على ذلك، فأنت سوف تنام قرير العيْن فيما سيتكفل رئيس الخدم بإعادة الأشياء إلى نصابها ليستقبلك بعدها في الغد.

30. وأنا أتحدث عن هذا على سليقتي، ولا أتنكَّفُ عمومًا عن تقدير لطافة

---

(1) مؤلف مجهول.

(2) Horace, **Épodes**, I, vv. 23-24.

أن يكون لبعض الأشخاص بيتٌ هادئٌ ومزدهرٌ ومسيَّرٌ بطريقةٍ منظَّمةٍ، ولا أريد أن أربط بذلك أخطائي وخيباتي، ولا أن أعارض أيضًا أفلاطون الذي يعتبر أن أفضل انشغالٍ سعيدٍ لكل واحدٍ هو أن يسيِّر شؤونه الخاصة من غير أي ظلمٍ.

المال والرحْلات

31. حين أكون على سفَرٍ، ولا يكون لي من تفكيرٍ إلا في نفسي وفي الطريقة التي أصرف بها مالي، فذلك أمرٌ يخضع لمبدأٍ واحدٍ. من الصعب عليَّ أن أراكم الأموال، فأنا لا أفقه شيئًا في ذلك، والتبذير أفقه فيه شيئًا ما، ومعه كذا تبذير المال في ما له قيمةٌ، وهو ما يشكل في الحقيقة استعماله الأساسيَّ، غير أني أفعل ذلك بدقةٍ بالغةٍ، وهو ما يجعلني أتصرَّف بطريقةٍ غير متوازنةٍ وغير متناغمةٍ وغير معقولةٍ في الاتجاهين معًا، فإذا بدأت المصاريف وكانت مفيدةً، فإني أتعاطى لها من غير قياسٍ، غير أني أصير حريصًا فيها بطريقةٍ مبالغٍ فيها إذا كانت غير مجْديةٍ ولا تروقني.

32. أن يفرض علينا الفن أو الطبيعة هذه الطريقة في الحياة مع أخذ الآخرين بعين الاعتبار، فذلك يضر بنا كثيرًا أكثر مما يريحنا. نحن نحرم أنفسنا من امتيازاتنا كي نتلاءم في المظهر مع الرأي المشترك، فما نحن عليه واقعيًّا لا يهمنا أكثر مما نمنح لعلم الجمهور، وحتى خيرات العقل والحكمة تبدو لنا من غير نتيجةٍ، إذا كنا الوحيدين الذين يتمتعون بذلك، وإذا لم تكن على مرأى الآخرين وبقبولهم المليء بالإعجاب. هناك من يعتبر أن الذهب يخرج عبر فوْراتٍ من أعماق الأرض من غير أن ننتبه له، وآخرون يحيلونه سبائك وأوراقًا، وهو ما يجعل النقود لدى البعض ريالاتٍ ولدى البعض الآخر العكس من ذلك، بحيث يُقدِّرُ الناس المصاريف وقيمة الأشياء تبعًا لما يروْن، كل عنايةٍ يُبديها شخصٌ يهتم كثيرًا بثرواته تنبعث منها رائحة البخل، بل هي تنبعث حتى من الإسراف والسخاء فيها الذي يتم بطريقةٍ منظمةٍ ومصطنعةٍ، من يريد صرف الأموال بطريقةٍ معقولةٍ يلزم أن يقوم بذلك في حدودٍ ضيِّقةٍ

ومحسوبةٍ، فأن يحافظ المرء على ماله أو يصرفه أمرٌ لا يهم، ولا يأخذ ذلك لون الخير أو الشَّر إلا تبعًا لمقاصدنا.

بؤس الوقت

33. السبب الثاني الذي يجرني إلى هذه الجولات النائية، هو أن العوائد الحالية لمجتمعنا لا تلائمني، وسوف أواسي نفسي عن هذا الفساد بما له من نفعٍ عامٍّ=

«إنها عصورٌ أشدُّ سوءًا من العصر الحديدي
إذْ لا تجد لها الطبيعة اسمًا
بما أنها لا تجد لها معْدنًا يلائمها»[1].

=لكني من جهتي أعاني (شخصيًّا) منها كثيرًا. ففي الجوار، نحن نوجد في شكلٍ للدولة فوضويٍّ=

بحيث العادل والظالم ممتزجان»[2].

=ومن باب المعجزة أن تستمر.

«مدجَّجين بالسِّلاح يحرثون الأرض، لا ينفكون يحصلون بفرحٍ
على غنائم جديدةٍ، ويعيشون من السلب والنهب»[3].

34. وأنا أرى بالمثال الذي نقدِّم أن المجتمع البشري يقاوم ويتشبث بوجوده بأي ثمنٍ كان؛ لنضع الناس كيفما كانوا، فإنهم سيتراكمون وينتظمون، متنقلين ومتراكبين كأشياء متناثرةٍ نضعها في كيسٍ، والذين يجدون -بأنفسهم- طريقةً في التقارب بينهم وأخذ مكانهم، يكونون غالبًا أفضل

(1) Juvénal, **Satires**, XIII, vv. 28-30.
(2) Virgile, **Géorgiques**, I, v. 505.
(3) Virgile, **Énéide**, VII, vv. 748-749.

مما أردنا فعله بهم، قام فيليبوس ملك مقدونيا[1] بجمع كافة الناس الأكثر شرًا والأكثر فسادًا الذين عثر عليهم وحشرهم كلهم في مدينة تحمل اسمهم «مدينة الأشرار»، وأعتقد أنهم أقاموا لرذائلهم نظام حكومةٍ ومجتمعًا يلائمهم.

35. إنني لا أرى عملًا سيئًا أو ثلاثةً أو مئةً، وإنما عاداتٍ وتقاليد صارت جاريةً ومقبولةً وغير إنسانيةٍ ومشْبعةٍ بالخيانة –ما دام عدم الوفاء لديَّ هو أرْذل الرذائل- بحيث لا أتصورها في ذهني من غير رعبٍ، وهي تفتنني بقدر ما أمقتها؛ فإتْيان أعمالٍ بذلك السلوك الشرير هي سمةٌ لقوة النفس ولصلابة الخطأ وتشوش الذِّهن، الضرورة هي التي تربط بين الناس وتجمعُهم، وهذا الجمْع الاعتباطي يتحول بعد ذلك إلى شرائع، وثمة ما كان منها مِن أكثر ما ولَّدَهُ العقل البشري من وحشيةٍ، ومع ذلك قاومت الزمن بقوةٍ وعافيةٍ وعاشت ما عاشته شرائع أفلاطون وأرسطو.

36. من الأكيد أن هذا الوصف لمجتمعاتٍ مبتدَعةٍ واصطناعيةٍ يبدو سخيفًا وصعب التحقُّق في الواقع، وتلك النقاشات التي لا تنتهي عن أفضل شكلٍ للمجتمع وعن القواعد الأكثر ملاءمةً لربطنا بعضنا ببعضٍ لا تصلح لغير رياضة العقل، كما هو الأمر فيفنون الحرب، باعتبار أنها موضوعاتٌ تكون أساسًا مناسبةً للنقاش والمجادلة ولا وجود لها خارج ذلك. إن مشروع مجتمعٍ من ذلك النوع ملائمٌ لعالم جديدٍ، غير أننا في عالمٍ موجودٍ سلفًا وله تقاليده، لا في عالمٍ خُلق من عدم، ومهما كانت الوسائل التي يمكننا أن نتوفَّر عليها لتقْويمه وإعادة تنظيمه، لا يمكننا أبدًا أن ننزع عنه العادات التي اكتسب من غير أن نهدمه كاملًا. كان الناس يسألون سولون[2] إن كان قد سنَّ أفضل القوانين للأثينيين، فأجاب: «نعم، ما قبلوه منها».

37. ويعتذر فارّو بالشكل نفسه، إذ يقول إن كان عليه أن يكتب عن الدين

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, IX.

(2) رجل دولةٍ ومشرِّعٍ أثينيٍّ، انتخب والِيًا فحرّر دستورًا وأصدر سلسلةً من القوانين لإخراج الزراعة من الأزمة التي عاشتها في عصره.

عند ظهوره، فسيقول ما يعتقده حقًّا بخصوصه، لكنه ما دام قد صار جزءًا لا يتجزَّأُ من العوائد فإنه سيتحدَّث عنه بالأحرى تبعًا للتقاليد لا تبعًا لطبيعته العميقة.

ضدُّ التغيير

38. ليس الأمر رأيًا بسيطًا، إنها الحقيقة. فأفضل حكومةٍ وأجْودها لكل أمةٍ هي تلك التي عاشت تحت إمْرتها واستمرت في الوجود. نحن ننساق للشكْوى من وضعنا الراهن، غير أني أعتبر مع ذلك أن من باب الخطأ والجنون، أن يرغب المرء في أن يمنح السلطة للبعض في حكومةٍ شعبيةٍ، أو أن يرغب في نوعٍ آخرَ من الحكم حين يكون الحكم ملكيًّا.

«أحِبَّ الدولة كما تراها توجد
إذا كانت مَلَكِيَّةً فأحب الملكية
وإذا كان حكم أفرادأو جماعة
فأحبها لأن الله جعلك تولد في حضنها»[1].

39. هكذا تحدَّثَ الرجل الطيب بيبْراك[2] الذي رحل عنا منْ مدةٍ قصيرةٍ، إنه عقلٌ بالغ النبل ذو فكرٍ سليمٍ وعوائد لطيفةٍ. وهذا الفقدان، ومعه فقدان السيد دو فوا[3] في الوقت نفسه هي خسارةٌ كبرى لعرشنا. ولا أدري إن كانت فرنسا يمكنها أن تجد رجلين تستطيع أن تعوِّضَ بهما هذين الغاسكونيَّيْن، يكونان مالكيْن للصدق نفسه والقدرات ذاتها كي يكونا خير نصيحٍ لملكنا. لقد كانا عقليْن مختلفين، وبالتأكيد جميليْن ونادريْن في عصرنا، كل واحدٍ على طريقته. لكن مَن أنزلهما في هذا العصر الذي كانا غير متناغمين معه، ولا علاقة لهما فيه بفسادنا وتقلباتنا؟

40. ليس هناك شيءٌ أخطر لدولةٍ ما من الابتداع، فالتغيير وحده يجلب معه

(1) Pibra, **Quatrains**.

(2) هو غي دو فور الملقب ببيبراك، كان دبلوماسيًا وقاضيًا وشاعرًا ومفكرًا إنسانيًا في وقتٍ مطبوعٍ بالفتن والحروب الدينية، وكان يستعمل اللاتينية كلغةٍ أم ثانيةٍ، وكان معروفًا بقوته الخطابية.

(3) بول دو فوا دو كارما (1528 م - 1584 م)، مطران ودبلوماسيٌّ، من عائلة نبلاء عريقةٍ.

الظلم والطغيان. حين يتفكك شيءٌ ما يمكننا رتقه، ويمكننا أن نقف ضدَّ الفساد والتشوُّهِ اللذيْن يخترقان كل شيء؛ كي لا يبعدنا بشكلٍ مفرطٍ عن مبادئ المنطلَق، أما العمل على خلخلة هذا المجموع وتغيير أسس صرْحٍ كبيرٍ كهذا، فذلك شأن الذين لكي يزيلوا الوسخ يقومون بالمحْو، ولكي يباشروا إصلاح العيوب الخاصة يقومون بفتنةٍ كونيةٍ، وبإشفاء المرض بالموت: «إنهم يرغبون أكثر في تدمير الحكومة لا في تغيير شكلها»[1]. العالم عاجزٌ عن أن يُشْفَى، فهو يجد صعوبةً في تحمُّل ما يدخل له الملَل بحيث لا يسعى إلا للتخلص منه من غير أن يعرف ثمن ذلك، ونحن نرى من خلال مئات الأمثلة أنه يُشْفَى على حسابه؛ فالتخلص من الألم الحاضر لا يكون شفاءً إذا لم تتحسن الوضعيةُ العامَّة.

41. لا يكمن هدف الطبيب الجرَّاح في قتل اللحم المريض؛ فذلك ليس سوى مرحلةٍ في العلاج، إنه يرى أبعد من ذلك، فما يسعى إليه هو أن يبعث فيه اللحم الطبيعيَّ، ويمنح الجزء العليل حالته الطبيعية من جديدٍ، فكل من يرْتئي نزع ما يسبِّبُ ألمه لا يبلغ هدفه؛ ذلك أن الخير لا يتبع بالضرورة الشر والألم؛ إذ يمكن أن يتبعه ألمٌ آخر قد يكون أفظع، وذلك ما حدث لقتلَة يوليوس قيصر، الذين خربوا الدولة بحيث كان عليهم الندم على فعلتهم، وذلك أيضًا ما حدث للعديدين غيرهم حتى عصرنا، والفرنسيون من المعاصرين لي يمكنهم الحديث عن ذلك، فكافة التحولات الكبرى تخلخل الدولة وتقودها للفوضى.

42. من يسعى إلى إشفاء الدولة بشكلٍ مباشرٍ، مع التفكير قبل محاولة أي شيءٍ من أجل ذلك، سوف تبرد نيته في أن يحاول فعل أي شيء. ولقد أبان بَاكوفيوس كالافيوس[2] خطأ هذه الطريقة في العمل بمثالٍ مشهودٍ، فحين تمرَّدَ مواطنوه على قُضاتهم في مدينة كابووا الإيطالية، التي كان فيها -هو نفسه- قاضيًا ذا نفوذٍ كبيرٍ، وجد يومًا الوسيلة لكي يحبس مجلس الشيوخ في القصر، ثم إنه دعا الشعب إلى التجمُّع في ساحة المدينة وصرَّحَ لهم أن الوقت قد حان للانتقام من الطغاة الذين

(1) Cicéron, **De Officiis**, II, 1.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXIII, 3.

اضطهدوهم لزمنٍ طويلٍ، وبشكلٍ كامل الحرِّيةِ، بما أنهم كانوا تحت رحمته عُزَّلًا. واقترح أن يتم اختيارهم بالقرعة واحدًا واحدًا، وأن يتم الحكم على كل واحدٍ منهم وتنفيذ الحكم للتوّ، بشرط أن يختاروا رجلًا خيِّرا لتعويض المحكوم عليه، حتى لا يظلّ مكانه شاغرًا، وما إن سمعوا اسم أحد أعضاء مجلس الشيوخ حتى تعالتْ صرخات السخط والغضب العامة ضده، فقال باكوفيوس: «أرتئي أن نعزل هذا العضو، إنه رجلٌ شريرٌ، لنأخذْ بدله شخصًا حسنًا». ثم إن صمتًا مُطبقًا غشي الساحة؛ إذ أن الكل كان عاجزًا عن اقتراح اسمٍ معيَّنٍ». وما إن اقترح أولهم بجرأةٍ اسمًا حتى ارتفعت موجةٌ من الاستنكارات أكبر مُعدِّدَةً عشرات العيوب والأسباب الوجيهة لرفضه، ولأن الآراء المتناقضة قد تأجَّجَت فقد كان الأمر أسوأ مع العضو الثاني والثالث، لقد كان الشقاق في اختيار الأعضاء الجدد لمجلس الشيوخ أكبر من إقالة الشيوخ القدماء، وبما أنهم أتعبوا أنفسهم بلا جدوًى من تلك المشاحنات، ها هم بدأوا واحدًا واحدًا يتركون الجمع، وكل واحدٍ منهم يحمل في ذهنه أن الشرَّ الأقدم والمعروف أشدُّ احتمالًا من الشرِّ الجديد الذي لم يخبَروه أبدًا من قبل، وأنا أتصورُنا قلقين من كل ما قمنا به.

«للأسف أن ندوبنا وجرائمنا وحروبنا الأخوية تملأنا عارًا! أمام أي رعبٍ تراجعْنا. نحن أبناء قرنٍ همجيّ؟ وهل خشية الآلهة أوقفت أيدي شبابنا؟ وأي مذابح في المعابد لم يستعملوا؟»[1].

ولهذا لن أختم.

«الإلهة سالوس*[2] هل سترغب في ذلك شخصيًّا؟ فهي تستطيع إنقاذ تلك العائلة»[3].

43. ربما لم نستطع بعد الوصول إلى نهايتنا، فديمومة الدول أمرٌ قد يكون

(1) Horace, **Odes**, XXXV, 33.

(2) * إلهة الرفاه والصحة والسعادة في الأساطير الرومانية.

(3) Térence, **Les Adelphes**, Acte IV, sc. 7, v. 43-44.

فوق قدراتنا العقلية. إنها كما يقول أفلاطون شيءٌ أقوى وأصعب من أن يتم تحطيمه مقارنةً بتنظيمٍ مدنيٍّ ما، فهي شيءٌ عادةً ما يقاوم الأمراض الباطنة والقاتلة والمخاطر، التي تتسبَّبُ فيها مظالم العدالة والطغيان، وتمادي قضاة المدينة وجهلهم، والتسيُّب والعصيان الشعبيّ.

44. نحن في كافة الوضعيات التي تضعنا فيها الصدفة، نقارن أنفسنا دومًا بمَن هم فوقنا، وننظر لمَن هم أعلى مرتبةً منا، لنقارنْ أنفسنا بمن هم أدنى مرتبةً منا، فليس ثمة شخصٌ بائسٌ مهما كان لا يجد مئات الأمثلة التي تواسيه، إنها لَنقيصةٌ لدينا أن نكون غير راضين عن النظر إلى ما هو فوقنا أكثر من أن نكون راضين عن النظر إلى ما هو تحتنا. كان سولون هو من يقول مع ذلك إننا إذا ما جعلنا كافة الشُّرور مجموعةً في كومةٍ، فلن يكون ثمة من لا يختار الذهاب آخذًا منها شروره الخاصة، على أن يتقاسم بشكلٍ عادلٍ هذه الكومة مع الآخرين ويأخذ حصته منها. إن دولتنا تمر بحالةٍ سيئةٍ، ولقد عرفنا دولًا كانت في حالٍ أكثر مرضًا، ومع ذلك لم تعرف الموت من جراء ذلك؛ فالآلهة تلعب معنا الكرة وترمي بنا في كافة الاتجاهات.

«الآلهة تتلاعب بنا كما ببَكراتٍ»[1].

مصير روما

45. لقد اختارت الكواكب مصير الحكومة مثالًا لما هي قادرةٌ عليه، كانت روما تتوفَّرُ في ذاتها على كافة مظاهر الدولة، وتعيش كافة التقلبات التي يمكن أن تلاقيها، أي كل ما يمكن للنظام والفوضى والسعادة والشقاء أن تُنتج فيها. مَن يمكنه أن ييأس من وضعها وهو يرى الرَّجاتِ والحركات التي خلخلت تلك الدولة وتحمَّلتها؟ أنا لا أتفق مع مَن يقول إن مدى سيطرة دولةٍ ما تكون شهادةً على وضعها الجيِّد، ذلك أن الدولة الرومانية - وفق هذه الشروط- لم تكن في صحةٍ جيدةٍ أكثر إلا حين كانت مريضةً، وأسوأ أشكال ذلك المرض هو ما جعلها تكون أكثر شهرةً، لقد كان

(1) Plaute, **Les Captifs**, in Théâtre complet, Prologue, v. 22.

إيسوقراطيس على حقٍّ حين قال لنيكوكليس أنْ ليس من اللازم غبطة الأمراء ذوي المُلك الشاسع، وإنما أولئك الذين يعرفون جيدًا الحفاظ على المُلك الذي عاد لهم. خلال حكم الأباطرة الأوائل، كنا لا نكاد نقف على وجودٍ للدولة وهي في حالٍ من البلبلة الكثيفة والفظيعة التي لا يمكن تصوُّر مداها. ومع ذلك فإن روما قد تحمَّلت ذلك، وحققت استمرارها لا كمَلكيةٍ محصورةٍ في حدودها، وإنما بمعرفتها كيف تحافظ على العديد من الشعوب المتنوعَّة والمتباعدة عن بعضها البعض، والتي تكره بعضها البعض وتعيش سوء الحكم والعبودية الظالمة.

«والقدَر لا يمنح أي أمةٍ عناية
أن تروي عطشها لحقد شعبٍ هو سيِّدُ
الأرض والبحر»[1].

46. كل ما هو متصدِّعٌ لا يكون مع ذلك آيلًا للسقوط، فبنية جسمٍ كبيرٍ بها العديد من المسامير. وذلك يعود إلى قِدَمه مثلُه مثل البنايات العتيقة التي تآكلت أسسها بفعل الزمن، ومن غير ملاطٍ أو إسمنت، والتي مع ذلك تعيش وتتعاضد بثقلها.

«إنها لا تظل قائمةً بجذورها الصلبة
وإنما بثقلها الهائل»[2].

47. في كل الأحوال، ليس فحص حصنٍ وجوانبه والخندق الدائر به طريقةً مثلى للتأكد من حصانته، علينا النظر أيضًا إلى المنافذ التي يمكن أن نلج إليها منه، وفي أي حالٍ هم المهاجمون. قليلةٌ هي السفن التي تغرق تحت ثِقَل حُمولتها من دون عنفٍ خارجيٍّ، وإذا ما نحن نظرنا حوالَيْنا، فإننا نرى أن كل شيءٍ سينهار، ففي كافة الدول الكبرى التي نعرف، سواء المسيحية منها أو غيرها، وإذا ما نظرنا للأمر عن كثبٍ، فإننا سنجد خطرًا محْدقًا بالتغير والدمار.

«هؤلاء أيضًا لهم مواطن ضعفهم
فالعاصفة نفسها تتهدَّدهم»[3].

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, I, vv. 82-83.
(2) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, I, vv. 138-139.
(3) Virgile, **Énéide**, XI, v. 422.

48. حاول علماء الفلك قدْر إمكانهم من إنذارنا على عادتهم بالتغيرات الكبرى والتحولات المقبلة العظيمة، فتكهناتهم راهنةٌ ومحسوسةٌ، ولا حاجة لنا للبحث عنها في السماء.

49. لا يلزمنا فقط أن نستقي هذه المواساة من كونية الشَّر والخطر المحدق، وإنما أن نستقي بعض الأمل في ديمومة دولتنا، خاصةً وأنْ لا شيء يحدث طبيعيًّا كما نتوقع، فالمرض الكونيُّ لا يمنع من الصحة الخصوصية، والتلاؤم مزيَّةٌ معاديةٌ للتحلُّلِ. وفي ما يخصّني، لا أنغمس في اليأس، إذ تبدو لي في الأفق سُبُلٌ لخلاصنا.

«ربما سيأتي إلهٌ بعودةٍ محمودةٍ
كي يعيد الأشياء إلى نصابها»[1].

50. من يدري؟ ربما كانت مشيئة الرب أن يكون الأمر كما هو في الأجسام، التي تعالج نفسها وتحسِّنُ أحوالها بعد أمراضٍ طويلة الأمد؛ فتلك الأمراض تترك الجسم بعدها في صحةٍ وعافيةٍ أكبر وأوضح من الصحة والعافية التي نزعتها منه.

51. ما يضجرني أكثر هو أنني إذا حسبت أعراض الشرِّ المحيق بنا، فإن عددًا منها يكون طبيعيًّا ومقداره يكون مما تبعثه لنا السماء، بحيث تكون فعلًا أعراضًا سماويةً مقارنةً مع تلك التي تكون ناجمةً عن فوضانا وحماقاتنا، ويبدو أن الكواكب نفسها تعتبر أن وجودنا قد دام أكثر من الحدِّ العادي، وإني ليحزّ في نفسي أيضًا أن أرى أن الشرَّ الأقرب إلينا، والذي يهدِّدُنا بشكلٍ مباشرٍ، ليس تدهورًا في الكتلة نفسها الكاملة والصُّلبةِ، وإنما هو تفكُّكها والانقطاع العنيف لعناصرها، وذلك هو ما يلزم الخوف منه أكثر.

الذاكرة

52. عليَّ أن أقول أيضًا ما يلي: إن أكثر ما أخشاه في هذه التهْويمات –أي

(1) Horace, **Épodes**, XIII, vv. 7-8.

المقالات- هي أن تخونني ذاكرتي، وأنا أخشى أن تكون قد قادتني على غفلةٍ مني إلى أن أكون كتبت مرتيْن الشيء نفسه. فأنا أكره أن أراجع بنفسي ما قمت به، ولا أعيد القراءة إلا على مضَضٍ ما انفلت مني، وأنا والحالة هذه لا أقدم هنا شيئًا تعلمته حديثًا، إنها فقط أفكارٌ دارجةٌ؛ ولأني ربما بلورتها مرارًا من قبل، أخشى أن أكون قد كتبتها قبلًا. فالتكرار يكون دومًا مملًا حتى لدى هوميروس، غير أنه يكون كارثيًا حين يتعلق بأشياء لا أهمية لها سوى أنها سطحيةٌ، حتى لو تعلق الأمر بأشياء مفيدةٍ، كما هو الأمر لدى سينيكا، وأنا لا أحب عادةً مدرسته الرواقية المتمثلة في التَّكرار في كل مادةٍ طولًا وعرضًا للمبادئ والمسلمات ذات القيمة العامة، والتركيز الدائم على الأدلة والبراهين الكونية والمشتركة.

53. ذاكرتي تتدهور بشكلٍ مُزرٍ يومًا بعد يومٍ.

«كما لو أني بلعت بحنجرةٍ جافةٍ
أقداحًا بها سهاد نهر الليثي»[1].

والحمد لله أن هذا لم يجلب لي ضررًا إلى اليوم، غير أن عليَّ من الآن فصاعدًا- وبينما يكون على الآخرين أن يبحثوا عن اللحظة والفرصة للتفكير في ما عليهم قوله - أن أتفادى من جانبي أي استعدادٍ؛ خَشيةَ أن أتفوَّهَ بواجبٍ لازمٍ أُصبحُ في ما بعد مرهونًا به، فإن أصبح ضالًا حين أكون مكرهًا على شيءٍ، أي أن أكون مرهونًا بأداةٍ هي ذاكرتي.

54. لا أقرأ أبدًا هذه القصة من غير أن أحس بالجرح بشكلٍ صادقٍ وشخصيٍ: اتُّهِم لينكيستيس بالتآمر على الإسكندر الأكبر، وفي اليوم الذي اقتيد فيه أمام الجيش كي يدافع عن نفسه كما جرت العادة، رتَّب في ذهنه خطبةً مسبوكة، نطق منها ببعض الكلمات مترددًا ومتَعْتعًا، وحين كان يحاول أن يجمع شتاتها، ها هو يتعرض للهجوم ويُقتل بضربات الرماح على يد الجنود الذين كانوا جواره؛ إذِ اعتبروه مذنبًا لأن لحظاته وصمته وتردُّدِهِ كانت بمثابة اعترافٍ لهم، في السجن. فعندما كان يملك الوقت الكافي لإعداد مرافعته، ولم يدركوا أن الذاكرة تخونه،

(1) Horace, **Épodes**, XIV, vv. 3-4.

وإنما تأنيب الضمير كان يُلجِم لسانه ويحرمه من قوة الحديث، وهو استدلالٌ معقولٌ منهم. إن المكان والحاضرين والانتظار، كل هذا يُدخل الاضطراب في أنفسنا مسبقًا حين نرغب في القيام بخطبةٍ جيدةٍ، فما العمل حين يتعلق الأمر بخطابٍ ترتهن به حياة المرء؟

.55 أما في ما يخصُّني، فإن كوني خاضعًا لما عليَّ قوله يساهم في إبعادي عنه، فحين أضع أمري بين يديْ ذاكرتي وأرتهن بها كليةً، أضغط عليها بكامل ثقلي بحيث أسومها العذاب فترتعب من ذلك الحمل، وإذا ما أحلْت إليها، فإني أكف عن أن أكون أنا، إلى حدِ أني أكاد أفقد فحوى كلامي، ولقد وجدتُ نفسي يومًا وأنا أكاد لا أستطيع إخفاء العبودية التي ورَّطتُ فيها نفسي تجاهها، فحين أتحدَّثُ أرغب في أن أُبيِّنَ عن لامبالاةٍ عميقةٍ في النبرة والملامح، من خلال حركاتٍ طارئةٍ وغير متوقعةٍ، كما لو أنها تنبجس من المصادفات التي تعرِض لي، وأنا أحب أيضًا وأفضِّلُ ألا أقول شيئًا مهمًا، على أن أبيِّنَ للسامعين أني أتيت لهم مستعدًا للحديث الفصيح البليغ، وهو أمرٌ لا ينظر له الناس الذين يمتهنون الكتابة بالأخص نظرة الرضا، بيْد أنه أمرٌ يتضمن الكثير من الواجبات لمن لا يملك تلك المقدرات. فالاستعدادات تجعلنا نأمل منها أكثر مما تقدِّمُ لنا من حصيلةٍ، يلبس الناس بِزَّاتهم بشكلٍ غبيٍّ من غير أن يقدروا على القفز بها كما بالمعطف. «لا شيء أكثر معاكسةً لمن يرغب في الغواية من أن ينتظر الكثير من نفسه»[1].

.56 قال أحدهم[2] إن الخطيب كوزيو كان يحدُث له حين كان يُريد تصميم خطبته في ثلاث أو أربعة أجزاءٍ أو بعدد أدلته وبراهينه، أن ينسى منها واحدًا أو أن يضيف إليها واحدًا أو اثنين. ولقد تفاديت بعنايةٍ كبيرةٍ أن أسقط في هذه الهفوة لأني أكره هذا النوع من الوعود والوصْفات؛ ليس فقط بسبب التحدي الذي أحسه إزاء ذاكرتي، ولكن أيضًا لأن هذه الطريقة في العمل بالغة الاصطناع. «**فالجنود يرغبون في بساطةٍ أكبر**»[3]. باختصارٍ، لقد أخذت على نفسي ألا أتحدث أبدًا في مكانٍ

(1) Cicéron, **Académiques**, II, 4.

(2) كان كوريو هذا عدوًا لدودًا ليوليوس قيصر

(3) Quintilien, **Institution Oratoire**, XI, I.

رسميّ، فإن قراءة المرء ما كتبه -علاوةً على أنها طريقةٌ بالغة الغباء - هو أمْرٌ مضرٌّ بمن يكون مزاجهم ذا استعدادٍ للفعل الخطابي، أما أنْ أضع نفسي تحت رحمة الارتجال فهو ما لا يقلُّ غباء عن السابق؛ إذ إن الارتجال لديَّ ثقيلٌ ومضطربٌ، وهو لا يمكنه الاستجابة لضروراتٍ مفاجئةٍ وهامةٍ.

مونتيني وكتابه

57. أيها القارئ، اترك هذه المقالات تجري مجراها، ومعها هذا الكتاب الثالث «المُضاف»، الذي يتكون من بقايا صورتي الشخصية، فأنا أضيف ولا أصحِّح[1]؛ أولًا لأن من قدَّم للجمهور كتابه لم يعد يملك أي حقٍ عليه حسب ما يبدو لي، فليقلْ ما هو أفضل من ذلك إذا ما استطاع ذلك، لكن في مكانٍ آخر، وليحجمْ عن إفساد الكتاب الذي باعه، وإلالا يلزم اقتناء أي شيءٍ لدى هؤلاء الناس إلا بعد وفاتهم! فليفكروا في ذلك مليًّا قبل أن يخْرجوا للملأ، فلا أحد يحثُّهم على الإسراع في ذلك.

58. كتابي دائمًا هُو هُو لا يتغيَّرُ، سوى إني -تبعًا لطبعاته الجديدة- أسمح لنفسي بأن أضيف له بعض المحسِّناتٍ؛ حتى لا يروح المقتني فارغ اليدين[2]، وذلك فقط للكشف عن كرمي، غير أنه أمرٌ لا يحدُّ من قيمة الصيغة الأولى، وإنما يمنح قيمةً خاصةً لكل الصيغ الموالية عبر بعض التدقيق الإرادي؛ ولهذا قد ينجم عن ذلك بعض التراكب الزمني، فحكاياتي تجد مكانها في السياق الذي يتطلبها، وليس بالضرورة تبعًا لتواليها الزمني.

59. وأنا لا أصحح مقالاتي أيضا لسببٍ ثانٍ، ففي نظري أخشى أن تكون الصيغة الثانية أقلَّ قيمةٍ من الأولى. فعقلي لا يسير دومًا قدُمًا إلى الأمام؛ إذ هو قد يرجع القهْقرى أيضًا، وأنا أحترس بالأفكار التي تأتيني في المقام الثالث أو الثاني مقدار الأفكار التي تأتيني في المقام الأول، وبالشكل

(1) مونتيني لا يصحح حين يكتب، غير أن التصحيف الكثير الذي نراه في «نسخة بوردو» يبيِّن العكس.

(2) لقد أضاف مونتيني فعلاً العديد من المقاطع وعدّل من مقاطع وفقراتٍ أخرى بين طبعة 1580 م وطبعة 1588 م، كما نرى ذلك في نسخة بوردو.

نفسه أحترس من الأفكار الراهنة مقدار احتراسي من القديمة، ونحن نصحح أنفسنا بغباء تعادل عادةً تصحيحنا للآخرين، ولقد شِخْتُ بعد سنواتٍ منذ أصدرت منشوراتي الأولى في عام ألفٍ وخمسمئةٍ وثمانين، لكني أشك عميقًا أنني صرت أكثر حكمةً ولو بالنزر اليسير.فأنا في ذلك الوقت، وأنا اليوم، شخصان اثنان مختلفان. أيُّ الشخصين الأفضل؟ ذلك ما لا أدريه. أن يشيخ المرء أمرٌ حسنٌ، لو كنا نسير حثيثًا نحو التحسُّنِ، بيد أننا نمشي مشية السكِّيرِ المترنِّحِ المصاب بالدُّوارِ وغير الثابت مكانه؛ أو مثل القصب في مهبِّ الريح أيضًا.

60. كتب أنطيوخوس[1] بشكلٍ قويٍّ مدافعًا عن أكاديمية أفلاطون، لكنه في سنواته الأخيرة انقلب عليها، وأنْ أتبع هذا أو ذاك، أليس في الأمر اتباعٌ لخطى أنطيوخوس دومًا؟ فبعد أن أرسى الشك، ثم أراد إرساء يقين الآراء البشرية، أليس الأمر إرساء الشك لا اليقين؟ ألا يبيِّن ذلك أنه لو قُدِّرَ له أن يعيش سنواتٍ أطول، كان سيغيِّرُ أكثر حكْمه وليس بالضرورة إلى الأحسن.

61. لقد منحتني أفضال الجمهور جرأةً أكثر مما انتظرته منها، بيد أني أخشى ما أخشاه هو أن يصيبني الملل من ذلك، فأنا أفضِّلُ أن أغيظ الآخرين على أن أدخل لنفوسهم الملل، كما حدث لعالمٍ من زمني[2]. المديح يكون دومًا أمرًا مرغوبًا فيه، لا يهم عمن يصدُر ومن يثيره. لكن، للتمتع حقَّ المتعة بذلك المديح علينا أن نستخبر عن علله، فالنواقص أيضًا تعرف كيف تصنع لنفسها قيمةً قابلةً للمديح، والتقدير العام والشعبي يكون عادةً غير مُصيبٍ في اختياراته، وفي أيامنا هذه، إما أني مخطئٌ حقًّا، أو أن الكتابات الأسوأ هي تلك التي تحظى بتقدير الجمهور، والأكيد أني ممتنٌّ للناس المميَّزين الذين يستحسنون مجهوداتي المتواضعة.

(1) هو أنطيوخوس العقسلاني الذي كان أستاذ فارّو ولوكلولّوس وشيشرون، والحكاية مستقاةٌ من شيشرون.
(2) لا نعلم لمن يشير مونتيني هنا.

الإملاء

62. ليس هناك من مكانٍ لا تُظهر فيه الاختلالات أكثر من مادةٍ لا يمكنها أن تكتفي إلا بذاتها. فلا تلمْني أيها القارئ، عن الأخطاء التي تندسُّ هنا، بسبب رعونة الآخرين أو عدم دقّتهم، ففي المطبعة، كل يدٍ وكل عاملٍ يمنحها من عند ذاته. أنا لا أهتم بالإملاء، أرغب فقط في اتباع القواعد الإملائية القديمة، بيْد أنهم حين يخرقون قواعده، كما هو الأمر عادةً، ويفسدونه على هواهم، فإنهم يدمِّرون كتابي، حين لا تلائمني فكرةٌ، فإن شخصًا عاقلًا عليه ألا يعتبرها فكرتي. ومن يعرف كم أنا كسولٌ وخاملٌ، وكم هي ذات طابعٍ خصوصيٍّ طرائقي في الفعل والكتابة، سيصدِّقُ بسهولةٍ أني سوف أملي من جديدٍ الكثير من المقالات على أن أحصر نفسي في مراجعتها؛ كي أدخل فيها بعض التصحيحات الصبيانية.

63. قلت إذًا آنفًا إني مقيمٌ في الوريد الأعمق لهذا الزمن، فمن ثم فأنا لست فقط محرومًا من الألفة مع أناسٍ ذوي عوائد أخرى وآراء أخرى غير آرائي، أي تلك الرابطة التي تشدُّهم والتي تتحكَّم في الآخرين كلهم، لكني أخاطر أحيانًا بنفسي وسط أولئك الذين يكون لديهم كل شيءٍ ممكنًا، والذين لا يمكنهم تجاوز ما اقترفوه في حق عدالتنا. فمن هناك تأتي إباحية عوائدهم. وحين أحسب كافة الظروف الشخصية التي تخصُّني، فإني لا أجد من بين من يحيطون بي شخصًا يدافع عن القوانين مهما كان ثمن ذلك مثلي، أو كما يقال: «رُبَّ ضارّةٍ نافعةٌ». وهناك الكثيرون من الناس يمارسون الفضيلة بشغفٍ وتصميمٍ، ومع ذلك حين نزن الأمور فإنهم يفعلون ذلك أقل مني.

مونتيني وبيته

64. ظل بيتي في كل وقتٍ مفتوحًا وسهْل المدخل ومستقبِلًا لكل وافِدٍ، وأنا لم أنصع أبدًا لجعله آلة حربٍ، وهي الحرب التي أشارك فيها عن طواعيةٍ حين تدور رحاها بعيدًا عن بيتي، وهو قد حظي بسمعةٍ طيبةٍ

في الجوار، بحيث يصعب أن أتلقى المآخذ من الآخرين فيه، فأنا أعتبر نجاحًا باهرًا ومثاليًّا أن يكون بيتي طاهرًا من إراقة الدم ومن النهب، في وقتٍ كثرت فيه القلاقل والعواصف والفتن في الجوار، وذلك لأن من الممكن لشخصٍ له مزاجي أن يفلت من خطرٍ دائمٍ ومستمرٍ مهما كان، بيْد أن غزوات العدوِ وتدخلاته، وبدائل القدر وتقلباته من حولي، قد أدخلت الاستياء أكثر من الهدوء في نفوس أناس البلد، وهذا أمر يسبِّبُ لي مزيدًا من المخاطر والمصاعب التي لا تحتمل، وأنا أُفْلِتُ من ذلك، لكني أستاء من أن يكون أمرًا بمحض الصدفة، أو بفضل حذري أكثر منه بفضل العدل، وإني أستاء أيضًا من أن أكون خارج حماية القوانين، وتحت حمايةٍ خارجةٍ عنها.

65. أنا أَدين بحياتي جزئيًّا للآخرين تبعًا لمسير الأمور، وهو ما يشكِّل ضرورةً ثقيلةً عليَّ، فأنا لا أريد أن أكون مدينًا بسلامتي للطف الأقوياء أوعطفهم، الذين يمتدحون احترامي للقوانين، ولا لطيبة قلب أسلافي أو لنفسي، فلو كنت مختلفًا،ما سيكون مصيري؟ وإذا كان سلوكي والصراحة التي تسم علائقي مع الناس يجعلان جيراني وأقربائي ذوي واجباتٍ إزائي، فمن القسوة أن يقوموا بتلك الواجبات وأن يقولوا لي: «نحن نمنحه استمرار فضل الربِّ في كنيسة بيته؛ ما دامت كافة كنائس الأنحاء قد هُجرت بسببنا، ونحن نسمح له بالتصرف في خيراته وفي حياته؛ بما أنه يحمي نساءنا وثيراننا بقيمته عند الضرورة». ونحن نستحق من زمانٍ قسطًا من المديح الذي كان يتلقاه ليكورغوس الأثيني الأمين على ثروات مواطنيه وحاميها.

التعْويل على النفس

66. وإني أعتقد بالعكس أن على المرء أن يعيش تبعًا للقانون والسلطة لا بفضل المكافآت والأفضال. كم من الناس الشرفاء فضلوا أن يفقدوا الحياة على أن يكونوا مَدينين بها للآخرين؟ وإني أتهرَّب من الاستسلام لأي فريضةٍ كيفما كانت، وخاصةً لتلك التي تربطني للشرف بالواجب.

لا شيء يكون غالي الثمن لديَّ أكثر مما يمنح لي، أي ما تكون به إرادتي مرهونةً بخطر الجحود بالجميل. أقبَل طواعيةً بالخدمات حين تكون مأجورةً؛ لأن الأمر لا يتعلق إلا بالمال، أما أنا فأمنح للآخرين نفسي، فرابط النزاهة الذي يربطني بهم يبدو لي أكثر متانةً وأشدَّ قسوةً من رابط الإلزام القانوني، فأنا أحس نفسي مختنقًا أكثر بنفسي منها بموثِّقٍ شرعيٍّ. أفليس طبيعيًّا أن يكون ضميري أكثر التزامًا بالأشياء التي تمَّت الثقة فيها به؟ أما بخصوص الباقي فإن حسن سريرتي لا تَدين بشيءٍ للآخرين لأنْ لا أحد منحها شيئًا؛ ولذا فلا يعتمد الآخرون إلا على الثقة والأمان الموجوديْن خارجي، وأنا أفضل كسر السجن الذي تصنعه الأسوار والقوانين على ذلك الذي تحبسني فيه كلمتي ووعدي. وإنّي دقيقٌ في احترام وعودي حتى التطيُّر، وفي كل المواضيع أجعلها عَنوةً غير موثوقةٍ وممهورةٍ بالشروط، وأنا أمنح للوعود التي لا أهمية كبرى لها عنايةً كبرى موصولةً بقاعدتي، فهي تقلقني وتحمِّلُني إلزاماتها الخاصة، فحتى في أعمالي الحرة، تلك التي لا ترتهن إلا بي، إذا ما كشفتْ عن موضوعها، فأنا أعتبر أني أرهنها بي، وأنَّ كشفها للآخرين يعني أن أفرضها على نفسي أولًا، إذ يبدو لي أني أعد بها فقط بالقول؛ لهذا فأنا أكشف نادرًا ما عن مشاريعي.

67. الحكم الذي أطلقه على نفسي أكثر حدَّةً وأشدُّ قسوةً من حكم القضاة الذين لا ينظرون لي إلا من زاوية الإلزام المشترك. ضميري يحضنني بشكل عنيفٍ وقاسٍ، بحيث إني ألتزم برخاوةٍ بالواجبات التي يتم جرّي إليها لوْ لم ألتزم بها عن طواعيةٍ. «وحده الفعل الإرادي يكون عادلًا»[1]، فإذا لم يكن للعمل بهاء الحرية فلا رونق له ولا يستحق الثناء.

«ما يفرضه عليَّ القانون، لا يناله مني أحدٌ أبدًا بإرادتي»[2].

68. وأنا ألطِّف من إرادتي حين تفرض عليَّ الضرورة ذلك. «ففي ما تفرضه السلطة يكون المرء في وضعيةٍ أفضل مع من يحكم، منه مع من يطيع

(1) Cicéron, **De Officiis**, I, 9.

(2) Térence, **Adelphes**, III, 5, v. 44.

الحاكم»[1]. وأنا أعرف من يتَّبع هذا المبدأ حتى الظلم، فهم يمنحون ولا يعيدون، ويُعيرون ولا يؤدون الثمن، ويفعلون الخير بتقْتيرٍ مع أولئك الذين عليهم القيام به معهم، وأنا لا أسير إلى ذلك الحدِّ، غير أني أقترب منه.

69. أحب كثيرًا أن أتخلص من الالتزامات والمسؤوليات، بحيث إني أحيانًا اعتبرت امتيازًا حالات الجحود والشرّ التي أصابتني من أولئك الذين كان لي إزاءهم واجب الصداقة، بشكلٍ طبيعيٍ أو بالصدفة، فأنا كنت أعتبر ذريعة خطئهم مكْسبًا يخلِّصني من دَيْني إزاءهم، وحتى لو ظللت مع ذلك أَدين لهم بالصداقة الظاهرة -لأن المجتمع يفرض ذلك- فإني أجد راحةً كبرى في ألا أقوم إلا بالعدل بما كنت أقوم به بالعاطفة، بحيث أتخفَّفُ باطنيًّا من توتُّر إرادتي وهمومها. **«من الحذر أن يلجم المرء اندفاعه الأول في المعروف، بالشكل نفسه الذي يلجم به انطلاقه في العدْو»**[2]. وهذه المشيئة لديَّ حين أتعاطى لشيءٍ ما، تكون صارمةً ومتسرِّعةً كثيرًا، على الأقل لدى شخصٍ لا يحب أبدًا التسرُّع، وهذه الطريقة في العناية بمشيئتي تمنحني بعض العزاء في المضارِّ التي يتسبَّب لي فيها المقرَّبون لي. وأنا آسفٌ لكون قيمتهم لدي أقلَّ، لكني على الأقل أتخلص شيئًا ما من المثابرة في التعلق بهم، وأنا أفهم من لا يحب كثيرًا طفولته لأنه أجْرب أو أحْدب، ليس فقط حين يكون شريرًا، ولكن أيضًا حين يكون تعيسًا أو قليل الموهبة، ما دام الرب نفسه قد كفْكف في هذه الحال من قيمته الطبيعية. لكن، حتى لو أبان المرء عن برودة الأعصاب، فعليه التصرُّف باعتدالٍ وبعدلٍ، فلدي القرْبُ لا يخفِّف من العيوب بل إنه بالأحرى يفاقمها.

70. في نهاية المطاف، وبما أنني عارفٌ بعلم الخير والاعتراف، وهو علمٌ لطيفٌ وذو منافع كثيرةٍ، فأنا لا أجد شخصًا أكثر حريةً وأقل دينًا منِّي إلى الآن، فما أَدين به، أدين به فقط للواجبات العادية والطبيعية، بل لا يوجد ثمة شخصٌ بريء الذِّمة أكثر مني.

«وأنا لا أعرف هدايا أتلقاها من العظماء»[3].

---

(1) Valère, **Maxime Des faits et des paroles mémorables**, II, 2, 6.

(2) Cicéron, **De Amicitia**, XVII.

(3) **Virgile, Énéide, in Œuvres complètes**, tome I XII, v. 519.

71. الأمراء يمنحونني الكثير، إذا هم لم يأخذوا مني شيئًا، وهم يفعلون خيرًا حين لا يؤذونني، فذلك فقط ما أطلب منهم. عرفوني بالجميل لله الكبير؛ فبمشيئته تلقيت منه ومن خيره كل ما أملك، واحْتفظ لنفسه بكل ما أدين له به، وكم أبتهل لرحمته الواسعة ألا يجعلني مَدينًا لأحدٍ بعرفانٍ كبيرٍ بالجميل، تلكم حريةٌ مباركةٌ قادتني بعيدًا في حياتي، فلتستمر حتى النهاية.

72. أسعى دومًا ألا أكون بحاجةٍ أبدًا لأحدٍ. «**ففيَّ كامل أملي ومنايَ**»[1]. إنه شيءٌ يستطيع كل واحدٍ القيام به، لكنه أصعب على من جعلهم الله في مأمنٍ من الضرورات الطبيعية والعاجلة، وإنه لأمرٌ مزْرٍ وخطيرٌ أن ترتهن حياة شخصٍ ما بشخصٍ آخرَ، فنحن الهدف الأكثر أمانًا وعدلًا لأنفسنا، ومع ذلك لسنا بعدُ واثقين بما يكفي من أنفسنا، أنا لا أملك شيئًا غير نفسي، وحتى في هذا الأمر فإن ذلك الامتلاك غير كاملٍ ومقتبَسٍ جزئيًا، وأنا أبلور شجاعتي، وهو أمرٌ هامٌّ، لكني أبلور أيضًا وسائل عيشي؛ كي أجد ما أُشبع به نفسي إذا ما هجرني كل شيءٍ.

73. لم يكتسب هيبّياس الإليسي[2] المعرفة كي يستغني بمرحٍ عن كل رُفقةٍ، ويعيش في كنف آلهة الشعر إذا ما تطلَّبَ الأمر ذلك، وهو لم يدرُس الفلسفة كي يعلِّمَ نفسه أن تكتفي بذاتها، وتستغني بشجاعةٍ عن المباهج والمُتع الخارجية حين يفرض القدَر ذلك، كان يرغب في تعلُّمِ الطبخ، وتشذيب اللحية، وخياطة لباسه، وصنع أحذيته، وأشيائه الصغيرة؛ حتى لا يعوِّل سوى على نفسه ما استطاع ذلك، ومن ثمَّ الاستغناء عن معونة الآخرين.

74. نحن نستفيد أيما استفادةٍ بشكلٍ حرٍّ ورائقٍ من الخيرات التي يمكننا استعارتها من الآخرين، حين لا نكون مضطرين لذلك بفعل الحاجة، ونكون متوفرين على وسائل الاستغناء عنها.

---

(1) Térence, **Les Adelphes**, III, 5, v. 9.

(2) سوفسطائيٌ يونانيٌ شهيرٌ من القرن الخامس قبل الميلاد، يوجد في محاورتين من محاورات أفلاطون هما «هيبياس الكبير» و«هيبياس الصغير».

75. أنا أعرف نفسي جيِّدًا، لكن يصعب عليَّ أن أتخيل أحدًا يغدق عليَّ من سخائه وضيافته مهما كان ذلك خالصًا ولا فائدة من ورائه، من غير أن يكون ذلك مضنيًا وقاهرًا وممهورًا بالعتاب إذا ما كان ذلك بفعل حاجةٍ لي فيه. فكما أن العطاء طريقةٌ لاستجذاب الامتيازات والاستئثار بها، فإن قَبول الأعطيات طريقةٌ للخنوع. ذلك ما يشهد عليه ما قام به السلطان العثماني بايزيد الأول، من رفضٍ جارحٍ وعدوانيٍّ للهدايا التي بعثها له تيمورلنك، ومثل ذلك أن الهدايا التي بعث بهاالسلطان سليمان الثاني لإمبراطور كالكوتا أصابته بغمٍّ كبيرٍ، بحيث إنه لم يكتف فقط برفضها رفضًا قاطعًا -قائلًا إنه لا هو ولا أسلافه لم يتعودوا أبدًا على تلقِّي أي شيءٍ، وأن دورهم يتمثل على العكس من ذلك في العطاء- بل إنه رمى بالسفراء المبعوثين من سليمان الثاني بتلك المناسبة في قبوٍ تحت الأرض.

76. حين تتملَّق الإلهة ثيتيس ليوبيتر -كما يقول أرسطو- أو حين يتزلَّف الإسبرطيون للأثينيين، فهم لا يذكِّرونهم بما فعلوه من خيرٍ معهم -وهو أمرٌ مُشين- وإنما بالمحاسن التي تلقوها منهم، أولئك الذين أراهم عادةً يطلبون خدمات أي واحدٍ وفي الآن نفسه يدخلون في التزامٍ معه، لن يفعلوا ذلك لو علموا مثلي حلاوة الحرية التامة، ولو ثَقُلَ عليهم الإلزام بالتبعية لشخصٍ ما، كما يثقل ذلك كاهل كل إنسانٍ خيِّرٍ، فهذا الإلزام قد يتمُّ أداؤه أحيانًا غير أنه لا ينمحي أبدًا، إنها قلادةٌ قاسيةٌ لمَن يرغب في أن تكون يداه طليقتان في كل الاتجاهات، ومن يعرفونني - سواءٌ كانوا أعلى أو أدنى مرتبةً - يعرفون أنهم لم يلاقوا شخصًا أقل طلبًا وتوسُّلًا وابتهالًا مني، ولا شخصًا أكثر اهتمامًا بألا يكون عالةً على الآخرين، وإذا كنت هكذا، خارج أي مثالٍ من عصرنا، فذلك ليس بالأمر الغريب؛ لأن الكثير من جوانب شخصيتي تساهم فيه، فثمة أنفةٌ طبيعيةٌ لديَّ، وكراهية فكرة الرفض، وتواضُع حاجاتي ومشاريعي، وعدم أهْليتي لأي شأنٍ من الشؤون، من غير أن أتحدث عن ميولي المفضلةِ للخمول والصراحة: وبسبب كل ذلك ربَّيتُ في نفسي مقتًا عميقًا للالتزام إزاء الغير كما لالتزام الغير تجاهي، فأنا اسعى بما أوتيت من قوةٍ إلى أن أستغني عن عوْن الغير، في أي ظرفٍ من الظروف سواءٌ كان مهمًّا أو نافلًا.

77. يثير أصدقائي فيَّ مللًا كبيرًا حين يحثونني على الاستعانة بشخصٍ آخرَ، وأنا لا أحس بانزعاجٍ عميقٍ بتحرير شخْصٍ من دَينٍ معيَّنٍ بتعويض ذلك بخدماته. وفضلًا عن هذا الشرط، هناك شرطٌ آخر: ألا يرغب الغير في الحصول مني على شيءٍ يصيبني بالأسى والهمّ، فأنا أشن حربًا ضروسًا على كل الهموم؛ إذْ حينها أكون رهن إشارة كل واحدٍ، بيْد أني سعيت لئلَّا أتلقى شيئًا أكثر من أمنح شيئًا، وهو أمرٌ أسهل لو صدقنا قول أرسطو[1]. لم يسمح لي قدَري أبدًا أن أفعل الخير في الآخرين، وما سمح به راح لأناسٍ غير مهمِّين، ولو كان القدَر جعلني أولد كي تكون لي مرتبةٌ ساميةٌ بين الناس، كنت سأداعب الطموح في استجذاب محبة الغير، لا في جعلهم يرْهبونني أو يُعجبون بي. هل أعبر عن ذلك بصراحةٍ أكبر؟ كنت سأسعى لأن أكون محبوبًا لا لأن أستفيد من وضعي. كان كورش يقدِّرُ طيبته وحسناته أكثر بكثيرٍ من قيمته العسكرية وغزواته الحربية، كما جاء بشكلٍ حكيمٍ على لسان قائدٍ عسكريٍّ فذٍّ وأفضل فيلسوفٍ أيضًا[2].أما سكيبيو الكبير[3]، فحيثما أراد إبراز قيمته، كان يضع إنسانيته وعطفه فوق جرأته وانتصاراته، وكان لا يملُّ من ترديد هذه العبارة التي صارت شهيرةً بأنه « ترك لخصومه مقدار ما ترك لأصدقائه من أسبابٍ تجعلهم يحبونه».

78. أريد إذًا القول: إذا كان على المرء أن يكون مَدينًا بشيءٍ ما، فعليه أن يكون شيئًا أكثر شرعيةً مما تحدثت عنه إلى الآن، وشيئًا تضطرني له هذه الحرب اللعينة، لا ديْنًا بقدْر كِبر الديْن الذي يحافظ عليَّ حيًّا، فهذا الديْن يقهرني. لقد نمت مئات المرات في بيتي وأنا أفكر أنهم سوف يخونونني وينكِّلون بي تلك الليلة، متَّفقًا مع قدَري مسبقًا على أن يكون ذلك سريعًا وغير مرعبٍ، ثم إني صرخت بعد تلاوة الدعاء:

«هل هذه الأراضي المزروعة بعنايةٍ، هي لجنديٍّ مارقٍ؟»[4].

---

(1) Aristote, **Morale à Nicomaque**, IX, 7.

(2) Xénophon, **Cyropédie**, VIII, 4.

(3) سكيبيو الإفريقي (235-183 ق.م) سياسيٌ وجنرال رومانيٌ، كان والنا على إسبانيا، واستولى على قرطاجنة وانتصرعلى القائد القرطاجني صدربعل، كما استعاد بلاد الأندلس وطرد القرطاجنيين من إسبانيا.

(4) Virgile, **Bucoliques**, I, v. 71.

79. ما هو الدواء إذًا؟ إنه مسقط رأسي ومسقط رأس أغلب أجدادي، وقد وضعوا فيه عطفهم واسمهم. نحن نصبح أقوى بالتعوُّد، وفي وضعيةٍ بائسةٍ كوضعيتنا يكون هذا التعوُّدُ هديةً رائعةً منحتنا إياها الطبيعة، لأنها تنوِّمُ حساسيتنا وتسمح لنا بتحمُّلِ كافة أنواع الشرور والآلام. الحروب الأهلية لها ما هو أسوأ من الحروب الأخرى، إنها تجعل منا عسكرًا حارسًا كل واحدٍ في بيته.

«كم هو محزنٌ أن يكون المرء بحاجةٍ إلى بابٍ وسورٍ كي يحمي حياته، من غير أن يكون واثقًا من صلابة بيته»(1).

80. إنها لمصيبةٌ عظيمةٌ أن يكون المرء عرضةً للمضايقات حتى في عقْر بيته، والمكان الذي أقيم فيه هو الأول والأخير الذي خضع للهجوم خلال فتنتنا الأهلية، والأمان لا يجد فيه وجهه الحق.

«حتى في وقت السلم تجعلنا الحرب نضطرب»(2).

«حين يكسر القدَر السلام، تأتي الحروب
أيها القدَر، كان الأحرى بك أن تمنحني المقامات
التائهة في بلدان الفجر
أو قحافة الجليد»(3).

81. أحيانًا أستمد من اللامبالاة والرخاوة وسيلة تقوية نفسي ضد هذه الاعتبارات؛ فهي تقودنا شيئًا ما إلى الصرامة. يحدث لي مرارًا أن أتخيل المخاطر القاتلة، وأن أنتظرها ببعض المتعة، فأنا أغطس برأسٍ منحنٍ وببلادةٍ نحو الموت، من غير أن أراها أو أتعرَّفَ عليها، كما في عمقٍ سحيقٍ وصامتٍ يبلعني مرةً واحدةً، ويدخلني للحظةٍ في سباتٍ عميقٍ من غير أي إحساسٍ أو ألمٍ. وهذي «الميْتات» القصيرة والقاسية، تعزّيني أكثر في الواقع الذي يقلقني بما تجعلني أراه للحظةٍ، وما دامت الحياة طويلةً لأنها ليست هي الفضلى؛ فالموت هو الأفضل لأنه قصيرٌ حسب ما يزعمون. أنا لا أداري الموت ولا أداوره؛ حتى أتآلف مع

(1) Ovide, **Tristes**, IV, 1, vv. 69-70.

(2) Ovide, **Tristes**, III, 10, v. 67.

(3) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, I, vv 256-57 et 251 253.

فعل موتي الآجل أو العاجل، وإني أتدثَّر وأتوارى من هذه العاصفة التي ستأتي يومًا لتسلبني في هوجائها، بنوْبةٍ مفاجئةٍ لن أحس بها بتاتًا.

82. إذا كان الورد والبنفسج -كما يقول البستانيون- أكثر عطرًا قرب الثوم والبصل، لأنهما يمتصان ويستجذبان الروائح الكريهة في التراب، فربما كان جِوار الأراضي الفاسدة من حوْلي سيمتص السم من هوائي ومن الجوِّ هنا، وهو ما سيجعلني أحسن حالًا وأكثر طهارةً، وهكذا على الأقل لن أفقد كل شيءٍ، بيْد أن الأمر ليس كذلك بتاتًا. لكني يمكنني أن أستخلص شيئًا من ذلك؛ فالطيبة هنا أجمل وأكثر جاذبيةً حين تكون نادرةً، والتنافر والتنوع يعزِّز ويُصلِّب إرادة فعل الخير، فهو يُلهبها بواسطة الغيرة والتعارض، أو بالمجد الذي ينجم عن ذلك أيضًا.

83. اللصوص لا يلومونني شخصيًّا بشكلٍ إراديٍّ، أفَليس ذلك منّي تجاههم أيضًا؟ عليَّ إذًا أن أتهم الكثير من الناس بذلك، فنفوسٌ من قبيل تلك يمكنك أن تجدها تحت ألبسةٍ متنوعةٍ، إنها الوحشية نفسها والخيانة ذاتها والاختلاس نفسه، وهي عيوبٌ من الخطورة بحيث إنها أكثر جبنًا وأكثر وثوقًا وأشدُّ غموضًا تحت غطاء القوانين، وأنا أكره الظلم حين يكون ظاهرًا أقلَّ مما حين يكون مستترًا، وحين يكون محاربًا أقلَّ مما حين يكون قانونيًّا وسلميًّا، وإن حمَّى حروبنا الأهلية قد حلَّت في جسدٍ لم يتدهور وضعه بعد، فلقد كان يحضن الجمر فاشتعلت فيه النار، والصَّخب والضجيج فيه أكبر بكثيرٍ من الشرور التي ألمَّت به.

84. أجيب عادةً من يسألني عن أسباب أسفاري: «أعرف جيدًا ما أهرب منه، لا ما أبحث عنه». وإذا ما قيل لي إن صحة الناس وعافيتهم هناك ليسا أفضل، وأن العوائد ليست أفضل هناك مما هي عليه لدينا، أجيب أولًا أن من الصعب القيام بما هو أسوأ من ذلك=

«طالما أن الجرائم لها أشكالٌ متنوعةٌ»[1].

=وثانيا أننا نكون من الرابحين إذا ما نحن انتقلنا من حال سيئ إلى حال أفضل، وأن مصائب الغير لا يلزمها أن تمسنا مقدار مصائبنا.

(1) Virgile, **Géorgiques**, I, v. 506.

جمال باريس

85. أنا لا أريد نسيان ما يلي: مع أني انتفضت كثيرًا ضد فرنسا إلا أني أنظر لباريس بنظرةٍ محبةٍ، فقد ملكت هذه المدينة فؤادي منذ صباي، وما حدث لي معها يحدث لي مع الأشياء الرائعة. فكلما سنحت لي الفرصة لزيارة مدنٍ أخرى جميلةٍ، كلما تطور حبي لجمال هذه المدينة. وأنا أحبها بذاتها أكثر مما أحبها وهي تتعزز بلَبوسٍ أجنبيٍّ، أحبها بلطفٍ وأحب حتى زجاجها وبراقعها، وأنا لست فرنسيًّا إلا بهذه الحاضرة الكبرى.فهي حاضِرةٌ كبرى بساكنيها وموقعها الاستثنائي، بل بالأخص بعظمتها وتميزُّها بتنوع مُتعها. إنها مجد فرنسا وأحد أروع محاسن العالم. فليبعدْ عنها الرب انشقاقاتنا! فإذا هي كانت موحَّدَةً فستكون في مأمنٍ من أي عنفٍ، وأنا أعلن عن ذلك هنا: مِن كافة أطراف النزاع، الأسوأ منها سيكون من يزرع فيها الشقاق، وأنا أخشى عليها أكثر مما تخْشاه على نفسها، حتى لو كنت أخشى عليها ما تخشاه على نفسها حقًّا. كما أخشى على كل مناطق هذه الدولة. فما دامت باريس موجودةً، فإني لن أتنكَّفَ عن خلوةٍ بها أسلم فيها الروح، وهي تكفي كي لا أندم على أي خلوةٍ أخرى.

مونتيني، هل هو مُواطنٌ من مواطني العالم؟

86. أعتبر كل الناس كما لو كانوا أبناء وطني، لا لأن سقراط قال ذلك[1]، فأنا أقبل بولونيًّا كما لو كان فرنسيًّا؛ لأني أضع الرابطة الوطنية بعد الرابطة العالمية المشتركة بين كافة الناس. لست متأثرًا حقًّا بطيبة هواء مسقط رأسي، فالمعارف الجديدة التي اكتسبت بنفسي تعادل المعارف الأخرى، تلك التي تعود لصدفة الجوار، والأصدقاء الذين نكوِّنهم يجاوزون عمومًا أولئك الذين نرتبط بهم بفعل المناخ أو الدم المشترك الذي يربط بيننا. لقد وضعتنا الطبيعة في العالم أحرارًا ومن غير قيودٍ، ونحن نسجن أنفسنا في مناطق، مثلنا مثل ملوك الفرس، الذين وهم يفرضون على أنفسهم ألا

(1) أثبت مونتيني في الكتاب الأول (الفصل 25، الفقرة 46) أن سقراط قال مجيبًا أحدهم بأنه ليس من أثينا وإنما من العالم.

يشربوا إلا ماء نهر الكرخة، كانوا يحرمون أنفسهم بغباء من حقهم في استعمال كافة المياه، بحيث يصبح ما تبقّى من العالم لديهم أرضًا جافةً.

87. أعتقد أني لن أنكسر أبدًا تحت وطأة العمر، أو أرتبط ارتباطًا ببلدي إلى حدٍّ أن أفعل مثل سقراط في نهاية حياته، الذي اعتبر أن الحكم عليه بالموت أهون عليه من الحكم عليه بالنفي. إن شخصيات مثاليةً مثل هذه تجعلني أقدِّرها أكثر مما أعزُّها، وهناك منها شخصيات بالغة السموِّ والروعة، بحيث إني بالرغم من التقدير الذي أكنُّه لها، لا أستطيع تبنيها لأني لا أستطيع تصوُّرها. إنه لموقفٌ أرْعن لدى هذا الرجل الذي كان يعتبر مع ذلك العالم مدينته، صحيحٌ أنه لم يكن يحب التنقُّل، ولم يسبق له أن جاوزتْ رجلاه منطقة الأتيكا باليونان، لكن أن يأسف على أصدقائه الذين بذَّروا الأموال لتحريره، ويرفض الخروج من السجن بوساطة الغير؛ كي لا يخرق قوانين البلاد في وقتٍ كان الفساد ينخرها، تلك في نظري أمثلةٌ ذات أهميةٍ قصوى. ويمكنني أن أعثر على أمثلةٍ أخرى أقل أهميةً لدى الرجل نفسه. فإذا كانت هذه الأمثلة النادرة تفوق قواي، فلا أحد منها يظل خارج حكمي العقلي.

السفر

88. وعدا هذه الأسباب، فإن السفر يبدو لي تمرينًا بالغ الإفادة؛ فالعقل يجد فيه استثارةً مستمرةً وهو يلاحظ أشياء غير معروفةٍ وجديدةٍ، وأنا -كما أقول دومًا- لا أعرف مدرسةً أفضل لتشكيل المرء لحياته، من أن يجعل نفسه يرى باستمرارٍ تنوع حيواتٍ كثيرةٍ وتنوع الآراء والعادات، وأن يتذوَّق التنوع الدائم لأشكال طبيعتنا. كما أن الجسد لا يظل خلال السفر فاترًا ولا منهكًا من الحركة، فتلك الحركة المعتدلة لا تفقده أنفاسه، وأنا أظل على متْن جوادي من غير ترجُّلٍ - بالرغم من مغَصي الكلوي - ثماني أو عشر ساعاتٍ بلا انقطاعٍ ومن غير مللٍ.

«فوق طاقة وصحة رجلٍ عجوزٍ»[1].

(1) Virgile, Énéide, VI, v. 114.

89. لست أعادي أي فصلٍ من فصول السنة، سوى الحرارة الحارقة لشمس الظهيرة؛ فالشمسيّات التي تُستعمل في إيطاليا منذ روما القديمة تثقل الأيدي أكثر مما تخفِّف وطأة الشمس على الرأس، وأنا أودُّ لو أعرف كيف كان الفُرْسُ يتدبَّرون أمرهم في القديم -حين ظهرت عليهم علامات الحياة الباذخة- كي ينعموا بالهواء المنعش والظل على هواهم، كما يقول كسينوفون[1]. أحب المطر والوحل مقدار حبي للبطِّ، وتغيير المكان والمناخ لا يزعجني. كل السماوات تلائمني، وأنا لا أنزعج إلا بالاضطرابات الباطنة التي أكون أنا سببًا فيها[2]، وهو أمرٌ يلمُّ بي قليلاً في أسفاري.

90. أنا صعب الزحْزحة عن مكاني، لكن ما إن أنطلق في الطريق فإني أسير طالما ابتُغي لي ذلك، وأنا أكون مترددًا في الأعمال الصغيرة تردُّدي في الأعمال الكبيرة، أي في تجهيز نفسي لسفرٍ ليومٍ واحدٍ وزيارة أحد الجيران، كما في رحلةٍ حقيقيةٍ، ولقد تعلمت أن أقوم بسفري دفعةً واحدةً على الطريقة الإسبانية، ولا أقوم بمحطاتٍ طويلةٍ ومعقولةٍ إلا خلال أوقات الحرارة المفرطة، بحيث أتنقل ليلًا من غروب الشمس إلى طلوع النهار، أما الطريقة الأخرى المتمثلة في تناول الطعام في الطريق، والقيام بذلك على عجلةٍ وفي البلْبلة فهي لا تناسبني كثيرًا، خاصةً حين يكون النهار قصيرًا، وجيادي تكون أفضل حالًا، ولا أحد منها قطع معي المرحلة الأولى وخذَلني بعدها، فأنا أرويها في كل مكانٍ وأسهر فقط على أن يتبقَّى لها ما يكفي من الطريق؛ حتى لا تصل بكرشٍ ممتلئةٍ. والكسل الذي أبديه عند اليقظة صباحًا، يترك ما يكفي من الوقت لتابعيَّ كي يتناولوا فطورهم على راحتهم قبل الانطلاق، أما أنا فلا آكل أبدًا متأخرًا، والشهية تأتيني فقط وأنا أتناول الطعام، ولا أحس بالجوع إلا وأنا على المائدة.

91. البعض يشكون من أنني ظللت أسافر حتى بعد الزواج وفي الشيخوخة، فمن الأفضل للواحد منا أن يترك بيته حين يكون قد أحس أنه يمكنه الاستمرار من دونه، وحين يكون قد ترك الأوامر التي لن تزعزع المسير

(1) Xénophon, **Cyropédie**, VIII, 8.

(2) أي للغص الكلوي ومرض الحصى.

القديم للأمور، ومن المخاطرة أكثر أن يبتعد عن البيت تاركًا إياه بين أيدٍ أقلّ وفاءً وأقلّ اهتمامًا بالسهر على حاجياته.

92. العلم الأكثر شرفًا والانشغال الأكثر فائدةً لربة بيتٍ هو تدبير شؤونه، وأنا أعرف بعضهنّ من البخيلات، غير أنهنّ يسيِّرنَ بيتهنَّ ببخلٍ أقلّ. إنها الميزة الأساس لديهنَّ، تلك التي يلزم البحث عنها قبل كل شيءٍ، باعتبارها مثل المال الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ بيتًا أو يدمِّرُه، ولا فائدة من الحديث معي في هذا؛ فالتجربة علمتني ذلك، وأنا من ثمَّ أطالب امرأةً متزوجةً -وفوق كل فضيلةٍ- بفضيلة السهر الجيد على سير البيت، وأمنح لزوجتي فرصة الإبانة عن مزاياها في هذا المضمار، تاركًا لها في غيابي مسؤولية البيت بين يديها، وأنا أرى - بالكثير من الامتعاض في عددٍ من البيوت - سيد البيت يعود إليه عابسًا ومهمومًا بالنكد الذي تسبِّبُه له شؤونه في منتصف النهار، في حين تكون السيدة في غرفتها تلبس وتتزيَّنُ. إن هذا الأمر خليقٌ بالمِلِكات، وإن لم يكن ذلك أمرًا مطلقًا، فمن السخافة والظلم أن نظل بعملنا، وعرق جبيننا يتكفَّلُ بعطالة نسائنا. ولو كان الأمر رهينًا بي فقط، فلا أحد سيستعمل خيراتي وممتلكاتي -بشكلٍ مرنٍ وحرٍّ وهادئٍ وبلا طمعٍ - إلا الاستعمال الذي أقوم به أنا بنفسي، فإذا كان الزوْج يوفر المادة، فمشيئة الطبيعة هي أن تسهر النساء على تنظيمها.

الصداقة الزوجية

93. أما واجبات الصداقة الزوجية، التي نعتقد أنها تُهضم بذلك الغياب، فهو أمرٌ لا أعتقد فيه؛ فبالعكس إن ذلك ذكاءٌ يبرد مع الوقت بالحضور الدائم، والمثابرة مسيئةٌ له. كل امرأةٍ ليست امرأتنا تبدو لنا امرأةً شريفةً ونزيهةً، وكل واحدٍ يحسُّ بالتجربة أن العيش في المكان نفسه باستمرارٍ، لا يمكن أن يمنح المتعة التي نحسها، ونحن نفترق كي نلتقي من وقتٍ لآخرَ، فهذه الانقطاعات تملأني بحبٍ متجدِّدٍ نحو أهلي، وتجعلني أستعيد لطافة وجودي بالبيت. والتناوب يعزِّز رغبتي في

الوضعيتين معًا. وأنا أعلم أن الصداقة لها اليد الطولى لكي نلتقي من هذا الطرف إلى ذلك الطرف من العالم، وخاصةً في حال الصداقة الزوجية، حيث ثمة تبادلٌ مستمرٌ للخدمات يجعل الواجب والذكرى في حالٍ يقظةٍ دائمةٍ. يقول الرواقيون بفصاحةٍ - حين يزعمون أن ثمة تفاهمًا كبيرًا بين الحكماء – إن من يتعشى في فرنسا يمتّعْ صديقه الموجود في مصر، وأنَّ أحدهما إن بسط يده حيثما كان، فهو يجعل كل الآخرين الذين يعيشون في أنحاء المعمورة يحسون بمعونته[1]. المتعة والامتلاك هما بالأخص نتاج الخيال، فهو يحضن - جيدًا وباستمرارٍ - من يسعى إليه وما هو بين أيدينا. لاحظْ انشغالاتك اليومية، وسترى أنك تفكر في صديقك أقلَّ حين يكون قريبًا، فحضوره يخفف اهتمامك ويمنح فكرك حرية الانفلات في كل لحظةٍ وفي كل مناسبةٍ.

94. وأنا في روما، حيث كنت بعيدًا عن بلدي، كنت أعتني ببيتي وأدبِّرُهُ ومعه الممتلكات التي تركتها فيه، فأنا أرى أسواري تتعالى وأشجاري ومحاصيلي تتزايدُ وتتناقص أيضًا وبشكلٍ ضئيلٍ، كما حين أكون هناك.

«أمام عيني يطفو بيتي، وصورة تلك الأمكنة»[2].

95. لو كنا لا نتمتَّع إلا بما نمسه باليد فلنصلِّ على أموالنا صلاة الجنازة وهي في صناديقنا، ولنودِّع أبناءنا وهم في رحلة الصيد؛ فنحن نريدهم أكثر جوارنا، هم في الجنان. هل هو بعيد؟ على بعد نصف يوم؟ وعشرة فراسخ هل هي مسافةٌ بعيدةٌ أم قريبةٌ؟ وهكذا خطوةً خطوةً. والحق أن الزوجة إذا أرادت أن تحدِّدَ لزوجها انطلاقًا من كم عددٍ من الخطوات ينتهي القريب ويبدأ البعيد، فأنا أعتقد أن الأفضل لها أن تتوقف بين الاثنين!

«لنضعْ حدًا لهذا الجدل برقمٍ، وإلا
أستسمحكم كي أنقص منه رقمًا ثم آخر
كما لو أني أنزع شعْراتٍ من ذيل جوادٍ
حتى آخرها، فيكون ركامي قد خدعكم»[3].

---

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, XVIII.

(2) Ovide, **Tristes**, II, 4, v. 57.

(3) Horace, **Épîtres**, II, 1, vv. 38 et 45-47.

96. فلتدعُ النساء الفلسفة لتجدتهنَّ. كيف نعاتب فعلًا امرأةً على ألا تكون متأكدةً من وسط شيءٍ ما، بما أنها لا ترى لا هذا الطرف ولا ذاك مما يتعلَّقُ بالمفرط وبغير الكافي، وبالطويل والقصير، وبالثقيل والخفيف، والبعيد والقريب، وبما أنها لا تتعرف فيه على البداية ولا على النهاية، «**فالطبيعة لم تمنحنا معرفة حدود الأشياء**»[1]. والنساء ألسنَ صديقات الموتى، هنَّ اللاتي لسنَ في طرف هذا العالم، وإنما في طرف العالم الآخر؟ نحن مرتبطون بمَن كنَّ موجوداتٍ وبمَن لم يوجدنَ بعد ليس فقط بالغائبات، ونحن لم نقم بزواجنا بصفقةٍ تلزمنا بأن نظل لصيقين دومًا بعضنا ببعضٍ، كما هو أمر بعض الحيوانات الصغيرة أو «**مسحوري كارانتيا**»*[2] على طريقة تلاصق الكلاب. والمرأة ليس عليها أن تثبت نظرها في زوجها دومًا من الأمام، بحيث لا تستطيع النظر إليه من الخلف إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

97. أليست المناسبة سانحةً هنا لنذكر ما قاله ذلك الفنان التشكيلي عن مزاجهنَّ وعن شكاواهنَّ؟

> **«إذا ما تأخرت عن الدخول للبيت تتوهَّمُ زوجتك أنك تخونها مع امرأة أو رجل، أو كنت تعاقر الخمرة وتستسلم لنزواتك حين تكون هي منهمكةً في مشاغل البيت»**[3].

لكن، هل هو التناقض والتعارض الذي يروق لهنَّ ويغذيهن - بحيث يعجبهن جيدًا - يزعجك؟

98. في الصداقة الحقَّةِ - التي صرت خبيرًا فيها - أمنح نفسي لصديقي أكثر مما أجذبه نحوي، فأنا لا أحب فقط أن أعامله بلطفٍ أكثر مما أتلقى منه بالمقابل، وإنما أيضًا أن يحب الخير لنفسه أكثر مما يحبه لي؛ وإذا قام بذلك فهذا يعني أنه قام بالخير أكثر لي، وإذا كان غيابه مفيدًا أو

---

(1) Cicéron, **Académiques**, II, 29.

(2) Saxon le Grammairien, **Gesta Danorum ou Danorum regum heroumque historiae**, XIV.

* كارانتيا بلدة في جزيرة روغن في بحر البلطيق.

(3) Térence, **Les Adelphes**, I, sc. 1, vv. 7-9.

رائقًا له فسيكون أكثر روعةً لي من حضوره؟ والأمر لا يكون حقًّا غيابًا حين يكون ثمة وسيلةٌ لتبادل الأخبار بيننا، ولقد كنت في الماضي أستفيد من تباعدنا، فقد صارت حياتنا أكثر امتلاءً وصرنا نبسط سلطتنا عليها بالفراق، فقد كان يعيش ويتمتع بالأشياء من أجلي، وأنا من أجله أيضًا -وبشكلٍ كاملٍ- كما لو كان حاضرًا معي. حين كنا معًا، كان جزءٌ منا يظلُّ خاملًا بما أننا كنا ممتزجين، وتباعد الأمكنة أغنى كثيرًا توافُقَ إرادتيْنا؛ فالتعطش الذي لايرتوي من الحضور الجسمانيِّ هو بشكلٍ ما الدليل على ضعف المتعة الروحية.

الرَّحَلات

99. أما عمري الذي آتي على ذكره، فأنا أعتقد بالعكس أن على الشباب أن يخضعوا للآراء المشتركة، وأن يقوموا بمجهودٍ ما نحو الآخرين، فهم يمكنهم العمل في الآن نفسه للناس ولأنفسهم. أما نحن فالاهتمام بأنفسنا يأخذ منا كامل وقتنا، فبمقدار ما تخوننا المُتع الطبيعية، يكون علينا اللجوء إلى الحيَل. ليس من حقنا أن نعذر الشباب في اتباع ملذاتهم، ونحرم الشيوخ من البحث عنها. فحين كنت شابًا، كنت أخفي أهوائي اللعوب تحت غطاء الحكمة، وحين شِخْتُ صِرْتُ أُبعد الأفكار القاتمة بالتسليات، بل إن شرائع أفلاطون[1] كانت تحرِّمُ الأسفار قبل الأربعين أو الخمسين من عمر الشخص؛ كي تكون له أكثر نفعًا وإفادةً، غير أني سأقبل البند الثاني من تلك الشرائع الذي يمنع السفر بعد الستين. «لكن في عمرٍ من قبيل هذا، أنت لن تعود أبدًا من سفرٍ طويلٍ جدًا». لا يهم! فأنا لا أقوم به كي أعود منه ولا لكي أقوم به كاملًا، فأنا آخذ طريق السفر لأن لي رغبةً في ذلك، وأتجول لأن لي رغبةً في التَّجوال. ومن يجرون وراء عملٍ بسيطٍ بأجرةٍ باهظةٍ، أو يجرون خلف أرنبٍ برِّيٍ لا يجرون، الذين يجرون حقًّا هم من يمارسون السباق والعدو فوق الحواجز.

(1) Platon, **Les Lois**, XII, § 950-951.

100.يمكنني تقطيع مشروع رحلتي على أيِّ كيفيةٍ، فهو لا يقوم على آمالٍ كبرى، وكل مرحلةٍ منه تشكل مُنتهًى له، ورحلة حياتي تسير بالطريقة نفسها، ولقد شاهدت مع ذلك أمصارًا بعيدةً حيث كنت أرغب في أن يجعلني أناسها أمكث فيها على الدوام، وما الضَّيْرُ في ذلك، إذا كان خريسيبّوس وكليانثس وديوجينيس وزينون وأنتيباتروس وغيرهم من المدرسة الفلسفية الأكثر انغلاقًا على نفسها[1] قد هجروا بلادهم من غير أن يشتكوا أبدًا من ذلك[2]، وفقط رغبةً في تغيير الجو؟ صحيحٌ أن أكبر خيبةٍ في تَجوالي ورحلاتي، تكمن في أني لا أستطيع أن آخذ القرار بالإقامة دومًا حيثما عنَّ لي الأمر، وأني أكون مضطرًا إلى تصور عودتي كي أظل متوائمًا مع رغبة الكل.

101.لو خشيت الموت في مكانٍ غير مسقط رأسي، وإذا اعتقدت الموت على غير رغبتي وبعيدًا عن أهلي، لما كنت خرجت من فرنسا، بل ما كنت خرجت منها من غير رهبةٍ من كنيستي، ذلك أني أحس بالموت يمسك دومًا بعنقي أو بكليتيَّ، بيْد أني لست هكذا؛ فالموت في نظري هو الموت في كل مكانٍ، ولو كان لي أن أختار، فأنا أعتقد أني سأختار الموت على صهوة جوادي بدلًا من سريري، وخارج البيت وبعيدًا عن الأهل. إنه لأسًى ضارٍ أكثر منه عزاءً أن يودِّعَ المرء أصدقاءه. وأنا أتناسى هذا الواجب في عوائدنا؛ ذلك أنه الوحيد الذي لا يعجبني من بين كافة واجبات الصداقة، ومن ثمَّ فإني سأنسى أن أقوم بهذا الوداع الكبير والأبدي، وإذا كان ثمة محاسن في أن يكون المرء محاطًا بالأصدقاء في لحظة الموت تلك، فإن المساوئ فيها أكثر، فلقد رأيت أناسًا محتضرين مسيَّجين بأسًى بتجمعاتٍ كبرى، مخنوقين بذلك الموكب، كما لو أن من يتركك تموت بسلامٍ،قد تصرف تصرفًا مُنافيًا للواجب، وكان ذلك شهادةً على قلة العطف والعناية بك. أحدهم يزعج عينيك والآخر أذنيك والثالث فمك، بحيث لا يبقى عضوٌ أو حاسةٌ فيك لا تتم معاملتها بخشونةٍ. يكون قلبك منقبضًا من الشفقة وأنت تسمع تأوهات أصدقائك، وربما أيضًا بعض التهيُّجِ وأنت تسمع شكاوى أخرى خفيةً ومغلَّفةً. من كان ذا ذوقٍ رفيعٍ، يصير أكثر حين تخور قواه، ويلزمه في هذا الوضع الرهيب يدٌ وديعةٌ ملائمةٌ لأحاسيسه؛

(1) المدرسة الرواقية.

(2) Plutarque, Œuvres mêlées, LXVII.

كي تحنو عليه حيثما يحس بالألم، أو عليهم ألا يلمسوه أبدًا. فإذا كنا بحاجةٍ إلى قابلةٍ لتجعلنا نرى النور، فنحن أيضا بحاجةٍ إلى إنسانٍ أكثر حكمةً كي يخرجنا من الحياة، وهذا الإنسان - الذي هو صديقنا - علينا مجازاته أفضل مجازاةٍ كي يخدمنا في ظروفٍ كهذه.

102.أنا لم أبلغ تلك القوة الشامخة التي تتقوَّى بذاتها، والتي لا أحد يمدُّ لها يدَ العون ولا شيء يدخل الاضطراب لها[1]، فأنا من مستوى أدنى من ذلك، وأسعى للاختباء كأرنبٍ في جحره، ولأن أتوارى عن هذا المرور للعالم الآخر، ليس خوفًا منه وإنما عَنوةً. وفي رأيي، ليس من اللازم أن يُبينَ المرء عن العزم والتصميم في هذه الوضعية. فلمن سنُبين عن ذلك؟ في تلك اللحظة، سأكف عن أن يكون لي حقٌ أو مصلحةٌ ما في سُمعتي، سأكتفي بموتٍ منكفئٍ على نفسه هادئٍ ومتوحِّدٍ، مثله مثلي، ملائمٍ لحياتي الانعزالية والحميمة، بعيدٍ عن التطيُّرِ الرومانيِّ الذي كان يعتبِرُ كل من يموت من غير كلامٍ تعيسًا، والذي لا يكون حوله أقرباؤه كي يغمضوا عينيه بعد أن يُسلم الروح. لديَّ الكثير من الوقت والعمل كي أعزِّيَ نفسي من غير أن يكونَ عليَّ أن أعزِّيَ الآخرين، وما يكفي من الأفكار في الذِّهن، من غير حاجةٍ لأن تمنحني الظروفُ الجديدَ منها، وما يكفي من مواضيع للتفكير بحيث لا حاجة لي لأن أقتبسها، فالمجتمع لا دور له في المسرحية التي تتمُّ لحظة الموت، فهو فصلٌ منها لا تكون فيه غير شخصيةٍ واحدةٍ. لنعشْ ولنمرح بين أهلنا وذوينا، ولنمتْ ونحن مكشِّرون لدى أناسٍ غرباء[2]، فحين نؤدي الثمن، يمكننا أن نجد شخصًا يدير رأسنا ويمسد أرجلنا ولا يحركنا أكثر مما نبتغي، ويقدم لنا وجهًا لا مباليًا، ويتركنا نشكو ونئن كما يحلو لنا.

103.وإنِّي أكظم غيظي يوميًّا ضد هذا السلوك الصبياني وغير الخليق ببني البشر، الذي يجعلنا نسعى إلى إثارة عطف أصدقائنا ورأفتهم بمصائبنا، فنحن نبالغ في همومنا كي نستدرَّ عطفهم ودموعهم، والحزم الذي نمتدحه في كل واحدٍ إزاء سوء حظِّه، نقوم بتأنيبه ونعاتب عليه الناس المحيطين بنا حين يتعلق الأمر بسوء حظنا نحن، فنحن لا نكتفي بأن

(1) يعني قوة الرواقيين.

(2)Chateaubriand, **Mémoiresd'Outre-Tombe,** Livre XVIII, chap. 3.

تمسَّهم مصائبنا إذا لم يكابدوها. علينا أن ننشر الفرح وبالمقابل أن نحدَّ من الحزن ما استطعنا لذلك سبيلًا، وإذا استدعى أحدهم الشفقة، فسنكفُ عن أن نحبوه بالشفقة حين سيكون ثمَّة سببٌ حقيقيٌّ لذلك، فالشكوى الدائمة تعني أن ينذر المرء نفسه لكيْلا يتلقى الشفقة أبدًا، ذلك أننا إذا خصصنا شفقتنا دومًا لمن يستحقها، فإننا لن نشفق على أحدٍ. من يتظاهر بالموت وهو حيٌّ، قد يُحسب على أنه حيٌّ لحظة احتضاره، وقد وقفت على بعضهم يغضبون لأن أهلهم يجدون وجههم صبوحًا ونبضهم منتظمًا، ويتنكَّفون عن الضحك، ويمقتون الصحة والعافية لأنها لا تثير العطف، وهم فوق ذلك لم يكونوا نساءً!

رسْم الذات

104.أنا أفصح عن أمراضي، لا أكثر مما هي عليه، وأتفادى التشخيص المتشائم والتأوهات الأليمة، وإذا لم يسعفني المرح، فإن الهدوء يكون الجو الذي يلائم المريض الذكيَّ، وهو لا يدخل في صراعٍ مع الصحة لأنه يعتبر نفسه في حالٍ عليلةٍ؛ بل يعجبه أن يتأملها كاملةً مكتملةً لدى الآخرين، بحيث يتمتَّعُ بها على الأقل برفقتهم. وبالرغم من أنه يحس بأنه ينزلق نحو الهاوية، فهو لا يرفض تماماً أفكار الحياة، ولا ينفر من المحادثات العادية. أحب دراسة المرض حين أكون في صحةٍ وعافيةٍ، فحين يلمُّ بي يكفيني واقعه من غير حاجةٍ لخيالي. نحن نستعد مسبقًا للأسفار والرحلات التي نرغب في القيام بها، ونحن نقرر ذلك كما يلي: الساعة التي يلزم فيها امتطاء الحصان، نتركها لمن هم حولنا، ونحن نتأخر في القيام بها لإرضائهم.

105.أجد مزيَّةً لا تُضاهى في التعريف بطريقتي في الحياة، وقد يحدث أن أتساءل إن كان عليَّ الكشف عن قصة حياتي، وهذا التصريح العلني يضطرني إلى الالتزام بالسير في طريقي، وألا أكذِّبَ الصورة التي أقدم عن تصرفاتي، وهي عمومًا لم تتعرض كثيرًا للتشويه والتفنيد من الأحكام الخبيثة والشريرة التي يطلقها الناس في أيامنا هذه، وإذا كانت

بساطة عوائدي وتجانسها تجعل اليوم تأويل سلوكي أمرًا ميسورًا، فإن الطريقة المستجدَّةَ والقليلة الاستعمال تكون بالمقابل ميالةً أكثر إلى النميمة والاغتياب. فأنا حقًّا أوفِّرُ لمن يرغب في تشويه سمعتي الإشارات عن المكان الذي يمكنه فيه أن يغرس أنيابه في نواقصي وعيوبي المعروفة والمعترف بها، بما يضمن له الإشباع حتى لا يطحن الهواء. وإذا كنت من ثمَّ أجتهد بنفسي في معرفة تلك العيوب وأسعى إلى إدانتها، فيبدو له أني شحذت أنيابه. ومن ثمَّ فمن الطبيعي أن يمسك بها على هواه ويضخِّمها وينشرها - فالإهانة تتجاوز العدل - وليصنعْ أشجارًا بجذور العيوب التي أدلُّه عليها، وليستخدمْ في ذلك ليس فقط تلك المتجذرة فيَّ، ولكن أيضًا تلك التي لازالت تهدِّدني. لديَّ عيوبٌ مشينةٌ ومخجلةٌ بعددها ونوعها، فليمسكْ بي إذًا من هناك!

106. أسمح لنفسي أن أتبنى لحسابي الخاص مثال الفيلسوف بيون السيراقوسي[1]. فلقد أراد أنتيغونوس[2] أن يغضبه بالاستخبار عن أصوله، غير أنه قاطعه للتوِّ قائلًا: «أنا ابن عبدٍ -كان جزَّارًا موسومًا بالحديد والنار- ومومسٍ؛ تزوجها أبي لأنه كان فقيرًا، وكلاهما كانا قد تعرضا للعقاب بسبب خطيئةٍ ما، اشتراني خطيبٌ في صباي حين وجدني جميلًا ورائقًا؛ فترك لي كافة ممتلكاته وهو على فراش الموت، وحين نقلت تلك الممتلكات إلى أثينا، تعاطيت للفلسفة. فليس على المؤرخين أن يستخبروا عن حياتي، فسأقول لهم بنفسي كل ما يتعلق بها». إن الاعتراف بكرامةٍ وحريةٍ يضعف من حدَّة العتاب، ويجعل الشخص المُهين أعزل من سلاحه.

107. يبقى أن ما يبدو لي في نهاية المطاف هو أن كل نميمةٍ فيَّ عن حقٍّ تكون في كل مرةٍ مديحًا لي. فكما في طفولتي، كان الناس يضعونني فوق ما أستحق لا أدنى من ذلك.

108. وأنا أودُّ لو أعيش أفضل في بلدٍ تكون فيه قواعد الأسبقية واللياقة

---

(1) يتعلق الأمر بالفيلسوف بيون (القرن الثالث ق.م)

(2) الكثير من القادة المقدونيين حملوا هذا الاسم، قد يتعلق الأمر بأنتيغونوس غوناتاس الذي صار ملكًا لمقدونيا.

مسألةً محسومةً أو مكروهةً. فكلما تجاوز الجدال بين الناس ثلاث عباراتٍ حول من له الحق في المشي في الأول أو من يستحق الجلوس أولًا، فالأمر يصبح ضربًا من الهمجية، وأنا لا أخشى التنازل أو التصرُّفَ بشكلٍ غير عاديٍّ كي أتهرَّب من نزاعٍ مشينٍ كهذا، ولا أحد أبدًا رغب في سلْب أسبقيتي إذا لم أتركها له عن طواعيةٍ.

109.عدا الفائدة التي أستقيها من الكتابة عن نفسي، أطمح لفائدةٍ أخرى، فلو حدث قبل موتي أن تعجب شخصيتي شخصًا مرموقًا، فإنه سيسعى ربما لملاقاتي، وسوف أجعله يربح وقتًا طويلًا؛ إذ سوف يعلم من كتابي ما كان سيمضي في معرفته العديد من السنين من المخالطة والألفة، وبشكلٍ دقيقٍ وأكيدٍ في الكتاب. إنه لتهوُّرٌ مُسَلٍّ، فالعديد من الأشياء التي لا أرغب في الإفصاح عنها لأي شخصٍ معيَّنٍ أكشف عنها هنا علنًا للملأ؛ ولكي أُعرِّفُ بأفكاري الأكثر حميميةً لأصدقائي، أحيلهم على كتابي في المكتبة.

«نحن نكشف لهم بأحاسيس نفسنا الأكثر سرًا»[1].

110.ولو أنني انطلاقًا من تلك الأدلة، تعرفت على شخصٍ يلائمني، كنت سعيت للتعرف عليه ولو كان في منطقةٍ قصيَّةٍ؛ ذلك أن لطف صحْبةٍ ملائمةٍ لمزاجي لا يمكن أن نحصل عليها -في نظري- بثمن أغلى من ذلك. الصديق شيءٌ ثمينٌ، وكم هو على حقٍ هذا المثل القديم[2] القائل: إن الحصول على صديقٍ واحدٍ أكثر ضرورةً وأكثر لطفًا من امتلاك العناصر الأربعة.

111.لكن، لنعدْ لموضوعي. ليس ثمة من سوءٍ في أن يموت المرء بعيدًا عن أهله وذويه وبيته، بل إننا نعتبر أنه من الضروريِّ الاعتزال عن الأعمال الطبيعية، وهي أقلُّ ضنًى وبشاعةً من الموت خارج الوطن، وأولئك الذين يبلغون مبلغ التسكع والفتور خلال قسطٍ من حياتهم، ليس عليهم أن يجعلوا عائلاتهم تتحمَّلُ حالهم؛ لهذا فإن الهنود في إحدى المناطق كانوا يعتبرون قتل من يؤول إلى ذلك الحال أمرًا عاديًّا[3]، وفي منطقةٍ

(1) Perse, **Satires**, V, 22.

(2) Plutarque, **Œuvres mêlées**, VII.

(3) Hérodote, **L'Enquête**, III, § 99.

أخرى، كانوا يتركونه لحاله وحيدًا ومُبعدًا، بحيث يكون عليه وحده أن يخلص نفسه حسب مُستطاعه، بل إنَّ هؤلاء المحتضرين -لا يمكنهم بفعل ذلك إلا أن يستسلموا لأي واحدٍ- هم المملون وغير المحتملين. أما الواجبات العادية فهي لا تصل إلى ذلك الحدِّ، ففي هذه الحال لا يمكن إلا أن يدفع المرء الناس إلى أن يصبحوا قاسين معأعز الأصدقاء، ويُقَسِّي قلب النساء والأطفال بحيث لن يحسوا أبدًا بمصائبه، ولن يرأفوا به أو يشفقوا عليه. حين أشكو من مرض الحصي لا أحد ينتبه لذلك، وحين نستمد بعض المتعة من المحادثة مع من يحيطون بنا -وهو ما لا يتحقَّقُ دومًا بفعل اختلاف الوضعيات التي تكون دومًا مصدرًا للحقد والحسد- ألا يكون ذلك ضربًا من الشَّططِ حين يتم فرضها طويلًا؟ فكلما رأيتهم يجتهدون في ذلك عن طيب قلبٍ من أجلي، كلما أشفقت عليهم للجهد الذي يتطلبه منهم ذلك. يمكننا طبعًا أن نتكئ لا أن ننام بكل ثقلنا عليهم، ونبقى كذلك إلى حدِّ إسقاطهم أرضًا، وهو ما يشبه ذلك الذي كان يذبح صبيانًا كي يكون دمهم وسيلةً لشفائه من مرضه، أو ذلك الذي كانوا يوفرون له صبايا صغارًا لتسخين أعضائه الشائخة ليلا[1]، ومزج لطافة نفَسِهنَّ بنفَسِه الكريه والحامض.

112.الشيخوخة حالةٌ متوحدةٌ. أنا رجل حسن المخالطة حتى النخاع؛ لهذا يبدو لي من المعقول أن أواري عن أنظار العالم حالي المزعجة، بحيث أحضنه لنفسي وألتجئ لقوقعتي وأكبس نفسي فيها مثل السلحفاة، وأن أتعلم رؤية الناس من غير التعلُّقِ بهم؛ إذ سيكون ذلك من باب الغلوِّ في لحظةٍ خطيرةٍ من حياتي، فلقد حان الوقت لأدير الظهر لرفقتهم.

113.عادةً ما يُقال لي: «لكنك في رَحَلاتك ستكون مضطرًا للتوقف في أمكنةٍ بائسةٍ حيث سوف يخصُّك كل شيءٍ». بيد أن الأشياء الضرورية لي أحملها معي، ثم إننا لن نستطيع تفادي الصدف إذا ما هي انهالت علينا. لست بحاجةٍ لأشياء استثنائيةٍ حين أكون مريضًا؛ فما لا تستطيع الطبيعة فعله فيَّ لا أرغب في أن يفعله عقَّارٌ فيَّ. في بداية حالات الحمى والأمراض التي ألمَّت بي، حين كنت في حالٍ حسنة وقريبة من العافية، كنت أتصالح

(1) يتعلق الأمر بداوود، التوراة، سفر للملوك الأول.

مع الربِّ بالصلوات الأخيرة من اليوم، وكنت أحس بنفسي أكثر تحرُّرًا ولا عبء عليَّ، كما لو كان عليَّ أن أصرع مرضي بسهولة. وإني لست بحاجةٍ لعذْلٍ أو نصيحةٍ قانونيةٍ، وأنا أقلُّ حاجةً لها من حاجتي للأطباء، فلا ينتظروا مني أن أنظِّمَ شؤوني حين أكون مريضًا، وأنا لم أقم بذلك بنجاحٍ حين كنت في صحةٍ وعافيةٍ، وما عليَّ فعله استعدادًا للموت قمت به كله ولن أجرؤ على تأجيله يومًا واحدًا، وإذا حدث ألا أفعل شيئًا فذلك لأن الشك قد أجَّلَ قراري؛ إذ أحيانًا من الأفضل عدم اتخاذ أي قرارٍ؛ أو لأني حقًّا لم أشأْ فعل أي شيءٍ.

اللغة تتطور

114.أنا أكتب هذا الكتاب لثلةٍ قليلةٍ من الناس، ولسنواتٍ معدوداتٍ، ولو كان الأمر يتعلق بشيءٍ منذورٍ للدَّوام، لكان عليَّ أن أستعمل لغةً أشدَّ صرامةً،فما دامت لغتنا قد تعرضت إلى اليوم لتغيراتٍ مستمرةٍ، فمن سيضمن أنها في شكلها الحالي ستظل مستعملةً بعد خمسين سنةً؟ إنها لغةٌ تنفلت من بين أصابعنا في كل يومٍ، ومنذ أن رأيت النور عرَف نصفُها التغيُّرَ. نحن نقول إنها اليوم لغةٌ كاملةٌ مكتملةٌ، بيد أن كل عصرٍ يقول الأمر نفسه عن لغته، وأنا لن أزعم أني سأعتبرها كذلك بالنظر إلى أنها سوف تتغير وتتحوَّلُ كما نراها تفعل الآن، ويعود للكتابات الجيدة والمفيدة أن تثبِّتَها، بحيث إن تأثيرها سيتبع مصير دولتنا.

115.وذلك هو السبب الذي يجعلني هنا أدمج العديد من القضايا ذات الطابع الشخصيِّ، التي تنحصر فائدتها في أناس وقتنا، والتي تتعلق بالأخص بأكثرهم علمًا، والذين سيجدون فيها أشياء تفوق ما سيجده فيها ذوو الذكاء العاديِّ. لا أريد في نهاية المطاف أن يتجادل الناس في هذا، كما ألاحظ ذلك حين يتم إثارة ذكرى شخصٍ فارق الحياة بقولهم: «كان يعتقد، كان يريد كذا، لو تحدث وقت وفاته لقال كذا وكذا، وكان سيقدم كذا، كنت أعرفه أفضل من أيٍّ كان». وأنا أقوم هنا بجعل الناس تحس بميولي وما يمسُّني، طالما سمح لي الأدب واللياقة بهذا، غير

أني أقوم بذلك بحريةٍ أكبر وعلى سجيَّتي في الكلام لمن رغب في معرفة ذلك، بحيث إني في هذه المذكرات، وإذا تمَّ التمحيص في ذلك، سيجد القارئ أني قلت كل شيءٍ أو أشرت لكل شيءٍ، فما لا أستطيع التعبير عنه أشير إليه بالإصبع.

«هذه الملامح البسيطة ستكفي لعقلك النافذ فيها يمكنك بنفسك أن تعثر على الباقي»[1].

116. لا أترك شيئًا ناقصًا أو للتخمين فيَّ، وإذا ما كان من اللازم الحديث عن ذلك، أريد أن يكون الأمر بطريقةٍ صحيحةٍ ومطابقةٍ للحقيقة. ولو استطعت العودة من الآخرة كي أفحم من يقدمني على غير ما كنت فعلًا - على الأقل لأكرم نفسي - لأقْدمت على فعل ذلك. وأنا أرى أيضًا أن الناس تتحدَّثُ عن الأحياء أنفسهم خلافًا لما هم عليه، ولو أني لم أحافظ على صورة صديقٍ فارق الحياة، لكانوا قطَّعوهُ إلى مئات الأوجه المتناقضة.

117. ولكي أنتهي من الحديث عن نقاط ضعفي، أعترف أني - وأنا على سفرٍ- من النادر أن أبلغ مكانًا للإقامة، من غير أن يتبادر لذهني أني يمكنني أن أسقط فيه مريضًا، وأتساءل إن كنت سأموت فيه على راحتي، فأنا أصرُّ على الإقامة في مكانٍ يلائمني، من غير ضجيجٍ ولا بؤسٍ ولا دخانٍ، وحيث أتنفس فيه جيِّدًا، وأنا أسعى لمداهنة الموت بهذه التفاصيل النزقة - وبعبارةٍ أفضل- كي أنفض عني أي مساوئ أخرى حتى لا يبقى غيرها أنتظرها، فستكون مُضنيةً لي بما يكفي كي أكون بحاجةٍ لشيءٍ آخر يثقل على قلبي. أريد أن يكون لها حصتها من الراحة ومن مباهج حياتي، فهي تشكل فيها قسطًا كبيرًا ومهما، أتمنى الآن ألا تُكذِّبَ ماضيَّ.

الموت

118. يأخذ الموت أشكالًا عديدةً، وبعضه أخفُّ وطأً من بعضٍ، وهو يتخذ مظاهر مختلفةً حسب الحالة النفسية لكل واحدٍ، ومن بين الميْتات

(1) Lucrèce, **De la Nature**, I, vv. 402-403

الطبيعية تبدو لي تلك التي تنجم عن وهَنٍ وضعفٍ طبيعيْين رخوةً ولطيفةً. يصعب عليَّ أكثر أن أتحمل فكرة السقوط في هاويةٍ على أن أُدفن تحت ركام انهيارٍ، وبضربة سيفٍ بتّارٍ على أن أموت بطلقة بندقيةٍ، وأنا أفضِّلُ شرب سمّ سقراط، على أن أضرب نفسي بسيفي كما فعل كاتو الأوتيكي، ومع أن الأمر سِيَّان في كل الحالات، فإني أحس في خيالي الكثير من الاختلاف بين أن أرمي بنفسي في محرقةٍ، أو في مجرى نهرٍ هادئٍ مقدار الاختلاف بين الموت والحياة، طالما أن خوفنا يمنح أهميةً أكثر للوسيلة على الغاية. الموت لا يأخذ إلا لحظةً، غير أنه ذو عبءٍ كبيرٍ، بحيث يمكنني أن أمنح بضعة أيامٍ من حياتي كي أعيشه على طريقتي.

119. لما كان خيال كل واحدٍ يجد الزائد والناقص في مرارة الموت، وأن كل واحدٍ له الاختيار بين العديد من طرائق الموت، لنحاولْ البحث بعيدًا شيئًا ما حتى نرى إنْ كان منها شكلٌ خالٍ من أي قرفٍ. أَوَلا نستطيع أن نسير أبعد حتى نجعل منه موتًا ممتعًا، كما كان الأمر مع أنطونيوس وكليوباترا اللذين انتحرا معًا؟ أترك جانبًا العمليات التي تتطلبها الفلسفة والدين، وهي أمثلةٌ رهيبةٌ. لكن من بين الناس البسطاء، نحن نجد أناسًا من قبيل بيترونيوس وتيغيلّينوس بروما، اللذين حين أُكرها على قتل نفسيْهما، خدراها بلطافة وعذوبة التحضير لها، فقد جعلا الموت ينساب وينزلق في قلب رخاوة استجمامهما اليوميّ بين الفتيات والصحبة الحسنة. لا مجال هنا للعزاء، ولا لذكر الوصيَّة، ولا لالتزامٍ مزعومٍ برباطة الجأش، ولا لتفكيرٍ في الوضعية بعد الموت، فقط الألعاب والحفلات والمُزَح والدرْدشات العادية والموسيقى وقصائد الحب. ألا يمكننا أن نحاكي هذه الطريقة في العمل بموقفٍ أكثر شرفًا؟ ولأن ثمَّةَ ميتاتٍ صالحةً للحمقى وأخرى صالحةً للحكماء، لنعثرْ على ميْتاتٍ لمن هم في المنزلة بين المنزلتيْن.

120. تقدم لي مخيَّلتِي واحدةً من تلك الميتات من النوع السهل، ما دام عليَّ الموت المرغوب فيه. كان الطواغيت الرومان يعتبرون أنهم يمنحون الحياة للمجرم الذي يسمحون له باختيار طريقة موته، لكن ثيوفراستوس-

وهو فيلسوفٌ راقٍ جدًا وبالغ التواضع والحكمة- ألم يكن ملزمًا بالعقل على أن يرتجل هذا البيت الشعري الذي ترجمه شيشرون للاتينية:

«الصدفة لا الحكمة هي ما يحكم حياتنا»[1].

121.لقد حباني القدَر بحياةٍ ميسَّرةٍ بحيث إنها الآن لم تعد ضروريةً لأي أحدٍ، ولا تزعج أحدًا. وهي وضعيةٌ كنت لأقبلها في كل فترةٍ من حياتي، لكني في هذا الوقت أكثر رضًا بأني لن أسبِّبَ لهم متعةً ولا حسرةً على موتي. فالقدَر- بتعويضٍ ذكيّ- سيجعل من يسعون إلى الاستفادة المادية من موتي، يتعرضون في الآن نفسه لخسارةٍ ماديةٍ فظيعةٍ. الموت يصعب علينا حمل عبئه بحيث إنه يثقل كاهل الآخرين، وبحيث إننا نحزن للمضارِّ التي يسبِّبُها لهم بمقدار الخسارة التي نُمنَّى بها نحن، وهي خسارةٌ تكون أكبر أحيانًا في جانبهم.

الرَّحَلات والرحَّالة

122.حين أكون مسافرًا، لا الأبهة ولا الفخامة يشكلان ميزتين أسعى إليهما في مقامي- فأنا بالأحرى أمقتهما - وإنما مقام بسيط مثلما نصادفه مرارًا في الأمكنة التي يقلُّ فيها الادعاء، والتي تضفي عليها الطبيعة من أفضالها.

«أكلةٌ غير فاخرةٍ لكنها نظيفةٌ
فيها من الروح أكثر من الفخامة»[2].

123.ثم، في آخر المطاف، أولئك الذين تقودهم شؤونهم في عزِّ الشتاء إلى جبال «غراوبوندن» بسويسرا هم من تنتظرهم المفاجآت القاسية. وأنا الذي أسافر غالبًا من أجل المتعة أسترشد في أسفاري أفضل، فإذا كان المكان موحشًا في اليمين أعرج على اليسار، وإذا لم يكن حالي يسمح لي بامتطاء الجواد أتوقف، وحين أقوم بذلك لا أتصور أروع مكانٍ أركن إليه إلا مأواي، صحيحٌ أني أعتبر الوفرة دومًا أمرًا زائدًا، وأجد مساوئ كثيرةً في الفخامة والوفرة، هل تركت شيئًا ورائي لم أره؟ إذن أعود

(1) Cicéron, **Tusculanes**, V, 9.

(2) Nonius, in **Compendiosa doctrina per litteras**, XI, 19.

إليه، فذلك هو دومًا طريقي. وإني لا أخطُّ لنفسي طريقًا دقيقًا في السفر، فهو لا يكون مستقيمًا ولا متعرجًا، وإن لم أجد حيثما أسير ما يُقال لي. وما دامت أحكام الآخرين غالبًا لا تطابق أحكامي، وأجدها غير صحيحةٍ في غالب الأحوال، فإني لا أشكو من الجهد الضائع؛ إذ إني على الأقل أكون قد علمت أن ما قالوا ليس صحيحًا.

124.يتكيَّف تكويني الجسماني وذوقي مع كل شيءٍ في الخارج كما لدى أي شخصٍ، وتنوع طرائق العيش لدى شعبٍ ما لا تروقني إلا بمتعة التنوع، كل عادة لها علَّةُ وجودها، كل شيءٍ يروقني، سواءٌ كان في صحونٍ من البرونز أو الخشب أو الفخار، وسواءٌ كان حساءً أو لحمًا مشويًا أو زبدةً أو زيتًا من الجوز أو الزيتون، وسواءٌ كان ساخنًا أو باردًا، إلى حدِّ أني وأنا أتقدم في العمر، ألوم هذه الملكة الكريمة؛ إذ ينبغي لرهافة الاختيار أن تخفِّفَ من شهيتي وأحيانًا أن تريح معدتي، حين رحت خارج فرنسا، وطُلب مني -إرضاءً لي- إن كنت أرغب أن يكون طعامي على الطريقة الفرنسية، سخرت من الأمر، بحيث إني كنت دومًا أهرع إلى تناول طعامي في الموائد المليئة بالأجانب.

125.أحس بالخجل وأنا أرى كيف أن أناس بلادي، تستحوذ عليهم تلك العادة الغبية المتمثلة في مقاومة العوائد المختلفة عن عوائدهم، فحيثما حلُّوا وارتحلوا تراهم متشبثين بعاداتهم وتقاليدهم، ويكرهون عوائد الأجانب والغرباء، وحين يصادفون أحد أبناء بلادهم في هنغاريا، تراهم يحتفون بالحدث ويتحالفون ويتواطؤون لإدانة كافة العوائد الهمجية التي يرونها، بل إن الشاطرين منهم هم من يتعرَّفون عليها كي يمارسوا اغتيابهم، وأغلبهم لا يسافرون بعيدًا حتى يعودوا لبلدهم، وهم يسافرون خُفْيةً منغلقين على أنفسهم، بحذرٍ وحيطةٍ ولازمين الصمت، قليلي التواصل متمنِّعين عن كل عدوًى آتيةٍ من جوٍّ لا يعرفونه.

126.وما أقوله عن هؤلاء الناس، يذكِّرني بشيءٍ شبيهٍ بذلك، لاحظته في ما مضى لدى بعض الشباب من حاشية الأمير، فهم لا يهتمون إلا بأشباههم، وينظرون إلينا باحتقارٍ أو شفقةٍ كما لو كنَّا أناسًا من العالم الآخر، وإذا ما نزعت منهم القصص المتعلقة بأسرار بلاط الملك فها أنت

تراهم في ضلالٍ مبينٍ. إنهم متفرِّدون وزُعناء مقدار ما نحن في نظرهم كذلك، ومن قال إن إنسانًا شريفًا هو إنسانٌ متفتحٌ كان على حقٍّ في قوله.

127.لكني على عكس الآخرين: أسافر لأني سئمت من طرائق عيشنا، لا لكي أبحث عن الغاسكونيين من موْطني في صقلية: فهم في موطني كُثُر بما فيه الكفاية. أنا بالأحرى أبحث عن اليونانيين والفرْس لأحادثهم وأتفحَّصهم، وهذا ما أنذر نفسي وأكرِّسُها له، والأدهى من ذلك أني على ما يبدو لم أصادف عوائد لا تعادل قيمة عوائدنا، لكني أتقدم حثيثًا في هذا؛ ذلك أني حتى اليوم بالكاد فقدت وجهتي في رحلاتي.

128.وزِدْ على ذلك أن أغلب الرفقاء الذين تلاقيهم بالصدفة في الطريق، يقدمون لك من المساوئ أكثر من المحاسن، فأنا لا أتعلق بهم، واليوم أكثر من الأمس اضطرتني الشيخوخة إلى العزلة، وجعلتني أعتزل طرائق الفعل الجارية. أنت إما أن تعاني بسبب الآخرين، أو يعاني الآخرون بسببك، فإحدى هذه السلبيات كما الأخرى مُضنيان، بيْد أن الثانية منها أكثر ضراوةً. إنه لأمرٌ نادرٌ لكن مريحٌ جدًا أن تلاقي شخصًا شريفًا يملك ذكاءً وقَّادًا ومزاجًا يشبه مزاجك، ويرغب في اتباعك، ذلك هو ما كان ينقصني في رحلاتي الأولى، لكنَّ رفيقًا من هذا النوع يلزم تبنيه منذ المنطلق. لا لذة لها نكهةٌ لدي إذا لم أستطع التحدُّثَ عن ذلك، وما إن تطرق ذهني فكرةٌ قويةٌ حتى آسف لأن تبقى لي وحدي ولا أجد شخصًا أجعله يستفيد منها. «لو مُنحت الحكمة بشرط أن أحتفظ بها لنفسي وألا أتقاسمها مع أحدٍ، سأرفض الأمر»[1]. وذلك الآخر رفع المستوى أعلى بقوله: «**لو كانت حياة حكيمٍ هي أن يمتلك كافة الخيرات المادية، ويمكنه أن يعرف كل ما يستحق المعرفة لكنْ في عزلةٍ تامَّةٍ من غير أن يرى أحدًا، فإنه سيغادر الحياة**»[2]. وأنا أتفق مع أرخيتاس في قوله: إن حتى التجول في السماء من غير رفيقٍ وسط تلك الأجسام السماوية الإلهية العظيمة سيكون أمرًا غير رائقٍ.

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, VI.

(2) Cicéron, **De Oficiis**, I, 43.

129.لكن مع ذلك، من الأفضل أن يكون المرء وحيدًا على أن يكون رفقة أناسٍ مملين وأغبياء. كان أريستبّوس يحب العيش غريبًا في كل مكانٍ=

«لكن غريبًا لنفسي لو أن القدر ترك لي اختيار حياتي على هواي»[1].

=أما أنا فكنت سأختار أن أقضيها على صهوة جوادي.

«وبي فضولٌ لزيارة أرجاء العالم
حيث تلتهب نيران الشمس
وغلالة الضباب وعواصف المطر»[2].

130. أليس لك إذًا شيءٌ سهلٌ تزْجي به وقتك؟ ما الذي ينقصك في بيتك وموطنك؟ أليس بيتك جميلًا وصحِّيًّا وشاسعًا وبه ما يكفي من الضروريات؟ ألم يتوقف عنده جلالة الملك مع حاشيته أكثر من مرَّةٍ[3]؟ وعائلتك، أليس عدد العائلات التي تفوقها مرتبةً أقلَّ من عدد مَن هي أدنى منها بكثيرٍ؟ هل هناك أفكارٌ تتصل بهذا المكان غير عاديةٍ وغير محتملةٍ تزعجك أيّما إزعاجٍ، وتنطبع على قلبك وتحرقك وتقلقلك[4]؟

131.أين تعتقد ألا يتعرَّض المرء للإزعاج والتنْكيد؟ «**القدر لا يمنح أبدًا أفضاله من غير مواربةٍ**»[5]. ألا ترى أنك من يتسبَّبُ في الضرر لنفسه بنفسه؟ ستتبع ذاتك في كل مكانٍ ولن تتوقَّفَ عن الشكوى في أي مكانٍ، فلا رضا ولا كفاف في هذه الدنيا للنفوس المتوحشة أو الإلهية. ومن لا يجد رضاه حين تسنح له الفرصة بذلك، أين يعثر عليه؟ ألن يرى مئات الناس أمانيَّهم محقَّقَةً في وضعيةٍ مثل وضعيتك؟ قمْ إذن بمجهودٍ مع نفسك، ففي هذا المجال كل شيءٍ مُتاحٌ لك، أما القدَر فليس لك سوى الحق في تحمُّلِهِ. «**فلا طمأنينة إلا طمأنينة العقل**»[6].

(1) Virgile, **Énéide**, IV, v. 340.

(2) Horace, **Odes**, III, III, 54.

(3) أقام الملك هنري الرابع في منطقة مونتيني عام 1584 م، وقد كتب مونتيني في يومياته أنه «نام في سريره»، وعاد إليها عام 1587 م.

(4) Cicéron, **De Senectute**, I, (d'aprèsEnnius).

(5) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**, IV, 14.

(6) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LVI.

132.وإني أُدرك ما في هذه النصيحة من معقوليةٍ، وأفهم ذلك جيدًا، لكن كان من الأفضل ومن الأوجَه أن يُقال لي ذلك في عبارةٍ واحدةٍ: «كنْ حكيمًا». فما يقوله القول المأثور اللاتيني يأتي بعد الحكمة، إنه أثرٌ وصنيعٌ ونتيجةٌ لها. الأمر كما الطبيب، الذي عوض أن يصرخ في مسامع مريضٍ مسكينٍ هدَّهُ الضَّنى إن عليه أن يفرح، من الأفضل له أن يقدِّمَ له نصيحةً أقل بلادةً ويقول له: «كنْ بصحةٍ جيدةٍ». وفي ما يخصُّني، أنا إنسان عاديٌّ جدًا. وإليكم مبدأً حاسمًا وأكيدًا وسهلًا على الفهم: «اكتفوا بما لديكم»، أعني: «اكتفوا بالعقل». بيْد أن تطبيق هذا المبدأ يعود إلى الحكماء كما يعود إليَّ، وهذه الحكمة الشعبية، أليس لها مدًى كبيرٌ؟ وألا تشمل كل شيءٍ؟: «كل الأشياء لا تكفُّ عن التغير وعن الاختلاف».

133.أدرك جيدًا أننا إذا أخذنا الأمور حرفيًّا، فإن متعة السفر تلك تشهد على بعض القلق وعدم التصميم، بيْد أن تلك هي مزايانا الأولى والمهيمنة على نفوسنا. نعم، أعترف أني لا أرى شيئًا ولو في الأحلام، يمكنني أن أستقر فيه مرةً إلى الأبد. التنوع وامتلاك التنوع وحده يلائمني، عسى أن يروقني شيءٌ، وما يعجبني وأنا أسافر، هو أني يمكنني التوقف من غير عائقٍ وأن أعود بسهولةٍ، أحب الحياة الباطنة لأن ذلك اختياريٌّ؛ لا لأني أعارض الحياة المجتمعية؛ إذْ هي تلائمني أحيانًا أيضًا. وأنا أخدم مِلكي بالكثير من السعادة، بحيث إن ذلك منِّي ناجمٌ عن اختيارٍ حرّ وعقليٍّ، لا عن واجبٍ معيَّنٍ، وإني لست مدفوعًا لذلك ولا مُكرهًا لأني غير مقبولٍ في أي حزبٍ آخرَ، والأمر نفسه ينسحب على الباقي كله، فأنا أكره الأشياء التي تجبرني عليها الضرورة، وكل امتيازٍ يخنقني إذا ما ارتهنت به كليَّةً.

«فليحرّكْ أحدٌ مجْدافي الأمواج والآخر في الشاطئ»[1].

134.لا يكفيني رباطٌ واحدٌ كي يقنعني بالبقاء. هل تزعم أن ثمة بعض الغرور في التسلية بالسفر؟ لكن هل تخلو الأشياء الأخرى من ذلك؟ فالمبادئ السامية هي غرورٌ، وغرورٌ هي الحكمة، « والرَّبُّ يَعْرِفُ أَفْكَارَ الإِنْسَانِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ»[2]. هذه الخفايا الدقيقة لا تكون صالحةً إلا في القَسَم، فهي

(1) Properce, **Elégies amoureuses – Cynthia**, III, 3, v. 23.

(2) المزامير، 11.

براهين تسعى لترمي بنا بعُدَّتنا في الآخرة. الحياة حركةٌ ماديةٌ وجسمانيةٌ، وعملٌ غير مكتملٍ بذاته وغير منتظمٍ، وأنا أعمل جهدي كي أخدمها كما تطلب ذلك.

«كل واحدٍ منا يحمل همَّه»[1].

«علينا أن نعمل بشكلٍ لا نقوم معه بأي شيءٍ ضد قوانين الطبيعة، لكن ما إن نكون قد احترمنا قوانينها، حتى يكون علينا أن نخضع لطبيعتنا الخاصة»[2].

135. ما فائدة قمم الفلسفة هذه التي لا يستطيع أي كائنٍ بشريٍّ أن يُقيم فيها؟ وما فائدة تلك القواعد التي تُجاوز عوائدنا وقوانا؟ ألاحظ أنهم يقترحون علينا عادةً أمثلةً من الحياة، لا يمكن أن يسمعها من يقترحها ولا من يتَّبعها، ولا رغبة لهم في ذلك. يقوم القاضي-من الورقة نفسها التي يحرِّرُ عليها حكمًا بالخيانة الزوجية- باقتطاع طرفٍ يكتب فيه كلمة حبٍ لزوجة زميله. فالمرأة التي كان لك معها علاقةٌ غير شرعيةٍ، سوف تتهم بعنفٍ صديقتها بخطيئةٍ مماثلةٍ وبحضورك، وبشكلٍ أكبر مما قامت به بوركيا[3] نفسها، وذلك الآخر يحكم على الناس بالإعدام بسبب جرائم ليست حتى أخطاء في رأيه، ولقد رأيت في شبابي رجلًا مرموقًا[4] يقدم للعموم بيدٍ أشعارًا رائعةً بجمالها ونبرتها الماجنة، وباليد الأخرى النقد اللاهوتي الأكثر دقةً الذي تمتَّعَ به الناس منذ زمنٍ طويلٍ.

136. هكذا يسير بنو البشر، إنهم يتركون القوانين والمبادئ تتبع سبيلها وينتهجون سبيلًا آخر؛ ليس فقط لأن عوائدهم غير صارمةٍ، وإنما عادةً انطلاقًا من رأيٍ وحكمٍ مُعارضين لها. أنصتْ لرسالةٍ في الفلسفة، فالابتكار والفصاحة والوجاهة تثير انتباهك للتوِّ وتجعلك تفكِّرُ، وليس ثمَّة شيءٌ يداهن ضميرك أو يستفزُّهُ، فهو ليس مستهدفًا، أليس كذلك؟ وذلك ما كان يقول أرسطون الخيوسي: «لا الحمام ولا غدير ماءٍ يفيد

(1) Virgile, **Énéide**, VI, v. 743.

(2) Cicéron, **De Officiis**, I, 31.

(3) هي ابنة كاتو الأوتيكي وزوجة بروتوس، فحين علمت بموت زوجها أقدمت على الانتحار، وصارت رمزًا للوفاء في الحياة الزوجية.

(4) أجمع الشراح أن الأمر يتعلق هنا بثيودور دو بيز.

في شيءٍ لو لم يطهّر المرء وينزع عنه الأوساخ». بإمكاننا أن نتوقف عند قشرة الأشياء، لكننا لا يمكن أن نُعجَب بها إلا حين نكون قد نزعنا منها اللُّبَّ، كما أننا لا نتأمل شكل القدح ونقوشه إلا حين نكون قد شربنا ما فيه.

137. في كافة مدارس الفلسفة القديمة سنجد أن الفيلسوف نفسه قد نشر قواعد الاعتدال، وفي الآن نفسه كتاباتٍ عن الحب والمجون، وكسينوفون[1] كتب تحت إشراف كلينياس ضد الإباحية التي نادى بها أريستبّوس[2]. هذا لا يعني أن ثمة حركةً إعجازيةً تحرّكهم من وقتٍ لآخر، لكننا نرى أن سولون مثلًا يقدِّمُ نفسه تارةً بنفسه وتارةً باعتباره مشرّعًا، فنحن نراه طورًا يتحدَّثُ للجمهور وطورًا مع نفسه، وهو حين يتحدث مع نفسه فإنه يتبنى القواعد الطبيعية والحرة، متكئًا على صحته الباهرة والقوية.

«ومَن منكم الأكثر إصابةً بالداء، فليتوجه للأطباء العظام»[3].

138. يسمح أنتيستينيس للحكيم[4] بأن يمارس الحبَّ، وأن يقوم على طريقته بفعل ما يراه خيرًا من غير أن يهتم بالقوانين والشرائع؛ لأن رأيه أفضل منها ولأن له معرفةً أفضل بالفضيلة. وكان ديوجينيس يقول: إن من اللازم معارضة الاضطرابات بالعقل، والصدفة بالثقة والطبيعة بالقوانين.

139. يلزم للمعدة الصعبة حمْيةٌ دقيقةٌ ومدروسةٌ، فالمعدة الجيدة تستعمل فقط الوصفات النابعة من شهواتها الطبيعية، ذلك ما يقوم به أطباؤنا الذين يتناولون البطيخ ويشربون الخمر الطازج، فيما يفرضون على مرضاهم شرب عصير الفاكهة والحساء بالخبز.

---

(1) Diogène Laërce, **Vies et doctrines**... II, 48; 124.

(2) فيلسوف يوناني كان تلميذًا لسقراط، وينتمي للمدرسة المسماة «القورينية»، وديوجينيس اللاترتي روى الكثير من أقواله الشهيرة، إذ كان يدعو إلى فن التمتع باللحظة وازدراء الأشياء التافهة وتوحيد حرية الفرد.

(3) Juvénal, **Satires**, XIII, v. 124.

(4) Diogène Laërce, **Vies et doctrines**... VI, 11.

140.كانت المومس لايس تقول: «أنا لا أعرف أي كتبٍ يقرؤون، ولا معارفهم وفلسفتهم، لكن أولئك*[1] الناس يطرقون أيضًا باب بيتي كما الآخرون»[2]. ما دامت رغبتنا تقودنا دومًا إلى ما هو أبعد مما هو ممكنٌ ومباحٌ، فلقد تم في الغالب تقليص المبادئ والقوانين التي تتحكم في وجودنا أكثر مما يبتغيه العقل الكوني.

«لا أحد يعتقد أن أخطاءه تُجاوز
ما هو مباحٌ»[3].

141.سيكون من المبتغى أن يوجد توازنٌ بين القيادة والطاعة؛ إذ الهدف الذي لا نبلغه يبدو غير مبرَّر. ليس هناك رجلٌ خيِّرٌ لم يستحق الشنق مراتٍ ومراتٍ خلال حياته، إذا هو قام بوضع كافة أفعاله وأفكاره في محكِّ القوانين، ومع ذلك سيكون للأسف من باب الظلم عقابه وإعدامه.

«ما يهمك يا أولّوس
في ما يفعله هذا أو ذاك بجلدته؟»[4].

142.من كان يكتفي باحترام القوانين لن يكون مع ذلك فاضلًا، والفلسفة ستكون على حقٍّ في جَلْده، ما دامت العلاقة بين القوانين والفضيلة غامضةٌ ومشوَّشةٌ. نحن لا نهتمُّ أبدًا بأن نكون أناسًا خيرين حسب شريعة الله، ونحن لن نستطيع أن نكون خيرِين حسب رغبتنا. لم تستطع الحكمة البشرية أبدًا أن تبلغ الأهداف التي كانت وضعتها نُصب أعينها، ولو كانت بلغتها، فسوف تضع أهدافًا أبعد منها ستسعى لتحقيقها دومًا طالما أن حالنا معادٍ للاستقرار. نفسُ الإنسان أمَّارةٌ له بأن يكون دومًا مخطئًا، وليس من البراعة أن يرسم الإنسان لنفسه واجباتٍ تكون على مقاس شخصٍ آخرَ غيره، لمنْ يعتقد الإنسان تحديد التزاماتٍ لا ينتظر من أي أحدٍ أن يقوم بها؟ فهل يعتبر من غير العدل ألا يقوم بما يستحيل عليه فعله؟ القوانين التي تحكم علينا بعدم القدرة تُدِيننا في الآن نفسه لأن ذلك مستحيلٌ علينا.

---

(1) * إشارة إلى الفيلسوف أريستيبوس الذي كان من زبائنها.

(2) يشير أنطونيو دي جيبارا إلى أن الأمر يتعلق بالفلاسفة الأثينيين.

(3) Juvénal, **Satires**, XIV, v. 233.

(4) Martial, **Épigrammes**, VII, 9, 1.

143.فليتمتَّعْ من يصفون الأشياء بتلك الحرية بتقديم الأعمال من جهةٍ والكلمات من جهةٍ ثانيةٍ في مكانين وفي شكلَيْن مختلفَيْن. فذلك في العمق بَدَلٌ سيئٌ لا يمكن قَبولُهُ. بيد أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون حال الناس مثلي الذين يصفون أنفسَهم بأنفسِهم، إذ على قلمي أن يسير بإيقاع رجليَّ نفسه. على الحياة في المجتمع أن تكون في علاقةٍ مع حياة الآخرين. كانت فضيلة كاتو الأوتيكي قويةً تفوق ما كان معتادًا في عصره، هو الرجل الذي كان يحكم الغير ناذرًا نفسه لخدمة العموم[1]، ويمكننا القول إن طريقته في الحكم إذا لم تكن ظالمةً فقد كانت على الأقل من دون جدوًى وخارج وقتها. وطريقة حياتي التي لا تختلف إلا بالنزر اليسير عن الطرائق العادية التى تجعلني مع ذلك متوحشًا وغير اجتماعيٍّ مقارنةً بمعاصريَّ، وأنا لا أدري إن كنت أقرف من غير سببٍ من العالم الذي أوجد فيه، غير أني أعرف جيِّدًا أن لا سبب لي للشكوى إن كان هو قد قرف مني، بما أني أخذت قرفي منه.

144.الفضيلة التي تلائم شؤون العالم فضيلةٌ مليئةٌ بالثنايا والزوايا والمنعطفات؛ كي تتلاءم مع الضعف البشري وتنطبق عليه. إنها مزيجٌ مصطنعٌ، إذ لا هي بالمستقيمة ولا بالواضحة ولا بالثابتة ولا بالبريئة تمامًا. والحوليات التاريخية لا زالت تعيب إلى اليوم على أحد ملوكنا[2] أنه انصاع بسهولةٍ للاقتناع بنصائح الراهب المكلَّف بتلقي اعترافاته؛ فشؤون الدولة ذات قواعد أكثر صرامةً.

«من الأفضل له أن يترك البلاط
ذلك الذي يريد أن يكون عادلا»[3].

145.حاولت في الماضي أن أستخدم في الشؤون العامة أفكارًا وطرائق في السلوك صارمةً وجديدةً ومتحضرةً قليلًا أو قليلة الدَّنسِ، توجد فيَّ أو تعود لتربيتي، والتي تلائمني على الأقل في حياتي الشخصية، غير أن ذلك سلوكٌ صبيانيٌّ وساذجٌ، ووجدت أنه غير ملائمٍ وخطيرٍ في هذه الحالة،

(1) يتعلق الأمر بكاتو الأوتيكي الذي كان شيشرون يؤاخذه على أنه يحيا كما لو كان في مجتمع مثاليٍّ.
(2) هي إحالة لشارل الثامن، الذي أعاد منطقة الروسيّون الفرنسية لإسبانيا؛ اتباعًا لنصائح الراهب الذي يتلقى اعترافاته.
(3) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale,** VIII, v. 493-494.

فمن يغامر بنفسه بين الحشود عليه أن يعرفَ كيف يناورُ ويتسلَّلُ ويتراجعُ أو يتقدَّمُ، بل أيضًا أن يترك الطريق الذي خطَّهُ لنفسه تبعًا لما يلاقي، فليس عليه أن يتشبث بفكرته، بل اتباع فكرة الآخرين، ليس تبعًا لما يقترحه على نفسه، بل تبعًا لما يُقترح عليه، وتبعًا للوقت وللناس والشؤون التي تهمُّهُ.

146.يقول أفلاطون: إن إفلات المرء من مشاغل الدنيا طاهر اليدين معجزةٌ[1]، ويقول أيضًا إنه حين يضع فيلسوفه على رأس الدولة، فهو لا يفكر في دولةٍ فاسدةٍ من قبيل دولة مدينة أثينا، وما القول حينها في دولتنا؟ فالحكمة نفسها سوف تفقد فيها لسانها، والعشب الجيد حين يُستنبت في أرضٍ مغايرةٍ يتكيف معها وليست هي من يتكيف معه.

147.أحس أني إذا أردت الاستعداد لانشغالاتٍ كتلك، عليَّ تغيير العديد من الأشياء فيَّ وتقديمها بشكلٍ مغايرٍ. وحتى لو استطعت ذلك -ولمَ لا ببعض الوقت والعناية؟- فأنا لن أرغب في ذلك، ومع أني كرست نفسي شيئًا ما لتلك الوظيفة، فإني أحسست منها بالاشمئزاز. وأنا أحس في نفسي ما يشبه شذى الطموح يتعالى، غير أني أتقوَّى وأعاندُ كي أقاومَهُ=

«لكن أنت يا كاتولّوس، تمادَ في عنادك»[2].

=غير أنْ لا أحد صار يدعوني لذلك، وأنا لا أدعو نفسي لذلك إلا لمامًا، فالحرية والقابليَّةُ اللتان تطبعاني تتعارضان تمامًا مع تلك الوظيفة.

148.نحن لا نعرف كيف نرى قدرات الناس، فهي لها تقسيماتٌ وحدودٌ وصعبٌ تمييزها. واستنتاج قدرات شخصٍ في حياته الخاصة على الوظائف العمومية يعني الخروج عن العقل، فأنْ يكون سلوك شخصٍ جيدًا أمرٌ لا يعني أنه قادرٌ على أن يسيِّرَ الآخرين بشكلٍ جيدٍ، أو لأنه يكتب «المقالات» يعني أنه قادرٌ على أن يقوم جيدًا بأفعالٍ ذات طابعٍ عموميٍ. أحدهم يسيِّرُ مقرًّا بشكلٍ جيدٍ ولا يستطيع تسيير معركةٍ،

---

(1) Platon, **La République**, VI, 192, 197.

(2) Catulle, **Poésies**, VIII, 19.

ويتكلم بشكلٍ فصيحٍ في الخصوص، لكنه عاجزٌ عن إلقاء خطبةٍ على الشعب أو على ملكٍ، بل يمكن أن تكون قدرته على الواحد منهما دليلًا على عجزه عن الآخر، لا دليلًا على القدرة عليهما معًا. أعتبر أن العقول العظيمة ليست أبدًا بأقل كفاءةٍ للأمور الصغيرة، ولا العقول المتواضعة للأمور العظيمة. فكيف نصدِّقُ أن سقراط قد استطاع إضحاك الأثينيين على نفسه، مبيِّنًا لهم أنه ليس قادرًا على تعداد أصوات قبيلته في الانتخابات، وتقديم تقريرٍ عنها للمجلس. أكيدٌ أن الإعجاب الكبير الذي أكنُّه لكمالات هذا الرجل، يستحق أن يقدم مصيره مثالًا صارخًا عن عيوبي الخاصة.

149.تنقسم مقدراتنا إلى عناصر صغيرةٍ، وقدراتي لا امتداد لها، وعناصرها قليلة العدد، قال ساتورنينوس لمن فوضوا له مقاليد قيادة الجيش: «أيها الرفقاء، لقد فقدتم قبطانًا جيدًا لتجعلوا منه جنرالًا رديئًا».

150.أولئك الذين يتباهوْن في زمنٍ مضطربٍ كزمننا بأن يجعلوا فضيلتهم الساذجة والصادقة في خدمة الغير، إما أنهم لا يعرفون أنفسهم جيِّدًا، أو أنهم يتباهون عن زيفٍ؛ فمهما قالوا عن ذلك فهم يفعلون مئات الأشياء التي سوف يتهمهم بها ضميرهم، بل إن الأفكار تفسد في الوقت نفسه الذي تفسد فيه العوائد. انظروا كيف يصف أولئك الناس أنفسهم، وانظروا كيف أن العديد من بينهم يستعظمون بسلوكهم ويؤسسون قواعدهم، فعوض أن يُبينوا عن الفضيلة لا يفصحون عن غير الظلم والرذيلة؛ وتلك الفضيلة التي يُقنِّعون بها يقترحونها رغم زيفها لتربية الأمراء، وأنا أصدِّقُ بنيةٍ حسنةٍ سينيكا نظرًا للتجربة التي عاشها في ذلك في ظروفٍ مشابهةٍ، وسمة الطيبة الأكثر شرفًا في هذه الحالة هي أن يعترف المرء بخطئه وبخطأ الغير، وأن يصارع بكامل قواه الانزلاق نحو الشر، ولا يتَّبع ذلك المنحدر إلا رغمًا عنه، ويأمل ويرغب في ما هو أفضل من ذلك.

151.في هذا التشرذُم وهذه الانشقاقات التي تغوص فيها فرنسا، أرى كل واحدٍ يجتهد للدفاع عن قضيته، بيد أن أفضل الناس لا يقومون بذلك من غير تدْليسٍ وكذبٍ، ومن يكتب بتسرُّعٍ عن هذا الموضوع سيكون متهوِّرًا بل

شريرًا، والجانب العادل فيه هو عضو جسدٍ منخورٍ وفاسدٍ، ففي جسدٍ كهذا، نعتبر العضو الأقل مرضًا سليمًا، وذلك عن حقٍّ ما دامت مزايانا لا تتحدَّدُ إلا بالمقارنة، فالنزاهة في المجتمع تُقاس تبعًا للأمكنة وفصول السنة. سيعجبني الأمر لو أن كسينوفون قام بمديحٍ لأجيسيلاوس كما هذا: طلب أميرٌ - في حالة حربٍ مع أجيسيلاوس- منه أن يتركه يمرُّ من أراضيه، فاستجاب لطلبه وتركه يمرُّ من بيلوبونيسوس، من غير أن يعتقله أو يسمِّمَه لأنه كان تحت رحمته، ليس ذلك فقط، بل إنه استقبله بحفاوةٍ ومن غير إهانةٍ كما وعده بذلك، وحسب عوائد ذلك الزمن ليس لنا ما ننتقد به ذلك السلوك الرائع. لكن، في مكانٍ آخر وفي عصرٍ آخر، سيتم التشديد على عظمة الروح التي يكشف عنها موقفٌ من قبيل ذلك، أما قردتنا الصغيرة من تلاميذ الثانوي فلا شك أنهم سيسخرون من هذا، طالما أن الفضيلة الإسبرطية بعيدةٌ عن الفضيلة الفرنسية.

152.نحن لا ينقصنا الناس الفضلاء، غير أنهم فضلاء حسب فكرتنا عنهم. فليقمْ من له سلوكٌ يقوم على مبادئ أعلى من مبادئ عصره بتكييفها معه وتلطيفها، أو فليقمْ-وهذا ما أنصحه به بالأحرى- بالانعزال وليكف عن الاهتمام بالغير.

«الرجل الراقي والفاضل
هو لديَّ مثل الغول، إنسان برأسيْن
أو أسماك يقطعها محراث
وبغلة تلد صغارًا»[1].

153.بإمكاننا أن نأسف على أوقاتٍ كانت أفضل لنا، غير أننا لا نستطيع الانفلات من الحاضر، وبإمكاننا أن نرغب في أن يكون لنا رؤساء آخرون، غير أننا مضطرون لطاعة أولئك الذين يقودوننا حاليًا، وربما كان الاستحقاق الأسوأ في طاعة القادة أكبر منه في الأحسن منهم، وطالما ظل بريق صورة القوانين القديمة والمقبولة في هذه الملَكية فسأظل متشبثًا بها، وإذا ما حدث لا قدَّرَ الله أن دخلت تلك القوانين في تناقضٍ وخلافٍ، فينجم عنها حزبان يكون الاختيار بينهما عسيرًا، فموقفي سيكون من ثمَّ

(1) Juvénal, **Satires**, XIII, vv. 64-66.

الانفلات من هذه الفتنة والخلاص منها، وربما ستساعدني الطبيعة أو صُدف الحربفي ذلك، ولو كان لي الخيار بين يوليوس قيصر وبومبيوس لكنت اخترت للتوّ وبصراحةٍ كاملةٍ[1]. أما في الخيار بين مغتصبي الحكم الذين تلوْه، فسيكون عليَّ أن أتوارى عن الأنظار أو اتباع الريح، وهو ما أعتبره أمرًا عاديًّا حين لا يلعب العقل دوره.

«أين ستروح لتعيش الضلال؟»[2].

التقافُز بمرحٍ

154.ما قرأتم آنفًا هو ضربٌ من الاستطراد، وخارج موضوعي. فأنا ضللت الطريق، لكن بحريةٍ رغبت فيها، لا سهْوًا مني ولا عن غير قصدٍ. أفكاري تتوالى لكن أحيانًا بشكلٍ غير محسوسٍ، وهي تتجاوب لكن بطريقةٍ ملتويةٍ. ألقيت نظرةً على إحدى محاورات أفلاطون[3] تنقسم إلى جزءين بالغيْ التنافر: الأول مخصَّصٌ للحب، وما تبقَّى للبلاغة. لم يكن القدماء يخشون من هذه التنويعات، بل يتركون الريح تحملهم أينما ابتغوا- أو يتظاهرون بفعل ذلك-وبرشاقةٍ باهرةٍ. وعناوين فصولي لا تغطي دومًا موضوعها؛ فهي في الغالب لا تقوم إلا بالإيحاء به من جانبٍ من جوانبه، مثل هذه العناوين: «فتاة أندروس»، و«المخصي»[4]،أو عناوين من قبيل: «سولّا»، «شيشرون»، «توركواتوس»[5]. أنا أحب أن يكتب الناس بطريقةٍ شعريةٍ، كما لو كانوا يتقافزون بمرحٍ، إنه كما يقول أفلاطون فنٌّ خفيفٌ ومتقلِّبٌ ومُلهَمٌ. ثمة كتبٌ لبلوتارخوس ينسى فيها هذا الأخير موضوعه، وحيث لا نعثر على فكرته إلا بالصدفة وقد أغرقها بين أشياء أخرى، انظروا مثلًا كيف يفعل في كتاب «شيطان سقراط». يا إلهي كم هي رائعةٌ تلك المُنفلتات الجريئة وتلك التنويعات! القارئ القليل الانتباه هو الذي قد يفْقد موضوعي لا أنا، وإننا سنجد في

---

(1) طبعًا لصالح بومبيوس، لأن مونتيني قد آخذ دومًا يوليوس قيصر على خرقه لشرائع الجمهورية.

(2) Virgile, **Énéide**, V, v. 166.

(3) من المحتمل أن يتعلق الأمر بمحاورة «فايدروس».

(4) عنوانا مسرحيتين لترنتيوس.

(5) هي في الحقيقة ألقاب حملتها شخصياتٌ مشهورةٌ، ومعناها «أحمر الوجه» و«حمص» و«حامل القلادة»، وقد كان يلقب بها بالتتابع: الجنرال سولّا، والكاتب الخطيب شيشرون، وتوركواتوس أحد الأبطال في الحرب ضد الغاليين.

زاويةٍ ما عبارةً تكون كافيةً، حتى ولو كانت غير مرئيةٍ تمامًا، فأنا أقوم بالتنويعات طوال الوقت، وبحريةٍ تامَّةٍ، وأسلوبي وعقلي يتسكعان معًا في الآن نفسه. «علينا أن نزرع بذرة جنونٍ كي نتفادى القيام بالكثير من التفاهات»، ذلك ما يقوله شيوخنا وخاصةً بالمثال الذي يقدمون.

155.الكثير من الشعراء يتهادوْن وتفتر همَّتُهم بطريقةٍ نثريةٍ، بيد أن أفضل نثرٍ قديمٍ- وأنا أنثر منها في مقالاتي هذه مقدار ما أنثر من أشعارٍ- يكون ساطعًا بقوته وجرأته الشعرية، وينتمي بالتأكيد لإلهام الشعر، ومن البديهي أن الدور الأول في فنون القول يعود إليه. يقول أفلاطون[1]: «الشاعر وهو جالسٌ على كرسيِّ آلهة الشعر، يفصح في هذيانٍ عن كل ما يمرُّ بذهنه - كما صنبور سقايةٍ - من غير أن يتحكَّمَ فيه أو يضبطه، فتنفلت من فِيهِ أشياء بألوانٍ مختلفةٍ وذات مادَّةٍ متنوعةٍ ودفَّاقةٍ». وهو بنفسه بالغ الشاعرية، كما أن اللاهوت القديم شاعريٌّ أيضًا كما يقول العلماء، فلقد كان هو الفلسفة الأولى، إنه اللغة الأصل للآلهة.

أسلوب«المقالات»

156.أريد أن يكون التمايز وليد المادَّةِ نفسها، فهي عليها أن تعلن بما يكفي حيثما تتغيَّرُ، وحيثما تكون خاتمةً، وحيثما تبدأ، وحيثما تستعيد مسيرها، من غير أن نضيف لها كلماتٍ رابطةً وترتيقًا ندخله فقط كي نمدَّ يد العون للآذان الضعيفة أو اللامبالية، فأنا ليس عليَّ أن أقوم بالتعليق على نفسي. من منَّا لا يفضل ألا يقرأه الناس على أن يُقرأ بلامبالاةٍ أو بطريقةٍ سريعةٍ. «**لا شيء يمكنه أن يكون مفيدًا حقًّا مهما كان مفيدًا، إذا كان الأمر على وجه السرعة**»[2]. ولو كان أخذُ الكتاب بين اليدين كافيًا لكي نعرفه، ولو كانت رؤيته تعني قراءته وتصفحه والتعمُّق فيه، فسأكون خاطئًا في أن أقول عن نفسي إني جاهلٌ مقدار كتابتي له.

(1) Platon, **Les Lois**, IV, 719.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, I.

157.«ولما كنت لا أستطيع الإمساك بانتباه القارئ بأهمية كتابي، فسيكون من المفيد أن أتوصل إلى ذلك بارتباكي على الأقل، غير أنه سوف يندم بعدها على أنه أضاع الوقت في قراءته. فليكنْ. لكنه سوف يكون قد قضى معه وقتًا ممتعًا» . ثم إن هناك أمزجةً كهذه تكنُّ المقت للذكاء، والتي لن تقدِّرَني أفضل إلا لأنها لن تعرف ما قلت، وهي سوف تخلُص إلى عمق ذكائي بسبب غموضي. ومع ذلك، وحتى أقول الحقَّ، ذلك ما أكره وما سأتفاداه لو كان عليَّ فعله. وأرسطو يتباهى في مكانٍ ما من كتاباته بهذا التكلُّف. يا له من تكلُّفٍ مَقيتٍ!

158.لما كان التقطيع المتواتر للفصول الذي مارسته في البداية بدا لي أنه يكْسر الاهتمام والتركيز قبل أن يستقرَّا، ويبدِّداهما لأن المرء لا يرغب في الاستقرار لوقتٍ طفيفٍ بل متابعة القراءة؛ بدأت أكتب فصولًا طويلةً، وهي الآن تتطلب إرادةً كبرى وأن يكرس لها القارئ الوقت. فنحن إذا أردنا أن نمنح لهذا الضرب من الأمور ساعةً فقط، فنحن لا نمنحها شيئًا، ولا نقدِّمُ شيئًا لمن يقوم بشيءٍ آخر في الوقت نفسه، زدْ على ذلك أني ربما لدي تهيُّؤٌ شخصيٌّ لئلا أقول الأشياء إلا نصفيًّا، وأن أقولها بغموضٍ وارتباكٍ وبتناقضاتٍ جمَّةٍ.

159.وأنا ألقي باللائمة على هذا العقل المشوَّش وعلى تلك المشاريع المتهورة التي تسمِّمُ الحياة، وتلك الأفكار البالغة الذكاء، حتى ولو كانت غير صحيحةٍ، فأنا أجد كل هذا باهظ الثمن وكثير الإزعاج. بالمقابل، إني لَأجتهد في منح القيمة للتفاهات بل والتُّرَّهاتِ إذا ما هي منحتني المتعة، وأنصاع لاتباع ميولي الفطرية من غير التحكُّم فيها عن قربٍ.

روما

160.شاهدت في روما كما في غيرها بيوتًا خربةً وتماثيل وسماءً وأرضًا، فالأمر يتعلق دومًا بتماثيل لبني البشر، والأمر كذلك، غير أني لا أقدر أن أرى مجددًا-أبدًا ومطلقًا- رُفَات هذه المدينة العظيمة والقوية

من غير أن أُعجب بها، ومن غير أن أكرِّمَها أيضًا. يشكل الحفاظ على ذاكرة الأموات جزءًا من واجباتنا، ولقد تربَّيْتُ منذ نعومة أظفاري مع أناس هذه المدينة، وتعرفت على شؤون روما وقتًا طويلًا قبل شؤون بيتي، كنت أعرف الكابيتول وما يحيط به قبل أن أعرف اللوفر، ونهر التبْر في روما قبل نهر السين بباريس، كان رأسي مليئًا بسيَر لوكولّوس وميتيلّوس وسكيبيو وبمصائرهم أكثر مما امتلأ بأي شخصيةٍ عظيمةٍ من شخصيات فرنسا، وهم ماتوا، وأبي أيضًا مات مثل العديدين غيره، تركني منذ ثمانية عشر عامًا كما تركني الآخرون منذ ستة عشر عامًا، ومع ذلك أستمر في تكريم ذاكرته والحفاظ عليها، وعلى ذكرى حبه ومجتمعه، في اتحادٍ كاملٍ ظلّ متَّقدًا بالحيوية.

161.من الصحيح أن طبعي ومزاجي يجعلاني منتبهًا لمن غادروا الحياة، فهم لم يعودوا يستطيعون فعل شيءٍ لأنفسهم؛ ولذلك يبدون لي وكأنهم يطلبون مني العون أكثر فأكثر، وفي ذلك يكمن العرفان بالجميل في كامل وهْجِهِ. إن عملًا خيِّرًا يكون أقل جدارةً بالثناء حين يتم تأديته لصاحبه، حين كان أركسيلاوس يعود كتيسيبيوس المريض، ووجده في حالةٍ يُرثى لها، قام خُفْيةً بدسِّ بعض المال تحت وسادته جعله هديَّةً له، وحين فعل ذلك خُفيةً، كان بذلك يبرئه من أي امتنانٍ له. من استحقوا صداقتي وامتناني لم يفقدوهما حين غادروا الحياة، فامتناني لهم صار أكبر وهم غائبون، ومن غير أن يعلموا ذلك. فأنا أتحدث بعاطفةٍ أكبر وأعمق عن أصدقائي حين لا يكون لديهم أي وسيلةٍ لمعرفة ذلك.

162.كافحت عشرات المرات للدفاع عن بومبيوس وقضية بروتوس، وهذا التعاطف بيننا لا يزال ساريًا إلى اليوم، حتى الأشياء الحاضرة نتصورها بالخيال، فبما أني أجد نفسي قليل الفائدة في هذا العصر، فأنا أرمي بنفسي في عصرٍ آخر، وأنا مفتونٌ كثيرًا بذلك بحيث إن حال روما الشائخة الحرة العادلة والمزدهرة هذه -ذلك أني لا أحب بداياتها ولا شيخوختها- أكنُّ لها بالغ الشغف والاهتمام؛ لهذا لا أستطيع أن أرى -مرةً أخرى ومرارًا- خطوط شوارعها، ورسم بيوتها وأطلالها حتى أطرافها، من غير أن أرغب في التجوال فيها. هل هو أمرٌ عاديٌّ أم أنه

مجردُ لُعبةٍ من لُعبِ المخيلةِ، أن تكون رؤية الأمكنة التي ارتدنا، وأقام فيها الناس الذين نكرِّمُ ذكراهم، مبعثًا للتأثُّر أكثر مما يفعل ذلك سماع قصة أعمالهم وحياتهم أو قراءة كتاباتهم؟

163.«**كم هو عظيمٌ ذكر الأمكنة، وهذه المدينة تملك تلك الذاكرة في مستواها الأسمى، فحيثما حللنا بها وارتحلنا، نضع أقدامنا على أرضية التاريخ**»[1]. يعجبني تأمل وجوه الرومان القدماء، والتفكُّر في سلوكهم ومواقفهم ولباسهم، وأنا أكرر بين شفتي أسماءهم العظيمة، وأهتف بها بصوتٍ مرتفعٍ. «أُجِلُّ هؤلاء العظماء وأنحني باحترامٍ أمام أسماءٍ من قبيل تلك»[2]. وأنا معجبٌ بالأشياء التي تتضمن أجزاءً عظيمةً ورائعةً حتى تلك التي تكون عاديةً ومشتركةً. وسأكون سعيدًا برؤية أولئك الرجال يتحدثون ويتجولون ويتناولون عشاءهم، بل سيكون من باب نكران الجميل مقْت بقايا وصور هذا الحشد الهائل من الرجال الشرفاء والكرماء، الذين رأيتهم بشكلٍ ما يعيشون ويموتون، والذين تركوا لنا دروسًا رائعةً بمثالِها، لو كنا قادرين على اتباعهم.

164.حتى روما التي نشهدها اليوم تستحق أن نحبها، فهي منذ زمنٍ طويلٍ حليفةٌ لعرشنا في الكثير من الجوانب، إنها المدينة الوحيدة المشتركة بين العديد من الشعوب-أي المدينة الكونية- والبابا الذي يحكمها مُعْتَرَفٌ بصفته تلك في أماكن أخرى. إنها عاصمة كافة الأمم المسيحية، فسواءٌ كان المرء فرنسيًّا أو إسبانيًّا فهو يحس فيها أنه في بيته، وليكون المرء أميرًا لهذه الدولة، يكفيه أن يكون أميرًا لبلدٍ مسيحيٍّ أينما كان موقعه، ولا يوجد في هذه الدنيا مكانٌ حَبَتْهُ السماء بأفضالها مقدار ما حبت به هذا المكان، فحتى أطلالها وخرائبها عظيمةٌ وممجَّدةٌ=

«**فهي أكبر قدْرًا بأطلالها الرائعة**»[3].

165.=وحتى وهي في اللحْد تحافظ على سمات الإمبراطورية ورموزها. «**من**

(1) Cicéron, **De finibus**, V, 1-2.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LXIV.

(3) Sidoine Apollinaire, **Poèmes et Lettres**, XXIII, v. 62.

البديهيِّ أن الطبيعة هنا قد أتقنت صنيعها»[1]. قد نعاتب أنفسنا ونغضب ضد نفوسنا من أن متعةً نافلةً كهذه تدغدغها، لكن لماذا ستكون أحاسيسنا نافلةً إذا كانت في آخر المطاف رائقةً وممتعةً؟ فمهما كان موضوع فرَح شخصٍ عاقلٍ ورضاه، فلا أرى سببًا للإشفاق عليه.

166.أنا مَدينٌ بعمقٍ للصدفة لأنها لم تفعل شيئًا خطيرًا ضدي إلى اليوم، أي شيءٍ لا يمكنني تحمُّلُهُ. أليس ذلك طريقتها في أن تترك في سلامٍ من لا يشاكسونها؟

«كلما تمنَّعتَ عن نفسك أكثر
كلما حَبتْكَ الآلهة بكل شيءٍ
أنا فقيرٌ إلى كل شيءٍ، غير أني من أولئك
الذين يوجدون في كل شيءٍ[2].

وإذا ما استمرت الصدفة معي على هذه الحال، فستراني دومًا فرحانًا وراضيًا

«فأنا لا أطلب
من الآلهة شيئًا أكثر من ذلك»[3].

لكن حذارِ من الخراب، فالكثيرون تغرق مراكبهم في المرفأ!

167.وإني أعزِّي نفسي بسهولةٍ في ما سيحدث هنا حين سأكون قد غادرت الحياة، فالأشياء الحاضرة تأخذ وقتي بما يكفي.

«وأنا أترك الباقي للقدَر»[4].

168.أما أنا فلا أملك تلك العروة الوثقى التي تشدُّ الناس للمستقبل كما يزعمون، بواسطة الأبناء الذين يحملون اسمهم ويؤبِّدون سمعتهم، وربما عليَّ الرغبة فيهم أقلُّ مما هو مرغوبٌ فيهم من الآخرين، فأنا

(1) Plinel'Ancien, **Histoire naturelle**, III, 5.
(2) [Horace, **Odes**, III, XVI, vv. 21-23, 42-43.
(3) Horace, **Odes**, II, XVIII, vv. 11-12.
(4) Ovide, **Les Métamorphoses**, II, v. 140.

لا أرتبط بالعالم وبهذه الحياة إلا بنفسي، يكفيني أن أخضع للقدَر بما يخصُّني مباشرةً، من غير أن أمنحه وسائل أخرى لكي يتحكَّمَ فيَّ، وأنا لم أعتقد أبدًا أن المرء الذي ليس له أبناءٌبه عيبًا من العيوب يجعل الحياة أقلَّ اكتمالًا وأقل سعادةً. فألا يكون لنا نسْلٌ هي وضعيةٌ تمنحنا امتيازاتٍ كثيرةً أيضًا. فالأبناء ينتمون للأشياء التي لا سبب للرغبة فيهاخاصةً اليوم، في عصرٍ يصعب علينا أن نجعل منهم أبناء برَرَةً. «**لا شيء حسنٌ يمكنه أن يولد طالما كل شيءٍ فاسدٌ**»[1]. والأشياء التي اكتسبنا هي التي نندم عليها حين نفقدها[2].

169.الشخص الذي ترك لي التكفُّلَ ببيته اعتقد أني سأؤول به إلى الخراب؛ لأنه يعرف مزاجيَ الميَّالَ للترْحال أكثر من الاستقرار، وقد أخطأ الصواب، فها أنا فيه كما في أول يومٍ دخلته، وربما كان وضعه اليوم أفضل شيئًا ما، وذلك من غير أن أتلقى مع ذلك أي معونةٍ عموميَّةٍ أو سندًا من الكنيسة.

170.زدْ على ذلك أن القدَر إذا كان لم يسبِّبُ لي مضارًّا عظمى وكارثيةً، فهو لم يغدق عليَّ من أفضاله، فكل ما قام به من أعطياتٍ في بيتنا قام بها قبْلي لأكثر من مئة عامٍ، فأنا لا أملك شخصيًّا أي ملْكٍ خصوصيٍّ وقيِّمٍ أَدين به لعنايته، لقد تفضَّل عليَّ بنعمٍ عرضيةٍ وبتشريفاتٍ وألقابٍ، لكن من غير جوهرٍ، وهو في الحقيقة لم يخصّني بها بل منحها لي، والربُّ يعلم ذلك، فأنا إنسانٌ ماديٌّ جدًّا حين لا يجازيني أحدٌ غير الواقع وبشكلٍ بالغٍ، وإذا جرؤت على الاعتراف بذلك، فأنا رجلٌ لن يعتبر البخل أقلَّ عذرًا من الطموح، وتجنبَ الألم شيئًا أقلَّ من تجنب العار، والرغبة في الصحة أقلَّ من الرغبة في الدنيا، والثروة أقلَّ من النبالة.

171.ومن بين نِعَم القدر وأفْضاله، لا شيء يعجب شيئًا -ما هذا الذوق البليد الذي هو ذوقي!- غير شهادةٍ حقَّةٍ من المواطنة الرومانية، التي مُنحت لي حين كنت مؤخرًا مقيمًا بروما، مزينةً بشكلٍ فاخرٍ بالأختام والحروف

(1) Tertullien, **La Pudicité**.

(2) إشارة من مونتيني إلى فقدانه أغلب أبنائه في سنٍ مبكرة، لم يبق له أحدٌ على قيد الحياة إلا بنتٌ واحدةٌ [المترجم].

المذهَّبة، والتي مُنحت لي بسخاءٍ بالغ اللطف؛ ولأنها مصوغةٌ بطرائق مختلفةٍ، بهذا القدر أو ذاك من المديح والثناء، فإني قبل أن أرى واحدةً منها، كنت أرغب في الاطلاع على صيغها، وأنا سأنسخها هنا في حال إذا ما كان أحد القراء مصابًا بالفضول المرضي الذي كان فضولي أنا.

172.تبعًا للتقرير، الذي قام به أوراتسيو ماسّيمي، ومارتسو تشيتو وأليسّاندرو موتي، المحافظون لمدينة روما، المتعلق بحقِّ المواطنة الذي يستحق أن نمنحه للسيد الفاضل العلامة ميشيل دو مونتيني، الحائز على لقب فارسٍ من درجة القديس مشيل، والنبيل في ديوان الملك المسيحيِّ البالغ الورع، فقد قرَّرَ مجْلس الشيوخ والشعب الرومانيِّ ما يلي:

تبعًا لعادةٍ قديمةٍ، فإنَّ كل الذين يتميزون بفضيلتهم ونبلهم، وشرفوا وخدموا بتفانٍ جمهوريتنا، أو يمكنهم القيام بذلك يومًا ما، قد نعموا باستقبالنا لهم بحرارةٍ وابتهاجٍ،ونظرًا للمثال والأنموذج الذي يحركنا من أسلافنا، فإننا نسعى للحفاظ على هذه العادة الحسنة؛ولهذه الأسباب؛ ونظرًا لأن اللامع نجمُه ميشيل دو مونتيني (فارس وسامِ السان ميشيل والنبيل في ديوان الملك المسيحيِّ) مرتبطٌ بعروةٍ وثقى بالاسم المرتبط أيما ارتباطٍ بالاسم الرومانيِّ، فهو يستحق أيما استحقاقٍ، بمرتبته وبسطوع نجم عائلته، وبمزاياه الشخصية، أن يُمنَح حقَّ المواطنة الرومانيَّةِ؛ تبعًا للحكم السامي وتصويت أعضاء مجلس الشيوخ والشعب الرومانيِّ. وقد ارتأى مجلس الشيوخ والشعب الرومانيُّ أن يسَجَّل في لائحة المواطنين الرومان المرموق ميشيل دو مونتيني، الذي تُوّجَ بمختلف أنواع الاستحقاقات والعزيز على هذا الشعب المرموق، في شخصه كما في شخص ذرِّيتِهِ، وهو مدعوٌّ للتمتع بجميع التشريفات والامتيازات الممنوحة للمواطنين والنبلاء بروما، أو الذين صاروا كذلك بمرسومٍ سامٍ.

وبهذا فإن مجلس الشيوخ والشعب الرومانيّ يرى أنهم يؤدون ديْنًا أكثر مما يُمنحون حقَّ المواطنة، وأن الأمر خدمةٌ يتلقونها ممن يشرِّف هذه المدينة ويمثلها أحسن تمثيلٍ، أكثر مما هو خدمةٌ يمنحونها له.

وقد سجل المحافظون هذا لدى كُتَّابِ مجلس الشيوخ والشعب الرومانيّ؛ كي يتمَّ الحفاظ عليه في أرشيف الكابيتولوس، وحرروا منه هذا القرار مختومًا بالخاتم الدائم للمدينة.

وحرر بتاريخ 2331 بعد تاريخ تأسيس مدينة روما، و1581 بعد ميلاد المسيح، واليوم الثالث بعد منتصف شهر مارس.

أوراتسيو فوسكو، كاتب مجلس الشيوخ المشرّف والشعب الروماني.

فنشنتي مارتولي، كاتب مجلس الشيوخ المشرّف والشعب الروماني.

173.لما كنت غير حاصل على مواطنة فخرية من بلد من البلدان (أيْ بورجوازيًّا)[1]، فإني أحسُّ بالفخر أن أكون مواطن أنبل مدينةٍ وأشرفها في الماضي كما في المستقبل، ولو كان الناس ينظرون في ما بينهم بإمعانٍ كما أفعل أنا، فسيجدون مثلي أنهم مليؤون بالغرور والبلادة، وأنا لا يمكنني أن أنسلخ عنهم من غير أن أنسلخ عن نفسي، فنحن كلنا متشبثون بموقفنا ما تشبث الأعمى بعصاه، بيد أن الذين يحسون بذلك يكابدون أقل، أليس كذلك؟

---

(1) أي مواطنًا فخريًا.

174.الموقف المشترك والعادة المشتركة التي تتمثل في النظر في مكانٍ آخر غير بواطننا تكون مفيدةً لنا؛ ذلك أننا موضع استياءٍ كبيرٍ، فنحن لا نرى فيها إلا البؤس والغرور؛ والطبيعة كي لا تشل عضُدنا قد رمت بموضوع نظرنا عن حقّ إلى الخارج. نحن نسير على هوانا، بيْد أن العودة القهقرى حركةٌ مضْنيةٌ، فموج البحر يتعكَّرُ وينحبس حين يكون متراجعًا،ولقد قيل: «تأملوا في حركات السماء، وانظروا لبني البشر، نزاع هذا ونبض ذاك ووصية الآخر، انظروا دومًا فوق وتحت أو في الجانب أو أمامكم أو وراءكم». الوصيَّة التي كان يمنحنا إياها في القديم إله ديلْفوي [الإله أبولون] كانت مفارقةً: «انظروا في صدوركم، اعرفوا أنفسكم، والزموا في ذلك أنفسكم، مشيئتكم وعقلكم اللذان ينصرفان إلى مكانٍ آخرَ أرجعوهما إلى باطنكم،أفصحوا عما في النفس فتسمعوا لبعضكم البعض، تشبثوا جيِّدًا إنهم يخونونكم ويبدِّدونكم ويسلبونكم من أنفسكم. ألا تروْن هذا العالم منطويًا على نفسه، وأن عيونه لا تُفتح إلا لتأمُّلِ ذاته؟ كل شيءٍ غرورٌ في الباطن كما في الخارج، غير أن ذلك الغرور أقل حين لا ينتشر أكثر، وكما قال الربّ. كل شيءٍ يتفحص ذاته في الأول، ويضع الحدود لأعماله وشهواته تبعًا لحاجاته إلا أنت أيها الإنسان، وليس ثمة شيءٌ فارغٌ. أنت الذي تدعي احتواء الكون،أنت ذاك الذي يلاحظ من غير أن يعرف، أنت القاضي من غير شرائع، وفي نهاية المطاف أنت المُبْسط المسرحية الهزلية».

الفصل العاشر

عن طريقة تنظيم الإنسان لإرادته

1. حين أقارن نفسي بأيٍّ من بني البشر، فالقليل من الأشياء هي التي تثيرني فيه أو تشدُّ انتباهي. وإنه لَأمرٌ عاديٌّ أن تثرينا تلك الأشياء، غير أننا نتمنى ألا تمتلكنا، وأنا أعتني جيدًا بتعزيز هذا الامتياز المتجذرِ فيَّ فطريًا بالمثابرة والتفكير، فأنا إذًا لا شغف لي إلا بأمورٍ قليلةٍ، أملك بصرًا جيدًا غير أني لا أربطه إلا بأشياءَ قليلةٍ، ولي حساسيةٌ مرهفةٌ غير أني أجد صعوبةً وأحسُّ تحفُّظًا في إدراك الأشياء والمثابرة في ذلك، وأنا أقوم بالالتزام بصعوبةٍ وأكرس نفسي لذاتي قدْر مستطاعي، ومع ذلك - وحتى في هذا المضمار- عليَّ لجم نزوعي الفطري والإمساك به كي لا أنغمس فيه تمامًا؛ بما أنه موضوعٌ لا أملكه إلا بأفضال الآخرين عليَّ، ويتحكم فيه القدَرُ أكثر مما أتحكم فيه، بحيث إن الصحة التي تهمني كثيرًا، يلزمني ألا أتعلَّقَ بها بجموحٍ إلى درجة أن أحس بأن الأمراض لا تُحتمل، علينا أن نجد التوازن التام بين الحقد والألم والحب واللذة؛ فأفلاطون ينصحنا باختيار طريق حياةٍ يكون وسطًا بين الاثنين.

2. بيْد أني أعارض بكامل قواي الأهواء التي تلهيني عن نفسي وتجعلني أتعلق بغيرها، وما أعتقد هو أن على المرء أن يهتم بالآخرين ولا يمنح نفسه إلا إلى ذاته، وإذا بدت إرادتي تميل بسهولةٍ إلى تكريس نفسها لشيءٍ آخر والمثابرة في ذلك، فلا يمكنني أن أقاومها، فأنا بطبعي وبعوائدي كائنٌ بالغ الرقّةِ.

«أنت عدوٌّ للشؤون العامة، ومنذورٌ للمُتع الهادئة»[1].

3. المناقشات والمجادلات العنيدة التي تنتهي إلى منح الامتياز لخصمي، والنهاية التي تجعل من متابعتي للنقاش مخجلةً، كل هذا يجعلني أعاني من تمزّقٍ داخليٍّ رهيبٍ، ولو أني كنت منتقدًا عَنوةً كما يفعل الآخرون، لفقدتْ نفسي القوة على تحمُّلِ الإنذار والعواطف التي تحصل لمن يتصرفون على تلك الشاكلة؛ إذ سوف تتعرض حالًا للتمزق بفعل ذلك القلق الداخلي، وإذا كان الناس قد حفَّزوني أحيانًا على قَبول المسؤوليات في شؤونٍ غريبةٍ عني، فقد وعدتهم بإمساكها بيديَّ أو بالكبد، وبتحملها لا بالتشبُّع بها، وأن أوليها عنايتي لا الشغف بها أبدًا، فأنا أراقب تلك

(1) Ovide, **Tristes**, III, 2, v. 9.

المسؤوليات ولا أحضنها. يكفيني ما لي من مشاغل تتعلق بتنظيم فيْض المشاكل المنزلية التي تلاحقني وتسري في عروقي؛ لا لكي أضيف إليها المشاغل الغريبة عني، وأنا منشغلٌ بما يكفي بشؤوني الخاصة الجوهرية والطبيعية، من غير أن أستدعي مشاغل أخرى آتيةً من الخارج، ومن يعرفون كم هم مَدينون لأنفسهم، وكم من الالتزامات هم مرتبطون بها، يعرفون أن الطبيعة قد منحتهم مسؤوليةً بالغة الثِّقَل لا تترك لهم مجالًا للعطالة. لك ما يكفي من المشاغل في بيتك، فلا تبحث عنها خارجه.

4. الناس يؤجِّرون خدماتهم، فمواهبهم ليست ملكهم، إذ هي منذورةٌ لمن يصيرون خُدّامًا لهم، ومَن يستأجرون تلك الخدمات هم الذين يكونون في بيوتهم لا هم، وهذا السلوك المستشْري بين العموم لا يعجبني؛ إذ على المرء أن يعتني بنفسه ولا يرهنها إلا في حالاتٍ تكون مبرَّرةً، وهي عندي قليلةٌ إلا إذا ثبت ذلك التبرير، تأملِ الناس الذين اعتادوا على الانصياع لإرادة الآخرين، إنهم يقومون بذلك في كل مكانٍ، في الأمور الصغيرة كما في الكبيرة، في ما يهمُّهم كما في ما لا يهمُّهم، إنهم يتدخلون في كل شيءٍ وفي كل مكانٍ يكون لهم ما يفعلون فيه، ويظلون أشبه بالموتى حين لا يكونون في قلب الشئون الصاخبة،«**فهم لا يبحثون عن العمل إلا لكي يشغلوا أنفسهم**»[1]. هذا لا يعني أنهم يريدون التوجه إلى مكانٍ ما، وإنما يعني أنهم لا يمكنهم المكوث في عين المكان، كجلمود صخرٍ حطَّهُ السيل من علٍ، لا يتوقف إلا حين لا يقدر على التدحرج أكثر. بعض الناس يعتبرون علامةً على أهميتهم وكرامتهم أن يكون لهم انشغالٌ معيَّنٌ؛ فأفهامهم تبحث عن الراحة في الحركة كما الرضَّع في مهدهم، ويمكننا القول إنهم مقدار ما هم خدومون لأصدقائهم مقدار ما هم مزعجون لأنفسهم. لا أحد يوزع ماله على الغير، غير أن كل واحدٍ منا يكرِّسُ وقته وحياته لهم، فلا شيء نكون فيه أسخياء إلا في تلك الأمور، التي يمكن القول إن البخل فيها أمرٌ مفيدٌ وجديرٌ بالثناء.

5. أما أنا فلي سلوكٌ مختلفٌ، فأنا أنطوي على نفسي وأرغب برخاوةٍ في ما أرغب فيه، بل إني أرغب في القليل من الأشياء، وأنا أمارس انشغالاتي

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XXII.

وأنشطتي بالطريقة نفسها، بشكلٍ نادرٍ وبهدوءٍ تامٍّ. كل ما يريده الناس ويقومون بتسييره، يقومون به بالكثير من الإرادة والجموح، لكنْ ثمة الكثير من العثرات والكبوات التي تحصل لنا، بحيث من الآمِنِ لنا أن ننساب بشكلٍ سطحيٍّ وطفيفٍ على أشياء هذا العالم، وننصاع للانزلاق عليها لا الغوص فيها، فاللذة نفسها أليمةٌ في عمقها.

«أنت تسير على نارٍ غطاها الرماد بشكلٍ خادعٍ»[1].

عمدة مدينة بوردو

6. هؤلاء الناس «المحلّفون» ببوردو انتخبوني عمدةً لمدينتهم بينما كنت في سفرٍ بعيدٍ عن فرنسا[2]، وأبعد ما أكون عن تلك الفكرة، رفضت الأمر فقيل لي إنني كنت على خطإٍ، وجاء أمر الملك لينضاف لذلك، إنها مسؤوليةٌ قد تبدو من الروعة بحيث إنها لا تتضمن لا مكافأةً ولا أي ربحٍ غير شرف ممارستها، وهي تدوم سنتيْن، ويمكن تمديدها بانتخابٍ جديدٍ، الأمر الذي نادرًا ما يحدث، وهو مع ذلك ما حصل معي، ولم يحدث إلا مرتين من قبل، مع السيد دو لانساك من بضع سنواتٍ، ومن مدةٍ قصيرةٍ مع السيد دو بيرون، ماريشال فرنسا، الذي كنت خلفًا له، وأنا بنفسي تركت المكان للسيد دو ماتينيون، هو ماريشال فرنسا أيضًا، وأنا فخورٌ أن أكون بين هذه الرفقة المميّزة.

«كلهم قادةٌ ممتازون، الواحد منهم والآخر، في الحرب كما في السلم»[3].

7. شاءت الصدفة أن تساهم في ترقيتي بالتدخل في سير الأمور، وهو ما كان أمرًا مفيدًا لي. فإذا كان الإسكندر الأكبر قد ازدرى السفراء الكورنْثيين الذين منحوه لقب مواطن من مدينته، وحين أوضحوا له أن هيراكليس وباخوس كانا ضمن ذلك السجل، قدَّم لهم شكره وامتنانه بحرارةٍ.

(1) Horace, **Odes**, II, 1, vv. 7-8.

(2) كان مونتيني فعلاً في فاتح لغسطس 1581 م في توسكانا.

(3) Virgile, **Énéide**, XI, v. 658.

8. وحين وصولي للمكان، قدَّمت نفسي بأمانةٍ وبراحة ضميرٍ كما أحس نفسي كائنًا من غير ذاكرةٍ أو حيطةٍ، ومن غير تجربةٍ أو قوةٍ، لكن أيضًا من غير حقدٍ أو طموحٍ، ومن غير جشعٍ أو عنفٍ، حتى يعلم أناس بوردو هؤلاء ما يمكنهم أن ينتظروا مني؛ ولأنهم كانوا يعرفون المرحوم أبي، أضفت أني سأكون بالغ الانزعاج لو أن شيئًا أثقل إرادتي، كما أثقلت شؤونهم وشؤون مدينتهم كاهل إرادة أبي، حين كان عليه تسيير شؤونها في المنصب نفسه الذي استُدعيتُ لشغله. وأنا أتذكَّرُ فعلًا أني رأيته في صباي، وكان بالغ الشيخوخة حينها، ونفسه مضطربةٌ من كثرة الهموم العمومية، وكان ينسى ليس فقط متعة الراحة ببيته الذي ارتبط به على طول السنين، وإنما أيضًا تدبير حياته الزوجية والاهتمام بصحته، بل والمخاطرة بحياته حين كان يقوم من أجلهم برحلاتٍ طويلةٍ مضنيةٍ، لقد كان الرجل كذلك، وهو يَدين بهذه الشخصية لطيبة طبعه ودماثة خلُقه، فلم يكن ثمة أبدًا روحٌ خيِّرةٌ أكثر من روحه، ولا قريبةٌ من الناس أكثر منها. وهذا السلوك أثني عليه اليوم، غير أني لا أرغب في اتباعه، ولي الأعذار في ذلك، فقد كان أبي قد سمع أن على المرء أن ينسى نفسه من أجل إخوته من بني البشر، وأن الخاصَّ لا أهمية له أمام الكونيِّ.

9. أغلب قواعد المجتمعات ومبادئها يتم بلورتها بشكلٍ تخرجنا به عن ذواتنا، وتطردنا نحو الساحة العامة كي تجعلنا في خدمة الجميع. وكل هذا يُعتبر عملًا خيِّرًا بهدف إلهائنا عن ذاتنا، وإبعادنا عنها كما لو كنا نتشبث بها بإفراطٍ وبشكلٍ فطريٍّ بالغٍ، ولا شيء تمَّ نسيانه من أجل ذلك،فليس أمرًا جديدًا لدى الحكماء أن يمتدحوا الأشياء لأجل صلاحيتها ونفعها، لا أن يكشفوا لنا عنها في ذاتها. الحقيقة لها مساوئها وعدم ملاءمتها لنا، مرارًا يكون علينا أن نخدع الآخرين حتى لا نخدع أنفسنا، وأن نغلقَ شيئًا ما عيوننا وننوِّمَ أفهامنا كي نقوِّمَها ونحسِّنَها. «**الجهلة هم من يطلقون الأحكام، وعلينا مرارًا أن نخادعهم كي نمنعهم من السقوط في الخطأ**»[1]. فحين يأمروننا بأن نحبَّ، قبل أنفسنا، أشياء أكثر رفعةً منَّا تكون ثلاثةً أو أربعةً أو خمسةً، فهم يفعلون مثل الرُّماةِ الذين لكي يطلقوا سهامهم على المرمى يصوبون

(1) Quintilien, **Institution Oratoire**, II, XVII.

السهم فوقه قليلًا؛ فلكي نسوي عصًا مقوَّسةً، علينا جعلها تنحني في الاتجاه المعاكس.

10. أعتقد أنَّ في معبد بالّاس كما في معابد دياناتٍ أخرى، كان ثمة ألغازٌ ظاهرةٌ منذورةٌ لأن تُكشف للشعب، وأخرى أكثر سرًّا وسموًّا تكون موجهةً فقط للعارفين، ويبدو أن هذه الألغاز الأخيرة يوجد فيها مركز الصداقة الحقَّةِ التي يدين بها كل واحدٍ لنفسه، لا صداقة زائفةٌ تجعلنا نسعى للمجد والعلم والثروة وما شابهها، بحيث نخصها بشغفٍ تامٍّ غير معتدلٍ، كما لو كانت من صميم وجودنا، ولا أيضًا صداقةٌ تُمنح بسهولةٍ بالغةٍ ومن غير تبصُّرٍ، يحدث معها مع يحدث مع اللبلاب الذي يخرِّبُ السور الذي يعانقه، وإنما صداقةٌ حاسمةٌ ومنتظمةٌ، تكون مفيدةً وممتعةً في الآن نفسه، ومن يعرف واجباتها ويقوم بها ينتمي فعلًا لحلقة الآلهة، فهو يبلغ سُدَّةَ الحكمة البشرية وسعادتنا الدنيوية، فحين يعرف هذا الإنسان تماماً المسؤوليات التي تنتظره إزاء نفسه، فإنه سيستعيد الدور الذي عليه أن تلعبه تجربته عن الناس الآخرين وعن العالم، وسيدلي بدلْوه في الواجبات التي عليه القيام بها، فمن لا يعيش للغير لا يعيش أبدًا لنفسه. «**حين يكون المرء صديقًا لنفسه، يكون صديقًا لكافة الناس**»[1].

11. المسؤولية الأساسية التي على كل واحدٍ القيام بها هي سلوكنا وتصرفاتنا؛ ولذلك الأمر نحن هنا. فمن ينسى أن يعيش بشكلٍ جيِّدٍ، ويعتقد أنه يمكنه أن يؤدي واجبه فقط بنصح الغير بتلك الحياة وتوجيههم لها، سيكون من أغبى الأغبياء، والأمر كذلك بخصوص من يعيش لنفسه بشكلٍ سليمٍ ومرحٍ، ويدَّعي أنه يقود الآخرين لذلك، فهو في نظري يتخذ قرارًا خطأً ومضادًّا للطبع البشريّ.

12. وأنا لستُ من يرفض المناصب العامة -التي أقبلها- بسبب ما تقتضيه من المرء من إعارة اهتمام، واتخاذ خطوات، وكتابة خطابات، وبذل العرق بل وحتى الدم إذا اقتضى الأمر=

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, VI.

«ذلك أني لا أهاب بنفسي الموت
من أجل أصدقائي أو وطني»[1].

13. =لكني أريد أن يكون ذلك مؤقتًا فقط وبشكلٍ عارضٍ، بحيث يكون العقل دومًا في راحةٍ وفي صحةٍ جيدةٍ، لا من غير أعمالٍ، وإنما من غير معاناةٍ ومن غير شغفٍ؛ فالفعل لا يتطلب منه جهدًا باهظًا، بحيث إنه يمارس الفعل حتى وأنا في سباتٍ، بيد أن عليَّ أن أجعله في حركةٍ وبتبصُّرٍ بالغٍ؛ ذلك أن الجسد إذا كان يتحمَّلُ الأعباء التي نفرضها عليه - تبعًا لما هي عليه فعلًا- فإن العقل يمدِّدُها ويثقلُها غالبًا على حسابه، مانحًا إياها الوزْن الذي يبدو له الأمثل. نحن نقوم بالأشياء نفسها مكرسين لها جهودًا متباينةً وتوتُّرًا للإرادة مختلفًا؛ فالفعل والهوى يسيران كل لوحده. وفعلًا، كم من الناس يخاطرون يوميًا بأنفسهم في الحروب التي لا تهمهم كثيرًا، ويرمون بأنفسهم في مخاطر معركةٍ لن تكدر الهزيمة فيها مع ذلك نومهم؟ كما هو حال ذلك الذي يوجد في بيته بعيدًا عن الخطر الذي قد لا يجرؤ على النظر إليه، والذي يكون أشدَّ شغفًا بمخرج تلك الحرب، والذي تكون نفسه أكثر عذابًا من نفس الجندي الذي يخاطر بحياته ودمه فيها. لقد شغلت مناصبَ عليا عموميةً، من غير أن أنسلخ عن نفسي قيْد أنملةٍ، ومنحت نفسي للغير من غير أن أتخلى عن نفسي.

14. قسْوة الرغبات وعنفها تعوقُ مسير ما نقوم به أكثر مما تخدمه، فهي تجعلنا نتحمَّل بصعوبةٍ الوقائع التي تكون معاديةً لنا، أو تلك التي تكون بطيئة الحدوث، وتملؤنا بالفظاظة والشكوك إزاء من نتفاوض معهم. نحن لا نسيِّرُ أبدًا وبشكلٍ جيِّدٍ شؤوننا التي تسيطر علينا وتسيِّرُنا.

«الشغف يقوم بكل شيءٍ بشكل سيِّئٍ»[2].

الرجل هو من يظل سيِّد نفسه

15. من لا يستعمل في فعله سوى حكمه العقليِّ وحذقه يقوم بذلك بشكلٍ

(1) Horace, **Odes**, IV, 9, vv. 51-52.
(2) Stace, **Thébaïde**, X, v. 704.

أمثل، فهو يستطيع التظاهر والمواربة والتأجيل على سجيَّته وعلى هوى الظروف، وهو يخطئ هدفه من غير أن يقلق لذلك ومن غير معاناةٍ، بحيث يكون مستعدًا لعملٍ جديدٍ، فهو يسير دومًا والعنان بيديه. أما من يستبدُّ به حماسٌ جامحٌ وعنيفٌ فهو يقترف بالضرورة الكثير من الحماقات والمظالم؛ لأنه محمولٌ على هوى نزق رغبته؛ لذا فإن حركاته تكون متهوِّرةً، وإذا لم يحالفه الحظ فستكون من دون نتيجةٍ. تبتغي الفلسفة أن نتجنَّبَ الغضب في العقاب على المضارِّ التي نتعرض لها؛ لا لكي يتم التلطيف من الانتقام، وإنما بالعكس لكي يُقام به بصورةٍ أفضل وبشكلٍ أعمق؛ ذلك أن التهور الناجم عن الغضب يمنع من ذلك، إنه لا يربك المرء فقط، بل إنه ينتهي إلى إنهاك من يمارسون العقاب، فتلك النار تخدِّرُهم وتلتهم قواهم، والأمر نفسه في التسرُّع والعجلة؛«فالعجلة سببٌ للتأخير»[1]. تسبب العجلة ارتباك الأرجل وتعوق نفسها وتتوقف. «السرعة تعوق نفسها»[2]، وإليكم مثالاً عن ذلك، فحسب ما لاحظت عادةً: لا عائق كبيرٌ للجشع إلا هو نفسه، فكلما كان ملحاحًا، كلما خرج صاحبه خاوي الوفاض بفعل ذلك التسرُّعِ نفسه، ونحن نرى أن الجشع يمسك بسرعةٍ بالثروات، حين يقدم نفسه تحت قناع الكرم.

16. أحد النبلاء ذوي الخصال الحميدة، وكان من أصدقائي، خالَ نفسه سيفقد عقله من كثرة تكفله –بالكثير من الحماس والعطف- بشؤون أميرٍ[3] كان سيدًا له، وهذا الأخير قد وصف نفسه هكذا لي قائلاً إنه ينظر لثقل النوازل الكارثية مثلها مثل الأحداث الأخرى، أما النوازل التي لا رادع لها فإنه ينصاع لتحملها، وأما الأحداث الأخرى-وبعد أن يصدر الأوامر الضرورية لمواجهتها، وهو ما يقدر على عمله بالنظر إلى حيوية عقله- فهو ينتظر ما ستسفر عنه من عواقب. وفعلًا، رأيته يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه، وعلى حرية التصرُّفِ وسط شؤونٍ شائكةٍ وعويصةٍ أكثر، وأنا أعتبره من ثمَّ أعظم وأنجع حين تكون رياح القدَر معاكسةً له منه حين تكون مواتيةً له؛ فخساراته تزكِّي مجده أكثر من أرباحه، وألَمَه أكثر من نصره.

(1) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**, IX, 9, 12.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XLIV.

(3) قد يتعلق الأمر بملك نافارا، الذي أصبح هنري الرابع ملك فرنسا.

17. وانظروا كيف أن الالتزام العميق، حتى في الانشغالات التافهة وغير المجدية، كلعبة الشطرنج أولعبة الكرة وغيرهما من الألعاب المماثلة، حين يكون ناجمًا عن رغبةٍ متهورةٍ، لا يلبث أن يغمس العقل والأطراف في قلقٍ فوْضويّ ويجعلها عاجزةً عن التبصُّر. هكذا يحصل الافتتان ويكثر التعثُّر. أما من لا يولي أهميةً كبرى للربح كما للخسارة، فهو على العكس من ذلك يظل سيّد نفسه، فكلما قلَّ تأثره باللعبة، كلما قلَّ شغفه بها، وكلما سار بها بشكلٍ ممتازٍ وأكيدٍ.

18. فحين نمنح لعقلنا أشياء كثيرةً ليتعقَّلَها، فإننا علاوةً على ذلك نعوق إمساكه بها وتملّكه لها. فمنها ما يكفي أن نشير له بها، وأخرى يمكنه التعلُّقُ بها وتمثُّلُها واستبطانُها. إنه يمكنه أن يحس ويرى كافة أنواع الأمور، غير أنه لا ينبغي له أن يتغذى إلا من ذاته، وعليه أن يتعلَّمَ ممَّا يمسُّه مباشرةً وما ينبع مباشرةً منه، أي ما يشكل جزءًا من مجاله وماهيته. تبيّنُ لنا قوانين الطبيعة بشكلٍ دقيقٍ ما نحن بحاجةٍ له، وقد علَّمنا الحكماء أن لا أحد بالفطرة فقيرٌ إلى شيءٍ، لكن أن كل واحدٍ يعتقد أنه مفتقرٌ لشيءٍ ما، وهم يميزون بدقَّةٍ الرغبات ذات الأصل الطبيعي عن تلك الصادرة عن فوضى مخيلتنا، والرغبات التي نبصر بطرفها هي رغباته، وتلك المنفلتة منا باستمرارٍ والتي لا نقدر أبدًا على إرضائها وإشباعها هي رغباتنا، يسهل علينا شفاء فقر الخيرات المادية، أما فقر خيرات العقل فمن المستحيل شفاؤها.

«لو اكتفى الإنسان بما يكفيه، لكان لي ما يكفيني لكن الأمر ليس كذلك؛ لهذا مهما كانت الثروات عظيمةً فهي لن ترضيني أبدًا»[1].

19. حين رأى سقراط أناسًا يحملون كمياتٍ هائلةٍ من الخيرات والمعادن الكريمة والأثاث الفاخر في المدينة وسط ضجةٍ كبيرةٍ، صرخ قائلًا: «يا لكثرة الأشياء التي لا أرغب فيها!»[2]. كان ميترودوروس[3] يعيش ببضعة

(1) Lucilius, **Satires**, liv. V.

(2) Cicéron, **Tusculanes** v, 32.

(3) ميترودوروس اللامبساكي، فيلسوف يوناني من القرن الخامس ق.م، كان أول مفسر ومتأول للأساطير الهوميروسية.

قروشٍ في اليوم، وإبيقوروس بأقلّ من ذلك، وكان ميتروكليس[1] ينام شتاءً مع الخرفان، وصيفًا تحت بوابات المعابد. «**كانت الطبيعة تسدُّ حاجاته**»[2]، وكان كليانثس يعيش من عمل يديه، ويتباهى بكونه يمكنه أن يصرف من مدخوله على شخصٍ آخر مثله لو رغب بذلك.

20. ما تقتضيه الطبيعة بالضبط-ومنذ الأزل- للحفاظ على وجودنا قليلًا جدًا، وفي الحقيقة ليس ثمَّةَ من سبيلٍ أمثل كي نعبر إلى أي مدًى يمكن لحياتنا الاستمرار بثمنٍ معقولٍ إلا القول: «إنه ثمنٌ زهيدٌ جدًا بحيث إنه ينفلت من تأثير القدَر، وإنه لشيءٌ قليلٌ بحيث يمكننا أن نمنح لأنفسنا شيئًا زائدًا، وأن نسمي مع ذلك «طبيعة» عوائد كل واحدٍ منا وشروط حياته». فلنتخذْ ذلك مرجعًا ومقياسًا، ولنمدِّدْ حتى ذلك الحدِّ حساباتنا وما نملك؛ فنحن -حسب ما يبدو لي-لنا العذر لنسير حتى ذلك الحدِّ. العادة طبعٌ ثانٍ، وهي ليست أقل من الطبيعة والفطرة، فما تفتقر له حياتي العادية، أعتبر أني أنا من يفتقر له، وأنا أبتغي أن يضعوا حدًّا لحياتي على أن يحدُّوا من إيقاع الحياة الذي رافقني من زمنٍ.

21. لستُ على استعدادٍ للتغير تغيُّرًا عميقًا، ولا لتبني طرائق عيشٍ جديدةٍ وغير مشهودةٍ، ولا حتى لأنْ أسير بعيدًا بطريقة حياتي الحالية، فلم يعد لي الوقت لأصير شخصًا آخر، ولو أن ثروةً عظيمةً سقطت الآن بين يديَّ، فإني سأصاب بأسفٍ بالغٍ أنها لم تأتني في وقتٍ كنت سوف أستفيد منها أيما فائدةٍ.

«ما فائدة الحظ، إذا لم نستفد منه؟»[3].

22. وأنا سوف آسَفُ بالطريقة نفسها على أن أعيش تحسُّنًا باطنًا ما، فالأحرى بي ربما ألا أغدو أبدًا «إنسانًا شريفًا»على أن أُصْبح كذلك في أجلٍ متأخِّرٍ، وأن أغدو شخصًا يعرف كيف يعيش في وقتٍ لا يتبقى فيه له من حياةٍ، وأنا الذي يتأهَّب للرحيل، سأترك لشخصٍ يخلفني الحكمة التي تعلمت في علائقي بالناس. لا حاجة لي بالخير الذي لا يفيدني في شيءٍ،

---

(1) أحد الفلاسفة الكلبيين.

(2) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XC, 18.

(3) Horace, **Épîtres**, 1, 5, v. 12.

فما جدوى العلم لمن فقد عقله؟ إنه لمن باب الظلم، بل هو أمرٌ شريرٌ من القدَر، أن يمنحنا الأعْطيات التي تجعلنا نأسف على أننا لم نتلقَّها في الوقت المناسب. لا فائدة من إرشادي إذا كنتُ عاجزًا عن التقدُّمِ، فمن بين كافة العناصر التي تشكِّل الحكمة، تكفينا منها القدرة على التحمُّل. لنمنحْ إذًا صوتًا حسنًا لمغنٍّ ذي رئتين متعفّنتيْن، والفصاحة لزاهدٍ مختلٍ في صحراء الجزيرة العربية! لا حاجة للنهاية بالفن، فالنهاية تكون في طرف كل مهمَّةٍ. لقد اندثر عالمي وصار شكلي فارغًا، إذْ أنا أنتمي كليةً للماضي، وعليَّ أن أبرِّرَ ذلك وأن ألائم معه مخْرجي من الحياة.

23. وعلى سبيل المثال سأقول ما يلي: «حين حذف البابا عشرة أيامٍ من السنة[1]، أدخل ذلك الارتباك في نفسي بحيث لم أستطع أن أتكيَّف معه، فأنا أنتمي لعصرٍ كنا نقوم فيه بالحساب بشكلٍ مخالفٍ، وأنا ألبّي داعِي العادة القديمة التي تتطلَّبُني كما لو كنت من صلبها، فأنا مضطرٌّ إذًا أن أكون من الهراطقة في هذا الموضوع بما أني غير قادرٍ على تلقي الجديد، حتى ولو جاء لتصحيح خطأٍ، فرغمًا عني تسير مخيلتي عشرة أيامٍ للوراء أو للخلف وأسمعها تدمدم في أذني: «هذه القاعدة تتعلق بمن سيروْن النور». وإذا كانت الصحة تعود لي بلطفها من حينٍ لآخرَ؛ فلكي تجعلني أحس بالندم لا لتسمح لي باستعادتها، فأنا لا أملك ما يمكِّنُني من احتضانها. الزمن يلفظني، ومن دونه لا يمكننا امتلاك أي شيءٍ، وكم يكون اهتمامي ضعيفًا بتلك المناصب الانتقائية التي أراها في المجتمع، والتي لا تمنح نفسها إلا لمن قاربوا الموت، من حاز عليها لا يهتم بالطريقة التي سيمارسها بقدر اهتمامه بالوقت الذي سيتمكَّن من ذلك، فما إن يدخلها حتى ينظر للمخرج منها. إجمالًا، هاأنذا على وَشْكِ الانتهاء من الرجل الذي كنْتُه، لا أن أجعل منه رجلًا آخر، فهذه الهيئة التي هي هيئتي صارت ماهيتي وقدَري صار طبعي».

24. أقول إذًا: إن كل واحدٍ منا -نحن المخلوقات الضعيفة- معذورٌ في أن يعتبر من ملْكه ما هو في حدود القياس[2] الذي حدَّدَهُ لنفسه، لكن في ما

(1) هو إرساء التقويم الغريغوري على يد البابا غريغوريوس الثالث عشر، والذي تضمن حذف عشرة أيام، إذ غداة الرابع من أكتوبر تلك السنة صار اليوم هو 15 أكتوبر.

(2) ذلك هو القياس الذي تحدث عنه مونتيني آنفًا في الفقرة 20.

وراء تلك الحدود ليس ثمة غير البلبلة، فتلك هي البطحاء الأكثر شُسوعًا لتي يمكننا أن ننسبها إلى حقوقنا، كلما وسَّعنا من حاجاتنا وممتلكاتنا، كلما عرَّضنا نفسنا لضربات القدَر وللعدوان. على سبيل رغباتنا أن يكون محدودًا ومنحصرًا في الأشياء الضرورية والمباشرة والأقرب إلينا ومسيرها عليه، إضافةً إلى ذلك أن يتم ليس تبعًا لخطٍ مستقيمٍ يكون طرفه في مكانٍ آخرَ، وإنما دائريًا يلتقي طرفاه بعد دورةٍ قصيرةٍ وينتهيان فينا. والأفعال التي نقوم بها -من غير تلك العودة إلى الذات، التي تكون قصيرةً وجوهريةً -تكون مثل أفعال البخلاء والطَّموحين وغيرهم من قَبيلهم، الذين يجرون قدُمًا فيما يجرهم سباقهم إلى أبعد من ذلك، إنها أفعالٌ تعود إلى سلوكٍ خطأ ومرضيٍّ.

25. أغلب انشغالاتنا ذات طابعٍ هزليٍّ. «**والعالم كله يمثل مسرحيةً هزليةً**»[1]. وعلينا أن نلعب دورنا بشكلٍ لائقٍ، لكن مثل دوْرٍ لشخصيةٍ مستعارةٍ، فليس علينا أن نجعل من القناع والمظهر شيئًا واقعيًّا، وليس مما هو غريبٌ عنا شيئًا منَّا وفينا. نحن لا نعرف تمييز البشرة من القميص، فيكفي تجميل الوجه لا القلب، وأنا أصادف من يتغيرون ويغيرون ماهيتهم مانحيها صورًا وأشكال حياةٍ جديدةٍ مقدار المسؤوليات التي يتحمَّلون، ويتظاهرون بكونهم قُسسًا حتى الأحشاء، بحيث إنهم يحملون معهم وظائفهم حتى المرحاض، وأنا لا يمكنني أن أعلمهم التمييز بين التحيات التي تخصهم وتلك التي تخصُّ مناصبهم أو حاشيتهم أو بغلتهم. «**فهم ينساقون كليةً مع مناصبهم العليا حتى إنهم ينسون طبعهم**»[2]، وهم ينفخون أنفسهم ويفخمون محادثتهم العادية تبعًا لعلو منصبهم في سُلَّمِ الدولة. لقد كان العمدة ومونتيني شخصين اثنين منفصلين ومتمايزين، فكونهم محامين أو مصرفيين لا يعني أننا سوف نتجاهل الخداع والتحايل الذي يسم تلك الوظائف، والإنسان الشريف ليس مطالبًا بأن يتحمل مسؤولية العيوب التي تكتنف مهنته، وليس عليه مع ذلك أن يرفض ممارستها، فتلك هي العادة في بلده وعليه أن يستفيد من ذلك. علينا العيش مع العالم كما هو والاستفادة منه، بيْد أن حكم إمبراطور عليه أن يسود إمبراطوريته،

(1) JusteLipse De Constantia, **Traité de la Constance,** de Just. Lipsius...citant Pétrone, I, 18.

(2) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand,** III, 2, 18.

وعليه أن يعتبر هذه الإمبراطورية شيئًا حادثًا وعارِضًا وغريبًا، فعلى الإمبراطور أن يعرف كيف يتمتَّع بنفسه خارج كل هذا، وأن يتحادث -كما عمرو وزيد- على الأقل مع نفسه.

26. أنا لا أستطيع الالتزام بهذا الشكل الكامل والتام، وحين أنحاز عن طيب خاطرٍ إلى حزبٍ ما، فذلك ليس بارتباطٍ تامٍ يؤثر تأثيرًا على ذكائي، ففي وضعية الفتنة التي نعيشها في وضعنا الحالي، لم يجعلني فضولي أتجاهل لا الخصال الحميدة لخصومنا، ولا السلوك الذي يمكن نقده لدىً مَن اتَّبعت، يحب الناس كل ما يكون لصالحهم، أما أنا فلا أجد عذرًا لأغلب الأشياء التي توجد في صالحي، فعدا عقدة النقاش، ظللت في مزاجٍ هادئٍ وفي لامبالاةٍ تامةٍ. «**وباستثناء ضرورات الحرب لا أحمل في صدري كراهيةً كبرى**»[1]. وهذا أمرٌ يثلج صدري خاصةً وأني أرى دومًا العكس لدى الغير.

27. كل من يسير بغضبه وكراهيته أبعد من الشؤون التي تثيرها، كما يفعل أغلب الناس، يكشف بذلك على أنها تغشاه من الخارج ومن أسبابٍ شخصيةٍ، تمامًا كما أن الحمى التي تستمر لدى من برأ من قرحة المعدة لتبرِز أن لها علةً أخرى أكثر خفاءً، والواقع أن الناس من هذا الصنف لا يواجهون السبب الرئيس لأنه مضرٌّ بكل الناس وبالدولة؛ وإنما لأن ذلك السبب مضرٌّ بهم بالأخص؛ لهذا تراهم مدفوعين بهوًى شخصيٍّ في ما وراء العدل والعقل المشترك. «لم يكن مأخذهم يتعلق بالمجموع، وإنما ينتقد كل واحدٍ منهم ما يتعلق به شخصيًّا»[2].

28. أرغب في أن يكون الامتياز والنصر لنا، غير أني لن أفقد عقلي لو لم نحزْ على ذلك، فأنا أنحاز بتصميمٍ وعزمٍ إلى الجانب الأكثر سلامةً، غير أني لا أسعى إلى أن يُشار لي بكوني عدوًا للآخرين، وأن أضع نفسي فوق الرأي العام. وأنا أُدين إدانةً تامَّةً طريقة التفكير هذه: «إنه مع الرابطة لأنه معجبٌ بنعمة السيد دو غيز». «إنه معجبٌ بنشاط ملك نافارا، فهو إذًا هوغيونيٌّ بروتستانتيٌّ فرنسيٌّ». «إنه يعيب على الملك سلوكه،

(1) مؤلف مجهول.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXIV, XXXVI.

فهو ميالٌ للانشقاق». وأنا لم أتنازل للقضاء البابوي نفسه في أن يكون له الحق في إدانة كتابٍ جعل شاعرًا هرطوقيًّا من بين أفضل شعراء هذا القرن[1]. ألا يمكن أن نجرؤ على القول عن سارقٍ إن له ساقين جميلتين؟ وهل علينا أن نقول أيضا لعاهرةٍ إن رائحتها كريهةٌ لأنها فقط عاهرةٌ؟ وهل نُزع عن ماركوس مانليوس-في عصرٍ أكثر هدنةٍ- اللقب الجميل «كابيتوليني»[2]الذي مُنح له على كونه منقذ الدين والحريات العمومية؟هل يمكن خنْق إيمانه بالحرية ومنجزاته الحربية والمكافآت العسكرية التي حاز عليها بفضل بأسه وشجاعته؛ لأنه انحاز بعد للملكية ضدًّا على شرائع بلده؟ ولو كره الناس محاميًا فإنهم سيجدون أنه في الغد قد فقد فصاحته. ولقد تحدثتُ سابقًا[3] عن الحماسة الدينيّة التي دفعت بأناسٍ محترمين ومرموقين إلى اقتراف أخطاءٍ من قبيل هذه. أما أنا، فإني أعرف كيف أقول عن حقٍّ: «إنه يفعل ذلك بشكلٍ خاطئٍ، أو بشكلٍ رائعٍ».

29. بالشكل نفسه، حين يتعلق الأمر بالقيام بالتوقُّعات، أو حين تسوء الأمور، يريد الناس أن يظل كل واحدٍ في حزبه أعمًى أو بليدًا، وأن تكون قناعتنا وحكمنا لا في خدمة الحقيقة وإنما في ما تنتظره منهما رغبتنا. وأنا سأقوّمُ خطئي بالأحرى في الاتجاه المعاكس، طالما أخشى أن تخضعني رغبتي لمشيئته؛ زدْ على ذلك أني أتحدى نفسي بقوةٍ في الأشياء التي أتمنى، ولقد رأيت في حياتي وباندهاشٍ السهولة الغريبة التي تنصاع بها الشعوب، من غير تبصُّرٍ، للانقياد والتلاعب بمعتقداتها وآمالها، مع أنها ملائمةٌ ومفيدةٌ لقادتها، بالرغم من كثرة الخيبات المتراكمة والأوهام والأحلام البائدة. وأنا لم أعد أندهش للذين انطلت عليهم طرائف أبولّونيوس*[4] ومحمد[5]. فحِلْمهم وذكاؤهم قد تحكمت فيهما أهواؤهم، وتبصُّرهم لم يعد له من اختيارٍ غير ما يروق لهم

(1) الكتاب المعني هنا هو كتاب مونتيني، الذي يحكي في مذكرات رحلته أن الرقابة البابوية قد أخذت عليه الحديث عن شعراء هراطقة، والأمر كان يخص بالذات الشاعر ثيودور دو بيز.

(2) مقيمٌ في الكابيتولينوس.

(3) في الكتاب الأول، الفصل 32.

(4) *ربما المقصود هنا هو أبولّونيوس التياني (3 ق.م تقريبًا - 97 م تقريبًا) وهو المعروف في المصادر العربية باسم بليناس الحكيم.

(5) ليس علينا مؤاخذة مونتيني؛ فذلك كان الرأي الشائع لدى الكاثوليكيين. وليس من قبيل الصدفة أن يربط نبي الإسلام ببليناس الحكيم الذي كان يجله الكيميائيون العرب واعتبروه أول من تحدث عن الطلّسمات [المترجم].

ويؤكد قضيتهم، ولقد لاحظت ذلك ببداهة في أول حزبٍ من أحزابنا المحمومة[1]، وذلك الذي ظهر بعده[2]-وهو يحاكيه- جاوزه كثيرًا. وأنا أدرك من ذلك أنه موقفٌ لا يمكن فصله عن الأخطاء الشعبية، فما إن يعلن الرأي الأول عن نفسه، حتى تتدافع الآراء الأخرى مثل الموج تدفعه الرياح. المرء لا ينتمي لجسده حين ينزاح عن الآراء التي تكون آراءه، وإذا لم يترك نفسه يتأرجح مع الحركة العامة، ومع ذلك فإننا نغمط الأحزاب الصالحة حقها حين نرغب في مساندتها بخداعنا، وقد وقفت دومًا ضدَّ ذلك، فهي عملياتٌ لا تلائم إلا الأفهام المريضة، أما السليمة منها فثمة سُبُلٌ أوْثق سَندًا وأكثر نزاهةً لتعزيز الشجاعة والتخفيف من الخصومات.

30. لم نرَ، بل لم نرَ أبدًا نزاعًا أخطر من ذلك الذي قام بين يوليوس قيصر وبومبيوس، ويبدو لي مع ذلك أن هاتين الشخصيتين النبيلتين كان لديهما الكثير الجمُّ من الاعتدال، الواحد منهما إزاء الآخر، فخصومتهما كانت تتعلق بقضايا الشرف والقيادة، وهي لم تسرْ بهما نحو الحقد الدفين من غير تبصُّرٍ ورويَّةٍ؛ إذْ كانت خصومةً من غير شراسةٍ أو خبثٍ ومن غير نميمةٍ أو اغتيابٍ، فلقد اكتشفتُ في أعمالهما الحربية، الأكثر عنفًا وضراوةً، بقايا للاحترام والعناية، ويبدو لي أن الواحد منهما والآخر لو كان ذلك بمستطاعه، كان سيرغب بالأحرى في بلوغ مراده من غير التنكيل بالآخر، بيْد أن الأمر سار كما بين ماريوس وسولّا. فلنحترس!

31. علينا ألا نجري بتهورٍ وراء مصالحنا وأهوائنا، فحين كنت شابًا كنت أقف ضدَّ تغلغل الحب فيَّ، حين كنت أحس بأنه صار له سلطان عليَّ، وكنت أحرص على ألا يصبح رائقًا عذبًا لي بحيث يستبد بي عنوةً فأنتهي إلى أن أقع تحت رحمته. وأنا أتصرف بالشكل نفسه في كل مناسبةٍ عرَضت لي، حين تكون فيها إرادتي خاضعةً لرغبتي، فأميل حينها للجهة المعاكسة التي أراها تغوص فيها سَكرى بخمرها، وأتفادى تغذية لذّتها بحيث لا أستطيع الإمساك بها من جديدٍ من غير فقْدٍ مؤلمٍ.

(1) الحزب البروتستانتي. الحزب هنا ليس بمفهومه الحديث، وإنما بمعنى الجانب في صراعٍ معين [المترجم].
(2) حزب الرابطة.

32. العاقلة الفاقدة الحسَّ إلى درجةٍ لا ترى معها الأشياء إلا جزئيًّا، لها الحظ في ألا تلمَّ بها مصائب الأشياء المضرّةِ. إنه ضربٌ من الجذام الروحي يبدو صحيًّا، وشكلٌ من أشكال الصحة التي لا تزدريها الفلسفة أبدًا، لكن الأمر ليس ذريعةً لكي نسميه «حكمةً» كما نفعل ذلك عادةً؛ لهذا الأمر سخر أحدهم قديمًا من ديوجينيس، الذي كان في عزِّ الشتاء يعانق تمثالًا من الثلج وهو عارٍ كي يختبر قدرته على تحمُّلِ الألم، فحين لقيه في ذلك الوضع بادره بالقول: «هل تحس بالبرد القارس اللحظة؟»، فأجابه ديوجينيس: «أبدًا»، فتابع الآخر: « في هذه الحال ما الذي تعتقد فعله من أمرٍ عسيرٍ ومثاليّ؟»[1]. فلكي يمكن للمرء تقويم قدرته على المقاومة، عليه أن يعرف أولًا مقدار عذابه.

33. بيْد أنَّ مَن عليهم التعرض لأحداثٍ معاكسةٍ ولجراح القدَر في أعماقهم وصلابة وجودهم، والذين يكون عليهم قياسها وتقديرها تبعًا لحدَّتها، أولئك عليهم استخدام حذقهم في تجنُّب عواقبها، وتجنُّب السُّبلِ التي تقود إليها. ما الذي فعل مثلًا الملك كوتيس؟ لقد أدى ثمن الأواني الفاخرة والجميلة التي أُهديت له وزاد على ثمنها، لكن بما أنها كانت بالغة الهشاشة قام بكسْرها للتوِّ بنفسه؛ كي لا يبقى له سببٌ ليغضب على ذلك من خَدمه. بالشكل نفسه سعيت دومًا إلى عدم الخلط بين شؤوني وشؤون الآخرين، فأنا لم أرغب أبدًا في أن تكون خيراتي وممتلكاتي مجاورة لأقربائي، أو لأولئك الذين أرتبط بهم بعلاقة صداقةٍ قويةٍ؛ ذلك أنها تكون دومًا مصدرًا للنزاع والشِّقاق. كنت أحب في الماضي ألعاب الحظ(من لعبة ورقٍ أو نرْدٍ)، غير أني ما لبثت أن ابتعدت عنها لسببٍ وحيدٍ هو أني حتى لو كنت أتظاهر بالهدوء حين أخسر فيها، لم أكن أستطيع بذلك إخماد الإحساس بالأسى في باطني. إن شخصًا شريفًا يحس في أغوار نفسه بالإفحام أو الإهانة، ولا يقبل بعذرٍ تافهٍ كجزاءٍ أو عزاءٍ، عليه أن يتفادى أن يترك المنازعات والمناوشات تسير في طريقها، أنا أنفر من الناس ذوي المزاج الكئيب والعدْواني كما لو كانوا مرضى بالطاعون، وإذا كان ثمة مواضيع لا أستطيع الحديث فيها بموضوعيةٍ ومن غير حماسٍ، فأنا أتركها إلا إذا كنت ملزمًا على ذلك بالواجب.

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, XXXIV.

«من الأفضل للمرء ألا يبدأ في الكلام على أن يقطع حديثه»[1].
والطريقة الأؤكد في التصرف هي أن يكون المرء مستعدًا قبل أن تكون الفرصة سانحةً.

34. أعرف أن ثمة حكماء اختاروا مسلكًا آخر، ولم يخشوْا التعلُّقَ بعدة مواضيع والالتزام بها بعمقٍ، هؤلاء الناس يمتحون ثقتهم في أنفسهم من قوتهم التي تحميهم من كافة الوقائع المعاكسة، مُعارضين الشرور بقوة شكيمتهم وجلَدهم:

«كما الصخرة التي تتقدم في البحر معرَّضةً لهياج الرياح والأمواج، تتصدَّى للتهديد ولعنف السماء والأرض معًا، وتبقى هي نفسها لا تنفلُّ عزيمتها»[2].

35. علينا ألا نهاجم المثال الذي يمنحنا إياه هؤلاء الناس، فلن نبلغ أبدًا مبلغهم، إنهم يصرُّون على التأمل بحزمٍ وتصميمٍ ومن غير خوفٍ على دمار بلدهم، هو الذي كان يسود عزيمتهم ويتحكَّم فيها، لكن ذلك يتطلب من نفوسنا العادية جهودًا أكبر من الوحشية، فكاتو الأوتيكي مثلًا ترك بسبب ذلك الحياة الأكثر شرفًا التي عرفها التاريخ، أما نحن المساكين فعلينا تحسُّب العاصفة من بعيدٍ، علينا الإحساس بها لا الخضوع لها، ومداورة الضربات التي لا يمكننا ردُّها. حين رأى زينون خرِمونيدِس الشاب الذي كان يعشقه يقترب منه ليجلس حِذَاءَه، وقف لتوِّه، وحين سأله كليانثس عن سبب ذلك، أجابه: «سمعت أن الأطباء يأمرون أساسًا بالراحة، ويحرِّمون إثارة كافَّة أنواع الأورام»[3].

36. ألمْ يقل سقراط: «لا تفتتنوا بجاذبية الجمال، صارعوها وقاوموها»، ويضيف: «تهرَّبوا منها، واجروا لتتواروا عن مرآها وعن ملاقاتها، مثل الهرب من سمٍّ قاتلٍ يصيب عن بُعدٍ»[4]. وتلميذه الشجاع كسينوفون،

---

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, LXXII.

(2) Virgile, **Énéide**, X, 693.

(3) Diogène Laërce, **Vies et doctrines des philosophes illustres**, VII, 17.

(4) Xénophon, **Mémorables**, I, 3.

وهو يتخيل الخصال الرائعة لكورش الكبير أو يحكيها -وفي رأيي يحكيها أكثر مما يتخيلها- يقدمه لنا وهو يخشى ألا يستطيع مقاومة فتنة الجمال الرَّبانيِّ لأسيرته الحسناء بانثيا*[1]، بحيث إنه عهَد بحراستها لشخصٍ أقل حريةً منه إزاءها. أما الروح القدس نفسه فقال: «ولا تدخلنا في تجربة»[2]. نحن لا ندعو في صلاتنا ألا يتعرض عقلنا للهجوم وللهزيمة على يد الفتنة، وإنما ألا تهاجم الفتنة أبدًا عقلنا. ونحن لا نطلب أن نوجد في وضعيةٍ لا يكون لنا فيها سوى أن نتحمل تقرُّبَ الخطيئة منا وإلحاحها وفتنتها لنا، بل إننا نبتهل لربِّنا أن يجعل ضميرنا هانئًا متخلصًا تمامًا من كل شرٍّ عظيمٍ.

37. ومن يدَّعي التغلب على مزاجه الانتقامي أو أي عيبٍ آخرَ مُضنٍ، يقول دومًا الحقيقة، لكن بالعلاقة مع الحال الراهنة للأمور، لا بالعلاقة مع ما كانت عليه في السابق. فهم يحدثوننا عن أخطائهم، مع أن أسبابها ناجمةٌ عنهم وهم من تركوا فتيلها مشتعلًا. عُدْ شيئًا ما إلى الوراء وأرجعْ تلك الأسباب إلى المبادئ التي ألهمتها، سوف تفاجئ الناس على غفلةٍ منهم. فهل يظنون أن خطأهم أقلُّ قيمةً لأنها أقدم؟ وأن ما يتْبع بدايةً ظالمةً يكون عادلًا؟

38. من يحب مثلي الخير لبلده، من غير أن يتحمس لذلك أكثر من اللازم، ومن غير أن يمرض أو يسقم لذلك، سيرى أن من المحزن لا من المخيف أن يراه مهدَّدًا بالخراب أو ببقاءٍ ليس بأقل كارثيةٍ من ذلك. يا للسفينة المسكينة التي تتجاذبها في كل الاتجاهات الرياح والأمواج وقيادة الربان!

39. من لا يظل فاغر الفاه منتظرًا لنعمة الأمراء، كما لو أنه ينتظر شيئًا لا يمكنه الاستغناء عنه، لا يحس بوطأة برودة ملامحهم واستقبالهم له ولا بتقلُّباتهم، ومَن لا يستبد به الأبناء والتشريفات، كما تستبد به قوةٌ يصير عبدًا لها، يعيش هانئًا حين يفقدها، ومَن يعمل خيرًا فقط لإرضاء نفسه، لا يُقْلقه أن يرى الناس يحكمون على ما يقوم به بعكس ما يستحق. إن ربع أوقية من الفضيلة والجَلَد تكفي لتكون أثقل في كفة

(1) * سيدة فارسية من طبقة النبلاء (توفت حوالي 545 ق.م) حظيت بتقدير للملك كورش الكبير بفضل ولائها وفضائلها.
(2) Matthieu, **La Bible**, VI, 13.

الميزان من كفة تلك المساوئ.

40. أحس نفسي على ما يُرام في هذه الطريقة في العمل، فأنا أعوِّضُ بشكلٍ أفضلَ عن أخطائي الأولى، وأحس أني بذلك قد أفلتُّ من العديد من الهموم والمصاعب، وفعلًا يكفيني النزْر اليسير من الجهد كي أوقف انفعالاتي من حركتها الأولى، وبذلك أترك مسألةً بدأت تثقل على صدْري أو قبل أن تستبدَّ بي؛ فمَن لا يستطيع وقف الانطلاق لا يمكنه أن يوقف السباق، ومن لا يقدر على إغلاق الباب أمام الأهواء والانفعالات، لا يمكنه أن يطردها حين تكون قد جاوزت العتبة، ومن لا يستطيع التغلب على البداية لا يمكنه التغلب على النهاية، ومن لم يقْدر على مقاومة الانكسار لا يمكنه مقاومة الانهيار.«**فالأهواء تهتاج حين يحيد المرء عن العقل، والضعف يكون متسامحًا مع نفسه، وهو يقود عن غير وعيٍ نحو أعالي البحر، فلا يجد مكانًا يرسو فيه**»[1]. أنا أحس في الوقت المناسب بهبَّةِ الريح التي تأتي لتداعبني وتهمس في أذني، معلنةً عن مَقدَم العاصفة:

> «**وهكذا حين ترتعش الرياح الضعيفة**
> **في الغابة التي تحضنها، وتعلن**
> **همساتُها اللاغطةُ لربان العاصفة الآتية**»[2].

41. كم مرةً ظلمتُ نفسي بغلظةٍ حتى لا أخاطر بتلقي ظلمٍ أعظم من ظلم القضاة، بعد وقتٍ طويلٍ من المضايقات والممارسات المنحطة، المنافية لطبعي أكثر من التعذيب والنار؟ «**من الأحسن لتفادي المحاكمات، أن يقوم المرء بأكثر مما يستطيع، وربما أكثر قليلًا، ومن المشرِّف له، بل من المفيد له أحيانًاأن يتنازل جزئيًّا عن حقوقه**»[3]. لو كنَّا حقًّا حكماء، لكان علينا حقًّا أن نتباهى ونفرح لما نفقد، كما رأيت ذلك يومًا وبشكلٍ ساذجٍ من ابن أحد البيوتات الكبرى، الذي أعلن لكل واحدٍ أن أمه خسرت المحاكمة، كما لو أن الأمر يتعلق بنوبة سعالٍ أو حمى أو أي شيءٍ نتمنى التخلص منه، وحتى حين كان

(1) Cicéron, **Tusculanes**, IV, 28.
(2) Virgile, **Énéide**, X, vv. 97-99.
(3) Cicéron, **De Officiis**, II, 18.

الأمر يتعلق بأفضالٍ أنعمت بها الصدفة عليَّ إزاء من لهم سلطةٌ تامةٌ على ذلك كالأقارب والأصدقاء، فأنا غالبًا ما تصرفت حسب ضميري كي أتفادى استعمالها للضَّررِ بالغير؛ وحتى لا أمنح لحقوقي أكثر من قيمتها الفعلية، وحتى أختم. لقد جاهدت يومًا بعد يومٍ -ولأقلْ ذلك من غير أن يكون فأل سوءٍ عليَّ- حتى أجدني اليوم بكرًا من أي محاكمةٍ، ومع ذلك فهي قد ناوشتني مراتٍ ومراتٍ، غير أني تفاديتها بعدم الاهتمام بها. وأنا أيضًا بكْرٌ من المنازعات، فقد قضيت حياةً طويلةً من غير إهانةٍ تستحق الذكر، سواءٌ تلقيتها أو كنت مصدرها، ومن غيرأن أسمع لا عبارات الذم ولا عبارات المدح. إنها لنعمةٌ نادرةٌ من السماء.

42. لفتننا وقلاقلنا الكبرى نتائج وعللٌ سخيفةٌ، ألمْ يتعرض دوقُنا الأخير لبورغونيا لكارثةٍ بسبب عربةٍ محملةٍ بجلود الخراف[1]، وطابع خاتم؟ ألمْ يكن السبب الأول والأساس لأكبر انهيارٍ عرفته الأرض، تلك «الآلة الكروية»[2]؟ فبومبيوس ويوليوس قيصر ليسا سوى فرْعيْن للسابقين وخلَفيْن لهم، ولقد شهدت في حياتي أكثر الرؤوس عظمةً في هذه المملكة تجتمع في احتفالٍ كبيرٍ وعلى حساب أموال الشعب؛ كي توقِّعَ معاهداتٍ واتفاقياتٍ كان القرار فيها يعود لما كان يُتداول في صالونات النساء النبيلات ولميول زوجةٍ من زوجاتهم. لقد أدرك الشعراء ذلك جيدًا، هم الذين أشعلوا الحرب في اليونان وآسيا وأراقوا الدماء من أجل تفاحةٍ! *[3]ابحثوا عن الأسباب التي تدفع ذلك الرجل إلى المخاطرة بشرفه وحياته حاملًا سيفه وخنجره، فلن يستطيع أن يخبركم من غير أن تحمر وجنتاه عن سبب تلك المنازلة الثنائية من كثرة تفاهتها.

43. في البداية يكفي القليل من التفكير، لكن ما إن تدخل في شأنٍ من الشؤون، حتى تجد نفسك مقيَّدًا. عليك الآن أن تتوفَّر على موارد هائلةٍ وأكبر من سابقتها وأصعب على التفعيل، أليس من الأسهل لك أن تُخرجَ نفسك من هذه العثْرة على أن تورط نفسك فيها؟ على المرء أن يفعل

(1) انهزم الملك شارل المتهور على يد السويسريين الذين هاجمهم عام 1476 بذريعة سرقة عربةٍ من جلود الخرفان.

(2) يعني مونتيني الخصومة بين ماريوس وسولا، فهذا الأخير كان قد نقش على خاتم الطريقة التي سلّم بها يوغوس يوغرطة، وهو ما لم يتحمله ماريوس لأن ذلك كان يذكّره بأن ذلك العمل لم يكن كليةً من صنيعه.

(3) * هي التفاحة التي أعطاها باريس لأفروديتي في الميثولوجيا اليونانية تقديرًا لجمالها، مثيرًا بذلك غيرة بالاس وهيرا، مما نجم عنه اندلاع حرب طروادة.

نقيض فعل القَصَبة التي تبرعم أولًا ساقًا طويلةً ومستقيمةً، ثم بعد أن تفتر همَّتُها وتفقد أنفاسها، تبدأ في إنتاج العقد المتواترة والكبيرة، كما لو كان ذلك استراحةً لها، والتي تبيَّنَ بالملموس أنها قد فقدت قوتها وثباتها الأول. نحن نوجه شؤوننا في بدايتها ونجعلها تحت رحمتنا. لكن في ما بعد، حين تأخذ طريقها، تصير هي التي توجهنا وتحملنا، ويكون علينا نحن أن نتَّبعَها.

44. بيْد أن معرفتي بهذه الأمور لم تُعفني من المصاعب، وهو ما لا يعني أني لم يكن عليَّ مرارًا أن ألجم أهوائي، فهي لا تنتظم دومًا تبعًا لما يفتِّقها، وبداياتها تكون أحيانًا قاسيةً وعنيفةً. يبقى مع ذلك أن المبادئ التي أفصحنا عنها آنفًا نافعةٌ ومفيدةٌ، إلا لأولئك الذين-مهما تصرفوا كما ينبغي لهم- لا يقبلون بأي ربحٍ إذا ما كان ذلك سيؤثِّر سلبًا على سمعتهم. فالحقيقة أن ما تفعل لا قيمة له إلا لك، لعلَّك تمتح منه بعض الرضا، لكن ليس أكثر من إحساسك بالتقدير لنفسك من أجل ذلك، بما أنك قد هيأت نفسك قبل أن تدخل حلبة الرقص وقبل أن يتبدَّى لك المشكل، وهذا أمرٌ ليس صحيحًا فقط في هذا الضرب من الشؤون، وإنما في كافة الواجبات الأخرى في الحياة؛ فالسبيل الذي يتوجَّبُ سلوكه على من لا يهتمون إلا بالتشريف، يختلف عن السبيل الذي يسلكه أولئك الذين يهتمون بالنظام والعقل.

45. وأنا أعرف منهم من يندفعون بتهورٍ وهياجٍ لكي يلطِّفوا من بَعْدُ من خطْوهم. يقول بلوتارخوس: إن من يحسون بالخجل والعار يتَّسمون بالرخاوة ويستجيبون بسهولةٍ لكل ما يُطلب منهم، غير أنهم يميلون في ما بعد أكثر إلى إخلاف الوعد وإلى التناقض في الكلام[1]. وبالشكل نفسه، من يدخل في خصامٍ طفيفٍ يكون خاضعًا للخروج منه بشكلٍ خفيفٍ، والصعوبة التي أحسها قبل أن أنطلق في خصومةٍ ما، تدفعني بالعكس إلى التشبث بها ما إن أبدأها ويسخن دمي، لكنها ليست طريقةً صائبةً في التصرف تلك التي تتمثل في القول: «بما أنك دخلت النزاع، واصلْ أو فلتمتْ!». كان بياس يقول: «**ابدأوا أموركم بشكلٍ معتدلٍ،**

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, XI.

وتابعوها بشكلٍ حماسيٍّ»[1]. فأن يتهرَّب المرء من قلة الحكمة؛ ليسقط في قلة الشجاعة، أمرٌ أسْوأ.

46. أغلب الاتفاقيات -التي تُعقد لإنهاء النزاعات اليوم- مخجلةٌ وكاذبةٌ، فنحن لا نسعى سوى إلى إنقاذ ماء الوجه، وفي ذلك الحين نخون نوايانا الحقَّة ونكذِّبها؛ إذْ إننا نعيد فقط تضميد الوقائع. نحن نعرف جيدًا كيف قدمناها، ومن كانوا حاضرين يعرفون أيضًا ومعهم أصدقاؤنا الذين أردناهم أن يحسوا بشجاعتنا. إننا نكذِّبُ ما نعتقد على حساب سمعة صراحتنا وشجاعتنا، ونسعى للجوء إلى الخداع والزيف كي نعثر على اتفاقٍ، ونحن نكذِّبُ أنفسنا كي نتدارك التكذيب الذي ألقيناه على شخصٍ آخرَ. لكن عليك ألا ترى إنْ كانت كلمتك أو عملك يمكن أن يكون لهما تأويلٌ آخر، بل إن تأويلك الحق والصادق هو ما يلزم عليك الحفاظ عليه مهما كان ثمن ذلك، فالأمر يتعلق بفضيلتك وضميرك؛ إذْ تلك ليست بالأمور التي يلزم وضع قناعٍ عليها. لنتركْ تلك الذرائع لمواربات قصر العدالة، والأعذار ورأب الصدْع التي أرى كل يومٍ لتصحيح التجاوزات، تبدو لي أقبح من تلك التجاوزات نفسها؛ فمن الأفضل إهانة الخصم مرةً أخرى على إهانة النفس بالقيام بذلك التصحيح المشرِّف. أنت تحديتَه في سوْرة غضبٍ، وأنت الذي سوف يقوم بالتهدئة وبالتملق له ببرودة أعصابٍ، وأنت في كامل قواك العقلية؟ فأنت تذعن له إذن أكثر مما ثارت ثائرتك عليه، وأنا لا أعتبر شيئًا مدعاةً للَّوم في كل ما يتفوَّه به رجلٌ نبيلٌ أكثر من أن يقوم بتكذيب نفسه، وهو ما يكون عارًا عليه حين يُنتزع منه ذلك بالقوة، ذلك أني أعتبر العناد هنا أكثر مدعاةً للعذر من التهوُّر.

47. وإن تفادي الأهواء لَأسهل عليَّ من تلطيفها،«**فاقتلاعها من النفس أسهل بكثير من لجمها**»[2]. وعلى من لا يستطيع بلوغ هذا الجلدَ ورباطة الجأش الرواقية أن يلتجئ إلى حضن لامبالاتي العادية، فما كان الرواقيون يقومون به عن فضيلةٍ أتعوَّدُ على القيام به بمداورة مزاجي. فالعواصف تكمن في المناطق المتوسطة؛ والفلاسفة والفلاحون -مهما

(1) Diogène Laërce, **Vies et doctrines des philosophes illustres**, Bias, I, 87.

(2) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, CVIII, 16.

كانوا على طرفي نقيضٍ- يتفقون في ما يتعلق بالطمأنينة والسعادة.

«ما أسعد من استطاع معرفة علل الأشياء
وداس برجله على المخاوف والقَدَر غير الرحيم!
وكل تلك الضجة حول أخيرون الجشع.
ما أسعد من يعرف آلهة الحقول!»[1].

48. كل الأشياء تكون عند ولادتها ضعيفةً وهشةً، لكن علينا مراقبة البدايات، فإذا لم نقف على الخطر الذي يحتضنه شيءٌ حين يكون صغيرًا، لا يمكننا أن نعثر على الدواء حين يصير كبيرًا. لو كنت انصعت للطموح، لكنت قابلت يوميًّا آلاف العوائق التي يصعب عليَّ تقبلها، أكثر من صعوبة إيقاف الميل الطبيعي الذي يقودني لها.

«كنت على حقٍّ من الخوف من استجذاب الأنظار
وأنا أرفع هامتي عاليًا»[2].

منصب تسيير البلدية

49. كل الأعمال العامة خاضعةٌ لتأويلاتٍ متعددةٍ وغير موثوقٍ بها؛ لأن ثمة الكثير من الناس يمارسون فيها الأحكام، بعضهم يقولون عن وظيفتي في بلدية مدينة بوردو -وأنا سعيدٌ بأن أقول فيها كلمةً؛ لا لأنها تستحق ذلك، وإنما لتشهد على موقفي في تلك الظروف- إنني تصرفت فيها كرجلٍ بالغ الرخاوة وذي حماسٍ فاترٍ، وهم في ذلك لَأَقْرَبُ إلى الحقيقة، فأنا أسعى لأن أحافظ على نفسي وأفكاري في حال راحةٍ. «**دائمًا هادئٌ بطبعي، واليوم أكثر وأنا أتقدم في العمر**»[3]. وإذا انصاعت نفسي وأفكاري أحيانًا لتقبُّل انطباعٍ قاسٍ غالبًا ما يجرحني، فذلك يكون ضدًّا على مشيئتي، بيد أن فتور الهمة الفطري لا يشكل دليلًا على العجز -ذلك أن نقصان الاهتمام ونقصان الحكم شيئان مختلفان- بل هو ليس دليلًا على عدم العرفان بالجميل لهذا الشعب، الذي سعى لأن يكون

(1) Virgile, **Géorgiques**, II, 490.
(2) Horace, **Odes**, III, 16, vv. 18-19.
(3) Quintus-Cicéron, **De petitione consulatus**, chap. II, fin.

رائقًا معي بجميع الوسائل التي تتوفَّرُ لديه، قبل أن يعرفني وبعد ذلك، والذي حين كلفني من جديدٍ بتلك المسؤولية قد فعل من أجلي أكثر منْ منحي إياها في المرة الأولى، فأنا أرغب له في الخير العميم، ولو أتيحت لي الفرصة فأنا لن أترددَ في فعل كل شيءٍ من أجل خدمته. إنه شعبٌ من الناس الأخيار المحاربين وذوي الكرامة، القادرين أيضًا على الطاعة والاستقامة، وعلى أن يكونوا نافعين في أي مجالٍ إذا ما هم حظوْا بالإرشاد القويم. يُقال أيضًا إن مهامي في البلدية قد تمت من غير أن تترك أثرًا، وهذا لعَمْرِي أمرٌ حسنٌ، فهم يعيبون عليَّ خمولي في وقتٍ كان فيه كل الناس تقريبًا آثمين بالمبالغة في فعل الأشياء.

50. حين تكون رغبتي جامحةً، يصبح عملي محمومًا، غير أن هذا الغلوَّ عدوٌّ للمثابرة. لو أرادوا استخدامي-على طريقتي- عليهم أن يمنحوني الشؤون التي تتطلب القوة والحرية، وإذا ما كانت تلك الشؤون قابلةً للحل بشكلٍ مباشرٍ وسريعٍ، حتى لو اتسمت ببعض المخاطر، فأنا لها. لكن إذا تعلق الأمر بمشاريع ذات أمدٍ طويلٍ ودقيقةٍ وعويصةٍ ومتعرجةٍ، فمن الأفضل اختيار شخصٍ آخرَ.

51. المسؤوليات المهمّة ليست كلها صعبةً، لقد كنت مستعدًا للانخراط بشكلٍ أكبر وأكمل في المسؤولية التي أُنيطت بي، لو كانت هناك حاجة إلى ذلك. فأنا قادرٌ على العمل أكثر مما أحب العمل،وحسب علمي لم أهمل القيام بأي مجهودٍ تطلَّبَهُ مني الواجب، غير أني نسيت بسهولةٍ المجهودات التي يمزجها الطموح بالواجب ويغلفها باسمه، وتلك المجهودات هي التي تملأ في الغالب أسماع الناس وعيونهم وترضيهم، فما يعجبهم ليس الشيء وإنما مظهره هو ما يعجبهم. فإذا لم يسمعوا هرجًا فإنهم يعتقدون أننا ننام. وأنا قادرٌ على إنهاء اضطرابٍ ما من غير أن أصاب بالاضطراب والقلق، وأن أضع حدًا للفوضى من غير أن يتعكَّر مزاجي، ولو كنت بحاجةٍ للغضب أو الانفعال، فأنا أستعيرهما وأضع قناعهما عليَّ، ذلك أن تصرفاتي المعتادة رخوةٌ ولطيفةٌ وليست بالأحرى قاسيةً وفظَّةً. أنا لا أُدين قاضي القضاة لأنه ينام، أتمنى فقط أن يكون من هم تحت إمرته يغطُّون في النوم معه في الآن نفسه، مثلهم

مثل القوانين. ومن جهتي، أحب الحياة التي تجري مجراها في هدوءٍ من غير لمعانٍ أو ضجيجٍ، «**بعيدة عن الحقارة كما عن السطحية والكبرياء**»[1]. فقدَري يريد أن تكون الأمور هكذا،لقد ولدت ونشأت في عائلةٍ عاشت من غير بريقٍ ولا ضجيجٍ، ومنذورةٍ للصدق حسب ما أتذكَّر.

.52 الناس متعودون اليوم بشكلٍ كبيرٍ على الحركة وعلى المظاهر أكثر من الطيبة والاعتدال، وكافة الصفات الهادئة لم يعد لها مكانةٌ لديهم. إنهم يحسون بالأجسام الخشنة، بيد أنهم يستعملون الأجسام الصقيلة من غير أن يدركوا ذلك، وهم يحسون بالمرض لا بالصحة أو قليلًا فقط، وبالأشياء التي تفتتنا ليس أكثر من الأشياء التي تتوعَّدُنا بجانبها،إنه لعملٌ من أجل الفائدة والسمعة الشخصية، لا من أجل الخير أن يؤجل المرء ما يمكن فعله أمام الملأ في غرفة مجلس المدينة إلى أجلٍ غير مسمًى، والقيام نهارًا بما يمكن فعله في الأمس، وأن يقوم المرء بنفسه بما يمكن أن يقوم به شخصٌ آخر بشكلٍ جيدٍ أيضًا. ففي بلاد اليونان القديمة، كان بعض الأطباء الجرَّاحين يقومون بعملياتهم الجراحية على منصَّةٍ على مرأًى من كل الناس؛ كي يستجذبوا الزبائن؛ وكانوا يعتقدون أن القوانين الجيدة لا يمكن إصدارها إلا مع أصوات المزامير والطبول.

الطموح وسخافاته

.53 الطموح ليس رذيلةً للعامة ولا للأعمال الصغيرة كما أعمالنا نحن. كان يُقال للإسكندر الأكبر: «سيترك لك أبوك مناطق شاسعةً سهلًا حكمُها ومسالمةً»، بيد أن ذلك الولد كان يغبط أباه على انتصاراته وعلة عدالة حكمه، فهو لم يكن يرغب في أن يتمتع بهدوءٍ وطمأنينةٍ بإمبراطورية العالم. يقدم لنا أفلاطون شخصية ألكيبياديس، الذي كان يفضل الموت وهو شابٌ وجميلٌ وغنيٌ ونبيلٌ وعالمٌ بشكلٍ كبيرٍ، على أن يستفيد فقط من وضعيته تلك.

(1) Cicéron, **De Officiis,** I, 34.

54. الطموح مرضٌ قد يكون قابلًا للعذر إذا توطَّنَ في نفسٍ قويةٍ ومكتملةٍ، أما ذوو النفوس الوضيعة والقزمة والمتشابكة، فهم يقومون بحماقاتهم البهلوانية ويعتقدون أنهم يمنحون الأهمية لاسمهم؛ لأنهم أصدروا حكمًا عادلًا في قضيةٍ، أو لأنهم نظموا جيدًا دورات حراسة أبواب المدينة. وهم في ذلك يعتقدون أنهم يُبينون عن علوّ همتهم فيما هم يُبدون عن عجزهم. هذه الأشياء الصغيرة، حتى ولو تمَّ القيام بها بشكلٍ جيدٍ، ليس لها من انسجامٍ ولا من حياةٍ حقَّةٍ، فهي تتبدَّدُ ما إن يتم الحديث عنها ولا يتمُّ تداولها إلا من زقاقٍ لآخرَ. يمكنك أن تتحدث عن ذلك لابنك أو خادمك مثل ذلك الرجل في القديم، الذي حين لم يجدْ له سامعًا آخر كي يُكيل لنفسه المديح غير خادمته، وشخصًا آخر شاعرًا بقيمته غيرها، بدأ يتباهى أمام غرفتها: «يا بّيريتا، كم هو رجلٌ عالمٌ ومتأدبٌ هذا الذي هو سيدك!». عليك في أسوأ الأحوال أن تتحدث في هذا مع نفسك، كما كان يقوم بذلك مستشارٌ في البرلمان من معارفي، الذي بعْد أن تلفَّظَ بحمولةٍ من الفقرات في مجلس المستشارين وبجهدٍ جهيدٍ، راح بالسخافة نفسها للمرحاض حيث سمعه أحدهم يهمهم بشكل واعٍ: « لَيْسَ لَنَا يَا رَبُّ لَيْسَ لَنَا، لكِنْ لاسْمِكَ أَعْطِ مَجْدًا»[1]. فمن لم يستطعْ أن يؤدي من مال غيره، فليؤدِّ من ماله الخاص.

55. السمعة لا تُتداول بثمنٍ وضيعٍ كهذا؛ فالأعمال النادرة والمثالية التي ترتهن بها لا تتحمل رفقة تلك الجمهرة من الأعمال اليومية الصغيرة. ستُنقَش ألقابُكم على المرمر مهما طاب لكم؛ لأنكم رمَّمتم سورًا أو نظفتم ساقيةً عموميةً، بيْد أن الرجال الذين يملكون أفهامًا لن يقوموا بذلك؛ فالسمعة لا تتَّبعُ بالضرورة الأعمال الخيِّرةَ، إذا لم ترتبط بها الصعوبة والغرابة، وحسب الرواقيين، لا يرتهن التقدير مهما كان بسيطًا بأي عملٍ لا فضيلة له، فهم لا يمنحون اعتبارًا لمن يمتنع عن مُجامعة امرأةٍ ذات عيونٍ دامعةٍ بسبب اعْتداله، وكل من عرف الخصال الحميدة لسكيبيو الإفريقي، سينكرون عليه المجد الذي يسبغه عليه باناتيوس لأنه رفض العطايا التي كانت تُمنح له، معتبرًا أن ذلك المجد لا يعود إليه فقط، وإنما إلى عصره كله[2].

(1)La Bible, **Psaumes**, 15, 1.

(2) Cicéron, **De Officiis**, II, 22.

56. وإنَّنا نتمتع بالملذات الملائمة لقدَرنا، وليس علينا أن نغتصب ملذات العظمة؛ فملذاتنا أكثر طبيعةً ومن المتانة والوثوق لأنها متواضعةٌ؛ ولأننا لا نرفض الطموح نظرًا لوخْز الضمير، فلنرفضْه على الأقل بدافعٍ من الطموح. علينا أن نشمئز من ذلك التعطُّشِ للشهرة والتشريفات؛ لأنه تعطُّشٌ وضيعٌ ومتسوِّلٌ، يجعلنا نطلب الشهرة لدى مختلف أنواع الناس بطرائق حقيرةٍ وبأبْخس الأثمان.«**يا له من مجدٍ نستطيع أن نجده يُباع في السوق!**»[1]،وإنه لمن العار أن يُشرَّفَ المرء بتلك الطريقة. لنتعلَّمْ ألا نكون أكثر طمعًا لمجْدٍ نحن غير قادرين على استحقاقه. إن التباهي بعملٍ نافعٍ لكنه نافلٌ لَخليقٌ بالناس الذين يكون لديهم ذلك العمل شيئًا خارقًا ونادرًا، فهم يريدون السُّموَّ به لمستوى الثمن الذي يكلِّفهم ذلك، فكلما كان عملٌ ما باهرًا، كلما أَقَلَّ من ثمنه لأني أتساءل إذا لم يكن قد تمَّ فعله لكي يكون باهرًا لا ليكون خيِّرًا. وإذا ما عُرض ذلك العمل للبيع، وإذا ما حاز على مُقتنٍ، فلن يتجاوز ثمنه النصف. الأعمال التي تنفلت من بين أيدي صاحبها ببساطةٍ ومن غير ضجَّةٍ لها قيمةٌ أكبر، فإذا ما لاحظها رجلٌ شريفٌ في ما بعد، وأخرجها من الظلِّ كي يسلِّطَ عليها الأضواء؛ فذلك للقيمة الخاصة لتلك الأعمال «**أنا أعتبر أكثر مدْعاةً للثناء ما لا يتمُّ بالمباهاة والتفاخر وبعيدًا عن أعين الجمهور**»[2].

57. كان يكفيني في وظيفتي كعمدةٍ أن أحافظ على الأشياء على حالها؛ فذلك لا يثير الضجة ولا ينتبه إليه أحدٌ. أما التجديد، فلا يفتقر للَّمعان، غير أنه أمرٌ مستحيلٌ في هذا الوقت الذي يتمُّ فيه إنكار التجديد والذي علينا فيه أن نحرم أنفسنا من الأمور الجديدة. إن الامتناع عن القيام بأي شيءٍ يكون عادةً مُضاهيًا لكرم الموقف المتمثِّل في الفعل، غير أنه أقل عيانيةً. والقيمة البسيطة التي أملك هي تمامًا من هذا النوع. وبالجملة، يمكنني القول إن الظروف في تلك المسؤولية التي تحملت، قد اتبعت مزاج شخصيتي، وهو ما أنا ممتنٌّ به لها، فهل هناك أحدٌ يرغب في أن يكون مريضًا كي يرى طبيبه وهو في لُجَّةِ عمله؟ وأليس علينا أن نجلد الطبيب الذي يرغب في أن نُصاب بالطاعون كي يقوم بممارسة عمله؟

(1) Cicéron, **De finibus**, II, 15.

(2) Cicéron, **Tusculanes**, II, 26.

وأنا لم يكن لي ذلك الموقف الشرّيرُ المتداوَلُ والمتمثِّلُ في الرغبة في أن تعرف أحوال المدينة الاضطرابات والمصاعب التي تأتي لتسمو بحكومتي وتشرّفَها. فأنا على العكس من ذلك عملت ما في جهدي على أن يتمَّ كل شيءٍ في هدوءٍ ويُسْرٍ.

58. ومَن ليس ممتنًا لي بالنظام وبالهدوء اللطيف والصامت الذي صاحب تسييري للشؤون العامة، لا يمكنه على الأقل أن يحرمني من حصَّتي في ذلك بفعل أني كنت محظوظًا في تلك المدَّة. فأنا تكويني هكذا؛ إذ إني أحب أن أكون محظوظًا مقدار حبي لأن أكون حكيمًا، وأنْ أَدين بكافة نجاحاتي كليةً للعناية الإلهية كما لأعمالي. لقد أوضحتُ بما يكفي لكافة الناس حذقي البسيط في التعامل مع الشؤون العمومية، لكن الأمر أسوأ من ذلك، فانعدام حذقي لا يُضيرني أبدًا، ولا أسعى للشفاء منه بالنظر إلى طريقة الحياة التي سننْتُها لنفسي، فأنا في ما قمت به لم أنلْ أيضًا رضًا عميقًا، بيْد أني بلغتُ شيئًا فشيئًا ما وعدت بعَمله، وقمت بأكثر مما وعدت بالقيام به لمن كنت على علاقةٍ بهم. فأنا عادةً أعِد الغير بما هو أقلُّ مما أستطيع فعله وما أتوق للقيام به، وأنا متيقِّنٌ أني لم أترك ورائي أي مهانةٍ أو كراهيةٍ،أما أن يكون الناس غير راضين ونادمين عليَّ، فأنا أعرف على الأقل أن ذلك ما لم أسْعَ إليه أبدًا.

«أن أثق أنا في هذا الوحش؟
تريدني إذن أن أنسى ما يتوارى
خلف الوجه الوديع والموج الهادئ للبحر؟»[1].

(1) Virgile, **Énéide**, V, vv. 849-851.

الفصل الحادي عشر

عن العُرْجان

التقْويم الغريغوري

1. مضت سنتان أو ثلاث سنواتٍ على تقليص السنة في فرنسا بعشرة أيامٍ، فكم من التغيرات ستتبع هذا الإصلاح؟ كان ذلك بمثابة انقلابٍ عمَّ السماء والأرض، ومع ذلك لا شيء تغيَّرَ، فجيراني يجدون الوقت الذي فيه يزرعون أرضهم، ويقومون بحصاد محاصيلهم، والوقت الملائم للقيام بشؤونهم، وأيام السّعود والنّحوس، وذلك في المكان الذي وضعوا فيه من زمانٍ تلك الأشياء والأمور، فالخطأ لم يمسّ بشيءٍ طرائق عملنا، وتصحيحها لم يغير شيئًا من ذلك. فثمة الكثير من انعدام اليقين في كل شيءٍ، كلما كان إدراكنا للأشياء فظًّا وغامضًا وبليدًا. يزعمون أن التصحيح كان يمكن أن يتمَّ بطريقةٍ أقل فظاظةً، بأن يتمَّ نقص اليوم الإضافي من السنوات الكبيسية خلال سنواتٍ -كما قام بذلك أغسطس- وهو كان في كل الأحوال يوم إزعاجٍ واضطرابٍ. حتى يتوصَّلَ الناس إلى سدِّ الفرق، وليس الأمر مع هذا التصحيح؛ لأننا ننقص من السنة عدة أيام. كان عليهم -بالأحرى وفي الآن نفسه- أن يستشرفوا المستقبل، بتوقُّعِ أن يتمَّ حذْفُ هذا اليوم العجيب بعد عدة سنوات، بحيث إن حسابنا لا يتعدى أبدًا أربعًا وعشرين ساعةً.

2. نحن ليس لنا طريقةٌ أخرى لحساب الزمن غير حساب السنوات، فالناس يقومون بذلك هكذا منذ زمنٍ طويلٍ، وهي مع ذلك طريقةٌ لم نثْبِتْها بعد بصورةٍ نهائيةٍ، بحيث إننا في كل يومٍ نتساءل كيف تقوم بذلك الشعوب الأخرى، وما هو الشكل الذي منحتْه لها، وما القول في ما يحكي البعض عن أن السماوات تضيق باتجاهنا وهي تشيخ، وترمي بنا في الحيرة وعدم اليقين في ما يخص حساب الساعات والأيام؟ بل حتى في ما يخصُّ الشهور، لو وثقنا بما جاء به بلوتارخوس، الذي يزعم إن علم الفلك في عصره لم يكن بعدُ قادرًا على تحديد حركة القمر، وها نحن هانئون، وها نحن صرنا هنا نتكفل بسجل شؤون الماضي!

3. كنت أفكر حالمًا -كما هي عادتي- في كون العقل الإنساني هو أداةٌ حرةٌ وفضفاضةٌ بشكلٍ كبيرٍ، وأنا أرى أن الناس عادةً ما يفضِّلون البحث

عن عِللِ الوقائع التي تعرض عليهم، عوض البحث عن حقيقتها، فهم يهملون المضمرات ويحلِّلون النتائج بعنايةٍ، وهم يُعرضون عن الوقائع ويسرعون إلى البحث عن عللها. يا لهم من باحثين ممتعين عن العِلل! إن معرفة هذه الأخيرة لا تعني غير من لهم مهمة تسيير الأمور، لا نحن الذين نكتفي بالخضوع لها، والذين نستعملها استعمالًا تامًّا تبعًا لحاجياتنا من غير أن نستكْنه أصلها ولا جوهرها. لا يكون الخمر ممتعًا ورائقًا أكثر لمن يعرف خصائصه الأولية، فالعكس أصح. إن تحديد الأشياء وخصائصها هي أمورٌ تعود للقيادة والتحكُّم، كما أن قَبولها يعود للتعلُّمِ والخضوع. لكن لنرجعْ إلى عوائدنا.

4. عادةً ما يكون البدء كالتالي: «كيف يمكن لذلك أن يكون؟». لكن علينا القول: «هل ذلك كائنٌ؟». عقلنا قادرٌ على نسج عشرات العوالم الأخرى، وأن يعثر فيها على المبادئ والتنظيم، فهي ليست بحاجةٍ للمادة ولا للسَّند. اتركوه على سجيَّتِه، فهو يبني الأشياء على الفراغ كما على الصلب، وبالعدم كما بالمادة.

«فهو قادرٌ على منح الثِّقل للدخان»[1].

دفاعًا عن العقل النقدي

5. أنا في كل الحالات تقريبًا أعثر على ما يجب قوله، لكن الأمر ليس كذلك، وقد أستعمل هذا الجواب عن طيب خاطرٍ غير أني لا أجرؤ على ذلك؛ لأن الناس سيتصارخون إن الأمر حيلةً تعود إلى ضعفٍ عقليٍّ وإلى جهلي. عليَّ عمومًا الثرثرة اهتمامًا بالرفقة الطيِّبةِ، وتناول موضوعاتٍ وحكْي قصصٍ خفيفةٍ لا أعتقد فيها إطلاقًا، وعليَّ القول أيضًا إن من الفظاظة والفجاجة إنكار واقعةٍ تَعْرض عليك بشكلٍ تامٍّ، وفي أغلب الأوقات لا يتورَّعُ الناس عن توكيد أنهم عاينوا الأمر، خاصةً إذا كان ذلك يخص أمورًا يصعب إدخالها لأذهان الغير، أو أنهم يسردون شهودًا تُفْحم سلطتهم تناقضنا؛ لهذا الأمر نحن نعرف أسس وأشكال مئات

(1) Perse, **Satires**, V, v. 20.

الأمور التي لم توجد أبدًا، وكل الناس يتنازعون على مئات المواضيع، يكون مَفادها ونقيضها معًا غير صحيحيْن. «**الخاطئ قريبٌ جدًا من الحقيقي، بحيث إن الحكيم عليه أن يتفادى أن يزج بنفسه في تربةٍ محفوفةٍ بالمخاطر**»[1].

6. الحقيقة والكذب لهما الوجه نفسه، واللباس ذاته، والذوق نفسه، والهيئة ذاتها، فنحن ننظر لهما بالنظرة نفسها، وأنا أعتبر أننا لا نُظهر الجبن فقط إزاء الخداع، وإنما نسعى إلى أن ننصاع للانغلاق فيها، وأننا ندفع الناس إلى القيام بذلك، فنحن نحب الانخراط في التشْويش في كل ما هو غير مجدٍ؛ لأن ذلك شيءٌ ملائمٌ لكياننا الشخصيِّ.

7. لقد سنحت لي الفرصة في حياتي أن أشهد ولادة العديد من الحكايات العجيبة، فمع أنها حكاياتٌ ماتت منذ ولادتها، فلا يمكننا أن نمنع أنفسنا من تخيُّلِ كيف ستكون لو أنها بقيت على قيْد الحياة، يكفي أن نمسك بطرف خيطها حتى يمكننا أن نفنِّدها على هوانا؛ والمسافة الفاصلة بين اللاشيء وأصغر شيءٍ في العالم، أكبر من تلك التي تفصل بين هذه الأخيرة وأكبر شيءٍ فيه. والأوائل من بين من يتمتَّعون ببداية تلك الأشياء العجيبة يسارعون إلى نشر قصتها، وحين يحسون -من خلال المقاومة التي يُبديها الغير- بالمكان الذي توجد به الأمور الصعبة التي عليهم الإقناع بها، يسدُّون جيدًا ذلك المكان بعناصر مزيَّفةٍ، علاوةً على ذلك، «**وبسبب النزوع الفطري لدى الإنسان إلى خلق الإشاعات**»[2]، فإننا نحسُّ بوخْز الضمير ألا نأخذ ديْنًا من غير ربًا ومن غير أن نضيف له من عندنا. الخطأ الفردي يولِّدُ الخطأ العمومي، وهذا الأخير بدوره يولِّدُ الخطأ الفردي، وهكذا فإن هذا البناء يتطور وهو يتزايد ويتعزَّز من يدٍ إلى يدٍ، بحيث إن الشاهد الأبعد يكون أعلم من الجار، وآخرُ منْ يعلم يكون أكثر اقتناعًا بالإشاعة من الأول، إنه لتطوُّرٌ طبيعيٌّ، ذلك أن أي واحدٍ يصدِّقُ شيئًا يعتقد أن من باب الإحسان أن يُقنع به شخصًا آخر؛ ولهذا الغرض لا يخشى أن يضيف إليه شيئًا من ابتداعه يعتبره ضروريًا؛ كي تتغلب حكايته على المقاومة التي يجدها لدى الآخر، ويسدُّ النقص الذي يلاحظه لديه.

(1) Cicéron, **Académiques**, II, 21.

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXVIII, 24.

8. وأنا الذي يحس كثيرًا بوخز الضمير من الكذب، والذي لا يهتم أبدًا بمنح صدقيةٍ وسلطةٍ لما يقول، ألاحظ مع ذلك أني في المسائل التي عليَّ تناوُلها، وحين أسخن بفعل مقاومةٍ يُبديها ضدي أحدهم أو بحرارة روايتي نفسها، أضخِّم من موضوعي وأفخِّمه بالصوت والحركة وقوة الكلمات أكثر من توسيعه وتمديده، وهو ما لا يخلو من مضارٍّ للحقيقة البسيطة، بيْد أنني أتعامل مع ذلك بطريقةٍ تمكنني من أن أتخلى فجأةً عن موضوعي وحماسي، حين يهدئني أحدهم ويطالبني بالحقيقة عاريةً، وأقدمها له من غير مبالغةٍ ولا تفخيمٍ وزيادةٍ؛ فالطريقة الحية والصاخبة في الكلام التي أنتهج يغمرها الحماس بسهولةٍ حتى الغلوِّ.

9. ليس هناك ما يميل له بنو البشر أكثر من أن يقْنعوا بآرائهم، فحين لا تكفينا الوسائل العادية، نضيف لذلك التحكُّمَ والقوة والحديد والنار، ومن المؤسف أن يبلغ بنا الأمر هذا المبلغ في أن يكون أفضل محكٍّ للحقيقة هو تعدُّدُ المؤمنين بها، حين يفوق عدد الحمقى من بين الجمهور عدد الحكماء. **«كما لو أن ما يكون منتشرًا أكثر هو غياب الحكم العقلي»**[1]. **«أي سلطةٍ يمكن أن تستخلصها الحكمة من جمعٍ غفيرٍ من الحمقى؟»**[2]. وإنه من الأصعب أن يحافظ المرء على حكْمه ضد آراء العامة، فالقناعة الأولى التي تتعلق بالموضوع نفسه تستبد في الأول بالناس البسطاء، وانطلاقًا من ذلك تشيع بين أولئك الذين يملكون بعض العلم والحِلم، تبعًا للسلطة التي اكتسبتها تلك القناعة بعدد الشهادات وقِدمِها. أما أنا فحين لا أصدق منها واحدةً، فإني لا أصدق منها مئة شهادةٍ، ولا أحكم أيضًا على الآراء بأقدميتها.

10. منذ زمنٍ قصيرٍ، انصاع أحد أمرائنا - الذي كان داء النِّقْرس قد نال من هيئته ومزاجه المرح - إلى الاقتناع بحكايةٍ أشيعت عن الكرامات العجيبة لأحد الرهبان، الذي كان بواسطة الكلام والحركات يشفي من كافة الأمراض، بحيث إنه أقدَم على القيام برحلةٍ طويلةٍ لزيارته، فقد استطاعت قوة خياله أن تقنع جيدًا رجليه بحيث تخدَّرتا لساعاتٍ واستطاع استعمالهما، وهو ما لم تعدْ تعرف القيام به منذ زمنٍ طويلٍ،

(1) Cicéron, **De Divinatione**, II, 39.

(2) SaintAugustin, **La Cité de Dieu**, VI, 10.

ولو كانت الصدفة مكّنت خمس قضايا أو ستّ من قبيل هذه من التراكم، لجعلوا من هذه الكرامة واقعًا. ولقد وجد الناس في ما بعد لدى الراهب، مهندس هذه الأعمال، الكثير من السذاجة، والقليل من المهارة، بحيث ارتأوا أنه ليس خليقًا حتى بالعقاب، وهو ما يمكن فعله في أغلب الحالات من هذا النوع، إذا ما نُظر إليها من كثبٍ وفي عين المكان. «**نحن نندهش من الأشياء التي نرى عن بعدٍ**»[1]. هكذا يقدم لنا بصرنا غالبًا صورًا عجيبةً تتبدَّد حين نقترب منها: «**فالحقيقة لا تكفي أبدًا للسمعة**»[2].

11. ومن المدهش أن نرى كيف أن قناعاتٍ قويةٍ قد كانت لها بداياتٌ عاديةٌ جدًا، وتولَّدت عن قضايا تافهةٍ، وهو ما يمنع من التحرّي بصددها، ذلك أننا ونحن نبحث عن أسبابها وغاياتها القوية والمهمة والخليقة باسمٍ عظيمٍ، نُضيع العلل والغايات الحقة، فهي تنفلت من منظورنا بسبب صغرها، ومن الضروريّ حقًّا الاستعانة بمحقِّقٍ كُفْءٍ ونبيهٍ ودقيقٍ في مثل هذه الأمور من البحث والتقصيّ. وعليه أن يكون غير متحيّزٍ ومن غير أفكارٍ مسبقةٍ. وإلى اليوم، لم يحدث لي أبدًا أن شهدتُ هذه الكرامات والحوادث العجيبة، فأنا لم أشهد في العالم شيئًا أكثر روعةً ولا عجبًا مني؛ إذ نحن نعتاد على أي عجَبٍ مع الزمن وبحكم العادة، لكني كلما تفحَّصتُ نفسي وعرفتها، كلما أدهشني شذوذي وصدَمني، وكلما فهمت نفسي أقلّ.

حكايةُ كرامةٍ

12. يعود الحق في إثارة هذه الحوادث من هذا النوع وإشاعتها في الأول إلى الصدفة، فبينما كنت أمر أول أمس بقريةٍ تبعد فرسخيْن عني، عثرت على مكانٍ لا يزال ساخنًا بذكرى كرامةٍ تمَّ الكشف عن حقيقتها، لكن القرى المجاورة بكاملها تداولتها لعدة شهورٍ، فيما بدأت المحافظات المحيطة به تتقد تأثرًا بها، والناس من كل حدْبٍ وصوْبٍ ومن كل الفئات

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, CXVIII.

(2) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**, IX, 2.

تهرع فرادى وجماعات لشهودها، فقد تسلّى شابٌ من القرية في ليلةٍ من الليالي بتقليد صوت شبحٍ، من غير هدفٍ له غير القيام بدُعابةٍ، بيْد أن تلك الدعابة نجحت أكثر مما تمناه لها؛ ولكي يعززها أشرك معه فتاةً من القرية بالغة السذاجة والبلاهة، وفي النهاية صاروا ثلاثةً من العمر نفسه متواطئين في المزحة. وبعد أن قاموا بالمواعظ المنزلية، ها هم يقومون بالمواعظ العمومية، مختبئين تحت مذبح الكنيسة، لا يتكلمون إلا ليلًا محرِّمين إشعال الأضواء بها، أما العبارات التي كانوا يتلفظون بها فكانت تهدف إلى تعميم الدين المسيحي على باقي العالم، والتهديد بيوم القيامة، ذلك أن موضوعاتٍ من قبيل هذه يتوارى تحت سلطتها الدَّجل بسهولةٍ، بل إنهم بلغ بهم المبلغ أن يتظاهروا ببعض الرؤى والأفعال البلهاء والسخيفة التي لا تكاد تُجاوز فظاظة ألعاب الصبيان، لكن لو أن الصدفة منحتهم من أفضالها من يدري أين يسيرون بتلك المزح؟ وهؤلاء الشياطين المساكين يوجدون اليوم في السجن، وسوف يتلقون عقاب الغباء العام، بيْد أني أتساءل إن لم ينتقم منهم قاضٍ عن غبائه هو نفسه، ونحن قد استوضحنا أمر هذه القضية لأنها كُشفت للملأ، بيْد أننا-في الكثير من القضايا من النوع نفسه التي خضعنا فيها للخداع- علينا تعليق حكمنا فلا نرفضها ولا نقبل بها.

13. ثمة الكثير من الأخطاء التي تُقترف في العالم، وبعبارةٍ أكثر جرأةً، كل أخطاء الدنيا ناجمةٌ عن كونهم يعلموننا أن نعترف بجهلنا، وأننا مضطرون لقَبول كل ما لا نستطيع تفنيده، فنحن نتحدث عن كل شيءٍ بألفاظٍ قاطعةٍ وحاسمةٍ. كان الأسلوب المعتاد في روما القديمة يفرض على كل شاهدِ عِيانٍ -كما على كل حكمٍ يصدره القاضي بعلمه الواثق- أن يتحدث بهذه الصيغة: «يبدو لي». وإني أمقت الأمور المحتملة حين يتم تقديمها لي على أنها سديدةٌ ومؤكدةٌ، وأنا أحب هذه العبارات التي تخفف من تهور تصريحاتنا وتجعلها معتدلةً: «ربما، بشكلٍ من الأشكال، زعموا أن، أعتقد..» وغيرها من العبارات المشابهة لها. ولو كان لي أن أربّيَ أطفالًا، كنت علمتهم هذه الصيغة في الجواب بالسؤال لا بالتقرير: «ما القول في ذلك؟ أنا لم أفهم هذا. لعل الأمر... هل من الصحيح؟» بحيث سيظلون حتى عمر الستين كمتعلمين، على أن يعتبروا أنفسهم

علماء كما دَرَجوا على ذلك. من يرغب في الشفاء من جهله عليه أن يبدأ بالاعتراف به، فإيريس كانت ابنة ثاوماس[1]، والدهشة أساس كل فلسفةٍ، والبحث أساس تطورها والجهل نهايتها، بيد أن هناك حقًّا جهلًا قويًّا وذا كرامةٍ، لا يقل في الشرف والشجاعة عن المعرفة، بحيث ينبغي الكثير من العلم لبلورته كما لبناء المعرفة.

14. وقفت في صباي على تقريرٍ نشره كورّاس، المستشار في برلمان مدينة تولوز، عن حدثٍ غريبٍ، فقد كان ثمة رجلٌ[2] ينتحل هوية رجلٍ آخر. ويبدو لي -حسب ما أتذكر، وقد نسيت الباقي- أن كورّاس جعل من الدَّجلِ وانتحال صفة الرجل المذنب شيئًا رائعًا يجاوز معارفنا ومعارفه، هو الذي كان قاضيًا في القضية، بحيث إني أعتبره جسورًا في إصدار حكمٍ عليه بالشنق، لنقبلْ جدَلًا بحكم محكمةٍ يقول: «المحكمة لم تفقه شيئًا في القضية»، بشكلٍ أكثر حريةً وبساطةً مما قام به قضاة الساحة العامة في اليونان، الذين حين كانوا يجدون أنفسهم أمام قضيةٍ لم يكن بمُستطاعهم حلها، كانوا يحكمون على الطرفين باستئناف الحكم بعد مئة سنةٍ.

الساحرات

15. الساحرات في جوار بيتي عليهن أن يخشين على حياتهن، كلما جاء مؤلِّفٌ جديدٌ كي يبسط رؤاهن؛ ولكي نربط بين الأمثلة التي تقدمها لنا الكلمة الإلهية عن تلك الأمور - وهي أمثلةٌ مؤكدةٌ مطلقًا - ونصلها بحوادث زمننا، علينا الحديث بذكاءٍ غير ذكائنا، بما أننا لا نستكْنهُ لا عللها ولا وسائلها، ربما يعود لهذه الشهادة السامية والإلهية أن تقول لنا: «هذا ساحرٌ، وتلك ساحرةٌ، وليس شخصًا آخر». ففي هذا المضمار من الأفضل تفويض الأمر لله، وذلك هو ما ينبغي، لا إلى شخصٍ معيَّنٍ يكون هو أيضًا بالغ الدهشة؛ لأنه يحكي لنا أمرًا سواءً عن نفسه أو عن شخصٍ آخر، وهو أمرٌ عاديٌّ إذا لم يكن قد فقَد عقله.

(1) يعتبر أفلاطون أن إيريس رسول الآلهة، وهي ابنة القنطور (وهو إلهٌ نصفه ثورٌ ونصفه بشر) ثاوماس، الذي يعني اسمه باليونانية «الدهشة».

(2) يتعلق الأمر بحالة مارتان جير المنتحل.

16. وإنّي إلى حدٍّ ما إنسانٌ أخرق، فأنا أتعلق بما هو ماديٌّ وقابلٌ للتصديق، متفاديًا بذلك مآخذ القُدامى المتمثلة في أن «**الناس لا يصدقون سوى ما لا يدركون**»[1]. وأن «**العقل البشريَّ يميل إلى أن يضفي الإيمان على الأمور الغامضة**»[2]. وأنا مدركٌ أني أثير الغضب، فالناس يمنعونني من الشك في تلك الأمور، وإلا تلقيت الشتائم الفظيعة. تلك طريقةٌ جديدةٌ في الإقناع. لكن، وبفضل الله، لا يتحكم فيَّ إيماني تحكم الغاشم. فليُقمَعْ من يتهمون الرأي العام بالزيف، فأنا لا أتهمه سوى بالوقاحة وبصعوبة تصديقه. أنا أُدين -مع كل الناس الرأي المعاكس- وإنْ بشكلٍ غير حاسمٍ، فمن يفرض وجهة نظره -تحديًّا منه وباستعمال السلطة- يُبين أن العقل لا مجال له في ذلك. فمن المقبول في نزاعٍ مدْرسيٍّ ولفظيٍّ أن يكون المتنازعون ذوي مظهرٍ عقليٍّ كما معارضيهم. «**فلنقلْ إن تلك الأمور محتملةٌ، لكن حذارِ من توكيدها**»[3]. أما النتائج العملية التي يستخلصونها من ذلك، فإن الأخيرين لهم الامتياز، فحين يتعلق الأمر بقتل الناس، يجب أن يكون كل شيءٍ واضحًا ومستنيرًا وخالصًا. وحياتنا بالغة الواقعية والجوهرية كي نستخدمها كفالةً للأحداث الخارقة والعجيبة. وأولئك الذين يستعملون العقّاراتِ وغيرها من السموم، أنا لا أدافع عنهم، إنهم قتلةٌ من أخسِّ بني البشر. ومع ذلك، وحتى في هذه الحالات، يُقال إن ليس علينا أن نبني رأينا دومًا على اعترافات الناس، فقد رأينا أحيانًا أناسًا يتهمون أنفسهم بقتل أشخاصٍ عثرنا عليهم في ما بعد أحياءً وفي صحةٍ جيدةٍ.

17. أما الاتهامات الغريبة التي سأتحدث عنها، فسأقول عنها: «إن إنسانًا، مهما كانت سمعته، لا يلزم تصديقه إلا في ما يتعلق بالأمور البشرية والدنيوية، أما ما يُجاوز تصورنا كالأمور الغيبية، فليس علينا تصديقها إلا إذا تأكدت بأمورٍ خارقةٍ وصارت لها سلطةٌ».

18. من بضع سنواتٍ خلتْ، ولأني كنت أمرُّ بأرض أحد الملوك، أنْعم عليَّ هذا الأخير بفضلٍ من أفضاله لكي يقاوم عدم تصديقي لأمْر السحرة،

---

(1) مؤلف مجهول.

(2) Tacite, **Histoires**, I, 22.

(3) Cicéron, **Académiques**, II, 27.

وأنعم عليَّ بأن يريني في حضرته وفي مكانٍ خاصٍ، عشرة أو اثني عشر سجينًا من ذلك النوع. ومن بين السجناء كان ثمة امرأةٌ عجوزٌ تبدو فعلًا ساحرةً ببشاعتها وتشوهاتها الخلْقية، ومشهورةً منذ زمنٍ بهذه المهنة، وقد استطعت الوقوف على الأدلة والاعترافات الحرة لها، وغيرها من العلامات الغامضة عن تلك العجوز المسكينة،واستعْلمت عن الأمر وتحدثت أكثر من المستطاع، وكرست لها كل انتباهي، وكما يعرف الكلُّ فلست رجلًا يترك حكمه العقليَّ في عقال الأفكار الجاهزة والمسبَقةِ. وفي الأخير وبوعيٍ تامٍ، كنت سأمنح السحرة -جزاءً لهم- الخرْبق ترياقًا ضد الجنون[1] لا سمَّ الشوْكَران. «**فحالهم يبدو لي متصلاً بالجنون لا بالجريمة**»[2].لكن، للعدالة طرائقها في إصلاح تلك الأمراض.

19. وأما الاعتراضات والحجج التي قدمها لي أناسٌ محترمون، في هذا كما في موضوعٍ آخر، فإني لم أسمع منها ما قد أقنعني؛ إذْ ليس لها تفسيرٌ أكثر إقناعًا من استنتاجاتهم. من الصحيح أن الحجج التي تقوم على التجربة والوقائع لا يمكنني أن أفككها؛ لأننا لا نرى منتهاها، فأحسم غالبًا كما حسمَ الإسكندر الأكبر فشله في فك «العقدة الغوردية»[3]بحسامه، فإحراق إنسانٍ بسبب تلك التكهنات السحرية يعني منح قيمةٍ كبرى لها. ثمة أشياءُ كثيرةٌ عجيبةٌ تُحكى في أمثالٍ عديدةٍ، ومنها ما يقوله برايستانتيوس عن أبيه، الذي حين كان يغطُّ في سباتٍ أعمق من العادة، كان يتخيَّل نفسه فرسًا تُحمل عليها أثقال جنوده، وما كان يتخيَّلُ كان يقوم به فعلًا. فلو أن أضغاث أحلام السحرة يمكنها أحيانًا أن تتجسَّدَ وتصبح واقعًا، فأنا لا أعتقد مع ذلك أن إرادتنا يمكن اعتبارها مسؤولةً أمام العدالة.

20. وما أقول هنا، أقوله مثل شخصٍ ليس قاضيًا ولا مستشارًا للملك، ويعتبر أنه أبعد ما يكون عن أن يصير خليقًا بذلك، فأنا رجلٌ عاديٌّ، وُلدت من أجل الطاعة للعقل العمومي، ونُذرت لذلك في ما أفعل وما

(1) كان الخربق نبتةً تعتبر في القديم دواءً للجنون، أما الشوكران فهو نبتةٌ تحوي سمًا كان يُعدم به المحكومون في أثينا، وهو السمُ الذي مات بشربه سقراط حسب أفلاطون في محاورة «دفاع سقراط».

(2) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, VIII, 18.

(3) حكايةٌ معروفةٌ في القديم، تقول بأن الإسكندر الأكبر حين لم يستطع حل العقدة التي قُدّمت له في مدينة غورديون، استل سيفه وقطعها.

أقول، ومن يستخدم أحلامي كي يمس بالقوانين -مهما كانت بساطتها، أو برأيٍ من الآراء، أو بعادةٍ من عوائد قريته- سيلحق بالغ الضرر بنفسه، وسيلحقه بي أيضًا. ففي ما أقول، أنا لا أضمن فعلًا شيئًا آخر غير كونيّ قد فكرت به في تلك اللحظة، أي إنه فكرةٌ فوضويةٌ ومتأرجحةٌ، فأنا أتحدث في كل شيءٍ وفي لا شيءٍ، وأقول رأيي لمتعة الدزدشة. «**وأنا لست أخجل أن أعترف بأني أجهل ما أجهله**»[1].

21. لن أكون جريئًا في الكلام لو كنت أعرف أن الناس سوف تصدِّقُ ما أقول. إليكم مثلًا ما أجبت به شخصًا شهيرًا كان يشكو من قسوة نصائحي وحدِّتها: «بما أني أحسك متوتِّرًا ومستعدًا لوِجهةٍ واحدةٍ، فإني سأقترح عليك الوجهة الأخرى بعنايةٍ كبيرةٍ حتى أنير حكمك هذا؛ لا لكي أمارس عليك الإكراه، الله هو من يمسك بأحاسيسك وسيسمح لك بالاختيار». لست معتدًّا بنفسي إلى درجة أن أرغب في أن تدْفع آرائي الناس نحو أمرٍ بهذه الأهمية؛ فالقَدَر لم يهيئهم لأن تكون لهم نتائج بذلك السموّ والخطورة. صحيحٌ أن مزاجي ينقلب غير ما مرةٍ، ولي آراءٌ من التنوُّع بحيث يمكنها أن تخيِّبَ أمل ابني لو كان لي ابنٌ. وما القول أيضًا؟ الآراء الأكثر وثوقًا ليست دومًا هي الأكثر ملاءمةً للإنسان ما دام طبعه متوحشًا.

22. هل الأمر مناسبٌ أم غير مناسبٍ؟ لا يهم. يقال عادةً في إيطاليا إن مَن لم يقضي وطره من العرجاء لن يعرف لطائف فينوس، لقد وضعت الصدفة أو أي حادثٍ خاصٍّ هذه العبارة منذ زمنٍ طويلٍ في فِيهِ الشعب، وهي تنطبق على الرجال كما على النساء. فلقد أجابت ملكة الأمازونيات الرجل السّيتيَّ الذي اقترح عليها الباه: «الأعرج يقوم بذلك أفضل منك»[2]. ففي جمهورية النساء هذه، كانت النساء، لكي يتهربنَ من هيمنة الرجال، يقمنَ منذ الصغر ببتر أيديهنَّ وأرجلهنَّ وأعضاءٍ أخرى تمنحهنَّ الامتياز عليهم، ولم يكنَّ يستخدمنَهنَّ إلا في ما نستخدمها له. كان بإمكاني القول إن الحركة غير المنتظمة للمرأة العرجاء قد يمنح لذةً إضافيةً، وبعض اللطف الإضافي لمن يجرِّبُ ذلك، بيْد أني علمت

(1) Cicéron, **Tusculanes**, I, 25.

(2)Érasme, **Adages** in «**Œuvres et correspondance**»II, IX, 40.

حديثًا أن الفلسفة القديمة قد عالجت هذا الموضوع؛ فقد جاء فيها أن الرِّجلين والفخذين لدى العرجاء، بما أنها بسبب العاهة لا تتلقى الغذاء اللازم، ينتج عن ذلك أن العضو الجنسيَّ الموجود فوقهما يكون ممتلئًا وأكثر إشباعًا وأشد قوةً؛ وأن هذه العاهة لأنها تمنع المصابين بها من ممارسة التمارين الرياضية، فإنهم يبدِّدون قواهم أقل ويمكنهم من ثمَّ أن يكرسوا أنفسهم للحب[1]. إنه أيضًا السبب الذي جعل اليونانيين يشجبون النَّسَّاجات، قائلين عنهنَّ إنهنَّ «أشد حرارةً» من النساء الأخريات بسبب المهنة التي يمارسنَ، التي تجعلهنَّ ملازماتٍ البيت، وتمنعهنَّ من ممارسة الرياضة البدنية. بهذا الشكل يمكننا أن نجد سببًا لكل شيءٍ! وعن النسَّاجات لدينا يمكنني القول:«إن تلك الهزهزة المنتظمة التي تقع لهنَّ خلال شغلهنّ وهنَّ جالساتٌ، توقظهنَّ وتثيرهنَّ، كما الهزهزة لدى النساء النبيلات حين يركبنَ عرباتهنَّ».

23. هذه الأمثلة لا تشكل دفاعًا لصالح ما قلت في البداية، أي أن أحكامنا القضائية تستبق غالبًا الواقعة، وأن شسوع المنطقة الواقعة تحت حماها لامتناهيةٌ، بحيث إنها تحكم وتمارس نفسها حتى على العدم نفسه وعلى ما لا ينعم بأي وجودٍ، فعلاوةً على السهولة التي نصنع بها عللًا وأسبابًا لكافة أنواع الأحلام، فإن مخيلتنا تُبدي عن قوةٍ واستعدادٍ باهريْن للانصياع لفتنة الأمور الزائفة حين تقدم نفسها في مظاهر تافهةٍ. فتبعًا لصدْقية ذلك المثل القديم وتداوله القديم، أقنعت نفسي في الماضي أني استلذذت أكثر مع امرأةٍ؛ لأنها لم تكن مستقيمةً كل الاستقامة، وأني جعلت من ذلك فضلًا من فضائلها!

24. حين يقارن توركواتو تاسّو[2] فرنسا بإيطاليا يقول إنه لاحظ أن لنا أرجلًا أضعف من أرجل النبلاء الإيطاليين، وهو ينسب ذلك لأننا نكون دومًا على صهوة جيادنا، بيْد أن سويتونيوس[3] يستخلص النتيجة المعاكسة من الملاحظة نفسها، حين يقول بالمقابل: إن جيرمانيكوس قد جعل رجليْه أضخم بممارسة ركوب الخيل. ليس ثمة شيءٌ أكثر طواعيةً

(1) Aristote, **Problèmes,** sect. X, probl. 26.

(2) Le Tasse, **Rimes et prose,** p. 11.

(3) Suétone, **Vies des Douze Césars,** Caligula III.

وأقل تنظيمًا من ذكائنا، إنه حذاء ثيرامينيس[1] الصالح للرجلين معًا، فذكاؤنا مزدوجٌ ومتنوعٌ، والأشياء أيضًا مزدوجةٌ ومتنوعةٌ. فقد قال أحد الفلاسفة الكلبيين لأنتيغونوس: «انفحني درهمًا»، فأجابه: «إنه ليس هدية ملوكٍ»، فردَّ عليه: «إذن امنحني موهبةً»، فأجابه: «إنها ليست هديةً تهدى لشخصٍ كلبيٍّ!».

«قد تمدِّدُ الحرارة المسارب المخفية
التي منها يصل النسْغ للنباتات الجديدة
أو تصلِّب الأرض، وتضيّق أوردتها
ليحميها من الرذاذ ومن حرارة الشمس
أو من برد الشمال الصقيعي»[2].

25. لكل قلادةٍ ظهرها[3]: لهذا السبب قال كليتوماخوس إن كارنياديس[4] قد قام بأكثر مما قامت به مآثر هيراكليس، بنزعه من عقول بني البشر الموافقة، أي الرأي والأحكام المتهورة. هذه الفكرة البالغة القوة لكارنياديس هي في نظري بالغة القدم، فقد تولَّدت من ردِّ الفعل على وقاحة من يمتهنون العلم وعن غرورهم المفرط. طُرح أيسوبوس للبيع مع عْبدين آخريْن، استخبر المشتري عما يعرف عمله العبد الأول؛ ولكي يمنح لنفسه قيمةً أجاب إنه يعرف صنع الجبال والعجَب العُجاب، وقام العبد الثاني بالشيء نفسه أو أكثر، وحين جاء دور أيسوبوس، وسُئل عما يعرف عمله، أجاب: «لا شيء؛ لأن هذين الاثنين قالا كل شيءٍ مسبقًا، فهما يعرفان كل شيءٍ»[5]. ذلك ما حدث في الفلسفة، فغرور من ينسبون للعقل البشريِّ إمكان معرفة كل شيءٍ، قد أثار لدى الآخرين الإحساس بأنهم لا يستطيعون فعل أي شيءٍ البتَّة؛ وذلك بدافع الغضب والتباري، ومن هم في جانب الجهل لهم أيضًا آراءٌ مغاليةٌ مغالاة من هم في جانب المعرفة، كما لو أنهم يبرهنون على أن الإنسان مغالٍ في كل شيءٍ، وأنه لا يعرف حدًّا آخر غير حدِّ الضرورة واستحالة أن يسير إلى أبعد.

---

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, XXXI.
(2) Virgile, **Géorgiques**, I, v. 89 sq.
(3) مثل إيطالي.
(4) فيلسوف يوناني عاش بين 219 و129 ق.م، وكان يشك في إمكان بلوغ اليقين بخصوص أي شيء كان.
(5) Lucien de Samosate, **Philosophes à vendre**.

الفصل الثاني عشر

عن الهيْئة

1. أغلب آرائنا تنجم عن السلطة وتقوم على الثقة في الغير. ولا غَرْو في هذا؛ ذلك أننا لا يمكننا اختيارها بذاتنا في وقتٍ رديءٍ كوقتنا هذا، فنحن لا نقبل بحِجاج سقراط، تبعًا للصورة التي تركها لنا عنها أصدقاؤه؛ إلا لكي نتلاءم مع قَبولها العام، وذلك لا يمكن أن يتمَّ بالمعرفة التي لنا عن ذلك الحجاج؛ فهو غير ملائمٍ لعوائدنا، وإذا ما ظهر لدينا شيءٌ مشابهٌ له فلن يمنحه الناس أي قيمةٍ.

2. نحن لسنا حساسين إلا للأفعال المتطرفة، التي تكون متضخمةً ومتعاظمةً بشكلٍ مصطنعٍ، أما تلك الأفعال التي تعود للفطرة وللبساطة فهي تنفلت بسهولةٍ من نظرةٍ فجَّةٍ كنظرتنا؛ فجمالها اللَّطيفُ والخفيُّ يتطلب نظرةً واضحةً لاستكناه نورها السِّري. أليست الفطرة لدينا رديفة الغباء وتسْتجذب المآخذ؟ كان سقراط يمنح لعقله حركةً فطريةً وعاديةً، فهو يتحدَّث كما يتحدث الفلاح وكما تتحدث المرأة،وهو لم يكن ينبس أبدًا إلا بكلماتٍ من قبيل الحدادين والنجارين والإسكافيين والبنائين. إنها تشبيهاتٌ تمتح نفسها من الأفعال البشرية الأكثر تداولًا وعاديةً، وكل واحدٍ كان يفهم قصده، ونحن الذين نعتبر كافة الأفكار، التي تنتمي للخطاب الرسمي، سطحيةً ومنحطَّةً، والذين لا نرى الغنى إلا في المباهاة والفخفخة، لن نستطيع أبدًا الوقوف على نبل وسموِّ تلك التصورات الرائعة. إن عالمنا لا يعترف إلا بتلك المباهاة؛ فالناس لا ينتفخون إلا بالريح، بحيث إنهم يتقافزون كما الكرات. أما سقراط، فإنه لا يقترح علينا أفكارًا من دخانٍ؛ إذ إن مرامه كان أن يمنحنا مبادئ ذات علاقةٍ واقعيةٍ مع الحياة، وتكون مفيدةً لها.

«التزام الاعتدال وعدم مجاوزة الحدود واتباع الفطرة»[1].

3. ظل سقراط دومًا متطابقًا مع ذاته، فسما في الأعالي، لا بالصدفة وإنما بفضل شخصيته. وبعبارةٍ أفضل، هو لمْ ينفُخ في أي شيءٍ، وإنما أعاد للنقطة الأصل والفطرية التي كانت تميزها المحن والمصاعب بحيث أخضعها لها. نحن نرى جيدًا لدى كاتو الأوتيكي أن ثمة سلوكًا إراديًا

(1)Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, II, vv. 381-382.

يسير أبعد مما يستطيع ذلك الناس العاديون، فنحن نحسه دومًا في أعماله الجليلة (كما في موته) جامحًا وسريع الغضب. أما سقراط فكان واقعيًا، يعالج المواضيع الأكثر فائدةً بإيقاعٍ هادئٍ وعاديٍ، ويواجه الموت والمسالك الأكثر امتلاءً بالأشواك محافظًا على طبْعه الإنسانيِّ.

4. من المفرح أن يكون الإنسان الأكثر استحقاقًا لأن يُعرف وأن يكون مثالاً للآخرين، هو ذلك الذي تكون به معارفنا الأكثر وثوقًا من بين المعارف، فلقد تابعه الناس الأكثر تبصُّرًا وحصافةً في كل الأزمان، ومن كانوا شاهدين على حياته يستحقون الإعجاب لعلمهم ووفائهم.

5. إنه لأمرٌ عظيمٌ أن يكون سقراط قد استطاع أن يمنح شكلًا للأفكار الطاهرة لطفلٍ، وأنه استطاع أن يستخرج منها حركات أنفسنا الأكثر جمالا[1]، من غير تشويهٍ لها أو مبالغةٍ فيها. إنه يقدمها لنا ليس في سموها وغناها، وإنما يقدمها صحيحةً صحةً قويةً ونبيهةً. فهو باستخدامه لمصادر طبيعيةٍ وعاديةٍ وأفكارٍ متداولةٍ ومشتركةٍ، ومن غير انفعالٍ أو غضبٍ، استطاع أن يؤسس الأفكار والأفعال والعوائد الأشد قوةً ونظامًا وسموًا التي عرفتها البشرية. فهو الذي أنزل الحكمة من السماء حيث كانت تُضيع وقتها؛ ليعيدها للإنسان الذي عثرتْ بقربه على مهمَّتها الأكثر نشاطًا والأكثر تبريرًا. انظروا كيف يدافع عن قضيته أمام القضاة، وكيف يعبئ قواه في صُدف الحرب، وأيّ حُججٍ يستخدم كي يشحذ همَّتَه ضد الافتراء والطغيان والموت، وأيضًا ضد المزاج العَكر لزوجته. وفي كل هذا، لا يوجد شيءٌ مقتبسٌ من العلوم والفنون؛ إذ إن الناس الأكثر بساطةً يجدُّون فيه ما هم قادرون عليه. من المستحيل إذًا أن يسير المرء إلى أدنى من ذلك، لقد أسبغ على الطبع البشري فضلًا كبيرًا بتبيان مقدار ما يمكنه أن يستقيه من ذاته.

6. كل واحدٍ من بيننا أغنى مما يعتقد، غير أننا نعتاد على البحث دومًا عن شيءٍ آخر واتباعه، فالإنسان عاجزٌ عن التوقف حين يبلغ منتهى حاجياته؛ إذ إنه يختار امتلاك خيراتٍ أكثر ونفوذٍ وملذاتٍ أكبر مما

(1) قد يتعلق الأمر هنا بالعبد الشاب الذي يصلح لسقراط وأفلاطون للبرهنة على نظرية التذكُّر، وهي الفكرة التي تأثر بها مونتيني بشكلٍ واضحٍ في مفهومه للتربية.

يمكن أن يملك؛ إذْ إن نشاطه غير قادرٍ على الاعتدال، ويبدو لي أن الأمر كذلك في مجال المعرفة، بحيث إنه يشرع في عمل ما لا يستطيع عمله، وأكثر مما يحتاجه؛ ذلك أنه يوسِّعُ من منفعة العلم في الوقت نفسه الذي يوسع من مادته. «الإفراط والغلو يسبِّبُ لنا القلق في مجال الآداب كما في كل الأمور»[1]. ولقد كان تاسيتوس على حقٍ في مديحه لأم أغريكولا؛ لأنها لجَمت لدى ابنها شهيةً حادَّةً للعلم. وإذا ما نظرنا للأمور بصراحةٍ، فإن العلم أمرٌ يتضمَّنُ -مثله مثل الخيرات الأخرى التي يملكها بنو البشر- الكثير من الغرور وضعفًا طبيعيًا خاصًّا، وهو أمرٌ يؤدون ثمنه غاليًا.

7. إن استخدام العلم أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر مثله مثل استخدام كل الأطعمة والأشربة الأخرى. ففي الأمور الأخرى، ما نقتنيه يمكننا حمله للبيت في إناء ما، وهناك يمكننا بكل حريةٍ فحص قيمته، وأن نقرر في أي وقتٍ وبأي كميةٍ سنستهلكه. أما حين يتعلق الأمر بالمعارف، فلا يمكننا أن نودِعَها في مكانٍ آخر غير عقلنا، فنحن نبتلعها حين نقتنيها، ونخرج من السوق وقد ابتُلينا أو تغيرنا، بل إن منها ما لا يقوم سوى بإحراجنا وإثقالنا عوضا عن تغذيتنا، وثمة معارفٌ أخرى وَهي تبدو كما لو أنها تشفينا، ولكن تقوم على العكس من ذلك بتسْميمنا.

8. لقد تمتعتُ في بعض الأماكن برؤية بعض الناس يقومون بنذور الجهل والعفَّة والزهد بدافع الإيمان، إنها لَطريقةٌ ناجعةٌ لإخصاء رغباتنا والتلطيف من حدة ذلك الجشع، الذي يدفعنا إلى دراسة الكتب، وحرمان العقل من ذلك الرضا عن النفس الذي يداعبنا بشهوانيةٍ حين نحس بأننا علماء. من المستحسَن جدًا إكمال نذْر الزهد بأن نضيف له نذر العقل. لسنا بحاجةٍ للعلم لنعيش حياةً هانئةً على هوانا، وسقراط يعلمنا أن هذا العلم موجودٌ فينا وبأي طريقةٍ يمكننا العثور عليه وتوظيفه. كل ما نعرف في ما وراء ما هو طبيعيٌّ أقرب ما يكون للتفاهة واللاجدوى، وسنكون سعداء لو أن هذا العلم لا يكون ثقيلًا علينا، ولا يزعجنا أكثر مما يكون مفيدًا لنا. «**لا ضرورة أبدًا للمعرفة لتكوين**

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, CVI.

عقلٍ سليمٍ»[1]. إنه عنصر غلوٍّ لعقلنا المحموم، الذي حين يكون أداةً غير مكتملةٍ لا يخلد للراحة أبدًا.

9. اختلوا بأنفسكم وتأملوا؛ فإنكم ستجدون في أنفسكم حجج الطبيعة ضد الموت، الحقيقية منها والأكثر مناسبةً لتكون لكم مفيدةً عند الضرورة، إنها الحجج التي تمكِّن فلّاحا وشعوبًا بأسرها من الموت بثبات فيلسوفٍ. هل كنت سأموت بسهولةٍ أقلّ قبل أن أكون قد قرأت «المنازعات التوسكلانية» لشيشرون؟ لا أعتقد ذلك. وحين أقرأ مقال الموت أحس بأن لغتي قد اغتنت، لكنْ شجاعتي اغتنت قليلًا فقط، فهي تظل كما بلورتها الطبيعة فيَّ، وهي بخصوص الصراع الذي ينتظرها مع الموت، لا تتوفر إلا على مسعًى عاديٍّ وطبيعيٍّ؛ فالكتب كانت لي بالأحرى تمرينًا أكثر مما كانت لي درسًا.

10. وما القول في المعرفة، إذا ما هي كانت توفر لنا أسلحةً جديدةً ضدَّ الشرور الطبيعية، فطبعت بالأحرى في عقلنا أهميتها وثقلها أكثر مما حمتْنا منها بدلائلها ولطائفها؟ إنها لطائف تنذرنا بها في الغالب ومن دون جدوًى. انظروا كيف يقوم المؤلفون -حتى الأكثر اختصارًا وحكمةً منهم - بزرع العديد من الدلائل والحُجج المصطنعة حول دليلٍ جيدٍ، تكون لمن ينظر إليها من كثبٍ لا أساس لها، إنه لجدلٌ لفظيٌّ فارغٌ لا يسعى إلا إلى خداعنا، لكن بما أنها أدلَّةٌ قد يكون لها بعض الجدوى، فإني لن أشرحها أكثر، وفي كتابي العديد منها في الكثير من المواطن، إما اقتبستها أو حاكيتها؛ لذا علينا أن نكفَّ عن أن نسمي «قوةً» ما ليس سوى كياسةٍ ولباقةٍ، و(متينًا) ما ليس إلا دقيقًا ولطيفًا، و«حسنًا» ما ليس إلا جميلًا. «**أيْ أشياء يُستحسن تذوقها لا شربها**»[2]. كل ما هو رائقٌ ليس مغذيًا، «**حين يتعلق الأمر بالنفس، لا بالعقل**»[3].

11. إذا نظرنا للجهد الذي قام به سينيكا للاستعداد للموت، وكيف كان يتصبَّبُ عرقًا - تحت مجهود التصلُّبِ ومنح الثقة للنفس- ويتلوَّى طويلًا

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius,** CVI.

(2) Cicéron, **Tusculanes,** V, 5.

(3) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius,** LXXV.

على منبره، فإن سمعته ستكون قد خيَّبت ظني؛ إذ كان وهو يُحتضر لم يتحمل الموت بشجاعةٍ، فالهياج المتكرر والحاد يُبين أنه كان أيضًا نزقًا متهورًا وحاد الطبع. «**تعبر النفس العظيمة بطريقةٍ أكثر هدوءًا وسكينةً. العقل ليس له لونٌ والنفس لها لونٌ آخر**»[1]. وعلينا أن نبيِّنَ أنه كان على خطأٍ ونحن نستشهد به، ونحن نرى جيدًا أنه قد هزمه عدوُّه.

12. أما الطريقة التي يتعامل بها بلوتارخوس مع الموت، وهي أكثر احتقارًا وانبساطًا، هي -حسبما أرى- أكثر رجولةً وإقناعًا. فأنا أعتقد أن نفسه كانت ذات حركاتٍ أشدَّ وثوقًا وأعمقَ تعقُّلًا. فأحدهما أكثر حيويةً بحيث يمسنا ويجعلنا نندهش، والآخر أكثر هدوءًا بحيث يمنحنا التعاليم ويشدُّ عضدنا، ويريح نفسنا بشكلٍ أكثر دوامًا؛ إذ هو يمسُّ عقلنا أكثر. أحدهما يثير حُكمنا والآخر يبلغه.

13. بالشكل نفسه رأيت كتاباتٍ أخرى أكثر قيمةً ووقارًا، تقوم في الوصف الذي تقدمه عن طريقتها في تعضيد الصراع ضد إثارات الجسد، بتصوير هذه الأخيرة بأنها من الحرقة والقوة كما لو أنها لا تقهر، وأننا- نحن الذين نُعتبر من بين حثالة المجتمع- خاضعون للقوة والغرابة القاهرة لفتنتها، مقدار خضوعنا للجهود المبذولة لمقاومتها. لماذا إذًا سنقوِّي أنفسنا بتلك المجهودات في المعرفة؟ لننظرْ في الأرض لأولئك الناس المساكين الذين نراهم ينتشرون على بسيطتها، منكِّسي الرؤوس بعد العمل، الذين لا يعرفون لا أرسطو ولا كاتو، ولا مثالًا ولا مبدأً، فالطبيعة تستنبط في كل يومٍ من أولئك أفعالًا تشهد على جَلَدٍ وحزمٍ وشدَّة بأسٍ أكبر، وعلى طهارةٍ وقوةٍ أكثر مما نراه لدى أولئك الذين ندرسهم بكثيرٍ من الانتباه في المدرسة. كم نرى يوميًا من بينهم من يزدرون فقرهم؟ ومَن يرغبون في الموت ويحبون من غير إنذارٍ ولا أسًى؟ ذلك الرجل الذي يعزق أرض حديقتي دفن هذا الصباح أباه أو ابنه. حتى الأسماء التي يمنحونها للأمراض تلطف من قساوتها، فمرض السل لديهم سعالٌ، والإسهال سيولة البطن، ومرض ذات الجنب زكامٌ؛ وبما

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius,** CXV et CXIV.

أنهم يمنحونها أسماء ألطف، فهم يتحملونها بهدوءٍ ولطفٍ أيضًا، وهي أمراضٌ تكون خطيرةً حين تقطع سير أعمالهم اليومية، فهم لا يلزمون السرير إلا للموت. «**إن فضيلةً بسيطةً وفي متناول الجميع تغدو علمًا غامضًا ودقيقًا**»[1].

14. كتبت هذا في الوقت الذي هاجمتني فيه قلاقلنا وفتننا بكامل ثقلها خلال أشهرٍ عديدةٍ، فقد كان عند بابي وفي الوقت نفسه الأعداء[2] من ناحيةٍ، واللصوص من ناحيةٍ أخرى، وهم أعداءٌ أشد سوءًا، «**فهم لا يحاربون بالسلاح، وإنما بالرذائل**»[3]. وهكذا كنت خاضعًا لكافة المضار العسكرية في الآن نفسه.

«عليّ الخشية من العدو يَمْنَةً ويَسْرَةً،
ومن كل جانب يتربص بي الخطر المحدق»[4].

كوارث الحرب

15. يا لك من حربٍ وحشيةٍ! الآخرون يمارسون فعلهم في الخارج، أما الحرب فتمارس فعلها حتى ضد نفسها، فهي تتآكل وتحطم نفسها بسمِّها الخاصِّ، فهي من طبيعةٍ شريرةٍ ومخرِّبةٍ بحيث إنها تحطم نفسها كما الباقي، وتمزق نفسها وتقطعها إرْبًا إرْبًا تحت سوْرة السُّعار الجامح، ونحن نراها تندثر غالبًا من ذاتها أكثر من اندثارها بسبب النقص في شيءٍ ما يكون لها ضروريًّا أو بفعل قوة الخصم. إنها لا تملك أي أدبٍ أو انضباطٍ، هي تأتي لعلاج الانشقاق فتجد نفسها مليئةً بالانشقاقات، وهي تريد معاقبة العصيان فتقدم أفضل مثالٍ للعصيان. ورغم أنها تُستخدم في الدفاع عن القوانين فهي تتمرَّدُ على قوانينها التي تحكمها! أين سيبلغ بنا ذلك المبلغ؟ إن طِبَّنا يحمل لنا الوباء...

«داؤنا يتسمَّمُ

(1) Sénèque, **Épître ou Lettres à Lucilius**, XCV.

(2) أي البروتستانتيون، مع أن مونتيني بظل دوما حذرا ومعتدلا.

(3) Tite -Live, **Annales**, XXIX, VIII, 7.

(4) Ovide, **Pontiques**, I, 3, vv. 57-58.

بالعلاج الذي يُقدَّم له
والداء يستشري ويصبح حادًّا بالدواء»[1].
«الفضائل والجرائم التي يخلط بينها جنوننا الآثم
قد أبعدت عنا روح عدالة الآلهة»[2].

16. يمكننا التمييز بدايةً في مثل هذا النوع من الأوبئة بين ما هو سليمٌ وما هو عليلٌ، بيْد أنها حين تدوم -كما هو الأمر في وبائنا هذا- فإن الجسد كله يستجيب للمرض، من الرأس إلى أخْمَصِ القدمين، بحيث لا طرف من أطرافه يسلَم من الفساد؛ إذ ليس ثمة من هواءٍ يُستنشَق بشراهةٍ وينفذ للداخل أكثر من الفجور. جيوشنا لم تعد متماسكةً ومترابطةً إلا بلحمةٍ أجنبيةٍ عنها، فيا للعار أنْ لم يعد ممكنًا تكوين فيلق جيشٍ صلبٍ ومنضبطٍ من الفرنسيين فقط! نحن لا نجد الانضباط إلا بين صفوف المرتزقة، أما نحن الفرنسيون، فنحن لم نعد نتصرف تبعًا لمشيئة قائدٍ وإنما كلٌ لنفسه؛ فالقائد صار يجد المشاكل مع جيشه أكثر مما يصادفها مع العدوّ، وقيادة الجيش صار عليها التبعية والتملُّق والانصياع؛ إذْ عليها وحدها الطاعة، أما باقي الجيش فهو متسيِّبٌ ومتفكِّكٌ. يروق لي أن أرى كمْ من الجبن والنذالة في الطموح، وكم يحتاج من الحقارة والخنوع اللذين يتلبَّسُهما كي يبلغ مآربه، لكني أقرف من رؤية طبائع، بشريةٍ شريفةٍ قادرةٍ على العدل، تنصاع للفساد يوميًا وهي تقودُ تلك الفوضى. المعاناة الطويلة تنتج التعوُّد، والتعوُّد يفرز القَبول والمحاكاة. لقد كان لدينا ما يكفي من النفوس غير النبيلة مما يعفينا من إفساد النفوس الشريفة والعظيمة، بحيث لو استمرَّ الأمر على هذه الحال، فسيغدو من الصعب أن نعثر على من نكلفه بتسيير هذه الدولة، في حال إذا ما استرجعناها بمشيئة القدر.

«على الأقل لا تمنعوا هذا الشاب
من أن يهرع لإنقاذ جيلٍ متضعْضعٍ»[3].

17. ما مآل المبدأ القديم القائل إن الجنود عليهم أن يخشوا قائدهم أكثر

(1) Virgile, **Énéide**, XII, v. 46.

(2) Catulle, **Épithalame de Thétis et de Pélée**, LXIV, 405-6.

(3) Virgile, **Géorgiques**, I, v. 500.

من خشيتهم العدوَّ؟ وما أيضًا مآل هذا المثل الرائع: وجدْت شجرة تفاحٍ نفسها يومًا محاصرةً في قلب معسكرٍ للجيش الرومانيّ، وحين رحل الجيش عن المكان، ترك لصاحب الشجرة فيها عدد التفاح الذي كان بها، مع أنها كانت ناضجةً ولذيذة المذاق. وأنا أرغب في أن يكرِّسَ شبابنا وقته نصفيًّا لرؤية حال الحرب في البحر تحت إمرة قائدٍ جيدٍ حائزٍ على وسامٍ سامٍ، ونصفيًّا للتعرف على انضباط الجيوش الانكشارية التركية؛ لأن هذه الأخيرة مقارنةً مع جيوشنا أشدُّ اختلافًا وامتيازًا، وذلك عوض أن يُضيع وقته في أسفارٍ لا فائدة منها ويتعلم أمورًا أقلَّ شرفًا من هذا. نحن نرى مثلًا أنهم قادةٌ يتحمَّسون أكثر فأكثر في حملاتهم العسكرية، أما القادة الأتراك فهم أكثر احتراسًا وتحفُّزًا، ذلك أن المعاملة السيئة للشعب والسطو على خيراته اللذين يتم معاقبتهما في وقت السلم بالجَلْد، يتم العقاب عليها وقت الحرب بالإعدام، فجزاء أخذ بيْضةٍ من غير تأدية ثمنها يكون بخمسين جلدة، أما أي شيءٍ آخر مهما كانت تفاهته، ومهما كان غير ضروريٍّ للغذاء، فإن الآثمين فيه يُرمى بهم على الخوازيق أو تُقطع رؤوسهم في العاجل. لقد أدهشني أن أقف في قصة السلطان سليم -الذي كان أقسى وأشْرسَ غازٍ عرفه التاريخ- على كونه حين فتح مصر وعسكرت جيوشه على الأراضي المفتوحة، تركوا البساتين الفيحاء المحيطة بدمشق على حالها، رغم أنها كانت مفتوحةً في وجوههم؛ لأن قادتهم لم يعطوهم إشارة النهب والسلب.

18. لا يوجد في دولةٍ ما شرٌّ يستحق الصراع ضده بعقَّارٍ طبيٍّ أكثر أذًى من الحرب الأهلية، ولو كان السطو على الدولة نفسها كما قال فافونيوس[1]. فأفلاطون لا يقبل بالشكل نفسه بممارسة العنف على طمأنينة بلده بتعلَّةِ شفائه من أمراضه، وهو لا يقبل أيضًا المحسِّنات التي تدخل الاضطراب في كل شيءٍ وتجعل كل شيءٍ غير موثوقٍ به، والتي يكون ثمنها إراقة الدماء وخراب البلد ومواطنيه. ففي نظره، تتمثَّل مهمة الشخص الخيِّر في هذه الحال في ترك الأمور على حالها، وأن يبتهل للآلهة أن تحسِّن الأمور بمشيئتها، وهو يعيب على صديقه ديون أنه قد تصرف بطريقةٍ مخالفةٍ لذلك.

(1) Plutarque, **Vies Parallèles**, Brutus III.

أفلاطون والدين

19. من هذا المنظور كنت أفلاطونيًا قبل أن أعلم بوجود أفلاطون، وهذا الأخير مرفوضٌ من مجتمعنا المسيحيِّ، فأفلاطون هو الذي، مع ذلك بصدق ضميره، استطاع -بالفضل الإلهيِّ الحقِّ- أن يتغلغل بعيدًا في الأنوار المسيحية، بالرغم من الظلمات التي كانت تلفُّ العالم بأسره في زمنه، ويعود ذلك بالأحرى حسب ما يبدو لي؛ لأننا لا نحب أبدًا أن نستقي تعاليمنا من وثنيٍّ. يا له من كفرٍ في ألا ننتظر من الربِّ أي نجدةٍ منه! ومن غير تدخلٍ منا نحن أيضًا! وأنا أتساءل مرارًا إذا لمَ يوجد -من بين هذا الجمع الغفير من الناس الذين يشاركون في شؤون الحرب الأهلية- شخصٌ يكون من البلاهة، بحيث يقنعونه أنه يمكنه الإعفاء من الحرب باختلاق أسوأ عاهةٍ جسديةٍ ما، وبحيث ينجو منها بأكثر الوسائل التي تؤكد لعنته، وبحيث إنه -وهو يقلب الدولة والسلطة والشرائع التي وضعها الله تحت إمرته، مالئًا القلوب بالضغينة والحقد، داعيًا الشيطان والسعالي لمعونته- يمكنه أن يقدم العوْن للكلمة والعدل والشريعة الإلهية!

20. الطموح والجشع والهمجية والانتقام ليست تهورًا بالطبع، فلنضعْ عليها إذًا النار ولنُلهِبْها بذريعة العدل المجيد وبالوَرع! لا يمكننا تصوُّر حالٍ أسوأ أكثر من الحال الذي يصير فيه السلوك الشرّيرُ فيه مشروعًا، وبحيث تخفى تحت عباءة الفضيلة بتواطؤٍ من السلطة. «**فلا شيء أكثر خداعًا من ديانةٍ لئيمةٍ تغلِّفُ الآلهة جرائمها بجلالها**»[1]. وأنموذج الظلم المفرط-حسب أفلاطون- هو أن يُعتبر عادلًا ما ليس بعادلٍ.

21. لقد عانى شعبنا كثيرًا في تلك اللحظات، ليس فقط بسبب المضارِّ غير المباشرة=

«فالبوادي من جميع الجهات
عاثت فيها الفتن فسادًا»[2].

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXXIX, 16.

(2) Virgile, **Bucoliques**, I, vv. 11-12.

=ولكن أيضًا بسبب المضار الآجلة، ولقد كابد الأحياء الأمرَّيْن من ذلك، ومعهم أيضًا مَن لم يكونوا قد رأوا النور بعد، ولقد تم نهب كل الناس، وبالنتيجة أنا أيضًا، فلقد سلبوا منا كل شيءٍ حتى الأمل؛ بما أنهم حرمونا من كل ما يسمح لنا بالبقاء أحياء خلال سنواتٍ.

«فما لا يقدرون على حمله معهم يدمرونه
وعصاباتهم الإجرامية تشعل الحرائق في أكواخ القشّ البريئة»[1].
«لا أمان حتى وراء الحيطان
والبوادي خربوها بالنهب والسلب»[2].

22. إضافةً إلى هذه المصائب عانيت من أخرى غيرها، فلقد أديت ثمن المساوئ التي يفضي إليها الاعتدال في أزماتٍ كهذه، فقد تعرضت للهمز والوخز من جميع الجهات، فكان يعتبرني الغويلفيُّ جيبيلينيًّا والجيبيليني غويلفيًّا[3]. ذلك ما يقول أحد شعرائي المفضَّلين بفصاحةٍ، لكني لا أتذكَّرُ أين قرأت ذلك. كانت وضعية بيْتي وارتياد الناس له من جِواري يزجُّ بي في طرفٍ من الصراع، وحياتي وأفعالي في الطرف الآخر[4]؛ لهذا كان من الصعب اتهامي بشيءٍ محدَّدٍ؛ إذ لا يجد أحدًا مكانًا يعضني منه. أنا لا أتخلى أبدًا عن القوانين، ومن تسوِّلُ له نفسه أن يحقِّق عني فسيكون أكثر إثمًا مني، بيد أن شكوكًا خفيةً كانت تُتداول سرًّا يمكن أن يجدوا لها لَبوسًا عقليًا في وضعية بلبلةٍ وفتنةٍ تامةٍ، لا تخلو من وجود العقول الحسودة ولا من العقول البليدة، وأنا لا أحترس أبدًا من التهم المهينة التي يشاء القدَر أن يلصقها بي، وذلك بالطريقة التي ألتزم بها في عدم رغبتي في تبرير نفسي أو الاعتذار أو توضيح مواقفي، معتبرًا أني حين أدافع عن ضميري فأنا أقدم عنه التنازلات، **«ذلك أن البداهة تضعف بالنقاش»**[5]. وكما لو أن كل واحدٍ يراني بوضوحٍ يعادل الوضوح الذي أري به نفسي، فإني عوض الابتعاد عن التهمة أعرِّضُ

---

(1) Ovide, **Tristes**, III, 10, vv. 65-66.

(2) Claudien, **Œuvres, Contre Eutrope**, I, v. 244.

(3) هما اسما فصيلين إيطاليين دامت حربهما من القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر.

(4) كان الناس، في جوار بيت مونتيني، كلهم بروتستانتيين.

(5) Cicéron, **De natura deorum**, III, 4.

نفسي لها، وأعزِّزُها باعتراف ساخرٍ وتهكُّمي إلا إذا لم أنبس ببنت شفةٍ، كما لو كانت شيئًا لا يستحق الجواب. لكن من يعتبرون ذلك علامةً على ثقةٍ متعاليةٍ فيَّ، يرغبون في إيذائي مقدار أولئك الذين يعتبرون ذلك ضَعفًا لصيقًا بقضيةٍ يستحيل الدفاع عنها، وخاصةً العظماء منهم في هذا العالم، الذين يكون التقصير في الطاعة لهم الخطيئة العظمى، فهم قاسون إزاء الاستقامة الواعية، والتي لا تعرف التَّنازل ولا التواضع أو التوسُّل. لقد اصطدمت دومًا بكل ذلك، بيْد أن الرجل الطَّموح لو تعرض لما تعرضتُ له حينها، لكان شنق نفسه، والجشع معه أيضًا.

23. أنا لا أهتم أبدًا باكتساب الأموال والخيرات.

«فلأحافظْ فقط على ما لي، بل وأقلّ
ولأعشْ لنفسي باقي عمري، لو أتاحت لي الآلهة ذلك»[1].

بيْد أن الخسارة التي أتعرض لها بسبب الآخرين، سواءٌ كانت بسبب سرقةٍ أو عنف، تجرحني مثلما قد تجرح شخصًا مريضًا بالبخل؛ فالضربة التي أتلقّى أبلغ أثرًا مما أفْقد.

24. لقد ألمَّت بي العديد من المصائب، من أي نوعٍ، الواحدة بعد الأخرى، وتحملتها كلها بشكلٍ مرحٍ. ولقد تساءلت مسبقًا لأي صديقٍ سوف أودع شيخوختي الفقيرة والمحتاجة والواهنة، وبعد أن أدرت وجهي في جميع الاتجاهات وجدت نفسي بلا موارد؛ فلكي يسقط المرء من علٍ كجلمود صخرٍ، يلزم أن يكون ذلك السقوط بين يديْ عاطفةٍ صلبةٍ وقويةٍ، وحباها القدر بكل ما تبتغي، وإذا ما وجدت أيديَ من ذلك النوع فهي نادرةٌ، ولقد اكتشفت أخيرًا أن الأوْكد لي أن أوكل لنفسي شخصي ويأسي-إذا ما حدث أن سقطت سقوطًا بين أيْدي القدَر- وأن أتوكل أكثر على قدَري، وأن أهتمَّ بالأخصِّ بنفسي، وأن أتشبث بها.

25. يبحث الناس في كل الظروف عن سنَد الغير كي يوفروا على أنفسهم عناءهم، الذي هو مع ذلك الوحيد الأقوى والأوْكد لمن يعرف كيف

(1) Horace, **Épîtres**, I, 18, vv. 107-108.

يستعمله. كل واحدٍمنا يجري بعيدًا نحو المستقبل؛ لأنْ لا أحد يستطيع أن يبلغ نفسه، ولقد اقتنعت أن تلك الهموم والمصائب كانت لها عليَّ فائدةٌ؛ إذ ينبغي تقويم التلاميذ الكُسالى بالسوط حين يعجز العقل عن ذلك، كما أن عودًا معوجًا لا يمكن تقويمه إلا بالنار والقوة. أقول لنفسي منذ زمنٍ إن عليَّ الاهتمام بنفسي وتفادي الأمور الغريبة عني، غير أني دومًا أنظر لغير نفسي، فأنصاع لفتنة تحيةٍ نبيلةٍ وكلمةٍ إيجابيةٍ يتلفظ بها شخصٍ من الأعيان، وبالبشاشة التي أقابله بها، وكم هي نادرةٌ هذه الأمور اليوم وما تأخذه من دلالةٍ راهنةٍ. أسمع اليوم -ومن غير أن يطْرف لي جَفنٌ- محاولات إغرائي كي أشغل منصبًا مرموقًا، فأمتنع عن ذلك برخاوةٍ بحيث يبدو لهم أني أنصاع للإقناع بالمقترح، بيد أن عقلًا غير مطواعٍ كعقلي يتطلب القرْع؛ إذ يلزم تقويم هذا البرميل المهترئ الذي تراخت أوصاله وتفككت وصار قطعًا من الخشب. بضربات المطرقة.

26. تلك الهموم التي تحدثت عنها كانت لها فوائد أخرى، فقد كانت لي بمثابة تمرينٍ أتدرب عليه كي أستعد لما هو أسوأ من ذلك، إذا ما كان لي أن أصير في صدارة من تلتهمهم العاصفة، مع أني - بفضل الحظ ومزاجي- تمنيت أن أظلّ مِن بين الأخيرين، فهي مصائب تعلمني باكرًا تنظيم طريقة حياتي وإعدادها لوضعيةٍ جديدةٍ. «**الإنسان الأقوى هو من يكون سيِّدَ نفسه**»[1].

27. في الأوقات العادية حين يكون كل شيءٍ ينعَم بالهدوء، نستعد لأحداثٍ معتدلةٍ ومعتادةٍ، لكننا في أوقات الفتنة، التي نعيشها منذ ثلاثين سنةً في فرنسا، يكون كل فرنسيٍّ في كل لحظةٍ على وَشْكِ أن يرى قدره الشخصي ينقلب، مثله في ذلك مثل المجتمع بأسره؛ لهذا من اللازم على المرء أن يجعل من قلبه قلبًا مشبعًا بغذاءٍ وفيرٍ وصلبٍ. لنحمدْ القدَر على أنه جعلنا نعيش قرنًا ليس رخْوًا ولا خاملًا؛ فمن لم يستطع أن ينعَم بالشهرة بشكلٍ آخر سينعم بها بمأساته.

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XC.

28. وبما أني لا أقرأ عن هذا النوع من الفتن في البلدان الأخرى في كتب المؤرخين، من غير أن آسَف على أني لم أشهدْها وأعاينْها بنفسي، فإن فضولي يقودني لأن أتمتع شيئًا ما بمشهد موتنا العام وبأعراضه ومجريات أموره، وبما أني لا أستطيع أن أؤجل تلك الفرجة، فإني راضٍ عن أن أشهدها وأن أتعلَّمَ منها الدروس. هكذا نحن نسعى بشرَهٍ إلى أن نعثر على تصوير اللعب المأساوية للأحوال الإنسانية، ولو بشكلٍ بسيطٍ في مظهرها وفي المسرحيات الخيالية. لم نكن نحس بالشفقة على ما نُعاين، وإنما كنا نستلذُّ بإثارة ألمنا بالطابع العجيب لتلك الأحداث المؤسفة، فلا شيء يدغْدغ الحواس من غير أن يوخز الضمير أيضًا. والمؤرخون الأفذاذ يتهرَّبون من القصص الهادئة كما لو كانت مستنقعًا أو بحرًا ميتًا، إنهم يفضلون الانشقاقات والحروب، حيث يعلمون أننا ننتظر قراءتها.

29. أنا أتساءل إذا ما كان بمقدوري أن أعترف باحتشامٍ بأنني قضيت أكثر من نصف حياتي-خلال انهيار بلادي- من غير ضررٍ على طمأنينتي وراحتي، فأنا أستسلم بسهولةٍ كبرى لتحمُّل المصائب، حين لا تهمُّني مباشرةً وقبل أن أقوم بالشكوى، فأنا لا أنظر لما انتُزع مني وإنما لما فضُل لي من غير أذًى في الظاهر كما في الباطن. ثمة بعض العزاء تارةً في مداورة هذه المصيبة، وتارةً في مداورةالأخرى التي تهدَّدنا بشكلٍ متتالٍ، والنظر إليها وهي تلمُّ بغيرنا. فتعاطفي في المصائب العمومية، كلما كان كونيًا عامًّا كلما ضعف مداه، وذلك من غير أن نعتبر بتأكيدٍ «**أننا لا نحس بالمصائب العامة إلا بقدر ما تمسُّ مصالحنا الشخصية**»[1]، وأن حال الصحة التي انطلقنا منها كانت كبيرةً، بحيث إنها تخفِّفُ من ذاتها الندمَ الذي يمكن أن نحسه تجاهه، فهي كانت صحةٌ فقط بالعلاقة مع المرض الذي تلاها، نحن لم نسقط من العلياء، فالفساد واللصوصية التي صارت مستشريةً في كل مكانٍ بشكلٍ رسميٍّ تبدو لي أقل احتمالًا، وأن يتعرض المرء للسرقة في السجن أكثر مدعاةً للغضب منه في أطراف الغابة. كانت لدينا تركيبةٌ عامةٌ تتضمن عناصر تتنافس في فسادها، وأغلب هذه القَرْحات القديمة لم يعد ثمَّة أملٌ في شفائها.

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXX, 44.

30. لقد كان هذا الانهيار مثيرًا لي أكثر مما صرعني، فلقد ساعدني ضميري في ذلك؛ لأنه لم يكن ضميرًا هادئًا فقط وإنما ذا نخوةٍ وكبرياء، بحيث لم أجد ما أشكو منه في ذاتي. إضافةً إلى ذلك، ما دام الله لا يُنزِّلُ على بني البشر الشَّرَ ولا الخير بشكلٍ كاملٍ، فقد كنت بالأحرى في صحةٍ جيِّدةٍ في ذلك الوقت وأكثر مما كنته في العادة، وإذا لم أكن قادرًا على فعل شيءٍ من دونها، فحين أتمتع بها ثمة أشياء قليلةٌ أقوم بها معها، فالصحة تمنحني سبيل استخدام كافة مواردي، والحماية من جرحٍ بدونها قد يتفاقم حاله. لقد وضعتُ صبري وجَلدي على المحكِّ، وأبنتُ عن العزْم والتصميم إزاء قَدَري، بحيث لكي يطرحني أرضًا كان يلزمه بالتأكيد صدْمةٌ كبرى، وأنا لا أقول هذا كي أحثَّه على أن يغيرني بشكلٍ أعنف! فأنا عبد الله الخدوم ومنه أطلب العون... عليه فقط أن يكتفي بذلك، وإذا ما أحسست بهجمات القدر؟ أيْ نعم. لكني مثل أولئك الذين يغمرهم الهمُّ والكدَر ينصاعون أحيانًا لمتعةٍ ما وتنبجس بسْمةٌ من بين شفاههم، وإذا ما فرضتُ على نفسي أن تكون حالي، في هدوءٍ وسكينةٍ، خاليةً من أي أفكارٍ عكرةٍ، يحدث أحيانًا أن تباغتني لسعات الأفكار العكرة تلك، بحيث تهدُّني هدًّا في اللحظة نفسها التي أتمكَّن من طردها أو مصارعتها.

الطاعون

31. إليكم أيضًا مصيبةً ألمت بي فضلًا عن المصائب الأخرى: لقد ألم بي الطاعون في الباطن كما في الظاهر، إنه طاعونٌ أكثر ضراوةً من أنواع الطاعون الأخرى. فكما أن الأجساد السليمة تتعرض لأخطر أنواع الأمراض لأنها لا تنهزم إلا بها، كذلك فإن حياتي السليمة -التي حسبما أتذكر لم تلمّ بها أي عدْوَى تُذكر- تعرَّضت مع ذلك في النهاية للتسمُّمِ، مما نجم عنه آثارٌ غريبةٌ.

«تتراكم جثث الشباب والعجائز بفوضًى في القبر
فلا أحد يفلت من قبضة الإلهة القاسية بروسبرينا»[1].

(1) Horace, **Odes**, I, XXVIII, 19.

32. كان عليَّ أن أتحمل هذه الوضعية الغريبة، فقد صارت حتى رؤية بيتي أمرًا رهيبًا، لقد تركنا كل ما فيه من غير حراسةٍ، مفتوحًا لمن يرغب فيه. وأنا المِضياف عادةً في بيتي، صرت أبحث عن ملجإٍ لأسرتي، وهي أسرةٌ أصيبت بالضلال، فصارت مخيفةً لنفسها ولأصدقائها، وأضحتْ مصدرًا للرعب في كل مكانٍ تتوقف فيه، مضطرةً لتغيير المقام حالما يحس فرد منها بالألم في طرف الأصابع. في تلك الأوقات تصير كل الأمراض طاعونًا، بحيث لا أحد يأخذ وقته كي يتعرَّفَ عليه، والأدهى من ذلك أن قواعد الطب تقول إن مقاربة المرء لأي خطرٍ يلزم أن يظلَّ في غياهب الحيرة أربعين يومًا قبل التأكد من المصاب، فتظلُّ المخيِّلةُ تزرع الرعب فيك على هواها، مصيبةً إياك بالحمى أنت الذي كنت في صحةٍ جيدةٍ.

33. كلُّ هذا لم يكن ليمسَّني أكثر لوْ لم يكن عليَّ أن أهتم بضَنَى الآخرين، وأن أكون بمثابة المرشد البائس لتلك القافلة لمدة ستة أشهرٍ، فأنا أحمل في داخلي وسائل الحفاظ على نفسي بعزْمي وتصْميمي وصبري. الخوف لا ينال مني، وهو الشيء الأكثر مضرَّةً في هذا المرض، لو كنت وحدي وكنت أريد الهرب من الوباء، كان ذلك سيكون بشكلٍ أكثر حيويةً ولمكانٍ أقصى وأبعد. هذا الموت لا يبدو لي النوع الأسوأ، فهو يأتي عمومًا بسرعةٍ عبر نوعٍ من الصعق ومن غير ألمٍ، يخفف من وقعه أنه يكون عامًّا ويتم من غير مراسيم ومن غير حِدادٍ ومن غير جمهرةٍ، لكن من بين أناس الجوار لا يوجد واحدٌ في المئة سلم منه.

«يمكننا أن نرى الأراضي التي كان يملؤها الرعاة وقد هُجرت والمراعي الشاسعة صارت وحيدةً»[1].

يقوم أساس مداخيلي في بيتي على عمل الناس، ولقد صارت الأرض التي كان يخدمها عشرات الرجال بوارًا لمدةٍ طويلةٍ.

34. يا له من مثالٍ عن الحزم والثبات قدمه لنا هؤلاء الناس! لقد تخلوا كلهم تقريبًا عن الأعمال العادية للحياة، فالعنب، وهو الثروة الأساسية

(1) Virgile, **Géorgiques**, III, vv. 476-477.

للمنطقة، ظل عالقًا بالكروم، وكلهم ظلوا يستعدون بلامبالاةٍ للموت مساءً أو في الغد، بوجهٍ وصوتٍ لا وَجل أو تغير يبدو عليهما كما لو أنهم قابلون بمصيرهم، وأن الحكم عليهم عامٌّ ولا يمكن الإفلات منه. إنه الموت حقًّا، بيد أن العزيمة التي يبدون تتعلق بقشة. البُعْد، وأجَل الموت لبضع ساعاتٍ، ورؤية الحاضرين ذلك هو ما يمنحنا عن ذلك الموت فكرةً مغايرةً. تأملوا الناس هنا؛ فلأنهم يموتون كلهم في الشهر نفسه، أطفالًا وشبابًا وعجائز، فإنهم لا يُصابون بالهلع أبدًا ولا يبْكون بعضهم البعض، بل إني رأيت من بينهم من يخشى أن يصيبه الموت في الأخير فيموت في وحدةٍ رهيبةٍ، أما همهم الوحيد فيتمثل في الدفْن؛ إذ هم لا يتحملون رؤية الجثث منتشرةً في المزارع، تحت رحمة الوحوش التي تحتشد حولها.

35. كم هي الأفكار الإنسانية بالغة التنوع! كان النيوريتيون -وهم شعبٌ غزاه الإسكندر الأكبر- يرمون بجثث موتاهم في قلب الغابة كي تلتهمها الوحوش، فهو المدفن الوحيد لديهم الذي يعتبرونه هانئًا. ولدينا، نرى هذا الرجل وهو لا يزال حيًا يحفر قبره مسبقًا، وآخرون يتمدَّدون فيه وهم لا زالوا على قيد الحياة. أحد الرجال العاملين لديَّ وهو يحتضر كان يرمي بالتراب على جسمه بيديه ورجليه، أليس ذلك لكي يحتجب كي ينام قرير العين؟ ذلك كان سلوكًا يشهد على قدْرٍ كبيرٍ من الشجاعة، يضاهي شجاعة العساكر الرومان الذين عُثر عليهم بعد معركة كاناي[1]، ورؤوسهم مغروسةٌ في حفرةٍ حفروها بأيديهم، قاموا بملئها كي يسهّلوا اختناقهم فيها. إجمالًا، فإن شعبًا بكامله صار في لحظةٍ واحدةٍ وبأعماله وحدها، في مستوى من الحزم والعزم ورباطة الجأش لا ينساق معه لأي قرارٍ لا يكون متأنيًا ونابعًا من مشيئته.

36. أغلب الأمور التي يعلمنا إياها العلم كي يمنحنا الشجاعة تقدِّمُ لنا المظاهر الجميلة أكثر من القوة، والمحسِّنات أكثر من النتائج. لقد هجرْنا الطبيعة ونريد أن نعطيها درسًا، والحال أنها كانت تسير بنا بطريقةٍ هانئةٍ وآمنةٍ، بيد أن آثار تعاليمها -أي ذلك النزْر اليسير المتبقِّي من

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXII, 51.

صورتها بسبب فضائل الجهل- تظل محفورةً في حياة تلك الجمْهرة من الفلاحين الفظاظ، بل إن العلم مُكرَهٌ في كل يومٍ على أن يستعير حزمهم، وتصميمهم وسذاجتهم وطمأنينتهم، ليمنحها للمتعلمين. ومن العجيب أن نرى كيف أن أناسًا، مُشبعين بعلمٍ رائعٍ، يجدون أنفسهم منصاعين لمحاكاة تلك البساطة الجاهلة في الأعمال التي تستلزم الفضيلة، وأن حكمتنا تمتح من الحيوانات نفسها التعاليم الأفْيَد في اللحظات الأهمِّ من حياتنا، أيْ كيف نعيش ونموت، وكيف ندير ممتلكاتنا ونحب أبناءنا ونربيهم ونحافظ على العدل، وتلك شهادةٌ عظمى على النواقص البشرية، وعلى أن هذا العقل الذي ينصاع لهوانا يجد فيها دومًا الجديد والمتنوّع، بحيث لا يذَر فينا أي أثرٍ للفطرة، والناس عامَلوها كما يفعل العطارون مع أنْساغهم، بحيث جعلوا من تلك الطبيعة شيئًا متطورًا جدًّا، مع كافة الاستدلالات والخطابات الآتية من الخارج، وبحيث إنها صارت شيئًا متغيرًا وقابلًا للتكيُّف مع كل واحدٍ منا، وفقدت وجهها الحقَّ الدائم والكونيّ؛ لهذا علينا أن نبحث لدى الحيوانات عن شهادةٍ- عما هي حقًّا تلك الطبيعة الفطرية- لا تكون متأثرةً بالامتيازات والفساد أو تنوع الآراء، فمع أن الحيوانات هي أيضًا لا تتْبع دومًا سبيل الطبيعة، فهي لا تنزاح عنها إلا قليلًا، بحيث إننا نرى دومًا الآثار التي تتركها، والأمر نفسه يسْري على الجياد التي نقودها باليد، والتي تقوم بقفزاتٍ وبحركاتٍ جانبيةٍ تكون محْدودةً بطول العنان، بل يسْري أيضًا على الطائر الطُّعم الذي يطير غير أننا نمسك به بالخيط الذي يمسك بقائمه.

37. «**قمْ بالّتفكُّر في المنفى، والهموم، والحبر، والأمراض، وغرق السفن، فلا مصيبة يمكنها أن تباغتك**»[1]. ما فائدة هذا الفضول الذي يجعلنا نتصور مسبقًا كافة المساوئ التي ترتبط بالطبيعة البشرية، ويجعلنا نتهيأ بجهْدٍ جهيدٍ ضدَّ من لا يمكنهم أبدًا أن يمسونا؟ «**من كابد المعاناة، تكون معرفتهم بأنهم سيكابدون العذاب بمقدار قساوة العذاب نفسه**»[2]. لا تصيبنا الضربة فقط وإنما لفحها وصوتها أيضًا، فهل علينا أن نفعل مثل الأكثر إصابةً

(1) [Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XCI et CVII.

(2) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, LXXIV.

بالحمّى؟ ذلك أنَّه من الأفضل أن يكون المرء مصابًا بالحمّى على أن يروح صباحًا باكرًا لكي يتلقى الجلدات؛ لأن القدَر يمكنه أن يخصَّك بها يومًا ما. هل يلزم علينا يومًا أن نرتدي اللباس الخاص بعيد القديس يوحنا؛ لأننا سنكون بحاجةٍ له في عيد ميلاد المسيح؟ «جرِّبوا كافة المصائب التي يمكن أن تلمَّ بكم، وخاصةً الأكثر ضراوةً منها، امتحنوا أنفسكم، وقوّوها ضدَّها». ذلك ما يقوله البعض. لكن بالعكس، فعدم التفكير فيها هو الأمر الأبسط والأكثر فطريةً. المصائب لا تأتي باكرًا، وهي لا توجد حقًّا فينا لمدةٍ طويلةٍ؛ إذْ على عقلنا أن يبسطها ويمدِّدها، ويستبطنها في ذاته مُسْبقًا كما لو أنها لا تثقل كثيرًا على حواسنا، وكما قال شيخ المدرسةالفكرية الأكثر تقشفًا لا الأكثر لطفًا من بين المدارس الفلسفية: «إنها ستكون ثقيلةً بما يكفي حين تلمُّ بنا»[1]، «وخلال هذا الوقت متِعْ نفسك بالاعتقاد فيما تحبُّ أكثر. ما فائدة التعرُّض لسوء الطالع واستقباله وفقدان الحاضر خوفًا من المستقبل، وأن تكون شقيًّا من الآن لأنك ستصير كذلك مع الوقت؟»[2] تلك كانت عباراته. العلم يقدم لنا بالتأكيد خدمةً جليلةً بجعلنا على علمٍ بأبعاد مضارِّنا وآلامنا ومصائبنا.

«باختراقه بالهموم قلوبنا نحن الفانون»[3].

وسيكون من المؤسف أن يفلت قسطًا من شساعتها من علمنا.

38. من الأكيد لدى أغلب الناس أن الاستعداد للموت قد كان وراء هموم أكثر من عيش الموت نفسه، فقد قال مؤلفٌ نبيهٌ قديمًا: **«الألم الجسدي يعذب حواسنا أقل مما يعذبها التفكير فيه»**[4].

39. الإحساس بأننا مقبلون على الموت يقودنا أحيانًا بذاته إلى اتخاذ قرارٍ متسرِّعٍ بألا نسْعى لتفادي ما لا ريب آتٍ، ولقد رأينا قديمًا مصارعين رومانيين (بعد أن صارعوا برخاوةٍ) يقبَلون الموت برباطة جأشٍ، بمنح

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XIII.
(2) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XXIV.
(3) Virgile, **Géorgiques**, I, v. 123.
(4) Quintilien, **Institution Oratoire**, I, 12.

رقابهم لحدِّ سيف الخصم، وبدعوته للضربة القاصمة. إن تصور الموت عن بُعدٍ يتطلب حزمًا دائمًا يكون من ثمَّ صعب التحمُّلِ. إذا لم تكن تعرف كيف تموت كما يجب، فلا تأبه لذلك، فالطبيعة ستعلِّمُك للتوِّ بشكلٍ كافٍ وتامٍّ. إنها ستقوم بهذه المهمة من أجلك، فلا تجهدْ نفسك في ذلك.

«أيها الفانون، أنتم تسعون بدون جدوًى إلى معرفة أجل
موتكم، والسبيل الذي ستنهجه»[1].
«المصيبة الفجائية الحاسمة أقل ضنًى
من أن يعاني المرء طويلًا في انتظار أجله»[2].

40. نحن نزعج الحياة بالحاجة إلى الموت، والموت بالحاجة إلى الحياة، إحداهما تزعجنا والأخرى ترهبنا. نحن لا نستعد ضد الموت؛ لأن الموت أمرٌ لحُظيٌّ، فربع ساعةٍ من العذاب والألم، من غير نتيجةٍ ومن غير ضررٍ آخر، لا تتطلب مبادئ خاصة. في الواقع نحن نستعد ضد الاستعدادات للموت، تطلب منا الفلسفة أن نضع الموت أمام ناظرينا، وأن نتحسَّب له ونتصوره قبل حلوله كي تشير علينا بعدها بقواعد واحتياطاتٍ علينا اتخاذها؛ كي لا يجرحنا ذلك التحسُّب وتلك الفكرة. ذلك ما يفعله الأطباء الذين يزجُّون بنا في الأمراض؛ كي تكون لهم ذواتٌ يجربون عليها عقاقيرهم ويمارسون عليهم فنهم،فإذا لم نكن قد عرفنا كيف نعيش حياتنا، فمن الظلم أن يعلمونا كيف نموت، ويتمُّ منح النهاية منعطفًا مختلفًا عما كانته الحياة كلها. لو عرفنا كيف نعيش بثباتٍ وطمأنينةٍ، فإننا سنعرف كيف نموت بالشكل نفسه، ولْيتباهَ بذلك الفلاسفة ما طاب لهم ذلك! «**فحياة الفلاسفة كلها منذورةٌ للموت**»[3].

41. لكن يبدو لي أن الموت لوْ كان حدًّا للحياة فهو ليس هدفًا لها، إنه نهايتها وطرفها، غير أنه ليس موضوعها. الحياة يلزم أن تكون هدفًا وغايةً لنفسها، وعليها أن تميل لتنظيم نفسها والسير والسلوك بذاتها وتحمُّل

(1) Properce, **Elégies amoureuses - Cynthia II,** 27, vv. 1-2.

(2) Pseudo-Gallus, **Poetae Latini Minores,** I, vv. 277-278.

(3) Cicéron, **Tusculanes** I, 20.

نفسها، وأن يعرف المرء كيف يموت، ليس سوى واحدٍ من العديد من البنود، التي يتضمنها الواجب الجوهريُّ المتمثل في أن يعرف المرء كيف يسيِّرُ حياته. وسيكون من النزق ألا يمنحه الخوف منه وزنه.

42. إذا ما حكمنا على دروس البساطة تبعًا لفائدتها وحقيقتها الطبيعية، فهي لا تقلُّ أهميةً عن الدروس التي يعظنا بها العلم في الاتجاه المعاكس. الناس يختلفون في ما يحسون به كما في قوتهم، علينا السير بهم في ما هو خيرٌ لهم، آخذين أنفسهم بعين الاعتبار، وفي دروبٍ مختلفةٍ. «**في أي شطٍّ رمتْني به العاصفة سأرسو به ضيفًا**»[1]. لم أر أبدًا فلاحًا من جيراني يفكر في الطلعة ورباطة الجأش التي سيستقبل بها أجله المحتوم، فالطبيعة تعلمه ألا يفكِّرَ في الموت إلا حين يكون على أهْبة الرحيل، ومن ثم فهو أفضل حالًا من أرسطو الذي ألمَّ به الموت بشكلٍ مزدوجٍ في ذاته ومن خلال الاستعداد الطويل له. كان رأي يوليوس قيصر أن الموت المفاجئ هو الأسعد والأكثر خفةً. «**من يعاني قبل أن يكون ذلك ضروريًا يعاني أكثر من اللازم**»[2].

43. المرارة التي نحس بها حين نفكر في الموت تأتي من الأهمية التي نمنح لها، ونحن نضرُّ دومًا بأنفسنا هكذا بالرغبة في تنظيم مشيئة الطبيعة واستباقها، إنه أمرٌ صالحٌ للعلماء ألا يتعشوا جيدًا بسبب ذلك، وأن يكشِّروا حين التفكير في الموت، أما ابن آدم العاديّ فهو ليس بحاجةٍ لدواءٍ ولا لعزاءٍ، إلا حين تضربه المنايا فلا يهتم إلا بما يحسُّ، أليس ذلك ما قلت من قبل، إن بلادة الشعب وعدم قدرته على تحمل الأمور، تمنحه بالمقابل تلك القدرة على تحمل المصائب الراهنة، والتَّحلِّي بتلك اللامبالاة العميقة إزاء الأحداث الكارثية للمستقبل؟ وأنفس أولئك الناس- لأنها كثيفةٌ ومتبلِّدةُ الحسِّ - أقلُّ انفتاحًا وقابليةً للقلق. بربك، لو كان الأمر كذلك فلنُنشئْ من الآن مدرسةً للغباء، فهي تقود تلاميذها بهدوءٍ للنتيجة السامية التي يعد بها العلم.

(1) Horace, **Épîtres**, I, 1, v. 15.
(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XCVIII.

مرافعة سقراط

44. لسنا في خَصاصٍ من المعلمين الأكْفَاء تراجمةِ البساطة الطبيعية، وسقراط واحدٌ من بينهم، فحسب ما أتذكّر كان يتحدث تقريبًا بهذا الشكل أمام القضاة الذين تداولوا في أمره، وكانت حياته تحت رحمتهم: «سادتي، إن طلبت منكم ألا تحكموا عليَّ بالموت أخشى أن أسقط في إدانة المتهمين لي، الذين يزعمون أني أعتقد نفسي أكثر علْمًا من الغير؛ لأن لي بعض المعرفة الباطنية بالأمور التي توجد فوقنا، وما أعرف هو أني لم أرْتَد الموت ولا تعرفتُ عليه، وأني لم أُلاقِ شخصًا جرب ما هو عليه كي أتعلمَ منه ذلك. أولئك الذين يخشون الموت يزعمون أنهم يعرفونه، أما أنا فإني لا أعرف لا ما هو ولا ما يوجد في الآخرة، ربما كان الموت شيئًا لا هوية له، وربما كان أمرًا مرغوبًا فيه، يمكننا مع ذلك[1] إن كان الأمر يعني الانتقال من مكانٍ لآخر، أن نعتقد أن ثمة امتيازًا في أن يروح المرء منا لمعايشة العديد من الشخصيات العظيمة المتوفَّاة، وأن يكون حِلًّا من التعامل مع قضاةٍ ظالمين وفاسدين، إذا كان الأمر يتعلق بإعدامٍ لوجودنا، فإنه لتقدُّمٌ مرموقٌ أن يدخل الإنسان في ليلٍ طويلٍ بهيمٍ وهادئٍ. نحن لا نحس شيئًا أحلى في الحياة من الراحة والنوم الهانئ والعميق من غير أحلامٍ، الأمور التي أحس أنها سيئةٌ، كإهانة بشرٍ وعصيان من هو أعلى مرتبةً سواءٌ كان إلهًا أو بشرًا، أتفاداها بعنايةٍ فائقةٍ، وتلك التي لا أدري إن كانت حسنةً أو سيئةً، لا سبب لدي كي أخشاها».

45. «وإذا ما متُّ تاركًا إياكم على قيد الحياة، فالآلهة وحدها سترى من منا نحن سيكون على أفضل حال، أترككم إذًا تقرِّرون في حالي كما يحلو لكم. لكن، تبعًا لطريقتي المعتادة في الإشارة بالأمور الصحيحة والنافعة، أصرِّحُ إنه من الأفضل لكم منحي حريتي كي يطمئن ضميركم، إذا كنتم لا تعرفون قضيتي بشكلٍ أعمق مني، فبما أنكم تحكمون عليَّ تبعًا لأعمالي الماضية، العمومية منها والشخصية، وحسب الفائدة التي يستقيها كل يومٍ من محاوراتي العديد من المواطنين، شبابًا وشيوخًا، وتبعًا للخير

---

(1) يقوم مونتيني هنا بمحاكاة محاورة «دفاع سقراط» لأفلاطون، في ترجمتها للاتينية.

الذي أفعله فيكم كلكم، لا يمكنكم التخلص بنزاهةٍ من مزاياي، إلا أن تأمروا أن تتمَّ تغذيتي على حساب الدولة في مجْمع القضاة، وهو ما رأيتكم مرارًا تقومون به لصالح آخرين يستحقونه أقل مني».

46. «لا تعتبروا كوني لا أسعى، حسب العادة، لكسب عاطفتكم واستجداء شفقتكم، عنادًا مني أو ازدراءً، فبما أني -كما قال هوميروس- لم أخلق لا الخشب ولا الحجر، مثلي مثل الآخرين، لي أصدقاء وأقرباء يمكن أن يأتوني والدمع منهمرٌ من عيونهم ليتكفلوا بالعزاء، يمكنهم أن يثيروا فيكم الشفقة، بيد أني سأحمل العار لمدينتي في عمري هذا، وبسمعةٍ في الحكمة من الكبر بحيث استحققت عليها التهمة، لو انصعت الآن لسلوكٍ جبانٍ من قبيل ذلك. وما القول في الأثينيين الآخرين؟ لقد أسديت النُّصحَ دومًا لسامعيَّ ألا ينقذوا حياتهم بعملٍ مُشينٍ، وفي الحروب التي قامت بها بلادي، في أمفيبوليس*[1] وبيوتيديا*[2] ودليون*[3] وغيرها من الأماكن التي كنت أشاركها فيها، أكَّدْتُ في أعمالي الحربية كم هي بعيدةٌ عني فكرة الحفاظ بالعار على أمانيَّ، بل إني سأجعلكم تُخلِّون بواجبكم إذا ما دعوتكم إلى القيام بأمورٍ مشينةٍ؛ إذ ليست ابتهالاتي هي ما سيقنعكم، وإنما العلل البسيطة والصارمة للعدالة. وأنا أقوم بهذا، قد تعتقدون أني أشك في أنكم لا تؤمنون بوجود تلك العلل، وسأبدو كما لو أني أشهد ضدَّ نفسي، لو أني تحدَّيت موقفها، ولم أضع تمامًا أمري بين أيديها. أنا لي ثقةٌ عميقةٌ فيها، وأنا متيقنٌ أنها ستعمل في هذه القضية ما في جهدها وبشكلٍ ملائم لي ولكم؛ فالناس الشرفاء، أحياءٌ أو أمواتٌ، لا يخشون شيئًا من الآلهة».

47. أليست تلك مرافعةٌ ساذجةٌ وذات سموٍ رائعٍ في وقتٍ مستعجلٍ بشكلٍ خاصٍ؟ كان من المشروع تفضيلها على المرافعة التي حرَّرها الخطيب الكبير ليسياس لنفسه بأسلوبٍ حقوقيٍّ خالصٍ، لكنه غير خليقٍ بمجرمٍ من تلك المرتبة. فهل كنا ننتظر من فِيّ سقراط صوتًا مبتهلًا؟ وهل استسلمت هذه الفضيلة الرفيعة بالضبط في الوقت الذي كان عليها أن تفرض نفسها؟ وطبيعتها الغنية والقوية، هل كان لها أن تُسلم لفن

(1) * مدينة إغريقية مندثرة، كانت مستعمرة أثينية.
(2) * قرية في منطقة بيوتيا القديمة في اليونان.
(3) * قرية في منطقة بيوتيا القديمة في اليونان.

الخطابة الدفاع عن نفسها؟ وهل كان لها في محنتها الأخيرة التخلي عن الحقيقة والصدق الفطري اللذين كانا عمادًا لفصاحته؛ كي تتلفَّع بالمحسنات البديعية والبلاغية التي تنتمي لتقنيات الخطاب المعدّ سلفًا؟ إن سقراط يتصرف بحكمةٍ كبيرةٍ وبتوافقٍ مع ذاته، برفض إفساد استمرار حياةٍ غير قابلةٍ للفساد ومثالٍ مكتملٍ للطبيعة البشرية؛ كي يمدِّدُ بسَنة موته، ويخون الذكرى الخالدة لهذه النهاية المجيدة. إنه لم يكن يَدين بحياته لنفسه وإنما كمثالٍ مُهدًى للعالم. ألم يكن ضررًا كونيًّا لو أنه أنهاها بشكلٍ غامضٍ وهانئ؟

48. من الأكيد أن طريقةً غير مباليةٍ وهادئةٍ يتصور بها المرء موته كانت تستحق أن يعتبرها الخلَف شرفًا له، وهو ما كان. فلا شيء أكثر عدلًا مما قرره القدَر لمجده، لقد كره الأثينيون كرهًا مقيتًا مَن قاموا بالحكم عليه وإدانته، بحيث إنهم كانوا ينفرون منهم كما لو كانوا كفَّارًا مارقين، وقد عدّوا كل شيءٍ لمسته أيديهم دنسًا، ولا أحد كان يشاركهم حمامهم العمومي أو يحيّيهم ويحادثهم؛ ولأنهم لم يستطيعوا تحمل حنق الشعب عليهم خرجوا من المدينة ضالين[1].

49. وإذا اعتبر أحدٌ أن بإمكاني، من بين العديد من الأمثلة التي أستطيع اختيارها من أقوال سقراط، قد أسأت الاختيار بإثباتي لهذا المثال، ووَجد أن هذا الخطاب أعلى من الأفكار العادية، فليعرف أني قمت بذلك عن قصدٍ لأن حكمي على الأمر مغايرٌ، فأنا أقول على العكس إنه خطابٌ يغوص - بتميُّزه وسجيته - في عمقٍ أكبر وبانزياحٍ كبيرٍ على ما هو معتادٌ، إنه يمثل بجسارته العفوية وبساطته ذات الطَّابع الصبياني، الانطباع الأول والشكل الأكثر خلوصًا للجهل الساذج، فإذا ما افترضنا أننا نخشى الألم بالفطرة، فلا يمكننا أن نخشى الموت بسبب هو ذاته، فهو يشكِّل جزءًا من وجودنا، وهو أقل جوهريةً لنا من الحياة، فلماذا إذًا جعلتنا الطبيعة نمقته ونرتعب منه، بما أنه مفيدٌ لها لضمان التواتر والتطور في صنيعها، وأنه يلعب في الكون دورًا مرتبطًا بالولادة والتزايد لا بالفقدان والخراب؟

(1)Plutarque (Amyot), **De l'envie et de la haine**, XVIII.

«هكذا تتجدَّدُ مجموع الأشياء»[1].
«موتٌ واحدٌ يستحثّ آلاف الحيوات»[2].

50. وإن فقدان حياةٍ يسم المرور لآلاف الحيوات الأخرى، فلقد منحت الطبيعة للحيوانات العناية بجنسها والبقاء على قيد الحياة، وهي تخشى على حالها من التدهور، وتخاف الاصطدام بالأشياء وتهاب الجراح وأن تُعقل وتُضرب، أي كل الأمور التي تمس بحواسها والتي تكون قد جرَّبتها، بيد أنها لا تخشى أن نقتلها بالشكل نفسه الذي ليس له ملكةُ تخيلِ الموت أو تصوُّرِه. يُقال إننا نراها تتحملها بسعادةٍ، فأغلب الجياد تصهل وهي تحتضر، والبجع يغني في تلك اللحظة، لكن يُقال أيضًا إن الحيوانات تسعى إلى الموت عند الضرورة، كما تشهد على ذلك الكثير من الأمثلة لدى الفيَلة.

51. بيْد أني أضيف ما يلي: أليست طريقة سقراط في الحجاج في تلك الظروف رائعةً أيضًا ببساطتها وجموحها؟ صحيحٌ أن الحديث كما أرسطو والعيش مثل يوليوس قيصر أسهل من العيش كما سقراط. ثمَّ توجد الدرجة القصوى للكمال ولصعوبة الحياة، والفن لا يمكن أن يبلغ هذا المبلغ؛ ذلك أن ملكاتنا لم يهيئها تكوينها لذلك، فنحن لا نضعها في المحكِ، ولا نعرفها حقَّ المعرفة، بل نحن نتلبَّس بملكات الغير، ونترك ملكاتنا في عطالةٍ.

52. هكذا يمكن لشخصٍ ما أن يقول عني إني اكتفيت في هذا الكتاب بباقةٍ من الزهور الأجنبية، ولم أقدِّم من جهتي غير الخيط الرابط بينها. صحيحٌ أني اعترفت أمام الملأ أن هذه المحسِّنات المقتبَسة ترافقني، غير أني لا أريد لها أن تغلفني وتواريني عن الأنظار، بل إن ذلك عكس مرْماي، أنا الذي لا يرغب في أن يبرز غير نفسه وما هو طبيعيٌّ فيه. لو أني اتبعت فكرتي، لكنت تحدثت باسمي ووحدي، وأنا أشحن نفسي كل يومٍ أكثر بتلك الاقتباسات، مجاوزًا فكرتي الأولى ومقصدي الأصل؛ لكي أتواءم مع التقليعة الحالية وكذا كسلًا مني، وإذا لم يكن ذلك متوافقًا مع ما

(1) Lucrèce, **De la Nature**, II, v. 74.
(2) Ovide, **Fastes**, I, v. 30.

أنا عليه كما يبدو ذلك فتبًّا لي! فقد يكون ذلك مفيدًا لشخصٍ آخر. ثمة من يأتون بالشواهد من أفلاطون وهوميروس لم يقرؤوها أبدًا، وأنا بنفسي قد أثبتُّها مرارًا في غير صيغتها الأصل، من غير صعوبةٍ ولا أهليةٍ خاصةٍ، ولما كان لي آلاف المجلدات من الكتب المحيطة بي في المكان الذي أمارس فيه الكتابة، فأنا أستطيع هذه اللحظة أن أقتبس على هواي من الكثير من المؤلفين المرتقين من ذلك النوع، الذين لا أتصفح كتبهم أبدًا، ما يمكنني أن أوضح به مقالي عن الهيئة. تكفيني رسالةٌ تمهيديةٌ لكاتبٍ ألمانيٍّ كي أجد نفسي متْخمًا بالشواهد، وأحس في ذلك بمجدٍ ممتعٍ وأنا أخدع الأغبياء من الناس.

في الاستعمال الأمثل للشواهد

53. هذه التوليفات للأشياء العادية - التي تكفي العديد من الناس الكثير من العناء - لا تكون مفيدةً إلا في موضوعاتٍ تكون عاديةً هي أيضًا، ولاستعراض العلم لا لخدمة قواعد السلوك، فثمرة العلم السخيفة هي ما يلوِّحُ به سقراط بمرحٍ ضد يوثيديموس. وقد رأيت منهم من يؤلفون الكتب عن أمورٍ لم يفهموها أبدًا ولا درسوها، طالبين من علماء من أصدقائهم أن يبحثوا لهمعن هذه المادة، ومن ذاك البحث عن مادةٍ أخرى، مكتفين من جانبهم برسم معالم الموضوع وبمعرفة رتْق تلك العناصر غير المعروفة كثيرًا، وما يعود إليهم هو الحبر والورق. والحق أن ذلك يعني اقتناء كتابٍ أو استعارته لا تأليفه، إنه يعني أن أصحابنا هؤلاء يبيِّنون للناس لا أنهم يعرفون تأليف كتبٍ، وإنما أنهم لا يعرفون تأليفها، وهو ما كان بإمكانهم إلى ذلك الوقت أن يَشكُّوا فيه. تباهى أحد رؤساء المجالس أمامي بأنه راكَم أكثر من مئتي شاهدٍ استقاه من مؤلفين آخرين في إحدى المراسيم الرئاسية، وحين يصرح بذلك جهرًا لكل من لاقى، كان يقوم بمحو المجد الذي كان يمكنه استقاؤه منها. ذلك - في رأيي- تبجُّحٌ مهذارٌ لعقلٍ وضيعٍ، وممارسةٌ عبثيةٌ في موضوعٍ كذاك ولدى شخصٍ من عيار الرئيس ذاك، أما أنا فأقوم بخلاف ذلك، ومن بين العديد من الاقتباسات، أكون مرتاحًا حين أستطيع سرقة

بعضٍ منها كي أستعملها في مواطن أخرى، محورًا ومغلِّفًا إياها، وذلك تحت مغبَّةِ أن يقال عني إني لم أفهمها حقَّ الفهم، لذلك استخدمتها على طريقتي كي تكون بشكلٍ أكبر أشبه بكلامي، ثمة من يتباهون بسرقاتهم وينتحلونها لأنفسهم، وهم بذلك تكون لهم قيمةٌ وصدْقيةٌ أكبر أمام الحكُّامِ، أما الناس من أمثالي- الذين يتبعون الفطرة والطبيعة - فيعتبرون أن الشرف الناجم عن الابتداع يفوق بكثيرٍ ذلك الناجم عن الاستشهاد والاقتباس.

54. لو كنت أردت أن أؤلف كتابًا عالمًا، لكنت قمت بذلك سابقًا، ولكنت كتبته في وقتٍ قريبٍ من مرحلة دراساتي، حين كنت أملك الكثير من العقل والأكثر من الذاكرة مقارنةً مع اليوم. ولو كنت أرغب في مهنة الكاتب، لكنت أسلمت نفسي لقوة ذلك العمر لا لوهن عمري اليوم. وما الذي كان سيحدث لو أن نعمة الصدفة - التي مُنحت لي يومًا - بتأليف هذا الكتاب، كانت قد جاءتني في تلك الفترة من شبابي بدلًا من اليوم، أي في عمرٍ نرغب فيه بالامتلاك مقدار ما نكون فيه مستعدين للخسران؟ هناك شخصان من معارفي، وهما رجلا علمٍ معروفان، قد خسرا في رأيي نصف ما كان لهما؛ لأنهما رفضا - وهما في الأربعين من عمرهما - نشر كتاباتهما، منتظريْن أن يبلغا الستين. النضج له مساوئه مثله مثل عزِّ الشباب، غير أن تلك المساوئ تكون أفظع في الشيخوخة، التي لا تكون ملائمةً لهذا النوع من الاشتغال كما لأي نشاطٍ آخر.

55. من يعتقد إخفاء شيخوخته بالقيام بالنشر خلالها، سيكون مجنونًا إذا ما أمل أن يخرج منها أفكارًا لا تنضح بغياب نعمه وبشخصه الحالم والغافي؛ فعقلنا ينحبس وينكمش مع الشيخوخة. أنا أستعرض الجهل بشكلٍ مفخَّمٍ، وأتلفَّظُ العلم بشكلٍ ضامرٍ ومثيرٍ للشفقة؛ أي أني أستعرض هذا الأخير بشكلٍ نافلٍ وعارضٍ والجهل بشكلٍ واضحٍ وجوهريٍّ، وأنا لا أتناول شيئًا بالضبط سوى الفراغ، ولا أي علمٍ سوى غياب العلم، وقد اخترت لذلك من عمري الوقتَ الذي أريد رسم معالمه، والذي يوجد كليةً ورائي، فما تبقى منه مرتبطًا بالأحرى بالموت أكثر من الحياة. وحتى الموت، إذا ما أنا صادفته ودردشت معه كما قام

بذلك آخرون قبلي، فإني سوف أحكي ذلك عن طيب خاطرٍ للجمهور وأنا أرحل عن هذا العالم.

56. كان سقراط الأنموذج الأكمل لكافة المزايا والصفات الحميدة، وأنا غاضبٌ لأن الطبيعة أحبته بجسدٍ ووجهٍ بالغيْ البشاعة كما يُقال، وغير ملائمَيْن لجمال روحه مع أنه كان عاشقًا للجمال وشغوفًا به، فالطبيعة ظلمته أبشع ظلمٍ، فليس ثمة شيءٌ أكثر استحسانًا من التلاؤم في العلاقة بين الجسد والروح. «**أن تودِع النفس في هذا الجسد أو ذاك أمرٌ بالغ الأهمية لها؛ إذ من الجسد تأتي العناصر القادرة على شحذ العقل، والعناصر التي تضعف حدَّته**»[1]. وشيشرون يتحدث عن «البشاعة المنافية للطبيعة» كما عن «تشوه الأعضاء»، بيد أن ما نسميه «بشاعة» هو ما يصدمنا من النظرة الأولى، خاصةً النظرة التي تقع على الوجه، والتي تنفِّرُنا إما بسبب لون البشرة أو سمةٍ أو تعبيرٍ شائهٍ، أو لسببٍ ما لا تفسير له في أعضاءٍ تكون مع ذلك سليمةً وذات تكوينٍ حسنٍ. والبشاعة التي تحتضن روحًا رائعةً كانت من نصيب الكاتب لابُويسي، فهذه البشاعة السطحية والقاهرة مع ذلك، لا تلحق ضررًا كبيرًا بالعقل، ولا أثر لها على آراء الناس. أما النوع الآخر من البشاعة، التي تسمى عن حقٍّ «تشوُّهًا في الخلق»، فهي أعمق وتمتدُّ بآثارها إلى الباطن، فليس الحذاء الجلدي الأملس، وإنما الحذاء المصنوع جيدًا هو الذي يكشف عن شكل الرجل.

57. كان سقراط يقول عن بشاعته إن الأمر كان سيكون كذلك للنفس فيه لو أنه لم يصححها بالتربية. لكنه -وَهو يصرّح بذلك- أعتقد أنه كان مازحًا على عادته، فنفسٌ بتلك القيمة والسموِّ لا يمكن أبدًا أن تتكوَّن بذاتها.

(1) Cicéron, **Tusculanes**, I, 33.

الجمال

58. لن أستطيع أبدًا التعبير عن تقديري الكبير للجمال، باعتباره صفةً قويةً وذات فائدةٍ بالغةٍ. كان سقراط يسميه «الطاغوت الصغير»، فيما يعتبره أفلاطون «ميزة للطبيعة»، فلا صفة تفوقه في الحظوة، إنه يلعب الدور الأول في العلاقة بين الناس، فهو يُبدي نفسه لنا، ويفتن حكمنا العقلي، ويصبح سيِّده بسلطانٍ كبيرٍ عليه بالأثر العظيم الذي يتركه فيه. كانت المومس فْريني ستخسر محاكمتها حتى بمآزرة محامٍ جيدٍ لها، لو أنها لم تفتح فستانها وفتنت القضاة بروعة حسنها. وأعتبر أن كورش والإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر- أسياد العالم الثلاثة هؤلاء - لم يهملوا أبدًا الجمال في طريقتهم في تسيير مصائرهم الكبرى، وسكيبيو الإفريقي أيضًا.

59. في اللغة اليونانية ثمة كلمةٌ واحدةٌ تَعيِّنُ ما هو حسنٌ وطيبٌ وما هو جميلٌ[1]، والروح القدس يسمي مرارًا «الطيبين» من يعتبرهم «جميلين»، وسوف أكون سعيدًا بالحفاظ على مرتبة «الطيبين» كما جاء في الأنشودة التي تحدث عنها أفلاطون[2]، واستقاها من قصائد أحد الشعراء القدامى: الصحة والجمال والثراء. يقول أرسطو: إن الحكْم يلزم أن يعود للجميلين، وأن جمالهم حين يضاهي جمال تماثيل الآلهة، فهم يستحقون التبجيل نفسه، وحين سأله أحدهم لماذا نخالط عادةً الناس ذوي الحسن والجمال ولمدةٍ طويلةٍ، أجاب: «إنه سؤالٌ لا يمكن أن يطرحه سوى أعمًى». أغلب الفلاسفة وأعظمهم أدَّوْا ثمن دراساتهم وبلغوا مراتب الحكمة بواسطة الجمال والأفضال التي يمنحها إياهم الناس.

60. أعتبر أن الجمال يقارب كثيرًا الطيبة، ليس فقط لدى من هم في خدمتي، وإنما أيضًا لدى الحيوانات والدواب نفسها، مع ذلك يبدو لي أن شكل ومِيْسم وجهٍ ما، والملامح التي بها نستشرف الاستعدادات الباطنة

(1) في اللغة العربية أيضا يعني الحسن الجمال والأمور الحسنة [المترجم].

(2) Platon, **Gorgias**, VII, § 451.

لمصائره المقبلة، شيءٌ لا ينصاع بسهولةٍ للوضع في خانة الجمال والقبح، بالشكل نفسه الذي لا تدل به الرائحة الطيبة والسكينة على الصحة، ولا ثقل الجوِ والرائحة العطنة على العدوى والإصابة بالمرض، في وقتٍ يستشري فيه الطاعون. وأولئك الذين يتهمون النساء النبيلات بمناقضة جمالهنَّ بعوائدهنَّ ليسوا دومًا على حقٍّ؛ فالوجه الذي ليس له رسمٌ جيدٌ يمكنه مع ذلك أن يكون مصدر نزاهةٍ توحي بالثقة، وعلى العكس من ذلك، قرأت أحيانًا في عينين جميلتين وعيدًا صادرًا عن نفسٍ شرّيرةٍ ورهيبةٍ. ثمة طلعةٌ تكون حسنةٌ ووسط حشدٍ من الأعداء المنتشين بانتصارهم، يمكنك أن تختار للتوِ من بين عددٍ كبيرٍ من الناس هذا الشخص لا الآخر؛ كي تسْلم نفسك له وتضع حياتك تحت رحمته، لكن الأمر لا يتعلق هنا بالجمال في معناه الضيِّق.

61. سمْتُ الشخص ومحياه ضمانةٌ ضعيفةٌ له، ومع ذلك فهو يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار. ولو كان عليَّ معاقبة الناس، فسأعاقب أشد العقاب الأشرار الكذابين الذين يخونون وعود الطبيعة التي رسمتها على جبينهم، وسأكون أشدَّ قسوةً على من يخفون الشرَّ تحت مظهر اللطف. يبدو أن ثمة وجوهًا سعيدةً وأخرى تعيسةً، وإني أعتقد في ضرورة النباهة والحذق لتمييز الوجوه اللطيفة من البلهاء، والقاسية من العنيفة، والشريرة من الكدِرة، والمتغطرسة من الكئيبة، وغيرها من الملامح القريبة منها. هناك جمالٌ ليس فقط ذا كبرياء وإنما مُزٌّ، وآخر من اللطافة حتى يغدو لا طعم له، وأنا أظل في حيرةٍ من إمكان تشخيص ما يمكن أن يحصل لها في المستقبل.

62. لقد تبنيت لحسابي الخاص بشكلٍ بسيطٍ ومباشرٍ -كما قلت ذلك آنفًا- هذا المبدأ القديم القائل إننا لا يمكن أن نكون على خطإٍ باتباع الطبيعة، وأن المبدأ الأسمى يكمن في التلاؤم معها. فأنا لم أقم -كما فعل سقراط- بتقْويم استعدادي الطبيعي بقوة العقل، ولم أعمد إلى تعديل نوازعي وميولي بالقوة، وأنا أترك نفسي تتصرف بحريةٍ وبالفطرة ذَهابًا وإيابًا، وعِمادا وجودي (الجسد والنفس) يعيشان على هواهما في سلامٍ وانسجامٍ تامٍ، فحليب مُرضعتي كان -والحمد لله- عاديًّا وسليمًا ومتوازنًا.

63. وأنا أرغب في سياق ذلك قول ما يلي: «أعتبر أن الناس يمنحون قيمةً أكبر من المفروض لصورةٍ معيَّنةٍ للفضيلة، سكولائيةً وخاضعةً لمبادئ معينةٍ، كما للأمل والخوف، وهي الصورة الوحيدة الجارية لدينا. أحب الفضيلة حين لا تصنعها الشرائع والدين وإنما تصقلها وتمنحها سلطتها، أحب أن تغدو قادرةً على أن تكون قائمة الذات من غير معونةٍ، وتنمو من جذورها نفسها ببذرة العقل الكوني المتأصِّلِ في كل إنسانٍ لم تُشوَّه فطرته. هذا العقل الذي سمح لسقراط أن يقوِّمَ نوازع الرذيلة لديه، جعل منه رجلًا طائعًا للرجال والآلهة الذين يحكمون مدينته، رابط الجأش أمام الموت؛ لا لأن نفسه خالدةٌ بل لأنه كائنٌ فانٍ. القاعدة التي تريد أن تقنع الشعب أن الإيمان يكفي وحده -بعيدًا عن السلوك والمعاملات لإرضاء العدل الإلهي- قاعدةٌ سيئةٌ لكل مجتمعٍ وبالغة الضرر أكثر مما هي مفيدةٌ، فالتجربة تبيِّنُ لنا أن ثمة اختلافًا بالغًا بين الوَرع والضمير.

64. لي مظهرٌ ملائمٌ جسمانيًّا كما بالنظرة التي يمنحها عني.

«كيف أني قلت: «لي»؟ عليَّ بالأحرى أن أقول: «كان لي» يا خريميس»[1].

«واأسفاه! ما تراه عيناك هو فقط هيكل جسدٍ»[2].

وهذا المظهر الجسماني هو ضد مظهر سقراط. لقد حدث لي مرارًا أن أناسًا لا يعرفونني البتَّة، عبروا لي عن ثقةٍ كبيرةٍ في شؤونهم الخاصة كما في شؤوني، فقط بسبب هيئتي وطلعتي وهيبتي ووقاري، ولقد تمتعت في البلاد الأجنبية بسبب ذلك بفضائل فريدةٍ ونادرةٍ، وإليكم مثالين قد يستحقان أن أحكيهما لكم بالتفصيل:

(1) Térence, **Heautontimorumenos**, I, 1, v. 42.
(2) Pseudo-Gallus, **Poetae Latini Minores**, I, v. 238.

كيف أن هيبة مونتيني ووقاره أنقذاه من ورطة

65. حاول أحدهم أن يسطو عليَّ وعلى بيتي بالمباغتة، فقد كان من المهارة بحيث بلغ باب البيت وحيدًا وألحَّ إلحاحًا على أن يسمح له الحارس بالدخول. كنت أعرفه بالاسم، وكان لديَّ ما يجعلني أثق فيه لأنه كان جارًا لي وقريبًا لي من بعيدٍ لبعيدٍ. سمحت له بالدخول كما أفعل مع كل الناس، وها هو يدخل على صهوة جوادٍ فاقد النفس ومنهكًا، فبادرني بهذه الحكاية: أنه وجد نفسه مضطرًا لردِّ هجوم أحد خصومه على بُعد نصف فرسخٍ من هنا، وهو شخصٌ أعرفه أيضًا، بل إن نزاعهما قد بلغ أسماعي، فلقد تقفى هذا الخصم أثره عن كثبٍ، ولما كانت حاشيته كانت أقل عددًا سارع في حيرةٍ من أمره للاحتماء ببيتي، وقال لي أيضًا إنه كان قلقًا على مصير مرافقيه، الذين يعتقد أنهم إما تعرضوا للقتل أو الأسر. حاولت بشكلٍ عفويٍ أن أهدئ من روْعه وأطمئنه وأدعوه للراحة. لكن بعد ذلك، ها هم أربعة أو خمسة عساكر يصلون باب البيت، وعليهم أمارات الهلع والتعب نفسه، بيد أن هذا الأمر الغريب بدأ يثير توجسي وشكوكي. لم أكن على جهلٍ في أي وقتٍ نعيش، وكم أن بيتي يمكن أن يكون مثارًا لطمع الطامعين، وكنت أعلم أن الأمر نفسه قد حدث لأشخاصٍ من معارفي، ومع أني كنت أعلم أنني ليس عليَّ أن أكون طيبًا وألا أسير بطيبتي إلى حدودها، أخذت قراري البسيط والطبيعي-كما أفعل دومًا- وأمرت بفتح الباب لهم.

66. أنا في الحقيقة بطبعي قليل الارتياب والشكوك، وأميل بفطرتي إلى العذر والتأويل الأكثر لطفًا للأمور، فأنا أنظر للناس كما هم عليه عمومًا، ولا أعتقد في نزوعهم الرذيل وغير الفطري إذا لم أُكرَه على ذلك بدليلٍ أكيدٍ، وقِسْ على هذا مسألة الغيلان والكرامات، وأنا -فضلًا عن ذلك- إنسانٌ يرجئ أمره للصدفة، وأنصاع لها بتهورٍ كاملٍ،فإلى اليوم كانت مبعث امتناني أكثر من شكواي، بحيث إني وجدت القدَر أكثر نباهةً وحنوًّا على شؤوني أكثر مني. وفي حياتي كان ثمة وضعياتٌ دبَّرْتُها بحذقٍ أو بحكمةٍ. وفي هذه الحالات؛ لِتدركوا أن الثلث كان رهينًا بي، والثلثين الآخرين على الأقل رهينين بالصدفة. ويبدو لي أننا مخطئون باعتبار أننا

لا نثق بما يكفي في السماء، وننتظر من سلوكنا أكثر مما علينا انتظاره منه. السماء تغار من الأهمية التي نوليها لحقوق الحكمة البشرية على حساب حقوقها، بحيث إنها تقلِّص منها بقدر ما نوسِّع من حقوقنا.

67. ظل أولئك الناس إذًا في باحة المنزل فيما كان قائدهم معي في القاعة الكبرى، بل إنه لم يرغب حتى في أن يودِع جواده في الإصطبل، زاعمًا أنه سيروح لحاله حالما يتوصَّلُ إلى أخبارٍ عن رجاله. أحس أنه سيد اللعبة ولم يتبقَّ له سوى أن يعمل على تطبيق خطَّته، وقد ردَّدَ مرارًا -لأنه لم يفتر من حكْي هذه القصة- أن وجهي وحالي الهادئ هو ما نزع الغدر من بين يديه، ثم إنه امتطى صهوة جواده فيما ظل رجاله يحدقون فيه منتظرين إشارةً منه، مندهشين من كونه ترك الامتياز الذي حصل عليه وتوجَّه نحو الباب للخروج من البيت.

كيف أُسر مونتيني في الغابة وأُطلق سراحه بسبب هيبته ووقاره

68. وفي مرةٍ أخرى، وقد وثقت في هدنةٍ تم الإعلان عنها في جيوشنا، انطلقت في رحلةٍ كان عليَّ خلالها عبور بلدٍ مليءٍ بالمخاطر، وما إن تمَّ الانتباه إلى وجودي، حتى انبجس من أماكن متفرقةٍ ثلاثة أو أربعة جنودٍ للإمساك بي، أحدهم التحق بي في المرحلة الثالثة فوجدت نفسي عرضةً لهجوم خمسة عشر أو عشرين من النبلاء مقنَّعين، متبوعين بحشْدٍ من الرماة على متن جيادهم، وها أنا واقع في الشَّرَكِ. أسلمت نفسي لهم، فانتزعوا مني جوادي ونهبوا صناديق متاعي، واستولوا على صندوق مالي، ومنحوا جيادي لآخرين من بينهم، ظللنا لوقتٍ طويلٍ في تلك الأكمة نناقش فدْيتي، فقد أعلوْا قيمتها بحيث بدا لي أنهم لا يعرفونني البتَّة، ثم إنهم دخلوا في جدالٍ صاخبٍ عن حياتي، والحق أن العديد من ظروفها كانت تجرُّ عليَّ خطر ما حلَّ بي اليوم.

«والآن يا إينياس، يلزمك قلبٌ رابط الجأش[1]».

(1) Virgile, Énéide, VI, v. 261.

69. تعلقت كثيرًا بوجود الهدْنة لصالحي، تاركًا لهم فقط الغنيمة التي نهبوها مني والتي كانت ذات قيمةٍ، من غير أن أعدهم بفديةٍ، وبعد ثلاث ساعاتٍ قضيناها هناك، وضعوني على متن جواد، وكلفوا بمرافقتي خمسة عشر أو عشرين فارسًا، وفرَّقوا الرجال المرافقين لي واضعين إياهم بين أيدي الجنود الآخرين، وأمروا بأخذنا أسرى عبر طرقٍ متفرِّقةٍ؛ وبما أني كنت على مبعدة ثلاث طلقاتٍ من هناك=

«وبما أني ابتهلت للآلهة»[1].

=ها هو انقلابٌ مفاجئ للأحداث غير منتظرٍ يقع؛ فقد أبصرت برئيس الفرقة يعود نحوي ويوجه لي كلامًا لطيفًا، فاجتهد في البحث عن متاعي ورجالي المتفرقين، وأعاد إليَّ ما عثر عليه حتى صندوق أموالي، غير أن أجمل هديةٍ قدموها لي حينها، هي أنهم أعادوا لي في النهاية حريتي، فالباقي لم يكن ذا أهميةٍ لي في ذلك الوقت.

70. وما زلت إلى الآن لم أفهم السبب الحق لذلك التغير الفجائي، وذلك الانقلاب من غير سببٍ واضحٍ، وذلك النَّدم المعجز في ذلك الوقت، في عمليَّةٍ تمَّتْ بسبق إصرارٍ وترصُّدٍ وصارت ممارسةً عاديةً -ذلك أني اعترفت لهم لتوِّي لأي حزبٍ أنحاز وأي طريقٍ سآخذ- والشخص الأهمُّ من بين المعتدين الذي نزع قناعه وأخبرني باسمه، ردَّدَ لي مراتٍ أني أدين بهذه الحرية للوجه الذي قدمت به نفسي ولحرية كلامي ورباطة جأشي، وهو ما يجعلني لا أستحق ذلك التعامل منهم، وطلب مني أن أتعامل معه بالمثل في ظرفٍ كهذا. قد تكون مشيئة الله قد استعملت تلك الوسيلة لحمايتي، ذلك أنها حمتني في الغد من أحابيل وشراكٍ أسوأ أخطروني هم عنها بأنفسهم، وأحد النبلاء المعنيين بهذه القصة لا يزال على قيد الحياة، ويمكنه الشهادة عليها؛ أما الآخر فقد تعرض للقتل من وقتٍ قريبٍ.

71. لو كان وجهي لا يشهد عليَّ، ولو أن الناس لا يقرؤون في صوتي صدق نواياي، لم أكن بقيت طويلًا على قيد الحياة من غير نزاعاتٍ وضرباتٍ خفيةٍ، خاصةً مع هذه الحرية التي أفصح بها عما يعنُّ لي على عواهنه،

(1) Catulle, **Poésies**, LXVIII, 65.

وأطلق بها الأحكام من غير احتراسٍ. هذا السلوك قد يبدو غير متمدّنٍ وغير متوافقٍ كثيرًا مع عوائدنا، لكني لم أر أحدًا أحسَّ فيه بالإساءة أو اعتبره أمرًا شريرًا، أيْ شخصًا جرحتْه صراحتي في الكلام إذا ما كان ذلك الكلام صادرًا عني، فالكلام الذي نردّدُ له نبرةٌ أخرى ومن ثمَّ معنًى آخرَ، وأنا أيضًا لا أكرَه أحدًا ولا أميل كثيرًا إلى إهانة الغير، بحيث لا أقرر فعل ذلك حتى حين يتعلق الأمر بأن أخدم العقل نفسه. حين رمت بي الصدفة في المشاركة في أحكامٍ على مجرمين، تملّصت بالأحرى من ممارسة العدالة. «**لهذا فرغبتي هي ألا تكون الآثام التي تُقترَف أكثر مما أقدر على عقابه**»[1].

حينما أُوخِذَ أرسطو[2] على أنَّه كان رحيمًا كثيرًا برجلٍ شريرٍ، أجاب: «حقًّا، لقد كنت رحيمًا بالرجل، لا بسلوكه الشرير». تكون الأحكام العادية مدفوعةً للانتقام بفظاعة الإثم، ذلك هو بالعكس ما يهدي من حكْمي؛ ففظاعة القتل الأول تجعلني أخشى القتل الثاني، وبشاعة الوحشية الأولى تجعلني أمقت كل تقليدٍ أو محاكاةٍ، وأنا الذي ليس سوى ورقةٍ عاديةٍ في اللعبة لا يمكن أن ينطبق عليَّ إلا ما كان يُقال عن خاريلّوس ملك إسبرطة: «لا يمكنه أن يكون طيبًا لأنه ليس شرِّيرًا لدى الأشرار»[3]. أو أيضًا لأن بلوتارخوس يقدمه في جانبيْه الاثنين-كما يقوم بذلك مع العديد من الأشياء الأخرى- بشكلٍ متنوعٍ ومتناقضٍ: «لا يمكن إلا أن يكون طيِّبًا بما أنه طيبٌ حتى لدى الشريرين»[4]. وإذا كنت غاضبًا من استخدام الوسائل المشروعة ضد من لا يُرضيهم ذلك، فعليَّ أن أعترف أني لا أميل إلى استخدام الوسائل غير المشروعة إزاء من يقبلون بذلك.

---

(1) Tite-Live, **Annales ou Histoire romaine**, XXIX, 21.

(2) DiogèneLaërce, **Vies et doctrines des philosophes illustres**, V, 17, § 301.

(3) Plutarque, **Œuvres mêlées**, XVIII, III.

(4) Plutarque, **Vies Parallèles**, Lycurgue, IV.

الفصل الثالث عشر

في التَّجربة

1. ليس هناك من رغبةٍ تكون فطريةً أكثر من المعرفة، فنحن نسعى بكل الطرق لأن نبلغها، وحين لا يكفي العقل لذلك، نستخدم فيها التجربة.

«تنتج التجربة الفن بطرقٍ مختلفةٍ
والمثال يهدينا إلى ذلك الطريق»[1].

إنها وسيلةٌ أضعف وأقل شرفًا، بيد أن الحقيقة أمرٌ بالغ الأهمية، بحيث علينا ألا نترك أي وسيلةٍ قابلةٍ لأن توصلنا إليها. للعقل أشكالٌ عديدةٌ لا نعرف أيَّها نعتمد، والتجربة كذلك. والدرس الذي علينا استقاؤه من تشابه الوقائع لا قيمة كبرى له؛ إذ أنها في الواقع غير متشابهةٍ أبدًا. لا شيء في الصورة التي لنا عن الأشياء تكون كونيةً غير كثرتها وتنوعها، فنحن -كما اليونانيون والرومان- نستخدم مثال البيْض مثالًا للتشابه التام، ومع ذلك كان ثمة أناسٌ قادرون على التعرف على الاختلاف بين البيض، ومن بينهم بالأخص رجلٌ من مدينة ديلفوي[2]،كان لا يخلط بين البيضة والأخرى، وحين تكون لديه الدجاجات كثيرةً، كان يستطيع التعرف على الدجاجة صاحبة البيضة. الاختلاف يندرج بذاته في أعمالنا، وليس ثمة فنٌ يمكنه بلوغ المشابهة. فلا بيروزيه[3] ولا أيُّ شخصٍ آخر يمكنه أن يصقل بعنايةٍ ظهر أوراق اللعب وبيِّضَها، مقدار ما لا يوجد لاعبون قادرون على التعرُّف عليها، فقط من خلال النظر إليها وهي تنزلق بين أصابع شخصٍ آخرَ. المشابهة لا تصنع الوحدة مقدار ما أن الاختلاف لا يصنع الغيرية؛ فلقد فرضت الطبيعة على نفسها ألا تصنع أي شيءٍ لا يكون مختلفًا بعضه عن بعضٍ.

2. وذلك هو السبب الذي من أجله لا أتعاطف مع رأي ذلك[4] الذي كان يعتقد، من خلال تعدد القوانين،الوصول إلى لجْم سلطة القُضاة، ناحتًا لهم في ذلك الأجزاءَ التي يحتاجونها لكل حالٍ على حدة، فهو لم يكن يدرك أن ثمة حرية تأويل للقوانين مقدار ما هناك من حريةٍ في

(1) Manilius, **Astronomica**, I, 59.

(2) Cicéron, **Académiques**, II, 18.

(3) يبدو أنه صانع لعبة الورق في وقت مونتيني.

(4) يتعلق الأمر ببوستينيانوس، الذي كان قانونه يحدد كافة الأحوال والقضايا، والذي لم يكن للقضاة غير تطبيقه بصورةٍ آليةٍ حسب الحالة.

تحريرها، ومن يتصور إضعاف نقاشاتنا وإنهاءها بإرجاعنا لرسالة الكتاب المقدَّسِ، لا يُبدي أي جدِّيَّةٍ في الأمر. فالمجال الذي يُمنح لعقلنا لتفحُّصِ فكر الغير لا يقل شساعةً عن المجال الذي يَطرح هو فيه فكره؛ ولماذا سيكون ثمة عدوانيةٌ وبذاءةٌ في الشرح أقلّ منه في الابتكار؟ نحن نرى إلى أي حدٍ كان ذلك المُشرِّعُ على خطإٍ. فنحن لنا في فرنسا من القوانين أكثر مما لباقي العالم بأسره، وأكثر ما يجب منها لتنظيم عوالم إبيقوروس: «**إذا كنا في الماضي نعاني من الفضائح، فإننا اليوم نعاني من القوانين**»[1]. ونحن مع ذلك قد تركنا قُضاتنا يتناقشون ويقرِّرون، بحيث لم يعرفوا بذلك هذه الحرية والإباحة لهم. ما الذي إذًا ربحه مشرِّعونا من التمييز بين مئات الآلاف من أنواع الأعمال الخاصة وربط مئات الآلاف من القوانين بها، فهذا العدد لا يضاهي لانهائية تنوع الأعمال البشرية. إن تزايد ابتداعاتنا لا يمكن أن تعادل تنوع الأمثلة، ولنضفْ إليها أيضًا مئة مرةٍ منها، فأنت لا يمكنك أن تهتم فقط بالأحداث الآتية، فقد يكون هناك حدثٌ واحدٌ من بين تلك الآلاف من الأحداث التي تمَ التعرُّف عليها وجرْدها، سيلاقي حدثًا آخر ويتشابه معه بالضبط بحيث لا يعود ثمة فرقٌ أو خصوصيةٌ بينهما. ليست هناك علاقاتٌ كثيرةٌ بين أعمالنا، وهي دائمة التطور، وبين قوانين ثابتةٍ وقارةٍ، فالقوانين التي نبتغيها أنْدر وأبسط وأكثر عموميةً، بحيث من الأفضل ألا يكون ثمة قوانين البتَّة على أن تكون بالوفْرة التي لنا اليوم.

3. تمنحنا الطبيعة قوانين تكون دومًا أفضل من تلك التي نقدِّم، ولا أدَلَّ على ذلك أكثر من العصر الذهبي كما وصفه الشعراء، ومن الحال الذي تعيش فيه الشعوب التي ليس لها من قوانين وشرائع غير قوانين الطبيعة وشرائعها. ثمة أناسٌ يجعلون أول شخصٍ يمرُّ بجبالهم بمثابة قاضٍ، وثمة آخرون ينتخبون واحدًا من بينهم يوم السوق كي يحْسم في كافة خلافاتهم. ما الخطورة في أن يقوم الأكثر حكمةً من بيننا بحل خلافاتنا، كل حالةٍ على حِدة، من غير الإحالة للسوابق ومن غير خلقها أيضًا؟ فلكل رجلٍ حذاؤه. حين أرسل الملك فرناندو[2] المعمِّرين إلى بلاد الهند الغربية، قرَّر بحكمةٍ ألا يبعث معهم أي متخصصٍ في القانون،

(1) Tacite, **Annales**, III, 25.

(2) فرناندو الخامس الكاثوليكي ملك قشتالة وأراغون، توفي عام 1516 م.

خشية أن تستشري المحاكمات في ذلك العالم الجديد، فقد كان يعتبر أن هذا العلْم بطبيعته مولِّدٌ للنزاع والشِّقاق، وكان يعتبر -مثل أفلاطون- أن أفضل شيءٍ لبلدٍ ما، هو أن نوفِّرَ له الأطباء لا رجال القانون.

4. لماذا إذًا تغدو لغتنا، وهي الملائمة لأي غرضٍ، غامضةً ويعسر فهمها حين يتعلق الأمر بعَقدٍ أو وصيَّةٍ؟ ولماذا ذلك الذي يعبر عن نفسه عادةً بوضوحٍ كاملٍ في ما يقول ويكتب، لا يجد في هذه الحال سبيلًا لا يسقطه في التناقض والشك؟ ربما ذلك لأن أمراء هذا الفن، الذين يجتهدون بعنايةٍ في اختيار الكلمات الرَّنانة والصيغ المتكلَّفة، يزنون كل كلمةٍ ويدقِّقون في كل جملةٍ، بحيث تراهم يتورَّطون ويعمهون في لانهائية الصور البلاغية ومقاطع الخطاب المتكسرة الصغيرة، بحيث لا تحيل على أي قاعدةٍ أو وصفةٍ، وبحيث لا يمكن فهمها واستيعابها بشكلٍ أكيدٍ. «**كل ما ينقسم بشكلٍ بالغٍ بحيث يصير غبارًا يكون غامضًا**»[1]. من راقب منكم صبيانًا يحاولون تفتيت كومةٍ من الزئبق إلى عددٍ كبيرٍ من الأجزاء؟ فكلما عجنوه وضغطوه، وكلما سعوا إلى إخضاعه لقانونهم، كلما أثار ذلك حرية ذلك المعدن الشريف، إنه ينفلت من محاولاتهم وينقسم ويتشتَّتُ، بحيث من الصعب تعداد أجزائه الدقيقة.

5. وقِس على ذلك هنا، فبتجزيء دقائق الأمور تلك، يزداد الشكُّ في أذهاننا، ويتمُّ تدريبنا على تنويع المشكلات ومضاعفتها وتشتيتها. إنهم بزرع القضايا ونحتها يُخصبون الحيرة والنزاع ويُكثرون منهما، كما أن الأرض تصير أشدَّ خصوبةً من كثرة الحرث وتفتيت التراب وقلبه. «**العلم هو الذي يخلق المصاعب**»[2]. كنا نعيش في الشك بعد قراءتنا أولبيانوس، وصرنا غارقين في الشك أكثر بعد بارتولدوس وبالدوس[3]، وبات من اللازم محْو الآثار التي تركتها تلك الآراء العديدة المتنافرة، لا الأخذ بها وإفساد رؤوس الخلَف بها!

---

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, LXXXIX.

(2) Quintilien, **Institution Oratoire**, X, 3.

(3) دوميتيوس أولبيانوس رجل قانون كانت آراؤه تؤخذ بمثابة قوانين قبل أن يتم تشريع القانون الروماني، وبارتولوس وبالدوس رجلا قانون وكاتبان إيطاليان من القرن الرابع عشر.

6. لا أدري ما القول في الأمر، لكن يبدو لي بالتجربة بأن كثرة التأويلات تفسد الحقيقة وتفكِّكُها وتجعلها غامضةً، وقد مارس أرسطو الكتابة لكي نفهم ذلك؛ وإذا هو لم يتوصل إلى ذلك، سيتوصل إلى ذلك آخر غيره أقل حذقًا ومهارةً منه، بحيث يكون مترجمًا لفكره. فنحن نفتح القارورة وننثر محتواها بتمييعه، وإننا من موضوعٍ واحدٍ نصنع المئات، ونتوصَّل إلى ذلك حين نضاعفه ونشطره كما لانهائية ذرات إبيقوروس. لم يستطع شخصان أبدًا أن يحكما على الأمر نفسه بالشكل ذاته، ومن المحال أن نرى رأيَيْن متشابهين تمامًا، ليس فقط لدى أشخاصٍ مختلفين، وإنما لدى الشخص نفسه في لحظتين مختلفتين. في العادة أجد الأسباب في الشك في ما لم يطله التعليق؛ فأنا أتعثَّرُ في الأرض المسطَّحةِ، مثل بعض الجياد التي تتعثر أكثر في السبيل المنبسط.

شروحٌ وتعليقاتٌ لا تنتهي

7. مَن ذا الذي لا يعترف بأن الشروح والتعاليق تضاعف الشكوك والجهل، ما دام أنه لا وجود لكتابٍ، لا بشريٍّ ولا إلهيٍّ، لم يكرس بنو البشر أنفسهم له، وتمَّ التغلب على مصاعبه بتأويلهم؟ فالشرح المئة ينقُل للشرح اللاحق عليه كتابًا شائكًا أكثر وأصعب مما وجده شارحه، وهل اتفقنا يومًا أن الكتاب الفلاني قد حظي بما يكفي من الشروح، وأنه لم يعد ثمة ما يقال عنه؟ إنه أمرٌ يبدو أكثر في النزاع حول التدابير القانونية؛ إذ تُمنح سلطة القانون لعددٍ هائلٍ من الشرَّاح والمراسيم القانونية ولمثلها من التأويلات، فهل هذا يعني أن علينا وضع حدٍّ للحاجة لممارسة التأويل؟ وهل بذلك نقف على تقدُّمٍ معيَّنٍ ونحسُّ أن الطمأنينة آجلةٌ لا ريب فيها؟ وهل هذا يعني أننا بحاجةٍ إلى عددٍ أقل من المحامين والقضاة مثلما كان جبل القانون هذا في بداياته؟ إننا بالعكس نشوِّشُ على العقل وندفنه، ونحن لن نكتشفه إلا بعد هذا الكمِّ الهائل من السياجات والعوائق. الناس لا يعرفون المرض الطبيعي الذي ألمَّ بعقلهم، فهذا الأخير لا يقوم سوى بالتنقيب والبحث، ولا يكف عن الدوران حول نفسه، تائهًا في شرَك ما يتصوَّرُ، كما دودة القزِّ؛ لينتهي

إلى الاختناق في شرنقته. «**مثل فأرة تعلق في الغراء**»[1]. إنه يتصور أنه يبصر من بعيدٍ شبحًا ما للوضوح والحقيقة الخياليْن، وبينما هو يهرع نحوه تصادفه الكثير من المصاعب التي تعوق سبيله، والعديد من الموانع والمباحث تنبثق بحيث إنه يُصاب بالضلال وبالدُّوار، وذلك ما لا يختلف عما وقع لكلاب أيسوبوس، التي حين اكتشفت شيئًا يشبه جثةً تطفو على سطح الموج، وبما أنها لم تستطع بلوغها، بدأت تشرب من ذلك الماء معتقدةً أنها سوف تتمكن من تجفيف ممرٍّ لها إليه، فهلكت. وهو ما يحيل إلى ما قاله شخصٍ يسمى كراتيس عن كتابات هيراقليتوس، من أنها يلزم لقراءتها قارئٌ يكون عوامًا ماهرًا؛ كي لا يبتلعه ولا يخنقه عمق علمه وثقله.

نشاط العقل

8. وحده ضعفٌ خاصٌّ يمكنه أن يجعلنا نكتفي بما وجدْنا أو وجده آخرون في هذا المطاردة للمعرفة. ثمة دومًا مكانٌ للاحقٍ، وحتى لنا ثمة طريقٌ يمر من مكانٍ آخر. ليس هناك من نهايةٍ لبحثنا، فنهايتنا توجد في الآخرة، وحين يعتبر عقلنا نفسه راضيًا ومُشبَعًا فذلك علامةٌ على الانكماش والإنهاك، وليس هناك من عقلٍ جيِّدٍ يتوقف من تلقاء ذاته، فهو يجتهد دومًا في السير إلى أبعد وفوق طاقته؛ فجموحه يحمله أبعد من قواه، وهو مُلزمٌ بالتقدُّمِ ويحث نفسه حثًّا، ويجثم ويكيل لنفسه الضربات ويترجرج، وإلا فإنه لا يعيش إلا نصفيًّا. إن هدفه لا حدٌّ له ولا شكلٌ، وغذاؤه الدهشة والمتابعة والغموض. ذلك ما كان يُبين عنه الإله أبّولون، الذي كان يتكلم معنا كلامًا مزدوجًا غامضًا وموارِبًا لا يرضينا، لكنه يشغلنا بلُعَبٍ من قبيل تلك. إن حركة العقل حركةٌ غير منتظمةٍ ودائمةٍ من غير مثالٍ ولا هدفٍ، وأفكاره تثير بعضها البعض وتتوالى وتتوالد في ما بينها.

«وهكذا نرى غديرًا سيالا
تتوالى فيه المياه بلا نهايةٍ

(1)Érasme, **Adages** in **«Œuvres et correspondance»**, II, 3, 68.

منتظمةً في سريرٍ خالدٍ
يتبع بعضها البعض فيهرب منه
تتدافع بعضها مع البعض
ويسبق بعضها البعض
دومًا يسري الماء في الماء، ودومًا
الغدير نفسه، ودومًا مياهٌ متغيرةٌ»[1].

9. ثمة جهدٌ أكبر في التأويل منه في تأويل التأويلات نفسها، وثمة أيضًا كتبٌ عديدةٌ تكتب عن الكتب أكثر من أي موضوعٍ آخرَ، فنحن لا نقوم سوى بشرح بعضنا البعض والتعليق عليه. كل شيءٍ يعجُّ بالشروح والتعليقات، بيد أن المؤلفين قليلون جدًا. أليس العلم الأكثر شهرةً اليوم والأهم في عصرنا هو أن نعرف كيف نفهمَ العلماء؟ أليس ذلك هو الهدف العادي والنهائي لكل الدراسات؟ آراؤنا تلتصق بعضها ببعضٍ، الأول يكون بمثابة ساقٍ للثاني والثاني للثالث، وهكذا نحن نتسامى من مرتبةٍ لمرتبةٍ، ومن ثم يأتي أنَّ من صعِدَ عاليًا يعود له كامل الشرف والاستحقاق، لأنه صعِدَ على أكتاف الآخرين ولم يجاوز إلا قليلًا مَن كان قبله. كم من مرةٍ، وربما بغباءٍ، جعلت كتابي هذا يسير حتى الحديث عن ذاته؟ والغباء هنا ليس إلا لهذا السبب: إذ عليَّ أن أتذكَّرَ ما أقول عن الآخرين الذين يقومون بالشيء نفسه، وأن تلك الغمزات التي يرمون بها لمؤلفاتهم تشهد على أن قلبهم ينبض حبًا لها، وحتى الفظاظة والمقت اللذان يُبينون عنهما تجاهها، ليست سوى الرقة والتصرفات العاطفية للعناية الأمومية بها؛ على الأقل حسب أرسطو[2]، الذي يعتبر أن التعلق بالنفس وكراهيتها ينْبعان من شكل الكبرياء نفسها، فأنا لا أدري إذا كان كل واحدٍ سيقبل عذري هذا. أستطيع في هذه النقطة أن تكون لي حريةٌ أكبر مما للآخرين، بما أني أكتب مطلقًا عن نفسي، وعمّا أكتب كما عن أعمالي وأفعالي الأخرى؛ إذ إن موضوعي ينقلب على نفسه.

10. في الأراضي الألمانية رأيت كيف أثار الانشقاق والجدل حول آراء لوثر مقدار ما أثاره عن الكتابات المقدسة أو أكثر، واحتجاجنا ليس سوى

---

(1) La Boétie, **Pièce dédiée à Marguerite Carle**.

(2) Aristote, **Ethique à Nicomaque**.

مسألة كلماتٍ. حين أسأل ما هي الطبيعة والمتعة والدائرة والبدَل، فهو سؤالٌ يتعلق بالكلمات، ونحن نجيب عنه بالكلمات. الصخرة جسمٌ، لكن إذا ما نحن تمادينا في الإلحاح: والجسم، ما هو الجسم إذًا؟ هل هو مادةٌ؟ وما هي المادة؟ وهلمّ جرّا، وسوف نحبس في النهاية مُحادِثنا في قلب معجمه. نحن نستبْدل كلمةً بأخرى تكون غالبًا مجهولةً أكثر، وأنا أعرف جيدًا ما يعنيه «إنسان» أكثر من«حيوانٍ» أو «فانٍ» أو «عاقلٍ»؛ فلكي يتم الجواب على شكٍّ ما، يتم ضربه لي في ثلاثةٍ! كما يكون ذلك مع رأس العُدار[1].

11. سأل سقراط ميمنون عما هي الفضيلة[2]؟ فأجاب ميمنون: «هناك فضيلة الرجل وفضيلة المرأة، وفضيلة الرجل الشخصي وفضيلة القاضي، وفضيلة الطفل وفضيلة العجوز». فقال سقراط: «ياه، كنا نبحث عن فضيلةٍ واحدةٍ وها نحن أمام شهدٍ منها». إننا نطرح سؤالًا ومقابل ذلك نتلقى خلية نحلٍ من الأجوبة. فكما أن أي وضعيةٍ وأي شكلٍ لا يشبه تمامًا وضعيةً أو شكلًا آخر،فلا وجود لوضعيةٍ أو شكلٍ يختلف تمامًا عن وضعيةٍ أخرى أو شكلٍ آخر، إنه خليطٌ حاذقٌ نَدين به للطبيعة. لو أن وجوهنا لم تكن كلها متشابهةً، لم يكن بإمكاننا أن نميز الإنسان عن الدابة، ولو لم يكونوا كلهم مختلفين عن بعضهم البعض، لم يكن بإمكاننا التمييز بين شخصٍ وآخر. كل الأشياء تترابط بشَبهٍ معيَّنٍ وكل مثالٍ يعلن عن اختلافه. فالعلاقة التي نستقي من التجربة تكون دومًا غير مكتملةٍ، ومع ذلك فإننا نربط بين طرفيْ المقارنة بخيطٍ ما، والأمر نفسه ينسحب على القوانين، فهي تتكيَّفُ مع كل شأنٍ من شؤوننا بفضل تأويلٍ ملتوٍ يكون تعسفيًّا شيئًا ما ومُغرضًا.

12. لما كانت القوانين الأخلاقية المتعلقة بالواجبات الخاصة بكل فردٍ إزاء نفسه صعبٌ إرساؤها، كما يمكن أن نلاحظ ذلك، فليس من الغريب أن تلك المتعلِّقةَ بالجموع تكون أكثر صعوبةً في إرسائها. انظروا لهذه العدالة التي تدبِّرُ أمورنا، إنها شهادةٌ حقَّةٌ على العجز البشري بما تحتويه من كمٍّ هائلٍ من التناقضات والأخطاء، وما نجد من أمثلةٍ للعطف والصرامة

(1) كان الغدار ليرنايا عبارةً عن ثعبانٍ بسبعة رؤوس، وكلما قُطع له رأس كان ينبعث مزدوجًا.

(2) Plutarque, **Œuvres, mêlées**, XVI, De la pluralité d'Amis, I.

في العدالة -ونحن نجد منها مقدار ما أتساءل لو كانت الحالة الوسط توجد فيها غالبًا- فهي في الواقع الأجزاء المرَضية والأطراف الشائهة للجسم الحقيقي للعدالة. جاءني فلاحون لإخطاري على عجلٍ بأنهم قد تركوا لتوّهِم، في الغابة التي أمْلِكُها، رجلًا تعرَّض للجَلْد ولا يزال يتنفَّس، طلب منهم من باب الإحسان ماءً وأن يوقفوه على قدميه، وقد أخبروني أنهم لم يجرؤوا على الاقتراب منه وأطلقوا ساقيْهم للريح خوفًا من أن يلاحقهم رجال العدالة؛ إذ إنهم تبعًا لما يحدث حين يجدون أناسًا قرب جثةٍ، ولا يقدمون وصفًا لما حدث، يكون ذلك مجلبَةً للمضرَّة لهم، ذلك أن ليس لهم مهارةٌ ولا مالٌ لكي يدافعوا عن براءتهم. ما الذي يمكن أن أجيبهم به؟ من الأكيد أن هذا الفعل المتواضع قد يجلب عليهم ضررًا ما بعده ضررٌ.

13. كم من مرةٍ اكتشفنا أن أشخاصًا أبرياء قد عوقبوا من غير أن يكون هناك خطأٌ في ذلك من القضاة؟ وكم من هذه القضايا بلغت أسماعنا؟ إليكم شيئًا وقع في زمني: «حُكم بالإعدام على أناسٍ اقترفوا جريمة قتلٍ،والحكم بالإعدام إن لم يكن قد تمَّ التلفظ به بعدُ، فقد تمَّ الاتفاق عليه وتقريره. وفي تلك الأثناء، ها هم القضاة يتوصلون إلى خبرٍ من محكمةٍ ثانويةٍ مجاورةٍ، بأنهم يحتجزون بعض المعتقلين يعترفون بوضوحٍ باقترافهم ذلك الجُرم، ويسلطون على عملية القتل أضواءً لا تقبل الشك. تمَّت المداولات لمعرفة ما إذا كان من اللازم توقيف عملية الحكم، وتأجيل تنفيذ الحكم بالإعدام الذي تمَّ اتخاذ قراره ضد الرجال الأوائل. إن أخذ جدَّة المثال ونتائجه بعين الاعتبار يتمُّ حين يُعلَّق الحكم،أما حين يكون الحكم قد صدر قانونيًّا ولا يحس القضاة بأي ندمٍ، فإن أولئك الشياطين المساكين تتمُّ التضحية بهم لأجل صوريَّة العدالة[1]. وفيليبوس، أو شخصٌ آخر غيره، أخرج نفسه من وضعيةٍ مشابهةٍ. فقد حُكم على رجلٍ أن يؤدي غرامةً باهظةً لرجلٍ آخر، وكان الحكم قد نُطِق به، وحين انكشفت الحقيقية بعد ذلك بقليلٍ، أدرك القاضي أنه قد أصدر حكمًا ظالمًا، فقد كان هناك من جهة مصلحة القضية، ومن الجهة الأخرى مصلحة الأشكال القانونية، وهكذا منح

(1)Plutarque, **Œuvres**,mêlées, XXXIII, «Dicts des anciens rois».

الأحقِّية للاثنين، تاركًا الحكم على حاله، لكن بتعويض الضَّرر الذي لحق بالمحكوم عليه من ماله الخاص، بيْد أن الأمر كان يتعلَّق هنا بضررٍ قابلٍ للإصلاح، أما الناس الذين تحدثت عنهم فقد تعرضوا للشنق، وهو حكمٌ لا يمكن إصلاحه، فكمْ شهدتُ من أحكامٍ تكون أكثر جرمًا من الجريمة!

14. كل هذا يذكُّرني بهذه الأحكام القديمة، أي أن على المرء لزوم الخطأ في التفاصيل إذا هو أراد أن يتصرف باستقامةٍ في العموم، ولزوم الظلم في بعض الأمور الصغيرة إذا أراد أن يكون عادلًا في الأمور الكبيرة، وأن العدالة الإنسانية قد حاكت أنموذج الطب، الذي يرى أن كل ما هو نافعٌ، يكون عادلًا ونزيهًا في الآن نفسه. كان الرواقيون يعتقدون أن الطبيعة نفسها تعمل ضد العدل في أغلب أعمالها، أما الفلاسفة القورينيون من جهتهم، فكانوا يعتبرون أن لا شيء عادلٌ في ذاته، وأن العوائد والشرائع هي التي تكوِّنُ العدل. وأما الثيوديريّون، فقد اعتبروا أن من العدل لدى الحكيم أن يقوم بسرقةٍ أو بتدنيس المقدسات أو بأي نوعٍ من الفجور إذا ما رأى أن ذلك نافعٌ له.

15. ليس ثمة إذًا من دواءٍ، وأنا بلغت ما بلغه ألكيبياديس، وأعتقد مثله بأني لن أمثُل-إذا ما استطعت ذلك- أمام شخصٍ سيحكم عليَّ بالإعدام، وأن حياتي رهينةٌ بما أعترف به أكثر من براءتي. يمكنني أن أخاطر بنفسي بالمثول أمام عدالةٍ تأخذ بعين الاعتبار الأعمال الخيِّرة، مقدار اعتبارها للأعمال الشريرة، والتي أمامها يمكنني الأمل كما الخوف. أن يحافظ المرء على سلامته ليس جزاءً كافيًا لشخصٍ يعمل أكثر وأفضل من عدم اقتراف إثمٍ. عدالتنا لا تقدِّمُ لنا سوى يدٍ واحدةٍ من يديها، بل -أكثر من ذلك- إنها تقدم لنا اليد اليسرى، ونحن نخرج منها فاقدين لشيءٍ ما مهما كنا.

16. في مملكة الصين[1]، يختلف تدبير الفنون كثيرًا عما هو الحال لدينا، ويفوقنا في مجالاتٍ عديدةٍ يمتازون فيها، وتاريخ هذا البلد يعلمني إلى أي حدٍّ يكون العالم أكثر شُسوعًا وتنوعًا مما لا يبلغه تصوُّر القدماء ولا

(1) Gonzalès de Mendoza, **L'Histoire du grand royaume de la Chine**, version française de Luc de la Porte (1588).

نحن المحدثين، والرجال الذين يعيِّنهم الأمير لمراقبة محافظاته يقومون بمعاقبة من ارتكب خيانة الأمانة والاختلاس، غير أنهم يجازون أيضًا بسخاءٍ من تصرفوا بشكلٍ أفضل من المستوى العادي، وجاوَزوا بذلك واجباتهم، والناس يتقدمون بين أيديهم ليس فقط للحصول على شهادة حسن السلوك، ولكن أيضًا للحصول على الجزاء والأعطيات.

الحرية

17. لم يحدثني إلى اليوم -والحمد لله- أيُّ قاضٍ باعتباره قاضيًا في أي قضيةٍ من القضايا، سواءٌ كانت قضيتي أو قضية الغير، وسواءٌ كانت قضيةً جنائيةً أو مدنيةً. ولم أرتدْ أبدًا السجن، حتى ولوْ للتجول في أرجائه[1]، والخيال يجعلني أنفر من رؤيته ولو من الخارج. وإني أعشق الحرية عشقًا بالغًا بحيث إنْ منعني أحدٌ من زيارة منطقةٍ من مناطق الهند، فإن ذلك سيؤثر على نفسيتي، وطالما وجدت الأرض والهواء مُسرحيْن لي في مكانٍ آخر، فإني لن أقْعي في مكانٍ حيث عليَّ التواري عن الأنظار. يا إلهي، لن أستطيع تحمُّلَ الشروط التي أرى فيها العديد من الناس يعيشون لازمين حيًّا من أحياء هذه المملكة، ممنوعين من دخول المدن الكبرى، وولوج البلاط الملكيِّ، واستعمال الطرقات العمومية؛ لأنهم دخلوا في نزاعٍ مع قوانيننا، والقوانين التي أخدمها لو هدَّدتني بإشارةٍ من إصبعها فقط لرحت بحثًا عن قوانين أخرى حيثما كانت. وحكمتي الصغيرة كلها في الحروب الأهلية أستخدمها بشكلٍ لا تعوق فيه حريتي في الرواح والأوْبة.

ضد القوانين

18. لا تظل القوانين محافظةً على قوَّتها لأنها تكون عادلةً وإنما لأنها قوانين، إنه الأساس الصوفي لسلطتها، وليس لها من أساسٍ غير ذلك، وهو أمرٌ في

(1) تعرض مونتيني للسجن لبضع ساعاتٍ، غير أن ذلك قد كان ربما بعد كتابة هذه المقالة.

صالحها: لأنها تُسنُّ عادةً على يد أناسٍ أغبياء، وغالبًا تُسنُّ على يد أناسٍ ينقصهم العدل لأنهم يمقتون المساواة، لكنها أيضًا تُسنُّ على يد أناسٍ يكونون مؤلفين تافهين ولا ثبات لعقولهم.

19. لا يوجد شيءٌ غير معصومٍ من الخطأ أكثر من القوانين، ومن يخضع لها لأنها عادلةٌ لا يطيعها حقًّا من الجانب الذي يلزم عليه ذلك. وقوانينُنا الفرنسية، بتشوُّشها ونقائصها، تمدُّ يدها للفوضى والفساد الذي يمكن أن نلاحظه في تطبيقها. فالأوامر من الغموض وقلة الصرامة بحيث إنها تسمح بالعصيان وسوء التأويل في تدبيرها وتطبيقها. وهكذا، مهما كانت النتيجة التي يمكن أن نستخلصها من التجربة، فإن تلك التي نستقيها من أمثلةٍ أجنبيةٍ ستكون غير ذات جدوًى لمؤسساتنا، إذا لم نستفد من تلك التي لنا عن أنفسنا، باعتبارها مألوفةً وكافيةً بالتأكيد لتعليمنا ما يلزمنا.

20. أنا بالنسبة إلى نفسي موضوع للدراسة الطبيعية بل والميتافيزيقية، أكثر من أي موضوعٍ آخرَ.

«بأي فنٍ يحكم الله العالم مسكننا؟
أين يطلُع القمر ويتوارى؟ كيف يمكنه
وهو يجمع هلاليْه، أن يكون بدرًا تامًّا كل شهرٍ؟
من أين تأتي الريح التي تسود البحار؟ وما أثر
الرياح الشرقية؟ ومن أين يأتي الماء الدائم في الغيم؟
هل سيأتي يوم ستنهد فيه أساسات العالم؟»[1].
«ابحثوا، أنتم الشغوفون بإيقاع العالم»[2].

21. أترك نفسي، على سجيَّتي في هذه الدنيا، جاهلًا بالقانون العام للعالم. وأنا سأعرفه معرفة كافية حين سأحس بأثره في نفسي، فعلمي به لن يكون قادرًا على تغييره لطريقه، وهو قانونٌ لن يغيِّرَ نفسه من أجلي، فمن الجنون الأمل في ذلك. وجنونٌ أكبر الجَهد في ذلك، بما أنه هو القانون نفسه، العمومي والمشترك بين كافة الناس. مزايا الحاكم

(1) Properce, **Elégies amoureuses – Cynthia,** III, 5, vv. 26 sq.
(2) Luçain, **La Guerre civile ou La Pharsale,** I, v. 417.

وخصاله الحميدة عليها أن تعفينا تمامًا ومن دون تحفُّظٍ من العناية بحكمه، والأبحاث والتأملات الفلسفية ليست سوى غذاءٍ لفضولنا.

22. الفلاسفة على حقٍ في إحالتنا إلى قواعد الطبيعة، بيْد أن تلك القواعد تتلاعب بمعرفةٍ بالغة السموّ، فما يقدمون لنا مزيَّفًا، ووجه الطبيعة الذي يبرزونه لنا مصبوغٌ بالكثير من الألوان وبالغ الاصطناع، ومن ثمَّ تنبع التصورات المتنوعة لشيءٍ بالغ الوحدة والانسجام، فكما أن الطبيعة حبتْنا بأرجلٍ للمشي، فقد حبتنا بالحكمة والحِلم لنشقَّ طريقنا في الحياة. إنها حكمةٌ ليست بحذق وصلابة وفخامة حكمة الفلاسفة التي يبتدعون، وإنما هي حكمةٌ سهلةٌ وهادئةٌ وحاسمةٌ كما ينبغي لها، وتقوم بشكلٍ جيّدٍ بما تزعم القيام بهحكمة الفلاسفة، لدى من يسعد باستعمالها بشكلٍ ساذجٍ وبطريقةٍ منظَّمةٍ، أي بطريقةٍ فطريةٍ. الرجوع بشكلٍ بالغ البساطة إلى الفطرة والطبيعة، يعني أن تضع نفسك بين يديها بشكلٍ حكيمٍ. آهٍ، كم يكون الجهل وقلة الهموم المعرفية عبارةً عن وسادةٍ ناعمةٍ ومريحةٍ وسليمةٍ يرتاح عليها الرأس السليم.

23. أفضِّل أن أفهم نفسي على أن أفهم شيشرون, ففي التجربة التي لي عن نفسي، أعثر على ما يكفيني لكي أكون حكيمًا، لو كنت تلميذًا مجتهدًا. من يتذكر سوْرات غضبه الماضية، وإلى أي حدٍّ سارت به تلك الحمى، يرى بشاعة ذلك النزوع منه أفضل لدى أرسطو، ويبلور إزاءه مقتًا أصح. ومن يتذكر الشرور التي عانى منها وتلك التي تهدَّدته، والأسباب التافهة التي جعلته يمر من حالٍ إلى حالٍ، يتهيَّأُ من خلال ذلك إلى التحولات المقبلة ويقْبل بعيشه. وحياة يوليوس قيصر لا تقدم الدروس لنا أكثر مما تقدمه لنا حياتنا؛ فالحياة سواءٌ كانت حياة إمبراطور أو رجلٍ من الشعب، تظل دومًا حياةً معرّضةً لكافة الحوادث التي تصادفها الحياة البشرية. لنعرفْ فقط أن نصيخ السمع لحياتنا، فنحن نقول لبعضنا كل ما نحتاج إليه، ومن يتذكَّر أنه قد أخطأ مرارًا في أحكامه، ألا يكون غبيًا إذا هو لم يحترس منها دوْمًا آجلًا؟ حين يقنعني حِجاج شخصٍ، فما أتعلَّم ليس ما قاله من جديدٍ لي، فذلك نزْر يسير، وإنما جهلي بما قال، وأنا أتعلم في ذلك بالأحرى مدى ضعفي وخيانة فهمي، ومن ذلك

أستقي طريقة تحسين الكل، وإني أفعل الشيء نفسه مع كافة أخطائي الأخرى، وأحس بأن هذه القاعدة ذات جدوًى كبيرةٍ في الحياة. وأنا لا أعتبر بني البشر والفرد حجر عثرةٍ؛ إذ إني أتعلم الاحتراس في كل مكانٍ من سلوكي وأجتهد في التحكم فيه،وإنه لأمرٌ نافلٌ أن نعلم أننا قلنا سخافةً أو عملناها، فما يلزم هو أن نعلم أننا لسنا سوى أغبياء، وهو درسٌ أعمق وأهم. الهنَّاتُ التي تسببتْ لي فيها ذاكرتي حين كانت تبدو أكثر ثقةً في نفسها لم تذهب سُدًى، فهي اليوم تؤكِّد لي وفاءها فلا أصدِّقُ ما سمعت، فالأمر الأول الذي تتم به معارضة شهادتها يتركني في حيرةٍ من أمري وأمرها، ولن أجرؤ على الاعتماد على ذاكرتي في أمرٍ هامٍّ، ولا جعلها ضامنًا في ما يتعلق بالغير. وإذا كنت لا أدْري ما أقوم به بنقصٍ في الذاكرة، ويقوم به الآخرون غالبًا بنقصٍ في الوفاء، فإني سأصدق عن طيب خاطرٍ كل ما يتفوَّه به شخصٌ آخرُ غيري، ولو قام كل واحدٍ منا بالتمعُّنِ في الظروف والأهواء التي تحرِّكُهُ-كما فعلتُ أنا مع الظروف والنوازع التي ألمّت بي مع الغير- فسوف يرونها عن بُعدٍ بحيث يلطِّفُون من سرعتهم المتهورة، فهي لا تتعلَّق بنا من الوهلة الأولى تعلق الغريق بقشةٍ، بل تقوم أولًا بإنذارنا وتكون لها في ذلك درَجاتٍ ومقاماتٍ.

«بالشكل نفسه، عند أول هبَّة ريح، يتلبّس البحر بالبياض ثم ينتفخ شيئًا فشيئًا، ويتعالى لكي ينهض في الأخير من عمق الهاوية؛ ليتسامى نحو السماء»[1].

24. الحكْم ينعم لديَّ بالمرتبة الأولى، أو على الأقل يسعى جاهدًا لاحتلالها، فهو يترك أحاسيسي تسير على عواهنها، في الكراهية كما في الصداقة، بل حتى في الحكم الذي أطلقه على نفسي من غير فسادٍ أو تشوُّهٍ، وإذا هو لم يستطع أن يحسِّنَ -على طريقته- من العناصر الأخرى في ذاتي، فهو على الأقلّ لا يترك نفسه يتشوَّهُ بسببها، فهو يسير وحده وسْط الجموع.

25. المبدأ الممنوح لكل واحدٍ منا في أن يعرف نفسه، يلزم أن يكون ذا أهميةٍ قصوى؛ لأن إله العلم والنور[2] نقشه على جبين معبده، معتبرًا أنه يحوي كل ما له أن يعلِّمَنا إياه. أفلاطون أيضًا يقول: إن الحكمة ليست

(1) Virgile, **Énéide**, VII, 528.

(2) هو أبولون. وقد قيل إن مبدأ «اعرف نفسك بنفسك» كان منقوشًا في أعلى بوابة معبده في دیلفوي.

شيئًا آخر إلا تطبيقًا لذلك المبدأ[1]، وسقراط يتحقق منه بدقّةٍ، كما نلاحظ ذلك لدى كسينوفون[2]. وحدهم من يملكون علمًا ما يمكنهم إدراك مصاعبه وغوامضه؛ لذا من اللازم أن يملك المرء بعض الذكاء كي يكون قادرًا على ملاحظة ما يجهل، وعليه أن يدفع الباب ليعرف إنْ كان مغلقًا، ومن ثم تأتي تلك الدقة التي نجدها لدى أفلاطون، حين يقول إن من يعرفون ليس لهم من أمرٍ يسألون عنه بما أنهم يعرفون، ومن لا يعرفون ليس لهم أيضًا ما يسألون عنه؛ إذ للسؤال عن أمرٍ علينا أن نكون على درايةٍ بما نريد أن نعرف.

26. في هذا العلم الذي يختص بنفْس الفرد، فإن كوْن كل شخصٍ يعتبر نفسه عارفًا جيّدًا يعني في الواقع أن لا أحد يفقه في ذلك شيئًا، كما يُعلم سقراط بذلك صاحبه يوثيديموس، وأنا الذي لا يهتم بشيءٍ آخرَ، أعتبر أن هذه الحكمة ذات عمقٍ وتنويعاتٍ لانهائيةٍ، بحيث إن تعلُّمي لا نتيجة له غير أن يجعلني أحس بما تبقّى عليَّ تعلُّمه، ومن اعترافي مرارًا بضعْفي يأتيني النزوع الذي لديَّ إلى التواضع وطاعة المعتقدات التي تلقيتها، وبرودة أعصابي الثابتة واعتدال آرائي، ومن ثمَّ أيضًا تنبع الكراهية التي أحسها إزاء تلك العجرفة المزعجة والعدوانية، التي أعتبرها العدو المطلق للدراسة والحقيقة؛ لأنها لا تؤمن إلا بنفسها ولا تثق إلا بذاتها. أنصتوا لأولئك الناس يتظاهرون بأنهم شيوخ الفكر، فالغباوات الأولى التي ينطقون بها، هي من قبيل الأسلوب الذي يُستعمل في الدين والشرائع. «لا شيء أتفه من البدء بالإثبات والتوكيد قبل القيام بالدراسة والمعرفة»[3].

27. قال أريستارخوس إننا في القديم كنا بالكاد نجد سبعة حكماء في العالم بأسره، وأننا في عصره بالكاد كنا سبعة جهلةٍ[4]. ألن نكون على حقٍ أكبر منه في قول ذلك على يومنا هذا؟ التوكيد والعناد علامتان بديهيتان على الغباء. هاكمْ واحدًا مُرّغ في التراب عشرات المرات في يومٍ واحدٍ، وهو

(1)**Timée** (§ 72) ; **Charmide,** (XII, § 164).

(2)**Les Mémorables**, IV, 2.

(3) Cicéron, **Académiques** I, 12.

(4) **Les Mémorables,** IV, 2.

حين يقف مرةً أخرى على أظافره، يكون أكثر تصميمًا مما كان عليه من قبل، وكأنه قد نُفثت فيه من حينها روحٌ جديدةٌ وعقلٌ جديدٌ أقوى وأشدُّ، وأنه يحدث له ما حدث لذلك الرْجل القديم ابن الأرض[1] الذي كان يكتسب قوًى جديدةً تتعزَّزُ حين كان يسقط أرضًا.

«الذي كانت أطرافه المنهكة حين تلامس الأرض أمه تكتسب قوةً جديدةً»[2].

28. وهذا العنيد الصائع، ألا يعتقد أنه يكتسب عقلًا جديدًا حين يبدأ منازعةً جديدةً؟ تجربتي هي التي تمكنني من إدانة الجهل البشري، وذلك برأيي الدرس الأمثل لمدرسة الواقع، وأولئك الذين لا يريدون الاعتراف لديهم بذلك الدَّجل -تبعًا لمثالٍ تافهٍ كمثالي أو مثالهم- فليعترفوا به بواسطة سقراط شيخ الشيوخ. ولقد كان الفيلسوف أنتيستينيس يقول لتلامذته: «تعالوْا نذهب جميعًا لسماع سقراط، فهناك سأكون تلميذًا مثلي مثلكم». وبما أنه كان يدافع عن هذا المبدأ من مبادئ الرواقيين، الذي مفاده أن الفضيلة تكفي لجعل الحياة كاملة السعادة من غير أن نحتاج لشيءٍ آخر غيرها، أضاف: «إلا لسطوة سقراط».

29. هذا الانتباه الشديد الذي أمارسه مع نفسي باستمرارٍ، يجعلني أنظر للغير تقريبًا بالطريقة نفسها، وقليلةٌ هي الأمور التي أتحدث عنها بذلك القدْر من السعادة وبطريقةٍ مبرَّرةٍ أكثر. يحصل لي كثيرًا أن أميز بين المحاسن والمساوئ التي أراها لدى أصدقائي وبدقةٍ أكبر مما يقومون به مع أنفسهم، فلقد أدهشت أحدهم بوجاهة وصْفي، وقدمت معلوماتٍ كاشفةً عن نفسه، وبما أني تعودت منذ الصبا على أن أرى نفسي في نفوس الناس الآخرين، فقد اكتسبت استعدادًا قويًا لهذا الأمر، وحين أفكر في ذلك، فإني لا أترك أشياء كثيرةً تنفلت من حولي يمكنها أن تساهم في ذلك، من تصرفاتٍ أو أذواقٍ أو كلامٍ، فأنا أتفحَّصُ كل شيءٍ، أي ما ينبغي عليَّ التهرُّبُ منه وما عليَّ اتباعه، وهكذا أكشف لأصدقائي نوازعهم الباطنة من خلال سلوكهم الخارجيِّ. وذلك لا يكون من أجل تنظيم ذلك التنوُّع اللانهائي من

---

(1) أنتيوس ابن الإله نبتونوس والأرض، وحين صارعه هيراكليس أدرك أن التماس مع الأرض كان يمنحه قوةً جديدةً، فرفعه عن الأرض وقتله.

(2) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, IV, vv. 599-600.

الأعمال المختلفة والمتناثرة في خاناتٍ مجردةٍ سلفًا، ولا تصنيف ما ميزت منها وما قسَّمْتُ منها في طبقاتٍ ومجالاتٍ معروفة:

«وإنما لأن لا عدد يمكن أن يكفي
لقول كثرة الأنواع وأسمائها»[1].

30. العلماء يسجلون أفكارهم بشكلٍ أدق وبالتفصيل، أما أنا الذي لا يرى منها إلا ما تُفصح لي عنه التجربة، وبالصدفة، فأقدمها بطريقةٍ فضْفاضةٍ وبالتدريج. مثلًا، أعبر عن أفكاري عبر عناصر مشتَّتةٍ؛ لأنها أمورٌ لا يمكن قولها دفعةً واحدةً وبالجملة. ففي عقولٍ ضعيفةٍ وعاديةٍ كما عقولنا، لا نعثر على تنظيمٍ يكون ملائمًا للمعيار. الحكمة صرْحٌ عتيدٌ وكاملٌ، يوجد فيه كل عنصرٍ في مكانه المعلوم. **«وحدها الحكمة تظل محبوسةً في ذاتها»**[2]. وأنا أترك للناس الأكثر علمًا مني -من غير أن أعرف إنْ كانوا سيسيرون حتى النهاية بأمرٍ من قبيل ذلك معقدٍ ودقيقٍ وبالغ التشوُّش- عناية تجميع هذا التنوع اللانهائي للمظاهر، ووضع حدٍّ للتنويعات وتنظيمها. فأنا لا أجد من الصعب فقط الربط بين الأعمال بعضها ببعضٍ، وإنما أجد من الصعب أن أعيِّنَ كل واحدٍ منها، بالنظر إلى طابعها المزدوج والتلاوين المختلفة التي تتسم بها تحت أضواءٍ متنوعةٍ.

31. من الأمور النادرة أن أنبيرسيّوس، ملك مقدونيا، كان ذا عقلٍ لا يظل ثابتًا في مكانه، بل يتطور من خلال مختلف أنواع الحياة، بحيث كان يُبدي عن أنماط حياةٍ حرةٍ ومترجِّلةٍ، وبحيث لا هو ولا أي شخصٍ آخر يمكنه أن يقول أيَّ رجلٍ هو بالضبط. إنه أمرٌ يمكن أن يكون مع ذلك ملائمًا لكل شخصٍ، بل إني رأيت رجلًا آخر من المرتبة نفسها، يمكن لهذا الحكم أن ينطبق عليه أفضل على ما يبدو لي، أي بلا سلوكٍ وسطٍ، وينقلب من طرفٍ لآخرَ بشكلٍ غير منتظرٍ، ولا سلوكٌ لديه لا تتمُّ معارضته بآخر بشكلٍ مفاجئٍ، ولا مزيَّةٌ بسيطةٌ ومن غير مزيجٍ، إلى حدٍّ يمكننا معه أن نتساءل يومًا إذا ما كان يجتهد في أن يُعرف، وهو يجعل من نفسه غير قابلٍ للتعرف[3].

---

(1) Virgile, **Géorgiques**, II, v. 103.

(2) Cicéron, **De finibus**, III, 7.

(3) قد يتعلق الأمر هنا حسب الشراح بهنري الرابع.

32. على المرء أن تكون له أذنان جيدتان كي ينصت لما يتعرض له من حكمٍ صريحٍ، وما دام هناك القليل من الناس الذين يمكنهم تحمُّلُ ذلك من غير أن يحسوا باللدْغة، فإن من يخاطرون بفعل ذلك إزاءنا يمنحون لنا شهادةً ناصعةً بالصداقة. وإنه لمن دواعي المحبة الحقة لشخصٍ ما أن يغامر المرء بتجريحه وإهانته في صالحه، وأنا أجد من الصعوبة بمكانٍ الحكم على شخصٍ تكون مساوئه أكثر بكثيرٍ من محاسنه ومزاياه. كان أفلاطون يُلزم من يريد فحص نفس شخصٍ آخر بثلاثة مزايا: المعرفة، والعناية، والجرأة.

33. سُئلت يومًا عما إذا كان يمكن لي أن أصلُح لأميرٍ فكَّرَ في استخدامي حين كان لا يزال لي العمر لذلك=

«حين كان الدم الجيِّدُ يمنحني القوة،
ولم يكن صدغاي قد ابيضَّا من الشيخوخة»[1].

=فأجبت: «لا أصلح لشيءٍ». فأنا أعتذر بسهولةٍ ويُسرٍ عن عدم معرفتي فعل أي شيءٍ يجعلني رهينًا بشخصٍ آخرَ، لكني كنت سأقول لسيدي كل الحقيقة بصراحةٍ بالغةٍ، وأتدبَّر سلوكه لو رغب في ذلك، لا بكلامٍ مدرسيٍّ لا أفقه فيه ولا أرى فيه درسًا يمكن استنتاجه لدى من يتقنونه، وإنما من خلال مراقبة طرائقه في الفعل في كل لحظةٍ ووقتٍ، وبالحكم عليها فعلاً بنظرةٍ واحدةٍ بطريقةٍ بسيطةٍ وطبيعيةٍ، وسأجعله يرى كيف يراه الرأي العام على عكس المتزلّفين له، ولا أحد من بينهم لن يقلَّ عن قيمة الملوك، إذا كان مثلهم يفسدهم الأوْغاد المحيطون بهم، ونحن نتأكد من ذلك حين نرى الإسكندر الأكبر نفسه -وهو ملكٌ عظيمٌ وفيلسوفٌ كبيرٌ- لا يسلَم من ذلك، أما أنا فسأكون مالكًا لما يكفي من الوفاء والحكم والحرية للقيام بهذه المهمة المنوطة بي، وهي ستكون وظيفةٌ سريةٌ وإلا فقدتْ أثرها ونعمة الأمير؛ ذلك أن الحقيقة نفسها لا تملك حظوة استخدامها في كل وقتٍ وعلى عواهنها، فاستخدامها النبيل بطبعه له مجالات تطبيقه وحدوده. يحدث أحيانًا، فالناس هكذا بطبعهم، أن يُهمس بالحقيقة في أذن الأمير، فلا يكون ذلك عديم

(1) Virgile, **Énéide**, V, vv. 415-416.

النتائج فقط، وإنما ذا نتائج وخيمةٍ وغير صحيحةٍ. ولن يتمَّ إقناعي بأن تنبيهًا سليم النية لا يمكن أن يؤخذ بالاعتبار بشكلٍ سيّء، وأن الفكرة الأساسية لا يمكن أن تترك المكان لضرورات الشكل.

34. أريد أن أرى في هذا المنصب شخصًا سعيدًا بمصيره=

«يريد أن يكون هو نفسه ولا شيء آخر»[1].

=ويكون ذا نسبٍ عاديّ. أوّلًا: لأنه قد يجد صدًى عميقًا في قلب سيّدِهِ من غير أن يخشى على ترقيته. ثانيًا: ولأنه ذو أصولٍ متوسطةٍ سوف يتواصل بسهولةٍ أكبر مع كافة أنواع الناس، وأنا أريد أن يكون رجلًا واحدًا: لأن توسيع حظوة هذه الحرية وهذه الحميمية لتشمل أناسًا عديدين، ستولّد استهتارًا مُشينًا، وطبعًا فإني سأطالب ذلك الرجل بالأخص وبالتأكيد بالوفاء ولزوم الصمت.

35. علينا ألا نصدِّق ملكًا، حين يتباهى بشجاعته وحزمه في انتظار ملاقاة العدوِّ، وذلك مجدٌ عظيمٌ له، إذا هو لم يستطع تحمُّل حرية كلام صديقٍ له، يستهدف مصلحته وتحسُّن شخصيته، وهو كلامٌ لا يرمي سوى إلى إثارة انتباهه، ما دام أثره الكامل يظل بين يديه. والحال أنه لا يوجد نوعٌ من البشر بحاجةٍ للإنذار الحر والحق أكثر من الملوك، فهم يلزمهم أن يواجهوا الحياة العامة ويحظوا بإعجاب الجماهير، في الوقت الذي يتمُّ فيه بعنايةٍ إخفاء ما يمكن أن يلهيهم سبيلهم عنه، بحيث يجدون أنفسهم -من غير أن يدركوا ذلك-في مواجهة شعبهم الذي يكرههم ويمقتهم، وغالبًا بسبب أمورٍ كان بإمكانهم تفادي أن يمنحوها له، من غير أن يتحملوا مضارَّها لو أُخبروا بذاك وتفادوه في الوقت المناسب. ففي العادة يهتم محظيو الملك بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بسيّدهم، وهم على حقٍ في ذلك، ففي الحقيقة توضع أغلب الخدمات التي تتطلبها صداقةٌ حقيقيةٌ ما على المحكِّ أمام الملك، بحيث لا تتطلب فقط الكثير من العطف والصراحة، وإنما أيضًا الكثير من الشجاعة.

(1) **Martial, Épigrammes**, X, 47, v. 12.

36. وختامًا، فإن كل هذا الخليط الذي أكتب هنا ليس سوى سجلٍ واحدٍ من تجارب حياتي، لكنه قد يصلح مثالًا لصحتنا الروحية، إذا أخذنا الدرس بشكلٍ معاكسٍ. أما صحة البدن فلا يوجد شخصٌ يمكن أن يوفر بصددها تجربةً أكثر فائدةً من تجربتي؛ لأنني أقدمها خالصةً وبلا تحويرٍ أو تشويهٍ من فن الكلام أو الآراء. والتجربة توجد في مجالها الحقّ حين يتعلق الأمر بالطب؛ إذ يترك لها العقل مكانه بكامله. قال الإمبراطور تيبيريوس إن أي شخصٍ عاش عشرين عامًا، عليه أن يعرف ما يلزم عن الأمور التي كانت مضرةً أو حاسمةً، وأن يعرف كيف يعيش حياته من غير اللجوء للطب، ربما أخذ ذلك من سقراط الذي كان ينصح تلامذته بأن يدرسوا أساسًا صحتهم، ويضيف أن شخصًا ذكيًّا يراقب نشاطه وما يأكل ويشرب، سيكون بالتأكيد أقْدر من أي طبيبٍ على معرفة ما هو حسنٌ وما هو سيّئٌ له.

37. يدَّعي الطب دومًا أن التجربة أساس ما يقوم به، وأفلاطون كان إذًا على حقٍّ حين قال: «إن من ينذر نفسه لمهنة الطب ولكي يكون طبيبًا حقيقيًّا، عليه أن يُصاب بكافة الأمراض التي يريد علاجها، وأن يكون قد مرَّ بكافة المصائب وكافة الظروف التي سيكون عليه الحكم فيها، فعليه أن يكون قد أصيب بالجُذام إذا هو أراد أن يعرف كيف يعالجه». والحقيقة أني سأثق بطبيبٍ من قبيل هذا؛ ذلك أن الآخرين يرشدوننا، مثل ذلك الذي يرسم البحار والصخور الخطرة والمرافئ وهو جالسٌ على طاولته، ويبحر فيها بسفينةٍ مرسومةٍ في أمانٍ تامٍّ. لكن اطلبوا منه أن يمر للممارسة، فهو لا يعرف كيف يقوم بذلك. الأطباء يصفون أمراضنا كما يفعل المنادي المدني، الذي يعلن عن ضياع جوادٍ أو كلبٍ بقامةٍ معينةٍ ولون شعرٍ ونوع أذنين معينٍ، لكنك إذا ما قدمته له لن يتعرَّف عليه.

38. والله لو أن الطب قدَّم لي يومًا خدمةً ما، لصرخت عن حسن نية حينها:

«وأخيرًا أضع ثقتي في علمٍ ناجعٍ!»[1].

الفنون التي تعد بالحفاظ على صحة بدننا ونفسنا تكون وعودها ضخمةً، بيد أن القليل منها ما يفي بوعوده. وفي وقتنا هذا، فإن من

(1) Horace, **Épodes**, XVII, 1.

يمتهنها من بيننا لا يُبيّنون أثرها أكثر من الناس الآخرين، ويمكننا أن نقول عنهم إنهم يبيعون الأدوية، أما أنهم أطباء، فذلك ما لا يمكن أن نقوله عنهم.

39. لقد عشت ما يكفي كي أصف طريقة العيش التي مكنتني من أن أسير بعيدًا في طريقي، ولمن يرغب في أن يجربها، فقد جرَّبْتُها وتذوَّقْتُها مثل الغلام[1]، وإليكم منها بعض المبادئ كما ستوفرها لي ذاكرتي. فأنا ليس لي طريقةٌ في التصرف لم تعرف التغيُّرَ مع الأحداث، لكني سأثبت هنا تلك التي تبنيتها عادةً، أي تلك التي هيمنت على سلوكي غالبًا حتى اليوم. طريقة عيشي هيَ هيَ لا تتغيَّرُ سواءٌ كنت مريضًا أو في صحةٍ جيدةٍ، فأنا أحافظ على السرير نفسه والتوقيت ذاته والطعام والشراب نفسه، وأنا لا أضيف لذلك شيئًا البتَّة، بل أجعلها فقط معتدلةً تبعًا لقواي وشهيتي. الصحة لديَّ تعني أن أحافظ على حالي المعتاد من غير إزعاجٍ، فإذا رأيت أن المرض ينحرف بي إلى جانبٍ، وإذا ما صدَّقت الأطباء في ذلك، فإنهم سيجعلونها تنحرف للجانب الآخر، وها أنا خارج سبيلي المعتاد، إما بفعل فنِّهم وإما بالصدفة، وأنا لا أعتقد في شيءٍ بطريقةٍ واثقةٍ أكثر مما يلي: «لا يمكنني أن أنزعج من الأمور التي اعتدتها منذ وقتٍ طويلٍ».

40. العادة هي ما يلزم أن تمنح لحياتنا شكلها الذي يحلو لها، وهي تملك كل ما يمكِّنها من ذلك. إنه شراب سيريا[2] الذي يجعل حياتنا متنوعةً كما يطيب له. كم من الشعوب المجاورة لنا التي تعتبر سخافة الخوف من رطوبة المساء التي تضرُّ بنا بشكلٍ واضحٍ؟ فملاحونا وفلاحونا لا يعيرون لها اهتمامًا. اجعلوا ألمانيًا يتمدَّدُ على سريرٍ، وها أنتم تجعلون منه شخصًا مريضًا، مثله في ذلك مثل الإيطالي على سريرٍ من الريش، والفرنسي من غير ستائر السرير ومن غير نار المدفأة. معدة الإسباني لا تتحمَّلُ طريقة أكلنا، كما لا تتحمل معدتنا طريقة شراب السويسريين.

(1) كان الغلام قديمًا لا يكتفي بسقي الخمر لسيده ولندمائه، فقد كان أيضًا يتذوق الأطعمة قبل سيّده ليتأكد من أنها غير مسمومة.

(2) الساحرة التي منحت لرفاق أوليس شرابًا حولهم إلى خنازير؛ كي تستفرد بالبطل إلى جانبها.

موْقدٌ أم مدخنةٌ؟

41. في مدينة آوغسبورغ[1]، أمتعني ألمانيٌّ وهو يستهجِن مداخننا بالحجة نفسها التي نستعملها نحن عادةً لإدانة مواقدهم، والحقيقة أن تلك الحرارة المنحبسة في الموقد ورائحة المادة المصنوعة منها حين تسخن، تصبح مضرةً برأس أغلب من هم ليسوا متعوِّدين عليها، أما أنا فلا، زِدْ على ذلك أن تلك الحرارة المتساوية والثابتة والعامة، ومن غير بريقٍ أو دخانٍ، ومن غير ريح تمكِّن منه فتحة المدخنة، لهاما يجعلها تضاهي حرارتنا. كم نحن نقلِّدُ المعمار الرومانيَّ! يُحكي في الأزمنة القديمة أنهم كانوا يضعون النار في الخارج في أسفل البيت، وأن الحرارة كانت تستشري فيه عبر قنواتٍ توضع في سُمْك السور محيطةً بالأمكنة المرغوب في تسخينها[2]، ذلك ما كتبه سينيكا في موْطنٍ لا أذكره. وهذا الألماني إذًا، حين سمعني أمتدح مزايا مدينته ومواطن جمالها - وهي بالتأكيد تستحق ذلك - بدأ يشكو لي بلزوم تركه لها، ومن بين المساوئ، التي ذكر لي عنها لإقناعي، آلام الرأس التي تسبِّبها لي في بلدي المداخن، فقد سمعت أحدًا يشكو من تلك الآلام ويعزو لنا ذلك العيب، بما أنه لم يكن يحس بنفسه في بيته. كل حرارةٍ تأتيني من النار تضعفني وتثقل عليَّ. ومع ذلك، ألم يقل إيْوِينوس*[3]: إن أفضل بهارٍ للحياة هو النار[4]؟ وأنا أحاول بالأحرى أن أنفلت من البرد بوسائل أخرى.

42. نحن لا نحب الخمر الذي يتبقى في قاع البرميل، وفي البرتغال يعتبر الناس أن رائحته تلك لذيذةٌ، بحيث إنه شراب الأمراء. بالجملة، كل أمَّةٍ لها العديد من العوائد لا تكون فقط مجهولةً، وإنما تبدو لغيرها من الأمم متوحشةً ومفاجئةً.

43. ما الذي يمكن قوله في ذلك الشعب الذي لا يعتبر الشهادات إلا إذا كانت مطبوعةً، والذي لا يصدق الناس إلا إذا كان ما تفوَّهوا به مكتوبًا في

---

(1) مرَّ بها مونتيني في عام 1580 م.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XC.

(3) * فيلسوف وشاعر إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كان معاصرا لسقراط.

(4) Plutarque, **Œuvres mêlées**, Quest. plat. LXIII.

كتابٍ، ولا الحقيقة إذا لم تكن صادرةً عن فترةٍ شهيرةٍ وموثوقٍ بها[1]؟ نحن نمنح كرامةً لهُرائنا لأننا نقوم بطبعه، وهذا الشعب يعتبر أمرًا مغايرًا القول «لقد قرأته»، على القول «لقد سمعته». لكني أنا الذي لا يشك في ما يأتي على فم بشرٍ مقدار عدم شكه في ما تأتيه يده، والذي يعلم أن الناس تكتب بعدم اهتمامٍ مقدار ما تنطق به، والذي يقيم وزنا لهذا القرن مقدار اعتباره للقرون السالفة، فإني أستشهد بكلام صديقٍ مقدار ما أستشهد بأولوس جيليوس وماكروبيوس؛ وبما رأيت كما بما كتبوا، وبما أننا نعتبر أن الفضيلة لا تكون أكبر بمدى دوامها في الزمن، كذلك أعتبر أن الحقيقة ليست أكثر وثوقًا لأنها تكون أقدم في الزمن.

44. أقول مرارًا: إن الغباء الخالص هو الذي نجعلنا نجري وراء الأمثلة الأجنبية التي يعلموننا إياها في المدرسة، فقيمته هي اليوم نفسها ما كانت عليه في زمن هوميروس وأفلاطون، لكن ألا يعود ذلك إلى أننا نسعى وراء شرف الشواهد أكثر من حقيقة ما نعرض له؟ كما لو أن الأهم يكمن في اقتباس المرء لأدلته من فاسكوزان وبلانتان[2]،لا في ما يمكنه العثور عليه في قريته! إلا إذا كان ذلك لأننا لا نملك ما يكفي من العقل؛ لكي نفكك ما يقع أمام ناظرينا ونمنحه قيمته، ونستخلص منه ما يمكِّنه من أن يكون مثالًا؟ إنه لعذرٌ غير مقنعٍ القول: إننا لا نملك السلطة الضرورية لكي نمنح الصدْقية لشهادتنا. ففي نظري يمكن للأمور الخارقة والأمثلة الأكثر إبهارًا أن تُستقى من الأمور العادية والمشتركة، لو استطعنا إبصارها على حقيقتها، وخاصةً الأعمال الإنسانية منها.

أمثلة معيشة

45. لكن، لأعدْ لموضوعي تاركًا الأمثلة التي أجدها في الكتب، وما يقول أرسطو عن أندرونوس الأرجيكي، من أنه كان يعبر صحراء ليبيا من غير

(1) في عصر مونتيني لم تكن العصور الوسطى مثلاً موثوقًا بها؛ إذ إن المرجعية المطلقة كانت هي العصور القديمة.

(2) مشيل دو فاسكوزان، كان طابعًا وناشرًا بباريس، وقد نشر ترجمة أميوت لبلوتارخوس التي يحيل مرارًا لها مونتيني، وبلانتان كان طابعًا وناشرًا في مدينة أنتويرب.

أن يشرب قطرة ماءٍ. صرح رجلٌ نبيلٌ (كان قد تحمَّل عن جدارةٍ العديد من المسؤوليات) يومًا أمامي أنه راح إلى مدريد ولشبونة في عزِّ الصيف من غير أن يشرب ماء، وقد كان في صحةٍ جيدةٍ بالنسبة لسنه، وحياتُه لا شيء خارقٌ فيها، سوى (حسب ما قال لي) أنه يحدث له أن يظل من غير شرب الماء شهرين أو ثلاثة، بل سنةً أيضًا، إنه يحس بالعطش غير أنه ينسى حاله، وهو يشرب عن نزوةٍ لا عن حاجةٍ أو من أجل متعة الشرب.

46. وإليكم مثالًا آخر: «من وقتٍ قريبٍ، التقيت أحد أكبر رجال العلم بفرنسا[1]، وهو رجلٌ كان مصيره أبعد من أن يكون وضيعًا، وكان يشتغل في زاويةٍ من القاعة التي ملأوا جدرانها لأجله بالأبسطة الحائطية، ولما كان حوله هَرْجٌ ومَرْجٌ كبيران كان سببهما خدمه، قال لي - وسينيكا كان بإمكانه أن يقول لي الشيء نفسه - إنه كان يستفيد من ذلك الهَرْجِ والمَرْجِ للدخول في حالات تفكُّرٍ وتأمُّلٍ، كما لو أنه - وهو يتلقى هجمات ذلك الضجيج - ينكمش على نفسه ويستبطن ذاته، بحيث إن عاصفة تلك الأصوات كانت تعزِّزُ أفكاره. وحين كان طالبًا بمدينة بادوفا، اضطر إلى العمل طويلًا معرَّضًا لضجيج العربات وجلبة الساحة العامة حيث كان يقطن، بحيث إنه تعوَّدَ ليس فقط على كره الضجيج، وإنما أيضًا على جعله في خدمة دراساته». وسقراط، حين عبَّرَ ألكيبياديس عن اندهاشه من كونه يتحمل الجلبة التي كانت تثيرها زوجته بمزاجها السيّئ، ألم يجبه بقوله: «أنا مثل الناس المتعوّدين على نواعير استجلاب الماء». أما أنا فعلى النقيض تمامًا من ذلك، عقلي خفيفٌ ويحلِّقُ بسهولةٍ، فحين يكون مشغولًا بأفكاره، يزعجه الطنين الأكثر خفوتًا لذبابة.

47. كان سينيكا في شبابه قد تبنى بحماسةٍ مثال الفيلسوف الرومانيِّ سكستيوس، الذي كان ينصح الناس بعدم أكل لحم حيوانٍ تعرَّضَ للقتل، وقد تخلَّى عن ذلك لمدَّة سنةٍ حسب زعمه[2]، وقد خرق مرةً واحدةً هذه القاعدة؛ حتى لا يُشكَّ في أنه قد اقتبسها من بعض الديانات الجديدة التي كانت تدعو لذلك. وفي الآن نفسه، قام بتبنِّي مبادئ

(1) هذا الرجل هو جون دو فيفون، ماركيز بيزاني الذي كان سفيرًا لفرنسا بإسبانيا ثم بروما.
(2) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XXIII.

أتّالوس، الذي كان يدعو إلى عدم النوم على أفرشةٍ رخوةٍ، واستعمل حتى شيخوخته الأفرشة التي ظلت تحافظ على صلابتها، فما كانت عوائد زمنه تجعله يعتبره ضربًا من التقشُّفِ، يقدمه لنا زمننا كما لو كان ضربًا من الرخاوة واللين.

48. لِتنظروا إلى الاختلاف بين طريقة عيش الناس الذين أستخدمهم في أشغالي وبين طريقتي في العيش، فطرائق السكوثيين والهنود ليست ببعيدةٍ عن ممكناتي وتصرفاتي. أعلم أني قد انتزعت أطفالًا من التسوُّلِ لأجعلهم في خدْمتي، وأنهم قد هجروا مطبخي وكسوة الخدم للعودة إلى حياتهم الأصل، ولقد عثرت على واحدٍ منهم ظل من حينها يجمع الحلزون في الطرقات كي يطبخ به عشاءه، ولا ابتهالاتي ولا تهديداتي جعلته يترك النكهة والحلاوة التي وجدهما في الفقر المدْقع؛ فالصعاليك والمتسوِّلون لهم نِعمهم وملذّاتهم مثلهم مثل الأثرياء، بل يُقال: إن لهم أعيانهم ومراتبهم السياسية. تلكمْ آثار العادة، فهي تستطيع أن تقودنا ليس فقط إلى تبنّي سبيلٍ للعيش يلائمها - ولذلك يقول الحكماء: إن من اللازم تبني سبيل العيش الأفضل، بحيث نجعله لنا سهل المنال- وإنما أيضًا تقودنا إلى تغيُّراتٍ وتنوُّعاتٍ تشكل لنا أشرف درْسٍ وأكثره فائدةً ونفعًا.

49. أفضل استعداداتي الجسمانية هي أن أكون مرنًا وقليل العناد، فأنا لي ميولٌ شخصيةٌ وأكثر اعتيادًا وأكثر متعةً من غيرها، غير أني أتنكَّفُ عنها من غير كبير جهدٍ، وأتبنى بسهولة السلوك المقابل. كان شابٌ مضطرًا لخلْخلة عوائد حياته كي يستنهض قواه ويمنعها من التعفُّنِ والضعف؛ فليس ثمَّة من طريقةٍ عيشٍ أغبى ولا أضْعف من الطريقة التي تقوم على قواعد منقولةٍ عن الآخرين.

«هل هو قرَّر أن يُحمَل بعيدًا؟
لقد اختار الوقت لذلك في كتاب علم الفلك.
هل ثمة بثْرٌ في جانب العين التي حكَّها؟
إنه يقرأ علم الأبراج قبل أن يطلب دواءً لعينه»[1].

---

(1) Juvénal, **Satires**, VI, vv. 577-79.

ولو صدَّق هذا الشاب نبوءتي، فإنه سوف يسقط في الغلُوِ مرارًا وتَكرارًا، وإلا فإن فسْقًا ولو طفيفًا سوف يطرحه أرضًا؛ ليغدو أرعنَ وعدوانيًّا في علائقه بالآخرين، فما يليق جيدًا برجلٍ شريف الأخلاق، هو أن يكون لبقًا وأن يتَّبع طريقة وجودٍ خاصَّةً، وهي خاصةٌ أن تكون مرنةً وغير قابلةٍ للاعوجاج. من العار أن يترك المرء، بدافع العجز، أعمالًا تلحق بأصدقائه، يفعلها فيهم غيرهم، وألا يجرؤ على فعلها لهم بنفسه بسبب فتور الهمة. وفي ما عدا ذلك من المُستهجَن تمامًا أن يكون المرء كذلك، لكن الأمر لدى جنديٍّ يعتبر عيْبًا خطيرًا وغير مقبولٍ بتاتًا؛ فالجندي -كما قال فيلوبويمين- عليه أن يعتاد على حياةٍ متقلبةٍ ومتنوِّعةٍ.

تقاليد مونتيني وعاداته

50. بالرغم من أنني هيأت نفسي للحرية وللتكيف مع كل شيءٍ، ما استطعت لذلك سبيلًا، فليس أقل صدقًا من ذلك أني، بعفويةٍ ومع تقد مي في العمر، قد أقمت لنفسي بعض الطرق في التصرف، ففي عمري لم يعدْ بالإمكان تربيتي ولم يعدْ لي ما أقوم به من الآن فصاعدًا غير أن أحافظ على حالي. فالعادة، ومن غير أن أفكر بذلك، قد ترسَّخت فيَّ بخصوص بعض الأمور، بحيث إذا ما انزحتُ عنها، يتكوَّن لديَّ انطباعٌ بأني أسقط في الغلوِّ. فأنا لم أعد معتادًا على النوم خلال النهار، ولا الأكل بين الوجبات، ولا تناول الفطور، ولا النوم إلا بعد ثلاث ساعاتٍ من وجبة العشاء، ولا قضاء الوطر إلا قبل النوم، ولا القيام بذلك واقفًا، ولا تحمُّل عرقي، ولا شرب الماء الخالص أو الخمر الخالص، ولا البقاء حاسر الرأس طويلًا، ولا حلق شعري بعد الغداء، كما أني لم أعد، إلا بصعوبةٍ، أتخلى عن قفازيَّ أكثر من قميصي، أو عن غسل يدي بعد الأكل[1]،أو عن سُرادق سريري وستاره، وهي أمورٌ كانت ضروريةً لديَّ. يمكنني أن أتناول غدائي من غير غطاء المائدة، لكن أن

(1) لنتذكر بأن الناس في تلك الفترة بفرنسا كانت لا تزال تتناول طعامها بالبدين، وأن استعمال الشوكة الذي رآه مونتيني في إيطاليا، كان قد بدأ فقط في الانتشار خارج إيطاليا.

أتغذى على الطريقة الألمانية من غير فوطةٍ بيضاء يكون أمرًا مزعجًا لي، وأنا أوسخهما معًا أكثر مما يقوم بذلك الإيطاليون؛ لأني أستعمل الملعقة والشوكة قليلًا. وأنا آسفٌ لأن الناس لم تتبنّ تلك الطريقة التي رأيتها تبدأ مع محاكاة الملوك، والتي تتمثل في تغيير فوطة اليدين لنا كما الصحون مع كل طبقٍ. ونحن نعلم أن ماريوس، وقد كان جنديًا فظًّا قاسيًا، صار أنيقًا مع شيخوخته من أجل شرابه، وأنه لم يكن يشرب الخمر إلا في قدحٍ كان مخصَّصًا له. وأنا أيضًا أنساق لتفضيل بعض أشكال الكؤوس، ولا أحب الشراب في كؤوسٍ عاديةٍ، كما لا أحب أكثر أن يخدمني أي شخصٍ، والشراب لا أحب فيه أي معدنٍ، وإنما مادةً واضحةً وشفَّافةً، حتى تتذوق عيناي الشراب على طريقتها.

51. يعود أغلب هذا الضَّعف إلى العادة، بيد أن الطبيعة ساهمت في ذلك، فأنا لا يمكنني أن أتحمل إلا أكلتين مكتملتيْن في اليوم من غير إثقال معدتي، ولا يمكنني أن أتخلى تمامًا عن إحدى الوجبتيْن من غير أن أصير ضحيَّة الغازات في المعدة، ومن غير أن ينشف حلقي وتضطرب شهيتي، كما أني لا أستطيع تحمُّلَ أن أعرض نفسي طويلًا لرطوبة المساء، فأنا منذ بضعة أعوامٍ، حين كنت أكمل العمل الشاق للحرب طيلة الليل، وحين تصل الخامسة أو السادسة صباحًا، كانت معدتي تبدأ في إزعاجي ومعها صداعٌ حادٌّ في الرأس، بحيث لا أرى النهار يطلع من غير أن أتقيَّأ، وفيما كان الآخرون يذهبون لتناول فطورهم كنت أروح للنوم، وبعدها أستعيد قواي كما من قبل. لقد علمت دومًا أن رطوبة الليل لا تنتشر إلا مع حلول الليل؛ وبما أني في تلك السنين قد ارتدْت إقطاعيًّا كبيرًا، يعتقد اعتقادًا راسخًا أن رطوبة الليل تكون أكثر ضراوةً وخطورةً قبيل غروب الشمس بساعةٍ أو ساعتين، وأنه يتفاداها بعنايةٍ غير مهتمٍ تمامًا برطوبة الليل، فقد انتهى بإعدائي بإحساسه أكثر من تبليغي رأيه.

52. الشك في صحتنا والاهتمام بها والقلق عليها أمرٌ يؤثر في مخيلتنا ويغير من سلوكنا. ما القول في ذلك؟ أولئك اللذين ينصاعون فُجائيًّا لتلك الميول يجرون عليهم كارثةً حقيقيةً، وأنا أشفق على بعض النبلاء الذين -بفعل غباء أطبائهم- ظلوا قابعين في غرفهم وهم شبابٌ وفي صحةٍ جيدةٍ من

الأفضل للمرء تحمل حالة زكامٍ على أن يفقد إلى الأبد ملذات الحياة في المجتمعمن كثرة عدم ممارستها، كالخروج للنزهة مثلًا. إنه لَعلمٌ مشؤومٌ هذا الذي يجعلنا نذير الظهر لأفضل أوقات اليوم. بالمقابل لنوسِّعْ من إمساكنا بالأمور إلى حدِّها الأقصى. عمومًا يصلّب العناد عود الناس ضد المرض والشر، ويستطيعون تصحيح استعداداتهم الطبيعية، كما فعل ذلك يوليوس قيصر الذي تمكَّنَ من تصحيح مرض الصَّرَع لديه من كثرة ازدرائه والصراع ضدّه. على المرء أن يتبنى أفضل القواعد الممكنة في الحياة على أن يخضع لها، إلا تلك التي يكون فيها الإكراه والخضوع ضروريين إن هي وجدت.

53. حتى الملوك والفلاسفة يقومون بالتبرُّز، والنساء النبيلات أيضًا. الحياة العمومية منذورةٌ للأبهة، أما حياتي، الغامضة والخاصة، فإنها تستفيد من كل ما توفِّره لها الطبيعة، أن يكون المرء جنديًّا أو غاسكونيًّا. ها هما طريقتان للحياة خاضعتان لبعض التهوُّر، وبخصوص ضرورة التبرُّز التي تحدثت عنها آنفًا، أقول إذًا إن من الأفضل القيام بها في بعض الأوقات المحدَّدة سلفًا وفي الليل، وأن يُكره المرء نفسه عليها بالعادة، كما فعلت ذلك، لكن لا يلزم أن يصير المرء، كما فعلت ذلك في شيخوختي، عبدًا للراحة التي توفرها له بعض الأمكنة، ولا لمكانٍ خاصٍّ به، وأن يجعل منها وظيفةً مزعجةً بإطالة مدَّتها أو بالارتياح فيها. لكن، وفيما يتعلق بأفعالنا الأكثر دنسًا، أليس مَبْعثًا للعذر أن يخصها المرء بعنايةٍ أكبر ونظافةٍ أبلغ؟ «**الإنسان بطبعه حيوانٌ نظيفٌ ومتمدِّنٌ**»[1]. وهي، من بين الوظائف الطبيعية، تلك التي أتحمل قليلًا أنْ تتم مقاطعتي خلالها، ولقد عرفت الكثير من الناس خلال الحرب ينزعجون من تقلبات بطونهم، أما بطني وأنا فكنَّا لا نخلف أبدًا ساعة موعدنا، أي عند القفز من السرير صباحًا، إذا لم يكن ثمة انشغالٌ مستعجلٌ أو مرضٌ يؤجل ذلك ويصيبه بالاضطراب.

54. وكما قلت ذلك آنفًا، لا يبدو لي أن ثمة وضعيةٌ أعمق وثوقًا للمرضى تعفيهم من أن يلتزموا بنمط الحياة الذي تربّوا فيه وترعرعوا، فالتغيُّر،

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, CXII.

مهما كان، يظل مفاجئًا وجارحًا. من يستطيع إذًا أن يصدِّقَ بالفعل أن الكستناء مضرَّةٌ بشخصٍ من منطقة بيريغو، أو لساكنٍ من مدينة لوك[1]، وأن الحليب والجبن مضران بأهل الجبل؟ فبذلك نحن نفرض عليهم نمط حياةٍ ليس فقط جديدًا، وإنما بالعكس معارضًا لعوائدهم، إنه انقلابٌ لا يمكن حتى لشخصٍ في صحةٍ جيدةٍ أن يتحمَّله. مُرُوا أحد البروتانيين في السبعين من عمره أن يشرب ماءً، واحبسوا بحّارًا في مسخنة، وامنعوا خادمًا باسكيًّا من النزهة، فذلك يعني حرمانهم من الحركة ومن الهواء والنور.

«أَلِلحياة هذا الثمن الباهظ؟»[2].
«يُكرِهوننا على نبذ عوائدنا
ولكي نعيش طويلًا يمنعوننا من الحياة
هل يمكننا القول إنهم أحياءٌ أولئك الذين
يجعلون الهواء والنور غير محتملٍ لهم؟»[3].

إذا كان الأطباء لا يقومون بشيءٍ خيِّرٍ، فهم على الأقل يقومون بما يلي: إنهم يهيئون باكرًا مرضاهم للموت، بتقويض حياتهم وسحبها منهم شيئًا فشيئًا.

55. سواءٌ كنتُ صحيحًا أو مريضًا، ظللتُ عمومًا أنصاع لرغباتي الملحاحة، فأنا أمنح سلطةً كبرى لرغباتي وميولي، ولا أحب إشفاء الداء بالداء، وأكره الأدوية التي تزعجني أكثر من المرض، وأن أكون أنا مُصابًا بمرض الحُصيّ، وأن أمتنع لذلك عن أكل المحار، فذلك يعني شرَّيْن عوض شرٍّ واحدٍ. المرض يخزنا من جانبٍ وأوامر الطبيب من جانبٍ آخر، ولما كان ثمة إمكان في أن يخطئ الطبيب، فلنخترْ بالأحرى اللذة، أما الناس فيقومون بالعكس تمامًا، ويعتقدون أن ما هو نافعٌ يكون بالضرورة مُضنيًا، فالسهولة تبدو لهم أمرًا مريبًا، لقد توافقت شهيتي بذاتها لحسن الحظ مع أشياء كثيرةٍ ملائمةٍ لصحة معدتي، فحين كنت شابًا

(1) أقام مونتيني في مدينة لوكا في منطقة توسكانا بإيطاليا عام 1581 م.
(2) مؤلِّف مجهول.
(3) Pseudo-Gallus, **Poetae Latini Minores**, vv. 155-156 et 247-248.

كان الحامض والحار في المرق يعجبني، لكن من حينها صارت معدتي تتحملهما قليلًا فتبعها ذوقي للتوّ. الخمر مؤذٍ للمرضى، فهو أول شيءٍ يتقزز منه فمي باشمئزازٍ لا ينهزم، كل ما أتناوله بتقزُّزٍ يزعجني، ولا شيء يزعجني مما أتناوله بشهيةٍ ومرحٍ؛ لهذا قمت في غالب الأوقات بجعل كل أمرٍ من الطبيب يستسلم أمام قوة شهوتي. وحين كنت لا أزال شابًا=

«كنت أحلق حول كيوبيد
بهيًّا في عباءته الحمراء القانية»[1].

=لقد كرست نفسي، بحريةٍ ومن غير تفكيرٍ، للرغبة التي تحضنني، أكثر من أي واحدٍ آخرَ=

«ولقد حاربت وفزت ببعض المجد»[2].

=لكن مع ذلك أكثر في المدة والثبات منه في المنجزات.

«إنه الشيطان لو استطعت بلوغ النشوة ست مراتٍ[3].

56. صحيحٌ أن من المضْني لي، كما من الرائع أيضًا، أن أعترف كم كنت صغير السن حين خضعت للمرة الأولى لكيوبيد، كان ذلك في الحقيقة بمحض الصدفة؛ لأنه حصل لي قبل أن أعي تلك الأمور، وأن أكون قادرًا على الاختيار. والذكرى التي أحتفظ بها عن نفسي لا تسير إلى أبعد من ذلك، ويمكن أن نربط مصيري بمصير كوارتيلا*[4] التي لم تكن تتذكر أنها كانت بكرًا.

«نبت لي الشعر مبكرًا تحت إبطيَّ
ولحيتي اندهشت لها أمي»[5].

---

(1) Catulle, **Poésies**, LXVI, vv. 133-134.

(2) Horace, **Odes**, III, 26, 2.

(3) Ovide, **Amours**, III, 7, v. 26.

(4) Pétrone, **Satyricon**, XXV.

* كوارتيلّا شخصية في رواية ساتيريكون اللاتينية المنسوبة لجايوس بترونيوس.

(5) Martial, **Épigrammes** XI, 22, vv. 7-8.

57. عادةً ما يكيِّفُ الأطباء بشكلٍ مفيدٍ وصفاتهم العلاجية مع عنف الرغبات الجامحة التي يحسها المرضى، فهذه الرغبات من الكبر والغرابة والشذوذ بحيث لا يمكن إلا أن يكون للطبيعة يدٌ فيها، ثم، في كل الأحوال، أليس من المهم إرضاء المخيلة؟ فحسب رأيي، ذلك أمرٌ بالغ الأهمية على كل حالٍ، وأهم من أي أمرٍ آخرَ؛ فالآلام الأكثر جسامةً والأكثر تواترًا هي تلك التي تلمُّ بنا من جهة الخيال، وهذا التعبير الإسباني يعجبني من مناحٍ عديدةٍ: «**فليحمني الله من نفسي**». حين أكون مريضًا، أشكو من غياب رغبةٍ يمكنني إشباعُها من لذَّةٍ ما، وسيصعب على الطب أن يجعلني أحيد عن ذلك، وأنا أحس بالأسف نفسه حين أكون في صحةٍ جيدةٍ؛ إذْ لا أجد شيئًا يمكنني تمنِّيه أو الرغبة فيه. فمن المحزن أن يكون المرء خاملًا وضعيف القوى حتى يبدأ في التمنِّي.

58. فن الطب ليس فنًا موثوقًا به بحيث يمكننا أن نؤثر فيه مهما فعلنا، فهو يختلف حسب المناطق والقمر (كما يقول فارنيلو ديلا سكالادي)[1]. وإذا لم يرق لطبيبك أن تنام، أو أن تشرب الخمر، وأن تأكل هذا الشيء أو ذاك فلا تهتمَّ لذلك، فسأجد لك طبيبًا آخر لن يكون له الرأي نفسه، إن تعدد آراء الأطباء وحججهم تأخذ أشكالًا متنوعةً ومختلفةً، ولقد وقفت على مريضٍ مسكينٍ يموت من العطش حتى الإغماء طمعًا في الشفاء، بحيث صار في ما بعد محطَّ سخرية طبيبٍ آخرَ اعتبر ذلك العلاج مضرًّا بصحته. حقًّا، لقد أضاع جهده من دون جدوًى. ومن وقتٍ قريبٍ توفي طبيبٌ بمرض الحصيّ؛ فلكي يحارب مرضه صام صومًا تامًّا، بحيث إن رفاقه قالوا إن ذلك الصوم عن الماء قد جفَّف جسمه وأحرق الرمل في كليتيه.

59. أدركت أن الكلام يزعجني حين أكون مصابًا بجرحٍ أو مرضٍ، ومعه أي نوعٍ من الفوضى أقوم بها، فالصوت يتطلَّب مني مجهودًا ويتعبني؛ لأن صوتي قويٌّ ومدوٍّ، إلى حدِّ أني عمدت إلى الكلام في أذن الرجال العظام لهذا العالم بصدد شؤونٍ هامةٍ، فقد وضعتهم دومًا أمام لزوم أن يطلبوا مني خفضه.

(1) كان فارنيل طبيب الملك هنري الثاني. وسكاليجر كان يزعم أنه من سلالة ديلاسكالادي.

60. وإليكم حكايةً تتطلب بعض الاستطراد: أحدهم ينتمي إلى مدرسةٍ فلسفيةٍ يونانيةٍ، كان يتكلم بصوتٍ عالٍ مثلي، أبلغه سيد البيت أن يتحدث بصوتٍ خفيضٍ، فأجاب: «فلمَ لمْ يبعث لي بالنبرة التي يرغب أن أتكلم بها». فردَّ عليه الآخر إن ليس عليه سوى أن يتكلم بنبرةٍ ملائمةٍ لآذان سامعيه. كان محقًّا في الأمر، بشرط أن نفهم ردَّه كما يلي: «تحدثْ تبعًا لما ترغب في قوله لسامعك»؛ ذلك أنه لو كان يعني: «يكفي أن يسمعك»، أو «نظِّمْ نبرة صوتك على مسامعه»، ولن أعتبر ذلك نصيحةً وجيهةً. فنبرة الصوت وإيقاعه تعبر بشكلٍ ما عما أفكر به وتبرزُه؛ إذ يعود لي أنا تحديد نبرته كي أكون مفهومًا من السامعين.

61. ثمة صوتٌ للتعليم وصوتٌ للتملُّق أو التوبيخ. لا أريد أن يبلغ صوتي أذن من يسمع لي، وإنما أيضًا أن يفاجئه ويخترقه. فحين أوبخ خادمي بصوتٍ حادٍّ وفظٍّ، سيكون من الممتع أن يبلغ به الأمر إلى أن يقول لي: «تكلم معي سيدي بهدوءٍ، فأنا أسمعك جيدًا». «**هناك نوعٌ من الأصوات يكون ملائمًا للأذن، لا بقوته وإنما بميزته**»[1]. الكلام ينتمي بالنصف لمن يتحدث وبنصفه الآخر لمن يسمعه، وعلى السامع أن يستعدَّ لتلقيه حسب حركته الخاصة؛ فالأمر كما لدى لاعبي الكرة، إذ أن مَن يتلقى الكرة يتراجع ويستعد تبعًا لحركات من يرمي له بالكرة، وحسب مسير هذه الأخيرة.

62. لقد علمتني التجربة أيضًا ما يلي: فقدان الصبر يرمي بنا في الضلال؛ فالآلام نفسها لها حياتها وحدودها وأمراضها وصحتها. والأمراض جاءت على قدْر الحيوانات، فمصيرها محدودٌ منذ ولادتها وأجلها محسوب، ومن يحاول تقليص الأمراض بالقوة في عزِّ تناميها، لا يقوم سوى بتمديد أجلها والإكثار منها وممارسة العنف عليها عوض تلطيفها وتهدئتها. وأنا على رأي الفيلسوف كرانتور أن علينا ألا نقف في وجه الأمراض بعنادٍ وحزمٍ، ولا نستسلم لها بضعفٍ، وإنما أن نستسلم لها تبعًا لحالتها وحالتنا. علينا أن نترك الأمراض تمرُّ، وأنا أرى أنها تبقى مقيمةً فيَّ أقلَّ حين أتركها تفعل فعلها، بل إن ثمة أمراضًا لم تعد

(1) Quintilien, **Institution Oratoire**, XI, 3.

تصيبني وهي من بين الأكثر شراسةً وعنادًا، فقد اختفت من ذاتها من غير معونةٍ مني ومن غير ترياق الطبيب، بل ضدًّا على قواعده. لنتركِ الطبيعة تهتم بشؤونها شيئًا ما، فهي تعرف ذلك أفضل منا. قد يقول قائل: «فلانٌ قضى نحبه». فلْنجبْه: «ستقضي نحبك أيضًا، إن لم يكن بهذا المرض فبمرضٍ آخر». وكم من أشخاصٍ آخرين ماتوا من ذاك المرض وهم بين أيدي ثلاثة أطباء؟ المثال مرآةٌ مضبَّبةٌ وكونيةٌ يمكننا تأويلها في كل الاتجاهات، إذا ما تعلق الأمر بطبٍّ رائقٍ اقبلوه، فذلك أمرٌ إيجابيٌّ، وأنا لن أتوقف عند اسم ذلك الطب ولا لونه. إذا ما كان لذيذًا وشهيًّا؛ فاللذة أحد الأشكال الأساسية للمنفعة.

63. وإني تركت إصاباتٍ بالزكام، وإفرازات النزْلة، وضربات القلب، وصداع الرأس، وغيرها من حوادث الصحة تموت فيَّ موتًا طبيعيًّا، فلقد تبدَّدت حين صرت مقتنعًا بتحمُّلها، ونحن نتغلَّب عليها باللياقة أكثر من تحملها بشجاعةٍ، علينا التحمل الهادئ للقوانين التي تفرضها علينا ظروفنا البشرية، فنحن سائرون للشيخوخة، وللوهَن، والضعف، وللتعرض، للأمراض على الرغم من كل طبٍّ كيفما كان نوعه. إنها الأمور الأولى التي يعلِّمُها سكان المكسيك لأبنائهم، فما إن يروا النور حتى يحيُّوهم هكذا: «أيها الولد، لقد أتيت إلى العالم كي تعاني، فعليك أن تعاني وتتعذَّبَ وتلزم الصمت».

64. ليس من العدل أن يشكو المرء بأن شخصًا ألمَّ به ما يمكن أن يلمَّ بكافة بني البشر. «**عليك أن تستنكر فقط إذا ما تعرضت أنت لمعاملةٍ سيئةٍ**»[1]. انظروا إلى عجوزٍ يبتهل إلى ربِّه بأن يمنحه الصحة والعافية، فذلك يعني أن يعيد إليه شبابه.

> **«إنه لأمرٌ عبثيٌّ، فلماذا تلك الأمانيُّ النافلة، والنذور الصبيانية؟»**[2].

أليس ذلك ضربًا من الحمق؟ فوضعيته لا تسمح له بذلك. داء النقرس والحصي وعسر الهضم هي العلامات الطويلة الأمد، كما تعلن الحرارة والأمطار والرياح الرحلات الطويلة. لا يعتبر أفلاطون أن آسكيليبيوس

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XCI.
(2) Ovide, **Tristes**, III, 8, 11.

يمكن أن يكون قد جَهَد بالحمْيات في السعي إلى تمديد الحياة في جسمٍ واهنٍ وغبيٍّ لا فائدة منه لبلده، غير نافعٍ وعاجزٍ عن منحنا أولادًا سليمين وأصحّاء، وهو لا يعتقد أن هذا الهمَّ يعود للعدل والحكمة الإلهية، التي تتمثل مهمتها في تدبير الأمور والسير بها نحو منفعتها. «سيدي العزيز، لقد انتهى أمرك. لم يعد بإمكاننا أن نعيد لك عافيتك، فأقصى ما يمكننا هو أن نجبرك من جديدٍ ونعضِّدَ طرفك، وبذلك سوف نمدِّدُ شيئًا ما من مصابك لبضع ساعاتٍ».

«وكما لإسناد صرْحٍ منهارٍ
نضع العواميد في كل الاتجاهات
حتى اليوم الذي يتفكك فيه المجموع
وتنهار العواميد مع ما فوقها»[1].

.65 علينا أن نتعلم تحمُّلَ ما لا نستطيع تفاديه؛ فحياتنا تتكوَّن من أشياء متناقضةٍ، كما انسجام العالم من نبراتٍ مختلفةٍ، لطيفةٍ وجَهْوَرِيةٍ، حادَّةٍ وخفيفةٍ، وضعيفةٍ وقويةٍ[2]. ما سيقول في ذلك موسيقيٌّ لا يحب إلا بعض النبرات منها؟ عليه أن يعرف استخدامها معًا والتأليف بينها، والأمر يسري علينا نحن بالخيرات والشرور والآلام اللصيقة بحياتنا، فوجودنا لا يمكن أن يكون من غير هذا المزيج، وبعضها ليس بأقل ضرورةٍ من البعض الآخر، والرغبة في عصيان هذه الضرورة الطبيعية يعني محاكاة جنون الخطيب كُتيسيفون الذي كان يحاول أن يجعل بغلته الحرون تتقدَّم بركلاته.

.66 قلّما أزور الأطباء، ذلك أن هؤلاء الناس يكونون مقيتين حين تكون تحت رحمتهم. حين أصابني وَهَن المرض يومًا ما، أحسست بخشونة أوامرهم النافذة ووجههم المتعالي، مهدِّدين طورًا بعذابٍ أليمٍ وطورًا آخر بموتٍ عاجلٍ، غير أن ذلك لم يشلّ قواي ولا شكَّك في عزيمتي، غير أنه صدمني مع ذلك وأقلقني، فمع أن حكمي لم يتغيَّر ولا تخلْخل، فهو مع ذلك قد تعرَّض للإزعاج، ثمة دومًا في هذه الحال قلقٌ وصراعٌ يلزم القيام به.

(1) Pseudo-Gallus, **Poetae Latini Minores I**, vv. 171-174.
(2) Plutarque(Amyot), X, 68, **De la tranquillité de l'âme**.

مرض الحصيّ

67. وأنا مع ذلك أعالج مخيلتي بالكثير من اللطف، وما كنت لأتوانى عن التخفيف عنها من كل همٍّ وضَنكٍ واحتجاجٍ لو استطعت لذلك سبيلًا، علينا نجدتها ومداهنتها وخداعها إذا استطعنا ذلك، وعقلي مكرَّسٌ للأمر، فهو لا يترك فرصةً سانحةً من غير أن يعثر على كافة العلل والأسباب الوجيهة، فلو كان أيضًا مقنعًا مقدار كونه خطيبًا جيدًا، فسوف يُسدي لي أجلَّ الخدمات. هل تريدون عن ذلك مثالًا؟ يقول لي الطبيب إن إصابتي بداء الحصيّ أمرٌ في صالحي، وأن البنايات والصروح التي لها عمري، لا يمكن إلا أن تكون فيها بعض المشاكل في مزاريب مائها، وأنها في ذلك العمر تبدأ في التَّلف والتدهور، وأن ذلك ضرورةٌ عامةٌ، وهو ما يعني أن من باب المعجزة ألا يكون حالي كذلك. وقال لي، إني أؤدي بذلك ثمن ما أَدين به لشيخوختي، وإني أتخلص منه بثمنٍ بخسٍ. على كل حالٍ، فالرفقة يمكنها أن تكون عزاءً لي؛ لأن الأمر يتعلق بداءٍ من أكثر الأمراض استشراءً لدى أناسٍ من عمري، فأنا أرى -حولي في كل مكانٍ- أناسًا ألمَّ بهم داءٌ من الطبيعة نفسها، ومن الشرف لي أن أكون من مَجْمَعِهم؛ لأنه داءٌ يصيب الشخصيات العظيمة؛ إذ هو من طبيعةٍ لا تخلو من شرفٍ ونبلٍ وكرامةٍ؛ بل من بين الناس الذين أصابهم، القليل من بينهم تخلصوا منه بأدنى كُلفةٍ، فهم يتَّبعون حميةً مضنيةً وينزعجون من التناول اليومي لعقاقير طبيةٍ، بينما أنا أدين بحالي لحسْن طالعي، فالحساء العادي من الأعشاب الذي تجرعت مرتين أو ثلاث مراتٍ؛ لإرضاء النساء اللواتي كنَّ يمنحنني منه نصف ما تجرَّعْنَ، من باب اللياقة منهن أكثر منه لكون دائي كان عُضالًا، بدا لي سهل التناول مقدار عدم فائدة مفعوله.

68. كل هؤلاء الناس سيكون عليهم أن يؤدوا مئات النذور للإله آسكيليبيوس ومقدارها من النقود لطبيبهم، على السيلان السهل لرمْل الحصيّ الذي أستفيد منه بمشيئة الطبيعة وحدها، بل إن حشْمة سلوكي حين أكون مع الناس لا تتأثر بذلك، بحيث إني أحصر مائي لعشر ساعاتٍ متواليةٍ مقدار حصْر غير المريض لها. يقول لي عقلي: «إن الخوف من هذا الداء

كان يرهبك في ما قبل، حين لم تكن قد أُصبت به بعد، فصرخات أولئك الذين يفاقمونه لأنهم لا يستطيعون تحمُّلَه كانت تجعلك تكرهه وتخشاه. إنه داءٌ يصيبك في مناطق الجسد التي بواسطته اقترفت أكثر الآثام، وبما أنك إنسانٌ ذو ضميرٍ،

«فالداء المستحَقُّ استحقاقًا، من يمكنه أن يشكو منه؟»[1].

وانظر هذا العقاب: إنه يبدو لطيفًا جدًا في نظر الآخرين، كما لو أنه فضلٌ من الأفضال الأبوية. لاحظْ كيف يأتي متأخرًا، فهو لا يسبب الإزعاج ولا الهموم إلا لفصل حياتك، الذي صار على كل حالٍ فصلًا مفقودًا وعقيمًا بعد أن تركت المجال - بما يشبه العَقد - لمجون شبابك وملذاته. والخوف الذي يحسه العامة إزاء هذا الداء، والشفقة التي يحيطون بها من ألَمَّ بهم توفر مادةً ثريةً لغرورك، إنه مَلْمَحٌ من شخصيتك حذفته من حكمك، وشفيت فكرك منه، بيد أن أصدقاءك لا يزالون يقفون على آثارٍ له في سلوكك. إنها لمتعةٌ أن يسمع المرء ما يُقال عنهإن له قوةٌ كبرى وجلَدٌ باهرٌ، وهم يرونك تعرق بفعل المجهود المبذول، وتشحب وتحمرُّ وتضطرب وتُصاب بالغثيان حتى تلفظ دمك، وتتحمَّلُ إكراهاتٍ وتشنُّجاتٍ بالغةٍ، أحيانًا بدموعٍ كبرى تنهمر من عينيْك، وترمي ببولٍ كثيفٍ أسود ورهيبٍ، أو تراه وقد انحبس بفعل حصاةٍ شائكةٍ تخزك وخزًا وتسلخ مسالكك البولية، ومع ذلك تقوم بالمحادثة مع من يوجد معك، محافظًا على رباطة جأشك بشكلٍ عاديٍ، بل وتستطيع مع ذلك المزاح من وقتٍ لآخر مع أناسك، أو تمارس دورك في محادثةٍ جدِّيةٍ، مهدئًا من روع ألمك بالكلمات، ومخففًا بذلك بعضًا من عذابك».

69. ويتابع عقلي: «هل تتذكَّر الناس القُدامى الذين كانوا يسعون للآلام بشهيةٍ بالغةٍ؛ كي يتركوا فضيلتهم في حال لُهاثٍ قصْد دفعها للمُجاهدة؟ اعتبرْ إذًا أن الطبيعة تحملك وتدفع بك نحو هذه المدرسة الفلسفية المجيدة، حيث لا يمكن أن تدخل بمحض رغبتك. لا تقلْ لي إنه داءٌ خطيرٌ وقاتلٌ، أفَليست أنواع الداء الأخرى كذلك؟ الأمر لا يتعلق فقط بخدعةٍ طبيةٍ تعزل بعض الأمراض وتزعم أنها لا تقود مباشرةً للموت، لا يهم

(1) Ovide, **Héroïdes**, V, v. 8.

إن كانت لا تقود للموت إلا بالصدفة، ولا إذا ما هي انزلقت وانحرفت بسهولةٍ نحو الطريق المؤدي إليه، قلْ مع نفسك إنك لا تموت لأنك مريضٌ، بل لأنك حيٌّ، فالموت كان سيصيبك من غير حاجةٍ إلى المرض، والأمر نفسه مع مَن أبعدتْ عنه الأمراضُ الموتَ، والذين عاشوا لفترةٍ أطول لأنهم كانوا يعتقدون دومًا أنهم على وشك الموت. زدْ على ذلك أن ثمة أمراضًا، كما بعض الجروح، لها مفعولٌ علاجيٌّ وحاسمٌ»[1].

70. «مرض الحصيّ ليس أكثر حيويةً منا في الغالب، فلقد رأينا أناسًا ألمّ بهم من صباهم حتى أرذل العمر، ولو أنهم لم يخذلوه لكان قادرًا على أن يصاحبهم لوقتٍ أطول. إننا نقتله أكثر مما يقتلنا، ومع ذلك ألايقدِّم لك صورة الموت العاجل، ولو فقط لأن تلك الصورة هي بالأحرى خدمةً جليلةً تُقدَّمُ لرجلٍ في عمرك، وأفضل مِن جعله يتفكَّر في نهايته؟ على كل حالٍ، لم يعد لك من علّةٍ تجعلك تبتغي الشفاء، فمهما كان الأمر فالضرورة المشتركة تناديك قربها. تأملْ، شيئًا ما، كم تدلّلك الحياة، وتعزلك عن العالم بمهارةٍ فائقةٍ ووداعةٍ كبرى. إنها لا تُكْرِهك بالأوامر الاستبدادية، كما هو الأمر في أمراضٍ أخرى يمكن أن تراها لدى العجائز والتي تجعلهم دومًا مُعوَّقين من غير أن يخفت ضعفهم وآلامهم، وإنما هو مرضٌ يفعل فعله بالإنذار على مسافةٍ متكررةٍ ممزوجةٍ بفترات الراحة، كما ليسمح لك بالتفكُّر في دروسه على هواك؛ ولكي يمكِّنك من الحكم بشكلٍ سليمٍ وتقرير حالك بوصفك رجل إحساسٍ، فهو يصوِّرُ لك حال وضعك كاملًا بخيره وشرِّه، وفي اليوم نفسه، بحياةٍ تكون طورًا مرحةً وطورًا لا تُحتمل، وإذا كنت لا تعانق الموت، فأنت على الأقل تمدُّ له يدك مرةً في الشهر، وبذلك على الأقل يمكنك أن تأمل مباغتتك من غير إنذارٍ، وبما أنك قد بلغت مرفأه مرارًا، معتقدًا أنك لا زلت في حالٍ عاديَّةٍ، سوف تجد أنك قد عبرت نهرأخيرون ذات صباحٍ بغتةً أنت وإيمانك، عليك إذًا ألا تشكو من الأمراض التي تقتسم بنزاهةٍ وقتها مع الصحة».

(1) يتعلق الأمر بالحكاية التي يرويها مونتيني سابقًا (الكتاب الأول، الفصل 33، الفقرة 5) والتي يتحدث فيها عن شخصٍ به ورمٌ في الصدر وأراد أن ينهي بشجاعةٍ حياته، فتلقّى في المعركة ضربة سيفٍ أصابت الورم فنزعته، وخرج من المعركة شافيًا من مرضه العضال.

71. أنا ممتنٌّ للقدَر الذي يهاجمني مرارًا بالأسلحة نفسها، فهو يعوِّدُني ويدرِّبُني عليها بالعادة ويصلب عودي إزاءها، فأنا أعرف الآن بأي ثمنٍ يمكن أن أتحررَّ من ديْني، وبما أني لا أملك ذاكرةً قويةً[1] فإني أصنعها على الورق، وحين يتبدَّى لي عرَضٌ جديدٌ من أعراض المرض، أسجله كتابةً إلى حدِّ أني بعد أن رأيت كل أنواع النوْبات تتوالى، أو إني على وشْك التعرُّض لهمّ جديدٍ، بدأت أتصفَّحُ تلك الملاحظات المتناثرة كما أوراق العرَّافة[2]، ولا يمكن إلا أن أعثر فيها-وهو ما يريحيني- على نبوءاتٍ إيجابيةٍ في تجربتي الماضية، كما أن الاعتياد مفيدٌ لي لتغذية آمالي في المستقبل، فالطريقة التي بها تتبدَّدُ الحصيَّ في كليتيَّ منذ وقتٍ طويلٍ، تجعلني أعتقد أن الطبيعة لا يمكنها أن تغيِّرَ شيئًا من ذلك، وأني لن أتعرض لنوْباتٍ أكثر من تلك التي تلمُّ بي عادةً. وفضلًا عن ذلك، فإن طريقة وجود ذلك المرض ليس مختلفًا كثيرًا عن مزاج شخصيتي، فهو حادٌّ وفظٌّ. فحين يتسلَّطُ عليَّ بطريقةٍ خفيفةٍ يفزعني لأني أعلم أنه سيستبدُّ بي لمدةٍ طويلةٍ، غير أنه عادةً يلمُّ بي بنوباتٍ مفرطةٍ حادةٍ ومباغتةٍ، فهو يرجُّني بعنفٍ ليومٍ أو يومين. لقد دامت كليتاي أربعة عقودٍ من غير أن يصيبهما شيءٌ، وها هو عقدٌ من الزمن مرَّ حين بدأ حالهما يتدهور. الأمراض كما الأشياء الحسنة لها مرحلتها، فربما كانت تلك المصائب تقترب من نهايتها. التقدُّمُ في العمر يُضعف حرارة معدتي بحيث إن الهضم لديَّ صار أقلَّ اكتمالًا، وبحيث إن المواد غير المهضومة يتمُّ بعثها لكليتيَّ. فلماذا لا تضعف حرارة كليتيَّ بالشكل نفسه في لحظةٍ معينةٍ، بحيث لا تستطيعان تطهير بلْغمي؟ قد تجد الطبيعة حينها سبيلًا آخر لتطهيري. السنوات قد أبادت فيَّ بعض أنواع الزُّكام؛ فلماذا تلك الإفرازات التي تمنح لداء الحصاة مادَّتها؟

72. من ناحيةٍ أخرى، هل ثمة شيءٌ أكثر لذَّةً من ذلك التغيُّر المفاجئ، إذْ بعد أن أُفرز الحصاة بألمٍ قاصمٍ أستعيد، فجأةً وفي لحظةٍ خاطفةٍ، النور الرائع للعافية، بحريتها الكبرى والكاملة، كما يحدث ذلك في أكثر نوبات المغص الكلوي؟ هل ثمة، في هذا الألم الذي استطعت تحمُّله، شيءٌ يمكن أن يجاوِز لذةَ هذا الإحساس بالارتياح؟ آهٍ كم تبدو لي الصحَّة أجمل بعد

(1) كما لا حظنا ذلك، يشكو مونتيني مرارًا من ضعف ذاكرته.

(2) كانت العرّافة كوميسا حسب فرجيليوس تكتب نبوءاتها على أوراق الشجر.

المرض، قريبةً ومجاورةً له جدًا، بحيث يمكنني التعرف علهما الواحد في حضرة الأخرى، كما ليتعاندا ويتنافسا. فكما أن الرواقيين قالوا إن الرذائل مفيدةٌ في العالم لمساندة الفضيلة ومنحها قيمة، فيمكننا القول عن حقٍ وبتكهُنٍ أقلَّ مجازفةٍ، أن الطبيعة أعطتنا العذاب والمعاناة كي تمنح قيمةً أكبر للذة ولغياب الألم. حين نُزعت القيود عن سقراط، وأحس بتلك الحكَّةِ الرائقة التي تسبِّبُ له فيها ثقل القيود، فرح وهو يرى تلك العروة الوثقى بين الألم واللذة، وكيف يتواشجان برابطةٍ لا يمكن تفاديها بحيث يتولَّد أحدهما عن الآخر كلٌّ بدوره، فصرخ متوجِّهًا لأيسوبوس الفاضل إنه كان يمكنه أن يستخلص من تلك الملاحظة موضوعًا رائعًا لخرافةٍ جميلةٍ.

73. الأسوأ في الأمراض الأخرى، هي أنها أقلُّ خطورةً في مظاهرها منها في ما ينجم عنها، بحيث يلزمنا عامٌ لكي نشفى منها ونظل دومًا واهنين ومليئين بالخوف. ثمة العديد من الصدف والمراتب في طريق الصحة بحيث لا ينتهي الأمر أبدًا. فقبل أن يتمَّ نزع قبعتك وبعدها طربوشك، وقبل أن تستعيد استنشاق الهواء وشرب الخمر، وتناول البطيخ وقضاء وطرك من زوجتك، ستكون أشبه بالشيطان إذا لم تصبك مصيبةٌ أخرى. مرضي له امتياز الاختفاء من غير ترك أثرٍ، أما الأمراض الأخرى فتترك دومًا خلفها ندوبًا تجعل الجسد عرضةً لأمراضٍ جديدةٍ يبدو أنها تتعاضد في ما بينها، والأمراض التي تكتفي بالاستبداد بنا وتملكنا من غير ترك أثرٍ وراءها معذورةٌ، بيد أن تلك التي يقدِّمُ لنا مرورها نتيجةً نافعةً هي أمراضٌ رائقةٌ ولطيفةٌ. فمنذ أن أصبت بمرض الحصيّ، صرت في منأى عن مشاكل صحيةٍ أخرى، بل أكثر من ذلك يبدو لي أني لم أُصَب بالحمى من حينها، وأنا استنتج من ذلك أن التقيؤ البالغ والمتكرر الذي أُصاب به يطهرني، وأنِ التقزُّزَ الذي أحسُّ به والصوم الكبير الذي أكابد يهضم أمزجتي، وأن طبيعتي تبدِّد بذلك الحصيّ وكل ما يبدو لها زائدًا ومضرًّا. فلا يقولنَّ لي أحدٌ إنه دواءٌ أدَّيت ثمنه غاليًا. وما القول إذًا في أشربةٍ عديدةٍ نتنةٍ وعمليات الكيِّ والحزِّ وحالات العرق وصرف النُّفايات الجسدية ووجبات الحِمْية، وغيرها من العديد من أشكال العلاج التي تقودنا للموت في الغالب؛ لأننا عاجزون عن مقاومة

عنف هجماتها الشرسة؟ وهكذا حين يلمُّ بي دائي، أعتبر ذلك ضربًا من العلاج؛ وحين أُعفى من ذلك، أعتبره خلاصًا دائمًا ومستمرًا.

74. وإليكم أحد الأفضال التي ينعم عليَّ بها مرضي، وهو من نوعٍ خاصٍّ، فهو في العموم يقوم بمهمته ويتركني أقوم بمهامي، وإذا لم أقمْ بها فذلك لأن شجاعتي تخونني، فحين استبدَّ بي بشكلٍ قاسٍ تحملتُه وأنا على صهوة جوادي لمدة عشر ساعاتٍ، تحمّلْ وعانِ فقط فلا يمكنك فعل أي شيءٍ آخر، العبْ وتعشَّ واجْرِ، اعملْ هذا الشيء أو ذاك إذا ما استطعت ذلك. والتصرف الفوضويُّ سيكون مفيدًا لك أكثر مما سيضرُّ بك في تلك الحال، وقلْ ذلك للمصاب بالجدري أو المصاب بداء النِقْرَس، أو بالفتق!... الأمراض الأخرى لها إلزاماتٌ أكثر بكثيرٍ، تخلْخل تمامًا سلوكنا وتُكرهنا خلال حياتنا بكاملها على أن نأخذها بعين الاعتبار. أما هذا الداء فهو لا يقوم سوى بوخْز البشرة، ويترك العقل والتفكير والإرادة واللسان واليدين والرجليْن تحت تصرُّفك، فهو يتركك يقظًا عوض أن يُنيمك. تتعرَّضُ النفس لصدمة حرارة الحمى وينهكها الصرَع، ويمزقها صداع الرأس إزْبًا إزْبًا؛ فالأمراض التي تصيب المرء وتهاجم أطرافه الأكثر نبلًا تهدُّها، وفي حالي لم تتعرَّض نفسي للهجوم أبدًا، وإذا ما ساءت حالتها فذلك خطؤها لأنها تخون ذاتها وتستسلم وتنصاع للسقوط أرضًا. البُلهاء وحدهم يقتنعون أن هذا الجسم الصلب والثقيل الذي يتكون في كُلْيتنا يمكن أن يتحلَّلَ بالمحلولات الطبية، وحين يتحرَّكُ الداء ليس علينا سوى أن نفسح له السبيل، وهو سيسير فيه.

75. وبخصوص داء الحصيّ لديَّ، ألاحظ أيضًا هذا الامتياز الخاصَّ، المتمثل في كونه مرضًا لا يبقى لنا ما نتكهنه فيه، فمعه نكون معفيِّين من الاعتلال الذي تزجُّ بنا فيه الأمراض الأخرى، التي لا نعرف بدقةٍ لا عللها ولا طبيعتها ولا تطورها، وهو اعتلالٌ مفرطٌ في ألمه. لكن هنا، ليس علينا القيام بالفحوص الطبية وبتأويلات الأطباء؛ فالحواس تشير علينا بطبيعته وبمكان الداء.

76. بهذه الأدلة والحجج الضعيفة والقوية، كتلك التي كان شيشرون يلجأ إليها ليعزِّيَ نفسه على شيخوخته، أجتهد في تنويم مخيلتي وإلهائها، وفي

وضع بلْسمٍ على جراحها، فإذا هي ساء حالها غدًا فعليَّ أن أعثر لها على أدويةٍ أخرى.

77. والأمر بالغ الصحة، فمن جديدٍ ها هي الحركات الصغيرة تُخرج الدم من كُليتيَّ. ياه! فأنا لا أكف مع ذلك عن الحركة كما من ذي قبل، وعن العدو خلف كلابي بحماسة طفوليةٍ ووقحة، وأحس أني أتدبَّر أمري في ذلك من غير ضررٍ، بالنظر إلى حادثٍ بتلك الخطورة؛ بما أنه لا يسبِّبُ لي إلا ثقلًا طفيفًا وبعض التغير في شخصي بذلك المكان من جسمي. الحصاة الكبرى هي التي تسحق مادة كليتيَّ وتنهكها، وهكذا تكون حياتي هي ما يسيل رويدًا رويدًا، ليس من غير بعض اللطافة الطبيعية، ومثل إفرازاتٍ صارت نافلةً ومزعجةً. أحس عميقًا أن شيئًا ما ينهار في داخلي؛ لكن لا تنتظروا أن أُضيعَ وقتي في قياس نبْضي وفحص بوْلي كي أبحث فيهما عن علامة وعيدٍ مؤسفٍ، لقد حان الوقت لي أن أحس بالمرض من غير أن أمدِّدَهُ بألم الخوف. وإذا ما أضفنا لذلك الشكوك، وجهل من يدَّعون تفسير مقاصد الطبيعة واشتغالها الداخلي، والعدد الهائل من التشخيصات الخطأ التي يتسبب فيها فنُّهم، فنحن ملزمون باستنتاج أن الوسائل التي تُستخدم لا تزال مجهولةً لنا، فالانعدام الكبير لليقين، والغموض العميق، والتنوع الكبير يسود على ما تعِدنا به أو ما تهدِّدنا به، فعدا الشيخوخة التي تُعتبر الأمارة التي لا سبيل للشك فيها على اقتراب الموت، أرى في ما يحدث لنا القليل من العلامات المتعلقة بالمستقبل، والتي عليها يمكننا أن نقيم توقعاتنا.

78. أنا لا أحكم على نفسي إلا بأحاسيسي الخاصة لا بالدلائل العقلية، فما الذي سيصلح له ذلك، ما دمت لا حول لي ولا قوة غير الصبر والجلَد. تريدون أن تعرفوا ماذا أربح في ذلك؟ انظروا إلى من يتصرفون بطريقةٍ مغايرةٍ لي، والذين يرْهنون حياتهم بالعديد من النصائح والتأثيرات المختلفة، وانظروا كيف أنهم في الغالب يكونون ضحية هياج مخيلتهم، بحيث إن الجسد نفسه يتدخَّل في ذلك. لقد استمتعت مرارًا بأن أُعلم الأطباء أن أحداثًا صحيةً خطيرةً بدأت معالمها تظهر على صحتي وأنا حِلٌّ منها، بحيث كنت أتحمل على هواي الحكم الناجم عن استنتاجاتهم

الرهيبة، وبحيث كنت أحمد الله على النعمة التي حباني بها، وأني أتقوّى بفكرتي من غباء ذلك الفن.

79. لا شيء يمكن أن ننصح به الشباب أكثر من النشاط ونباهة العقل. حياتنا ليست سوى حركةٍ، وأنا أنكسر بصعوبةٍ، إذ إني متئدٌ في كل شيءٍ، في الاستفاقة والنوم وفي تناول طعامي، والسابعة صباحًا ساعةٌ مبكرةٌ لي، وحين يكون أنا من يقرّرُ ذلك لا أتناول فطوري قبل الحادية عشرة، ولا أتعشى إلا بعد السادسة مساءً. لقد نسيت في الماضي سبب الحمى والأمراض التي ألمّت بي إلى الثقل والخمول الذي ينجم عن النوم طويلًا، وغالبًا ما ندمت على النوم مجدَّدًا في الصباح. يعتبر أفلاطون الإفراط في النوم أسوأ من الإفراط في الشراب، أحب النوم على سريرٍ صلبٍ وحدي من غير امرأةٍ بجواري، على الطريقة الملكية، لكن بأغطيةٍ كافية. أنا لا أدفئ[1] أبدًا سريري، لكن منذ أن بلغت سن الشيخوخة، صاروا يمنحونني، حين أحتاج لذلك، أغطيةً لتدفئة رجليّ وبطني. كان الناس ينتقدون سكيبيو الكبير بكونه نوامًا كبيرًا، وذلك في رأيي لسببٍ وحيدٍ وبسيطٍ هو أنهم لم يجدوا أمرًا آخر يؤاخذونه عليه، وإذا كنت ذا عنايةٍ خاصةٍ في بعض عوائدي، فبالأخص خلال وقت النوم، لكني أتخلّى عنها وأتكيف مع الضرورة عمومًا، مثلي مثل الآخرين تمامًا. النوم احتل فترةً طويلةً من حياتي، وأنا أستمر في عمري هذا في النوم ضربةً واحدةً لثماني أو تسع ساعاتٍ، كما أني أنفلت بامتيازٍ من هذا الاستعداد الكبير للكسل، وهو ما يجعلني أحس بنفسي أفضل، وأحس شيئًا ما بصدمة هذا التغيُّرِ، غير أن ذلك لا يأخذ أكثر من ثلاثة أيامٍ، بحيث لا أرى اليوم شخصًا يعيش بالنوم أقل مني حين يلزمني ذلك، وشخصًا يمارس حياته بثباتٍ أكبر، ولا تثقل الأشغال الشاقة على كاهله أقل مني. جسدي قادرٌ على العمل الحازم لا العمل المفاجئ والقاسي، وأنا أتهرَّبُ من التمارين العنيفة التي تجعلني أتصبَّبُ عرقًا، فأطرافي تتعب قبل أن تسخن. يمكنني أن أظل واقفًا خلال يومٍ كاملٍ ولا أكره التجوال، لكني منذ شبابي لا أحب السير على الطرقات المعبدة ممتطيًا جوادي، أما على الرجلين فإني أوسِّخ نفسي حتى العجيزة بروث بهائم العربات، والناس

(1) كانت الأغطية تدفأ بوضع مجمرٍ به نارٌ تحتها.

قصيرو القامة مثلي قد يتعرَّضون للصدم والدفع لأنهم تنقصهم الهيبة والوقار؛ ولكي أنعم بالراحة فضلت دومًا أن أكون ممدَّدًا، أو جالسًا ورجلاي مرفوعتان لفوق.

80. ليس ثمة انشغالٌ ممتعٌ أكثر من أن يكون المرء عسكريًّا، إنه نشاطٌ شريفٌ في ممارسته؛ لأن الشهامة هي الفضيلة الأقوى والأنبَل والأكثر مثارًا للإعجاب من كافة الفضائل، فليس ثمة منفعةٌ أصحُّ ولا أكثر كونيةً من فضيلة حماية أمان وعظمة البلاد، وكذلك فإن رُفقة العديد من الرجال الشباب النبيلين والنشطين لها ملذَّتها، كما أن الرؤية الدائمة لمشاهد مأساويةٍ، والحرية التي تطبع العلاقات الإنسانية من غير تكلفٍ أو اصطناعٍ، وطريقة الحياة المتسمة بالفحولة والخالية من الفخْفخة وتنوع الأعمال الكثيرة، والانسجام الفحولي للموسيقى الحربية التي تلهب النفس وتصون الأذن، وأخيرًا التشريفات المتصلة بهذا النشاط وصعوبته وقساوته، بالرغم من أن أفلاطون لا يعيرها اعتبارًا كبيرًا في جمهوريته، فيشرك فيها النساء والأطفال. أنت تختار دورك، والمخاطر التي ستتعرض لها تبعًا للحكم الذي تحكم به على سموّها وأهميتها، وبشكلٍ تطوُّعيٍّ، وأنت الذي تقدِّر إذا ما كانت حياتك مهدَّدةً فيها بالموت لأسبابٍ وجيهةٍ.

> «يبدو لي أن الموت وسط صليل السيوف أجمل وأبهى»[1].

81. إن الخوف من المخاطر التي تهدِّدُ العديد من الناس، وعدم جرأة المرء على ما تجرُؤ عليه نفوسٌ أخرى، بل شعبٌ بكامله، لأمرٌ خليقٌ بذوي القلوب الضعيفة والوضيعة بشكلٍ مفرطٍ. فأن يعيش المرء محاطًا بالآخرين أمرٌ يطمئن حتى الصبيان، وإذا ما فاقك آخرون بعلمهم ونعمتهم وثروتهم فعليك أن تؤاخذ الأسباب الخارجية، لكن إذا استسلمت لهم بسبب حزم أنفسهم فليس عليك أن تلوم إلا نفسك. الموت أحقر وأشدُّ انحطاطًا وضنًى في سريرٍ منه في ساحة الوغى، وأنواع الحمى والزكام مؤلمةٌ وقاتلةٌ مثلها مثل طلقة بندقيةٍ، ومن يستطيع

(1) Virgile, Énéide, II, v. 317.

التحمُّلَ برباطة جأشٍ مصائب الحياة العادية، لا يحتاج للنفخ في شجاعته كي يصبح جنديًّا.«**أن تعيش عزيزي لوكيليوس، يعني أن عليك بالمجاهدة**»[1].

82. لا أتذكَّرُ أني أُصبت في يومٍ ما بالجرب، فالحكَّة مع ذلك هي الجزء الأكثر لطفًا التي تقدمه لنا الطبيعة، وهي في متناولنا تمامًا، بيد أنها مزعجةٌ إلى حدٍّ تجاوز به السجن، وهي تصيبني بالأحرى في جانب الأذن التي تثير فيَّ الحكة أحيانًا.

83. ولدتُ وأنا أملك حواسًا في أحسن حالٍ وتقريبًا مكتملةً، ومعدتي جيدةٌ مثل رأسي، وهي تقاوم الحمَّى، ونَفَسي جيّدٌ أيضًا، لقد جاوزت بسنوات العمر الذي حدَّدتْ فيه بعض الشعوب نهايةً مستحقَّة للحياة، ولم تكن تسمح بتعدِّيه، لكني مع ذلك أعود مرَّةً بعد مرَّةٍ إلى حالي السابق، غير أنها مرَّاتٌ قصيرةٌ وغير أكيدةٍ كثيرًا، وهي من الوضوح بحيث ينقصها شيئًا من الصحة والكسل اللذين ميَّزا شبابي، وأنا لا أتحدث هنا عن القوة والمرح، فليس هناك من سببٍ كي تتبعاني خارج حدودهما.

«صارت قواي تمنعني من انتظار عشيقةٍ على العتبة وتحدي الماء الذي يصبُّ مدرارًا من السماء»[2].

84. وجهي وعيناي تخون حالي للتوِّ، وكافة تغيراتي تبدأ من هناك، وتبدو أكبر مما هي عليه حقًّا، وأنا غالبًا ما أثير شفقة أصدقائي قبل أن أحس بسبب ذلك، ومرآتي لا تدهشني، ذلك أني حتى في شبابي، حدث لي أن كشفت أكثر من مرَّةٍ عن وجهٍ ذي لونٍ كامدٍ ومشيةٍ مضطربةٍ لا تشي بالخير ومن غير مرضٍ مع ذلك، إلى درجةِ أن الأطباء الذين لم يجدوا علَّةً لذلك في باطني تفصح عن هذا التغيُّرِ، عَزوْا الأمر إلى نفسي وإلى هوًى خفيٍّ يستبد بي، بيْد أنهم كانوا على خطأ، فإذا كانت نفسي مطيعةً لي مقدار طاعة جسمي، فإننا كنا سنسير على راحتنا معًا، حينها فإن نفسي لم تكن فقط مُعفاةً من الاضطراب، وإنما تطفح بالرضا والفرح كما هي عادةً، جزئيًّا مزاجيًّا وجزئيًّا إراديًّا.

(1) Sénèque, **Épîtres ou Lettres à Lucilius**, XCVI.

(2) Horace, **Odes**, III, 10, vv. 19-20.

«روحي المريضة لا تؤثُر في جسدي»[1].

85. وأنا أعتقد أن هذا الاعتدال في روحي قد ساند مرارًا جسدي المهدود في سَقطاته، وهو اعتدالٌ وإن لم يكن مرحًا فهو على الأقل يُبقي روحي في حال هدوءٍ وراحةٍ. لقد أُصبت بالحمى الرباعية خلال أربعة أو خمسة أشهرٍ، ولقد شوهت كياني، غير أن روحي ظلت صامدةً، لا في حالٍ هادئةٍ ولكن في حالٍ لطيفةٍ، وإذا ما تركني الألم فإن الوَهَن والخمول لا يصيبانني، وأنا أعرف العديد من حالات الضعف الجسماني التي يكفي اسمها لإدخال الرعب للنفس، التي لا أهابها مقدار ما أهاب العديد من الأهواء والاضطرابات النفسية التي أصادفها من حولي، ولقد لزمت جانب الهدوء وعدم الجرْي بحيث يكفيني أن أجرْجر نفسي، فأنا لا أشكو من التدهور الطبيعي الذي يمسني.

«من سيندهش من لقاء شخصٍ مصابٍ بمرض الغدة الدرقية في جبال الألب؟»[2]

86. أنا راضٍ عن مخيِّلتي، فخلال حياتي داهمتْني القليل من الأفكار أزعجت فقط نومي، إلا تلك الناجمة عن الرغبة التي كانت تُفيقني من نومي من غير أن تنكِّدَ عليَّ. وأنا أحلم نادرًا، فيكون ذلك عبارةً عن أحلامٍ خارقةٍ وتهْويماتٍ ناجمةٍ عن أفكارٍ رائقةٍ، بالأحرى سخيفةٍ لا حزينةٍ. وأنا أعتبر من الصحيح أن أحلامنا هي ترجمانٌ لميولنا، بيْد أن تصنيفها وتأويلها فنٌ قائمٌ بذاته.

«ما يراه الناس في اليقظة ويتفكَّرون فيه وما يخشون، ليس من المدهش أن يروْه في منامهم»[3].

87. يقول أفلاطون أيضًا: إن مهمَّة الحكمة هي أن تستخلص من الأحلام تعاليم نبوئيةٍ للمستقبل. وليس لي ما أقوله بهذا الصدد سوى ذكر الحكايات المدهشة التي جاءت على لسان سقراط وكسينوفون

(1) Ovide, **Tristes**, III,8,v.25.
(2) Juvénal, **Satires**, XIII, v. 162.
(3) Cicéron, **De Divinatione**, I, 22, 45.

وأرسطو، وهي شخصياتٌ لا يمكن الشك في وثوق كلمتها. يقول المؤرخون: إن سكان الأطلس[1] لم يكونوا يحلمون أبدًا ولا يأكلون أي شيءٍ ميتٍ؛ وربما لهذا السبب لم يكونوا يحلمون. فنحن نعلم أن فيثاغوراس كان يأمر بإعداد طعامٍ معينٍ كي يحلم المرء بما يرغب فيه. وأحلامي أنا لطيفةٌ وعذبةٌ، فهي لا تسبب لي أيَّ اضطرابٍ ولا تجعلني أتكلم في نومي بصوتٍ مرتفعٍ، ومع ذلك فقد رأيت أناسًا من زمني كانت أحلامهم تسبب لهم إزعاجًا بالغًا. كان الفيلسوف ثيون*[2] يتجول خلال أحلامه، وخادم بيريكليس كان مُتسرْنمًا أيضًا على سطح بيته[3].

ملذات المائدة

88. وأنا في مائدة الطعام لا أختار أبدًا بين الأشياء الموجودة في الطبق؛ إذ إني أتناول أول شيءٍ منها يعْرض لي، ولا أحب الانتقال من نكهةٍ لأخرى، وإني لا أحب أيضًا وفرة الأطباق والخدمات مثلها مثل أي وفْرةٍ أخرى، بل إني أكتفي بالقدر القليل من الأطباق، وأكره رأي فافورينوس القائل إن من اللازم أن يرفعوا الأطباق التي بدأتَ في استلذاذها كي يضعوا أمامك أطباقًا جديدةً، وبأن الحساء يكون نافلًا إذا هم لم يتخموا الضيوف بأنواعٍ مختلفةٍ من الطيور، وأن الطائر الوحيد الذي يستحق أكله كليَّةً هو الطائر الصَّدَّاح.

89. اعتدت على تناول الأطباق المالحة، غير أني أفضل الخبز من غير مِلْحٍ، والخباز لديَّ لا يقدم لنا غيره في مائدتي خلافًا لعادة البلد. وفي طفولتي، كان على أسرتي مصارعة الرفض الذي كنت أقابل به الأشياء التي كان أبناء عمري يحبونها عادةً من سكرٍ وكعكٍ مطبوخٍ في الفرن، وكان مؤدِّبي يصارع فيَّ كراهيتي للأطباق الفاخرة معتبرًا ذلك ضعفًا فيَّ، وهو ما لم يكن مع ذلك سوى مظهرٍ لذوقٍ صعبٍ إزاء أي شيءٍ، فإذا ما نحن حَرمنا طفلًا من ميْلٍ خاصٍّ للخبز الأسمر واللحم المقدَّد أو الثوم، فإننا نحرمه

(1) سكان شمال إفريقيا.

(2) * فيلسوف وعالم رياضيات إغريقي عاش في القرن الأول الميلادي.

(3) Diogène Laërce, **Vies et doctrines des philosophes illustres**, IX.

أيضًا من شهية الأكل. ثمة من يعانون حين نقدم لهم طبق الحجل عوضًا عن لحم البقر أو اللحم المدخَّن، وهم محظوظون للأسف على ذلك لأن تلك ذَواقة الذَّوَّاقين. الذوق هو ما يصاحب الحياة الرخوة التي تؤول بها العادة وما هو عاديٌّ إلى السأم. «**إنه البذخ الذي نسعى به إلى الإفلات من الملل من الخيرات**»[1]. فحرمان النفس من شيءٍ لأن شخصًا آخر يتناوله، والتغذِّي بالبحث عن الطريقة الأكثر شخصيةً، ذلك هو جوْهر هذا العيب.

«**هل تخشى إذًا أن تأكل الخضراوات في طبقٍ عاديٍّ؟**»[2].

إننا نقف هنا على الاختلاف الموجود بين هذا الموقف ومسألة إكراه المرء لذوقه على تقبُّل الأشياء الأسْهل له الحصول عليها، لكن الخنوع يكون دومًا عيبًا. كنت أقول في ما مضى عن أحد أقربائي بأنه كان ذوَّاقًا، مع أنه فقد في فوضانا عادة استعمال السرير ونزع ملابسه للخلود إلى النوم.

90. لو كان لي أبناءٌ فإني سآمل لهم المصير نفسه الذي هو مصيري، فالأب الطيب الذي حباني به الله، والذي لا أكنُّ له غير العرفان بالجميل لطيبته التي كانت طيبةً معلنة، أرسلني منذ المهْد لأتربى في قريةٍ فقيرةٍ من قرى أملاكه[3]، وقد تركني هناك ما دمت بحاجةٍ لحاضنةٍ، بل إلى ما بعد ذلك، معوِّدًا إياي على أكثر الطرق العادية والبسيطة في العيش. «**في جوٍ منتظمٍ وقدْرٍ كبيرٍ من الحرية**»[4]. لا تمنحوا مسؤولية تربية أبنائكم للنساء ولا تأخذوها على عاتقكم، اتركوا لحظهم السعيد الفرصة لأن يتكون تبعًا للقوانين الفطرية، قوانين الشعب، اتركوا للعوائد أن تعوّدهم على البساطة والتقشُّفِ، بحيث سيكون من الأفضل لهم أن يتركوها لحياةٍ أرْغد على أن يتركوا الرغَد إليها. كان لفكرة أبي

---

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettre à Lucilius,** XVIII.

(2) Horace, **Épîtres,** I, 5, 2.

(3) يتعلق الأمر بقريةٍ صغيرةٍ على بعد ثلاثة كيلومتراتٍ من قصر مونتيني، وهو تقليدٌ يعود للقرن التاسع وتم التخلي عنه في ما بعد

(4) Sénèque, **Épîtres, ou Lettre à Lucilius,** CXXIII.

مرْمًى آخر يتمثَّلُ في أن يجعلني في تواؤمٍ مع الشعب، هذا النوع الإنساني الذي بحاجة لمساعدتنا، فقد اعتبر أن الأفضل لي أن أتوجه نحو مَن يبسط لي يده على مَن يدير لي الظهر؛ ولهذا السبب أيضًا جعل أناسًا من وضعيةٍ فقيرةٍ، يمسكون بي في جُرْن المعمودية في الكنيسة كي يربطني بهم ويجعلني أتعلق بهم.

91. ولقد نجح هدف أبي إلى حدٍّ ما، فأنا أتفانى في خدمة الناس المتواضعين، إما لأني أجد في ذلك مجدًا أكبر، وإما بعطفٍ ورحمةٍ فطريةٍ؛ إذ ذلك فيَّ إحساسٌ قويٌّ جدًا. والحزب الذي سأدينه في حروبنا الأهلية، سوف أدينه بشكلٍ أقوى لو كان مزدهرًا أكثر، وسأتقرَّبُ منه إذا ما كان بائسًا ويعيش الضنى. كم إني أقدِّر خيلونيس (ابنة وزوجة ملوك إسبرطة)[1]، فحين انتصر زوجها كليومبروتوس على أبيها ليونيداس، خلال الفتن التي عاشتها المدينة، تصرفت كابنةٍ بارَّةٍ، وانحازت للرجل المنفي وشاطرته وضعيته معارضةً الحزب الغالب، لكن مع تغير الأمور، ها هي تبدِّلُ موقفها وأحاسيسها ومعها مصير المعركة، بحيث انحازت إلى جانب زوجها الذي تبعته حيثما سارت به هزيمته، إنها على ما يبدو لي لم تفعل غير اختيار الحزب الذي رأت أنها ضروريةٌ له، وحيث كانت تبدو جديرةً بالرثاء. وأنا مفتونٌ عفويًّا بمثال فلامينيوس -الذي كان يهتم طواعيةً بمن كانوا بحاجةٍ إليه، لا بمن كانوا ذوي جدوًى له- أكثر من انجذابي لمثال بيروس، الذي كان ينبطح أمام العظام، ويستعظم أمام الصُّغار.

92. المأدبات الطويلة تُدخل لي الملل ولا تلائمني، بما أني معتادٌ ربما منذ صغري على الأكل أكثر طالما أنا أمامها؛ ولأني لا أعرف فعل شيءٍ آخر غير ذلك. وفي بيتي، بالرغم من أن لحظات الأكل أقْصر، فإني أجلس إلى المائدة بعد الآخرين، كما كان يقوم بذلك الإمبراطور أغسطس، غير أني لا أحاكيه في ترك المائدة قبل الآخرين كما كان يفعل ذلك، بالعكس أحب أن أبقى أطول من ذلك، لسماع القصص التي تُحكى على ألا أشارك فيها؛ ذلك أني أُتعب نفسي في الحديث وبطني ملآن، فيما أني أحس بالمتعة والإفادة في النقاش ولو بشكلٍ قويٍّ قبل الأكل. لقد كان لليونانيين والرومان

(1) Plutarque, **Vies Parallèles**, Agis et Cléomène, V.

القدماء سلوكٌ أفضل من سلوكنا، إذ كانوا يكرِّسون وقتهم للأكل حين لم تكن انشغالاتٌ أخرى تمنعهم عنه، باعتباره شيئًا أساسيًّا في الحياة، ويشربون بعجلةٍ أقلَّ منا نحن الذين نُسرع في عمل كل شيءٍ، كانوا يجدون فائدةً أكبر في هذه المتعة الطبيعية، مازجين إياها بمحادثاتٍ متنوعةٍ ومفيدةٍ ورائقةٍ.

93. أولئك الذين يهتمون بي يمكنهم بسهولةٍ أن يُخفوا عني ما يعتبرونه مضرًّا بي، ففي هذا الضرب من الأمور أنا لا أرغب ولا أطالب بأي شيءٍ لا أراه بأم عيني، لكنهم يضيعون وقتهم بنصحي بالامتناع عن الأشياء التي تعرض نفسها عليَّ، فحين أريد الصوم أتفادى أولئك الذين لا يصومون، وأرغب في أن يقدموا لي فقط أكلةً خفيفةً، لكن إذا ما جلست إلى المائدة، فإني أنسى قراري ذاك، وحين أطلب من خدمي تغيير إعداد طبقٍ ما من اللحم، يدركون أن شهيتي ضعُفت وأني لن أمسَّ الطبق، وحين أستطيع التحمل، أحب اللحوم غير المطبوخة تمامًا، وبعضها ذات الطعم الحادِّ. والشيء الوحيد الذي يزعجني في الأطباق هي صلابتها، بحيث لا أعير اهتمامًا لكافة مزاياها الأخرى، لكن، على عكس الرأي العامِّ، يحدث لي حتى في السمك أن أجد بينه ما هو طازجٌ جدًا أو صلبٌ جدًا. لا يعود ذلك إلى أسناني التي ظلت دومًا في حالٍ حسنةٍ بل ممتازةٍ، والتي لم يهدِّدها العمر إلا الآن، فقد تعلمت منذ صباي أن أحكها بفوطتي في الصباح وقبل الأكل وبعده.

94. وإن ربنا ليُسدل نعمته على من يسلب منهم الحياة رويدًا رويدًا، فالامتياز الوحيد للشيخوخة هو أن الموت يكون فيها في النهاية أقلَّ اكتمالًا وضنًى؛ لأنه لن يقتل إلا نصف أو ربع إنسانٍ. ها هي سنٌّ تسقط من غير ألمٍ أو جهدٍ، فقد بلغت حدَّ وجودها، فهذا الجزء مني وغيره كثيرٌ قد مات، وأجزاءٌ أخرى نصف ميِّتةٍ بعد أن كانت من بين الأجزاء الأكثر نشاطًا وفي الطليعة حين كنت في عزِّ شبابي. هكذا أنا أضمحلُّ وأنفلت من نفسي، وسيكون من البلادة العارمة أن يحس عقلي بهزَّة هذه السقطة المتقدمة كما لو كانت سقطةً كاملةً، فأنا لا آمل له ذلك.

95. وفي الحقيقة ما يعزِّيني أكثر حين أفكِّر في الموت هو أن يكون موتًا عاديًّا

وطبيعيًّا، وإنني لا يمكنني أن أن آمل من مصيري بنعمةٍ أو فضْلٍ ما، ولا أن أبتهل له بذلك. ولما كان للناس في سابق الأزمان هيئةٌ وقوامٌ أطول، تصوروا أن حياتهم كانت أطول، غير أنهم مخطئون في ذلك، فسولون الذي عاش في تلك الأزمنة القديمة، قد حدَّدَ تلك الحياة في سبعين عامًا في أقصاها. وأنا الذي أعجبتْه كثيرًا وبشكلٍ بالغٍ تلك «الرداءة الممتازة» للعصور القديمة، والذي جعل من المتوسِّط المقياس الأكثر كمالًا، كيف يمكنني أن أزعم أن تكون لي شيخوخةٌ غير عاديةٍ ومفرطةٍ؟ كل ما يعارض مسير الطبيعة يمكنه أن يكون مضرًّا، غير أن كل ما يتساوق معها يلزم أن يكون رائقًا. «**كل ما يسير حسب هوى الطبيعة يلزم اعتباره خيْرًا**»[1]؛ لهذا، كما يقول أفلاطون: «أقبل أن يكون الموت الناجم عن جرحٍ أو عن مرضٍ ما عنيفًا، بيْد أن الموت الذي يمسك بنا، حين تقودنا إليه الشيخوخة، هو من بين أشكال الموت الأشدِّ خفّةً، وبشكلٍ ما الأكثر عذوبةً». «**ما ينتزع الحياة من الشباب هو ضربةٌ عنيفةٌ قاصمةٌ، أما لدى الشيوخ فالنضج هو ما يجعل الحياة تسقط كما فاكهة بالغة النضج**»[2].

96. يمتزج الموت بالحياة في كل شيءٍ ومكانٍ ويختلط بها، فانحطاطنا يعلن عن ميعاده العاجل ويتسرَّب إلى مسير نمائنا نفسه. لديَّ صورٌ مرسومةٌ لي وأنا ابن الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، وحين أقارنها بما أنا عليه اليوم، كمْ أجد فيها من اختلافٍ عني، وكم أن صورتي الآن بعيدةً عن صوري تلك وعن صور موتي! وإنه لشططٌ في حقِّ الطبيعة أن نزعجها حتى نكرهها على أن نقوم بما نريد فعله، وأن نتخلى عن سلوكنا وعن أعيننا وأسناننا وأرجلنا ومعها الباقي تحت رحمة تدخُّلٍ خارجيٍّ نكون قد تسوَّلنا إليه، إلى حدِّ أنها تتعب من متابعتنا فتتركنا أخيرًا بين أيدي فن الطب.

97. لست كثير الوَلع بالسَّلطات والفواكه إلا البطيخ، وكان أبي يكره كل أنواع المرق، أما أنا فأحبها كلها. والأكل بإفراطٍ يحرجني، غير أني لست متأكدًا من أن أيَّ طبقٍ يمكنه أن يضرَّ بي بذاته، مقدار ما لا ألاحظ أثر

(1) Cicéron, **De Senectute**, XIX.

(2) Cicéron, **De Senectute**, XIX.

البدر في تمامه عليَّ أو أثر ربْعه الأخير، أو أن أميِّزَ بين الخريف والربيع. تحدث فينا حركاتٌ غير منتظمةٍ نحن نجهلها، من ذلك مثلًا أنني كنت ألتذ بالفجل في البداية غير أني انتهيت إلى كرْهه، وأنني اليوم أجد أنه يلائمني جيدًا. وأنا أحس معدتي وذوقي يتنوعان باستمرارٍ بخصوص العديد من الأشياء، فلقد مررت من النبيذ الأبيض إلى الوردي ثم إلى الأبيض، وأنا مولع بالسمك، وبذلك فإن أيام التخمة لديَّ هي أيامٌ عجاف، وأيام أعيادي هي أيام الصيام لديَّ، وإني أصدق ما يقوله البعض من أن السمك أسهل في الهضم من اللحم، وكما أني أحترس من أكل اللحم في يوم السمك، فإن ذوقي لا يحملني إلى المزج بين اللحم والسمك، ذلك أن الاختلاف بينهما يبدو لي كبيرًا.

98. منذ شبابي وأنا يحدث لي أن أقفز على بعض أوقات الأكل؛ كان ذلك لكي أحفِزَ شهيتي أكثر للغد، وإذا كان إبيقوروس يقوم بالصوم ويهيِّئُ أطعمةً خفيفةً كي يتدرَّبَ على التخلي عن الوفرة في الأطعمة، فإني، على العكس،أقوم بذلك لكي أستعد أفضل للتمتُّع بها بلذةٍ أكبر. لكني أحيانًا أقوم بالصوم كي أحافظ على قوَّتي لصالح بعض الأنشطة البدنية أو الفكرية؛ لأن العقل كما الجسد يغدوان بالغيْ الكسل لديَّ حين أكون شبعان -وأنا أكرهَ ما أكرهُ المباضعة البليدة للإلهة فينوس، السليمة الصحة والمرحة، مع باخوس ذلك الإله الصغير ذي الهضم العسير، والذي يتجشأ بعد أن ينتفخ بطنه بالريح- لكني أصوم أحيانًا لعلاج معدتي المريضة أيضًا، أو لأني لا أكون في رفقةٍ ترضيني. فأنا أقول، مثل إبيقوروس: إننا ليس علينا أن نعير اهتمامًا كبيرًا لما نأكل مقدار اهتمامنا بالأشخاص الذين نتقاسم معهم مائدة الأكل، وأنا أثني على خيلون الإسبرطي[1] : لأنه لم يرغب في الوعد بحضور مأدبةٍبيرياندروس قبل أن يعرف الضيوف الآخرين. وليس في نظري من تنظيمٍ للمائدة أكثر لطفاً، ولا من مرقٍ أكثر لذةً ممّا نستقيه من مجمَع الضيوف.

99. أعتقد أن الأسْلم للصحة هو الأكل الرائق والقليل والمتكرر، لكني أرغب في منح الأهمية للشهية وللجوع، فلن أجد متعةً في تناول ثلاثة أطباق أو

(1) أحد الحكماء السبعة الأسطوريين، وهذه الحكاية يرويها بلوتارخوس.

أربعة خفيفة، في اليوم، فُرضت عليَّ بوصفةٍ طبيةٍ، فمن سيضمن لي أنني سأستعيد في العشاء هذه الشهية الحادة التي أحسها هذا الصباح. نحن العجائز نستمتع بالأخص باللحظة الأولى التي نصادفها، لنتركِ الآمال والتنبؤات للكهنة والأطباء. والنتيجة الأكثر كمالًا لصحتي هي اللذة، فلنكتفِ إذًا بأول لحظةٍ معروفةٍ تعرض لنا، وأنا أتفادى أن أتَّبع باستمرارٍ قواعد الصوم، ومن يريد أن تكون لقاعدةٍ ما فائدةٌ له، عليه ألا يتبعها دومًا. نحن نعتادها فتخمد قوانا، وستة أشهرٍ بعد ذلك ستكون معدتك قد اعتادت عليها، بحيث إن الفائدة الوحيدة التي ستجنيها منها، ستكون فقدانك للحرية في أن تقوم بغير ذلك من دون أضرارٍ.

100. وأنا لا أغطي رجليَّ وفخذيَّ صيفًا وشتاءً إلا بجواربَ من الحرير؛ ولكي أداوي حالات زكامي كنت أحافظ على رأسي وبطني في الدفء، وذلك بسبب مرض الحصيّ الذي أعاني منه. وآلامي تعودتْ على ذلك بحيث سخرت من احتياطاتي المعتادة، وقد مررتُ من ارتداء جميع أنواع غطاء الرأس العادي منها والمبطَّن، وبِزَّتي كانت مبطَّنةً غير أن تبطينها لم يكن ذا قيمةٍ إلا من حيث المظهر، وعليَّ اليوم أن أضيف لها فرو الأرنب أو ريش النسر، وأن أضع قلنسوةً تحت قبعتي، وإذا ما أنا تابعت الأمر هكذا، فسنسير بعيدًا في هذه التغيرات، غير أني لن أفعل ذلك، بل إني سأتخلى طواعيةً عما بدأت فعله، لو جرؤت على ذلك. وإذا ما حدث لك حادثٌ مزعجٌ، فإن الترتيبات التي اتخذتَها لا تصلح لك في شيءٍ؛ إذ أنك تعودت عليها، وعليك البحث عن ترتيباتٍ أخرى، وهكذا تنهار صحة من يتورطون في حِمْيات صارمةٍ، ويُلزمون أنفسهم بها بشكلٍ متطيِّرٍ، وعليهم الانتقال من حِمْيةٍ لأخرى بحيث لا ينتهي الأمر أبدًا.

101. ولكي نكرِّسَ أنفسنا لمشاغلنا وللمتعة من الأجْدى لنا -كما كان القدماء يفعلون- التخلي عن أكلة الغداء، وتناول الطعام في الوقت الذي ندخل فيه البيت للراحة، وبهذا لا نقطع مسير اليوم. ذلك ما كنت أقوم به في الماضي، لكني من أجل صحتي، أقنعتني التجربة أن من الأفضل -على العكس من ذلك- تناول طعام الغداء، وأن الهضم يتمُّ بشكلٍ أفضل حين نكون في حال اليقظة.

الخمر

102.لا أحس كثيرًا بالعطش، لا حين أكون في صحةٍ جيدةٍ، ولا حين أكون مريضًا، وفي الحال الأخيرة يكون حلقي جافًا من غير أن أحس بالعطش، وأنا في العادة لا أشرب إلا مدفوعًا بالرغبة التي تأتيني في الماء وأنا أتناول طعامي، وبعد أن أكون قد قربتُ من الانتهاء منه، وإني أشرب ما يكفيني مقارنةً مع شخصٍ في سني. وفي الصيف خلال تناولي لأكلةٍ شهيةٍ، أجاوز بكثيرٍ الحدود التي وضعها الإمبراطور أغسطس لنفسه بثلاث مراتٍ[1]؛ ولكيْ لا أخرق قاعدة ديموقريطوس، الذي كان يمنع من التوقف عند الرقم أربعة لأنه فألٌ سيّئٌ، أبلغ عند الحاجة حتى خمس مراتٍ وهو ما يناهز لترًا من الماء، ذلك أن الكؤوس الصغيرة هي المفضلة لديَّ وأحب إفراغها بجرعةٍ واحدةٍ، وهو ما يتفاداه غيري باعتباره مُستهجنًا. وعادةً ما أعلو خمري لنصفه بالماء وأحيانًا لثلثه، وحين أكون بالبيت، وتبعًا لعادةٍ نصح بها الطبيب أبي ويتَّبعها هو بنفسه، يقوم الساقي بتحضير المزيج الذي أبتغيه خلال ساعتيْن أو ثلاث ساعاتٍ قبل الأكل. يُقال إن كراناوس ملك الأثينيين، هو مبتكر هذه العادة التي تتمثل في إعْلاء النبيذ بالماء، وسواءٌ كان ذلك مفيدًا أمْ لا، فالنقاش لا يزال جاريًا في هذا الشأن، وأنا أعتبر أمرًا صحيًّا ألا يتناول الأطفال الخمر إلا بعد السادسة أو الثامنة عشرة من عمرهم، والطريقة الجارية للحياة هي الأفضل، بحيث إن كل إسرافٍ في الشرب يلزم تفاديه حسب ما يبدو لي، وإني أكره الألمانيَّ الذي يُعلي خمره بالماء مقدار كرهي للفرنسيِّ الذي يشربه خالصًا، فالعادة الجارية هي التي تشكل القاعدة في هذه الأمور.

103.وأنا أخشى الهواء الثقيل وأتهرَّب من الدخان كما من خطرٍ قاتلٍ، وأول إصلاحٍ قمت به في بيتي كان يخص المدفئات وأماكن الراحة، التي تُعتبر العيبَ المعتاد وغير المحتمل للبنايات العتيقة. ومن بين مساوئ الحرب، أحسب تلك الغيوم من الغبار الكثيف التي غلَّفتنا في وقت الحرِّ خلال يومٍ كاملٍ من الصيف، وتنفسي منطلقٌ وسهلٌ، وحالات زكامي تمرُّ غالبًا من غير ألمٍ أو ضررٍ على رئتيَّ ومن غير سُعالٍ.

(1) Suétone, **Vies des Douze Césars Auguste**, 77.

104.وإني أخشى قساوة الصيف كما قساوة الشتاء، فعدا المساوئ الناجمة عن الحرارة، التي يصعب تفاديها كما البرد، وعدا ضربات الشمس على الرأس، فإن عينيَّ تتضرَّران من كل نورٍ قويّ. وفي الوقت الذي كنت أطالع فيه الكتب كثيرًا للتخفيف من وطأة بياض الورقة، كنت أضع على كتابي صفيحةً من الزجاج[1]، وهو ما كان يخفف كثيرا من ألم عينيَّ، وأنا لا أستعمل إلى اليوم النظارات، ونظري يعادل نظر أي شخصٍ آخر، والحق أني مع نهاية النهار أصبحت أجد صعوبةً في القراءة، بحيث إن ممارسة القراءة في ذلك الوقت وفي الليل كانت دومًا مصدرًا لتعب عينيَّ. تلك خطوةٌ إلى الوراء، غير أنني بالكاد أحسها، وسوف أتراجع خطوةً أخرى وثالثةً ورابعةً بشكلٍ هادئ، بحيث سوف أصاب بالعمى قبل أن أحس بتدهور بصري ووهَنه، وقبل أن تضع آلهة الحياة والموت حدًا لحياتنا، كما أني أتردَّد في الاعتراف بأن سمعي قد ضعف، وسترون أني حين سأصبح نصف أصمٍ، فإني سألوم من يحدثني بصوتٍ خفيضٍ. علينا أن نعرف نفسنا حقَّ المعرفة كي نجعلها تقبل بأنها تسْري سريانًا.

105.خطْوي حيويٌّ وثابتٌ، ولا أدري أبالجسد أم بالروح أجهَد أكثر في أن أُراوح في مكاني. والخطيب الواعظ الذي يتوصل إلى الإمساك بانتباهي خلال خطبةٍ دينيةٍ بكاملها هو شخصٌ استثنائيٌّ، في المراسيم الدينية حيث يكون كل الناس مهمومين بفحواها، وحيث رأيت نساءً وعيونهنَّ لا تحيد عنها، لم أستطع أبدًا أن أمنع جزءًا من الانفلات مني، ففي تلك الأمكنة الدينية وحتى حين أكون جالسًا لا أستطيع ملازمة مكاني. كانت خادمة الفيلسوف خريسيبّوس تقول عن سيدها إنه لا يكون سكران إلا بأرجله؛ لأن عادته كانت في تحريكهما في أيّ وقتٍ وأيِّ حينٍ، وهي كانت تقول ذلك لأن الخمر الذي كان يدوِّخ أصحابه لم يكن له عليه أثرٌ. بالشكل نفسه، قيل عني في صباي إنني كنت مصابًا بجنون الأرجل وبالزئبقية طالما كنت أحركهما، وطالما أنهما لم تكونا ثابتتين في مكانٍ بشكلٍ طبيعيٍّ، أينما حللتُ وارتحلتُ.

106.من قلة الحياء الأكل بشكلٍ شرهٍ كما أفعل أنا، عدا أن ذلك مضرًّا

(1) علينا التوضيح هنا أن الزجاج كان في تلك الفترة غير صافٍ تمامًا وذا لونٍ يميل إلى السمرة.

بالصحة بل حتى للذة التي نستقيها منه، وأنا مرارًا ما أعض لساني وأحيانًا أصابعي بسبب السرعة التي ألتهم بها طعامي. حين التقى ديوجينيس صبيًّا كان يأكل بشراهةٍ قام للتوّ بصفع مؤدِّبه.وكان في روما أناسٌ يعلِّمون الناس كيف يمضغون الطعام وكيف يمشون بأناقةٍ. والأكل بتلك الطريقة يُفقدني متعة الحديث التي تعتبر نكهةً لطيفةً من نكهات المائدة، حين يكون الكلام ملائمًا، أي رائقًا وموجزًا.

107.ثمة غيرةٌ وحسدٌ بين الملذَّات، فهي تتدافع وتزعج بعضها البعض. وألكيبياديس الذي كان عارفًا بفن المأكل والمشرب، كان يطرد الموسيقيين من مائدته حتى لا يزعجوا بموسيقاهم لذة المحادثات. وحسب أفلاطون، إن من عوائد الشعب أن يدعو الناس عازفي الآلات الموسيقية لمأدباتهم؛ لأنهم جاهلون بالخطابة الجيدة التي يعرف الناس المتأدِّبون كيف يتمتعون بها أيما متعةٍ، وكان فارّو ينصح من يقيم حفلًا أو مأدبةً أن يسهر أصحابها على أن يكون الضيوف ذوي هيبةٍ ووقارٍ، وأن يكون تواصلهم رائقًا، وألا يكونوا لازمي الصمت ولا متحلِّين بالثرثرة، وأن تكون الأطباق شهيةً والمكان نظيفًا، والكل مختارًا بعنايةٍ والوقت رائقًا. إنه حفلٌ يتطلب الكثير من الفن ويمنح الكثير من المتعة مقارنة مع لذة المائدة، ولا القادة العسكريون الكبار ولا الفلاسفة العظام تفضلوا بمعرفة ذلك وتعلَّموا ممارسته. وقد احتفظ ذهني بثلاثة حفلاتٍ حباها الحظ بلطفٍ خاصٍّ، في فتراتٍ مختلفةٍ من حياتي حين كنت شابًا. أما وضعي الحالي فإنه يطردني منها، فما يقدمه كل واحدٍ فيها يشكل جاذبيتها الأساسية، تبعًا للتهيؤ الجيد للجسد والنفس الذي يكون عليه حينها.

108.وأنا الذي يحب الأشياء المحسوسة، أمقت تلك الحكمة البشرية التي تجعلنا كارهين للعناية بالجسد وأعداءً لها، كما أني أعتبر من غير العدل أن يقبل المرء على مضَضٍ الملذات الطبيعية،كما أن يهتم بها بشكلٍ مفرطٍ. لقد كان خشايرشا رجلًا أبلهَ، فمع أنه كان محاطًا بكافة الملذات البشرية، كان يدفع المال لمَن يعثر له على ملذاتٍ مبتكرةٍ، لكن ليس ثمة من هو أبلهُ ممَّن يحرم نفسه من تلك التي توفرها له الطبيعة، فعلينا ألا نسعى للملذات ولا أن نتهرَّب منها، بل فقط أن نعرف كيفية قَبولها،

وأنا أستقبلها بصدرٍ رحبٍ، وبتسرُّعٍ أكثر من غيري، ولا أستسيغ لنفسي أن تنزلق مع منحدري الطبيعي، وليس من الضروري المبالغة في عدم جدواها، فهو أمرٌ نحسُّه بشكلٍ واضحٍ ويظهر بشكلٍ جليٍّ، ولنكنْ ممتنين في ذلك لعقلنا المريض المنكر للفرح، الذي يقزّزنا فيه كما يقزِّزنا منه، فهو يتعامل مع نفسه كما مع كل ما يتلقى، تارةً بالخير وتارةً بالشر، تبعًا لحاله الذي يكون نهمًا ومتسكّعًا ومتقلب المزاج.

«إذا لم يكن القدح طاهرًا فكل ما نصبُّه فيه يغدو مرًّا»[1].

109.وأنا الذي يتباهى بأنه يُقبِل إقبالًا على كل مباهج الحياة وبشكلٍ بالغٍ، حين أتأملها بعنايةٍ لا أجد فيها مع ذلك غير هباء الريح، نحن لسنا سوى هباء الريح، وحتى الريح التي تبدو أكثر حكمةً منا، تتمتع بالهوَج والإثارة، فهي تكتفي بما يستطيع فعله من غير أن يرغب في الصلابة والثبات، وهي مزايا ليست من صلبه.

110.بعضهم يزعمون أن الملذات الخالصة للروح كما منغِّصاتها أكبر، وذلك ما يعبر عنه ميزان كريتولاوس[2]، وليس في ذلك ما يدهشنا؛ فالعقل ينحتها على هواه في قلب المادة، وأنا أرى من ذلك يوميًّا العديد من النماذج الرائعة التي قد تكون مرغوبًا فيها، لكن بما أني ذو طبيعةٍ مختلطةٍ وفظَّةٍ، فإني لا يمكنني أن أقضم فقط من فاكهة الروح الخالصة، وأنصاع ببساطةٍ للملذات التي يقدمها لي القانون البشري والمشترك، باعتبارها حسيةً بشكلٍ عقليٍّ وعقليةً بشكلٍ حسيٍّ. ويزعم الفلاسفة القورينيون أن الآلام كما الملذات الجسمانية بالغة القوة؛ لأنها مزدوجةٌ، روحٌ وجسدٌ، ولأنها عاديةٌ أكثر.

111.ثمة أناسٌ، كما يقول أرسطون الخيوسي، من البلادة بحيث يجعلون التقزُّزَ في تعارضٍ مع ملذات الجسد، وأنا أعرف آخرين يقومون بذلك من باب الطموح، فلماذا إذًا لا يمتنعون عن التنفس؟ ولماذا لا يعيشون بباطنهم فقط ويرفضون النور؛ لأنه مجانيٌّ لا يطلب منه ابتكارًا ولا

(1) Horace, **Épîtres**, I, 2, v. 54.

(2) هو فيلسوف يوناني توفي عام 111 ق.م، هاجر إلى روما ولقي فيها نجاحًا كبيرًا، وقد اشتهر بالميزان الخيالي الذي كان يضع في كفةٍ منه الخيرات الدهرية، وفي الكفة الأخرى الخيرات الروحية، وكان يؤكد أننا حتى لو أضفنا للكفة الأولى الأرض والبحار، لما خفف ذلك من الكفة الثانية.

وقوة؟ وليتأكدوا من ذلك، فلْيسعوْا إلى أن يتغذوا من الإله مارس وبالّاس أو ميركوريوس، عوضًا عن فينوس وكيريس وباخوس. ألن يبحثوا عن تربيع الدائرة وهم يباشرون نساءهم؟ وأنا أكره أن نبقي الروح في الأعالي حين يكون جسدنا على المائدة، فأنا لا أريد تثبيت الروح إلى تلك المائدة وإنما أن تهتم بها، وأن تجلس إليها لا أن تتمدَّد عليها. كان أريستبّوس لا يدافع سوى عن الجسد، كما لو لم يكن لنا نفسٌ أو روحٌ؛ ولم يكن زينون يعترف بغير النفس كما لوْ ليس لنا جسدٌ. فهما معًا كانا على خطإٍ. ويُقال إن فيثاغوراس قد اتَّبع فلسفةً تأمليةً تمامًا، واتَّبع سقراط فلسفةً منذورةً كلها للفعل والأخلاق، وأفلاطون قد وجد فعلًا المجال الوسط، لكنهم يقولون لنا هذا كي يفصلوا في حكايتهم، والقياس الأصح يوجد لدى سقراط؛ فأفلاطون سقراطيٌّ أكثر منه فيثاغوريٌّ.

112.حين أرقص أكون راقصًا، وحين أنام أكون نائمًا، وحين أتنزَّه وحدي في بستانٍ رائعٍ، وإذا ما انشغل فكري بشيءٍ آخر برهةً، أعيده للنزهة وللبستان وللطف تلك الوحدة ولنفسي. لقد أبانت لنا الطبيعة عن حنوِّها الأموميِّ بجعلها الأعمال التي تُضطرنا إليها حاجاتنا أيضًا منبعًا للمتعة، وهي تدعونا إلى ذلك ليس بالعقل فقط وإنما بالرغبة أيضًا، ومن ثمَّ سيكون عملًا مُشينًا خرق قواعدها.

113.حين أرى يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر -المنشغليْن انشغالًا بالغًا بأعمالهما -يتمتعان أيّما متعةٍ بالملذات البشرية والجسمانية، الطبيعية والضرورية والحقة، فإني لا أقول عن ذلك إن الأمر يتعلق بتحرير النفس وإنما بتصليبها، وبأن إكراه تلك الاهتمامات العظيمة والحيوية على الانصياع للعادات اليومية يتطلب الكثير من القوة والشجاعة، فقد كانا حكيميْن باعتبار أن الانشغالات اليومية أمرٌ عاديٌ والأخرى أمرٌ خارقٌ.

114.نحن مجانين كبارٌ، فنحن نقول: «لقد قضى حياته في الكسل والخمول»، ونقول أيضًا: «لم أقمْ بفعل شيءٍ اليوم»، كيف ذلك؟ ألم تكن حيًّا؟ فالحياة ليست فقط الهمَّ الأساسيَّ لانشغالك، وإنما أيضًا الأكثر سموًّا. «لو كانوا وضعوا بين يديَّ شؤونًا هامةً، لأبنت لهم ما أستطيع فعله».

لكن هل عرفت على الأقل كيف تتفكَّرُ في حياتك والتكفُّل بها هي؟ فلو كنت قمت بذلك، لكان أهمَّ أعمالك في الدنيا.

115. لا تولي الطبيعة اهتمامًا لمصيرٍ عظيمٍ كي تبرز قدراتها وتثير نشاطها، فهي موجودةٌ في جميع طبقات الحياة الاجتماعية خلف الستار ومن غير ستارٍ. هل استطعتَ أن توازن سلوكك؟ فلقد عملت أكثر مما عمله بألف كتابٍ. هل عرفت كيف تأخذ قسطًا من الراحة؟ فلقد كان عملك هذا أفضل ممن استولى على مدنٍ أو ممالك. إن أفضل عملٍ للإنسان وأكثره مجدًا هو أن يعيش كما ينبغي له. والباقي كله، من مُلكٍ وكنز أموالٍ وبناء صروحٍ، ليس سوى توابع سخيفةٍ ونوافل لا غير. وأنا أنظر بمتعةٍ لجنرال جيشٍ عند فجوةٍ يريد الهجوم من خلالها، وهو يأخذ الوقت للتمتع بحريةٍ بغدائه وبمحادثة أصدقائه. وكذلك بروتوس- الذي كانت ضده الحرية الرومانية والأرض والسماء-كان يسرق من جولاته التفقُّدية بضع ساعاتٍ في الليل؛ لكي يقرأ ويكتب الحواشي على بوليبيوس بكامل السكينة والهدوء[1]. النفوس الصغيرة هي التي تنصاع للدَّفن تحت وطأة شؤونها، ولا تعرف كيف تنفلت منها، ولا تعرف كيف تتركها للعودة للاهتمام بها.

«أيها المحاربون الأشاوس الذين تحملتم معي أعوص المِحن، اغمسوا الآن همومكم في الخمر فغدًا سنبحر في أعالي البحار»[2].

116. وسواءٌ صارت العبارة «خمرٌ لاهوتيٌّ وسوربونيٌّ» -بمزاحٍ أو بجدٍّ- عبارةً عن مثلٍ سائرٍ في حفلات السوربون، فإني أعتبر عن حقٍّ أن أولئك الناس -بما أنهم يتندَّرون بها بشكلٍ سهلٍ ورائقٍ- قد قضوا صباحهم بشكلٍ مفيدٍ في ممارسة سلطتهم العَقَدية، فوعيهم بأنهم قضوا الساعات الأخرى في ما هو مفيدٌ يُعتبر بهارًا جيدًا ولذيذًا لمائدتهم، هكذا عاش الحكماء -كما كاتو الكبير والصغير- الذين كانوا يجتهدون جهدًا لا يُضاهى في استحقاق الفضيلة، ويتمتعون بمزاجٍ قاسٍ يكاد يجعلهم

(1) يحكي بلوتارخوس في «حياة بروتوس» أن بروتوس عندما انحاز لبومبيوس في معركة فارسالوس، قضى يومه السابق على المعركة في تأليف معجم لكتابات بوليبيوس.

(2) Horace, **Odes**, I, 7, vv. 30-32.

شرسين، والذين انصاعوا مع ذلك تدريجيًّا لقوانين الحياة البشرية، أي قوانين فينوس وباخوس، وإذا ما هم قد استلذُّوا الأمر؛ فلأنهم لم يقوموا في ذلك سوى باتباع مبادئ مدرستهم الفلسفية، التي تطلب من الحكيم الكامل أن يكون أيضًا عالمًا، بل خبيرًا بالتعاطي للملذات مقدار قدرته على تحقيق كافة الواجبات الحيوية الأخرى. «**على من يملك قلبًا حكيمًا أن يكون له أيضًا لسانٌ ذواقٌ**»[1].

117.يبدو لي أن الانشراح والحِلم يشرفان، بشكلٍ خاصٍّ، النفس القوية والكريمة. لم يكن إبامينونداس يعتبر أن الرقص والغناء وعزف الموسيقى، مع الشباب من مدينته، أمرًا يحيد به عن شرف انتصاراته المجيدة، وعن الحكمة البالغة لعوائده. أما سكيبيو الكبير، وهو شخصيةٌ تستحق أن يُعزى لها أصلٌ سماويٌ، فليس من بين أعماله ما يمنح له رشاقةً أكثر من أن نراه ينساق، بلامبالاةٍ وصبيانيةٍ، إلى الاستجمام وجمع المحار وممارسة لعبة «المهارة»[2] على شاطئ البحر مع جايوس لايليوس[3]، وإذا ما كان الجو ماطرًا، فإنه كان، لتزجية الوقت في الكتابة، يحرِّرُ الكوميديات التي يتحدث فيه عن أعمال الناس الأكثر انحطاطًا وفظاظةً[4]، ولقد كان يزور مدارس صقلية، وذهنه مليءٌ بالحملة العسكرية ضد حنبعل على إفريقية، متابعًا دروس الفلاسفة، مانحًا الذريعة للغبطة والحسد الذي كان يثير ذلك لدى خصومه في روما.

دفاعٌ عن سقراط

118.لم نر في حياة سقراط ما هو أروع من أن يجد الوقت رغم تقدُّمه في السن لتعلم الرقص وعزف الآلات الموسيقية، معتبرًا ذلك تزجيةً نافعةً للوقت، ولقد رآه الناس واقفًا يومًا وليلةً كاملين وهو في حالٍ

---

(1) Cicéron, **De finibus**, II, 8.

(2) لعبةٌ تتمثل في التقاط الأشياء من الأرض عنوًا.

(3) يبدو أن مونتيني هنا يمزج بين طباع سكيبيو(الإيميلي) وسكيبيو(الإفريقي).

(4) في زمن مونتيني، كانت مسرحيات بوبليوس ترنتيوس تُنسب لسكيبيو الإفريقي.

وجِدٍ، غارقًا في تفكيرٍ عميقٍ، في حضرة الجيش اليوناني بكامله[1]. ولقد كان الأول من بين الجنود البواسل الذي هرع لنجدة ألكيبياديس حين أحاط به الأعداء، حاميًا إياه بجسده ومُخرجًا إياه من حمى المعركة بالقوة وسلاحه بيده، وهو أيضًا الذي قام في معركة دليوم[2] بإيقاف كسينوفون الذي سقط عن فرسه، وهو الأول من بين شعب أثينا الذي كان غاضبًا مثله من رؤية تلك المهزلة، والذي سعى إلى تحرير ثيرامينيس، حين كان يقوده الطغاة الثلاثون[3] للموت على يد تابعيهم، ولم يتخلَّ عن ذلك إلا بعدما أثناه عنه ثيرامينيس نفسه مع أنه لم يكن معه إلا رجلان اثنان. كما أبان عن عفةٍ كبرى عند الضرورة حين كان متبوعًا بغلامٍ ذي جمالٍ أخاذٍ كان مغرمًا به، وقد شوهد دومًا يمشي حافي القدمَيْن لابسًا العباءة نفسها صيفًا وشتاءً، مجاوزًا كافة رفاقه بتحمله للتعب، متغذّيًا بالطريقة نفسها سواء في حياته اليومية أم خلال الحفلات والمأدبات،كما شوهد خلال سبع وعشرين سنةً لا تتغير ملامحه، وهو يتحمل الجوع والفقر وعقوق أبنائه وخدوش زوجته، وفي النهاية كان مآله الافتراء والطغيان والسجن والأصفاد والسمّ، وحين كان هذا الرجل يُدعى لمسابقة «من يشرب أكثر»، كان هو الذي يكون الفائز دومًا فيها، كما أنه لم يكن يرفض اللعب بحبات اللوز مع الصبيان، والتقافز معهم على ظهر حصانٍ من خشبٍ عن طيب خاطرٍ، ذلك أن كل هذا، كما تقول الفلسفة، يكون ملائمًا أيضًا للحكيم ويشرف قدْره، علينا ألا نتعب من تقديم هذا الرجل ، ولنا الحق في القيام بذلك، باعتباره مثال الكمال وصورته التامة. فثمة القليل النادر من الشخصيات التي تتمتع بالقوة والصفاء، ولقد أُلحق الضرر الكبير بالتربية لدينا، حين يتم في كل يومٍ اقتراح أسماء بلهاء وعرجاء، أي نماذج تلجمنا وبالأحرى تفسد عقولنا أكثر مما تصححها.

119.ما نفكر فيه بشكلٍ معتادٍ يكون خاطئًا، فمن الأيسر أخذ الأمور من طرفها، حيث الطرف يشكِّل حدًّا ومنتهًى ومرشدًا على أخْذها من

(1) كما جاء ذلك لدى أفلاطون في محاورة «المائدة».

(2) حسب ما رواه ديوجينيس اللائرتي. ودليون منطقة تقع في بيوتيا وسط بلاد اليونان.

(3) هي حكومة جاءت بعد مرحلة الديمقراطية، كانت مكونةً من ثلاثين قاضيًا، حكمت أثينا بعد الحرب البيلوبونيسية [المترجم].

الوسط الذي يكون واسعًا ومنفتحًا، ومن الأيسر العمل تبعًا للفن على العمل تبعًا للفطرة، لكن ذلك يكون أقل شرفًا وقدْرًا. فجلال النفس لا يتمثل في السموّ والاتجاه قُدُمًا إلى الأمام، بقدر ما يتمثل في معرفة المرء أن يظل في مكانه ويلْزمه. إنه جلالٌ يعتبر كل ما هو كافٍ عظيمًا، ويُبدي عن عظمته في تفضيل الأشياء المتوسطة على الأشياء السامية. فلا شيء أجمل وأكثر شرعيةً من لعب دور الإنسان كما يجب ذلك، ولا من علمٍ صلبٍ أكثر من أن يعرف المرء كيف يعيش جيدًا حياته بشكلٍ طبيعيٍّ، وإن أخطر أمراضنا هي احتقار ما نحن عليه، ومن يرغب في فصل نفسه عن جسده كي يوفِّرَ عليها العدوى، فليقمْ بذلك لو استطاع بشكلٍ جريءٍ حين يكون جسده عليلًا. لكن في الحالات الأخرى، على النفس بالعكس أن تساند الجسد وتميّزُه،كما عليها ألا ترفض المشاركة في ملذاته الطبيعية وتجد رضاها في ذلك كما في العلاقة الزوجية، وذلك بأن تمنحه، إذا هي كانت أكثر حكمةً منه، الاعتدال الضروريَّ فيها؛ خَشيةَ أن تؤدي به المغالاة فيها إلى الخلط بين المتعة وغيابها.

120.الغُلوُّ طاعون الشهوة، والاعتدال ليس رزْحًا عليه بل هو بهارُه. كان يودوكسوس يعتبر الشهوة الخير الأسمى، ورفاقه جعلوها ذات قيمةٍ رفيعةٍ، وقد تلذَّذوا بها في شتى أشكالها اللطيفة قائمين بذلك باعتدالٍ رائعٍ ومثاليٍّ، وأنا أريد أن تنظر نفسي للألم واللذة بالطريقة نفسها، بحيطةٍ واعتدالٍ. «**إن انبساط النفس في الفرح يستحق الإدانة مقدار ما يستحقه انكماشها في الألم**»[1]. فبالحزم نفسه يكون أحدها بشكلٍ مرحٍ والثاني بشكلٍ قاسٍ، وذلك تبعًا لما تمنحه النفس لنا سواء اهتمت بإطفاء الواحدة منهما أو ببسط الثانية. إن النظر بشكلٍ سليمٍ للحسنات يؤدي إلى النظر بشكلٍ سليمٍ للشرور والآلام، بإمكاننا تفادي الألم في البداية لأنه ضعيفٌ، كما يمكن تفادي اللذة في النهاية لأنها لذةٌ مفرطةٌ، وأفلاطون يربط بين الأمرين؛ إذ إنه يرى أن يكون دور الشجاعة في مصارعة الألم، ومحاربة الجاذبية المفرطة للشهوة بالشكل نفسه. إنهما مَعينان، وسيكون سعيدًا من يعرف كيف يرتوي منهما هناك حيث ينبغي له ذلك، ومتى ينبغي له ذلك، وكما ينبغي له

(1) Cicéron, **Tusculanes**, IV, XXXI.

سواءٌ تعلق الأمر بمدينةٍ أو بشخصٍ أو حيوانٍ. علينا مِن المَعين الأول لنا أن نرتوي متى كان ذلك ضروريًّا وبتقتيرٍ، ومن الثانية حين نكون عطشى لكن ليس حتى السكر، فالألم واللذة والحب والكراهية هي الأمور الأولى التي يحسها الطفل، وحين يحوز على العقل ويتلاءم معه، يؤدي ذلك إلى الفضيلة.

121.لديَّ معجمٌ خاصٌّ بي شخصيًّا، فأنا أقول إني أقصّرُ الوقت حين يكون الوقت غائمًا أو غير رائقٍ، لكن حين يكون صحوًا فأنا لا أقصرُهُ، بل أتلذَّذُ به وأتوقف عنده، علينا تقصير الأشياء السيئة بالجري وعلينا الوقوف عند الأشياء الحسنة. إن هذه التعابير العادية من قبيل «تقصير الوقت» أو «التسلية» تسم، بشكلٍ خاصٍّ،السلوك العاديَّ لأولئك الناس الحكماء، الذين يعتبرون أن ليس لهم ما يفعلون بحياتهم غير أن يتركوها تنساب وتنفلت منهم، ويتفادونها وينفرون منها، ويتجاهلونها ما استطاعوا ذلك. أما الحياة لديَّ فشيءٌ آخر تمامًا، فأنا أعتبرها، على العكس من ذلك، جديرةً بالتقدير والاعتبار حتى في نهاية مشوارها الذي أعيشه اليوم، فالطبيعة حبتْنا بها ومنحتها لنا باستعداداتٍ طيبةٍ بحيث لا يمكن أن نلوم إلا أنفسنا، إذا ما هي ثقلت علينا، وإذا ما انفلتت من بين أيدينا وصارت بلا جدوًى. «**حياة الأبله لا فرح فيها، وقلقلةٌ وتتجه كليةً نحو المستقبل**»[1]، ومع ذلك فأنا أستعد لمغادرتها غير آسفٍ عليها، لكن باعتبارها شيئًا علينا فقدانه لأن طبيعته كذلك، لا كشيءٍ مُضْنٍ ويصعب تحمله. الموت من غير ضَنَكٍ لا يلائم إلا من يحبون العيش الهانئ؛ فلكي يتمتع المرء بالحياة عليه المجاهدة في ذلك، وأنا أتمتع بها مرتين أكثر من الآخرين؛ لأن الاعتدال في مجال الملذات يرتهن بالاهتمام الكبير الذي نوليه لها، وبما أني أرى اليوم بالأخص أن حياتي قد صارت قصيرةً جدًا، فإني أسعى لأن أمنحها وزنًا أكبر، وإني أسعى إلى وقف انفلاتها السريع بسرعة الطريقة التي أمسكها بها، بحيث أعوِّضُ بقوَّةِ التمتُّع السرعةَ التي بها تنساب انسيابًا، فكلما أضْحت الحياة التي بقيت لي قصيرةً، كلما كان عليَّ أن أجعلها أعمق وأكثر امتلاءً.

---

(1) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**, XV.

122.يحس الغيرُ بلطف الرضا والرخاء، وأنا أحسهما أيضًا مثلهم، لكن ليس اعتباطًا وبسرعةٍ كما لو أني أنزلق عليهما، علينا بالعكس الاستلذاذ بها واجترارها لكي نحمد من وَهبنا ذلك. يتمتع الناس بالملذات الأخرى بالشكل نفسه الذي يتمتعون فيه بالنوم، من غير أن يتعرفوا عليها، وحتى لا ينفلت مني النوم عن غباءٍ مني، كنت أحب أن يأتي أحدٌ ليزعجني في نومي حتى أستطيع استعادته.

123.وإني أتداول مع نفسي في الرضا الذي أحسُّبه عن نفسي، وأنا لا ألامسه فقط وإنما أسبره وأُكْرِه عقلي الذي صار حزينًا لا يتحمُّله على احتضانه، وإذا ما كنت في حال سكينةٍ وجاءت شهوةٌ لتدغْدغني، لا أترك حواسي تسرقني مني، إذ أشرك في ذلك منّي النفْس، ولا يكون ذلك قصد المغامرة وإنما كي أحس نفسي على راحتي، وأنا لا قصد الضياع في الشهوة وإنما كي أستعيد فيها ذاتي، وأجعلها ترى نفسها في مرآة هذه الحالة الرائقة، مقدِّرةً السعادة الموجودة فيها ومتأملةً ومزكِّيَةً إياها، وبهذا تعرف قدْر الدَّيْن الذي عليها نحو الله؛ لأنها تعيش في وئامٍ مع ضميرها وأهوائها الباطنة، وتدرك أن لها جسدًا ذو استعداداتٍ طبيعيةٍ، وتتمتع، بشكلٍ مقيَّدٍ وملائمٍ، بالوظائف الطبيعية واللطيفة، التي شاء الله بنعمتها أن يعوضنا عن الآلام التي تلمُّ بنا بفضل عدله، وهي يمكنها أن ترى الحظ الذي لها في أن تسكن في ذلك الجسد، بحيث حيثما تولّي وجهها تكون السماء رائقةً حولها بحيث لا رغبةٌ ولا شكٌّ يلوِّثُ الهواء، ولا مشكلةٌ ماضيةٌ أو حاضرةٌ أو مقبلةٌ لا يجاوزها الخيال من غير أن يعيش الشقاء لذلك، وما أقوله هنا يستقي قوته من المقارنة التي يمكن أن أقيمها بين وضعيتي ووضعية الغير. وهكذا فإني أقدِّمُ نفسي في أوجهٍ عديدةٍ يحملها القدَر أو يحمل أخطائها الخاصة ويخلخلها، مثلي في ذلك مثل من هم قريبون جدًا مني، والذين يقبلون -برخاوةٍ بالغةٍ وبلا مبالاةٍ تامةٍ- حظهم السعيد. إنهم أناسٌ يقضون حقًّا حياتهم ويزجون وقتهم؛ إذ هم يجاوزون الحاضر وما يملكون في سبيل أمانيٍّ وصورٍ نافلةٍ يوفرها لهم خيالهم.

«كما تلك الأشباح التي يُزعم أنها تطير بعد الموت
أو تلك الأحلام التي تخدع حواسنا النائمة»[1].

(1) Virgile, **Énéide**, X, vv. 641-642.

إن تلك الظلال والصور تسرع وهي تبتعد وتتطاول كلما تعقبناها، وما نكسب في ملاحقتها هو أن نلاحقها أكثر وأكثر، مثلما قال الإسكندر الأكبر إن الهدف المضني للعمل هو العمل.

«معتقدًا أنه لم يعمل شيئًا طالما ما زال هناك ما يلزم عمله»[1].

124.ففيما يخصني إذاً، أنا أحب الحياة وأنمّي ذلك الحب لها كما شاء الله أن يمنحها لنا. ولا أبتغي أن تكون معفاةً من ملذة المأكل والمشرب، ويبدو لي أني سأقترف خطأً أقل قابليةً للعذر، إذا ما ابتغيت لها أن تتطلب ذلك بشكلٍ مضاعفٍ. **«فالحكيم يسعى بحرارةٍ إلى الخيرات الطبيعية»**[2]. وأنا لا أبتغي أيضًا أن نتغذى فقط بشيءٍ من ذلك العقَّار، الذي كان يقوم به إبامينونداس لقطع الشهية، وبقي بذلك على قيْد الحياة، ولا أن نلد ببلادةٍ أولادًا من الأصابع أو من أخْمَصِ القدمين، وإنما أفضِّل بجلال القول أن يكون ذلك بشهوانيةٍ. وأنا لا أبتغي أن يكون الجسد مُعفًى من الرغبة ومن غير إثارةٍ، فسيكون ذلك من باب الشكوى الجاحدة وغير الصحيحة، وأنا أقبل، عن طيب خاطرٍ وبعرفانٍ للجميل، ما منحته لي الطبيعة، فذلك يلائمني ويسعدني. إننا سنكون ظالمين في حقِ ذلك الواهب العظيم والجبار، إذا ما نحن أعدمنا تلك المنَّة وشوهناها، فكل شيءٍ طيبٌ، وكل ما خلق هو من الطيبات. **«وكل ما هو من الطبيعة له قدْرٌ كبير»**[3].

125.وأنا أتبنى من بين مبادئ الفلسفة تلك الأكثر صلابةً، أي الأكثر إنسانيةً والأقرب إلى أفهامنا، ومبادئي الخاصة متوائمةٌ مع مزاجي وسلوكي المتسميْن بالتواضع، وحسب ما أرى فالفلسفة ذات طابعٍ صبيانيّ كبيرٍ حين تعتلي المنبر؛ لتعظنا بأن المزاوجة بين الإلهي والدنيوي، والمعقول واللامعقول، والصارم والمتسامح، والنزيه وغير النزيه، ضربٌ من المزيج المتوحش، وأن المتعة الجسدية أمرٌ حيوانيٌّ ليس خليقًا بالحكيم

(1) Lucain, **La Guerre civile ou La Pharsale**, II, v. 637.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius, CXIX.**

(3) Cicéron, **De finibus**, V, 16.

أن يتذوقها، وأن اللذة الوحيدة التي عليه أن يستقيها من التمتُّعِ بزوجةٍ جميلةٍ في ريعان شبابها هو متعة ضمير العمل تبعًا لنظام الأمور، كما لو كان الأمر يتعلق باحتذاء نعليه للقيام بجولةٍ على صهوة الجواد. وأولئك الذين يتبعون مبادئ تلك الفلسفة، لن تكون لهم شرعيةٌ أكبر، ولا قوةٌ أكثر، ولا نصيب أوْفر لمباشرة نسائهم مقدار ما لدروسها وتعاليمها. وليس هذا هو ما يحدثنا عنه سقراط معلم الفلسفة ومعلمنا، فهو يقدِّرُ، كما ينبغي، المتعة الجسدية غير أنه يفضل متعة الروح؛ لأن لها قوةً أكبر وثباتًا أكثر وسهولةً وتنوعًا وكرامةً أوْفر، وهذا لا يعني أن تلك المتعة تسير وحدها في نظره، فهي ليست محرومةً من معنى الواقعية، بل هي فقط المتعة الأولى. فالاعتدال حسب سقراط هو مُعدِّلُ الملذَّات لا عدوُّها.

126.الطبيعة مرشدٌ لطيفٌ، غير أنها لطيفةٌ أكثر منها حكيمةً وعادلةً. «**علينا استكناه طبيعة الأشياء والنظر إلى ما تتطلبه فعلا**»[1]. وأنا أقتفي في كل مكانٍ أثر خطوها الذي أتلفناه بآثارنا المصطنعة، وذلك الخير الأسمى لدى فلاسفة الأكاديمية والمشائين[2]-المتمثل في الحياة حسب الطبيعة- غدا من ثمَّ صعب التحديد والتوضيح، مثله في ذلك مثل خيْر الرواقيين القريب منه، والمتمثل في أن يكون المرء في توافقٍ مع الطبيعة. أليس من الخطأ اعتبار أن بعض الأفعال أقلُّ شرفًا لأنها ضروريةٌ؟ لن ينتزع أحدٌ من ذهني فكرة أن زواج المتعة والضرورة زواجٌ ملائمٌ لنا، ذلك أن الآلهة كما يقول أحد المؤلفين القدماء[3] تتآمر على الدوام مع الضرورة.

127.لماذا إذًا ترانا نسعى لأن ندمِّرَ بذلك الطلاق صرْحًا نسجت أجزاؤه فيما بينها بشكلٍ قويٍّ وأخويٍّ؟ على العكس من ذلك علينا إعلاء ذلك الصَّرح بخدماتنا المتبادلة، فلْتوقظ الروح ثقل الجسد وتحييه، وليمسك الجسد بخفة الروح ويثبِّتها. «**ومع أنك تُعلي من النفس باعتبارها**

(1) Cicéron, **De finibus**, V, 16.

(2) الأكاديمية مكانٌ شمال شرقي أثينا حيث كان أفلاطون يجتمع بتلامذته، والمشاؤون هو الاسم الذي منح لأتباع أرسطو؛ إذ إن هذا الأخير كان يعطي دروسه ماشيًا.

(3)هو سيمونيديس الذي قال أفلاطون في كتاب «القوانين» على لسانه: «**الآلهة لا تحارب الضرورة**».

الخير الأسمى، وتُدين البدن باعتباره سوءًا، عليك في الحقيقة أن تعزَّ النفس بشكلٍ بدنيٍّ، وتتهرب من البدن بشكلٍ بدنيٍّ أيضًا، ذلك أنك تحكم على ذلك تبعًا للغرور البشري لا تبعًا للحقيقة الإلهية»[1]. ليس ثمة شيءٌ لا يستحق عنايتنا في هذا الحاضر الذي جعله لنا الله كذلك، فعلينا أن نقدم له تقريرًا بالغ الدقة عن ذلك، وليس من قبيل المهمة الصورية المحضة للإنسان أن يتصرَّف بما هو إنسانيٌّ، فهي مهمةٌ مستعجلةٌ وطبيعيةٌ وأساسيَّةٌ جدًا، ذلك أن الخالق قد أوكلها لنا بشكلٍ جديٍّ وصارمٍ. وحْدها السلطة يمكنها أن تسيِّرَ العقول العادية، وهي تكون سلطةً ذات وزنٍ أكبر لو عبرت عن نفسها في لغةٍ أجنبية، وما يشهد على ذلك هذا المقطع: **«هل يمكننا إنكار أن ماهية الغباء تتمثل في أن يفعل المرء ما عليه فعله متذمِّرًا وبشكلٍ رخْوٍ، وأن يدفع بالجسد في هذه الجهة وبالنفس في الجهة الأخرى، وأن يكون حائرًا بين حركاتٍ بالغة التعارض؟»**[2].

128.ولكي تتأكد من ذلك إذًا، قلْ لذلك الرجل أن يفصح لك عن التسليات والأفكار التي في ذهنه، والتي من أجلها ينفر فكره عن أكلةٍ لذيذةٍ، ويندم على الوقت الذي يقضيه في الطعام، فإنك سترى أنْ ليس ثمة ما لا طعمٌ له في مائدته أكثر من الحوار الذي يقيمه ذلك الشخص مع نفسه -بل من الأفضل لنا أحيانًا النوم التام أكثر من السهر على ما نسهر عليه- وستجد أن خطابه ومقاصده لا تساوي شذراته ذرَّات حساءك. وحين يتعلق الأمر بالفتنة التي سقط فيها أرخميدس فما أثر ذلك؟ وأنا لا أخلط بين هذا الحشد من الناس الذي هو نحن، وبين غرور الرغبات والأفكار التي تحيد بنا عما هو جوهريٌّ، وبين النفوس المحترمة التي تتسامى بحماس الورع والدين بالتفكر في الأمور الإلهية بثباتٍ وضميرٍ حيٍّ، والتي تذوق، مسبقًا وبأمل حيٍّ وجموحٍ، الطعام الأبديِّ باعتباره الهدف النهائي للرغبات المسيحية، ومن حيث هو اللذة الوحيدة الثابتة وغير الفاسدة. فهذه النفوس العظيمة تمقت الارتباط بخيراتنا

(1) SaintAugustin, **La Cité de Dieu**, XIV, V.

(2) Sénèque, **Épîtres, ou Lettres à Lucilius**,LXXIV.

البائسة المتأرجحة والغامضة، وتترك للجسد العناية بالغذاء الشهوانيّ والجسمانيّ واستعماله، ذلك ما تسعى إليه النفوس المصطفاة، وحتى أصدقكم القول، تلكم أشياء وجدت دومًا أنها تُمنح بشكلٍ غريبٍ، أعني الأفكار السماوية الفائقة، والسلوك الأرضي العميق.

129.رأى أيسوبوس -ذلك الرجل العظيم- يومًا سيّده يتبول وهو يتمشى، فقال له: «ماذا إذًا، هل سيكون علينا أيضًا أن نتغوَّطَ ونحن نجري؟ لننظمْ وقتنا، فلم يعد لنا منه وقتٌ للخمول أو للاستعمال السيّئ، ألن يكون لروحنا الوقت لعملٍ ما عليها عمله، بحيث تنفصل عن الجسد خلال الوقت القصير الذي يتطلبه هذا الأخير لقضاء حاجاته؟».

130.يريد الفلاسفة أن ينفلتوا من ذواتهم ومن ثمَّ الانفلات من الإنسان، الأمر ضربٌ من الجنون، فعوض أن يتحولوا إلى ملائكةٍ يتحولون إلى حيواناتٍ، وعوض أن يتساموْا ها هم ينحطون. هذا السلوك المتعالي يفزعني، مثلما تفزعني الأماكن العالية جدًا التي لا يمكن بلوغها. ولست أستسيغ شيئًا في حياة سقراط أكثر مما لا أستسيغه من فورات حماسته من «أعمال شيطانه»[1]. ولا شيء في نظري إنسانيٌّ لدى أفلاطون أكثر مما يجعل الناس تسميه «إلهيًّا». والعلوم التي توضع في أعلى الأعالي هي تلك التي تبدو لي من بين العلوم الأكثر انحطاطًا وفي الحضيض، وإني لا أجد في حياة الإسكندر الأكبر من الأشياء -الأكثر تواضعًا وفناءً- سوى أفكاره المجنونة المتعلقة بخلوده، فبما أنه سعد بالنبوءة التي جاءه بها يوبيتر آمون والتي بوّأته مكانة إلهٍ من بين الآلهة[2]، كان ردُّ فيلوتاس على إحدى رسائله بهذه المزحة الماتعة: «أنا سعيدٌ في ما يتعلق بك، لكن ثمة ما يجعلنا نأسى لمن سيكون عليهم أن يعيشوا ويطيعوا رجلًا يفوق قدْره المقاس البشري ولا يرضى بذلك».

«أنت تكون حاكمًا بالخضوع للآلهة»[3].

131. كان ما كتبه الأثينيون تكريمًا لدخول بومبّيوس مدينتهم ملائمًا لطريقة تفكيري.

(1) كان سقراط ينسب لشيطانه الخاص إلهامه الفلسفيّ وسلوكه.
(2) Quinte-Curce, **Histoire d'Alexandre le Grand**,IV, 7 et VIII, 5.
(3) Horace, **Odes**, III, 6 v. 5.

«أنتَ إلهٌ بمقدار
ما أنك تعرف أنك بشرٌ»[1].

132. إن معرفة المرء التمتع بذاته هو كمالٌ مطلقٌ ومن ثمَّ إلهيٌ -إذا جاز لنا القول- نحن نسعى إلى أشكالٍ أخرى في الوجود؛ لأننا لا نرغب في فهم أشكال وجودنا، ونحن نخرج من ذواتنا لأننا لا نعرف ما يجري فيها. كم تمشينا بركائز بهلوان، فحتى بالركائز تلك يكون علينا أن نمشي على أرجلنا، ونحن لا نكون جالسين على العرش الأعلى في العالم إلا على مؤخرتنا.

133. إن الحيَوات الرائعة في نظري، هي تلك التي تتلاءم مع الأنموذج المشترك والإنسانيّ وتكون منتظمةً بشكلٍ تامٍّ، لكن من غير حدوث أي شيءٍ خارقٍ، ومن دون فعلٍ غريبٍ، بيد أن الشيخوخة بحاجةٍ لأن تُعامل بحنوٍّ أكبر، لنوصِ بها لدى الرب الواهب للصحة والحكمة، لكن فلتكنْ حكمةً مرحةً واجتماعيةً.

«اسمح لي يا ابن الإلهة لاتونا[2]، أن أستمتع بالخيرات المكتسبة
بصحةٍ قويةٍ، وأبتهل لك أن أستمتع بعقلٍ في كامل قواه
اعملْ على ألا تكون شيخوختي عارًا
وأن تظل قادرةً على ملامسة القِيثَار»[3].

نهاية الكتاب الثالث

(1) Plutarque, **Œuvres mêlées**, Vie de Pompée.

(2) هي نفسها الإلهة ليتو ربة الأمومة في الأساطير الرومانية [المترجم].

(3) Horace, *Odes*, I, 31 vv. 17-20.

ملحق



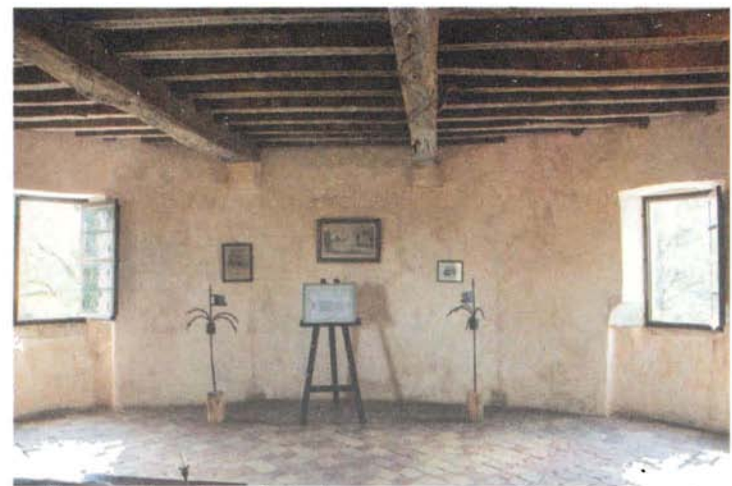
الصورة 1 : برج مونتيني، وفيه تقع مكتبته. البرج هو الأثر الباقي من القلعة الأصلية، وتقديرًا لأهميته التاريخية والثقافية صنفته الحكومة الفرنسية على أنه أثر تاريخي عام 1952.



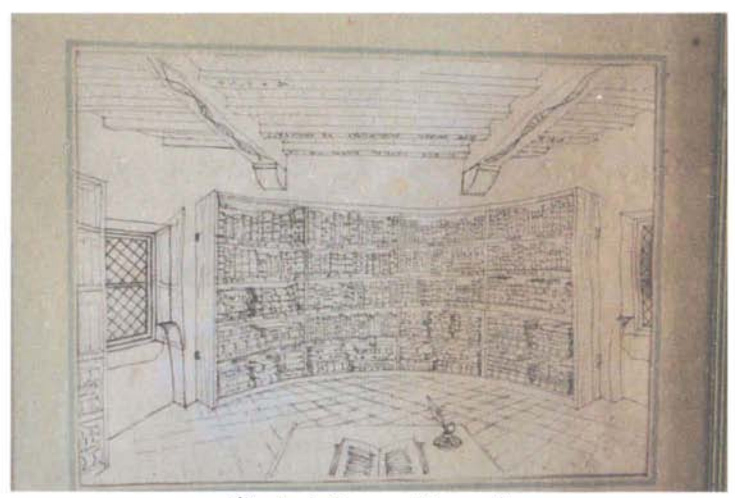
الصورة 2: مكتبة مشيل دو مونتيني



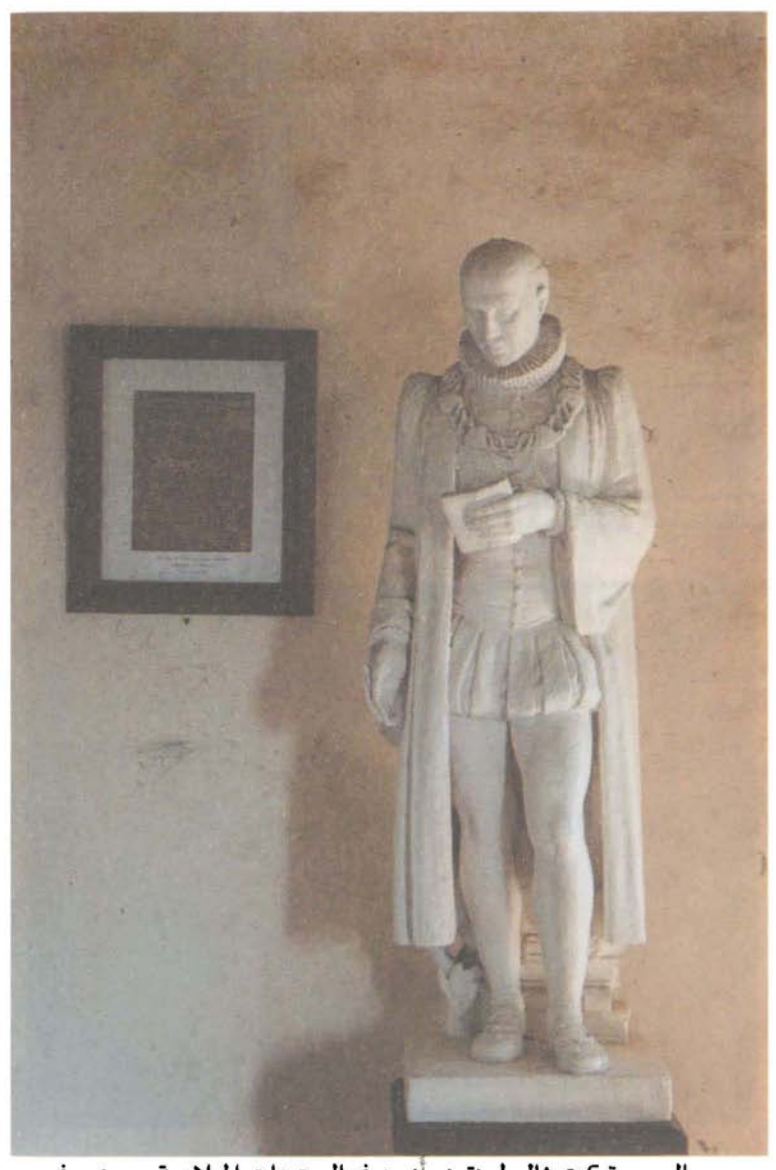
الصورة 3: جانب من مكتبة مونتيني



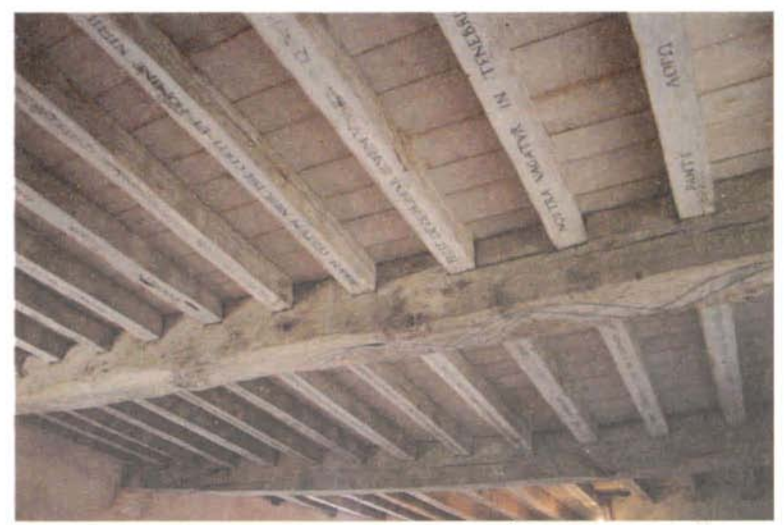
الصورة 4: حاملٌ لرسمٍ يتصور فيه الفنان كيف كانت لرفوف الكتب.



الصورة 5: رسم لرفوف الكتب.



الصورة 6: تمثال لمونتيني أنجِز في الستينات الميلادية، ووضع في مكتبته.



الصورة 7: سقف مكتبة مونتيني، عن قرب، محفورٌ على عوارضه الخشبية نقوشٌ باللاتينية واليونانية والفرنسية القديمة.



الصورة 8: جانب من العوارض الخشبية للسقف



الصورة 9: جانب من العوارض الخشبية للسقف

للقيام بجولة ثلاثية الأبعاد في مكتبة مشيل دو مونتيني:



بعض النقوش

COGNOSCENDI STVDIVM HOMINI DEDIT DEVS EIVS TORQVENDI GRATIA.

«منح الرّبُ للإنسانِ الرغبة في اكتساب المعرفة كي يعذّبه» -
سفر الجامعة 1

DVRVM SED LEVIVS FIT PATIENTIA QVIDQVID CORRIGERE EST NEFAS.

«إنه لأمرٌ عسير! لكن ما لا نستطيع تداركه، يجعله الصّبر أخفّ وقعًا» - هوراس – قصائد غنائية. 1.24.19

QVO ME CVNQVE RAPIT TEMPESTAS DEFEROR HOSPES

«ملجئي حيثما تقذفني العاصفة» -(هوراس – الرسائل I.i.14)

SI QVIS EXISTIMAT SE ALIQVID SCIRE NONDVM COG-
NOVIT QVOMODO OPORTEAT ILLVD SCIRE.

«من يعتقد أنه يعرف أي شيء حق المعرفة لا يفقه شيئًا على الإطلاق» - رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، 8 [2.].

ΚΑΙ ΤΟ ΜΕΝ ΟΥΝ ΣΑΦΕΣ ΟΥΤΙΣ ΑΝΗΡ
ΙΔΕΝ ΟΥΔΕΤΙΣ ΕΖΤΑΙ ΕΙΔΩΣ

«لم يحظَ أحدٌ قط بمعرفة الحقيقة، ولن يعرفها أحد» — زينوفانيس كما ينقل عنه ديوجانس اللايرتي وسيكستوس إمبيريكوس.

VAE QVI SAPIENTES ESTIS IN OCVLIS VESTRIS. ESA.5.

«ويلٌ للحكماء في أعين أنفسهم» - سفر إشعياء 5 [21.]

QVID ÆTERNIS MINOREM CONSILIIS ANIMVM FATIGAS

«لِمَ تُرهق عقلًا هزيلًا بخُطط المستقبل البعيد؟» - هوراس — قصائد غنائية II.11

ΟΥΔΕΝ ΟΡΙΖΩ

«لا أقرر شيئًا» - سيكستوس إمبيريكوس

ΕΙΗ ΜΟΙ ΖΗΝ ΑΠΟ ΤΩΝ ΟΛΙΓΩΝ ΜΗΔΕΝ ΕΧΟΝΤΙ ΚΑΚΟΝ

«قصيرةٌ هي حياة المرء، فاحمِ نفسك من الشرور» – ثيوجنيس، نقلًا عن جوانيس ستوبياس، جامع منتخبات أدبية من القرن الخامس بعد الميلاد.

ΟΡΩ ΓΑΡ ΗΜΑΣ ΟΝΤΑΣ ΑΛΛΟ ΠΛΑΝ

ΕΙΔΩΛ' ΟΣΟΙΠΕΡ ΖΘΜΕΝ Η ΚΟΥΦΗΝ ΣΚΙΑΝ

«فما نحن: كلّ من على قيد الحياة،

إلا أشباح، أو ظلالٌ عابرة» - سوفوكليس، مسرحية أياس 125-6، ورد في «في الجهل» لجوانيس ستوبياس.



الصورة10: الطبعة الأولى لـ«**مقالات**» مشيل دو مونتيني (1580).

مكتبة ذا نيو بيري، مكتبة جامع الكتب لوي إتش سيلفر، 1964.



ESSAIS
E MESSIRE
CHEL SEIGNEVR
MONTAIGNE,
EVALIER DE L'ORDRE
u Roy, & Gentil-homme ordi-
naire de sa Chambre.
RE PREMIER
& second.
A BOVRDEAVS.
illanges Imprimeur ordinaire du Roy.
M.D.LXXX.
C PRIVILEGE DV ROY.

الصورة 11: الصفحة الأولى للطبعة الأولى من «**مقالات**» مشيل دو مونتيني (1580).

مكتبة ذا نيو بيري، مكتبة جامع الكتب لوي إتش سيلفر، 1965.

ثبت بالمراجع

- Anacréon, *Odes*, http://remacle.org/bloodwolf/poetes/falc/anacreon/oeuvre.htm Aristote, Histoire des Animaux, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2000.
- Aristote, *Morale à Nicomaque*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, à partir de 1926.
- Arioste (L'), *Roland Furieux*, Garnier-Flammarion (Poche), 1993, 345 p., Coll. »Poésie étrangère». Ariosto Ludovico, Orlando Furioso, Einaudi, 2000,2 t., broché. coll. Einaudi Tascabili Classici.
- Aristote, *Politique*, Les Belles-Lettres, Coll. des Universités de France, 2003, 2e tirage - T. I: livres I et II, T. II: livres III et IV.
- Aristote, *Problèmes*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, à partir de 1926.
- Saint Augustin, *La Cité de Dieu*, Seuil, 2 tomes, Coll. Points sagesse, 3 vol., traduction de Louis Moreau (1846), revue par jean-Claude Eslin.
- Aulu-Gelle, *Nuits attiques*, Les Belles-Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, trad. R. Marache.
- Ausone, *Œuvres complètes*, C. L. F. Panckoucke, 2 tomes, 1843, En ligne à : http://remacle.org/bloodwolf/ historiens/ausone/table.htm.
- *Bible*, Seuil,1973, Traduction d'Émile Osty avec JosephTrinquet.
- Jean Bouchet, *Annales d'Aquitaine, faits & gestes en sommaire des roys de France & d'Angleterre...*, Jehan & Enguilbert de Marnef, Poitiers, 1545, Numérisation BNF: http://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k522330.
- Calpurnius, *Églogues*, Didot, 1860, in œuvres complètes de Stace, Martial, Manilius, Lucilius junior, Rutilius, Cratius Faliscus, Nemesianus et Calpurnius, traduction en français sous la direction de M. Nisard.

- Castiglione (Baldassare), *Il libro del Cortegiano*,Venise, 1528, Traduit en français par J. Chaperonen 1537.
- Catulle, *Poésies*, Les Belles Lettres, 2002, Coll. «Classiques en poche».
- Catulle, *Épigrammes*, Les Belles Lettres, 2002, Coll. «Classiques en poche ».
- Catulle, *Épithalame de Thétis et de Pélée*, Les Belles Lettres, 2002, Coll. Classiques en poche.
- César (Jules), *La Guerre civile*,les Belles-Lettres, Paris 1936,, 1987, trad. P.Fabre, livres I-II, réimpr. 1987, livre III 1982.
- Jules César, *La Guerre des Gaules*, Les Belles-Lettres, Paris, 1926, 19891990-, trad. L. A. Constans, 2 vol.
- ChrétiendeTroyes, *Le Chevalier de la Charrette*, Champion, 1969, Publié par Mario Roques d'après le Ms de Guiot.
- Cicéron, *Œuvres complètes*, Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *De natura deorum*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Coll. Universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *De Divinatione*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *De finibus*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *De natura deorum*, Belles-Lettres, Œuvrescomplètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *De Officiis*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue. [20] Cicéron, Paradoxes, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection des universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *Tusculanes*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.
- Cicéron, *Académiques*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• Cicéron, *Paradoxes*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• Cicéron, *De Senectute*, Belles-Lettres, Œuvres complètes. Collection Universités de France (G. Budé), bilingue.

• Cicéron(Quintus), *De petitione consulatus*, Firmin-Didot, 1968, Traduction Eusèbe Salverte, Auteurs latins supervisée par Charles Nisart, in Œuvres complètes de Cicéron, tome IV, 1968.

• Claudien, *Oeuvres*, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, série latine, 1936 et 1942, 2 tomes, texte établi et traduit par J.-L. Charlet.

• Commynes (Philippede), *Mémoires*, Les Belles Lettres, 1981.

• Cornelius Nepos, *Vie d'Atticus*.

• Cotton, *Les Essaisde Montaigne*, William Carew Hazilitt, 1877, Translated by Charles Cotton.

• Dante Alighieri, *La Divine Comédie,* La Différence, 2003 bilingue, traduction juxtaliéaire de Didier Marc Garin.

• Diogène Laërce, *Vies et doctrines des philosophes illustres*, Livre de Poche, 2003,10 livres. Diodore de Sicile, Sept livresdes Histoires de Diodorede Sicile nouvellement traduits de grecen françoys..., Michel de Vascosan, Paris 1574, Traduction Amyot.

• Du Bellay Martin et Guillaume, Les mémoires de mess. Martin du Bellay, seigneur de Langey..., 1569.

• Du Bellay (Joachim), *Les Regrets/LesAntiquités de Rome*, Gallimard, 1967.

• Erasme, *Adages*, in Œuvres et correspondance, coll.Bouquins, Laffont, Paris, 1992, édition de J.-C. Margolin et al.

• Flavius Josèphe, *Autobiographie*, Belles-Lettres, bilingue français-grec, 155 p., 1984, trad. André Pelletier.

• Froissart, *Chroniques*, Le Livre de Poche, coll. «Lettres Gothiques», 2001, Tome 1, Livres I -II. Gnomiques (poètes), Anonymes, Editions Crispin, 1569.

• Francisco Lopez de Gomara, *Histoire generalle des Indes Occidentales,*

et terres neuves, qui jusques à present ont esté descouvertes, composée en espagnol par François Lopez de Gomara & trad. en françois par le S. de Genille Mart., Fumée, 1605, Texte numérisé sur Gallica (1995).

- Goulart (Simon), *Histoire de Portugal [...] depuis l'an 1496 jusques enl'an 1578*[...], 1581.
- Guevara (Antoinede), *Épistres dorées, morales et familières de don Antoinede Guevare*, [...] traduites d'espagnol en françoys, Lyon, M. Bonhomme 15581560-, Guterry, Jeande(....-1581, 1581.
- Guichardin, *Histoire des Guerres d'Italie*, traduite de l'italien, de François Guichardin [Franceso Guicciardini], Londres,1738, tome I, lisible et téléchargeable sur Google Livres. Texte original italien sur http://digilander.libero.it/il_guicciardini/index.html.
- Hérodote, *L'enquête*, coll. Folio, Gallimard, Paris, 2vol., A. Barguet éd.,1985 et 1990.
- Homère, *l'Iliade*, Folio Classique, traduction de Paul Mazon, notes par Hélène Monsacré.
- Homère, *l'Odyssée*, Babel,1995, traduction en vers de F. Mugier.
- Horace, *Satires*, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris, 19271934-.
- Horace, *Épîtres*, Les Belles Lettres, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Paris, 19271934-.
- Horace, *Épodes*, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris - Œuvres, 3 vol., trad. F. Richard, GF-Flammarion, 19271934- - et 1967.
- Horace, *Odes*, Œuvres, 3 vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris et Œuvres, 3vol., trad. F. Richard, GF-Flammarion, 19271934- et 1967.
- Horace, *Art Poétique*, Œuvres, 3vol., texte et trad. franç. F. Villeneuve, Les Belles Lettres, Paris,19271934-.
- Horace, *Œuvres*, 3 vol, trad. F. Richard, GF-Flammarion, 19271934- et 1967.
- Juste Lipse, *Politiques*, 1886, in «Œuvres», Gand, Vyt.

- Lipse (Juste), *Deconstantia-Traité de la Constancede Just. Lipsius*, auquel, en forme de devis familier, est discouru de safflictions & principalement des publiques, & comme il se faut résoudre à les supporter, Tours, Claude de Montroeil et Jean Richer, 1594.
- Juvénal, *Satires*, Belles Lettres, Paris, 1921, 1983., P. de Labriolle et F. de Villeneuve.
- La Boétie (Estiennede), *Œuvres complètes*, Ed.William Blake and Co, ,1991 Ed.Louis Desgraves.
- Lactance, *Choix de monuments primitifs de l'Église chrétienne*, Delagrave, Paris,1882, trad. de J.-A.-C. Buchon.
- Lavardin, *Histoire de Scanderberg, roi d'Albanie*, G.Chaudière, Paris,1576.
- Le Goff (Jacques), *Saint Louis*, Gallimard,1996.
- Lucrèce, *De la Nature*, Les Belles Lettres, Coll. des Universités de France, 1972, 2 tomes, bilingue, trad. (prose) A. Ernout.
- Lucrèce, *De Natura Rerum - De La Nature*, Aubier Montaigne, Bibliothèque philosophique bilingue, 1993, Trad. juxtalinéaire par José Kany-Turpin.
- Luciende Samosate, *Philosophes à vendre*, Livre de Poche, 1996, trad. Odile Zink.
- Lucilius, *Satires*, Les Belles Lettres, Paris, 3 tomes, 1978, Trad. François Charpin.
- Lucain, *La Guerre civile ou La Pharsale*, Les Belles Lettres, 2003, Trad. Abel Bourgey.
- Macrobe, *Les Saturnales*, Les Belles Lettres,1997, traduction Ch. Guittard.
- Marche (Olivierdela), *Mémoires*, G. Roville, Lyon, 1562.
- Manilius, *Astronomica*, in œuvres complètes de Stace, Martial, Manilius, Lucilius junior, Rutilius, Gratius Faliscus, Nemesianus et Calpurnius avec leur traduction en français publiées sous la direction de M. Nisard-Didot, Paris,1860.
- Martial, *Épigramme*, Arléa, Paris,

- Mellin de Saint-Gelais, *Œuvres poétiques françaises*,éd.Par D. H. Stone, STFM, Paris, 1993.
- Nonius (Marcellus), *Compendiosa doctrina per litteras*,W.M. Lindsay,1903.
- Ovide, *Amours*, Les Belles Lettres, Coll. Classiques en Poche, 2002, Bilingue, Trad. Henri Bornecque; introduction et notes par Jean-Pierre Néraudau.
- Ovide, *Les Métamorphoses*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1972, éd. G. Lafaye, 3 tomes.
- Ovide, *Tristes*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1988.
- Ovide, *Remèdes à l'amour*, Mille et une nuits, 1997.
- Ovide, *Pontiques*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2000, B. G. Teubner- 1863 (Latin seulement).
- Ovide, *Amours*, Les Belles Lettres, Coll. Classiques en Poche, 2002, Bilingue, Trad. Henri Bornecque; introduction et notes par jean-Pierre Néraudau.
- Ovide, *Fastes*, Œuvres, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, éd. R. Schilling.
- Ovide, *Héroïdes*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, Trad. Henri Bornecque et M. Prévost.
- Palissy (Bernard), *Discours Admirables des eaux et des fontaines... chez Martin Le Jeune*, Paris, 1580., édition numérique, avec texte original et modernisé en regard, par G. de Pernon, 2002, http://numlivres.fr/Palissy.html.
- Perse (Aulus Persius-Flaccus), *Satires*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2003, éd. A. Cartault.
- Pétrarque, *Canzoniere*, Gallimard, Coll.«Poésie»,1983, Voir aussi: http://www.italica.it/canzoniere.html
- Pétrone, *Satyricon*, Les Belles Lettres, Traduction A. Ernout. Avec les Fragments attribués à Pétrone.
- Pibrac, (GuyduFaurde), *Quatrains*.

- Platon, *Les Lois*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, éd. A. Diès.
- Platon, *Théétète*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, sous la direction d'Auguste Diès.
- Platon, *La République*, Gallimard Coll. «Folio- Essais», 1993, Traduction de Pierre Pachet.
- Platon, *Œuvres complètes*, tome X: Timée, Critias, Les Belles Lettres, Coll. Univ. de France, 2002.
- Platon, *Œuvres complètes*, Gallimard, «La Pléiade», 2003, 2 tomes, traduction nouvelle de Léon Robin.
- Platon, *Le Politique*, Garnier-Flammarion, 203, trad. Luc Brisson, 316 p.
- Platon, *Le Banquet*, 1546, traduction latine de M. Ficin.
- Platon, *Gorgias*, in Œuvres complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1985, éd. L. Bodin.
- Platon, *Timée*, in Œuvres complètes, texte et trad., tome X: Timée, Critias, Les Belles Lettres, Coll. Des Univ. De France, 2002.
- Plaute, *Les Captifs*, inThéâtre complet, Gallimard-Folio Classique, 1991, éd. P. Grimal.
- Plaute, *Œuvres complètes*, P.Grimal, trad. et éd., 1971, Paris Gallimard, La Pléiade.
- Pline l'Ancien, *Histoire naturelle*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1951, éd. Jean Beaujeu.
- Pline Le Jeune, *Correspondance*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, 196888-, Tomes I à IV.
- Plutarque, *Œuvres mêlées*, 1572, Traduction Jacques Amyot. Michel de Vascosan, 1572 Paris (BNF «Gallica », fac-similé, téléchargeable).
- Plutarque, *Vies Parallèles*, Gallimard, Coll. «Quarto », 2001, trad. Anne-Marie Ozanam, éd.sous la direction de F. Hartog.
- *Priapea ou Diversorum veterum poetarum lusus*, Anonyme, Alde, Venise, 1517, Recueil de poésies licencieuses.

- Properce, *Elégies amoureuses-Cynthia*, éd. De l'Imprimerie Nationale, 2003, éd. De Pascal Charvet, bilingue latin-français.
- Prudence, *Oeuvres*, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Tome III, texte établi et traduit par M. Lavarenne.
- Pseudo-Gallus (Maximianus), *Poetae Latini Minores*, Baehrens, Leipzig, 18791923,7-vol ; édition numérique (http://www.thelatinlibrary.com/maximianus.htm).
- Publius Syrus, *Sentences*, Bibliotheca Augustana, (texte numérisé), http://www.hsaugsburg.de/harsch/Chronologia/Lsante01/Publilius/pub_sent.html#e
- Quinte-Curce, *Histoire d'Alexandre le Grand*, Gallimard Coll. Folio, 2007, éd. Claude Mossé et Annette Flobert.
- Quintilien, *Institution Oratoire*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, trad. Jean Cousin, 6 tomes.
- Ronsard, *Poésies choisies*, Classiques Garnier, 1969, introd. par Françoise Joukovsky.
- Salluste, *Histoires* (fragments), LesBelles-Lettres, 1946, 1994, éd. A. Ernout.
- Salluste, *La Guerre de Jugurtha*, Belles Lettres, Coll. «Classiques en poche», 2000, Trad. Alfred Ernout.
- Saxon le Grammairien ou Saxo Grammaticus, *Gesta Danorum ou Danorum regum heroumque historiae*, A. Holder, Strasbourg, 1858.
- Second [Jean Evraerts, dit Jean-], *Elégies*, in Œuvres complètes, H.Champion, Paris, 2005, (2volumes). Texte latin et français. Édition critique établie et annotée par Roland Guillot.
- Sénèque, *Les Phéniciennes*, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre; broché, 441 p. trad. F. R. Chaumartin.
- Sénèque, *Œdipe*, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Paris, Tome II: Œdipe-Agamemnon-Thyeste.
- Sénèque, *Dialogues*, Les Belles Lettres, 1971, t. 1: De la colère.

- Sénèque, *Épitres*, ou«LettresàLucilius», Texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, Trad. François Préchac.
- Sénèque, *Tragédies*, Les Belles Lettres, coll. des Universités de France, Paris, 2002, Tragédies, tome II: Œdipe, Agamemnon, Thyeste; broché, 336 p.
- Sénèque, *De Beneficiis*, Arléa, Coll. «Retour aux grands textes », Poche, 2005, trad. Aude Matignon.
- Sénèque, *Le Rhéteur*, Controverses et déclamations (latin), Teubner, Fac-sim. de l'éd. de Stuttgart: Teubner 1872., 1967, Texte latin disponible à : http://www.thelatinlibrary.com/seneca.suasoriae.html.
- Sénèque, *Consolation à Polybe*, Les Belles Lettres, Coll. Des Universités de France, Dialogues, tome III, 2005, trad. R. Waltz, 219 p.
- Sénèque, *De clementia*, De la clémence, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 2005.
- Sénèque, *Dialogues*, Les Belles Lettres, 1971, t.1: De la colère.
- Sénèque, *Hercule furieux*, Les Belles Lettres, Paris, trad. F. R. Chaumartin.
- Sénèque, *Les Phéniciennes*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Herculefurieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre, broché, 441p., trad. F.R. Chaumartin.
- Sénèque, *La Vie heureuse, la Providence*, Les Belles Lettres, coll. «Classiques en poche»,Trad. Abel Bourgey, René Waltz.
- Sénèque, *Les Troyennes*, Les Belles Lettres, coll. Des Universités de France, Paris, Tragédies, tome I: Hercule furieux, Les Troyennes, Les Phéniciennes, Médée, Phèdre; broché, 441p., trad. F. R. Chaumartin
- Sidoine Apollinaire, *Poèmes et Lettres*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 19601970-, texte établi et traduit par André Loyen, 3 vol.
- Silius Italicus (Tiberius), *De bello punico secundo XVII libri (La Guerre punique)*, Les Belles Lettres, 1982, Trad. Pierre-Jean Miniconi.

- Sophocle, *Ajax*, Les Belles Lettres, Coll. «Classiques en poche», 2002, édition bilingue, trad. Paul Mazon, texte établi par A. Dain.
- Stace, *Sylves, Les Belles Lettres*, coll. Universités de France, Paris, 1992, Texte établi par H. Frèreet traduit par H. J. Izaac. 2 tomes.
- Stace, *Thébaïde*, Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 19913 ,93- tomes.
- Saint Jérôme, *Lettres à Chromatia*, Les Belles-Lettres, Paris, 1949-1963, trad. J. Labourt, 8 vol.
- Stobée, *Fragments de Stobée*, Les Belles Lettres, 1983, présentés par André Festugière, I-XXIII.
- *Stoïciens* (Les), Gallimard, Collection Pléiade, 1962, Trad. Émile Bréhier.
- Suétone, *Vies des Douze Césars*, Les Belles Lettres, coll. Poche bilingue, 1975, Trad. Henri Ailloud, introd. et notes deJ ean Maurin.
- Tacite, *Annales*, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1976, 3 tomes, éd.de P. P, J. Hellegouarc'h, Paul Jal.
- Tacite, *Vie d'Agricola, La Germanie*, Les Belles Lettres, Coll. «Classique en poche», 2001, bilingue.
- Tacite, *Histoires*, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1992, 3 tomes, éd. De J. Hellegouarc'h, H. Le Bonniec, Paul Jal.
- Le Tasse (TorquatoTasso), *Jérusalem délivrée*, Gallimard, Folio Classique, 2002, Trad. De Michel Orcel (en vers libres no nrimés).
- Le Tasse (TorquatoTasso), *Rimes et prose*, Ferrare, 1585.
- Térence, *Œuvres complètes*, Gallimard, coll. La Pléiade, 1971, éd. Et trad. P. Grimal.
- Tertullien, *Apologétique*, Les Belles Lettres, coll. «Classiques en Poche », 2002,Texte établi et traduit par J.-P.Waltzing. Introd. et notes par Pierre-Emmanuel Dauzat.
- Tertullien, *La pudicité*, Le Cerf, coll. «Sources chrétiennes»,1993.
- Tibulle, *Elégies*, in Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, «Corpus

Tibullianum»,Coll. Budé des Universités de France, 1924, .

- Tite-Live, *Annales ou Histoire romaine*, Les Belles Lettres, Paris, 1943, éd. et trad. E. Lasserre, 1934; éd.Et trad. P. Jal, 19761970-, éd. Et trad. J. Bayet et G. Baillet.
- Valère Maxime, *Des faits et des paroles mémorables*, Les Belles Lettres; Collection des Universités de France, Paris, 2003, 2 tomes, Trad. Robert Combès.
- Virgile, *Énéide*, in Œuvres complètes, tome I, Ed. de La Différence, 1993, texte bilingue juxtalinéaire - trad. J.-P. Chausserie-Laprée.
- Virgile, *Bucoliques*, Gallimard, Coll «Folio», 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille.
- Virgile, *Géorgiques*, Gallimard, Coll «Folio», 1997, Bilingue, trad. Paul Valéry et J. Delille. [115] Xénophon, Mémorables, Œuvres, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1979, Trad. E. Delbecque.
- Virgile, *Égloges* in Œuvres, Hachette, Coll. «Classiques Latins», 1969.
- Xénophon, *Le Banquet* in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris, 1967, trad. E. Chambry.
- Xénophon, *Cyropédie*, in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll. Universités de France, Paris,1970, trad. E. Delbecque, .
- Xénophon, *Mémorables*, in Œuvres Complètes, texte et trad., Les Belles Lettres, coll.Universités de France, Paris, 1979, Trad. E. Delbecque.


MANA.NET



هذه هي الترجمة العربية الأولى لكتاب «المقالات» للفيلسوف الفرنسي الكبير مشيل دو مونتيني، والذي يُعدّ أحد أبرز كُتب التراث الإنساني، وفيه أولّ ظهور لفنّ المقالة. ظلّ هذا الكتاب على قوائم الفاتيكان للكتب المحظورة زهاء ثلاثة قرون، لكن حظره لم يكبحه عن الذيوع في أوروبا، والتأثير في كبار مفكريها، من عصر التنوير حتى العصر الحديث، ولقد دان العديد منهم لهذا الكتاب بالفضل في أدبهم وفلسفتهم.


ISBN 978-603-91637-1-8
9 786039 163718
الطبعة الأولى: 2021

